مدارك التنزيل وحقائق التأويل

تفسير النسفي

للإمام

أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

المتوفى سنة ٧١٠هـ رحمه الله تعالى

حققه وعلق عليه

الدكتور محمد محمد علي درويش

رئيس قسم الأحوال الشخصية

عضو هيئة التدريس في جامعة الإمام الشافعي بإندونيسيا

راجعه وقدم له

الدكتور أحمد محمد الفاضل

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم

عضو هيئة التدريس في كلية العلوم الإسلامية

جامعة السلطان محمد الفاتح في اسطنبول

المجلد الثاني

دار تحقيق الكتاب

للطباعة والنشر والتوزيع

دار تحقيق الكتاب

Title: Tafsir al Nasafi

Autor: Abd Allah b. Ahmed al-Nasafi

Editor: Dr.Mohamad al Darwish

Publisher: Dar Tahkik Al Kitab

Pages: 656

Year: 2018

Printed in : Lebanon

Edition: 1

الكتاب: مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)

المؤلف: عبد الله بن أحمد النسفي

تحقيق: محمد محمد علي درويش

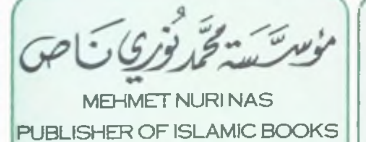
الناشر: دار تحقيق الكتاب

عدد الصفحات: 656 (المجلد الثاني)

سنة الطباعة: 2018

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى (لونان، ورق شاموا)





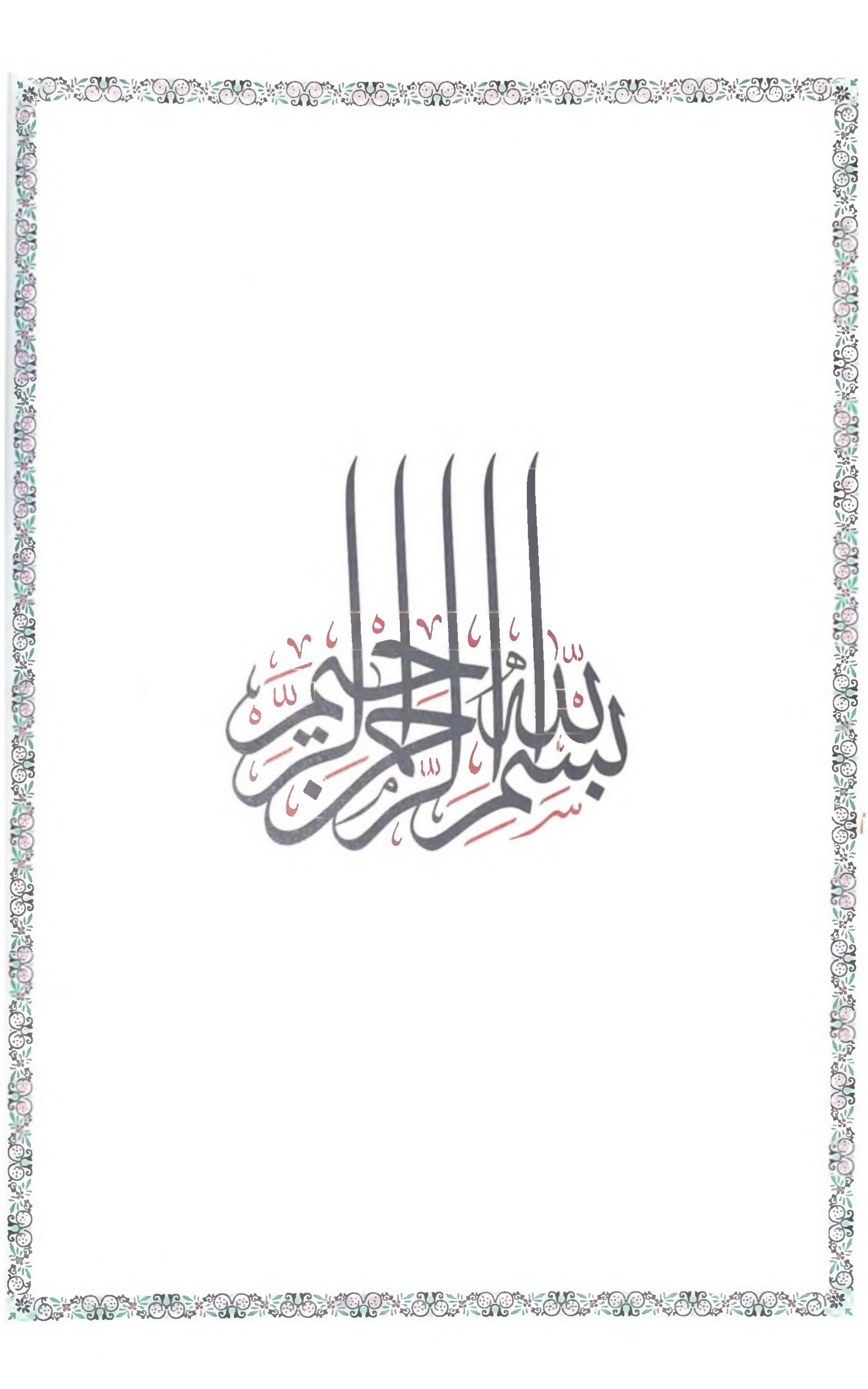
ISBN 978-9933-9252-0-8



DAR TAHKIK AL KITAB
Büyük Reşit Paşa Caddesi Yümni İş Merkezi
No:16/B D:8 Vezneciler/Fatih/İstanbul/Turkey : +9 (0212)5190979
Merkez :1.Cadde No:66 MİDYAT/MARDİN : +9 (0482)4622775
www. tahkikalkitab.com : info@tahkikalkitab.com

Dar Tahkik Al Kitab, Nursabah Yayıncılık
Matbaacılık Ltd.Şti'nin Tescilli Markasıdır
دار تحقيق الكتاب هي دار تابعة لمؤسسة دار نور الصباح


مدارك التنزيل وحقائق التأويل
تفسير النسفي
٢


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ ....

سورة يونس عليه السلام

مكية، وكذا ما بعدها إلى سورة النور، وهي مئة وتسع آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿الٓرۚ﴾ ونحوُه: ممالٌ: حمزةُ وعليٌّ وأبو عمرٍو[١]، وهو تعديدٌ للحروف على طريقِ التحدِّي، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: إشارةٌ إلى ما تضمنته السورةُ من الآياتِ، والكتابُ: السورةُ، ﴿ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾: ذي الحكمةِ؛ لاشتمالِه عليها، أو: المحكَمِ عن الكذب والافتراءِ.

《٢》 والهمزةُ في ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لإنكارِ التعجبِ، والتعجيبِ منه[٢]، ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾: اسمُ كان، و(عجباً): خبرُه، واللامُ في (للناس): يتعلقُ بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ (عجباً)، فلما تقدم.. صار حالاً، ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾: بأن أنذرْ، أو: هي مفسرةٌ؛ إذ الإيحاءُ فيه معنى القول، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ﴾: بأن لهم، ومعنى اللام في (للناس): أنهم جعلوه لهم أعجوبةً يتعجبون منه، والذي تعجبُوا منه: أن يوحَى إلى بشرٍ، وأن يكون رجلاً من أفناءِ رجالهم[٣]، دون عظيمٍ من عظمائِهم، فقد كانُوا يقولون: العجبُ أن اللهَ لم يجدْ رسولاً يرسلُه إلى الناسِ إلا يتيمَ أبي طالبٍ، وأن يذكرَ لهم البعثَ، وينذرَ بالنيرانِ، ويبشرَ بالجِنانِ، وكلُّ واحدٍ من هذه الأمورِ ليس بعجبٍ؛ لأن الرسلَ المبعوثين إلى الأممِ لم يكونُوا إلا بَشراً مثلَهم، وإرسالُ اليتيم أو الفقيرِ ليس بعجبٍ أيضاً؛ لأن الله تعالى إنما يختارُ للنبوة من جمعَ أسبابَها، والغنى والتقدمُ في الدنيا ليس من أسبابِها، والبعثُ للجزاء على الخير والشرِّ هو الحكمةُ العظمى، فكيف يكون عجباً؟ إنما العجبُ والمنكرُ في العقولِ تعطيلُ الجزاءِ، ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: سابقةً وفضلاً ومنزلةً رفيعةً، ولما كان السعيُ والسبقُ بالقدم.. سميت المسعاةُ الجميلةُ والسابقةُ قدماً، كما سُميت النعمةُ يداً؛ لأنها تُعطَى باليد؛ وباعاً؛ لأن صاحبَها يَبوعُ

---

(١) أي: أمال الراء. انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٦٦).

(٢) أي: لإنكار تعجب الكفار؛ ولتعجيب السامعين من تعجب الكفار.

(٣) من أفناء رجالهم؛ أي: لا يعرف بمال وجاه ورياسة مما يعدونه من أسباب العز، وليس المراد أنه غير معروف النسب؛ إذ إن نسبه الشريف أشهر من الشمس في رائعة النهار.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ ....

بها[1]، فقيل: لفلانٍ قدمٌ في الخيرِ، وإضافتُها إلى (صدق) دلالةٌ على زيادةِ فضلٍ، وأنه من السوابقِ العظيمةِ، أو: مقامَ صدقٍ، أو: سبقَ السعادةِ، ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾: إن هذا الكتابَ، ﴿لَسِحْرٌ مبين﴾: مدنيٌّ وبصريٌّ وشاميٌّ[2]، ومن قرأ (لساحر) فـ(هذا): إشارةٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وهو دليلُ عجزِهم واعترافِهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً.

«٣» ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: استولى؛ فقد تَقدَّسَ الديانُ عن المكان، والمعبودُ عن الحدودِ، ﴿يُدَبِّرُ﴾: يقضي ويقدِّرُ على مقتضى الحِكمةِ ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أمرَ الخلقِ كلِّه، وأمرَ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ والعرشِ، ولما ذكر ما يدلُّ على عظمتِه وملكِه من خلق السموات والأرضِ والاستواءِ على العرش.. أتبعَها هذه الجملةَ لزيادة الدلالة على العظمةِ، وأنه لا يخرج أمرٌ من الأمور عن قضائه وتقديرِه، وكذلك قوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾: دليلٌ على عزتِه وكبريائِه، ﴿ذَٰلِكُمُ﴾: العظيمُ الموصوفُ بما وُصفَ به ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وهو الذي يستحقُّ العبادةَ، ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: وحِّدوه ولا تشركوا به بعضَ خلقِه؛ مِن إنسانٍ أو مَلَكٍ فضلاً عن جمادٍ لا يضرُّ ولا ينفعُ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾: أفلا تتدبرون فتستدلون بوجودِ المصالحِ والمنافعِ على وجودِ المصلحِ النافعِ.

«٤» ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: حالٌ؛ أي: لا ترجِعون في العاقبةِ إلا إليه، فاستعِدُّوا لِلقائِه، والمرجِعُ: الرجوع، أو: مكانُ الرجوعِ، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: مصدرٌ مؤكِّدٌ لقولِه: (إليه مرجعكم) ﴿حَقًّا﴾: مصدرٌ مؤكِّدٌ لقوله: (وعد الله)، ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: استئنافٌ معناه التعليلُ لوجوب المرجعِ إليه، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الحكمةُ بابتداءِ الخلقِ وإعادتِه هو جزاءُ المكلفين على أعمالِهم، ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدلِ، وهو متعلِّقٌ بـ(يجزي) أي: ليجزيَهم بقسطِه، ويُوفيَهم أجورَهم، أو: بقسطِهم؛ أي: بما أقسطُوا وعَدَلُوا ولم يظلِمُوا حين آمنوا؛

---

(١) يَبوع: يَبْسطُ باعَه، والباعُ: قدرُ مدِّ اليدين وما بينهما من البدن.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٢).

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ ....

إذ الشركُ ظلمٌ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا أَوْجَهُ لمقابلةِ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤﴾، ولوجهٍ كلاميٍّ[١].

《٥》 ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ الياءُ فيه منقلبةٌ عن واوِ ضِواءٍ؛ لكسرةِ ما قبلَها، وقَلَبَها قُنبلٌ همزةً؛ لأنها للحركة أَحْمَلُ[٢]، ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ والضياءُ أقوى من النورِ؛ فلذا جعلَه للشمس، ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾: وقدرَ القمرَ؛ أي: وقدر مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾، أو: وقدره ذا منازلَ، كقولِه: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ أي: عددَ السنينَ والشهورِ، فاكتُفِيَ بالسنين؛ لاشتمالها على الشهور، ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾: وحسابَ الآجالِ والمواقيتِ المقدرةِ بالسنين والشهورِ، ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ المذكورَ ﴿إِلَّا﴾ مُلتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو الحكمةُ البالغةُ، لم يخلقْه عبثاً، ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: مكيٌّ وبصريٌّ وحفصٌ، وبالنون: غيرُهم[٣]، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ فينتفعون بالتأملِ فيها.

《٦》 ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: في مجيءِ كلٍّ واحدٍ منهما خلفَ الآخرِ، أو: في اختلافِ لونَيهما، ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الخلائق، ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾ خصَّهم بالذكر؛ لأنهم يحذرون العاقبة، فيدعوهم الحذرُ إلى النظر.

《٧》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: لا يتوقعونه أصلاً، ولا يُخْطِرُونه ببالهم؛ لغفلهم عن التفطن بالحقائق[٤]، أو: لا يَأْمُلون حسنَ لقائِنا كما يأمُلُه السعداءُ، أو: لا يخافون سوءَ لقائِنا الذي يجبُ أن يُخاف، ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من الآخرةِ، وآثروا القليلَ الفانيَ على الكثير

---

(١) أي: تفسيرُ القسطِ بالعدل فيه إشكال؛ لأن ما كان بطريق العدل.. فهو مستحَقٌّ لا محالة، والله لا يجب عليه شيء، فهو سبحانه إنما يَجزي الطائعين إفضالاً وإحساناً، لا استيجاباً واستحقاقاً. انظر «تأويلات أهل السنة» (٦/٨).

(٢) قرأ قنبل: ﴿ضِئاءً﴾. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٢)، وتوجيهها: أن الهمزةَ حرفٌ صحيحٌ، فهو أقوى على حملِ الحركةِ من الياء.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٢).

(٤) في المطبوع (١/٣٠٢): (للحقائق) وهو أولى.

﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ ....

الباقي، ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾: وسكنُوا فيها سكونَ مَن لا يُزعَجُ عنها، فبَنَوا شديداً، وأَمَّلُوا بعيداً، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾: لا يتفكرون فيها، ولا وقفَ عليه؛ لأن خبر إن:

《٨》 ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ فـ(أولئك): مبتدأٌ، و(مأواهم): مبتدأٌ ثانٍ، و(النار): خبرُه، والجملةُ: خبرُ (أولئك)، والباءُ في ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾: يتعلقُ بمحذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ، وهو: جُوزُوا.

《٩》 ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾: يُسَدِّدُهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوكِ الطريقِ السديدِ المؤدي إلى الثوابِ؛ ولذلك جُعِلَ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ بياناً له وتفسيراً؛ إذ التمسكُ بسبب السعادةِ كالوصول إليها، أو: يهديهم في الآخرة بنورِ إيمانِهم إلى طريقِ الجنةِ، ومنه الحديث: «إن المؤمن إذا خرج من قبره.. صُوِّرَ له عملُه في صورةٍ حسنةٍ فيقول له: أنا عملُك، فيكونُ له نوراً وقائداً إلى الجنة، والكافرُ إذا خرج من قبره.. صُوِّرَ له عملُه في صورةٍ سيئةٍ فيقولُ له: أنا عملُك، فينطلقُ به حتى يدخلَه النارَ»[1]، وهذا دليلٌ على أن الإيمان المجردَ مُنجٍ حيث قال: بإيمانِهم، ولم يَضُمَّ إليه العملَ الصالحَ، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾: متعلقٌ بـ(تجري)، أو: حالٌ من (الأنهار).

《١٠》 ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي: دعاؤُهم؛ لأن (اللهم) نداءٌ لله؛ ومعناه: اللهمَّ إنا نسبحُك؛ أي: يدعون اللهَ بقولهم: سبحانك اللهم؛ تلذذاً بذكرِه لا عبادةً، ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: يُحَيِّيْ بعضُهم بعضاً بالسلام، أو: هي تحيةُ الملائكةِ إياهم، وأضيف المصدرُ إلى المفعولِ، أو: تحيةُ اللهِ لهم، ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾: وخاتمةُ دعائِهم الذي هو التسبيحُ: ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾: أن يقولوا: الحمدُ لله رب العالمين، (أنْ): مخففةٌ من الثقيلة، وأصلُه: أَنَّهُ الحمد لله، والضميرُ: للشأن، قيل: أو: كلامُهم التسبيحُ، وآخرُه التحميد، فيبتدئون بتعظيمِ اللهِ وتنزيهِه، ويَختِمون بالشكر والثناءِ عليه، ويتكلمون بينهما بما أرادُوا.

《١١》 ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾ أصلُه: ولو يعجلُ اللهُ للناس الشرَّ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٧) عن قتادة.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ....

تعجيلَه لهم الخيرَ، فوُضِعَ (استعجالهم بالخيرِ) موضعَ: تعجيلِه لهم الخيرَ؛ إشعاراً بسرعةِ إجابتِه لهم، والمرادُ: أهلُ مكةَ وقولُهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] أي: ولو عجَّلنا لهم الشرَّ الذي دَعَوا به كما نُعجل لهم الخيرَ ونجيبُهم إليه ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾: لأُميتُوا وأُهلكُوا، ﴿لَقَضَى إليهم أجلَهم﴾: شاميٌّ[1]، على البناءِ للفاعل، وهو الله عزَّ وجلَّ، ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: شركهم وضلالِهم ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾: يترددون، ووجهُ اتصالِه بما قبله: أن قولَه: (ولو يعجل الله): متضمنٌ معنى نَفْيِ التعجيلِ، كأنه قيل: ولا نُعجل لهم الشرَّ، ولا نقضِي إليهم أجلَهم فنذرهم في طغيانهم؛ أي: فنمهلُهم ونُفيضُ عليهم النعمةَ مع طغيانِهم؛ إلزاماً للحجةِ عليهم.

《١٢》 ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: أصابَه، والمرادُ به: الكافرُ، ﴿ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ أي: دعا الله لإزالتِه، ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾: في موضعِ الحالِ؛ بدليلِ عطفِ الحالين؛ أي: ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ عليه؛ أي: دعانا مضطجعاً، وفائدةُ ذكرِ هذه الأحوالِ: أن المضرورَ لا يزالُ داعياً لا يفتُرُ عن الدعاء حتى يزولَ عنه الضُّرُّ، فهو يدعونا في حالاتِه كلِّها، كان مضطجعاً عاجزاً عن النهوض، أو قاعداً لا يقدرُ على القيام، أو قائماً لا يُطيقُ المشيَ، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾: أزَلْنا ما به ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي: مَضى على طريقتِه الأولى قبلَ مسِّ الضرِّ ونَسِيَ حالَ الجَهْدِ، أو: مرَّ عن موقفِ الابتهالِ والتضرعِ لا يرجع إليه، كأنه لا عهدَ له به، والأصلُ: كأنَّهُ لم يدعُنا، فَخُفِّفَ وحُذفَ ضميرُ الشأن، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك التزيينِ ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾: للمجاوزين الحدَّ في الكفرِ، زيَّنَ الشيطانُ بوسوستِه ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ من الإعراضِ عن الذكرِ واتباعِ الكفرِ.

《١٣》 ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يا أهلَ مكةَ، ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾: أشركُوا، وهو ظرفٌ لـ(أهلكنا)، والواوُ في ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾: للحالِ؛ أي: ظلَمُوا بالتكذيبِ وقد جاءتهم رسلُهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالمعجزاتِ، ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ إن بَقُوا ولم يُهْلَكُوا؛ لأن الله عَلِمَ منهم أنهم يُصرُّون على كفرِهم، وهو عطفٌ على (ظلموا)، أو: اعتراضٌ، واللامُ لتأكيدِ النفيِ؛ يعني: أن السببَ في إهلاكِهم تكذيبُهم الرسل، وعلمُ الله أنه لا فائدةَ في إمهالِهم بعد أن أُلزِمُوا الحجةَ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٢).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ ....

ببعثةِ الرسلِ، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الجزاءِ؛ يعني: الإهلاكَ، ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ وهو وعيدٌ لأهلِ مكةَ على إجرامِهم بتكذيبِ رسولِ اللهِ عليه السلام.

《١٤》 ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الخطابُ للذين بُعثَ إليهم محمدٌ ﷺ؛ أي: استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناها ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لننظرَ أتعملون خيراً أو شرّاً، فنعاملَكم على حَسَبِ عملِكم، و(كيف): في محلِّ النصبِ بـ(تعملون)، لا بـ(ننظر)؛ لأن معنى الاستفهام فيه.. يمنعُ أن يتقدمَ عليه عاملُه؛ والمعنى: أنتم بمنظرٍ منا، فانظرُوا كيف تعلمون؛ أبالاعتبارِ بماضيكم، أو الاغترارِ بما فيكم؟ قال عليه السلام: «الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإن الله مستخلفُكم فيها فناظرٌ كيف تعملون»[1].

《١٥》 ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ﴾: حالٌ، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لما غاظَهم ما في القرآن من ذمِّ عبادةِ الأوثانِ، والوعيدِ لأهل الطغيانِ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ ليس فيه ما يَغيظُنا من ذلك نتبعْك، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعلَ مكانَ آيةِ عذابٍ آيةَ رحمةٍ، وتُسقطَ ذكرَ الآلهةِ وذمَّ عبادتِها، فأُمِرَ بأن يُجيبَ عن التبديل؛ لأنه داخلٌ تحتَ قدرةِ الإنسانِ، وهو أن يضعَ مكانَ آيةِ عذابٍ آيةَ رحمةٍ، وأن يُسقطَ ذكرَ الآلهةِ.. بقولِه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ﴾: ما يَحِلُّ لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾: من قِبَلِ نفسِي، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾: لا أتبعُ إلا وَحْيَ اللهِ من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ ولا تبديلٍ؛ لأن الذي أتيتُ به من عندِ اللهِ، لا من عندي فأبدلَه، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بالتبديلِ من عندِ نفسي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: يوم القيامةِ، وأما الإتيانُ بقرآنٍ آخرَ.. فلا يقدرُ عليه الإنسانُ، وقد ظهرَ لهم العجزُ عنه، إلا أنهم كانوا لا يعترفون بالعجزِ، ويقولون: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ﴾ [الأنفال: ٣١]، ولا يحتملُ أن يريدُوا بقولِه: (ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدله) من جهةِ الوحْيِ؛ لقولِه: (إني أخافُ إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم)، وغرضُهم في هذا الاقتراحِ الكيدُ، أما اقتراحُ إبدالِ قرآنٍ بقرآنٍ.. ففيه أنه من عندِكَ، وأنك قادرٌ على مثله، فأبدِلْ مكانَه آخرَ، وأما اقتراحُ التبديلِ.. فلاختبارِ الحالِ، وأنه إن وُجِدَ منه تبديلٌ.. فيجعلُوا التبديلَ حجةً عليه، وتصحيحاً لافترائِه على الله.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ ....

«١٦» ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: أن تلاوتَه ليست إلا بمشيئةِ اللهِ وإظهارِه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات، وهو أن يَخرجَ رجلٌ أميٌّ لم يتعلمْ ولم يشاهدِ العلماءَ فيقرأَ عليكم كتاباً فصيحاً يغلبُ كلَّ كلامٍ فصيحٍ، ويعلُو على كلِّ منثورٍ ومنظومٍ، مشحوناً بعلومِ الأصولِ والفروعِ، والإخبارِ عن الغيوبِ التي لا يعلمُها إلا الله، ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾: ولا أعلَمَكم اللهُ بالقرآن على لساني، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾: من قبلِ نزولِ القرآنِ؛ أي: فقد أقمتُ فيما بينكم أربعين سنةً ولم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوِه، ولا قدرتُ عليه، ولا كنت متواصفاً بعلمٍ وبيانٍ فتتهموني باختراعِه، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ فتعلمُوا أنه ليس إلا من عندِ اللهِ، لا من مثلي، وهذا جوابٌ عما دسُّوه تحتَ قولِهم: (ائت بقرآن غير هذا) من إضافةِ الافتراءِ إليه.

«١٧» ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: يحتملُ أن يريدَ افتراءَ المشركين على الله في أنه ذو شريكٍ، وذو ولدٍ، وأن يكون تفادياً مما أضافُوه إليه من الافتراءِ، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾: بالقرآنِ، فيه بيانُ أن الكاذبَ على الله والمكذبَ بآياته في الكفر سواءٌ، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

«١٨» ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركُوا عبادتَها، ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾: إن عبدُوها، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: الأصنامُ ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في أمرِ الدنيا ومعيشتِها؛ لأنهم كانوا لا يُقرون بالبعث، ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، أو: يومَ القيامة إن يكنْ بعثٌ ونشورٌ، ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾: أتخبرونه بكونِهم شفعاءَ عنده؟ وهو إنباءٌ بما ليس بمعلوم لله، وإذا لم يكن معلوماً له وهو عالم بجميع المعلومات.. لم يكن شيئاً، وقولُه: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: تأكيدٌ لِنفيه؛ لأن ما لم يوجد فيها.. فهو معدومٌ، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾: نزَّهَ ذاته عن أن يكون له شريكٌ، وبالتاء: حمزةُ وعليٌّ[1]، و(ما): موصولةٌ أو: مصدريةٌ؛ أي: عن الشركاءِ الذي يُشركونهم به، أو عن إشراكِهم.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٣).

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ ....

《١٩》 ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: حنفاءَ متفقين على ملةٍ واحدةٍ، من غير أن يختلفوا بينهم، وذلك في عهدِ آدمَ عليه السلام إلى أن قتلَ قابيلُ هابيلَ، أو بعدَ الطُّوفان حين لم يذرِ اللهُ من الكافرين ديّاراً، ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾: فصاروا مِلَلاً، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: وهو تأخيرُ الحكمِ بينهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾: فيما اختلفُوا فيه، وليَمِيْزَ المحقَّ من المبطل، وسَبْقُ كلمتِه لحكمةٍ، وهي أن هذه الدارَ دارُ تكليفٍ، وتلك الدارُ دارُ ثوابٍ وعقابٍ.

《٢٠》 ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: آيةٌ من الآيات التي اقترحُوها، ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المختصُّ بعلمِ الغيبِ، فهو العالمُ بالصارفِ عن إنزالِ الآياتِ المقترَحةِ، لا غير، ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ نزولَ ما اقترحتمُوه، ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ لما يفعلُ اللهُ بكم؛ لعنادِكم وجحودِكم الآياتِ.

《٢١》 ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾: أهلَ مكةَ ﴿رَحْمَةً﴾: خِصباً وسَعةً ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ يعني: القحطَ والجوعَ، ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ أي: مكرُوا بآياتنا بدفعِها وإنكارِها، رُوِيَ: أن الله تعالى سلَّطَ القحطَ سبعَ سنين على أهلِ مكةَ حتى كادُوا يَهلِكون، ثم رَحِمَهم بالحيا[1]، فلما رَحِمَهم.. طَفِقُوا يَطعَنون في آياتِ اللهِ، ويعادُون رسولَ اللهِ ﷺ ويكيدُونه، فـ(إذا) الأولى: للشرطِ، والثانية: جوابُها، وهي للمفاجأة، وهو كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] أي: وإن تصبْهم سيئةٌ.. قَنَطُوا، وإذا أذقنا الناسَ رحمةً.. مكرُوا، والمكرُ: إخفاءُ الكيدِ وطيُّه؛ من الجاريةِ الممكورةِ: المطويةِ الخَلْقِ، ومعنى (مستهم): خالطتْهم حتى أَحَسُّوا بسوءِ أثرِها فيهم، وإنما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ولم يصفْهم بسرعةِ المكرِ؛ لأن كلمةَ المفاجأةِ دلتْ على ذلك، كأنه قال: وإذا رَحِمناهم من بعد ضراءَ.. فاجَؤُوا وقوعَ المكرِ منهم، وسارعُوا إليه قبلَ أن يغسلُوا رؤوسَهم من مسِّ الضراءِ، ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ يعني: الحفظةَ ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾: إعلامٌ بأن ما تظنونه خافياً.. لا يخفَى على الله، وهو منتقمٌ منكم، وبالياء: سهلٌ[2].

---

(١) الحيا: الغيث.

(٢) وهي أيضاً قراءة روح عن يعقوب. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٦٦).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ....

《٢٢》 ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: يجعلُكم قادرين على قطعِ المسافاتِ بالأرجلِ والدوابِّ، والفلكِ الجاريةِ في البحار، ويخلقُ فيكم السيرَ، ﴿يَنْشُرُكُمْ﴾: شاميٌّ[١]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السفنِ، ﴿وَجَرَيْنَ﴾ أي: السفنُ ﴿بِهِم﴾: بمن فيها، رجوعٌ من الخطابِ إلى الغيبةِ للمبالغةِ[٢]، ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: لينةِ الهُبوبِ، لا ضعيفةٍ ولا عاصفةٍ، ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾: بتلك الريحِ لِلِينِها واستقامتِها ﴿جَآءَتْهَا﴾ أي: الفلكَ، أو: الريحَ الطيبةَ؛ أي: تَلَقَّتْها ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾: ذاتُ عَصْفٍ؛ أي: شديدةُ الهبوبِ، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ هو: ما عَلَا على الماءِ، ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البحر، أو من جميعِ أمكنةِ الموجِ، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾: أُهْلِكُوا، جُعِلَ إحاطةُ العدوِّ مثلاً في الهلاكِ ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غيرِ إشراكٍ به؛ لأنهم لا يَدعون حينئذٍ معه غيرَه، يقولون: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الأهوالِ، أو من هذه الريح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ لنعمتِكَ، مؤمنين بك، متمسكين بطاعتك، ولم يجعلِ الكونَ في الفُلْكِ غايةً للتسيير في البحر، ولكن مضمونَ الجملةِ الشرطيةِ بعد (حتى) بما في حيِّزِها، كأنه قيل: يُسيرُكم حتى إذا وقعت هذه الحادثةُ وكان كيتَ وكيتَ مِن مجيءِ الريحِ العاصفِ، وتراكُمِ الأمواجِ، والظنِّ للهلاكِ، والدعاءِ بالإنجاءِ[٣]، وجوابُ (إذا): (جاءتها)، و(دعوا): بدلٌ مِن (ظنُّوا)؛ لأن دعاءَهم من لوازمِ ظنِّهم للهلاك، فهو ملتبسٌ به[٤].

《٢٣》 ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يُفسدون فيها ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: باطلاً؛ أي: مُبطلين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: ظالمُكم يرجعُ عليكم، كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٣).

(٢) أي: للمبالغةِ في تقبيحِ حالهم، كأنه أعرض عن خطابِهم، وحَكَى لغيرهم سوءَ صنيعِهم. انظر «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٥/ ١٧).

(٣) أي: أن كونَهم في الفلك متقدمٌ على التسيير في البحر، وغايةُ الشيءِ تكون بعده، فلذا كانت غايةُ التسيير هي الكونَ في الفلك وما عطفَ عليه، وهذا المجموع بعد التسيير في البحر، فصح كونه غاية. انظر «الإكليل» (٤/ ٢٠٧).

(٤) فهو بدل اشتمال، وقيل: جملة (دعوا) استئناف بياني جوابٌ لسؤالٍ مقدرٍ، كأنه قيل: فماذا كان حالهم إذ ذاك؟ فقيل: دعوا الله. انظر «الدر المصون» (٦/ ١٧٣).

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ....

﴿فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: حفصٌ؛ أي: تتمتعون متاعَ الحياةِ الدنيا، و(على أنفسكم): خبرٌ لـ(بغيُكم)، غيرُه: بالرفع، على أنه خبرُ (بغيُكم)، و(على أنفسكم): صلتُه[١]، كقوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]؛ ومعناه: إنما بغيكم على أمثالِكم، أو: هو خبرٌ، و(متاع): خبرٌ بعدَ خبرٍ، أو: (متاعُ): خبرُ مبتدأٍ مضمرٍ؛ أي: هو متاعُ الحياةِ الدنيا، وفي الحديث: «أسرعُ الخيرِ ثواباً صلةُ الرحم، وأعجلُ الشرِّ عقاباً البغيُ، واليمينُ الفاجرةُ»[٢]، وروي: «ثِنتان يُعجِّلُهما اللهُ في الدنيا: البغيُ وعقوقُ الوالدين»[٣]، وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: لو بغَى جبلٌ على جبلٍ.. لَدُكَّ الباغي[٤]، وعن محمدِ بنِ كعبٍ: ثلاثٌ من كنَّ فيه.. كنَّ عليه: البغيُ والنكثُ والمكرُ، قال الله تعالى: (إنما بغيكم على أنفسكم)[٥]، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾: فنخبرُكم به ونجازيكم عليه.

《٢٤》 ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: من السحاب، ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾: بالماء ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فاشتبكَ بسببه حتى خالطَ بعضُه بعضاً، ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني: الحبوبَ والثمارَ والبقولَ، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ يعني: الحشيشَ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾: زينتَها بالنباتِ واختلافِ ألوانِه، ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾: وتزينت به، وهو أصلُه، فأدغمتِ التاءُ في الزاي، وهو كلامٌ فصيحٌ، جُعِلَت الأرضُ آخذةً زخرفَها على التمثيلِ بالعَروسِ إذا أخذت الثيابَ الفاخرةَ من كلِّ لونٍ فاكتستْها وتزينتْ بغيرِها من ألوانِ الزِّيَنِ، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾: أهلُ الأرضِ ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾: متمكنون من منفعتِها، محصِّلُون لثمرتِها، رافعون لِغَلَّتِها ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾: عذابُنا، وهو ضربُ زرعِها ببعضِ العاهاتِ بعدَ أمنِهم واستيقانِهم أنه قد سلمَ، ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا﴾: فجعلنا زرعَها ﴿حَصِيدًا﴾: شبيهاً بما يُحصدُ من الزرعِ في قطعِه واستئصالِه، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾: كأنْ لم

---

(١) أي: متعلق بـ(بغيكم).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٣٥) عن مكحول.

(٣) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٦٦).

(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (ص ٢٠٦).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم البغي» (ص ٨٨)، وذكر فيه أيضاً: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠].

....

يَغْنَ زرعُها؛ أي: لم يلبثْ، حَذْفُ المضافِ في هذه المواضع لا بدَّ منه؛ ليستقيمَ المعنى[١]، ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ هو مثلٌ في الوقتِ القريبِ، كأنه قيل: كأن لم تغنَ آنفاً، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فينتفعون بضربِ الأمثالِ، وهذا من التشبيهِ المركبِ، شُبِّهَتْ حالُ الدنيا في سرعةِ تَقَضِّيْها، وانقراضِ نعيمِها بعد الإقبالِ بحالِ نباتِ الأرضِ في جفافِه وذهابِه حُطاماً بعدَ ما التَفَّ وتكاثفَ، وزينَ الأرضَ بِخُضرتِه ورَفِيْفِهِ[٢]، والتنبيهُ على حكمه التشبيه[٣]: أن الحياة صفوُها شبيبتُها، وكدرُها شَيبتُها، كما أن صفوَ الماءِ في أعلى الإناء، قال[٤]: [من: الطويل]

ألم تَرَ أن العمرَ كأسُ سُلافةٍ ... فأولُه صفوٌ وآخرُه كدر

وحقيقتُه: تزيينُ جُثةِ الطين بمصالحِ الدنيا والدين، كاختلاطِ النباتِ على اختلافِ التلوينِ، فالطينةُ الطيبةُ تُنبتُ بساتينَ الأنسِ، ورياحينَ الرَّوحِ، وزَهرةَ الزهدِ، وكرومَ الكرم، وحبوبَ الحُبِّ، وحدائقَ الحقيقةِ، وشقائقَ الطريقةِ[٥]، والخبيثةُ تُخرج خِلافَ الخُلفِ، وثُمامَ الإثم، وشوكَ الشركِ، وشِيْحَ الشُّحِّ، وحَطَبَ العَطَبِ، ولُعاعَ اللعبِ[٦]، ثم يدعُوه معادُه، كما يحينُ للحرث حصادُه، فتُزايلُه الحياةُ مغتراً، كما يَهيجُ النبات مصفراً، فتَغيبُ جُثتُه في الرَّمسِ[٧]، كأنْ لم تغنَ بالأمس، إلى أن يعودَ ربيعُ البعثِ، وموعدُ العرضِ والبحثِ.

وكذلك حالُ الدنيا كالماءِ، ينفعُ قليلُه، ويُهلكُ كثيرُه، ولا بدَّ من تركِ ما زاد، كما لا بدَّ من أخذِ الزادِ، وآخذُ المالِ لا يصفُو من زَلةٍ، كما أن خائضَ الماءِ لا ينجو من بِلَّةٍ، وجمعُه وإمساكُه تلفُ صاحبِه وإهلاكُه، فما دون النصابِ كضحضاحِ ماءٍ[٨]، يُجاوَزُ بلا احتماءٍ، والنصابُ كنهرٍ حائلٍ بينَ المجتازِ والجَوازِ إلى المفازِ، لا يمكنُ إلا بقنطرةٍ وهي الزكاةُ، وعمارتُها بذلُ

---

(١) أي: تقديرُ المضافِ المحذوفِ لا بدَّ منه.

(٢) رف النَّبَاتُ: اهتزَّ من الرِّيِّ والنضارة.

(٣) كذا في الأصل، ولعل الصواب: (وحكمةُ التشبيهِ: التنبيهُ على...).

(٤) لم أعثر على قائله، والسُّلافَةُ: أولُ الخمرِ.

(٥) الشقائق: نَبَاتٌ أَحْمَرُ الزهرِ.

(٦) الخلافُ: شجر، والخُلْفُ: الاختلافُ، والثمام والشيح: من النبات، واللُّعاعُ: الرقيق من النبات في أول ما ينبت.

(٧) الرمس: القبر.

(٨) مَاءٌ ضحضاحٌ: قَلِيل.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦﴾ . . . .

الصِّلاتِ، فمتى اختلت القنطرةُ.. غَرَّقَتْه أمواجُ القناطيرِ المقنطرةِ، وعن هذا قال عليه السلام: «الزكاةُ قنطرةُ الإسلام»[١]، وكذا المالُ يساعدُ الأوغادَ دون الأمجادِ[٢]، كما أن الماء يجتمع في الوِهادِ دون النِّجاد[٣]، وكذا المالُ لا يجتمعُ إلا بكدِّ البخيل[٤]، كما أن الماء لا يجتمعُ إلا بسدِّ المسيلِ، ثم يفنَى ويتلفُ ولا يبقى، كالماء في الكفِّ.

《٢٥》 ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ هي: الجنةُ، أضافها إلى اسمه تعظيماً لها، أو السلامُ: السلامةُ؛ لأن أهلها سالمون من كل مكروه، وقيل: لِفُشُوِّ السلام بينهم، وتسليم الملائكةِ عليهم ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦]، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: ويوفقُ من يشاء ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥﴾: إلى الإسلام، أو: طريقِ السنةِ، فالدعوةُ عامةٌ على لسان الرسولِ بالدلالةِ، والهدايةُ خاصةٌ مِن لُطفِ المُرسِلِ بالتوفيق والعناية؛ والمعنى: يدعو العبادَ كلَّهم إلى دار الإسلام، ولا يدخُلُها إلا المَهْدِيُّون.

《٢٦》 ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾: آمنوا باللهِ ورسلِه ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: المثوبةُ الحُسنى، وهي: الجنةُ، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: رؤيةُ الربِّ عزَّ وجلَّ، كذا عن أبي بكرٍ وحذيفةَ وابنِ عباسٍ وأبي موسى الأشعريِّ وعبادةَ بنِ الصامتِ رضي الله عنهم، وفي بعضِ التفاسيرِ: أجمعَ المفسرون على أن الزيادةَ النظرُ إلى الله تعالى، وعن صهيب: أن النبي ﷺ قال: «إذا دخلَ أهلُ الجنةِ.. يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: أتريدون شيئاً أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تبيضْ وجوهَنا؟ ألم تُدخلنا الجنةَ وتنجينا من النار؟ قال: فيرفعُ الحجابَ فينظرون إلى الله تعالى، فما أُعْطُوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظرِ إلى ربِّهم، ثم تلا (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)، والعجب من صاحب «الكشاف» أنه ذكر هذا الحديثَ لا بهذه العبارةِ وقال: إنه حديثٌ مرقوعٌ[٥]، مع أنه مرفوعٌ، قد أورده صاحب «المصابيح»

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٩٣٧) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) الأوغاد: جمع وَغْدٍ، وهو: الرجل الدنيء.

(٣) الوِهاد: جمع وَهْدَةٍ، وهي: المكانُ المنخفض، والنِّجاد: جمع نَجْدٍ، وهو: ما ارتفع من الأرض.

(٤) الكَدُّ: السَّعْيُ والاجتهادُ.

(٥) انظر «الكشاف» (٢/ ٣٢٦)، مرقوع: مكذوب، وهذا من تعصبه لاعتزاله؛ فأحاديث الرؤية رواها البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة المحدثين.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾ ....

في الصحاح[(١)]، وقيل: الزيادةُ: المحبةُ في قلوبِ العبادِ، وقيل: الزيادةُ: مغفرةٌ من الله ورضوانٌ[(٢)]، ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾: ولا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾: غُبْرَةٌ فيها سوادٌ، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾: ولا أثرُ هوانٍ؛ والمعنى: ولا يرهقُهم ما يرهقُ أهلَ النارِ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾.

《٢٧》 ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا﴾: عطفٌ على (للذين أحسنوا) أي: وللذين كسبوا ﴿السَّيِّئَاتِ﴾: فُنُونَ الشركِ ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ الباءُ: زائدةٌ، كقولِه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، أو: التقديرُ: جزاءُ سيئةٍ مقدرٌ بمثلها، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: ذُلٌّ وهوانٌ، ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾: من عقابِه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: لا يعصِمُهم أحدٌ من سخطِه وعقابِه، ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي: جُعِلَ عليها غطاءٌ من سوادِ الليلِ؛ أي: هم سودُ الوجوهِ، و(قطعاً): جمعُ قطعةٍ، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ(أغشيت)، ﴿قِطْعاً﴾: مكيٌّ وعليٌّ[(٣)]؛ مِن قولِه: ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١][(٤)]، وعلى هذه القراءةِ (مُظلماً): صفةٌ لِقِطْعٍ[(٥)]، وعلى الأول: حالٌ من (الليل)، والعامل فيه: (أغشيت)؛ لأن (من الليل): صفةٌ لـ(قطعاً)، فكان إفضاؤُه إلى الموصوفِ كإفضائِه إلى الصفةِ[(٦)]، أو: معنى الفعلِ في (من الليل)[(٧)]، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)﴾.

《٢٨》 ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: الكفارَ وغيرَهم ﴿جَمِيعًا﴾: حالٌ، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ أي: الزَمُوا مكانَكم لا تبرحُوا حتى تنظروا ما يُفعلُ بكم، ﴿أَنْتُمْ﴾: أُكِّدَ به الضميرُ في (مكانكم)؛

---

(١) مشكاة المصابيح (٣/ ١٥٧٤).

(٢) ورجح الإمام الطبري: أن الزيادة عامة تشمل النظر إليه، وغير ذلك من زيادات عطاءِ الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته. انظر «تفسير الطبري» (١٥/ ٧١).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٤).

(٤) القِطْعُ: ظلمةُ آخرِ الليلِ، وقيل: سوادٌ من الليل، وقيل: القطعةُ منه.

(٥) لأنهما متطابقان بالإفراد على هذه القراءة، فصحَّ كونُ (مظلماً) صفةً.

(٦) أي: لما عمل (أغشيت) في (قطعاً) وهو الموصوف.. سرى هذا العمل إلى صفته وهو (من الليل)، لأن العامل في التابع هو العامل في المتبوع، و(الليل) هو صاحب الحال، والعاملُ في الحال هو العاملُ في صاحبِها؛ فلذا عمل (أغشيت) في الحال وهو (مظلماً). ولكن اعترض على هذا بأن العامل في (من الليل) محذوف والتقدير: (قطعاً كائنة من الليل). انظر «البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٤٨).

(٧) أي: ما تعلق به (من الليل)؛ إذ التقدير: كائناً من الليل.

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

لسدِّه مسدَّ قولِه: الزموا، ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾: عطفٌ عليه، ﴿فَزَيَّلْنَا﴾: ففرقْنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وقَطَّعْنا أقرانَهم والوُصَلَ التي كانت بينهم في الدنيا، ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾: مَن عبدُوه من دون الله من أُولي العقلِ، أو: الأصنامُ يُنطِقُها الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾: إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً فأطعتموهم، وهو كقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ﴾ إلى قولِه: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١].

《٢٩》 ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كفى اللهُ شهيداً، وهو: تمييزٌ، ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (إنْ): مخففةٌ من الثقيلة، واللامُ: فارقةٌ بينها وبين النافية.

《٣٠》 ﴿هُنَالِكَ﴾: في ذلك المقام، أو: في ذلك الوقتِ؛ على استعارةِ اسم المكانِ للزمان، ﴿تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ﴾: تَخْتَبِرُ وتذوقُ ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ من العملِ فتعرفُ كيف هو؟ أقبيحٌ أم حسنٌ؟ أنافعٌ أم ضارٌّ؟ أمقبولٌ أم مردودٌ؟ وقال الزجاج: تعلمُ كلُّ نفسٍ ما قدمت[1]، ﴿تَتْلُوْ﴾: حمزةُ وعليٌّ[2]؛ أي: تتبعُ ما أسلفت؛ لأن عملَه هو الذي يهديْه إلى طريقِ الجنةِ أو النار، أو: تقرأُ في صحيفتِها ما قدمتْ من خيرٍ أو شرٍّ، كذا عن الأخفش، ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾: ربِّهم الصادقِ في ربوبيته؛ لأنهم كانوا يتولَّون ما ليس لربوبيته حقيقةٌ، أو: الذي يتولَّى حسابَهم وثوابَهم العدلُ الذي لا يَظلمُ أحداً، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾: وضاع عنهم ما كانوا يدَّعون أنهم شركاءُ لله، أو: بطلَ عنهم ما كانوا يختلقُون من الكذبِ وشفاعةِ الآلهةِ.

《٣١》 ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالنبات، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾: من يستطيعُ خلقَهما وتسويتَهما على الحدِّ الذي سُوِّيا عليه من الفطرةِ العجيبةِ، أو: من يحميها من الآفاتِ مع كثرتِها في المُدَدِ الطِّوالِ، وهما لطيفان يُؤذيهما أدنى شيءٍ، ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: الحيوانَ والفرخَ والزرعَ والمؤمنَ والعالمَ..

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٧).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٤) وكذا القراءة الآتية.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ....

من النطفةِ والبيضةِ والحبِّ والكافرِ والجاهلِ، وعكسَها، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: ومن يلي تدبيرَ أمرِ العالمِ كلِّه، جاء بالعموم بعدَ الخصوصِ، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾: فسيجيبونك عند سؤالك: إن القادر على هذه هو اللهُ، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ الشركَ في العبوديةِ إذ اعترفتم بالربوبيةِ.

《٣٢》 ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: مَن هذه قدرتُه هو اللهُ ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾: الثابتُ ربوبيتُه ثباتاً لا ريبَ فيه لمن حققَ النظرَ، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي: لا واسطةَ بين الحقِّ والضلالِ، فمن تخطَّى الحقَّ.. وقعَ في الضلالِ، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ عن الحقِّ إلى الضلالِ، وعن التوحيد إلى الشرك.

《٣٣》 ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الحقِّ ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ﴿كلمات﴾: شاميٌّ ومدنيٌّ؛ أي: كما حقَّ وثبتَ أن الحقَّ بعده الضلالُ، أو: كما حقَّ أنهم مصروفون عن الحقِّ.. فكذلك حقت كلمةُ ربك ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾: تمردُوا في كفرِهم وخرجُوا إلى الحدِّ الأقصى فيه، ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾: بدلٌ من الكلمةِ؛ أي: حقَّ عليهم انتفاءُ الإيمانِ، أو: حقَّ عليهم كلمةُ اللهِ أن إيمانهم غيرُ كائنٍ، أو: أرادَ بالكلمةِ: العِدَةَ بالعذاب، و(أنهم لا يؤمنون): تعليلٌ؛ أي: لأنهم لا يؤمنون.

《٣٤》 ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إنما ذكرَ (ثم يعيده) وهم غيرُ مُقِرِّين بالإعادةِ؛ لأنه لظهورِ برهانِها جُعِلَ أمراً مسلماً، على أن فيهم مَن يُقِرُّ بالإعادةِ، أو: يحتملُ إعادةَ غيرِ البشرِ، كإعادةِ الليلِ والنهارِ، وإعادةِ الإنزالِ والنباتِ، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: أَمَرَ نبيَّه بأن ينوبَ عنهم في الجوابِ؛ يعني: أنهم لا تدعُهم مكابرتُهم أن يَنطِقوا بكلمةِ الحقِّ، فكلِّمْ عنهم، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾: فكيف تُصرفون عن قصدِ السبيلِ.

《٣٥》 ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: يرشدُ إليه، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ يقالُ: هداه للحقِّ، وإلى الحقِّ، فجمعَ بين اللغتين، ويقال: هدَى بنفسِه؛ بمعنى: اهتدى، كما يقال: شَرَى؛ بمعنى: اشترى، ومنه قراءةُ حمزةَ وعليٍّ: ﴿أَمَّن لا يَهْدِي﴾ بمعنى: لا يهتدي، ﴿لا يَهَدِّي﴾: بفتحِ الياءِ والهاءِ وتشديدِ الدالِ:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ . . . . .

مكيٌّ وشاميٌّ وورشٌ، وبإشمامِ الهاءِ فتحةً: أبو عمرٍو، وبكسر الهاءِ وفتح الياءِ: عاصمٌ غيرَ يحيى، والأصلُ: ﴿يَهْتَدِي﴾، وهي قراءةُ عبدِ اللهِ[1]، فأُدغمت التاءُ في الدال، وفتحت الهاءُ بحركةِ التاءِ، وكسرتْ لالتقاءِ الساكنين، وبكسرِ الياءِ والهاءِ وتشديدِ الدالِ: يحيى؛ لإتباعِ ما بعدَها، وبسكون الهاءِ وتشديدِ الدالِ: مدنيٌّ غيرَ ورشٍ[2]؛ والمعنى: أن اللهَ وحدَه هو الذي يهدِي للحقِّ بما ركَّب في المكلفين من العقولِ، وأعطاهم من التمكينِ للنظرِ في الأدلةِ التي نصبَها لهم، وبما وفقهم وألهمَهم، ووَقَفَهم على الشرائع بإرسالِ الرسلِ، فهل من شركائِكم الذين جعلتم أنداداً لله أحدٌ يَهدي إلى الحقِّ مثلَ هدايةِ اللهِ؟ ثم قال: أفمن يهدي إلى الحقِّ أحقُّ بالاتباعِ أم الذي لا يَهدي؟ أي: لا يهتدِي بنفسه، أو: لا يَهدِي غيرَه إلا أن يهديَه اللهُ، وقيل: معناه: أم من لا يَهتدِي من الأوثان إلى مكانٍ فينتقلُ إليه، إلا أن يُهدَى: إلا أن ينقلَ، أو: لا يَهتدِي ولا يصحُّ منه الاهتداء إلا أن ينقله اللهُ من حالِه إلى أن يجعلَه حيّاً ناطقاً فيهديَه، ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ بالباطل حيث تزعمُون أنهم أندادٌ للهِ.

《٣٦》 ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في قولهم للأصنام: إنها آلهةٌ، وإنها شفعاءُ عندَ اللهِ، والمراد بالأكثرِ: الجميعُ، ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ بغيرِ دليلٍ، وهو اقتداؤُهم بأسلافِهم؛ ظنّاً منهم أنهم مصيبون، ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ وهو: العلمُ ﴿شَيْئًا﴾: في موضع المصدرِ؛ أي: إغناءً، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ من اتباعِ الظنِّ وتركِ الحقِّ.

《٣٧》 ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: افتراءً من دون اللهِ؛ والمعنى: وما صحَّ وما استقامَ أن يكون مثلُه في علوِّ أمرِه وإعجازِه مفترىً، ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو: ما تقدمَه من الكتبِ المنزلةِ، ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾: وتبيينَ ما كُتبَ وفُرضَ من الأحكام والشرائعِ؛ من قولِه: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾: داخلٌ في حيِّزِ الاستدراكِ، كأنه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الريبُ كائناً من ربِّ العالمين، ويجوزُ أن يرادَ: ولكن كان تصديقاً من ربِّ العالمين، وتفصيلاً منه لا ريبَ في ذلك،

(١) انظر «حجة القراءات» (ص ٣٣١)، وهي شاذة.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٤)، و«الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٦٧)، ويحيى: هو يحيى بن آدم يروي عن شعبة أبي بكر.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)﴾ ....

فيكونُ (من رب العالمين) متعلقاً بـ(تصديق) و(تفصيل)، ويكونُ (لا ريبَ فيه) اعتراضاً، كما تقول: زيدٌ - لا شك فيه - كريمٌ.

《٣٨》 ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾: بل أيقولون: اختلقه، ﴿قُلْ﴾: إن كان الأمرُ كما تزعمون ﴿فَأْتُوا﴾ أنتم على وجهِ الافتراءِ ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي: شبيهةٍ به في البلاغةِ وحسنِ النظمِ؛ فأنتم مثلِي في العربيةِ، ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: وادعُوا من دون الله من استطعتم من خلقِه للاستعانةِ به على الإتيانِ بمثله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ أنه افتراءٌ.

《٣٩》 ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾: بل سارعُوا إلى التكذيبِ بالقرآنِ في بديهةِ السماعِ قبلَ أن يفقهُوه ويعلمُوا كُنْهَ أمرِه، وقبل أن يتدبرُوه ويقفُوا على تأويلِه ومعانيه، وذلك لِفَرْطِ نفورِهم عمّا يُخالفُ دينَهم، وشِرادِهم عن مُفارقةِ دينِ آبائِهم[1]؛ ومعنى التوقعِ في (ولما يأتهم تأويله): أنهم كذبُوا به على البديهةِ قبلَ التدبرِ ومعرفةِ التأويلِ؛ تقليداً للآباءِ، وكذبُوه بعد التدبرِ؛ تمرداً وعناداً، فذمَّهم بالتسرعِ إلى التكذيبِ قبلَ العلمِ به، وجاء بكلمة التوقعِ؛ لِيُؤْذِنَ أنهم علمُوا بُعْدَ عُلُوِّ شأنِه وإعجازِه لمّا كرَّرَ عليهم التحديَ، وجربُوا قُواهم في المعارضةِ، وعرفُوا عجزَهم عن مثله، فكذبُوا به بغياً وحسداً، ﴿كَذَلِكَ﴾: مثلَ ذلك التكذيبِ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كفارَ الأممِ الماضيةِ، كذبُوا رسلَهم قبلَ النظرِ في معجزاتهم، وقبلَ تدبرِها؛ عناداً وتقليداً للآباء، ويجوز أن يكون معنى (ولما يأتهم تأويله): ولم يأتِهم بعدُ تأويلُ ما فيه من الإخبارِ بالغيوب؛ أي: عاقبتُه حتى يتبينَ لهم أهو كذبٌ أم صدق؟ يعني: أنه كتاب معجزٌ من جهتين: من جهةِ إعجازِ نظمِه، ومن جهةِ ما فيه من الإخبار بالغيوب، فتسرعُوا إلى التكذيب به قبلَ أن ينظرُوا في نظمِه وبلوغِه حدَّ الإعجازِ، وقبلَ أن يجربُوا إخبارَه بالمغيباتِ، وصدقَه وكذبَه، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)﴾.

《٤٠》 ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾: بالنبيِّ، أو: بالقرآنِ؛ أي: يُصدِّقُ به في نفسِه، ويعلمُ أنه حقٌّ ولكن يعاندُ بالتكذيبِ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾: لا يصدقُ به، ويشكُّ فيه، أو: يكون للاستقبال؛ أي: ومنهم من سيؤمنُ به، ومنهم من سَيُصِرُّ، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)﴾: بالمعاندين، أو: المصرِّين.

---

(١) شرادهم: نفورهم.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

《٤١》 ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾: وإن ثبتوا على تكذيبك ويَئِسْتَ من إجابتِهم ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي﴾: جزاءُ عملِي، ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾: جزاءُ أعمالِكم، ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ فكلٌّ مؤاخذٌ بعملِه.

《٤٢》 ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾: ومنهم ناسٌ يستمعون إليك إذا قرأتَ القرآنَ، وعلَّمْتَ الشرائعَ، ولكنهم لا يَعُونَ ولا يقبلُون، فهم كالصمِّ، ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أتطمعُ أنك تقدرُ على إسماعِ الصمِّ ولو انضمَّ إلى صممِهم عدمُ عقولِهم؛ لأن الأصمَّ العاقلَ ربما تفرَّسَ واستدلَّ إذا وقعَ في صِماخِه دويُّ الصوتِ[١]، فإذا اجتمعَ سلبُ العقلِ والسمعِ.. فقد تمَّ الأمرُ.

《٤٣》 ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾: ومنهم ناسٌ ينظرون إليك، ويعايِنون أدلةَ الصدقِ وأعلامَ النبوةِ ولكنهم لا يُصدِّقُون، ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾: أتحسَبُ أنك تقدِرُ على هدايةِ العُمْيِ ولو انضم إلى فقدِ البصرِ فقدُ البصيرةِ؛ لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرةٌ.. قَدْ يَحْدِسُ[٢]، وأما العَمَى مع الحُمْقِ.. فجَهْدُ البلاءِ؛ يعني: أنهم في اليأسِ من أن يَقبلُوا ويُصدقُوا كالصُّمِّ والعُمْيِ الذين لا عقولَ لهم ولا بصائرَ.

《٤٤》 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ﴿ولكنِ الناسُ﴾: حمزةُ وعليٌّ[٣]؛ أي: لم يظلمْهم بسلبِ آلةِ الاستدلالِ، ولكنهم ظلموا أنفسَهم بتركِ الاستدلالِ؛ حيث عبدُوا جماداً وهم أحياءٌ.

《٤٥》 ﴿ويومَ نَحْشُرُهُمْ﴾ وبالياءِ: حفصٌ، ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾: استقصرُوا مدةَ لُبثِهم في الدنيا، أو: في قبورهم؛ لهولِ ما يرون، ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾: يعرفُ بعضُهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقُوا إلا قليلاً، وذلك عند خروجِهم من القبورِ، ثم ينقطعُ التعارفُ بينهم لشدةِ الأمرِ

---

(١) الصِّماخُ: خَرْقُ الأُذُنِ.

(٢) يحدِس: يظن ظنّاً مؤكداً.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٥) وكذا القراءة الآتية.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾

عليهم، (كأن لم يلبثوا): حالٌ مِن (هم) أي: نحشرهم مُشَبَّهين بمن لم يلبثوا إلا ساعةً، و(كأن): مخففةٌ من الثقيلةِ، واسمُها محذوفٌ؛ أي: كأنَّهم، و(يتعارفون بينهم): حالٌ بعدَ حالٍ، أو: مُستأنفٌ؛ على تقديرِ: هم يتعارفون بينهم، ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾: على إرادةِ القولِ؛ أي: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو: هي شهادةٌ من الله تعالى على خسرانِهم؛ والمعنى: أنهم وضعُوا في تجارتِهم وبيعِهم الإيمانَ بالكفرِ، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ للتجارةِ عارفين بها، وهو استئنافٌ فيه معنى التعجبِ، كأنه قيل: ما أخسرَهم[(١)].

《٤٦》 ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذابِ، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبلَ عذابِهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾: جوابُ (نتوفَّينك)، وجوابُ (نُرينك): محذوفٌ؛ أي: وإما نُرينك بعضَ الذي نعدُهم في الدنيا.. فذاك، أو نتوفينك قبلَ أن نُريكَه.. فنحن نريكَه في الآخرة، ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ذُكِرَتِ الشهادةُ والمرادُ مقتضاها وهو العقابُ، كأنه قيل: ثم اللهُ معاقِبٌ على ما يفعلون، وقيل: (ثُمَّ) هنا بمعنى الواوِ.

《٤٧》 ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ يُبعثُ إليهم لينبهَهُم على التوحيدِ، ويدعوَهم إلى دين الحقِّ، ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبيناتِ فكذبُوه ولم يتبعُوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾: بين النبيِّ ومُكذبيه ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدلِ، فأُنْجِيَ الرسولُ، وعُذِّبَ المكذبون، أو: لكلِّ أمةٍ من الأممِ يومَ القيامةِ رسولٌ تُنسبُ إليه وتُدعَى به، فإذا جاء رسولُهم الموقفَ ليشهدَ عليهم بالكفر والإيمانِ.. قُضِيَ بينهم بالقسطِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾: لا يُعَذَّبُ أحدٌ بغيرِ ذنبِه.

《٤٨》 ولما قال: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: من العذاب.. استعجلُوا لِما وُعدُوا من العذاب، نزل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: وعدُ العذابِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾: أن العذابَ نازلٌ، وهو خطابٌ منهم للنبيِّ والمؤمنين.

---

(١) المرادُ: بيانُ أنه مما يُتعجَّبُ منه؛ لأن الله منزه عن التعجب، فمآله إلى التعجبِ من العبادِ. انظر «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٥/ ٣٣).

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

《٤٩》 ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا﴾ من مرضٍ أو فقرٍ، ﴿وَلَا نَفۡعًا﴾ من صحةٍ أو غِنىً، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كائنٌ، فكيف أملكُ لكم الضرَّ وجلبَ العذابِ؟

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾: لكلِّ أمةٍ وقتٌ معلومٌ للعذاب، مكتوبٌ في اللوح، فإذا جاء وقتُ عذابِهم.. لا يتقدمون ساعةً ولا يتأخرون، فلا تستعجلُوا.

《٥٠》 ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلونه ﴿بَيَٰتًا﴾: نصبٌ على الظرف؛ أي: وقتَ بياتٍ وهو الليلُ وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون، ﴿أَوۡ نَهَارٗا﴾: وأنتم مشتغلون بطلبِ المعاشِ والكسبِ، ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: من العذاب؛ والمعنى: أن العذاب كلَّه مكروهٌ موجِبٌ للنفور، فأيَّ شيءٍ تستعجلون منه وليس شيءٌ منه يوجبُ الاستعجال؟ والاستفهامُ في (ماذا): يتعلقُ بـ(أرأيتم)؛ لأن المعنى: أخبروني ماذا يستعجلُ منه المجرمون؟ وجوابُ الشرطِ محذوفٌ، وهو: تندمُوا على الاستعجال، أو: تعرفُوا الخطأَ فيه، ولم يقل: ماذا يستعجلون منه؛ لأنه أريدتِ الدلالةُ على موجِبِ تركِ الاستعجالِ وهو الإجرامُ، أو: (ماذا يستعجل منه المجرمون): جوابُ الشرطِ، نحو: إن أتيتُك.. ماذا تطعمُني، ثم تتعلقُ الجملةُ بـ(أرأيتم)، أو:

《٥١》 ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العـذابُ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾: جـوابُ الشـرطِ، و﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: اعتراضٌ؛ والمعنى: إن أتاكم عذابُه.. آمنتم به بعدَ وقوعِه حينَ لا ينفعُكم الإيمانُ، ودخولُ حرفِ الاستفهامِ على (ثم) كدخولِه على الواوِ والفاءِ في ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٧]، ﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٨]، ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾: على إرادةِ القولِ؛ أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوعِ العذابِ: آلآن آمنتم به ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: بالعذابِ تكذيباً واستهزاءً، ﴿آلان﴾: بحذفِ الهمزةِ التي بعد اللامِ وإلقاءِ حركتِها على اللامِ: نافعٌ[1].

《٥٢》 ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: عطفٌ على (قيل) المضمرِ قبلَ (آلآن): ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أي: الدوام، ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ من الشركِ والتكذيبِ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٦).

﴿وَيَسْتَنبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ ....

«٥٣» ﴿وَيَسْتَنبِـُٔونَكَ﴾: ويستخبرونك فيقولون: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ هو استفهام على جهةِ الإنكارِ والاستهزاءِ، والضميرُ للعذابِ الموعودِ، ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ: ﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾: نعم والله ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾: إن العذابَ كائنٌ لا محالةَ، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾: بفائتين العذابَ، وهو لاحقٌ بكم لا محالةَ.

«٥٤» ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾: كفرت وأشركت، وهو صفةٌ لـ(نفس)؛ أي: ولو أن لكلِّ نفسٍ ظالمةٍ ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ما في الدنيا اليومَ من خزائنها وأموالِها ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾: لجعلته فِديةً لها، يقال: فداه فافتدَى، ويقال: افتداه أيضاً بمعنى فداه، ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: وأظهروها، من قولِهم: أسرَّ الشيءَ: إذا أظهرَه، أو: أخفَوها عجزاً عن النطقِ لشدةِ الأمرِ، فأسرَّ: من الأضدادِ، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾: بين الظالمين والمظلومين، دلَّ على ذلك ذكرُ الظلمِ، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾.

«٥٥» ثم أتبع ذلك الإعلامَ بأن له الملكَ كلَّه بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكيفَ يَقبلُ الفداءَ؟ وأنه المثيبُ المعاقِبُ، وما وعدَه من الثواب والعقابِ.. فهو حقٌّ بقولِه: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب أو بالعذاب ﴿حَقٌّ﴾: كائنٌ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥﴾.

«٥٦» ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾: هو القادرُ على الإحياءِ والإماتةِ، لا يقدِر عليهما غيرُه، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾: وإلى حسابه وجزائه المرجعُ، فيُخافُ ويُرجَى.

«٥٧» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: قد جاءكم كتابٌ جامعٌ لهذه الفوائدِ من موعظةٍ وتنبيهٍ على التوحيدِ، والموعظةُ: التي تدعو إلى كلِّ مرغوبٍ، وتزجُرُ عن كلِّ مرهوبٍ، فما[1] في القرآن من الأوامر والنواهي داعٍ إلى كلِّ مرغوبٍ، وزاجرٌ عن كلِّ مرهوبٍ؛ إذ الأمرُ يقتضِي حُسْنَ المأمور به فيكون مرغوباً، وهو يقتضي النهيَ عن ضدِّه، وهو قبيحٌ، وعلى

---

(١) في الأصل: (كما)، وما أثبته من المطبوع (١/ ٣٢٠) وهو الصواب.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾ ....

هذا في النهي، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: صدورِكم من العقائدِ الفاسدةِ، ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالةِ، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾: لمن آمن به منكم.

《٥٨》 ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ أصلُ الكلامِ: بفضلِ اللهِ وبرحمتِه.. فليفرحوا، بذلك فليفرحوا، والتكريرُ للتأكيدِ والتقديرِ، وإيجابِ اختصاصِ الفضلِ والرحمةِ بالفرحِ دون ما عداهما من فوائدِ الدنيا، فحُذِفَ أحدُ الفعلين لدلالةِ المذكورِ عليه، والفاءُ داخلةٌ لمعنى الشرط، كأنه قيل: إن فرحُوا بشيءٍ.. فليخُصُّوهما بالفرحِ، أو: بفضلِ اللهِ ورحمتِه.. فليعتنوا، فبذلك فليفرحوا، وهما[1]: كتابُ الله والإسلامُ، في الحديث: «مَن هداه الله للإسلام، وعلمَه القرآنَ، ثم شكا الفاقةَ.. كتبَ اللهُ الفقرَ بين عينيه إلى يوم يَلقاه»، وقرأ الآيةَ[2]، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ وبالتاءِ: شاميٌّ، ﴿فلتفرحوا﴾: يعقوبُ[3].

《٥٩》 ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾: أخبروني ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ (ما): منصوبٌ بـ(أنزل)، أو: بـ(أرأيتم) أي: أخبرونيه، ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾: فبعَّضْتُموه وقلتُم: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، كقولِه: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، نعمْ، الأرزاقُ تخرجُ من الأرضِ ولكن لما نِيْطَتْ أسبابُها بالسماءِ، نحوُ المطرِ الذي به تُنبتُ الأرضُ النباتَ، والشمسِ التي بها نُضْجُ الأنْزالِ[4]، ويَنَعُ الثمارِ.. أضيفَ إنزالُها إلى السماء، ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾: متعلقٌ بـ(أرأيتم)، و(قل): تكريرٌ؛ للتوكيد؛ والمعنى: أخبروني الله أذن لكم في التحليلِ والتحريمِ فأنتم تفعلون ذلك بإذنِه، ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾: أم أنتم تكذبون على الله في نسبةِ ذلك إليه؟[5] أو: الهمزةُ للإنكار، و(أم): منقطعةٌ؛ بمعنى: بل أتفترون على الله؛ تقريراً للافتراء، والآيةُ زاجرةٌ عن التجوزِ فيما يُسألُ من الأحكام، وباعثةٌ على وجوبِ

---

(١) أي: الفضل والرحمة.

(٢) رواه ابنُ بشران في «أماليه» (ص ٢١٢).

(٣) (فليفرحوا) (يجمعون): قرأ رُويسٌ: بتاء الخطاب في الفعلين، وقرأ الشامي وأبو جعفر: بياء الغيبة في الأول، وتاءِ الخطاب في الثاني، والباقون: بياء الغيبة فيهما. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٩).

(٤) **الأنزال**: جمع نُزُلٍ، وهو: رَيْعُ ما يزرع؛ أي: زكاؤه، ونماؤه وبركته.

(٥) وعلى هذا الوجه تكون (أم) متصلة، والاستخبارُ لا يقصدُ به حقيقتُه، بل المرادُ منه التقريرُ والوعيدُ وإلزامُ الحُجةِ. انظر «فتوح الغيب» (٧/ ٥١٤).

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ....

الاحتياطِ فيه، وألا يقولَ أحدٌ في شيءٍ: جائزٌ أو غيرُ جائزٍ إلا بعدَ إيقانٍ وإتقانٍ، وإلا.. فهو مفترٍ على الديان.

《٦٠》 ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾: يَنْسُبون ذلك إليه، ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: منصوبٌ بالظنِّ، وهو ظنٌّ واقعٌ فيه؛ أي: أيَّ شيءٍ ظَنُّ المفترين في ذلك اليوم ما يُصنعُ بهم فيه؟ وهو يومُ الجزاءِ بالإحسانِ والإساءةِ، وهو وعيدٌ عظيمٌ حيث أَبْهَمَ أمرَه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيثُ أنعمَ عليهم بالعقلِ، ورَحِمَهم بالوحْيِ وتعليمِ الحلالِ والحرامِ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ هذه النعمةَ، ولا يتبعون ما هُدُوا إليه.

《٦١》 ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ﴾ (ما): نافيةٌ، والخطابُ للنبيِّ عليه السلام، والشأنُ: الأمرُ، ﴿وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ﴾: من التنزيلِ، ﴿مِن قُرۡءَانٖ﴾ لأن كلَّ جزءٍ منه قرآنٌ، والإضمارُ قبلَ الذكرِ تفخيمٌ له، أو: مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ﴾ أنتم جميعاً ﴿مِنۡ عَمَلٍ﴾: أيَّ عملٍ ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾: شاهدين رُقباءَ نُحصي عليكم، ﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾: تخوضُون؛ مِن: أفاضَ في الأمرِ: إذا اندفع فيه، ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾: وما يَبْعُدُ وما يغيبُ، وبكسرِ الزاي: عليٌّ، حيثُ كان[1]، ﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾: وزنُ نملةٍ صغيرةٍ، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾: رفعَهما حمزةُ على الابتداءِ والخبرِ، ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ يعني: اللوحَ المحفوظَ، ونصبهما غيرُه، على نفْيِ الجنسِ[2]، وقُدِّمَتِ الأرضُ على السماء هنا، وفي (سبأ) قدمت السماواتُ؛ لأن العطفَ بالواو، وحكمُه حكمُ التثنية.

《٦٢》 ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ هم: الذين يتولَّونه بالطاعةِ، ويتولاهم بالكرامةِ، أو: هم: الذين تولى اللهُ تعالى هُداهم بالبرهان الذي آتاهم، فتولَّوُا القيامَ بحقِّه، والرحمةَ لخلقه، أو: هم: المتحابُّون في الله على غيرِ أرحامٍ بينهم، ولا أموالٍ يتعاطَونها، أو: هم: المؤمنون المتقون؛ بدليلِ الآيةِ الثانيةِ، ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ إذا خافَ الناسُ، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ إذا حَزِنَ الناسُ.

---

(١) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٨٥).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٩).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٥﴾

《٦٣》 ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: منصوبٌ بإضمارِ (أعني)، أو: لأنه صفةٌ لـ(أولياء)، أو: مرفوعٌ على أنه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هم الذين آمنوا ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ الشركَ والمعاصيَ.

《٦٤》 ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: ما بَشَّرَ اللهُ به المؤمنين المتقين في غيرِ موضعٍ من كتابِه، وعن النبي ﷺ: «هي الرؤيا الصالحةُ يراها المسلمُ أو تُرى له»[١]، وعنه عليه السلام: «ذهبت النبوةُ وبقيت المبشراتُ، والرؤيا الصالحةُ جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة»[٢]، وهذا لأن مدةَ الوحْيِ ثلاثٌ وعشرون سنةً، وكان في ستةِ أشهرٍ منها يُؤمَرُ في النوم بالإنذار، وستةُ أشهرٍ من ثلاثٍ وعشرين سنةً.. جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً، أو: هي محبةُ الناس له والذكرُ الحسنُ، أو: لهم البشرى عند النزعِ بأن يَرَى مكانَه في الجنة، ﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾: هي الجنةُ، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: لا تغييرَ لأقوالِه، ولا إخلافَ لمواعيدِه، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى كونِهم مُبَشَّرِينَ في الدارين، ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾ وكلتا الجملتين اعتراضٌ، ولا يجب أن يقعَ بعد الاعتراضِ كلامٌ، كما تقول: فلانٌ ينطقُ بالحقِّ، والحقُّ أبلجُ. وتسكت[٣].

《٦٥》 ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾: تكذيبُهم وتهديدُهم وتشاورُهم في تدبيرِ هلاكِك، وإبطالِ أمرك؛ ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾: استئنافٌ بمعنى التعليل، كأنه قيل: ما لي لا أحزنُ؟ فقيل: إن العزةَ ﴿لِلَّهِ﴾: إن الغلبةَ والقهرَ في مَلَكَةِ اللهِ، لا يملكُ أحدٌ شيئاً منها، لا هم ولا غيرُهم، فهو يغلبُهم وينصرُك عليهم، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، أو: به يتعزَّزُ كلُّ عزيزٍ، فهو يُعِزُّكَ ودينَك وأهلَك، والوقف لازمٌ على (قولهم)؛ لئلا يصيرَ (إن العزة) مقولَ الكفارِ، ﴿جَمِيعًا﴾: حالٌ، ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون، ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٦٥﴾ بما يدبرون ويعزِمون عليه، وهو مكافئُهم بذلك.

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٧٣)، وابن ماجه (٣٨٩٨) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) قوله: «ذهبت النبوة، وبقيت المبشرات» رواه ابن ماجه (٣٨٩٦) عن سيدتنا أم كُرْزٍ رضي الله عنها، ونحوه في «البخاري» (٦٩٩٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وباقي الحديث: رواه البخاري (٦٩٨٩) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلمٌ (٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ويسمى هذا الاعتراضَ التذييليَّ.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ . .

《٦٦》 ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: العقلاءَ، وهم الملائكةُ والثقلان، وخصَّهم؛ ليؤذِنَ أن هؤلاءِ إذا كانوا له وفي مَلَكَتِهِ ولا يصلُحُ أحدٌ منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكاً له فيها.. فما وراءَهم مما لا يعقلُ أحقُّ ألا يكونَ له نِدّاً وشريكاً، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾: (ما): نافيةٌ؛ أي: وما يتبعون حقيقةَ الشركاءِ وإن كانوا يسمونَها شركاءَ؛ لأن شركةَ اللهِ في الربوبيةِ محالٌ، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾: إلا ظنَّهم أنهم شركاءُ، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾: يَحزِرون ويُقَدِّرون أن تكونَ شركاءَ تقديراً باطلاً، أو: استفهاميةٌ؛ أي: وأيَّ شيءٍ يتبعون؟ و(شركاء) على هذا: نصبٌ بـ(يدعون)، وعلى الأول: بـ(يتبع)، وكان حقُّه: وما يتبعُ الذين يدعون من دون الله شركاءَ شركاءَ، فاقْتُصِرَ على أحدِهما للدلالةِ، والمحذوفُ مفعولُ (يدعون)، أو: موصولةٌ معطوفةٌ على (مَن)، كأنه قيل: ولله ما يتبعُه الذين يدعون من دون الله شركاءَ؛ أي: وله شركاؤُهم.

ثم نبَّهَ على عظيمِ قدرتِه وشمولِ نعمتِه على عبادِه بقوله:

《٦٧》 ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: جعلَ لكم الليلَ مظلماً؛ لتستريحوا فيه من تعبِ الترددِ في النهار، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: مضيئاً؛ لتُبصِروا فيه مطالبَ أرزاقِكم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ سماعَ مُذَّكِّرٍ مُعْتَبِرٍ.

《٦٨》 ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزيهٌ له عن اتخاذِ الولدِ، وتعجبٌ من كلمتِهم الحمقاءِ، ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾: علةٌ لنفي الولدِ؛ لأنه إنما يَطلُبُ الولدَ ضعيفٌ ليتقوَّى به، أو فقيرٌ ليستعينَ به، أو ذليلٌ ليتشرفَ به، والكلُّ أمارةُ الحاجةِ، فمن كان غنياً غيرَ محتاجٍ.. كان الولد عنه منفياً، ولأن الولدَ بعضُ الوالدِ، فيستدعي أن يكونَ مركباً، وكلُّ مركبٍ ممكنٌ، وكلُّ ممكنٍ محتاجٌ إلى الغيرِ فكان حادثاً، فاستحال القديمُ أن يكون له ولدٌ، ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُلْكاً، ولا تجتمعُ البنوَّةُ معه، ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآ﴾: ما عندكم من حجةٍ بهذا القولِ، والباء حقُّها أن تتعلق بقوله: ﴿إِنْ عِندَكُم﴾ على أن يجعل القولُ مكاناً لـ(سلطان)، كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان، ولمّا نفَى عنهم البرهانَ.. جعلَهم غيرَ عالِمين فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ....

《٦٩》 ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بإضافةِ الولدِ إليه ﴿لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾: لا ينجُون من النار، ولا يفوزون بالجنة.

《٧٠》 ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: افتراؤُهم هذا منفعةٌ قليلةٌ في الدنيا، حيث يقيمون به رياستَهم في الكفر، ومناصبةَ النبيِّ ﷺ بالتظاهرِ به، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ المُخَلَّدَ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾: بكفرِهم.

《٧١》 ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾: واقرأْ عليهم ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾: خبرَه مع قومِه، والوقفُ عليه لازمٌ؛ إذْ لو وُصِلَ.. لصار (إذْ) ظرفاً لقولِه: (واتل)، بل التقديرُ: واذكر ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾: عَظُمَ وثَقُلَ، كقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، ﴿مَّقَامِى﴾: مكاني؛ يعني: نفسَه، كقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] أي: خاف ربَّه، أو: قيامِي ومُكثي بين أظهرِكم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، أو: مقامي[١] ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: لأنهم كانُوا إذا وَعَظُوا الجماعةَ.. قامُوا على أرجلِهم يعظونَهم؛ ليكون مكانُهم بيِّناً، وكلامُهم مسموعاً، ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فوضتُ أمري إليه، ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾: مِن: أجمعَ الأمرَ: إذا نواه وعزمَ عليه، ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ الواوُ بمعنى: مع؛ أي: فأجمعُوا أمرَكم مع شركائِكم، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: غمّاً عليكم وهَمّاً، والغَمُّ والغُمَّةُ: كالكَرْبِ والكُرْبَةِ، أو: مُلتبساً في خِفْيَةٍ، والغُمَّةُ: السُّترةُ، مِن: غمَّهُ: إذا ستَرَه، ومنه الحديثُ: «لا غُمَّةَ في فرائضِ الله»[٢]؛ أي: لا تَسَتُّرَ، ولكن يُجاهَرُ بها؛ والمعنى: ولا يكنْ قصدُكم إلى إهلاكِي مستوراً عليكم، ولكن مكشوفاً مشهوراً تُجاهِرونني به، ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾ ذلك الأمرَ الذي تُريدون بي؛ أي: أدُّوا إليَّ ما هو حقٌّ عندكم من هلاكي، كما يَقضي الرجلُ غريمَه، أو: اصنعُوا ما أمكنكم، ﴿وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾: ولا تُمهلوني.

---

(١) أي: القيام على القدمين حقيقة.

(٢) ذكره القاضي عياض في «الشفا» (١/ ٦٢) بلا إسناد.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ....

《٧٢》 ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ : فإن أعرضتم عن تذكيري ونُصحي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ فأوْجبَ التولِّيَ، أو: فما سألتكم من أجرٍ ففاتَني ذلك بتولِّيكم، ﴿إِنْ أَجْرِيْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ وهو: الثواب الذي يُثيبُني به في الآخرة؛ أي: ما نصحتُكم إلا لله، لا لغرضٍ من أغراضِ الدنيا، وفيه دلالةُ منعِ أخذِ الأجرِ على تعليمِ القرآنِ والعلمِ الدينيِّ[1]، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ : من المستسلِمين لأوامرِه ونواهيه، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ : مدنيٌّ وشاميٌّ وأبو عمرٍو وحفصٌ[2].

《٧٣》 ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ : فداموا على تكذيبه، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ من الغرقِ ﴿وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ : يخلُفون الهالكين بالغرق، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ : هو تعظيمٌ لما جرى عليهم، وتحذيرٌ لمن أنذرهم رسولُ اللهِ ﷺ عن مِثله، وتسليةٌ له.

《٧٤》 ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ : من بعدِ نوحٍ ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي: هوداً وصالحاً وإبراهيمَ ولوطاً وشعيباً، ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ : بالحججِ الواضحةِ المثبتةِ لدعواهم، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ : فأصرُّوا على الكفرِ بعدَ المجيءِ، ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ : من قبلِ مجيئِهم؛ يريدُ: أنهم كانوا قبلَ بعثةِ الرسلِ أهلَ جاهليةٍ مكذبين بالحقِّ، فما وقعَ فصلٌ بين حالَتَيهم بعدَ بعثةِ الرسلِ وقبلَها، كأنْ لم يُبعثْ إليهم أحدٌ، ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ : مثلَ ذلك الطبعِ نختِم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ : المجاوزين الحدَّ في التكذيبِ.

《٧٥》 ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ : مِن بعدِ الرسلِ ﴿مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ : بالآياتِ التسعِ، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن قبولِها، وأعظمُ الكِبرِ أن يتهاونَ العبيدُ برسالةِ ربهم بعدَ تبيُّنِها، ويتعظَّمُون عن قبولِها، ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ : كفاراً ذوي آثامٍ عظامٍ، فلذلك استكبروا عنها، واجترؤُوا على رَدِّها.

---

(١) أفتى المتأخرون من الحنفية بصحة الإجارة لتعليمِ القرآنِ والفقهِ والإمامةِ والأذانِ؛ للضرورة. انظر «حاشية ابن عابدين» (٦/ ٥٥).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥٠).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ....

《٧٦》 ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾: فلما عرفُوا أنه هو الحقُّ، وأنه من عند الله ﴿قَالُوٓا۟﴾ لِحُبِّهِمُ الشهواتِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ وهم يعلمون أن الحقَّ أبعدُ شيءٍ من السحرِ.

《٧٧》 ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾: هو إنكارٌ، ومقولُهم محذوفٌ؛ أي: هذا سحرٌ، ثم استأنفَ إنكاراً آخرَ فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾: خبرٌ ومبتدأٌ، ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: لا يَظْفَرُ.

《٧٨》 ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾: لتصرفَنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادةِ الأصنام، أو: عبادةِ فرعونَ، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: الملكُ؛ لأن الملوك موصوفون بالكبرياء والعظمةِ والعلوِّ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أرضِ مصرَ، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾: بمصدقين فيما جئتُما به، ﴿ويكونَ﴾: حمادٌ ويحيى[١].

《٧٩》 ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾: ﴿سحّار﴾: حمزةُ وعليٌّ[٢].

《٨٠ - ٨١》 ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ (ما): موصولةٌ واقعةٌ مبتدأً، و(جئتم به): صلتُها، و(السحرُ): خبرٌ؛ أي: الذي جئتم به هو السِّحرُ، لا الذي سمّاه فرعونُ وقومُه سحراً؛ مِن آياتِ اللهِ، ﴿آلسحرُ﴾: بعدَ وقفٍ: أبو عمرٍو؛ على الاستفهام، فعلى هذه القراءة: (ما): استفهاميةٌ؛ أيْ: أيُّ شيءٍ جئتم به؟ أهو السحر؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾: يُظْهِرُ بُطلانَه؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾: لا يُثبتُه بل يدمِّرُه.

《٨٢》 ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾: ويُثْبتُه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: بأوامره وقضاياه، أو: يظهرُ الإسلامَ بِعِداتِه بالنصرة[٣]، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ذلك.

---

(١) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٦٩)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٨٦).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥٠) وكذا القراءة الآتية.

(٣) أي: بوعوده السابقة بأن يُظهر الدين.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

《٨٣》 ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ في أول أمره ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾: إلا طائفةٌ من ذراري بني إسرائيلَ، كأنه قيل: إلا أولادٌ من أولادِ قومِه، وذلك أنه دعا الآباءَ فلم يجيبُوه؛ خوفاً من فرعونَ، وأجابتْه طائفةٌ من أبنائِهم مع الخوف، أو: الضميرُ في (قومِه): لفرعون، والذريةُ: مؤمنُ آلِ فرعونَ، وآسيَةُ امرأتُه، وخازنُه، وامرأةُ خازنِه، وماشِطَتُه، والضميرُ في ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾: يرجعُ إلى فرعون؛ بمعنى: آلِ فرعونَ، كما يقال: ربيعةُ ومضرُ، أو: لأنه ذو أصحابٍ يأتمرون له، أو: إلى الذريةِ؛ أي: على خوفٍ من فرعونَ وخوفٍ من أشرافِ بني إسرائيلَ؛ لأنهم كانوا يمنعُون أعقابَهم؛ خوفاً من فرعونَ عليهم وعلى أنفسِهم؛ دليلُه: قولُه: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ يريد: أن يعذبَهم فرعونُ، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: لغالبٌ فيها قاهرٌ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ في الظلمِ والفسادِ، وفي الكبرِ والعتوِّ بادِّعائِه الربوبيةَ.

《٨٤》 ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾: صدقتُم به وبآياتِه ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾: فإليه أسنِدُوا أمرَكم في العصمةِ من فرعونَ ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾: شرطَ في التوكلِ الإسلامَ، وهو: أن يُسلمُوا نفوسَهم لله؛ أي: يجعلُوها له سالمةً خالصةً لاحظَّ للشيطان فيها؛ لأن التوكلَ لا يكون مع التخليطِ.

《٨٥》 ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إنما قالُوا ذلك؛ لأن القوم كانوا مُخلصين، لا جرمَ أن الله قَبِلَ توكلَهم، وأجابَ دعاءَهم، ونجّاهم وأهلكَ من كانُوا يخافونَه، وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يَصلُحَ للتوكل على ربِّه.. فعليه برفضِ التخليطِ إلى الإخلاص، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾: موضعَ فتنةٍ لهم؛ أي: عذابٍ يعذبُونا أو يفتنونا عن دينِنا؛ أي: يُضلونا، والفاتنُ: المُضِلُّ عن الحق.

《٨٦》 ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: من تعذيبِهم وتسخيرِهم.

《٨٧》 ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تَبوّأَ المكانَ: اتخذَهُ مباءةً، كقولِك: توطّنه: إذا اتخذَه وَطَناً؛ والمعنى: اجعلا بمصرَ بُيوتاً من بيوتِه مباءةً لقومِكما، ومرجعاً يرجعون إليه للعبادةِ والصلاة فيه، ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: مساجدَ متوجهةً نحوَ القبلةِ

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ ....

وهي الكعبةُ، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبةِ، وكانوا في أولِ الأمرِ مأمورين بأن يصلوا في بيوتِهم في خِفْيةٍ من الكفرةِ؛ لئلا يَظهرُوا عليهم فيؤذُوهم ويفتنُوهم عن دينِهم، كما كان المسلمون على ذلك في أولِ الإسلام بمكةَ، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في بيوتكم حتى تأْمَنوا، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ يا موسى، ثَنَّى الخطابَ أوّلاً؛ لأن اختيارَ مواضعِ العبادةِ مما يُفوَّضُ إلى الأنبياء، ثم جمعَ؛ لأن اتخاذَ المساجدِ والصلاةِ فيها واجب على الجمهور، ثم خصَّ موسى عليه السلام بالبشارةِ؛ تعظيماً لها وللمبشِّرِ بها.

«٨٨» ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ هو: ما يُتزيَّنُ به من لباسٍ وحُليٍّ أو فُرُشٍ أو أثاثٍ أو غيرِ ذلك، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾: نقداً ونَعَماً وضَيْعةً[1]، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾: لِيُضِلوا الناسَ عن طاعتِك: كوفيٌّ[2]، ولا وقفَ على (الدنيا)؛ لأن قولَه: (ليضلوا): متعلقٌ بـ(آتيت)، و(ربنا): تكرارُ الأولِ؛ للإلحاحِ في التضرعِ، قال الشيخُ أبو منصورٍ رحمه الله: إذا علم منهم أنهم يُضلون الناس عن سبيلِه.. آتاهم ما آتاهم لِيضلوا عن سبيله وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨][3]، فتكون الآية حجةً لنا على المعتزلة، ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: أهلِكْها وأَذْهِبْ آثاراها؛ لأنهم يستعينون بنعمتك على معصيتك، والطمسُ: المحوُ أو: الإهلاك، قيل: صارت دراهمُهم ودنانيرُهم حجارةً كهيئاتِها منقوشةً، وقيل: وسائرُ أموالهم كذلك، ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: اطبَعْ على قلوبهم واجعلْها قاسيةً، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾: جوابٌ للدعاء الذي هو (اشدد)، ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾: إلى أن يروا العذاب الأليمَ، وكان كذلك، فإنهم لم يؤمنوا إلى الغَرَقِ، وكان ذلك إيمانَ يأسٍ، فلم يُقبلْ، وإنما دعا عليهم[4] بهذا لما أَيِسَ من إيمانهم، وعلمَ بالوحْيِ أنهم لا يؤمنون، فأما قبلَ أن يعلمَ بأنهم لا يؤمنون.. فلا يَسَعُ له أن يدعوَ بهذا الدعاء؛ لأنه أرسل إليهم؛ ليدعوَهم إلى الإيمان، وهو يدلُّ على أن الدعاء على الغيرِ بالموت على الكفرِ.. لا يكون كفراً.

---

(١) الضَّيعةُ: العقارُ، والجمعُ ضِياعٌ.

(٢) أي: بضم الياء، والباقون: بفتحها. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥٠).

(٣) انظر «تأويلات أهل السنة» (٢/ ٤٩٧).

(٤) في الأصل: (دعا لهم)، وما أثبته من المطبوع (١/ ٣٢٩) وهو أولى.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ....

《٨٩》 ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قيل: كان موسى عليه السلام يدعو، وهارون يُؤمِّنْ، فثبَت أن التأمين دعاءٌ، فكان إخفاؤُه أولى؛ والمعنى: أن دعائَكما مستجابٌ، وما طلبتُما كائنٌ، ولكنْ في وقتِه، ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾: فاثبُتا على ما أنتما عليه من الدعوةِ والتبليغِ، ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾: ولا تتبعانِّ طريقَ الجهلةِ الذين لا يعلمون صدقَ الإجابةِ، وحكمةَ الإمهالِ، فقد كان بين الدعاء والإجابةِ أربعون سنةً، ﴿ولا تَتَّبِعانِ﴾: بتخفيفِ النونِ وكسرِها؛ لالتقاء الساكنين؛ تشبيهاً بنونِ التثنيةِ: شاميٌّ[1]، وخطَّأَهُ بعضُهم؛ لأن النون الخفيفةَ واجبةُ السكون[2]، وقيل: هو إخبارٌ عمّا يكونان عليه، وليس بنهيٍ، أو: هو حالٌ، وتقديرُه: فاستقيما غيرَ مُتَّبِعَيْنِ.

《٩٠》 ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾: هو دليلٌ لنا على خلقِ الأفعالِ، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾: فلحقهم، يقال: تَبِعْتُهُ حتى أَتْبَعْتُه، ﴿بَغْيًا﴾: تطاولاً، ﴿وَعَدْوًا﴾: ظلماً، وانتصبا على الحال، أو: على المفعولِ له، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ لا وقفَ عليه؛ لأن ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾: جوابُ (إذا)، ﴿إِنَّهُ﴾: حمزةُ وعليٌّ؛ على الاستئناف: بدلٌ من (آمنت)، وبالفتح: غيرُهما[3]؛ على حذفِ الباءِ التي هي صلةُ الإيمان[4]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ وفيه دليلٌ على أن الإيمان والإسلام واحدٌ؛ حيث قال: (آمنت)، ثم قال: (وأنا من المسلمين) كرَّرَ فرعونُ المعنى الواحدَ ثلاثَ مراتٍ في ثلاثِ عباراتٍ؛ حرصاً على القبولِ، ثم لم يُقبلْ منه حيثُ أخطأَ وقتَه، وكانت المرةُ الواحدةُ تكفي في حالةِ الاختيارِ.

《٩١》 ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾: أتؤمنُ الساعةَ في وقت الاضطرارِ حين أدركَكَ الغرقُ وأَيِسْتَ من نفسِك، قال ذلك حين ألجمهُ الغرقُ، والعامل فيه: أتؤمن، ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾: من الضالين المضلين عن الإيمان، رويَ: أن جبريل عليه السلام أتاه بِفُتيا: ما

---

(١) هي رواية ابن ذكوان عن ابن عامر. انظر «إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص ٥١٠).

(٢) هي قراءة متواترة أثبتها أئمة القراءات في كتبهم، فلا يلتفتُ إلى من ردَّها.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥١).

(٤) أي: أصله: آمنت بأنه.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٩٣ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٩٤﴾ ....

قولُ الأميرِ في عبدٍ لرجلٍ نشأ في مالِه ونعمتِه فكفرَ نعمتَه وجحدَ حقَّه وادعى السيادةَ دونَه؟ فكتب فيه: يقولُ أبو العباسِ الوليدُ بنُ مصعبٍ: جزاءُ العبدِ الخارجِ على سيده، الكافرِ نعماءَه أن يُغرق في البحرِ، فلما ألجمه الغرقُ.. ناوله جبريل خطَّهُ فعرفَه.

《٩٢》 ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ﴾: نلقيك بنجوةٍ من الأرض، فرماه الماءُ إلى الساحل كأنه ثورٌ، ﴿بِبَدَنِكَ﴾: في موضع الحال؛ أي: في الحال التي لا رُوْحَ فيك، وإنما أنت بدنٌ، أو: ببدنك: كاملاً سويّاً لم ينقصْ منه شيءٌ، ولم يتغير، أو: عُرياناً لست إلا بدناً من غير لباسٍ، أو: بِدِرْعِكَ وكانت له دِرعٌ من ذهبٍ يُعرفُ بها، وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه: ﴿بأبدانك﴾[1]: وهو مثلُ قولِهم: هو بأجرامه؛ أي: ببدنك كلِّه وافياً بأجزائِه، أو: بدروعِك؛ لأنه ظَاهَرَ بينها[2]، ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾: لمن وراءَكَ من الناس علامةً، وهم: بنو إسرائيلَ، وكان في أنفسِهم أن فرعونَ أعظمُ شأناً من أن يُغْرَقَ، وقيل: أخبرَهم موسى بهلاكِه فلم يصدِّقُوه، فألقاه اللهُ على الساحل حتى عايَنُوه، وقيل: (لِمَنْ خَلْفَكَ): لمن يأتي بعدَكَ من القرون، ومعنى كونِه آيةً: أن يَظهرَ للناس عبوديتُه، وأن ما كان يدعيه من الربوبيةِ محالٌ، وأنه مع ما كان عليه من عظيمِ الملك.. آلَ أمرُه إلى ما ترون؛ لِعصيانِه ربَّه، فما الظنُّ بغيره؟ ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾.

《٩٣》 ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾: منزلاً صالحاً مَرضيّاً، وهو مصرُ والشامُ، ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ﴾ في دينِهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي: التوراةُ، وهم اختلفُوا في تأويلِها، كما اختلفَ أمةُ محمدٍ ﷺ في تأويلِ الآياتِ في القرآن، أو: المراد: العلمُ بمحمدٍ ﷺ، واختلافُ بني إسرائيلَ وهم أهل الكتابِ.. اختلافُهم في صفتِه: أنه هو أم ليس هو؟ بعدَ ما جاءهم العلمُ أنه هو، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٩٣﴾: يُمَيِّزُ المحقَّ من المبطلِ، ويَجزي كلّاً جزاءَه.

《٩٤》 ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ﴾: لما قدم ذكرَ

---

(١) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٦٩).

(٢) أي: لبس بعضها فوق بعض.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ ....

بني إسرائيلَ وهم قراءُ الكتابِ، وَوَصَفَهُم بأن العلمَ قد جاءهم؛ لأن أمرَ رسولِ الله ﷺ مكتوبٌ في التوارةِ والإنجيلِ وهم يعرفونَه كما يعرفون أبناءهم.. أرادَ أن يؤكدَ علمَهم بصحةِ القرآنِ، وصحةِ نبوتِه ﷺ، ويبالغَ في ذلك فقال: فإن وقعَ لك شكٌّ فَرْضاً وتقديراً - وسبيلُ من خالجتْه شبهةٌ أن يسارعَ إلى حلِّها بالرجوعِ إلى قوانينِ الدينِ وأدلتِه، أو بمباحثةِ العلماءِ - فَسَلْ علماءَ أهلِ الكتابِ؛ فإنهم من الإحاطةِ بصحةِ ما أنزلَ إليك بحيثُ يصلُحون لمراجعةِ مثلِكَ فضلاً عن غيرِكَ، فالمرادُ: وصفُ الأحبارِ بالرسوخِ في العلمِ بصحةِ ما أُنزلَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، لا وصفُ رسولِ الله ﷺ بالشكِّ فيه، ثم قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: ثبتَ عندك بالآياتِ الواضحةِ، والبراهينِ اللائحةِ أن ما أتاك هو الحقُّ الذي لا مجالَ فيه للشكِّ، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾: الشاكّين، ولا وقفَ عليه؛ للعطفِ.

《٩٥》 ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: فاثبت ودُمْ على ما أنت عليه؛ مِن انتفاءِ المِرْيةِ عنك، والتكذيبِ بآياتِ اللهِ، أو: هو على طريقةِ التهييجِ والإلهابِ، كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٨٦، ٨٧]، ولزيادةِ التثبيتِ والعصمةِ؛ ولذلك قال عليه السلام عند نزوله: «لا أشكُّ ولا أسألُ، بل أشهدُ أنه الحقُّ»[1]، أو: خُوطبَ رسولُ الله ﷺ والمرادُ أمتُه؛ أي: وإن كنتم في شكٍّ مما أنزلنا إليكم، كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، أو: الخطابُ لكلِّ سامعٍ يَجوزُ عليه الشكُّ، كقول العرب: إذا عزَّ أخوك.. فَهُنْ[2]، أو: (إن): للنفي؛ أي: فما كنتَ في شكٍّ فاسأل، أي: ولا نأمرُك بالسؤال لأنك شاكٌّ ولكن لتزدادَ يقيناً كما ازدادَ إبراهيمُ عليه السلام بمعاينةِ إحياءِ الموتى.

فإن قلت: إنما يجيءُ (إنْ) للنفي إذا كان بعدَه (إلا)، كقوله: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠].. قلت: ذاك غيرُ لازمٍ؛ ألا ترى إلى قولِه: ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١]، فـ(إنْ): للنفي وليس بعدَه إلا.

---

(١) عن قتادة قال: بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا أشك، ولا أسأل» رواه عبد الرزاق الصنعاني في «المصنف» (٦/ ١٢٥).

(٢) انظر «أمثال العرب» للضبي (ص ١٣٧).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾ ....

《٩٦ ـ ٩٧》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: ثبتَ عليهم قولُ اللهِ الذي كتبَه في اللوحِ، وأخبر به الملائكةَ؛ أنهم يموتون كفاراً، أو: قولُه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأعراف: ١٨]، ولا وقفَ على ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ لأنَّ ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾: تتعلقُ بما قبلَها ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ أي: عندَ اليأسِ فيؤمنون ولا ينفعهم، أو: عندَ القيامةِ ولا يُقبلُ منهم.

《٩٨》 ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ﴾: فهلّا كانت قريةٌ واحدةٌ من القرى التي أهلكناها.. تابت عن الكفر، وأخلصت الإيمانَ قبل المعاينةِ، ولم تؤخرْ، كما أَخَّرَ فرعونُ إلى أن أُخِذَ بِمُخَنَّقِه[1]، ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾: بأن تَقَبَّلَ اللهُ إيمانَها منها بوقوعِه في وقتِ الاختيارِ، ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ﴾: استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: ولكن قومُ يونسَ، أو: متصلٌ، والجملةُ في معنى النفْيِ، كأنه قيل: ما آمنت قريةٌ من القرى الهالكةِ إلا قومَ يونسَ، وانتصابُه على أصل الاستثناء، ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾: إلى آجالهم، روي: أن يونسَ عليه السلام بُعِثَ إلى نِينَوَى من أرضِ المَوْصِلِ فكذبوه، فذهبَ عنهم مُغاضِباً، فلما فقدُوه.. خافُوا نزولَ عذابٍ، فلبِسُوا المُسوحَ كلُّهم[2]، وعَجُّوا أربعين ليلةً[3]، وبرزُوا إلى الصعيدِ بأنفسِهم ونسائِهم وصبيانِهم ودوابِّهم، وفرَّقُوا بين النساء والصبيان، والدوابِّ وأولادِها، فحنَّ بعضُهم إلى بعض، وأظهرُوا الإيمانَ والتوبةَ، فرحمَهم وكشفَ عنهم، وكان يومَ عاشوراءَ يومَ الجمعةِ، وبلغ من توبتهم أن ترادُّوا المظالمَ، حتى إن الرجل كان يقلعُ الحجرَ وقد وضع عليه أساسَ بُنيانِه فيردُّه، وقيل: خرجُوا لما نزل بهم العذابُ إلى شيخٍ من بقيةِ علمائِهم، فقال لهم: قولوا: يا حيُّ حينَ لا حيَّ، ويا حيُّ مُحيي الموتى، ويا حيُّ لا إله إلا أنت. فقالوها فكُشفَ عنهم، وعن الفضيلِ قدَّسَ اللهُ روحَه: قالوا: اللهم إن ذنوبَنا قد عظُمت وجلَّت، وأنت أعظمُ منها وأجلُّ، افعل بِنا ما أنت أهلُه، ولا تفعلْ بنا ما نحن أهلُه.

---

(١) المخنق: مَوضِع حَبل الخنق من العُنُق.

(٢) المسوح: جمع المِسح، وهو: اللباس الخشن.

(٣) عَجُّوا: رفعوا أصواتهم.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ....

《٩٩》 ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ على وجهِ الإحاطةِ والشمولِ ﴿جَمِيعًا﴾: مجتمعين على الإيمانِ مطبِقين عليه، لا يختلفون فيه[1]، أخبرَ عن كمالِ قدرتِه، ونفوذِ مشيئتِه أنه لو شاءَ.. لآمنَ مَن في الأرض كلُّهم، ولكنه شاءَ أن يؤمنَ به مَن علمَ منه اختيارَ الإيمان به، وشاء الكفرَ ممن علمَ أنه يختار الكفرَ ولا يؤمنُ به، وقولُ المعتزلةِ: المرادُ بالمشيئةِ: مشيئةُ القسرِ والإلجاءِ؛ أي: لو خلق فيهم الإيمانَ جبراً.. لآمنوا، لكن قد شاء أن يؤمنوا اختياراً فلم يؤمنُوا؛ دليلُه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: ليس إليك مشيئةُ الإكراهِ والجبرِ في الإيمان، إنما ذلك إليَّ.. فاسدٌ[2]؛ لأن الإيمان فعلُ العبدِ، وفعلُه ما يحصلُ بقدرته، ولا يتحققُ ذلك بدون الاختيارِ، وتأويلُه عندنا: أن الله تعالى لُطفاً لو أعطاهم.. لآمنوا كلُّهم عن اختيارٍ، ولكن علم منهم أنهم لا يؤمنون فلم يعطِهم ذلك، وهو التوفيقُ، والاستفهامُ في (أفأنت): بمعنى النفي؛ أي: لا تملكُ أنت يا محمدُ أن تكرهَهم على الإيمان؛ لأنه يكونُ بالتصديق والإقرار، ولا يمكنُ الإكراهُ على التصديق.

《١٠٠》 ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بمشيئتِه، أو: بقضائِه، أو: بتوفيقِه وتسهيلِه، أو: بعلمِه، ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: العذابَ، أو: السخطَ، أو: الشيطانَ؛ أي: ويسلطُ الشيطانَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾: لا ينتفعون بعقولِهم، ﴿ونجعلُ﴾: حمادٌ ويحيى[3].

《١٠١》 ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟﴾ نظرَ استدلالٍ واعتبارٍ ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: من الآياتِ والعبرِ باختلافِ الليلِ والنهارِ، وخروجِ الزروعِ والثمارِ، ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ﴾ (ما): نافيةٌ، ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾: والرسلُ المنذِرون، أو: الإنذاراتُ، ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾: لا يُتوقعُ إيمانُهم، وهم الذين لا يعقلون.

---

(١) أشار إلى أن (كلهم) تفيد تأكيد عموم (مَن)، و(جميعاً) تفيد عدم اختلافهم في الإيمان.

(٢) أي: وقول المعتزلة... فاسد.

(٣) كلاهما عن شعبة. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥١) وكذا القراءة الآتية.

فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ....

《١٠٢》 ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: وقائعَ اللهِ فيهم، كما يقال: أيامُ العرب؛ لِوقائعِها، ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

《١٠٣》 ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾: معطوفٌ على كلام محذوفٍ يدلُّ عليه: ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ كأنه قيل: نُهلكُ الأممَ، ثم ننجيْ رسلَنا، على حكايةِ الأحوالِ الماضيةِ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: ومن معهم، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مثلَ ذلك الإنجاءِ نُنجي المؤمنين منكم، ونُهلكُ المشركين، و(حقاً علينا): اعتراضٌ؛ أي: حقَّ ذلك علينا حقاً، ﴿نُنجِ﴾: بالتخفيفِ: عليٌّ وحفصٌ.

《١٠٤》 ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: يا أهلَ مكةَ ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ وصحتِه وسَدادِه.. فهذا ديني فاستمعُوا وصفَه، ثم وصفَ دينَه فقال: ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: الأصنامَ، ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾: يُميتُكم، وصفَه بالتوفي؛ ليريَهم أنه الحقيقُ بأن يُخافَ ويُتَّقى ويُعبدَ، دون ما لا يَقْدِرُ على شيءٍ، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: بأن أكونَ؛ يعني: أن اللهَ أمرني بذلك بما رَكَّبَ فيَّ من العقل، وبما أوحَى إليَّ في كتابِه.

《١٠٥》 ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: وأوحَى إليَّ أن أقمْ؛ لِيُشاكِلَ قولَه: ﴿أُمِرْتُ﴾ أي: استقمْ مقبلاً بوجهك على ما أمركَ الله، أو: استقم إليه ولا تلتفت يميناً ولا شِمالاً، ﴿حَنِيفًا﴾: حالٌ من (الدينِ) أو (الوجه)، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

《١٠٦》 ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن دعوتَه، ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن خذلتَه، ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾: فإن دعوتَ من دونِ اللهِ ما لا ينفعُك ولا يضرُّك، فكنَّى عنه بالفعل إيجازاً، ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ (إذاً): جزاءٌ للشرط، وجوابٌ لسؤالٍ مقدرٍ، كأنَّ سائلاً سأل عن تَبِعَةِ عبادةِ الأوثانِ، وجُعِلَ من الظالمين؛ لأنه لا ظلمَ أعظمُ من الشرك.

《١٠٧》 ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ﴾: يُصبْكَ ﴿بِضُرٍّ﴾: مرضٍ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾: لذلك الضرِّ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿إِلَّا هُوَۖ﴾: إلا اللهُ، ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾: عافيةٍ ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾: فلا رادَّ لمرادِه، ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾: بالخيرِ، ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: قطعَ بهذه الآيةِ على عبادِه طريقَ الرغبةِ والرهبةِ إلا إليه، والاعتمادِ إلا عليه، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾: المُكَفِّرُ بالبلاءِ، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾: المعافي بالعطاء، أتبعَ النهيَ عن عبادةِ الأوثانِ وَوَصْفَها بأنها لا تنفعُ ولا تضرُّ.. أن اللهَ هو الضارُّ النافعُ الذي إن أصابَك بِضُرٍّ.. لم يقدرْ على كشفِه إلا هو وحدَه دون كلِّ أحدٍ، فكيف بالجماد الذي لا شعورَ به؟ وكذا إن أرادكَ بخيرٍ.. لم يَرُدَّ أحدٌ ما يُريدُه بك من الفضلِ والإحسانِ، فكيف بالأوثانِ؟ وهو الحقيقُ إذاً بأن تُوَجَّهَ إليه العبادةُ دونَها، وهو أبلغُ من قولِه: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨]، وإنما ذكرَ المسَّ في أحدِهما والإرادةَ في الآخرِ لأنه كأنه أرادَ أن يذكر الأمرين: الإرادةَ والإصابةَ في كلِّ واحدٍ من الضُّرِّ والخير، وأنه لا رادَّ لما يريدُ منهما، ولا مزيلَ لما يصيبُ به منهما، فأوجزَ بأنْ ذَكَرَ المسَّ وهو الإصابةُ في أحدهما، والإرادةَ في الآخر؛ ليدلَّ بما ذُكِرَ على ما تُرِكَ؛ على أنه قد ذكرَ الإصابةَ بالخير في قولِه: (يصيب به من يشاء من عباده).

《١٠٨》 ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: يا أهلَ مكةَ ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾: القرآنُ، أو: الرسولُ ﴿مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾: اختارَ الهُدى واتبعَ الحقَّ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ﴾: فما نفعَ باختياره إلا نفسَه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ﴾: ومن آثرَ الضلالَ.. فما ضرَّ إلا نفسَه، ودلَّ اللامُ و(على) على معنى النفعِ والضُّرِّ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾: بحفيظٍ موكولٍ إليَّ أمرُكم، إنما أنا بشيرٌ ونذيرٌ.

《١٠٩》 ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ على تكذيبِهم وإيذائِهم ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ لك بالنصرةِ عليهم وبالغلبةِ، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ لأنه المُطَّلِعُ على السرائرِ، فلا يحتاجُ إلى بينةٍ وشهودٍ.



﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣﴾ ....

سورة هود عليه السلام

مكيةٌ، وهي مئةٌ وثلاثٌ وعشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتابٌ، فهو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾: صفةٌ له؛ أي: نُظِمَتْ نظماً رصيناً مُحكماً لا يقعُ فيه نقصٌ ولا خللٌ كالبناء المحكمِ، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ كما تُفَصَّلُ القلائدُ.. بالفرائدِ من دلائلِ التوحيدِ والأحكامِ والمواعظِ والقِصصِ[١]، أو: جعلتْ فصولاً سورةً سورةً، وآيةً آيةً، أو: فُرِّقَتْ في التنزيلِ ولم تَنْزِلْ جملةً، أو: فُصِّلَ فيها ما يَحتاجُ إليه العابدُ؛ أي: بُيِّنَ ولُخِّصَ، وليس معنى (ثم) التراخي في الوقت، ولكن في الحال[٢]، ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾: صفةٌ أخرى لـ(كتاب)، أو: خبرٌ بعد خبر، أو: صلةٌ لـ(أحكمت) و(فصلت) أي: مِن عندِه إحكامُها وتفصيلُها.

《٢》 ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾: مفعولٌ له؛ أي: لئلا تعبدوا، أو: (أن): مفسرةٌ؛ لأن في تفصيلِ الآياتِ معنى القول، كأنه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو أَمَرَكم ألا تعبدوا إلا الله، ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ أي: مِن الله.

《٣》 ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي: أَمَركم بالتوحيدِ والاستغفار، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: استغفروا من الشرك، ثم ارجعُوا إليه بالطاعةِ ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾: يُطوِّلْ نفعكم في الدنيا بمنافعَ حسنةٍ مرضيةٍ؛ مِن عيشةٍ واسعةٍ، ونعمةٍ متتابعةٍ، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: إلى أن يتوفاكم، ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾: ويُعْطِ في الآخرة كلَّ مَن كان له فضلٌ في العلم، وزيادةٌ فيه جزاءَ فضلِه، لا يَبْخسْ منه، ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾: وإن تتولَّوا ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣﴾: هو يومُ القيامةِ.

---

(١) الفرائد: جمع فريدةٍ، وهي: الجوهرةُ النفيسةُ.

(٢) المراد بالتراخي في الحال: إما التراخي في الرتبة، أو في الإخبار، ومعنى التراخي في الرتبة: أن تفصيل الآيات أعلى رتبةً من إحكامها؛ لاهتمام النفوس بالتفصيل؛ لأن العقولَ ترتاح إلى البيان والإيضاح. انظر «فتوح الغيب» (٨/ ٧)، و«التحرير والتنوير» (١١/ ٣١٥).

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ ....

《٤》 ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾: رجوعُكم، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾ فكان قادراً على إعادتِكم.

《٥》 ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾: يَزْوَرُّوْنَ عن الحق وينحرفون عنه[1]؛ لأن مَن أقبلَ على الشيءِ.. استقبلَه بصدرِه، ومن ازْوَرَّ عنه وانحرفَ.. ثَنَى عنه صدرَه، وطَوى عنه كَشْحَهُ[2]؛ ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾: ليطلُبُوا الخفاءَ من الله، فلا يَطَّلِعُ رسولُه والمؤمنون على ازْوِرارِهم، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: يتغطَّوْنَ بها؛ أي: يريدون الاستخفاءَ حين يستغشون ثيابَهم؛ كراهةً لاستماعِ كلامِ اللهِ، كقولِ نوحٍ عليه السلام: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧]، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: لا تفاوتَ في علمِه بين إسرارِهم وإعلانِهم، فلا وجهَ لتوصلِهم إلى ما يريدون؛ من الاستخفاءِ واللهُ مطلعٌ على ثَنْيِهم صدورَهم، واستغشائِهم ثيابَهم، ونفاقُهم غيرُ نافقٍ عندَه، قيل: نزلت في المنافقين، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾: بما فيها.

《٦》 ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ تفضلاً لا وجوباً، ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾: مكانَه من الأرضِ ومسكنَه، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ حيث كان مُوْدَعاً قبلَ الاستقرارِ؛ من صُلْبٍ أو رحمٍ أو بيضةٍ، ﴿كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾: كلُّ واحدٍ من الدوابِّ رزقُها ومستقرُّها ومستودعُها في اللوحِ؛ يعني: ذكرُها مكتوبٌ فيه مُبَيَّنٌ.

《٧》 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما بينَهما ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: من الأحدِ إلى الجمعةِ؛ تعليماً للتأنِّي، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: فوقَه؛ يعني: ما كان تحتَه خلقٌ قبلَ خلقِ السمواتِ والأرضِ إلا الماءُ، وفيه دليلٌ على أن العرش والماءَ كانا مخلوقين قبلَ خلقِ السموات والأرضِ، قيل: بدأه بخلقِ ياقوتةٍ خضراءَ، فنظرَ إليها بالهَيبةِ فصارت ماءً، ثم خلقَ ريحاً فأقرَّ الماءَ على متنِه، ثم وضعَ عرشَه على الماءِ، وفي وقوفِ العرشِ على الماءِ أعظمُ

---

(١) ازْوَرَّ عَن الشيء: مَال وانحرف.

(٢) الكشحُ: ما بين الخاصرة إلى الضِّلَعِ الخلف، ومعنى: طوى كَشْحَهُ: أعرضَ.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ ....

اعتبارٍ لأهلِ الأفكارِ؛ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: خلقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما لِيمتَحِنَ فيهما، ولم يخلقْ هذه الأشياءَ لأنفسِها، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أكثرُ شكراً، وعنه عليه السلام: «أحسنُ عقلاً، وأورعُ عن محارمِ اللهِ، وأسرعُ في طاعةِ اللهِ»[1]، فمن شكرَ وأطاعَ.. أثابَه، ومن كفرَ وعصَى.. عاقبَه، ولما أشبهَ ذلك اختبارَ المختبرِ.. قال: لِيبلوَكم؛ أي: ليفعلَ بكم ما يفعلُ المُبْتَلِي لأحوالِكم كيف تعملون.

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾: أشاروا بـ(هذا) إلى القرآنِ؛ لأن القرآنَ هو الناطقُ بالبعث، فإذا جعلُوه سحراً.. فقد اندرجَ تحتَه إنكارُ ما فيه من البعث وغيرِه، ﴿ساحرٌ﴾: حمزةُ وعليٌّ[2]؛ يريدون: الرسولَ، والساحرُ كاذبٌ مبطلٌ.

《٨》 ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾: عذابَ الآخرةِ، أو: عذابَ يومِ بدرٍ ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ﴾: إلى جماعةٍ من الأوقات ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾: معلومةٍ، أو: قلائلَ؛ والمعنى: إلى حينٍ معلوم ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾: ما يمنعُه من النزولِ؛ استعجالاً له على وجه التكذيبِ والاستهزاءِ، ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذابُ ﴿لَيْسَ﴾ العذابُ ﴿مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾، و(يوم): منصوبٌ بـ(مصروفاً) أي: ليس العذابُ مصروفاً عنهم يومَ يأتيهم، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: وأحاطَ بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾: العذابُ الذي كانوا به يستعجلُون، وإنما وُضِعَ (يستهزؤون) موضعَ: يستعجلون؛ لأن استعجالهم كان على جهةِ الاستهزاءِ.

《٩》 ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ﴾: هو للجنس، ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾: نعمةً من صحةٍ وأمنٍ وَجِدَةٍ[3]، واللامُ في (لئن): لتوطئةِ القسم، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾: ثم سلبناه تلك النعمةَ، وجوابُ القسمِ: ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾: شديدُ اليأسِ من أن يعودَ إليه مثلُ تلك النعمةِ المسلوبةِ، قاطعٌ رجاءَه من سَعَةِ فضلِ اللهِ، من غيرِ صبرٍ ولا تسليمٍ لقضائِه، ﴿كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾: عظيمُ الكُفرانِ لما سلف له من التقلُّبِ في نعمة اللهِ، نَسّاءٌ له.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٥٠) عن سيدنا عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥٢).

(٣) الجدة: الغنى.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ ....

《١٠》 ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾: وَسَّعْنا عليه النعمةَ بعدَ الفقرِ الذي نالَه ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي: المصائبُ التي ساءَتْني، ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾: أَشِرٌ بَطِرٌ، ﴿فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ على الناس بما أذاقَه اللهُ من نَعمائه، قد شغلَه الفرحُ والفخرُ عن الشكر.

《١١》 ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ في المحنةِ والبلاءِ، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: وشكروا في النعمةِ والرخاءِ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبِهم، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ يعني: الجنةَ.

《١٢》 كانوا يقترحون عليه آياتٍ تعنتاً لا استرشاداً؛ لأنهم لو كانوا مسترشدين.. كانت آيةٌ واحدةٌ مما جاء به كافيةً في رشادِهم، ومن اقتراحاتِهم: (لولا أنزل عليه كنزٌ أو جاء معه ملك)، وكانوا لا يعتدون بالقرآنِ، ويتهاونُون به، فكان يضيقُ صدرُ رسولِ الله ﷺ أن يُلقيَ إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فَهَيَّجَهُ لأداء الرسالةِ، وطرحِ المبالاةِ بردِّهم واستهزائِهم واقتراحِهم بقوله:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: لعلك تتركُ أن تلقيَه إليهم، وتبلغَه إياهم؛ مخافةَ ردِّهم له وتهاونِهم به، ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ بأن تتلوَه عليهم، ولم يقل: ضَيِّقٌ؛ ليدلَّ على أنه ضِيْقٌ عارضٌ غيرُ ثابتٍ؛ لأنه عليه السلام كان أفسحَ الناس صدراً، ولأنه أَشْكَلُ بـ(تارك)، ﴿أَن يَقُولُوا۟﴾: مخافةَ أن يقولُوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾: هلّا أُنزلَ عليه ما اقترحْنا من الكنز لِنُنْفِقَهُ، والملائكةِ لنصدقَه، ولِمَ أنزلَ عليه ما لا نُريدُه ولا نقترحُه؟ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أي: ليس عليك إلا أن تنذرَهم بما أُوحيَ إليك، وتبلغَهم ما أُمرتَ بتبليغِه، ولا عليك ردُّوا أو تهاونُوا، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾: يحفظُ ما يقولون، وهو فاعلٌ بهم ما يجبُ أن يُفعلَ، فتوكلْ عليه، وكِلْ أمركَ إليه، وعليك بتبليغِ الوحْيِ بقلبٍ فسيحٍ، وصدرٍ منشرحٍ، غيرَ ملتفتٍ إلى استكبارِهم، ولا مُبالٍ بسفهِهم واستهزائِهم.

《١٣》 ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ (أم): منقطعةٌ، ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الضميرُ: لـ(ما يوحَى إليك)، ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾: تحدّاهم أولاً بعشرِ سورٍ، ثم بسورةٍ واحدةٍ، كما يقول المُخايِرُ في الخطِّ

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ ....

لصاحبِه[1]: «اكتبْ عشرةَ أسطرٍ نحوَ ما أكتبُ»، فإذا تبيَّنَ له العجزُ عن ذلك.. قال: «قد اقتصرت منك على سطرٍ واحدٍ»، ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ في الحسنِ والجزالةِ، ومعنى (مثله): أمثالُه؛ ذهاباً إلى مماثلةِ كلِّ واحدةٍ منها له، ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾: صفةٌ لـ(عشرِ سورٍ)، لمّا قالوا: افتريتَ القرآنَ واختلقتَه من عند نفسِك، وليس من عند الله.. أرخى معهم العِنانَ وقال: هَبُوا أني اختلقتُه من عندِ نفسي، فأْتُوا أنتم أيضاً بكلامٍ مثلِه مختلَقٍ من عند أنفسكم، فأنتم عربٌ فصحاءُ مِثلي، ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى المعاونةِ على المعارضةِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ أنه مفترىً.

«١٤» ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: أُنزلَ ملتبِساً بما لا يعلمُه إلا الله؛ مِن نظمٍ معجزٍ للخلق، وإخبارٍ بغيوبٍ لا سبيلَ لهم إليها، واعلموا عندَ ذلك أنْ لا إله إلا الله وحدَه، وأن توحيدَه واجبٌ، والإشراكَ به ظلمٌ عظيمٌ، وإنما جمعَ الخطابَ بعدَ إفرادِه، وهو قوله: (لكم فاعلموا) بعدَ قولِه: (قل).. لأن الجمعَ لتعظيمِ رسولِ الله ﷺ، أو: لأن رسول الله والمؤمنين كانُوا يحدثُونهم، أو: لأن الخطابَ للمشركين، والضميرُ في (فإن لم يستجيبوا): لـ(من استطعتم)؛ أي: فإن لم يستجبْ لكم مَن تدعونه من دون الله إلى المظاهرةِ على المعارضةِ؛ لعلمِهم بالعجز عنه.. فاعلمُوا أنما أنزلَ بعلمِ اللهِ؛ أي: بإذنِه، أو: بأمرِه، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾: مبايعون بالإسلام بعدَ هذه الحجةِ القاطعةِ، ومن جعلَ الخطابَ للمسلمين.. فمعناه: فاثبتُوا على العلمِ الذي أنتم عليه، وازدادُوا يقيناً على أنه منزلٌ من عند الله، وعلى التوحيدِ، فهل أنتم مسلمون: مخلصون.

«١٥» ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾: نُوْصل إليهم أجورَ أعمالِهم وافيةً كاملةً من غيرِ بخسٍ في الدنيا، وهو ما يُرْزَقُون فيها من الصحةِ والرزق، وهم الكفارُ، أو المنافقون.

«١٦» ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾: وحبطَ في الآخرة ما صنعُوه، أو صنيعُهم؛ أي: لم يكن لهم ثوابٌ؛ لأنهم لم يريدُوا به الآخرة، إنما أرادُوا به الدنيا، وقد وُفِّيَ إليهم ما أرادُوا، ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: كان عملُهم في نفسه باطلاً؛ لأنه لم يُعمَلْ لغرضٍ صحيحٍ، والعملُ الباطلُ لا ثوابَ له.

---

(١) المخايرُ: المُغالبُ.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ....

《١٧》 ومعنى ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أَمَنْ كان يريدُ الحياةَ الدنيا كمن كان على بينةٍ؛ أي: لا يَعْقُبونهم في المنزلةِ، ولا يُقاربونهم؛ يعني: أن بين الفريقين تبايُناً بَيِّناً، وأرادَ بهم من آمن من اليهود كعبدِ الله بنِ سلام وغيرِه، كان على بينةٍ من ربِّه؛ أي: على برهانٍ من الله وبيانٍ أن دينَ الإسلامِ حقٌّ، وهو دليلُ العقلِ، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾: ويتبعُ ذلك البرهانَ ﴿شَاهِدٌ﴾ يشهدُ بصحتِه وهو القرآن، ﴿مِّنْهُ﴾: من الله، أو: من القرآنِ، فقدْ مرَّ ذكرُه آنفاً، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾: ومن قبلِ القرآنِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: وهو التوراةُ؛ أي: ويتلو ذلك البرهانَ أيضاً من قبلِ القرآنِ كتابُ موسى عليه السلام، ﴿إِمَامًا﴾: كتاباً مُؤْتمّاً به في الدينِ قدوةً فيه، ﴿وَرَحْمَةً﴾: ونعمةً عظيمةً على المُنْزَلِ إليهم، وهما حالان، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: من كان على بينةٍ ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: بالقرآنِ، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾: بالقرآنِ ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني: أهلَ مكةَ ومن ضامَّهم من المتحزِّبين على رسولِ اللهِ ﷺ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾: مصيرُه ومورِدُه، ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾: شكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾: من القرآنِ، أو من الموعدِ، ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

《١٨》 ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: يُحبسون في الموقفِ وتُعْرَضُ أعمالُهم، ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: ويشهدُ عليهم الأشهادُ من الملائكةِ والنبيين بأنهم الكذّابون على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكاً، ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾: الكاذبين على ربهم، والأشهادُ: جمعُ شاهدٍ، كأصحابٍ وصاحبٍ، أو: شهيدٍ، كشريفٍ وأشرافٍ.

《١٩》 ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: يَصرفون الناسَ عن دينه، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: يَصفونَها بالاعوجاجِ وهي مستقيمةٌ، أو: يَبغون أهلَها أن يَعْوَجُّوا بالارتدادِ، ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ (هم) الثانيةُ: لتأكيدِ كفرِهم بالآخرةِ واختصاصِهم به.

《٢٠》 ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: ما كانوا بمعجزين اللهَ في الدنيا أن يعاقبَهم لو أرادَ عِقابَهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾: مَن يتولّاهم فينصرُهم منه

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾

ويمنعُهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارَهم وتأخيرَ عقابِهم إلى هذا اليوم، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لأنهم أضلُّوا الناسَ عن دينِ اللهِ، ﴿يُضَعَّفُ﴾: مكيٌّ وشاميٌّ[1]، ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: استماعَ الحقِّ، ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الحقَّ.

《٢١》 ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيثُ اشترَوا عبادةَ الآلهةِ بعبادةِ اللهِ، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: وبطلَ عنهم وضاعَ ما اشترَوه، وهو ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ من الآلهةِ وشفاعتِها.

《٢٢》 ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ بالصدِّ والصدودِ، وفي (لا جرم): أقوالٌ، أحدُها: أنَّ (لا): ردٌّ لكلامٍ سابقٍ؛ أي: ليس الأمرُ كما زعمُوا؛ ومعنى (جرم): كَسَبَ، وفاعلُه مضمرٌ، و(أنهم في الآخرة): في محلِّ النصبِ، والتقديرُ: كَسَبَ قولُهم خسرانَهم في الآخرة، وثانيها: أن (لا جرم): كلمتانِ رُكِّبتا فصارَ معناهما: حقّاً، و(أن): في موضعِ رفعٍ بأنه فاعلٌ لـ: حقَّ؛ أي: حقَّ خُسرانُهم، وثالثُها: أن معناه: لا محالةَ[2].

《٢٣》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: واطمأنُّوا إليه، وانقطعُوا إلى عبادتِه بالخشوعِ والتواضعِ؛ مِن الخَبْتِ، وهي: الأرضُ المطمئنةُ[3]، ﴿أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

《٢٤》 ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ شُبِّهَ فريقُ الكافرين بالأعمى والأصمِّ، وفريقُ المؤمنين بالبصيرِ والسميعِ، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ يعني: الفريقين ﴿مَثَلًا﴾: تشبيهاً، وهو نصبٌ على التمييز، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فتنفعون بضربِ المثلِ.

《٢٥》 ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: بأني، والمعنى: أرسلناه ملتبساً

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥٣).

(٢) وعلى هذا الوجه الثالث يكون التقدير: (لا محالةَ في أنهم...) انظر «الدر المصون» (٦/ ٣٠٣). وحرفُ الجر المحذوف متعلق بخبر (لا) المقدر.

(٣) أي: أصلُ الإخبات: نزولُ الخَبْتِ، ثم أطلق على الخشوع استعارةً، ثم صار حقيقةً شرعيةً فيه. انظر «الإكليل» (٤/ ٢٧١).

أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ....

بهذا الكلام، وهو قولُه: (إني لكم نذير مبين): بالكسرِ، فلما اتصل به الجارُّ.. فتحَ كما فتحَ في (كأنَّ)، والمعنى على الكسرِ، وبكسرِ الألفِ: شاميٌّ ونافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ؛ على إرادةِ القولِ[1].

《٢٦》 ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (أن): مفسرةٌ متعلقةٌ بـ(أرسلنا)، أو بـ(نذير)، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ وصفُ اليوم بـ(أليم) من الإسنادِ المجازيِّ؛ لوقوعِ الألمِ فيه.

《٢٧》 ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ يريدُ: الأشرافَ؛ لأنهم يملؤون القلوبَ هيبةً، والمجالسَ أُبَّهةً، ولأنهم مُلِئُوا بالأحلامِ والآراءِ الصائبةِ، ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: أرادُوا أنه كان ينبغي أن يكون مَلِكاً أو مَلَكاً، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾: أَخِسَّاؤُنا: جمعُ الأرذلِ، ﴿بَادِىَ﴾ وبالهمزةِ: أبو عمرٍو[2]، ﴿ٱلرَّأْىِ﴾ وبغير همزٍ: أبو عمرٍو[3]؛ أي: اتبعوك ظاهرَ الرأيِ، أو: أولَ الرأيِ، مِن: بَدا يبدو: إذا ظهرَ، أو: مِن: بدأَ يبدأُ: إذا فعلَ الشيءَ أوَّلاً، وانتصابُه: على الظرف، أصلُه: وقتَ حدوثِ ظاهرِ رأيِهم، أو: أولِ رأيِهم، فحذفَ ذلك، وأقيمَ المضافُ إليه مُقامَه، أرادُوا أن اتباعَهم لك شيءٌ عَنَّ لهم بَديهةً من غيرِ رَوِيَّةٍ ونظرٍ، ولو تفكروا.. ما اتبعوك، وإنما استرذلُوا المؤمنين؛ لفقرِهم وتأخرِهم في الأسبابِ الدنيويةِ؛ لأنهم كانوا جُهالاً، ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرافُ عندهم مَن له جاهٌ ومالٌ كما تَرى أكثرَ المتسمِّين بالإسلامِ يعتقدون ذلك، ويَبنون عليه إكرامَهم وإهانتَهم، ولقد زلَّ عنهم أن التقدم في الدنيا لا يُقَرِّبُ أحداً من الله وإنما يُبعده، ولا يرفعُه بل يضعُه، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ في مالٍ ورأيٍ؛ عَنَوا نوحاً وأتباعَه، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: نوحاً في الدعوةِ، ومُتبعيه في الإجابةِ والتصديقِ؛ يعني: تَواطأتم على الدعوةِ والإجابةِ؛ تسبيباً للرياسةِ.

《٢٨》 ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾: أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾: برهانٍ ﴿مِّن رَّبِّى﴾ وشاهدٍ منه يشهدُ بصحةِ دعواي، ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ يعني: النبوةَ، ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خَفِيَتْ،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥٣) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

(٢) أي: بهمزة مفتوحة.

(٣) برواية السوسي.

وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ....

﴿فَعُمِّيَتۡ﴾: حمزةُ وعليٌّ وحفصٌ؛ أي: أُخْفِيَتْ؛ أي: فَعُمِّيَتْ عليكم البينةُ، فلم تهدِكم، كما لو عُمِّيَ على القوم دليلُهم في المفازةِ بَقُوا بغيرِ هادٍ، وحقيقتُه: أن الحجةَ كما جعلتْ بَصِيرةً ومُبْصِرةً.. جُعِلَتْ عمياءَ؛ لأن الأعمَى لا يهتدِي، ولا يهدِي غيره ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ أي: الرحمةَ ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾: لا تريدونَها، والواوُ دخلتْه هنا تتمةً للميم، وعن أبي عمرٍو: إسكانُ الميم، ووجهه أن الحركة خَلْسةٌ خفيفة فظنها الراوي سكوناً، وهو لحن؛ لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر[1].

《٢٩》 ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾: على تبليغِ الرسالةِ؛ لأنه مدلولُ قولِه: (إني لكم نذير)، ﴿مَالًاۖ﴾: أجراً يَثْقُلُ عليكم إن أديتم، أو عليَّ أن أَبيتم، ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ وأبو عمرٍو وحفصٌ[2]، ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾: جوابٌ لهم حين سألُوا طردَهم ليؤمنوا به؛ أَنَفَةً من المجالسةِ معهم، ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ فيشكونَني إليه إن طردتُهم، ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾: تَتَسافهون على المؤمنين، وتدعونَهم أراذلَ، أو: تجهلون لقاءَ ربِّكم، أو: أنهم خيرٌ منكم.

《٣٠》 ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾: من يمنعُني من انتقامِه ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾: تتعظون.

《٣١》 ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فأدعيَ فضلاً عليكم بالغنى حتى تجحدُوا فضلي بقولِكم: (وما نرى لكم علينا من فضل)، ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ حتى أَطَّلِعَ على ما في نفوسِ أتباعي وضمائرِ قلوبِهم، وهو معطوفٌ على (عندي خزائن) أي: لا أقول: عندي خزائنُ الله، ولا أقولُ:

---

(١) قال الزجاج في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/٤٨): القراءةُ بضم الميم - أي: الميم الأُولى - ويجوز إسكانُها على بُعْدٍ؛ لكثرة الحركات وثِقَلِ الضمة بعد الكسرة، وسيبويهِ والخليل لا يُجيزان إسكانَ حرفِ الإعراب إلا في اضطرارٍ، فأما ما رويَ عن أبي عمرٍو من الإسكان.. فلم يُضبطْ ذلك عنه، ورواه عنه سيبويه أنه كان يخففُ الحركاتِ ويختلسُها، وهذا هو الوجه.

(٢) أي: بفتح الياء. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥٣).

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ....

أنا أعلمُ الغيب، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولُوا لي: (ما أنت إلا بشرٌ مثلُنا)، ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾: ولا أحكمُ على من استرذلتم من المؤمنين؛ لِفقرِهم: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ في الدنيا والآخرةِ؛ لهوانِه عليه مساعدةً لكم، ونزولاً على هواكم، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من صدقِ الاعتقادِ، وإنما عليَّ قبولُ ظاهرِ إقرارِهم؛ إذْ لا أَطَّلِعُ على خفيِّ أسرارِهم، ﴿إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ إن قلت شيئاً من ذلك، والازدراءُ: (افْتِعالٌ) مِن زَرَى عليه: إذا عابه، وأصلُه: تَزْتَرِي، فأُبدلت التاءُ دالاً[1].

《٣٢》 ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾: خاصمتنا، ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذابِ ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ في وعدِك.

《٣٣》 ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾ أي: ليس الإتيانُ بالعذابِ إليَّ، وإنما هو إلى من كفرتم به، ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: لم تقدِروا على الهَرَبِ منه.

《٣٤》 ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي﴾: هو إعلامُ موضعِ الغيِّ ليُتقى، والرشدِ لِيُقتفى، ﴿ولكنيَ﴾ ﴿إنيَ إذاً﴾ ﴿نصحيَ﴾: مدنيٌّ وأبو عمرٍو[2]، ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: يُضلَّكم، وهذا شرطٌ دخلَ على شرطٍ، فيكون الثاني مقدماً في الحكم؛ كما عُرفَ، تقديرُه: إن كان الله يريد أن يغويَكم.. لا ينفعُكم نصحي إن أردتُ أن أنصحَ لكم، وهو دليلٌ بَيِّنٌ لنا في إرادةِ المعاصي، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ فيتصرفُ فيكم على قضيةِ إرادتِه، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فيجازيْكم على أعمالِكم.

《٣٥》 ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾: بلْ أيقولون: افتراه، ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي: إن صحَّ أني افتريتُه.. فعليَّ عقوبةُ إجرامِي؛ أي: افترائِي، يقال: أجرمَ الرجلُ: إذا أذنبَ، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾ أي: ولم يثبت ذلك، وأنا بريءٌ منه، ومعنى ﴿مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾: من إجرامِكم في إسنادِ الافتراءِ إليَّ، فلا وجهَ لإعراضِكم ومعاداتِكم.

---

(١) لأن الدال تجانس الزاي، فكلاهما من حروف الجهر، وأما التاء فمهموسة. انظر «الإكليل» (٤/ ٢٧٥).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٥٣).

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ....

《٣٦》 ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾: إقناطٌ من إيمانِهم، وأنه غيرُ متوقَّعٍ، وفيه دليلٌ على أن للإيمان حُكْمَ التجددِ، لأنه قال: إن الذي آمنَ.. يؤمنُ في حادثِ الوقتِ، وعلى ذلك تُخرَّجُ الزيادةُ التي ذكرت في الإيمانِ بالقرآنِ، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾: فلا تحزنْ حزنَ بائسٍ مستكينٍ، والابتآسُ: (افتعال) من البُؤْسِ، وهو الحزنُ والفقرُ، والمعنى: فلا تحزنْ بما فعلُوه من تكذيبِك وإيذائِك؛ فقد حانَ وقتُ الانتقامِ من أعدائِك[1].

《٣٧》 ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: هو في موضعِ الحالِ؛ أي: اصنعْها محفوظاً، وحقيقتُه: ملتبساً بأعيننا، كأن لله أعيناً تَكْلَؤُه أن يزيغَ في صنعتِه عن الصوابِ، ﴿وَوَحْيِنَا﴾: وأنا نُوحي إليك ونلهمُكَ كيف تصنع، عن ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما: لم يعلمْ كيف صنعةُ الفلكِ، فأَوحَى اللهُ إليه أن يصنعَها مثلَ جُؤْجُؤِ الطيرِ[2]، ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾: ولا تدعُني في شأنِ قومِك واستدفاعِ العذاب عنهم بشفاعتِك، ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾: محكومٌ عليهم بالإغراق وقد قُضِيَ به وجفَّ القلمُ فلا سبيلَ إلى كَفِّهِ.

《٣٨》 ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾: حكايةُ حالٍ ماضيةٍ، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ ومن عملِه السفينةَ، وكان يعملُها في بَرِّيَّةٍ في أبعدِ موضعٍ من الماء، فكانوا يتضاحكون منه ويقولون له: يا نوحُ صِرْتَ نجاراً بعدَ ما كنتَ نبيّاً، ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ عندَ رؤيةِ الهُلْكِ ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ منا عند رؤيةِ الفلكِ.

رويَ: أن نوحاً عليه السلام اتخذَ السفينةَ من خشبِ الساجِ في سنتين، وكان طولها ثلاثَ مئةِ ذراعٍ، أو ألفاً ومئتي ذراعٍ، وعرضُها خمسون ذراعاً، أو ستُّ مئةِ ذراعٍ، وطولُها في السماء ثلاثون ذراعاً، وجعلَ لها ثلاثةَ بطونٍ، فحملَ في البطنِ الأسفلِ الوحوشَ والسباعَ والهوامَّ، وفي البطنِ الأوسطِ الدوابَّ والأنعامَ، وركبَ نوحٌ ومن معه في البطنِ الأعلى مع ما يحتاجُ إليه من الزادِ، وحملَ معه جسدَ آدمَ عليه السلام، وجعلَه حاجزاً بين الرجالِ والنساءِ.

---

(١) في الأصل: (وقت انتقامِ أعدائِك)، والمثبت من المطبوع (٢/ ٣٥٠) وهو أولى.

(٢) جُؤْجُؤُ الطائرِ: صدرُه.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١﴾ ....

《٣٩》 ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾ (مَن): في محلِّ نصبٍ بـ(تعلمون) أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويعني به إياهم، ويريد بالعذاب عذابَ الدنيا، وهو الغرقُ، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾: وينزل عليه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩﴾: وهو عذابُ الآخرةِ.

《٤٠》 ﴿حَتَّىٰٓ﴾: هي التي يُبتدأُ بعدَها الكلامُ، أُدخلت على الجملةِ من الشرطِ والجزاءِ، وهي غايةٌ لقولِه: (ويصنع الفلك)؛ أي: وكان يصنعُها إلى أن جاءَ وقتُ الموعِدِ، وما بينهما من الكلام حالٌ مِن: (يصنعُ)[1] أي: يصنعُها والحالُ أنه كلَّما مرَّ عليه ملأٌ من قومه.. سخرُوا منه، وجوابُ (كلما): (سخروا)، و(قال): استئنافٌ على تقديرِ سؤالِ سائلٍ، أو: (قال): جوابٌ، و(سخروا): بدلٌ من (مرَّ)، أو: صفةٌ لـ(ملأٌ)، ﴿إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: عذابُنا، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: هو كنايةٌ عن اشتدادِ الأمرِ وصعوبتِه، وقيل: معناهُ: جاشَ الماءُ من تَنُّورِ الخبزِ، وكان من حَجَرٍ لحواءَ، فصار إلى نوحٍ عليه السلام، وقيل: التنورُ وجهُ الأرضِ، ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾: في السفينةِ ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: تفسيرُه في (سورة المؤمنين)، ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾: عطفٌ على (اثنين)، وكذا: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي: واحملْ أهلَكَ والمؤمنين من غيرِهم، واستثنَى من أهله مَن سبقَ عليه القولُ إنه من أهل النار، وما سبقَ عليه القولُ بذلك إلا للعلم بأنه يختارُ الكفرَ بتقديرِه وإرادتِه، جلَّ خالقُ العبادِ عن أن يقعَ في الكون خلافُ ما أراد، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ قال عليه السلام: «كانوا ثمانيةً: نوحٌ وأهلُه وبنوه الثلاثةُ ونساؤُهم»[2]، وقيل: كانوا عشرةً: خمسةُ رجالٍ، وخمسُ نسوةٍ، وقيل: كانوا اثنين وسبعين، رجالاً ونساءً، وأولادُ نوحٍ: سامٌ وحامٌ ويافِثُ، ونساؤُهم، فالجميعُ ثمانيةٌ وسبعون، نصفُهم رجالٌ، ونصفُهم نساءٌ.

《٤١》 ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ (بسم الله): متصلٌ بـ(اركبوا) حالاً من الواو؛ أي: اركبُوا فيها مسمِّينَ اللهَ، أو: قائلين: بسم الله وقتَ إجرائِها، ووقتَ إرسائِها، إما لأن المجرَى والمرسَى للوقت، وإما لأنهما مصدران، كالإجراءِ والإرساءِ، حُذِفَ منهما الوقتُ المضافُ، كقولهم: خفوقَ النجمِ. ويجوزُ أن يكون (بسم الله مجراها ومرساها) جملةً برأسِها

---

(١) أي: مِن فاعلِ (يصنع).

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٢٥) من قول قتادة.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ....

غيرَ متعلقةٍ بما قبلَها، وهي مبتدأٌ وخبرٌ؛ يعني: أن نوحاً عليه السلام أَمَرَهم بالركوب، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكرِ اسمِ الله؛ أي: بسمِ الله إجراؤُها وإرساؤُها، وكان إذا أراد أن تجريَ.. قال: (بسم الله) فَجَرت، وكان إذا أراد أن ترسُوَ.. قال: (بسم الله) فَرَسَتْ، ﴿مَجْرِيٰهَا﴾: بفتح الميم وكسرِ الراء؛ مِن: جرى، إما مصدرٌ أو وقتٌ: حمزةُ وعليٌّ وحفصٌ[1]، ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ﴾ لمن آمنَ منهم، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ حيثُ خلَّصَهم.

《٤٢》 ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾: متصلٌ بمحذوفٍ دلَّ عليه (اركبوا فيها بسم الله) كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون باسم الله وهي تجري بهم؛ أي: تجري وهم فيها، ﴿فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ يريدُ: موجَ الطُّوْفانِ، وهو جمعُ مَوجةٍ، كتمرٍ وتمرةٍ، وهو ما يرتفعُ من الماء عندَ اضطرابِه بدخولِ الرياحِ الشديدةِ في خلالِه، شَبَّهَ كلَّ موجةٍ منه بالجبل في تراكُمِها وارتفاعِها، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُۥ﴾: كنعانَ، وقيل: يامَ، والجمهورُ على أنه ابنُه الصلْبيُّ، وقيل: كان ابنَ امرأتِه، ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عن أبيه وعن السفينةِ، (مَفْعِل) مِن: عَزَلَه عنه: إذا نَحّاه وأبعدَه، أو في مَعْزِلٍ عن دين أبيه: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾: بفتح الياءِ: عاصمٌ؛ اقتصاراً عليه من الألفِ المبدلةِ من ياءِ الإضافةِ؛ من قولِك: يا بُنَيَّا، غيرُه: بكسر الياءِ؛ اقتصار عليه من ياءِ الإضافةِ[2]، ﴿ارْكَب مَّعَنَا﴾ في السفينة؛ أي: أسلِمْ واركَبْ، ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

《٤٣》 ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ﴾: ألجأُ ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَآءِ﴾: يمنعُني من الغرَقِ، ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾: إلا الراحمَ، وهو اللهُ تعالى، أو: لا عاصمَ اليومَ من الطُّوفان إلا من رحمَ اللهُ؛ أي: إلا مكانَ مَن رحمَ اللهُ من المؤمنين، وذلك أنه لما جعلَ الجبلَ عاصماً من الماء قال له: لا يَعْصِمُك اليومَ مُعتصَمٌ قطُّ من جبلٍ ونحوِه سوى معتصَمٍ واحدٍ وهو مكانُ من رحمَهم اللهُ ونجّاهم؛ يعني: السفينةَ، أو: هو استثناءٌ منقطعٌ، كأنه قيل: ولكن مَن

(١) والباقون: بضم الميم، وعلى كلا القراءتين آخرُ الكلمة ألفٌ، ومرادُ النسفي بكسر الراء: الإمالةُ. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥٤، ١٥٥).

(٢) انظر المرجع السابق (ص١٥٤).

وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

رحمَهُ اللهُ فهو المعصومُ كقولِه: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ [النساء: ١٥٧](١)، ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ﴾: بين ابنِه والجبلِ، أو: بين نوحٍ وابنِه، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾: فصارَ، أو: فكانَ في علمِ اللهِ.

﴿٤٤﴾ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾: انْشَفِي وتَشَرَّبي، والبلعُ: النَّشْفُ، ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾: أمسكِي، ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾: نَقَصَ؛ مِن: غاضَه: إذا نَقَصَهُ، وهو لازمٌ ومتعدٍّ، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: وأُنْجِزَ ما وعدَ اللهُ نوحاً من إهلاكِ قومِه، ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾: واستقرت السفينةُ بعد أن طافت الأرضَ كلَّها ستةَ أشهرٍ ﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾: وهو جبلٌ بالمَوْصِلِ، ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: سُحقاً لقومِ نوحٍ الذين غَرِقُوا؛ يقال: بَعِدَ بُعْداً وبَعَداً: إذا أرادُوا البُعْدَ البعيدَ من حيثُ الهلاكُ والموتُ؛ ولذلك خُصَّ بدعاءِ السُّوءِ.

والنظرُ في هذه الآيةِ من أربعِ جهاتٍ:

من جهةِ علمِ البيانِ، وهو النظرُ فيما فيها من المجازِ والاستعارةِ والكنايةِ وما يتصل بها، فنقول: إن اللهَ تعالى لما أرادَ أن يُبينَ معنى: أردْنا أن نَرُدَّ ما انفجرَ من الأرضِ إلى بطنِها فارتدَّ، وأن نقطعَ طُوفانَ السماءِ فانقطعَ، وأن نُغيضَ الماءَ النازلَ من السماء فغِيضَ، وأن نَقضيَ أمر نوحٍ وهو إنجازُ ما كنّا وعدْناه من إغراقِ قومِه فقُضيَ، وأن نُسوِّيَ السفينةَ على الجُوديِّ فاستوتْ، وأبقينا الظَّلَمَةَ غَرْقَى.. بُنِيَ الكلامُ على تشبيهِ المرادِ.. بالمأمور الذي لا يتأتّى منه؛ لكمال هيبتِه العصيانُ، وتشبيهِ تكوينِ المرادِ بالأمرِ الجازمِ النافذِ في تكَوُّنِ المقصودِ تصويراً لاقتدارِه العظيم، وأن السمواتِ والأرضَ منقادةٌ لتكوينِه فيها ما يشاءُ، غيرُ ممتنعةٍ لإرادتِه فيها تغييراً وتبديلاً، كأنها عقلاءُ مميِّزون قد عرفُوه حقَّ معرفتِه، وأحاطُوا علماً بوجوبِ الانقيادِ لأمرِه، والإذعانِ لحُكمِه، وتَحتُّمِ بذلِ المجهودِ عليهم في تحصيلِ مرادِه، ثم بَنَى على تشبيهِ هذا نظمَ الكلامِ فقال عزَّ وجلَّ: (وقيل) على سبيلِ المجازِ عن الإرادةِ الواقعِ بسببِها قولُ القائلِ، وجعلَ قرينةَ المجازِ الخطابَ للجمادِ، وهو (يا أرض)، و(يا سماءُ)، ثم قال مخاطباً لهما: (يا أرضُ) و(يا سماءُ) على سبيل الاستعارةِ؛ للشَّبَهِ المذكورِ، ثم استعارَ لِغَوْرِ الماءِ في الأرض البلعَ الذي هو إعمالُ

(١) وقيل: (عاصم) بمعنى: معصوم؛ أي: لا معصومَ اليوم من أمر الله إلا مَن رحمه الله فإنه يُعصَم. انظر «الدر المصون» (٦/ ٣٣٢).

....

الجاذبةِ في المطعومِ؛ للشبهِ بينهما وهو الذهابُ إلى مَقَرٍّ خفيٍّ، ثم استعارَ الماءَ للغذاءِ؛ تشبيهاً له بالغذاءِ؛ لِتَقَوِّي الأرضِ بالماءِ في الإنباتِ، كتَقَوِّي الآكلِ بالطعامِ، ثم قال: (ماءك) بإضافةِ الماءِ إلى الأرضِ على سبيلِ المجازِ؛ لاتصالِ الماءِ بالأرضِ كاتصالِ المُلْكِ بالمالك، ثم اختار لاحتباسِ المطرِ الإقلاعَ الذي هو تركُ الفاعلِ الفعلَ؛ للشبه بينهما في عدمِ التأنّي، ثم قال: (وغِيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً) ولم يُصَرِّحْ بمَن غاضَ الماءَ، ولا بمن قضَى الأمرَ، وسَوَّى السفينةَ، وقالَ: بُعداً، كما لم يُصَرِّحْ بقائلِ: (يا أرض) و(يا سماء)؛ سلوكاً في كلِّ واحدٍ من ذلك لسبيلِ الكنايةِ، وأنَّ تلك الأمورَ العظامَ لا تكون إلا بفعلِ فاعلٍ قادرٍ، وتكوينِ مكوِّنٍ قاهرٍ، وأن فاعلَها واحدٌ لا يُشارَكُ في فعلِه، فلا يذهبُ الوَهَمُ إلى أن يقول غيرُه: يا أرضُ ابلعي ماءك، ويا سماءُ أقلعي، ولا أن يكونَ الغائضُ والقاضِي والمسَوِّي غيرَه، ثم ختمَ الكلامَ بالتعريضِ؛ تنبيهاً لسالكِي مسلكِهم في تكذيبِ الرسلِ ظُلماً لأنفسِهم؛ إظهاراً لمكانِ السخطِ، وأن ذلك العذابَ الشديدَ ما كان إلا لظلمِهم.

ومن جهةِ علمِ المعانِي، وهو النظرُ في فائدةِ كلِّ كلمةٍ فيها، وجِهةِ كلِّ تقديمٍ وتأخيرٍ فيما بين جُمَلِها، وذلك أنه اخْتِيْرَ (يا) دونَ أَخَواتِها؛ لكونِها أكثرَ استعمالاً، ولِدلالَتِها على بُعدِ المنادَى، الذي يستدعيه مقامُ إظهارِ العظمةِ والملكوتِ، وإبداءِ العزةِ والجبروتِ، وهو تبعيدُ المنادَى المُؤْذِنُ بالتهاونِ به، ولم يقل: يا أرضِي؛ لزيادةِ التهاونِ؛ إذ الإضافةُ تستدعي القربَ، ولم يقل: يا أيتها الأرضُ؛ للاختصارِ، واختير لفظُ الأرضِ والسماءِ؛ لكونِهما أخفَّ وأدْوَرَ، واختيرَ (ابلعي) على ابتلعِي؛ لكونه أخصرَ؛ وللتجانُسِ بينه وبين (أقلعي)، وقيل: (أقلعي)، ولم يقل: عن المطر، وكذا لم يقل: يا أرض ابلعي ماءَك فَبَلَعَتْ، ويا سماء أقلعي فأقلعتْ؛ اختصاراً، واختيرَ (غِيض) على غُيِّضَ، وقيل: (الماء) دون أن يقول: ماءُ الطُّوفانِ، و(الأمر) ولم يقل: أمرُ نوحٍ وقومِه؛ لقصدِ الاختصارِ، والاستغناءِ بحرفِ العهدِ عن ذلك، ولم يقل: (وَسُوِّيَتْ على الجودي)؛ أي: أُقِرَّتْ، على نحو: (قيل) و(غيض) اعتباراً لبناءِ الفعلِ للفاعلِ مع السفينةِ في قوله: (وهي تجري بهم)؛ إرادةً للمطابقة، ثم قيل: (بُعداً للقوم) ولم يقل: لِيَبْعَدِ القومُ؛ طلباً للتأكيد مع الاختصار، هذا من حيثُ النظرُ إلى تركيبِ الكلمِ.

وأما من حيثُ النظرُ إلى ترتيبِ الجملِ.. فذلك أنه قَدَّمَ النداءُ على الأمر فقيلَ: (يا أرض ابلعي) و(يا سماءُ أقلعي)، ولم يقل: ابلعي يا أرضُ، وأقلعي يا سماءُ؛ جرياً على مقتضى

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ....

الكلام فيمن كان مأموراً حقيقةً؛ مِن تقديمِ التنبيهِ؛ ليتمكنَ الأمرُ الواردُ عقيبَه في نفسِ المنادَى؛ قصداً بذلك لمعنى الترشيح[1]، ثم قَدَّمَ أمرَ الأرضِ على أمرِ السماءِ، وابتدأ به؛ لابتداءِ الطوفانِ منها، ثم أتبعَ (وغيض الماء) لاتصالِه بقصةِ الماءِ، وأَخْذِهِ بِحُجْزَتِها[2]، ثم ذكر ما هو المقصودُ من القصة وهو قوله: (وقضي الأمر) أي: أُنجزَ الموعودُ من إهلاكِ الكفرةِ، وإنجاءِ نوحٍ ومن معه في الفلك، وعلى هذا فاعتبِرْ.

ومن جهةِ الفصاحةِ المعنويةِ، وهي - كما ترى - نظمٌ للمعاني لطيفٌ، وتأديةٌ لها مُلَخَّصَةً مُبَيَّنَةً، لا تعقيدَ يُعَثِّرُ الفكرَ في طلبِ المرادِ، ولا التواءَ يُشِيكُ الطريقَ إلى المُرْتادِ[3].

ومن جهةِ الفصاحةِ اللفظيةِ.. فألفاظُها على ما ترى عربيةٌ مستعملةٌ سليمةٌ عن التنافرِ، بعيدةٌ عن البشاعةِ، عذبةٌ على العَذَباتِ[4]، سَلِسَةٌ على الأَسَلاتِ[5]، كلٌّ منها كالماء في السَّلاسَةِ، وكالعسلِ في الحلاوةِ، وكالنسيمِ في الرِّقَّةِ، ومن ثَمَّ أطبقَ المعانِدون على أن طَوْقَ البشرِ قاصرٌ عن الإتيانِ بمثلِ هذه الآيةِ، ولله درُّ شأنِ التنزيلِ، لا يتأملُ العالمُ آيةً من آياتِه إلا أدركَ لطائفَ لا تسعُ الحصرَ، ولا تَظُنَّنَّ الآيةَ مقصورةً على المذكور، فلعلَّ المتروكَ أكثرُ من المسطورِ[6].

《٤٥》 ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ نداؤُه ربَّه دعاؤُه له، وهو قولُه: (ربِّ) مع ما بعدَه من اقتضاءِ وعدِه في تنجيةِ أهلِه، ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي: بعضُ أهلي؛ لأنه كان ابنَه من صُلبِه، أو كان ربيباً له، فهو بعضُ أهلِه، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾: وإن كلَّ وعدٍ تعدُه فهو الحقُّ الثابتُ الذي لا شكَّ في إنجازِه والوفاءِ به، وقد وعدتَني أن تنجيَ أهلي، فما بالُ ولدي؟ ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: أعلمُ الحكامِ وأعدلُهم؛ إذ لا فضلَ لحاكمٍ على غيرِه إلا بالعلمِ والعدلِ، وربَّ غريقٍ في الجهلِ

(١) الترشيح: أن يُذكر شيءٌ ملائمٌ للمشبه به، والمراد بالترشيح هنا. أنه خاطب في الأمر (ابلعي، أقلعي)، بعد الاستعارة في النداء، والخطاب يلائم المشبه به وهو العاقل. انظر «التحرير والتنوير» (١٢/ ٨١).

(٢) حجزة الإزار: مَعْقِدُه، وفي قوله: (حجزتها) استعارة، حيث شبه قصة الماء بمن يلبس إزاراً، وشبه قصة (غيض الماء) بمن يمسك معقد الإزار، وفائدة هذه الاستعارة: بيان شدة الاتصال بين القصتين. انظر «الإكليل» (٤/ ٢٨٤).

(٣) يشيك: يجعله ذا شوك، المرتاد: المطلوب.

(٤) العذبات: جمع عَذَبَةٍ، وهي طرف اللسان.

(٥) الأَسَلاتُ: جمعُ أَسَلَةٍ، وهي طرف اللسان.

(٦) للإمام ابن الجزري رسالة سماها: «كفاية الألمعي في آية: يا أرض ابلعي».

﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَـٰهِلِينَ ٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ ....

والجَوْرِ من مُتَقَلِّدِي الحكومةِ في زمانِك قد لُقِّبَ أقضى القضاةِ، ومعناه: أحكمُ الحاكمين، فاعتبرْ واسْتَعْبِرْ(١).

《٤٦》 ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ ثم عللَ لانتفاءِ كونِه من أهله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٖۖ﴾ وفيه إيذانٌ بأن قرابةَ الدينِ غامرةٌ لقرابةِ النسبِ، وأن نسيبَكَ في دينِك وإن كان حبشياً وكنتَ قرشياً.. لَصِيْقُكَ، ومن لم يكن على دينِكَ وإن كان أَمَسَّ أقاربِك رَحِماً.. فهو أبعدُ بعيدٍ منك، وجُعلتْ ذاتُه عملاً غيرَ صالحٍ؛ مبالغةً في ذَمِّهِ، كقولها(٢): [من: البسيط]

.... فــإنـــمـــا هـــي إقـــبـــالٌ وإدبـــارُ

أو التقدير: إنه ذو عملٍ، وفيه إشعارٌ بأنه إنما أَنْجَى من أهله لصلاحِهم، لا لأنهم أهلُه، وهذا لما انتفَى عنه الصلاحُ.. لم تنفعْه أُبُوَّتُه، ﴿عَمِلَ غيرَ صالحٍ﴾: عليٌّ(٣)؛ أي: عملاً غير صالح، قال الشيخُ أبو منصورٍ رحمه الله: كان عندَ نوحٍ عليه السلام أن ابنَه كان على دينِه؛ لأنه كان ينافقُ، وإلا.. لا يحتملُ أن يقول: ابني من أهلي، ويسألُه نجاتَه وقد سبق منه النهيُ عن سؤالِ مثلِه بقولِه: (ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) فكان يسألُ على الظاهرِ الذي عندَه، كما كان أهلُ النفاقِ يُظهِرون الموافقةَ لرسولنا عليه السلام، ويُضمرون الخلافَ له، ولم يَعلم بذلك حتى أطلعَه اللهُ عليه، وقولُه: ﴿لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ أي: مِن الذين وُعِدْتَ النجاةَ لهم، وهم المؤمنون حقيقةً في السرِّ والظاهرِ، ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ﴾: اجْتَزَأَ بالكسرةِ عن الياءِ: كوفيٌّ، ﴿تسألْنِيْ﴾: بصري، ﴿تَسْأَلَنِّي﴾: مدنيٌّ، ﴿تَسْأَلَنِّ﴾: شاميٌّ، فحذفَ الياءَ واجتزأَ بالكسرةِ، والنونُ نونُ التوكيدِ، ﴿تَسْأَلَنَّ﴾: مكيٌّ، ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ بجوازِ مسألتِه، ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَـٰهِلِينَ ٤٦﴾: هو كما نَهى رسولَنا عليه السلام بقولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَـٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

《٤٧》 ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ أي: مِن أن أطلبَ منك

---

(١) استعبرْ: إبْكِ، يقال: اسْتَعْبَرَ: جَرَتَ عَبْرَتُه؛ أي: دمع عينه.

(٢) البيت للخنساء في «ديوانها» (ص٣٠٣) وصدره:

تــرتــعُ مـــا رتَـــعـــت حـــتـــى إذا ذكـــرت

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٥٥) وكذا القراءة الآتية.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ....

في المستقبل ما لا علمَ لي بصحتِه؛ تأدباً بأدبِك؛ واتعاظاً بموعظتِك، ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ ما فَرَطَ مني، ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ بالعصمةِ عن العودِ إلى مثلِه ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

《٤٨》 ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾: بتحيةٍ منا، أو بسلامةٍ من الغرَقِ، ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ هي: الخيراتُ الناميةُ، وهي في حقِّهِ بكثرةِ ذريتِه وأتباعِه، فقد جعلَ أكثرَ الأنبياءِ من ذريتِه، وأئمةَ الدين في القرونِ الباقيةِ من نسلِه، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ (مِن): للبيانِ، فتُرادُ الأممُ الذين كانُوا معه في السفينة؛ لأنهم كانُوا جماعاتٍ، أو: قيل لهم: أممٌ؛ لأن الأممَ تَتَشَعَّبُ منهم، أو: لابتداءِ الغايةِ؛ أي: على أمم ناشئةٍ ممن معك، وهي الأممُ إلى آخرِ الدهرِ، وهو الوجه، ﴿وَأُمَمٌ﴾: رفعٌ بالابتداء، ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدنيا بالسَّعَةِ في الرزق، والخَفْضِ في العيش[1]: صفةٌ، والخبرُ محذوفٌ، تقديرُه: وممن معك أممٌ سنمتعُهم، وإنما حذف؛ لأن (ممن معك) يدلُّ عليه، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ أي: في الآخرة؛ والمعنى: أن السلامَ منا والبركاتِ عليك وعلى أممٍ مؤمنين يَنشؤون ممن معك، وممن معك أممٌ مُمَتَّعون بالدنيا، منقلبون إلى النار.

كان نوحٌ عليه السلام أبا الأنبياءِ، والخلقُ بعد الطوفان منه، وممن كان معه في السفينة.

وعن محمدِ بنِ كعبٍ: دخل في ذلك السلامِ كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ إلى يوم القيامة، وفيما بعده من المتاعِ والعذابِ كلُّ كافرٍ.

《٤٩》 ﴿تِلْكَ﴾: إشارةٌ إلى قصةِ نوحٍ عليه السلام، ومحلُّها: الرفعُ على الابتداء، والجملُ بعدها وهي: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾: أخبارٌ؛ أي: تلك القصةُ بعضُ أنباءِ الغيبِ، موحاةٌ إليك، مجهولةٌ عندك وعندَ قومِك ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ الوقتِ، أو من قبلِ إيحائي إليك وإخبارِك بها، ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على تبليغِ الرسالةِ وأذى قومِك، كما صبرَ نوحٌ، وتَوَقَّعْ في العاقبةِ لك ولمن كذبك نحوَ ما كان لنوحٍ ولقومِه؛ ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ في الفوزِ والنصرِ والغلبةِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ عن الشرك.

---

(١) الخفضُ في العيش: السعةُ والراحةُ فيه.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ....

«٥٠» ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾: واحداً منهم، وانتصابُه للعطفِ على ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم ﴿هُودًا﴾: عطفُ بيانٍ، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: وَحِّدُوه، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾: بالرفعِ: صفةٌ على محلِّ الجارِّ والمجرورِ[1]، بالجرِّ: عليٌّ؛ على اللفظِ[2]، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾: تفترون على الله الكذب باتخاذِكم الأوثانَ له شركاء.

«٥١» ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ما مِن رسولٍ إلا واجهَ قومَه بهذا القولِ؛ لأن شأنَهم النصيحةُ، ولا يُمَحِّضُها إلا حَسْمُ المطامعِ، وما دام يُتوهمُ شيءٌ منها.. لم تنجحْ، ولم تنفعْ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ إذْ تَردون نصيحةَ مَن لا يَطلُبُ عليها أجراً إلا من الله، وهو ثوابُ الآخرةِ، ولا شيءَ أنفى للتهمةِ من ذلك.

«٥٢» ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾: آمنوا به، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ من عبادةِ غيره ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ أي: المطرَ ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾: حالٌ؛ أي: الكثيرةَ الدُّرورِ، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ إنما قصدَ استمالتَهم إلى الإيمان بكثرةِ المطرِ وزيادةِ القوةِ؛ لأنهم كانوا أصحابَ زروعٍ وبساتين، فكانوا أحوجَ شيءٍ إلى الماء، وكانوا مُدِلِّينَ بما أُوتُوا من شدةِ البطشِ والقوةِ[3]، وقيل: أرادَ القوةَ بالمالِ، أو على النكاحِ، وقيل: حُبِسَ عنهم القطرُ ثلاثَ سنين، وعَقِمتْ أرحامُ نسائِهم، فوعدَهم هودٌ عليه السلام المطرَ والأولادَ على الإيمانِ والاستغفارِ، وعن الحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما: أنه وفدَ على معاويةَ فلما خرجَ.. قال له بعضُ حُجّابِه: إني رجلٌ ذو مالٍ، ولا يُوْلَدُ لي، علِّمْني شيئاً لعلَّ الله يرزقُني ولداً، فقال: عليك بالاستغفارِ، فكان يكثرُ الاستغفارَ، حتى رُبما استغفر في يوم واحد سبعَ مئةِ مرةٍ، فوُلد له عشرُ بنين، فبلغ ذلك معاويةَ فقال: هلا سألتَه ممَّ قال ذلك؟ فَوَفَدَ وَفْدَةً أُخرى فسألَه الرجلُ فقال: ألم تسمعْ قولَ هودٍ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، وقولَ نوحٍ عليه السلام: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٢]، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾: ولا تُعرِضُوا عني وعمّا أدعوكم إليه ﴿مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾: مُصرين على إجرامِكم وآثامِكم.

---

(١) الأَولى: على محل المجرور؛ لأن (مِنْ) زائدة.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٥٥).

(٣) مُدِلِّين: مفتخرين.

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ ....

《٥٣》 ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: كذبٌ منهم وجحودٌ كما قالت قريشٌ لرسول الله ﷺ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد: ٧] مع فَوتِ آياتِه الحصرَ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾: هو حالٌ من الضمير في (تاركي آلهتِنا)، كأنه قيل: وما نتركُ آلهتَنا صادرين عن قولك، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾: وما يصحُّ من أمثالِنا أن يُصدِّقوا مثلَكَ فيما يدعوهم إليه؛ إقناطاً له من الإجابة.

《٥٤》 ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ (إنْ): حرفُ نفيٍ، فنفَى جميعَ القولِ إلا قولاً واحداً، وهو قولهم: (اعتراك): أصابك (بعض آلهتنا بسوء): بجنونٍ وخَبَلٍ، وتقديرُه: ما نقولُ قولاً إلا هذه المقالةَ؛ أي: إلا قولَنا: اعتراكَ بعضُ آلهتِنا بسوءٍ، ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

《٥٥》 ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من إشراكِكُم آلهةً من دونه؛ والمعنى: إني أشهدُ اللهَ أني بريءٌ مما تشركون، واشهدُوا أنتم أيضاً أني بريءٌ من ذلك، وجِيءَ به على لفظِ الأمرِ بالشهادةِ كما يقولُ الرجلُ لمن يَبِسَ الثَّرى بينَه وبينَه[1]: اشْهَدْ على أني لا أحبُّك؛ تهكماً به واستهانةً بحالِه، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أنتم وآلهتُكم، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾: لا تُمهلون؛ فإني لا أبالي بكم وبكيدِكم، ولا أخافُ مَعَرَّتَكم وإن تعاونتم عليَّ، وكيف تَضُرُّني آلهتُكم وما هي إلا جمادٌ لا يضرُّ ولا ينفعُ؟ وكيف تنتقمُ مني إذا نلتُ منها وصددتُ عن عبادتِها؛ بأن تخبِلَني وتذهبَ بعقلِي.

《٥٦》 ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ أي: مالكُها، ولمّا ذَكَرَ توكُّلَه على الله وثقتَه بحفظِه وكلاءتِه من كيدِهم.. وصفَه بما يوجبُ التوكلَ عليه؛ من اشتمالِ ربوبيتِه عليه وعليهم، ومن كونِ كلِّ دابّةٍ في قبضتِه ومَلَكتِه وتحتَ قهرِه وسلطانِه، والأخذُ بالناصيةِ تمثيلٌ لذلك، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾: إن ربي على الحقِّ لا يَعْدِلُ عنه، أو: إن ربي يدلُّ على صراطٍ مستقيم.

---

(١) الثرى: الترابُ، ويبس الثرى: كناية عن عدم المحبة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾

《٥٧》 ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: فإن تتولَّوا ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ﴾: هو في موضع: فقدْ ثَبَتَتِ الحجةُ عليكم، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: كلامٌ مستأنَفٌ؛ أي: ويهلكُكُم اللهُ ويَجيءُ بقومٍ آخرين يَخْلُفونكم في ديارِكم وأموالِكم، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ بتولِّيكم ﴿شَيْـًٔا﴾ من ضررٍ قطُّ؛ إذ لا يجوزُ عليه المَضارُّ، وإنما تضرُّون أنفسَكم، ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾: رقيبٌ عليه، مهيمنٌ، فما تخفَى عليه أعمالُكم، ولا يَغْفُلُ عن مؤاخذتِكم، أو: مَن كان رقيباً على الأشياءِ كلِّها حافظاً لها، وكانت الأشياءُ مفتقرةً إلى حفظِه عن المضارِّ. . لم يَضُرَّ مثلَه مثلُكم.

《٥٨》 ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وكانوا أربعةَ آلافٍ ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: بفضلٍ منّا، لا بعملِهم، أو: بالإيمان الذي أنعمنا عليهم، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ وتكرار (نجينا) للتأكيد، أو: الثانيةُ: من عذابِ الآخرةِ، ولا عذابَ أغلظُ منه.

《٥٩》 ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ﴾: إشارةٌ إلى قبورِهم وآثارِهم، كأنه قال: سِيْحُوا في الأرض فانظروا إليها واعتبِروا، ثم استأنفَ وصفَ أحوالِهم فقال: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ لأنهم إذا عَصَوا رسولَهم. . فقد عصَوا جميعَ رسلِ اللهِ، لا نُفرِّقُ بين أحدٍ من رسلِه.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾: يريدُ رؤساءَهم ودعاتَهم إلى تكذيب الرسلِ؛ لأنهم الذين يُجبرون الناسَ على الأمورِ، ويُعاندون ربَّهم، ومعنى اتباعِ أمرهم: طاعتُهم.

《٦٠》 ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ لمّا كانوا تابعين لهم دون الرسلِ. . جُعلتِ اللعنةُ تابعةً لهم في الدارين، ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ تكرار (ألا) مع النداء على كفرهم والدعاءِ عليهم تهويلٌ لأمرهم، وبعثٌ على الاعتبار بهم، والحذرِ من مثلِ حالِهم، والدعاءُ بـ(بُعداً) بعدَ هلاكِهم وهو دعاءٌ بالهلاكِ. . للدلالةِ على أنهم كانُوا مُستأهلين له، ﴿قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾: عطفُ بيانٍ لعادٍ، وفيه فائدةٌ؛ لأن عاداً عادانِ: الأولى: القديمةُ التي هي قومُ هودٍ، والقصةُ فيهم، والأخرى: إرَمُ.

《٦١》 ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: لم يُنْشِئْكم منها إلا هو، وإنشاؤُهم منها: خلقُ آدمَ من الترابِ، ثم خلقُهم من آدمَ،

قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ....

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: وجعلَكم عُمَّارَها، وأرادَ منكم عِمارتَها، أو: (استعمركم): مِن (العُمُرِ) أي: أطالَ أعمارَكم فيها، وكانت أعمارُهم من ثلاثِ مئةٍ إلى ألفٍ، وكان ملوكُ فارسَ قد أكثرُوا من حفرِ الأنهارِ، وغرسِ الأشجارِ، وعُمِّرُوا الأعمارَ الطِّوالَ، مع ما فيهم من الظلمِ، فسأل نبيٌّ من أنبياءِ زمانِهم ربَّه عن سببِ تعميرِهم، فأوحَى اللهُ إليه أنهم عَمَّرُوا بلادي فعاشَ فيها عبادي، ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾: فاسألُوه مغفرتَه بالإيمان، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾: داني الرحمةِ، ﴿مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ لمن دعاه.

《٦٢》 ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا﴾: فيما بيننا ﴿مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ للسيادةِ والمشاورةِ في الأمورِ، أو: كنا نرجُو أن تدخلَ في دينِنا وتُوافقَنا على ما نحن عليه، ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: حكايةُ حالٍ ماضيةٍ، ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيدِ ﴿مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾: موقعٌ في الريبةِ؛ مِن: أرابَه: إذا أوقعَه في الريبة، وهي: قلقُ النفسِ وانتفاءُ الطمأنينة.

《٦٣》 ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾: نبوةً، أَتَى بحرفِ شكٍّ مع أنه على يقينٍ أنه على بينةٍ؛ لأن خطابَه للجاحدين، فكأنه قال: قَدِّرُوا أني على بينةٍ من ربي، وأنني نبيٌّ على الحقيقةِ، وانظرُوا إن تابعتُكم وعصيتُ ربي في أوامره، ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾: فمنْ يمنعُني من عذابِ اللهِ ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ في تبليغِ رسالتِه ومنعِكم عن عبادةِ الأوثان؟ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ بقولِكم: (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ بنسبتِكم إيَّايَ إلى الخَسارِ، أو: نسبتي إياكم إلى الخُسران.

《٦٤》 ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾: نصبٌ على الحال، قد عَمِلَ فيها ما دلَّ عليه اسمُ الإشارة مِن معنى الفعلِ، و(لكم): تتعلقُ بـ(آيةً) حالاً منها متقدمةً؛ لأنها لو تأخرت.. لكانت صفةً لها، فلما تقدمت.. انتصبت على الحال، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس عليكم رزقُها، مع أنَّ لكم نفعَها، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾: عقرٍ أو نَحْرٍ، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾: عاجلٌ.

《٦٥》 ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يومَ الأربعاءِ، ﴿فَقَالَ﴾ صالحٌ: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾: استمتِعُوا بالعيش ﴿فِى

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ ....

﴿دَارِكُمۡ﴾: في بلدِكم، وتسمى البلادُ الديارَ؛ لأنه يُدارُ فيها؛ أي: يُتصرَّفُ، أو: في دار الدنيا ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾ ثم تَهْلِكون، فهلكُوا يومَ السبتِ.

﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ أي: غيرُ مكذوبٍ فيه، فاتُّسِعَ في الظرفِ بحذف الحرفِ وإجرائِه مُجرى المفعول به، أو: وعدٌ غيرُ كذبٍ، على أنَّ المكذوبَ مصدرٌ كالمعقول.

《٦٦》 ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بالعذابِ، أو عذابُنا ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ قال الشيخُ رحمه الله: هذا يدلُّ على أن مَن نُجّي.. إنما نُجِّيَ برحمةِ اللهِ تعالى، لا بعملِه، كما قال عليه السلام: «لا يدخلُ أحدٌ الجنةَ إلا برحمةِ الله»[1]، ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾: بإضافةِ الخزيِ إلى اليومِ، وانجرارِ اليومِ بالإضافةِ، وبفتحها: مدنيٌّ وعليٌّ[2]؛ لأنه مضافٌ إلى (إذ)، وهو مبنيٌّ، وظروفُ الزمانِ إذا أضيفت إلى الأسماءِ المبهمةِ[3]، والأفعالِ الماضيةِ.. بُنيتْ واكتسبتِ البناءَ من المضافِ إليه، كقوله[4]: [من: الطويل]

على حينَ عاتبتُ المشيبَ على الصِّبا ....

والواوُ: للعطفِ، وتقديرُه: ونجيناهم من خزيِ يؤمِئذٍ؛ أي: من ذُلِّهِ وفضيحتِه، ولا خزيَ أعظمُ من خزيِ مَن كان هلاكُه بغضبِ اللهِ وانتقامِه، وجازَ أن يريدَ بـ(يومئذ): يومَ القيامةِ، كما فُسِّرَ العذابُ الغليظُ بعذابِ الآخرةِ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾: القادرُ على تنجيةِ أوليائِه، ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾: الغالبُ بإهلاكِ أعدائِه.

《٦٧》 ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ أي: صيحةُ جبريلَ عليه السلام، ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾: منازلِهم ﴿جَٰثِمِينَ ٦٧﴾: ميتين.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ٥٢) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٥٦).

(٣) **الأسماء المبهمة** هي: أسماءُ الإشارةِ والأسماء الموصولة، لعدم دلالتها على شيءٍ معينٍ إلا بأمر خارج عن لفظها، فالموصول لا يزول إبهامه إلا بالصلة، واسم الإشارة لا يزول إبهامه إلا بما يُصاحِبُ لفظَه من إشارةٍ حسيةٍ. انظر «النحو الوافي» (١/ ٣٣٨).

(٤) تمامه:

وقلتُ: ألمّا أصْحُ والشيبُ وازعُ؟

وهو للنابغة الذبياني في «ديوانه» (ص٥٣).

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ....

《٦٨》 ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾: لم يُقيموا فيها، ﴿أَلا إنَّ ثموداً كفرُوا ربَّهم﴾ ﴿ثَمُودَ﴾: حمزةُ وحفصٌ[1]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ فالصرفُ: للذهابِ إلى الحيِّ، أو الأبِ الأكبرِ، ومنعُه: للتعريفِ والتأنيثِ بمعنى القبيلةِ.

《٦٩》 ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾: جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ، أو جبريلُ مع أحدَ عشرَ مَلَكاً ﴿إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ هي البشارةُ بالولد، أو: بهلاك قوم لوطٍ، والأولُ أظهرُ، ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾: سلَّمنا عليك سلاماً، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾: أمرُكم سلامٌ، ﴿سِلْمٌ﴾: حمزةُ وعليٌّ؛ بمعنى السلام، ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ﴾: فما لَبِثَ في المجيءِ به، بل عَجَّلَ فيه، أو: فما لبث مجيئُه، والعِجلُ: ولدُ البقرةِ، وكان مالُ إبراهيمَ البقرَ، ﴿حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾: مشويٌّ بالحجارةِ المحمّاةِ.

《٧٠》 ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ نَكِرَ وأَنْكَرَ بمعنىً، وكانت عادتُهم أنه إذا مسَّ مَن يَطْرُقُهم طعامَهم.. أَمِنُوه، وإلّا.. خافُوه، والظاهرُ أنه أحسَّ بأنهم ملائكةٌ، ونَكِرَهُم؛ لأنه تَخَوَّفَ أن يكون نزولُهم لأمرٍ أنكرَه اللهُ عليه، أو لتعذيب قومِه؛ دليلُه: قولُه: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أضمرَ منهم خوفاً، ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ بالعذاب، وإنما يقال هذا لمن عَرَفَهم ولم يعرفْ فِيْمَ أُرسلُوا، وإنما قالوا: لا تخفْ؛ لأنهم رَأَوا أثرَ الخوفِ والتغيرِ في وجهِهِ.

《٧١》 ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ وراءَ السِّتْرِ تسمعُ تحاورَهم، أو: على رؤوسِهم تَخْدُمُهم، ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سروراً بزوالِ الخيفةِ، أو: بهلاكِ أهلِ الخبائثِ، أو: مِن غفلةِ قومِ لوطٍ مع قربِ العذابِ، أو: فحاضت، ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ وخُصَّتْ بالبشارةِ؛ لأن النساءَ أعظمُ سروراً بالولدِ من الرجالِ؛ ولأنه لم يكن لها ولدٌ، وكان لإبراهيمَ ولدٌ وهو إسماعيل، ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾: ومن بعده ﴿يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾: بالنصبِ: شاميٌّ وحمزةُ وحفصٌ، بفعلٍ مضمرٍ دلَّ عليه: (فبشرناها) أي: فبشرناها بإسحاق، ووهبنا لها يعقوبَ من وراءِ إسحاقَ، وبالرفعِ: غيرُهم[2]، على الابتداءِ، والظرفُ قبلَه خبرٌ، كما تقول: في الدار زيدٌ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٥٦) وكذا القراءة الآتية.

(٢) انظر المرجع السابق (ص١٥٧).

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ....

《٧٢》 ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ الألفُ مبدلَةٌ من ياءِ الإضافةِ، وقرأ الحسنُ: ﴿يا ويلَتي﴾: بالياءِ على الأصلِ، ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾: ابنةُ تسعين سنةً، ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾: ابنُ مئةٍ وعشرين سنةً، (هذا): مبتدأٌ، و(بعلي): خبرُه، و(شيخاً): حالٌ، والعاملُ معنى الإشارةِ التي دلَّتْ عليه (ذا)، أو معنى التنبيهِ الذي دل عليه (ها)، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾: أن يُولدَ ولدٌ مِن هَرِمَيْنِ، وهو استبعادٌ من حيثُ العادةُ.

《٧٣》 ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾: قدرتِه وحكمتِه، وإنما أنكرتِ الملائكةُ تعجبَها؛ لأنها كانت في بيتِ الآياتِ، ومَهْبِطِ المعجزاتِ، والأمور الخارقةِ للعاداتِ، فكان عليها أن تَتَوَقَّرَ ولا يَزْدَهيها ما يزدهِي سائرَ النساءِ الناشئاتِ في غيرِ بيتِ النبوةِ[1]، وأن تُسَبِّحَ اللهَ وتُمَجِّدَه مكانَ التعجبِ، وإلى ذلك أشارت الملائكة حيثُ قالوا: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾: أرادُوا أن هذه وأمثالَها مما يُكرمُكم به ربُّ العزةِ، ويَخصُّكم بالإنعام به يا أهلَ بيتِ النبوةِ، فليست بمكانٍ عجيبٍ، وهو كلامٌ مستأنَفٌ عَلَّلَ به إنكارَ التعجبِ، كأنه قيل: إياكِ والتعجبَ؛ فإن أمثالَ هذه الرحمةِ والبركةِ متكاثرةٌ من الله عليكم، وقيل: الرحمةُ: النبوةُ، والبركاتُ: الأسباطُ من بني إسرائيلَ؛ لأن الأنبياء منهم، وكلُّهم من ولدِ إبراهيمَ، و(أهلَ البيتِ): نصبٌ على النداء، أو على الاختصاص، ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾: محمودٌ بتعجيلِ النعمِ، ﴿مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾: ظاهرُ الكرم بتأجيلِ النِّقَم.

《٧٤》 ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾: الفزعُ، وهو ما أوجسَ من الخيفةِ حين نَكِرَ أضيافَه، ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالولدِ ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ أي: لمّا اطمأنَّ قلبُه بعدَ الخوفِ ومُلِئَ سُروراً بسبب البُشرى.. فَزِعَ للمجادلة، وجوابُ (لما) محذوفٌ، تقديرُه: أقبلَ يُجادلنا، أو: (يجادلنا): جوابُ (لما)، وإنما جِيءَ به مضارعاً؛ لحكايةِ الحالِ؛ والمعنى: يُجادلُ رسلَنا، ومجادلتُه إياهم: أنهم قالُوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١]، فقال: أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمناً أتُهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا؟ حتى بلغ العشرةَ قالوا: لا؟ قال: أرأيتم إن كان فيها رجلٌ واحدٌ مسلمٌ أتهلكونَها؟ قالوا: لا؟ فعند ذلك قال: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

---

(١) يزدهيها: يستخفها.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ ....

《٧٥》 ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾: غيرُ عجولٍ على كلِّ مَن أساءَ إليه، أو: كثيرُ الاحتمالِ ممن آذاه، الصفوحُ عمَّن عصاه، ﴿أَوَّٰهٌ﴾: كثيرُ التأوُّهِ مِن خوفِ الله، ﴿مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾: تائبٌ راجعٌ إلى الله، وهذه الصفاتُ دالّةٌ على رقةِ القلبِ والرأفةِ والرحمةِ، فَبَيَّنَ أن ذلك مما حملَه على المجادلةِ فيهم رجاءَ أن يُرفعَ عنهم العذابُ ويُمهَلُوا؛ لعلهم يُحدِثون التوبةَ، كما حملَه على الاستغفارِ لأبيه، فقالت الملائكة:

《٧٦》 ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدالِ وإن كانت الرحمة ديدنَكَ؛ ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: قضاؤُه وحكمُه، ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾: لا يُرَدُّ بجدالٍ وغيرِ ذلك، (عذابٌ): مرتفعٌ باسمِ الفاعلِ، وهو (آتيهم)، تقديرُه: وإنهم يأتيهم.

《٧٧》 ثم خرجُوا من عندِ إبراهيمَ مُتوجِّهين نحوَ قومِ لوطٍ، وكان بين قريةِ إبراهيمَ وقومِ لوطٍ أربعةُ فراسخَ.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾: لما أَتَوْهُ ورأى هيآتِهم وجَمالَهم ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾: أُحْزِنَ؛ لأنه حَسِبَ أنهم إنسٌ، فخاف عليهم خُبْثَ قومِه، وأن يَعْجِزَ عن مُقاومتِهم ومدافعتِهم، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: تمييزٌ؛ أي: وضاقَ بمكانهم صدرُه، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾: شديدٌ.

رويَ: أن الله تعالى قال لهم: لا تُهلكوهم حتى يشهدَ عليهم لوطٌ أربعَ شهاداتٍ، فلما مشى معهم مُنطلقاً بهم إلى منزلِه.. قال لهم: أَمَا بلغَكم أمرُ هذه القريةِ؟ قالوا: وما أمْرُهم؟ قال: أشهدُ بالله إنها لشرُّ قريةٍ في الأرضِ عملاً، قال ذلك أربعَ مراتٍ، فدخلُوا معه منزلَه ولم يعلمْ بذلك أحدٌ، فخرجت امرأتُه فأخبرتْ بهم قومَها.

《٧٨》 ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: يُسرِعون كأنما يُدفَعون دفعاً، ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: ومِن قبلِ ذلك الوقتِ كانوا يعملون الفواحشَ حتى مَرَنُوا عليها، وقلَّ عندهم استقباحُها، فلذلك جاؤوا يُهرعون مجاهرين لا يَكفُّهم حياءٌ، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ فتزوجوهنَّ، أرادَ أن يقيَ أضيافَه ببناتِه، وذلك غايةُ الكرمِ، وكان تزويجُ المسلماتِ من الكفارِ جائزاً في ذلك الوقتِ، كما جاز في الابتداء في هذه الأمةِ، فقد زَوَّجَ رسولُ الله ﷺ ابنتيه من

قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ....

عُتبةَ بنِ أبي لهبٍ، وأبي العاص، وهما كافران، وقيل: كان لهم سيدان مُطاعان، فأرادَ لوطٌ أن يزوجَهما ابنتيه، ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: أَحَلُّ[1]، (هؤلاء): مبتدأٌ، و(بناتي): عطفُ بيانٍ، و(هنَّ): فصلٌ، و(أطهرُ): خبرُ المبتدأِ، أو: (بناتي): خبرٌ، و(هنَّ أطهرُ): مبتدأٌ وخبرٌ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بإيثارِهم عليهم، ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾: ولا تُهينوني، ولا تَفضحوني، من الخِزْيِ، أو: ولا تُخجلوني مِن الخَزايةِ، وهي: الحياءُ، وبالياءِ: أبو عمرٍو في الوصلِ[2]، ﴿فِي ضَيْفِي﴾: في حقِّ ضيوفي، فإنه إذا خَزِيَ ضيفُ الرجلِ أو جارُه.. فقد خَزِيَ الرجلُ، وذلك من عراقةِ الكرمِ، وأصالةِ المروءةِ، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ أي: رجلٌ واحدٌ يهتدي إلى طريق الحقِّ، وفعلِ الجميلِ، والكفِّ عن السوء.

《٧٩》 ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾: حاجةٍ؛ لأن نكاحَ الإناثِ أمرٌ خارج من مذهبِنا، فمذهبُنا إتيانُ الذُّكران، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾: عَنَوا إتيانَ الذكور وما لهم فيه من الشهوةِ.

《٨٠》 ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ جوابُ (لو): محذوف؛ أي: لفعلتُ بكم وصنعتُ؛ والمعنى: لو قويتُ عليكم بنفسي، أو أَوَيْتُ إلى قويٍّ أستندُ إليه وأَتَمَنَّعُ به فيحميني منكم، فشبَّهَ القويَّ العزيزَ بالركنِ من الجبلِ في شدتِه ومَنَعَتِه.

《٨١》 رويَ: أنه أغلقَ بابَه حين جاؤوا، وجعلَ يُرادُّهم ما حكَى اللهُ عنه ويجادلُهم، فتَسَوَّرُوا الجدارَ، فلما رأت الملائكةُ ما لقيَ لوطٌ من الكربِ ﴿قَالُوا يَا لُوطُ﴾ إن ركنَكَ لشديدٌ، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فافتحِ البابَ ودعْنا وإياهم، ففتحَ البابَ فدخلوا، فاستأذن جبريلُ عليه السلام ربَّه في عقوبتِهم، فأذن له، فضربَ بجناحِه وجوهَهم فطمسَ أعينَهم وأعماهم، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] فصارُوا لا يَعرفون الطريقَ، فخرجُوا وهم يقولون: إنَّ في بيتِ لوطٍ قوماً سَحَرةً، ﴿لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾: جملةٌ مُوضحةٌ للتي قبلَها؛ لأنهم إذا كانوا رسلَ اللهِ.. لم يصلُوا

---

(١) قال في «التحرير والتنوير» (١٢/ ١٢٧): ومعنى (هن أطهر): أنهن حلالٌ لكم، يَحُلْنَ بينكم وبين الفاحشةِ، فاسمُ التفضيلِ مسلوبُ المفاضلةِ قُصِدَ به قوةُ الطهارة.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٥٧) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

إليه، ولم يقدِروا على ضَرَرِه، ﴿فاسْرِ﴾: بالوصلِ: حجازيٌّ، مِن: سَرَى، ﴿بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: طائفةٍ منه، أو نصفِه، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ بقلبِه إلى ما خَلَّفَ، أو: لا ينظرْ إلى ما وراءَه، أو: لا يتخلفْ منكم أحدٌ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾: مستثنىً مِن (فأسرِ بأهلك)، وبالرفع: مكيٌّ وأبو عمرٍو، على البدل مِن (أحدٌ)، وفي إخراجها مع أهلِه روايتان، رويَ: أنه أخرجَها معهم، وأُمِرَ ألا يلتفتَ منهم أحدٌ إلا هي، فلما سمعت هَدَّةَ العذابِ.. التفتتْ[1]، وقالت: يا قوماه، فأدركها حجرٌ فقتلَها، ورويَ: أنه أمرَ بأن يُخَلِّفَها مع قومِها، فإنَّ هواها إليهم، فلم يَسْرِ بها، واختلافُ القراءتين لاختلافِ الروايتين[2]، ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي: إن الأمرَ، ورويَ: أنه قال لهم: متى موعدُ هلاكِهم؟ قالُوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ فقال: أريدُ أسرعَ من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾.

《٨٢》 ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾: جعلَ جبريلُ عليه السلامُ جناحَه في أسفلِها؛ أي: أسفلِ قُراها ثم رفعَها إلى السماء حتى سمعَ أهلُ السماءِ نُباحَ الكلابِ وصياحَ الدِّيَكَةِ، ثم قلبَها عليهم، وأُتْبِعُوا الحجارةَ من فوقِهم، وذلك قولُه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾: هي كلمةٌ معربةٌ من: سَنْكِ كِل[3]؛ بدليل قوله: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]، ﴿مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾: نعتٌ لـ(سجيل)؛ أي: متتابعٍ، أو: مجموعٍ معدٍّ للعذاب.

《٨٣》 ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: نعت لـ(حجارة)؛ أي: مُعَلَّمَةً للعذاب، قيل: مكتوبٌ على كلِّ واحدٍ اسمُ مَن يُرمى به، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: في خزائنِه أو في حكمِه، ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾: بشيءٍ بعيدٍ، وفيه وعيدٌ لأهلِ مكةَ، فإن جبريلَ عليه السلام قال لرسولِ الله ﷺ: يعني: ظالمي

---

(١) الهدة: صوتٌ شديدٌ تسمعُه من سقوطِ شيءٍ ثقيلٍ.

(٢) كذا في «الكشاف» (٢/ ٣٩٣)، وردَّه ابنُ الحاجب بأنه باطلٌ؛ لأنّ القراءتين ثابتتان قطعاً، فيمتنعُ حملُهما على وجهين أحدُهما باطلٌ قطعاً، والقصةُ واحدة، فلا يمكن القول بأن إحدى القراءتين دالة على أنه سرى بها، والأخرى على أنه لم يسرِ، فهذا تناقض يُنَزَّهُ القرآن عنه، ويرى ابنُ هشام أن الاستثناء على القراءتين من (فأسر بأهلك)، لكن على النصب الاستثناء متصلٌ، وعلى الرفع الاستثناء منقطعٌ، فتعربُ (امرأتُك) مبتدأ، والخبر: (إنه مصيبها ما أصابهم)، فتكون القراءتان بمعنى واحد، وهو أنه لم يسرِ بها. انظر «مغني اللبيب» (ص٨٠)، و«حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٥/ ١٢٠).

(٣) سَنْكِ: الحجرُ، وكِل: الطين، ومجموعُ الكلمتين يرادُ به: الآجُرّ.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ....

أمتِك، ما مِن ظالمٍ منهم إلا وهو بِعُرْضِ حَجَرٍ يَسقطُ عليه من ساعةٍ إلى ساعةٍ[1]، أو: الضميرُ للقرى؛ أي: هي قريبةٌ من ظالمي مكةَ، يمرُّون بها في مَسايرِهم.

《٨٤》 ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: هو اسمُ مدينتِهم، أو: اسمُ جدِّهم مدينَ بنِ إبراهيمَ؛ أي: وأرسلنا شعيباً إلى ساكني مدينَ، أو إلى بني مدينَ، ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ﴾: المكيلَ بالمِكيالِ، ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾: والموزونَ بالميزانِ، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾: بثروةٍ وسَعَةٍ تُغنيكم عن التطفيفِ، أو: أراكم بنعمةٍ من الله حقُّها أن تُقابلَ بغيرِ ما تفعلون، ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾: مُهلِكٍ؛ مِن قولِه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢]، وأصلُه من إحاطةِ العدوِّ، والمرادُ: عذابُ الاستئصالِ في الدنيا، أو عذابُ الآخرةِ.

《٨٥》 ﴿وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾: أتِمُّوهما ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدلِ، نُهوا أولاً عن عينِ القبيحِ الذي كانوا عليه من نقصِ المكيالِ والميزانِ، ثم وَرَدَ الأمرُ بالإيفاءِ الذي هو حسنٌ في العقول؛ لزيادة الترغيبِ فيه، وجِيءَ به مقيداً بالقسطِ؛ أي: لِيكن الإيفاءُ على وجه العدلِ والتسويةِ من غير زيادةٍ ولا نُقصانٍ، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ البَخْسُ: النقصُ، كانوا يَنقُصون من أثمانِ ما يشترون من الأشياء فنُهوا عن ذلك، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ العَثَى والعَيْثُ: أشدُّ الفسادِ، نحوُ: السرقةِ والغارةِ وقطعِ السبيلِ، ويجوز أن يُجعلَ البَخْسُ والتطفيفُ عَيْثاً منهم في الأرض.

《٨٦》 ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾: ما يبقَى لكم من الحلالِ بعدَ التنزُّهِ عمّا هو حرام عليكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بشرطِ أن تُؤمنوا، نَعم، بقيةُ اللهِ خيرٌ للكفرة أيضاً؛ لأنهم يَسلمُون معها من تَبِعَةِ البَخْسِ والتطفيفِ، إلا أن فائدتَها تظهرُ مع الإيمان؛ مِن حصولِ الثوابِ مع النجاةِ من العقابِ، ولا تظهرُ مع عدمِه؛ لانغماسِ صاحبِها في غَمَراتِ الكفرِ، وفي ذلك تعظيمٌ للإيمانِ، وتنبيهٌ على جلالةِ شأنِه، أو: المرادُ: إن كنتم مُصَدِّقين لي فيما أقولُ لكم وأنصحُ به إياكم، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ لنعمِه عليكم، فاحفظُوها بتركِ البَخْسِ.

---

(١) بِعُرْضِ حَجَرٍ؛ أي: مُعَرَّضٌ لسقوطه عليه.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ ....

《٨٧》 ﴿قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلواتُكَ﴾ وبالتوحيدِ: كوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ[١]، ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ كان شعيبٌ عليه السلام كثيرَ الصلواتِ، وكان قومُه يقولون له: ما تستفيدُ بهذا؟ فكان يقول: إنها تأمرُ بالمحاسنِ وتنهى عن القبائح، فقالُوا على وجه الاستهزاء: أصلواتك تأمرك أن تأمرَنا بتركِ عبادةِ ما كان يعبدُ آباؤُنا، أو أن نتركَ التَّبَسُّطَ في أموالنا بما نشاء من إيفاءٍ ونقصٍ؟ وجاز أن تكون الصلواتُ آمرةً مجازاً كما سماها اللهُ تعالى ناهيةً مجازاً، ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ أي: السفيهُ الضالُّ، وهذه تسميةٌ على القلبِ؛ استهزاءً، أو: إنك حليمٌ رشيدٌ عندنا ولستَ تفعلُ بنا ما يقتضيه حالُك.

《٨٨》 ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ﴾: مِن لَدُنْهُ ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ يعني: النبوةَ والرسالةَ، أو: مالاً حلالاً من غيرِ بخسٍ وتطفيفٍ، وجوابُ (أرأيتم): محذوفٌ؛ أي: أخبروني إن كنتُ على حجةٍ واضحةٍ من ربي وكنتُ نبياً على الحقيقةِ أَيصحُّ لي ألا آمرَكم بتركِ عبادةِ الأوثانِ، والكفِّ عن المعاصِي، والأنبياءُ لا يُبعثون إلا لذلك، يقال: خالَفني فلانٌ إلى كذا: إذا قصدَه وأنت مُوَلٍّ عنه، وخالَفني عنه: إذا وَلَّى عنه وأنت قاصدُه، ويلقاك الرجلُ صادراً عن الماء فتسألُه عن صاحبه فيقول: خالَفَني إلى الماءِ؛ يريد: أنه قد ذهبَ إليه، وأرادَ: وأنا ذاهبٌ عنه صادراً، ومنه قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ يعني: أن أسبقَكم إلى شهواتِكم التي نهيتُكم عنها لأستبدَّ بها دونكم، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾: ما أريدُ إلا أن أصلحَكم بموعظتِي ونصيحتِي وأمرِي بالمعروفِ ونهيِي عن المنكرِ ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾: ظرفٌ؛ أي: مدةَ استطاعتِي للإصلاحِ، وما دمتُ متمكناً منه، لا آلُو فيه جُهداً، ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾: وما كَوني مُوفَّقاً لإصابة الحقِّ فيما آتي وأَذَرُ إلا بمعونتِه وتأييدِه، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: اعتمدْتُ، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾: أرجعُ في السراءِ والضراءِ.

《٨٩》 (جَرَمَ) مثلُ (كسبَ) في تعدِّيه إلى مفعولٍ واحدٍ، وإلى مفعولين، ومنه قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم﴾ أي: لا يُكسِبنكم خِلافي إصابةَ العذابِ، ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥٨).

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ ....

﴿قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ﴾: وهو الغرقُ والريحُ والرجفةُ، ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ في الزمانِ، فهم أقربُ الهالكين منكم، أو: في المكانِ، فمنازلُهم قريبةٌ منكم، أو: فيما يُستحقُّ به الهلاكُ، وهو الكفرُ والمَساوِئُ، وسُوِّيَ في: قريبٍ وبعيدٍ وقليلٍ وكبيرٍ بين المذكرِ والمؤنثِ؛ لورودِها على زنةِ المصادرِ التي هي (الصهيلُ والنهيقُ)، ونحوُهما[١].

«٩٠» ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾: يغفرُ لأهلِ الجفاءِ من المؤمنين، ﴿وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾: يحبُّ أهلَ الوفاءِ من الصالحين.

«٩١» ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: لا نفهمُ صحةَ ما تقولُ[٢]، وإلا.. كيفَ[٣] لا يُفهمُ كلامُه وهو خطيبُ الأنبياءِ؟[٤] ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾: لا قوةَ لك، ولا عِزَّ فيما بيننا، فلا تقدرُ على الامتناعِ منّا إن أردنا بك مكروهاً، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ﴾: ولولا عشيرتُك.. لقتلناك بالرجمِ، وهو شرُّ قِتلةٍ، وكان رهطُه من أهل ملتهم؛ فلذلك أظهرُوا الميلَ إليهم والإكرامَ لهم، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ أي: لا تَعزُّ علينا ولا تُكرَمُ حتى نُكرمَكَ من القتلِ، ونرفعَك عن الرجمِ، وإنما يَعزُّ علينا رهطُك؛ لأنهم من أهلِ دينِنا، وقد دلَّ إيلاءُ ضميرِه حرفَ النفيِ على أن الكلامَ واقعٌ في الفاعل لا في الفعلِ، كأنه قيل: وما أنت علينا بعزيزٍ، بل رهطُك هم الأعزةُ علينا.

«٩٢» ولذلك ﴿قَالَ﴾ في جوابهم: ﴿يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولو قيل: وما عَزَزْتَ علينا.. لم يصحَّ هذا الجوابُ، وإنما قال: (أرهطي أعزُّ عليكم من الله) والكلامُ واقعٌ فيه

---

(١) أي: أن (بعيد) يستوي فيه المذكر والمؤنث؛ ولذا أُخبر به عن (القوم) وهو مؤنث، وهو رأي الزمخشري، ولكن نص الجوهري على أن (القوم) يذكر ويؤنث، لأن اسمَ الجمع للعاقل يذكر ويؤنث، مثل رهطٍ ونفرٍ، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ [الأنعام: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الشعراء: ١٠٥]. انظر «الصحاح» (٥/٢٠١٦).

(٢) ولعلهم قالوا: (ما نفهم كثيراً مما تقول)؛ لقصورِ عقولهم وعدم تفكرهم، أو: استهانةً بكلامِه، أو: لأنهم لم يُلقوا إليه أذهانَهم لشدة نفرتِهم عنه. انظر «تفسير البيضاوي» (٣/١٤٦).

(٣) في المطبوع (١/٣٦٨): (فكيف)، وهو أَولى.

(٤) جاء وصفه بأنه خطيب الأنبياء في حديث مرفوع رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/٥٦٧).

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ۝٩٣ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٩٤﴾ ....

وفي رهطِه، وأنهم الأعزةُ عليهم دونَه؛ لأن تهاونَهم به وهو نبيُّ اللهِ تهاونٌ بالله، فحين عزَّ عليهم رهطُه دونَه.. كان رهطُه أعزَّ عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]؟ ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾: ونسيتمُوه وجعلتمُوه كالشيءِ المنبوذِ وراءَ الظهرِ لا يُعبأُ به، والظِّهْرِيُّ: منسوبٌ إلى الظَّهرِ، والكسرُ من تغييراتِ النسبِ، كقولهم في النسبةِ إلى الأمس: إِمْسِيّ، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٩٢﴾: قد أحاط بأعمالِكم علماً، فلا يخفَى عليه شيءٌ منها.

《٩٣》 ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾: هي بمعنى المكانِ، يقال: مكانٌ ومكانةٌ، ومقامٌ ومقامةٌ، أو: مصدرٌ مِنْ: مَكُنَ مكانة فهو مَكِينٌ: إذا تمكنَ من الشيءِ؛ يعني: اعملوا قارِّين على جهتِكم التي أنتم عليها من الشركِ والشنآنِ لي، أو: اعملوا متمكنين من عداوتي، مطبقين لها، ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ على حسبِ ما يؤتيني اللهُ من النصرةِ والتأييدِ ويُمكنُني، ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ (مَن): استفهاميةٌ معلِّقةٌ لفعل العلمِ عن عملِه فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون أيُّنا يأتيه عذابٌ يُخزيه؛ أي: يفضحُهُ، وأيُّنا هو كاذبٌ، أو: موصولةٌ قد عملَ فيها، كأنه قيل: سوفَ تعلمون الشقيَّ الذي يأتيه عذابٌ يخزيه، والذي هو كاذبٌ في زعمِكم ودعواكم، وإدخالُ الفاءِ في (سوف): وصلٌ ظاهرٌ بحرفٍ وضعَ للوصل، ونزعُها: وصلٌ تقديريٌّ بالاستئناف الذي هو جوابٌ لسؤالٍ مقدرٍ، كأنهم قالوا: فماذا يكونُ إذا عملنا نحن على مكانتِنا وعملتَ أنت؟ فقال: سوف تعلمون، والإتيانُ بالوجهين للتفننِ في البلاغةِ، وأبلغُهما الاستئنافُ، ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾: وانتظروا العاقبةَ وما أقولُ لكم، ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ۝٩٣﴾: منتظرٌ، والرقيبُ بمعنى: الرّاقبِ؛ مِن: رَقَبَهُ، كالضريبِ بمعنى: الضاربِ، أو: بمعنى: المراقِبِ، كالعشير[1]، أو: بمعنى: المرتقبِ، كالرفيعِ بمعنى المرتفعِ.

《٩٤》 ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ صاحَ بهم جبريلُ صيحةً فهلكُوا، وإنما ذكر في آخر قصةِ عادٍ ومدين: (ولما جاء)، وفي آخر قصة ثمودَ ولوطٍ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ [هود: ٦٦]؛ لأنهما وَقَعا بعدَ ذكرِ الموعدِ، وذلك قولُه: ﴿إِنَّ

(١) في المطبوع (١/ ٣٦٩): (كالعشير بمعنى المعاشر).

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ....

﴿مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، فجِيءَ بالفاء الذي هو للتسبيبِ، كقولك: وعدتُه فلمّا جاء الميعادُ.. كان كيتَ، وأما الأُخرَيان.. فقد وقعتا مبتدأتَين، فكان حقُّهما أن تُعطفا بحرفِ الجمعِ على ما قبلهما، كما تُعطفُ قصةٌ على قصةٍ، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ الجاثمُ: اللازمُ لمكانِه لا يَرِيم[1]؛ يعني: أن جبريلَ صاح بهم صيحةً فزَهَقَ روحُ كلِّ واحدٍ منهم بحيث هو بغتةً.

《٩٥》 ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ كأن لم يُقيموا في ديارِهم أحياءً متصرفين مترددين، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ البُعْدُ بمعنى البَعَدِ، وهو الهلاكُ، كالرُّشْدِ بمعنى الرَّشَدِ، ألا ترى إلى قوله: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾، وقرئَ: ﴿كما بَعُدَتْ﴾[2]، والمعنى في البناءين واحدٌ، وهو نقيضُ القربِ، إلا أنهم فرقوا بين البُعدِ من جهة الهلاك، وبين غيرِه، فغيَّرُوا البناءَ، كما فرَّقوا بين ضمانَي الخيرِ والشرِّ فقالوا: وعدَ وأوعدَ.

《٩٦》 ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ المرادُ به العصا؛ لأنها أبْهرُها.

《٩٧》 ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟﴾ أي: الملأُ ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾: هو تجهيلٌ لمتبعيه؛ حيث شايَعُوه على أمرِه وهو ضلالٌ مبين، وذلك أنه ادَّعَى الألوهيةَ وهو بشرٌ مثلهم، وجاهرَ بالظلم والشرِّ الذي لا يأتي إلا من شيطان، ومثلُه بمعزل عن الألوهية، وفيه أنهم عايَنُوا الآياتِ والسلطانَ المبينَ، وعلموا أن مع موسى الرشدَ والحقَّ، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع مَن ليس في أمره رشدٌ قطُّ، أو: المرادُ: وما أمرُه بصالحٍ حميدِ العاقبةِ، ويكونُ قولُه:

《٩٨》 ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يتقدمُهم وهم على عقبِه.. تفسيراً له وإيضاحاً؛ أي: كيفَ يَرْشُدُ أمرُ مَن هذه عاقبتُه، والرُّشْدُ يستعملُ في كلِّ ما يُحمدُ ويُرتضى، كما استعملَ الغَيُّ في كلِّ ما يُذَمُّ، ويقال: قَدَمَه؛ بمعنى: تَقَدَّمَهُ، ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾: أدخلهم، وجِيءَ بلفظِ الماضي؛ لأن الماضيَ يدلُّ على أمرٍ موجودٍ مقطوعٍ به، فكأنه قيل: يَقدُمُهم فيوردُهم النارَ لا محالةَ؛ يعني: كما كان قدوةً لهم في الضلال.. كذلك يتقدمُهم إلى النار وهم يتبعونَه، ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ﴾:

---

(١) لا يريم: لا يبرح.

(٢) قراءة شاذة. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص٥٧٣).

وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾

المَوْرِدُ، ﴿ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾: الذي وَرَدُوه، شُبِّهَ بالفارطِ الذي يَتَقَدَّمُ الواردةَ إلى الماءِ، وشُبِّهَ أتباعُه بالواردةِ، ثم قال: وبئس الوردُ الموردُ الذي يردونَه النارُ؛ لأن الوِرْدَ إنما يرادُ لتسكينِ العطشِ، والنارُ ضِدُّهُ.

﴿٩٩﴾ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ﴾ أي: الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يُلعنون في الدنيا، ويُلعنون في الآخرة، ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ رِفدُهم؛ أي: بئس العونُ المُعانُ، أو: بئسَ العطاءُ المعطَى.

﴿١٠٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأٌ، ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾: خبرٌ، ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾: خبرٌ بعدَ خبرٍ؛ أي: ذلك النبأُ بعضُ أنباءِ القرى المُهلكةِ مقصوصٌ عليك، ﴿مِنْهَا﴾: من القُرى، ﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: بعضُها باقٍ، وبعضُها عافي الأثرِ، كالزرعِ القائمِ على ساقِه، والذي حُصِدَ، والجملةُ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ.

﴿١٠١﴾ ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بإهلاكِنا إياهم، ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بارتكابِ ما به أُهلكُوا، ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾: فما قَدَرتْ أن تردَّ عنهم بأسَ اللهِ، ﴿ٱلَّتِى يَدْعُونَ﴾: يعبدون، وهي حكايةُ حالٍ ماضيةٍ، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: عذابُه، و(لما): منصوبٌ بـ(ما أغنت)، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾: تخسيرٍ، يقال: تبَّ: إذا خَسِرَ، وتَبَّبَهُ غيرُه: أَوْقعَهُ في الخسرانِ؛ يعني: وما أفادتْهم عبادةُ غيرِ اللهِ شيئاً، بل أهلكتْهم.

﴿١٠٢﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: محلُّ الكافِ: الرفعُ؛ أي: ومثلُ ذلك الأخذِ ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلَها ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾: حالٌ من (القرى)، ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾: مُؤلمٌ شديدٌ صعبٌ على المأخوذِ، وهذا تحذيرٌ لكلِّ قريةٍ ظالمةٍ من كفارِ مكةَ وغيرِها، فعلى كلِّ ظالمٍ أن يبادرَ التوبةَ ولا يغترَّ بالإمهالِ.

﴿١٠٣﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: فيما قصَّ اللهُ من قَصَصِ الأممِ الهالكةِ ﴿لَءَايَةً﴾: لعبرةً ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: اعتقدَ صحتَه ووجودَه، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى يومِ القيامةِ؛ لأن عذابَ الآخرةِ دلَّ عليه، ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾: هو مرفوعٌ بـ(مجموع)، كما يرفعُ فعلُه إذا قلتَ: يُجمع له

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ ....

الناسُ، وإنما آثر اسمَ المفعولِ على فعلِه؛ لِما في اسمِ المفعولِ من دلالته على ثباتِ معنى الجمعِ لليوم، وإنه أُثْبِتُ أيضاً لإسنادِ الجمعِ إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه، يُجمعون للحساب والثواب والعقاب[١]، ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: مشهودٌ فيه، فاتُّسِعَ في الظرفِ بإجرائِه مُجرى المفعول به؛ أي: يَشهدُ فيه الخلائقُ الموقفَ، لا يغيبُ عنه أحدٌ.

《١٠٤》 ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: اليومَ المذكورَ، الأجلُ يطلقُ على مدةِ التأجيلِ كلِّها، وعلى منتهاها، والعدُّ إنما هو للمدةِ لا لغايتِها ومنتهاها، فمعنى قولِه: (وما نؤخره) ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾: إلا لانتهاءِ مدةٍ معدودةٍ، بحذفِ المضافِ، أو: ما نؤخرُ هذا اليومَ إلا لتنتهيَ المدةُ التي ضربناها لبقاءِ الدنيا.

《١٠٥》 ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ وبالياءِ: مكيٌّ، وافقه أبو عمرٍو ونافعٌ وعليٌّ في الوصلِ[٢]، وإثباتُ الياءِ هو الأصلُ؛ إذْ لا علةَ تُوجِبُ حذفَها، وحذفُ الياءِ والاجتزاءُ عنها بالكسرة كثيرٌ في لغة هُذيلٍ، ونظيرُه: ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف: ٦٤]، وفاعلُ (يأت): ضميرٌ يرجعُ على قولِه: (يومٌ مجموعٌ له الناس) لا اليوم المضافِ إلى (يأت)، و(يومَ): منصوبٌ بـ: اذكر، أو بقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ أي: لا تتكلمُ ﴿نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: لا يشفعُ أحدٌ[٣] إلا بإذن الله، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿فَمِنْهُمْ﴾ الضميرُ لأهل الموقفِ؛ لدلالةِ: (لا تكلم نفس) عليه، وقد مرَّ ذكرُ الناسِ في قولِه: (مجموع له الناس)، ﴿شَقِىٌّ﴾: معذبٌ، ﴿وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: ومنهم سعيدٌ؛ أي: مُنَعَّمٌ.

《١٠٦》 ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾: هو أولُ نهيقِ الحمارِ، ﴿وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾: هو آخرُه، أو: هما إخراجُ النَّفَسِ وردُّه، والجملةُ: في موضعِ الحالِ، والعاملُ فيها: الاستقرارُ الذي في النار[٤].

---

(١) أي: في وصفِ اليومِ باسم المفعولِ، وإسنادِه إلى الناس.. دلالةٌ على أن ذلك اليومَ موصوفٌ بالجمع وصفاً لازماً، وأن الناس لا ينفكون عن الجمع. انظر «فتوح الغيب» (٨/ ١٩٢).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥٩).

(٣) في الأصل: (لا يشفع أحدٌ أحداً)، وما أثبته من المطبوع (١/ ٣٧١) وهو أولى.

(٤) أي: مستقرون في النار لهم فيها زفير.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ ....

《١٠٧》 ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: حالٌ مقدرةٌ، ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: في موضعِ النصبِ؛ أي: مدةَ دوامِ السمواتِ والأرضِ، والمرادُ: سماواتُ الآخرةِ وأرضُها، وهي دائمةٌ مخلوقةٌ للأبدِ؛ والدليلُ على أن لها سماواتٍ وأرضاً: قولُه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقيل: ما دام فوقٌ وتحتٌ، ولأنه لا بدَّ لأهلِ الآخرةِ مما يُقِلُّهم ويُظِلُّهم؛ إما سماءٌ أو عرشٌ، وكلُّ ما أظلك فهو سماءٌ، أو: هو عبارةٌ عن التأبيدِ ونفْيِ الانقطاعِ، كقول العرب: ما لاحَ كوكبٌ. وغيرِ ذلك من كلماتِ التأبيدِ، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾: هو استثناءٌ من الخلود في عذابِ النارِ، وذلك لأن أهل النار لا يَخلدون في عذاب النار وحدَه، بل يُعذبون بالزَّمْهَرِيرِ وأنواعٍ من العذاب سوى عذابِ النارِ، أو: (ما شاء) بمعنى: من شاء، وهم قومٌ يخرجون من النار ويدخلون الجنةَ فيقال لهم: الجَهَنَّمِيُّون، وهم المستثنَونَ من أهلِ الجنةِ أيضاً؛ لمفارقتهم إياها بكونهم في النار أياماً، فهؤلاء لم يشقَوا شقاوةَ مَن يدخلُ النارَ على التأبيد، ولا سعدُوا سعادةَ من لا تَمَسُّه النارُ، وهو مرويٌّ عن ابنِ عباسٍ والضحاكِ وقتادةَ رضي الله عنهم[١]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ بالشقيِّ والسعيدِ.

《١٠٨》 ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سَعِدُوا﴾، ﴿سُعِدُوا۟﴾: حمزةُ وعليٌّ وحفصٌ[٢]، سَعِدَ: لازمٌ، وسَعَدَهُ يَسْعَدُهُ: متعدٍّ، ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾: هو استثناءٌ من الخلود في نعيمِ الجنةِ، وذلك أن لهم سوى الجنة ما هو أكبرُ منها وهو رؤيةُ اللهِ تعالى ورضوانُه، أو معناها: إلا مَن شاء أن يعذبَه بقدرِ ذنبِه قبل أن يُدخله الجنة، وعن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الاستثناءُ في الآيتين لأهل الجنة»[٣]؛ ومعناه ما ذكرنا: أنه لا يكونُ للمسلمِ العاصي الذي دخلَ النارَ خلودٌ في النار حيثُ يخرجُ منها، ولا يكونُ له أيضاً خلودٌ

(١) قول سيدنا ابن عباس رضي الله عنه رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٢٠٨٦)، وقول الضحاكِ وقتادةَ رواه الطبري في «التفسير» (١٥/ ٤٨٢).
وقيل: الاستثناءُ في حقِّ عُصاةِ المؤمنين؛ أي: إلا أن يشاء ربُّكَ أن يتجاوزَ عنهم فلا يدخلُهم النار، فيكون الاستثناء من قوله: (فأما الذين شقوا ففي النار)، لا من الخلود. انظر «تفسير الطبري» (١٥/ ٤٨٣).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥٩).

(٣) لم أجده.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ . . . .

في الجنة؛ لأنه لم يدخلِ الجنةَ ابتداءً[١]، والمعتزلةُ لما لم يَرَوا خروجَ العصاةِ من النار. . ردُّوا الأحاديثَ المرويةَ في هذا الباب، وكفى به إثماً مبيناً، ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾: غيرَ مقطوعٍ ولكنه ممتدٌّ إلى غيرِ نهايةٍ، كقولِه: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨]، وهو نصبٌ على المصدرِ؛ أي: أُعطُوا عطاءً، قيل: كفرت الجهميةُ بأربعِ آياتٍ: (عطاء غير مجذوذ)، ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥]، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣].

《١٠٩》 لمّا قصَّ قَصَصَ عبدةِ الأوثانِ وذكرَ ما أَحَلَّ بهم من نِقَمِهِ، وما أعدَّ لهم من عذابِه. . قال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: فلا تشكَّ بعدَ ما أُنزلَ عليك من هذه القصص. . في سوءِ عاقبةِ عبادتِهم؛ لِما أصابَ أمثالَهم قبلَهم؛ تسليةً لرسولِ الله ﷺ، وعِدَةً بالانتقام منهم، ووعيداً لهم، ثم قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ يريدُ: أن حالَهم في الشرك مثلُ حالِ آبائِهم، وقد بلغك ما نزلَ بآبائِهم، فسينزلُ بهم مثلُه، وهو استئنافٌ معناه: تعليلُ النهيِ عن المِرْيَةِ، و(ما) في (مما) و(كما): مصدريةٌ أو موصولةٌ؛ أي: من عبادتِهم، وكعبادتِهم، أو: مما يعبدون من الأوثان، ومثلَ ما يعبدون منها، ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾: حظَّهم من العذاب كما وَفَّينا آباءَهم أنصباءَهم، ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾: حالٌ من (نصيبهم)؛ أي: كاملاً.

《١١٠》 ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراةَ، ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾: آمن به قومٌ، وكفرَ به قومٌ، كما اختُلفَ في القرآن، وهو تسليةٌ لرسول الله ﷺ، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أنه لا يُعاجلُهم بالعذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: بين قومِ موسى، أو: قومِك بالعذاب المستأصِلِ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾: من القرآن، أو من العذاب ﴿مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾: مِن: أرابَ الرجلُ: إذا كان ذا ريبةٍ، على الإسنادِ المجازيِّ.

《١١١》 ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ التنوينُ عِوَضٌ عن المضاف إليه؛ يعني: وإنَّ كلَّهم؛ أي: وإنَّ جميعَ

---

(١) لأنّ التأبيدَ من مبدأٍ معيَّنٍ ينقصُ باعتبارِ الابتداءِ كما ينقصُ باعتبارِ الانتهاء؛ والمعنى على هذا: أن السعداء كلَّهم خالدون في الجنة من زمانِ دخولِ أهلِ النارِ في النار إلا العصاةَ منهم الذين أراد اللهُ سبحانه دخولَهم في النار مدةً معينةً علمُها عنده جلَّ وعلا. انظر «تفسير الآلوسي» (٦/ ٣٣٧).

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ ....

المختلِفين فيه، و(إنَّ): مشددةٌ، ﴿لَمَا﴾: مخففٌ: بصريٌّ وعليٌّ، (ما): مزيدةٌ، جيءَ بها لِيفصلَ بها بين لام (إنْ) ولام ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ وهو جوابُ قسم محذوفٍ، واللامُ في (لما): مُوطئةٌ للقسم؛ والمعنى: وإن جميعَهم والله ليوفينَّهم ﴿رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: جزاءَ أعمالِهم من إيمانٍ وجحودٍ وحَسَنٍ وقبيحٍ، بعكسِ الأُولى: أبو بكرٍ[١]، مخففانِ: مكيٌّ ونافعٌ؛ على إعمالِ المخففةِ عملَ الثقيلةِ؛ اعتباراً لأصلِها الذي هو التثقيلُ، ولأنَّ (إنْ) تُشبهُ الفعلَ، والفعلُ يعملُ قبلَ الحذفِ وبعده، نحو: لم يكن، ولم يكُ، فكذا المشبَّهُ به، مشددتان: غيرُهم[٢]، وهو مشكلٌ، وأحسنُ ما قيل فيه: أنه من: لَمَمْتُ الشيءَ: جمعتُه.. لَمّاً، ثم وُقِفَ فصارَ (لَمّا)، ثم أُجْرِيَ الوصلُ مُجرَى الوقفِ، وجاز أن يكون مثلَ الدعوى والشَّرْوَى[٣]، وما فيه ألفُ التأنيثِ من المصادرِ، وقرأ الزُّهريُّ: ﴿وإنَّ كلّاً لماً﴾: بالتنوين، كقوله: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٩]، وهو يؤيدُ ما ذكرنا؛ والمعنى: وإن كلاً ملمومين؛ أي: مجموعين، كأنه قيل: وإنَّ كلّاً جميعاً، كقولِه: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠]، وقال صاحبُ «الإيجاز»: (لما): فيه معنى الظرف، وقد دخلَ في الكلام اختصارٌ، كأنه قيل: وإنَّ كلّاً لما بُعثُوا ليوفينهم ربُّك أعمالَهم[٤]، وقال الكسائيُّ: ليس لي بتشديدِ (لمّا) علمٌ[٥]، ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

﴿١١٢﴾ ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾: فاستقم استقامةً مثلَ الاستقامةِ التي أمرتَ بها غيرَ عادلٍ عنها، ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾: معطوفٌ على المستترِ في (استقم)، وجاز للفاصل؛ يعني: فاستقم أنت وليستقمْ مَن تاب عن الكفرِ ورجعَ إلى الله مخلصاً، ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾: ولا تخرجُوا عن حدودِ اللهِ؛ ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ فهو مجازيْكم فاتقوه، قيل: ما نزلت على رسول الله ﷺ آيةٌ كان أشقَّ عليه من هذه الآيةِ، ولهذا قال: «شَيَّبَتني هودٌ»[٦].

---

(١) أي: (إن): مخففة، و(لما): مشددة.
وتوجيهها أنَّ (إن): مخففة من الثقيلة عاملة، و(لما) أصلها: لَمِنْ ما؛ أي: لمن الذين والله ليوفينهم، أو لمن خلقٍ والله ليوفينهم، فلما اجتمعت النون ساكنةً قبل الميم.. وجبَ إدغامُها فيها، فقُلبت ميماً وأدغمت، فصار في اللفظ ثلاثةُ أمثال، فخففت الكلمةُ بحذف إحداها فصارت (لَمّا). انظر «الدر المصون» (٦/ ٤٠١).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٥٩).

(٣) الشَّرْوَى: المِثْلُ.

(٤) الأولى أن يقال: الأصل: لَمِنْ ما، كما مرَّ.

(٥) إن ثبت هذا عن الكسائي.. فلا يضرُّ؛ لأن تشديدها قراءة متواترة.

(٦) رواه الترمذي (٣٢٩٧) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ...﴾

《١١٣》 ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: ولا تميلُوا، قال الشيخُ رحمه الله: هذا خطابٌ لأتباعِ الكفرة؛ أي: لا تركنُوا إلى القادةِ والكبراءِ في ظلمِهم، وفيما يدعونكم إليه[١]، ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾، وقيل: الركونُ إليهم: الرضا بكفرِهم، وقال قتادة: ولا تَلْحَقُوا بالمشركين، وعن الموفَّقِ: أنه صلى خلفَ الإمامِ، فلما قرأ هذه الآيةَ. . غُشيَ عليه، فلمّا أفاق. . قيل له، فقال: هذا فيمن ركنَ إلى مَن ظلمَ، فكيف بالظالم؟! وعن الحسن: جعلَ اللهُ الدِّينَ بين لاءينِ: (ولا تطغوا)، (ولا تركنوا)، وقال سفيانُ: في جهنمَ وادٍ لا يسكنُه إلا القراءُ الزائرون للملوكِ، وعن الأوزاعيِّ: ما من شيءٍ أبغضَ إلى اللهِ من عالمٍ يزورُ عاملاً، وقال رسول الله ﷺ: «من دعا لظالمٍ بالبقاءِ. . فقد أحبَّ أن يُعصَى اللهُ في أرضه»[٢]، ولقد سئل سفيانُ عن ظالمٍ أشرفَ على الهلاكِ في بَرِّيَّةٍ هل يُسقَى شربةَ ماءٍ؟ فقال: لا، فقيل له: يموت، فقال: دعْه يموتُ، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾: حالٌ من قولِه: (فتمسَّكُمُ النارُ) أي: فتمسَّكُمُ النارُ وأنتم على هذه الحالةِ؛ ومعناه: وما لكم من دون الله من أولياءَ يقدِرون على منعِكم من عذابِه، ولا يقدرُ على منعكم منه غيرُه، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾: ثم لا ينصُرُكم هو؛ لأنه حكمَ بتعذيبكم؛ ومعنى (ثم): الاستبعادُ؛ أي: النصرةُ من الله مستبعدةٌ.

《١١٤》 ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾: غُدوةً وعَشيةً، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: وساعاتٍ من الليل، جمعُ زُلْفَةٍ، وهي ساعاتُه القريبةُ من آخرِ النهارِ، مِن: أَزْلَفَهُ: إذا قَرَّبَه، وصلاةُ الغُدْوَةِ الفجرُ، وصلاةُ العشيةِ الظهرُ والعصرُ؛ لأن ما بعدَ الزوالِ عَشِيٌّ، وصلاةُ الزُّلَفِ المغربُ والعشاءُ، وانتصابُ (طرفَي النهار) على الظرف؛ لأنهما مضافان إلى الوقت، كقولك: أقمتُ عنده جميعَ النهارِ، وأتيتُه نصفَ النهارِ وأولَه وآخرَه. تنصبُ هذا كلَّه على إعطاءِ المضافِ حكمَ المضافِ إليه، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: إن الصلواتِ الخمسَ يُذهبنَ الذنوبَ، وفي الحديث: «إن الصلواتِ الخمسَ تُكَفِّرُ ما بينها من الذنوب»[٣]، أو: الطاعاتِ، قال عليه السلام: «أَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ. . تمحُها»[٤]، أو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله

(١) انظر «تأويلات أهل السنة» (٦/ ١٩٢).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٢/ ٤٢) من قول الحسن البصري.

(٣) رواه مسلم (٢٣١) عن سيدنا عثمان رضي الله عنه

(٤) رواه الترمذي (١٩٨٧) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٥ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝١١٦﴾ ....

أكبر، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى (فاستقم) فما بعده، أو: القرآنُ، ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾: عظةٌ للمتَّعظين، نزلت في عمرِو بنِ غَزِيَّةَ الأنصاريِّ بائعِ التمرِ، قال لامرأةٍ: في البيت تمرٌ أجودُ فدخلتْ فقبَّلها فندمَ فجاءَه حاكياً باكياً، فنزلت، فقال عليه السلام: «هل شهدتَ معنا العصرَ؟» قال: نعم، قال: «هي كفارةٌ لك»، فقيل: أَلَهُ خاصةً؟ قال: «بل للناس عامة»[1].

《١١٥》 ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على امتثالِ ما أُمرتَ به والانتهاءِ عما نُهيتَ عنه، فلا يتمُّ شيءٌ منه إلّا به، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٥﴾ جاءَ بما هو مُشتمِلٌ على جميعِ الأوامرِ والنواهيْ، من قولِه: (فاستقم) إلى قوله: (واصبر)، وغيرِ ذلك من الحسنات.

《١١٦》 ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾: فهلّا كان، وهو موضوعٌ للتحضيض، ومخصوصٌ بالفعل، ﴿أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾: أولو فضلٍ وخيرٍ، وسُمِّيَ الفضلُ والجودُ بقيةً؛ لأن الرجل يستبقي مما يُخرِجُه أجودَه وأفضلَه، فصار مثلاً في الجَوْدَةِ والفضلِ، ويقال: فلانٌ من بقيةِ القوم؛ أي: من خيارِهم، ومنه قولُهم: (في الزوايا خبايا، وفي الرجال بَقايا)[2]، ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عَجَّبَ محمداً ﷺ وأمتَه أنَّه لم يكن في الأمم التي ذكر اللهُ إهلاكَهم في هذه السورة جماعةٌ من أولي العقلِ والدينِ ينهون غيرَهم عن الكفر والمعاصي، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾: استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: ولكنَّ قليلاً ممن أنجينا من القرون نَهَوا عن الفساد، وسائرُهم تاركون للنهي، و(مَن) في (ممن أنجينا): للبيان، لا للتبعيض؛ لأن النجاة للناهين وحدَهم؛ بدليل قولِه: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأعراف: ١٦٥]، ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: التاركون للنهي عن المنكر، وهو عطفٌ على مُضمرٍ؛ أي: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نَهَوا عن الفساد، واتَّبَعَ الذين ظلموا شهواتِهم، فهو عطفٌ على: نَهَوا، ﴿مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: اتَّبَعُوا ما عَرَفُوا فيه التنعمَ والترفُّهَ مِن حبِّ الرياسةِ والثروةِ وطلبِ أسبابِ العيشِ الهنيءِ، ورفضُوا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر ونبذوه وراءَ ظهورِهم، ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝١١٦﴾: اعتراضٌ، وحكمٌ عليهم بأنهم قومٌ مجرمون.

---

(١) روى نحوه الترمذي (٣١١٥) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٨٤) عن سيدنا كعب بن عمرو رضي الله عنه، ورواه البخاري (٥٢٦) ومسلم (٢٧٦٣) عنه مختصراً.

(٢) انظر هذا المثل في «سحر البلاغة» للثعالبي (ص ١٩٦).

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ......

《١١٧》 ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ اللامُ لتأكيدِ النفي، ﴿بِظُلْمٍ﴾: حالٌ من الفاعل؛ أي: لا يصحُّ أن يُهلك اللهُ القرى ظالماً لها ﴿وَأَهْلُهَا﴾ قومٌ ﴿مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾؛ تنزيهاً لذاته عن الظلمِ، وقيل: الظلمُ: الشركُ؛ أي: لا يهلكُ القرى بسببِ شركِ أهلِها وهم مصلحون في المعاملاتِ فيما بينهم، لا يَضُمُّون إلى شركِهم فساداً آخرَ.

《١١٨》 ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: متفقين على الإيمانِ والطاعاتِ عن اختيارٍ، ولكن لم يشأ ذلك، وقالت المعتزلة: هي مشيئةُ قسرٍ، وذلك رافعٌ للابتلاءِ فلا يجوز، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ في الكفر والإيمانِ؛ أي: ولكن شاء أن يكونوا مختلفين لَمّا علمَ منهم اختيارَ ذلك.

《١١٩》 ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾: إلا ناساً عصمَهم اللهُ عن الاختلاف فاتفقُوا على دين الحقِّ غيرَ مختلفين فيه، ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: ولِمَا هم عليه من الاختلاف، فعندنا: خلقَهم للذي علم أنهم يصيرون إليه من اختلافٍ أو اتفاقٍ، ولم يخلقْهم لغير الذي علمَ أنهم يصيرون إليه، كذا في «شرح التأويلات»، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وهي قولُه للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾؛ لعلمِهِ بكثرةِ مَن يختارُ الباطلَ.

《١٢٠》 ﴿وَكُلًّا﴾التنوينُ فيه عوضٌ من المضاف إليه، كأنه قيل: وكلَّ نبأٍ، وهو منصوبٌ بقوله: ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾، وقولُه: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾: بيانٌ لـ: كل، وقولُه: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾: بدلٌ مِن (كلّاً)، ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورةِ، أو: في هذه الأنباءِ المُقْتَصَّةِ ما هو حقٌّ ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾؛ ومعنى تثبيتِ فؤادِه: زيادةُ يقينِه؛ لأن تكاثرَ الأدلةِ أثبتُ للقلب.

《١٢١》 ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: من أهلِ مكةَ وغيرِهم: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: على حالِكم وجهتِكم التي أنتم عليها، ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ على مكانتِنا.

《١٢٢》 ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ بنا الدوائرَ، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أن ينزل بكم نحوُ ما اقتصَّ اللهُ تعالى من النقمِ النازلةِ بأشباهِكم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

《١٢٣》 ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا تَخْفَى عليه خافيةٌ مما يجرى فيها، فلا تخفَى عليه أعمالُكم، ﴿وَإليهِ يَرْجِعُ الأمرُ كُلُّهُ﴾ فلا بدَّ أن يرجعَ إليه أمرُهم وأمرُك فينتقمُ لك منهم، ﴿يُرْجَعُ﴾: نافعٌ وحفصٌ[١]، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيكَ وكافلُك، ﴿ومَا رَبُّكَ بغافلٍ عمَّا يَعملُونَ﴾ وبالتاء: مدنيٌّ وشاميٌّ وحفصٌ؛ أي: أنت وهم، على تغليبِ المخاطبِ، قيل: خاتمةُ التوراة: هذه الآيةُ، وفي الحديث: «من أحبَّ أن يكون أقوى الناسِ.. فليتوكل على الله تعالى»[٢].



(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٥٩) وكذا القراءة الآتية.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٧٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ . . . .

سورة يوسف عليه السلام

وهي مئةٌ وإحدى عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

«١» ﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾ (تلك): إشارةٌ إلى آياتِ هذه السورةِ، و(الكتاب المبين): السورةُ؛ أي: تلك الآياتُ التي أُنزلتْ إليك في هذه السورةِ آياتُ السورةِ الظاهرِ أمرُها في إعجازِ العربِ، أو: التي تَبَيَّنَ لمن تدبَّرَها أنها من عندِ الله لا من عندِ البشر، أو: الواضحةُ التي لا تَشتبهُ على العرب معانيْها؛ لنزولها بلسانِهم، أو: قد أُبينَ فيها ما سألت عنه اليهودُ من قصةِ يوسفَ عليه السلام، فقد رويَ: أن علماءَ اليهودِ قالُوا للمشركين: سلُوا محمداً لِمَ انتقلَ آلُ يعقوبَ من الشام إلى مصرَ؟ وعن قصةِ يوسفَ عليه السلام.

«٢» ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أي: أنزلنا هذا الكتابَ الذي فيه قصةُ يوسفَ عليه السلام في حالِ كونِه قرآناً عربيّاً؛ وسمي بعضُ القرآنِ قرآناً؛ لأنه اسم جنسٍ يقعُ على كلِّه وبعضِه؛ ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾: لكي تفهمُوا معانيَه، ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤٤].

«٣» ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾: نبين لك أحسنَ البيانِ، والقاصُّ: الذي يأتي بالقصةِ على حقيقتِها، عن الزجاج[1]، وقيل: القَصَصُ يكون مصدراً؛ بمعنى: الاقتصاصِ، تقول: قصَّ الحديثَ يَقُصُّه قَصَصاً، ويكون (فَعَلاً) بمعنى (مَفعول)، كالنَّفَضِ[2]، فعلى الأول معناه: نحن نقصُّ عليك أحسنَ الاقتصاصِ ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: بإيحائِنا إليك هذه السورةَ، على أن يكون (أحسنَ) منصوباً نصبَ المصدرِ؛ لإضافتِه إليه، والمقصوصُ محذوفٌ؛ لأن (بما أوحينا إليك هذا القرآن) مُغْنٍ عنه، والمرادُ بأحسنِ الاقتصاصِ: أنه اقْتُصَّ على أبدعِ طريقةٍ، وأعجبِ أسلوب، فإنك لا ترى اقتصاصَه في كتبِ الأولين مقارِباً لاقتصاصِه في القرآن، وإن أريد بالقَصَصِ المقصوصُ.. فمعناه: نحن نقص عليك أحسنَ ما يُقَصُّ من

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٨٨).

(٢) النَّفَضُ: ما تساقط من الورق والثمر.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ ......

الأحاديث، وإنما كان أحسنَه لما يتضمن من العبرِ والحكمِ والعجائبِ التي ليست في غيرِه، والظاهرُ أنه أحسنُ ما يقتصُّ في بابِه[1]، كما يقال: فلانٌ أعلمُ الناسِ؛ أي: في فَنِّه، واشتقاقُ القَصَصِ مِن: قَصَّ أثره: إذا تَبِعَهُ؛ لأن الذي يَقُصُّ الحديثَ يتبعُ ما حفظ منه شيئاً فشيئاً، ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ الضميرُ يرجعُ إلى (ما أوحينا) ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ عنه، (إنْ): مخففةٌ من الثقيلة، واللامُ فارقةٌ بينها وبين النافية؛ يعني: وإن الشأنَ والحديثَ كنتَ من قبلِ إيحائِنا إليك من الجاهلين به.

《٤》 ﴿إِذْ قَالَ﴾: بدلُ اشتمالٍ من (أحسنَ القصصِ)؛ لأن الوقت مشتملٌ على القصص، أو: التقدير: اذكر إذْ قال ﴿يُوسُفُ﴾: اسمٌ عِبرانيٌّ لا عَربيٌّ؛ إذْ لو كان عربيّاً.. لانصرفَ؛ لِخُلُوِّه عن سببٍ آخرَ سوى التعريف، ﴿لِأَبِيهِ﴾: يعقوبَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ﴿أَبَتَ﴾: شاميٌّ[2]، وهي تاءُ تأنيثٍ عُوِّضَتْ عن ياءِ الإضافةِ؛ لتناسبِهما؛ في أنَّ كلَّ واحدةٍ منهما زيادة في آخر الاسم؛ ولهذا تُقلَب هاءً في الوقف، وجازَ إلحاقُ تاءِ التأنيثِ بالمذكر، كما في: رَجُلٌ رَبْعَةٌ[3]، وكُسِرَتِ التاءُ؛ لتدلَّ على الياءِ المحذوفةِ، ومن فتحَ التاءَ.. فقد حذفَ الألفَ من: يا أبتا، واستبقَى الفتحةَ قبلَها، كما فعلَ مَن حذفَ الياءَ في: يا غلام، ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾: من الرؤيا، لا من الرؤيةِ، ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ أسماؤُها ببيانِ النبيِّ عليه السلام: جَرِبّانُ، والذَّيّالُ، والطارقُ، وقابِسٌ، وعَمُودانِ، والفليقُ، والمُصْبِحُ، والضَّرُوحُ، والفَرْغُ، وَوَثّابٌ، وذو الكَتِفَيْنِ[4]، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: هما أبواه، أو أبوه وخالتُه، والكواكبُ: إخوتُه، قيل: الواوُ بمعنى: مع؛ أي: رأيتُ الكواكبَ مع الشمسِ والقمرِ، وأجريت مُجرَى العقلاءِ في ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾؛ لأنه وصفَها بما هو المختصُّ بالعقلاء، وهو السجود، وكُررت الرؤيا؛ لأن الأولى تتعلق بالذاتِ، والثانيةَ بالحال، أو: الثانيةُ كلامٌ مستأنَفٌ على تقدير سؤالٍ وقعَ جواباً له، كأن أباه قال له: كيف رأيتَها؟ فقال: رأيتُهم لي ساجدين؛ أي: متواضعين، وهو حالٌ، وكان ابنَ ثِنْتَي عشرةَ سنةً يومئذٍ، وكان بين رؤيا يوسفَ ومصيرِ إخوتِه إليه أربعون سنةً، أو ثمانون.

---

(١) أي: أن كل قصة في القرآن هي أحسن القصص في بابِها، فقصةُ سيدِنا يوسفَ في القرآن أحسنُ من سائرِ ما يُقصُّ عن سيدنا يوسف في غير القرآن، وليس المراد أنها أحسن من غيرها من قصص القرآن.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٠).

(٣) أي: متوسط بين الطول والقصر.

(٤) روى نحوه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٩٦) عن سيدنا أبي جابر رضي الله عنه.

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ ....

«٥» ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾: بفتحِ الياءِ حيث كان: حفصٌ[١]، ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾: هي بمعنى الرؤيةِ، إلا أنها مختصةٌ بما كان منها في المنام دون اليقظةِ، فُرِّق بينهما بحرفَي التأنيثِ، كما في: القُربةِ والقُربى، ﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ﴾: جوابُ النهيِ؛ أي: إن قصصتَها عليهم.. كادُوكَ، عَرَفَ يعقوبُ عليه السلام أن الله يصطفيه للنبوةِ، ويُنعِمُ عليه بشرفِ الدارين، فخاف عليه حسدَ الإخوةِ، وإنما لم يقل: فيكيدوك، كما قال: ﴿فَكِيدُونِي﴾ [هود: ٥٥]؛ لأنه ضُمِّنَ معنى فعلٍ يتعدَّى باللام؛ ليفيدَ معنى فعلِ الكيدِ مع إفادة معنى الفعلِ المضمَّنِ، فيكونَ آكدَ وأبلغَ في التخويف، وذلك نحوُ: فيحتالُوا لك، ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر وهو: ﴿كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾﴾: ظاهرُ العداوةِ فيحملُهم على الحسد والكيد.

«٦» ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلك الاجتباءِ الذي دلَّت عليه رؤياك ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾: يَصطفيك، والاجتباءُ: الاصطفاءُ، (افتعال) من: جَبَيْتُ الشيءَ: إذا حَصَّلْتَه لنفسك، وجَبَيْتُ الماءَ في الحوض: جمعتُه، ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾: كلامٌ مبتدأٌ غيرُ داخلٍ في حكم التشبيهِ، كأنه قيل: وهو يعلمُك ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: تأويلِ الرؤيا، وتأويلُها: عِبارتُها وتفسيرُها، وكان يوسفُ أعبرَ الناس للرؤيا، أو: تأويلُ أحاديثِ الأنبياءِ وكتبِ اللهِ، وهو اسمُ جمعِ الحديث، وليس بجمعِ أُحْدُوثة، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بأن وَصَلَ لهم نعمةَ الدنيا بنعمةِ الآخرةِ؛ أي: جعلهم أنبياءَ في الدنيا وملوكاً، ونقلهم عنها إلى الدرجاتِ العُلَى في الجنة، و(آل يعقوب): أهلُه، وهم نسلُه وغيرُهم، وأصلُ (آل): أهلٌ؛ بدليلِ تصغيرِه على: أُهَيلٍ، إلا أنه لا يُستعمَلُ إلا فيمَن له خطرٌ، يقال: آلُ النبيِّ، وآلُ المَلِكِ، ولا يقال: آلُ الحجام، ولكن: أهلُه، وإنما عَلِمَ يعقوبُ أن يوسفَ يكون نبيّاً وإخوتُه أنبياءَ؛ استدلالاً بضوءِ الكواكبِ؛ فلذا قال: (وعلى آلِ يعقوبَ) ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أرادَ: الجدَّ وأبا الجدِّ، ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ﴾: عطفُ بيانٍ لـ(أبويك)، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾: يعلمُ مَن يَحِقُّ له الاجتباءُ، ﴿حَكِيمٞ ﴿٦﴾﴾: يضعُ الأشياءَ مواضعَها.

«٧» ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ أي: في قصتِهم وحديثِهم ﴿ءَايَٰتٞ﴾: علاماتٌ ودلالاتٌ على قدرةِ اللهِ وحكمتِه في كلِّ شيءٍ، ﴿آية﴾: مكيٌّ[٢]، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾: لمن سألَ عن قصتِهم

---

(١) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٣٢٨).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٠).

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

وعرفَها، أو: آياتٌ على نبوةِ محمدٍ ﷺ للذين سألُوه من اليهود عنها، فأخبرَهم من غير سماعٍ من أحدٍ، ولا قراءةِ كتابٍ، وأسماؤُهم: يهوذا، وروبينُ، وشمعونُ، ولاوي، وزبولونُ، ويشجرُ، وأُمُّهم ليا بنتُ ليان، ودانُ، ونفتالي، وجادُ، وآشرُ: من سُرِّيَتَيْنِ: زلفةَ، وبلهةَ، فلما توفيت ليا.. تزوجَ أختَها راحيلَ، فولدت له بنيامينَ، ويوسفَ.

《٨》 ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ اللامُ: لامُ الابتداءِ، وفيها تأكيدٌ وتحقيقٌ لمضمونِ الجملةِ، أرادوا: أن زيادةَ محبتِه لهما أمرٌ ثابتٌ لا شبهةَ فيه، وإنما قالوا: (وأخوه) وهم إخوتُه أيضاً؛ لأن أمَّهما كانت واحدةً، وإنما قيل: (أحبُّ) في الاثنين؛ لأن «أفعلَ مِن» لا يُفرَّقُ فيه بين الواحدِ وما فوقَه، ولا بين المذكرِ والمؤنثِ، ولا بدَّ من الفرقِ مع لام التعريفِ، وإذا أضيفَ.. ساغ الأمران[1]، والواوُ في ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: للحال؛ أي: أنه يُفضِّلُهما في المحبة علينا وهما صغيرانِ لا كفايةَ فيهما، ونحنُ عشرةُ رجالٍ كُفاةٌ، نقومُ بمَرافِقِه، فنحن أحقُّ بزيادةِ المحبةِ منهما؛ لفضلِنا بالكثرةِ والمنفعةِ عليهما، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾: غَلَطٍ في تدبيرِ أمرِ الدنيا، ولو وصفوه بالضلالةِ في الدِّينِ.. لكفروا، والعُصبةُ: العشرةُ فصاعداً.

《٩》 ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾: مِن جملةِ ما حُكيَ بعدَ قولِه: ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾، كأنهم أطبقُوا على ذلك إلا من قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾، وقيل: الآمرُ بالقتلِ شمعون، والباقون كانوا راضِين، فجُعلوا آمرين، ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ منكورةً مجهولةً بعيدةً عن العُمران، وهو معنى تنكيرِها وإخلائِها عن الوصف؛ ولهذا الإبهامِ نُصبتْ نصبَ الظروفِ المبهمةِ، ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: يُقبلْ عليكم إقبالةً واحدةً لا يلتفتُ عنكم إلى غيرِكم، والمرادُ: سلامةُ محبتِه لهم ممن يُشارِكُهم فيها، فكان ذكرُ الوجهِ لتصويرِ معنى إقبالِه عليهم؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيءِ.. أقبل بوجهه، وجاز أن يرادَ بالوجه الذاتُ، كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿وَتَكُونُوا۟﴾: مجزومٌ عطفاً على (يخلُ لكم)، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: من بعدِ يوسفَ؛ أي: من بعدِ كفايتِه بالقتلِ أو التغريبِ، أو: من بعدِ قتلِه أو طرحِه، فيرجعُ الضميرُ إلى مصدرِ (اقتلوا)، أو (اطرحوا)، ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾: تائبين إلى الله مما جنيتم عليه، أو: يَصلحُ حالُكم عند أبيكم.

---

(١) أفعل التفضيل: إن خلا من أل والإضافة، أو أضيف إلى نكرة.. لزم الإفرادَ والتذكيرَ، وإن عرف بأل.. وجبت مطابقته لموصوفه، وإن أضيف إلى معرفة.. جاز الأمران. انظر «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (١٧٨/٣).

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾ ....

《١٠》 ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾: هو يهوذا، وكان أحسنَهم فيه رأياً: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾؛ فإن القتلَ عظيمٌ، ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾: في قعرِ البئرِ وما غاب منه عن عينِ الناظرِ، ﴿غَيابات﴾ وكذا ما بعدَه: مدنيٌّ[١]، ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾: بعضُ الأقوامِ الذين يسيرون في الطريقِ، ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ به شيئاً.

《١١》 ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا﴾: بالإشمام[٢] ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾ أي: لِمَ تخافُنا عليه ونحن نريدُ له الخيرَ ونُشفقُ عليه؟ وأرادُوا بذلك لَمّا عزمُوا على كيدِ يوسفَ.. استنزالَه عن رأيه وعادتِه في حفظِه منهم، وفيه دليلٌ على أنه أحسَّ منهم بما أوجبَ ألّا يأمنَهم عليه.

《١٢》 ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً نَرْتَعْ﴾: نَتَّسِعْ في أكلِ الفواكه وغيرِها، والرَّتْعَةُ: السَّعَةُ، ﴿وَنَلْعَبْ﴾: نَتفرَّجْ بما يباحُ، كالصيدِ والرَّمْيِ والركضِ، بالياءِ فيهما: مدنيٌّ وكوفيٌّ، وبالنون فيهما: مكيٌّ وشاميٌّ وأبو عمرٍو، وبكسرِ العينِ: حجازيٌّ[٣]؛ مِن ارْتَعَى يرتَعِي (افتِعالٌ) من الرَّعْيِ، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾ من أن ينالَه مكروهٌ.

《١٣》 ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي: يَحزُنُني ذهابُكم به، واللامُ: لامُ الابتداءِ، ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣﴾ اعتذرَ إليهم بأن ذهابَهم به مما يَحْزُنُه؛ لأنه كان لا يصبرُ عنه ساعةً، وأنه يخافُ عليه من عَدْوَةِ الذئبِ إذا غَفَلُوا عنه برَعْيِهم ولعبِهم.

《١٤》 ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ اللامُ: مُوطئةٌ للقسم، والقسمُ محذوفٌ تقديرُه: واللهِ لئن أكله الذئبُ، والواوُ في ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ أي: فِرقةٌ مجتمعةٌ مقتدرةٌ على الدفع: للحال، ﴿إِنَّآ إِذٗا

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٦١).

(٢) الإشمام: ضم الشفتين من غير صوت بعد النطق بالحرف الأخير ساكناً إشارة إلى الضم، مع إبقاء انفتاح بين الشفتين لإخراج النفس، وضمُّ الشفتين للإشمام يكون عقب سكون الحرف الأخير من غير تراخ. انظر «هداية القاري إلى تجويد كلام الباري» (٢/ ٥١٢). والإشمام هنا عند النون الأولى المدغمة في الثانية، وأصله: تأمننا.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦١).

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ ....

﴿لَخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾: جوابُ للقسم مُجزئٌ عن جزاءِ الشرط[1]؛ أي: إنْ لم نقدِرْ على حفظِ بعضِنا.. فقد هلكتْ مواشينا إذاً وخَسِرْناها، وأجابُوا عن عذره الثاني دون الأول؛ لأن ذلك كان يَغيظُهم.

《١٥》 ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ أي: عَزَمُوا على إلقائِه في البئرِ، وهي بئرٌ على ثلاثةِ فراسخَ من منزلِ يعقوبَ عليه السلام، وجوابُ (لما): محذوفٌ، وتقديرُه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى. فقد رويَ: أنهم لما برزُوا به إلى البَرِّيَّةِ.. أظهروا له العداوةَ وضربُوه وكادوا يقتلونه، فمنعهم يهوذا، فلما أرادُوا إلقاءَه في الجُبِّ.. تعلق بثيابِهم فنزعُوها من يده، فتعلقَ بحائطِ البئرِ فربطُوا يديه، ونزعُوا قميصَه؛ ليلطخُوه بالدم فيحتالُوا به على أبيهم، ودلَّوه في البئر، وكان فيها ماءٌ فسقطَ فيه، ثم أَوَى إلى صخرةٍ فقام عليها وهو يبكي، وكان يهوذا يأتيه بالطعام، ويُروَى: أن إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِيَ في النار.. جُرِّدَ عن ثيابه، فأتاه جبريلُ عليه السلام بقميصٍ من حريرِ الجنةِ فألبسه إياه، فدفعه إبراهيمُ إلى إسحاقَ، وإسحاقُ إلى يعقوبَ، فجعله يعقوبُ في تميمةٍ علَّقَها في عنقِ يوسفَ، فأخرجه جبريلُ وألبسه إياه، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ قيل: أُوحيَ إليه في الصغر، كما أوحيَ إلى يحيى وعيسى عليهما السلام، وقيل: كان إذْ ذاك مُدركاً: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: لَتُحَدِّثَنَّ إخوتَك بما فعلوا بك، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أنك يوسفُ؛ لعلوِّ شأنِك وكبرياءِ سلطانِك، وذلك أنهم حين دخلُوا عليه مُمتارين[2]، فعرفَهم وهم له منكرون.. دعا بالصُّواعِ فوضعه على يدِه، ثم نَقَرَهُ فَطَنَّ، فقال: إنه ليخبرُني هذا الجامُ أنه كان لكم أخٌ من أبيكم يقال له: يوسفُ، وأنكم ألقيتموه في غيابةِ الجُبِّ، وقلتم لأبيه: أكله الذئبُ، وبِعتموه بثمنٍ بخسٍ[3]، أو: يتعلق (وهم لا يشعرون) بـ(أوحينا) أي: آنسناهُ بالوحْيِ وأزلْنا عن قلبه الوَحشةَ وهم لا يشعرون.

《١٦》 ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ للاستتارِ والتَّجَسُّرِ على الاعتذار، ﴿يَبْكُونَ﴾: حالٌ، عن

---

(١) جوابُ الشرط محذوفٌ؛ لدلالة جواب القسم عليه؛ لأنه إذا اجتمع شرط وقسم، ولم يتقدم عليهما ما يطلب خبراً.. حُذِفَ جوابُ المتأخرِ منهما لدلالة جواب الأول عليه. انظر «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (٤/ ٤٤).

(٢) أي: طالبين الميرة، وهي الطعام.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٧٦) من قول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما، والجام: إنَاء للشراب والطَّعام من فضَّة أو نحوها.

وَجَآءُو أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ....

الأعمش: لا تُصَدِّقْ باكيةً بعدَ إخوةِ يوسفَ.

《١٧》 فلما سمع صوتَهم.. فَزِعَ وقال: ما لكم يا بَنِيَّ هل أصابكم في غنمكم شيءٌ؟ قالوا: لا، قال: فما بالكم وأين يوسف؟ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نَتسابقُ العَدْوَ، أو: في الرمي، و(الافتعالُ) و(التفاعلُ) يشتركان، كالارتماءِ والترامي وغيرِ ذلك، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾: بمصدقٍ لنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾: ولو كنا عندك من أهلِ الصدقِ والثقةِ؛ لشدةِ محبتِك ليوسفَ، فكيف وأنت سَيِّئُ الظنِّ بنا، غيرُ واثقٍ بقولِنا؟

《١٨》 ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾: ذي كذبٍ، أو: وُصِفَ بالمصدر مبالغةً، كأنه نفسُ الكذبِ وعينُه، كما يقال للكذّاب: هو الكذبُ بعينِه، والزُّورُ بذاته، رويَ: أنهم ذبحوا سَخلةً ولَطَّخُوا القميصَ بدمِها، وزلَّ عنهم أن يُمزِّقُوه، وروي: أن يعقوبَ عليه السلام لمّا سمع بخبرِ يوسفَ.. صاح بأعلى صوتِه وقال: أين القميصُ؟ وأخذه وألقاه على وجهِه وبكى حتى خَضَبَ وجهَه بدمِ القميصِ وقال: تاللهِ ما رأيتُ كاليومِ ذئباً أحلمَ من هذا، أكلَ ابني ولم يُمزِّقْ عليه قميصَه، وقيل: كان في قميصِ يوسفَ ثلاثُ آياتٍ: كان دليلاً ليعقوبَ على كذبِهم، وألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً، ودليلاً على براءةِ يوسفَ حين قُدَّ مِن دُبُرِهِ، ومحلُّ (على قميصه): النصبُ على الظرف، كأنه قيل: وجاؤوا فوقَ قميصِه بدمٍ، ﴿قَالَ﴾ يعقوبُ عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾: زَيَّنَتْ، أو: سَهَّلَت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ عظيماً ارتكبتُموه، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: خبرٌ، أو مبتدأٌ؛ لكونه موصوفاً؛ أي: فأمري صبرٌ جميلٌ، أو: فصبرٌ جميلٌ أجملُ، وهو ما لا شكوى فيه إلى الخلق، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي: أستعينُه ﴿عَلَىٰ﴾ احتمالِ ﴿مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ من هلاكِ يوسفَ والصبرِ على الرُّزْءِ فيه[1].

---

(١) الرُّزْءُ: المصيبة.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

《١٩》 ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾: رُفقةٌ تسير من قِبَلِ مَدْيَنَ إلى مصرَ، وذلك بعدَ ثلاثةِ أيام من إلقاءِ يوسفَ في الجُبِّ فأخطؤوا الطريقَ فنزلُوا قريباً منه، وكان الجبُّ في قَفْرَةٍ بعيدةٍ من العُمرانِ، وكان ماؤُه مِلْحاً، فَعَذُبَ حين أُلْقِيَ فيه يوسفُ، ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾: هو الذي يَرِدُ الماءَ ليستقيَ للقوم، اسمُه مالكُ بنُ ذعرٍ الخُزاعيُّ، ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾: أرسل الدلوَ ليملأها، فتَشَبَّثَ يوسفُ بالدلوِ فنزعُوه، ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ﴾: كوفيٌّ، نادى البُشرى، كأنه يقول: تعالَي؛ فهذا أوانك، غيرُهم: ﴿بشرايَ﴾، على إضافتِها إلى نفسه، أو: هو اسمُ غلامِه، فناداه مضافاً إلى نفسِه، ﴿هَٰذَا غُلَامٌ﴾ قيل: ذهب به، فلمّا دنا من أصحابه.. صاح بذلك يُبَشِّرُهم به، ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ الضميرُ للوارد وأصحابِه، أخفَوه من الرُّفقةِ، أو: لإخوةِ يوسفَ؛ فإنهم قالوا للرفقةِ: هذا غلامٌ لنا قد أبَقَ فاشتروه منا، وسكت يوسفُ مخافةَ أن يقتلُوه، ﴿بِضَاعَةً﴾: حالٌ؛ أي: أخفَوه متاعاً للتجارةِ، والبضاعةُ: ما بُضِعَ من المال للتجارة؛ أي: قُطِعَ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾: بما يعملُ إخوةُ يوسفَ بأبيهم وأخيهم من سوءِ الصنيعِ.

《٢٠》 ﴿وَشَرَوْهُ﴾: وباعُوه ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾: مبخوسٍ ناقصٍ عن القيمةِ نُقصاناً ظاهراً، أو: زيفٍ، ﴿دَرَاهِمَ﴾: بدلٌ من (ثمن)، ﴿مَعْدُودَةٍ﴾: قليلةٍ تُعدُّ عدّاً ولا توزنُ؛ لأنهم كانوا يعدُّون ما دون الأربعين، ويَزِنُون الأربعين وما فوقَها، وكان عشرين درهماً، ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾: ممن يرغبُ عمّا في يده فيبيعُه بالثمنِ الطفيفِ، أو: معنى (وشَرَوه): واشتروه؛ يعني: الرُّفقةَ من إخوته، وكانوا فيه من الزاهدين؛ أي: غيرَ راغبين؛ لأنهم اعتقدُوا أنه آبقٌ، ويُروى: أن إخوتَه اتبعُوهم وقالُوا: استوثقُوا منه لا يَأْبِقُ، و(فيه): ليس من صلةِ (الزاهدين) لأن الصلة لا تتقدمُ على الموصول، وإنما هو بيانٌ، كأنه قيل: في أيِّ شيءٍ زهدُوا؟ فقال: زهدُوا فيه.

《٢١》 ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ﴾: هو قطفيرُ، وهو العزيزُ الذي كان على خزائنِ مصرَ، والملكُ يومئذٍ الريانُ بن الوليدِ، وقد آمن بيوسفَ ومات في حياتِه، واشتراه العزيزُ بزِنَتِهِ وَرِقاً وحريراً ومِسكاً وهو ابنُ سبعَ عشرةَ سنةً، وأقام في منزله ثلاثَ عشرةَ سنةً واستوزَرَه ريانُ بنُ

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

الوليدِ ابنَ ثلاثين سنةً، وآتاه اللهُ الحكمةَ والعلمَ وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً، وتوفي وهو ابنُ مئةٍ وعشرين سنةً، ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾: راعيلَ، أو زليخا، واللامُ: متعلقةٌ بـ(قال) لا بـ(اشتراه)، ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾: اجعلِي مَنْزِلَه ومُقامَه عندنا كريماً؛ أي: حسناً مرضيّاً؛ بدليلِ قولِه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾، وعن الضحاك: بطيبِ معاشِه، ولينِ لباسِه، ووَطِيْءِ فراشِه، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾: لعلَّه إذا تَدَرَّبَ وراضَ الأمورَ وفَهِمَ مجاريَها.. نستظهرُ به على بعضِ ما نحن بسبيلِه، ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: أو نَتَبَنّاه ونُقيمُه مُقامَ الولدِ، وكان قطفيرُ عقيماً، وقد تَفَرَّسَ فيه الرُّشدَ فقال ذلك، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ من إنجائِه وعطفِ قلبِ العزيزِ عليه، والكافُ: منصوبٌ[1]، تقديرُه: ومثلَ ذلك الإنجاءِ والعطفِ ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي: كما أنجيناه وعَطَّفْنا عليه العزيزَ كذلك مكنّا له ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مصرَ وجعلناه مَلِكاً يَتَصَرَّفُ فيها بأمره ونهيِه، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ كان ذلك الإنجاءُ والتمكينُ، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾: لا يُمنعُ عمّا شاءَ، أو: على أمرِ يوسفَ بتبليغِه ما أراد له دونَ ما أراد إخوتُه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ ذلك.

《٢٢》 ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾: منتهى اشتدادِ قوتِه، وهو ثمانِ عشرةَ سنةً، أو: إحدى وعشرون ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: حكمةً، وهو العلمُ مع العملِ واجتنابُ ما يُجَهَّلُ فيه[2]، أو حُكْماً بين الناس وفقهاً، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾: تنبيهٌ على أنه كان محسناً في عملِه، متقياً في عُنفوانِ أمرِه.

《٢٣》 ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: طلبت يوسفَ أن يُواقعَها، والمراودةُ: (مفاعَلةٌ) مِن: رادَ يَرودُ: إذا جاءَ وذهب، كأن المعنى: خادَعَتْه عن نفسِه؛ أي: فعلت فعلَ المخادعِ لصاحبِه عن الشيءِ الذي لا يريدُ أن يُخرجه من يدِه، يحتالُ أن يغلبَه عليه ويأخذَه منه، وهي عبارةٌ عن التَّمَحُّلِ لمواقعتِه إياها[3]، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ وكانت سبعةً ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾: هو اسمٌ لـ: تعالَ وأقبلْ، وهو مبنيٌّ على الفتحِ، ﴿هَيْتُ﴾: مكيٌّ، بناه على الضمِّ،

---

(١) أي: صفة لمفعول مطلق محذوف.

(٢) أي: يُعَدُّ به جاهلاً.

(٣) التمحل: الاحتيال.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ....

﴿هِيْتَ﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ[1]، واللامُ للبيان، كأنه قيل: لكَ أقولُ هذا، كما تقول: هلمَّ لكَ، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أعوذُ باللهِ معاذاً، ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إن الشأنَ والحديثَ ﴿رَبِّىٓ﴾: سيدي ومالكي؛ يريدُ: قطفيرَ ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ حينَ قال لكِ: أكرمي مثواي، فما جزاؤُه أن أخونَه في أهلِه؛ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾: الخائنون، أو: الزناةُ، أو: أراد بقوله: (إنه ربي) اللهَ تعالى؛ لأنه مُسبِّبُ الأسبابِ.

《٢٤》 ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ همَّ: عزمٍ، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: همَّ الطباعِ مع الامتناعِ، قاله الحسنُ، وقال الشيخُ أبو منصورٍ رحمه الله: (وهمَّ بها): همَّ خَطْرَةٍ، ولا صنعَ للعبد فيما يخطرُ بالقلب ولا مؤاخذةَ عليه[2]، ولو كان همُّه كهمِّها.. لما مدحه اللهُ تعالى بأنه من عباده المخلَصين، وقيل: (وهمَّ بها): وشارفَ أن يَهُمَّ بها، يقال: همَّ بالأمرِ: إذا قصدَه وعزمَ عليه، وجوابُ ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾: محذوفٌ؛ أي: لكان ما كان، وقيل: (وهمَّ بها): جوابُه، ولا يصحُّ؛ لأن جوابَ (لولا) لا يتقدمُ عليها؛ لأنه في حكمِ الشرط، وله صدرُ الكلام[3]، والبرهانُ: الحجةُ، ويجوزُ أن يكون (وهمَّ بها) داخلاً في حكمِ القسمِ في قوله: (ولقد همت به)، ويجوز أن يكون خارجاً، ومن حقِّ القارئِ إذا قَدَّرَ خروجَه من حكمِ القسمِ وجعلَه كلاماً برأسِه أن يقفَ على (به) ويبتدئَ بقولِه: (وهمَّ بها)، وفيه أيضاً إشعارٌ بالفرق بين الهمَّين، وفُسِّرَ هَمُّ يوسفَ بأنه حلَّ تِكَّةَ سراويلِه[4]، وقَعَدَ بين شُعَبِها الأربعِ وهي مستلقيةٌ على قفاها، وفُسِّرَ البرهانُ بأنه سمع صوتاً: إياكَ وإياها، مرتين، فسمع ثالثاً: أَعْرِضْ عنها، فلم يَنْجَعْ فيه حتى مُثِّلَ له يعقوبُ عاضّاً على أُنْمُلَتِهِ.. وهو باطلٌ؛ ويدلُّ على بطلانِه قولُه: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، ولو كان ذلك منه أيضاً.. لما برَّأَ نفسَه من ذلك، وقولُه: (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء)، ولو كان كذلك.. لم يكن السوءُ مصروفاً عنه، وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾، ولو كان كذلك.. لَخانَهُ بالغيب، وقولُه: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦١).

(٢) انظر «تأويلات أهل السنة» (٢/ ٥٧٥).

(٣) ومن أحسن ما قيل في الآية: أن جواب (لَوْلا) محذوفٌ؛ لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ.. لهمَّ بها. فدلت الآية على انتفاء الهمِّ؛ لرؤيته برهان ربه. انظر «تفسير الآلوسي» (٦/ ٤٠٥).

(٤) التِّكَّةُ: ما يربطُ به السراويل.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾

ولأنه لو وُجد منه ذلك.. لذُكِرَتْ توبتُه واستغفارُه كما كان لآدمَ ونوحٍ وذي النونِ وداودَ عليهم السلام، وقد سمّاه اللهُ مخلَصاً، فعُلِمَ بالقطعِ أنه ثبت في ذلك المقام، وجاهدَ نفسَه مجاهدةَ أولي العزم ناظراً في دلائلِ التحريم حتى استحقَّ من الله الثناءَ، ومحلُّ الكافِ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾: نصبٌ؛ أي: مثلَ ذلك التثبيتِ ثبَّتناه، أو: رفعٌ؛ أي: الأمرُ مثلُ ذلك؛ ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾: خيانةَ السيدِ، ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾: الزنا؛ ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾: بفتح اللام حيث كان: مدنيٌّ وكوفيٌّ؛ أي: الذين أخلصَهم اللهُ لطاعتِه، وبكسرِها: غيرُهم[1]؛ أي: الذين أخلصُوا دينَهم لله، ومعنى (من عبادنا): بعضُ عبادِنا؛ أي: هو مخلَصٌ من جملة المخلَصين.

«٢٥» ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾: وتسابقا إلى البابِ، هي للطلبِ، وهو للهرب؛ على حذفِ الجارِّ وإيصالِ الفعلِ، كقولِه: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أو على تضمين (استبقا) معنى: ابتدرا، ففرَّ منها يوسفُ فأسرعَ يريدُ البابَ؛ ليخرجَ، وأسرعت وراءَه؛ لتمنعَه الخروجَ، وَوَحَّدَ البابَ وإن كان جَمَعَهُ في قولِه: (وغلَّقت الأبوابَ) لأنه أرادَ البابَ البرَّانيَّ الذي هو المُخْرِجُ من الدار، ولما هربَ يوسفُ.. جَعَلَ فَراشُ القفلِ يتناثرُ ويَسقُط حتى خرج[2]، ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾: اجتذَبَتْهُ مِن خلفِه فانقدَّ؛ أي: انشقَّ حين هربَ منها إلى البابِ، وتبعتْه تمنعُه، ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾: وصادفا بعلَها قطفيرَ مُقْبلاً يريدُ أن يدخلَ، فلمّا رأته.. احتالت لتبرئةِ ساحتِها عند زوجِها من الريبة، ولتخويفِ يوسفَ طمعاً في أن يواطئَها خِيفةً منها ومن مكرِها حيث ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾ (ما): نافيةٌ؛ أي: ليس جزاؤُه إلا السجنَ، (أو عذابٌ أليمٌ) وهو: الضربُ بالسياطِ، ولم تصرح بذكر يوسفَ وأنه أراد بها سوءاً؛ لأنها قصدت العموم؛ أي: كلُّ مَن أراد بأهلك سوءاً.. فحقُّه أن يُسجن أو يُعذَّبَ؛ لأن ذلك أبلغُ فيما قصدت من تخويفِ يوسفَ.

«٢٦» ولمّا عَرَّضَتْهُ للسجنِ والعذابِ ووجبَ عليه الدفعُ عن نفسه ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ ولولا ذلك.. لكتمَ عليها ولم يفضحْها، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ هو: ابنُ عمٍّ لها،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٢).

(٢) فراشُ القفلِ: مَناشِبُهُ، جمعُ فراشةٍ، وهي ما يَعْلَقُ فيه.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

وإنما ألقَى اللهُ الشهادةَ على لسانِ مَن هو من أهلِها؛ لتكونَ أوجبَ للحجةِ عليها، وأوثقَ لبراءةِ يوسفَ، وقيل: كان ابنَ خالٍ لها، وكان صبياً في المهد، وسُمِّيَ قولُه شهادةً؛ لأنه أدَّى مُؤدَّى الشهادةِ في أنْ ثَبَتَ به قولُ يوسفَ، وبَطَلَ قولُها، ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

《٢٧》 ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ والتقديرُ: وشهدَ شاهدٌ فقال: إن كان قميصُه، وإنما دلَّ قَدُّ قميصِه من قُبُلٍ على أنها صادقة؛ لأنه يُسرع خلفَها ليلحقَها فَيَعْثُرُ في مقادمِ قميصِه فيشقُّه، ولأنه يُقبل عليها وهي تدفعُه عن نفسِها فيتخرقُ قميصُه من قُبُلٍ، وأما تنكيرُ (قُبُلٍ) و(دُبُرٍ).. فمعناه من جهةٍ يقال لها: (قبل) ومن جهة يقال لها: (دبر)، وإنما جُمِعَ بين (إنْ) التي للاستقبال، وبين (كان)؛ لأن المعنى: إن يُعْلَمْ أنه كان قميصُه قُدَّ[1].

《٢٨》 ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ قطفيرُ ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ وعلمَ براءةَ يوسفَ عليه السلام وصدقَه وكذبَها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾: إنَّ قولَكِ: ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءاً، أو: إن هذا الأمرَ وهو الاحتيالُ لنيل الرجالِ ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ الخطابُ لها ولأَمَتِها، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ لأنهن ألطفُ كيداً، وأعظمُ حيلةً، وبذلك يَغْلِبْنَ الرجالَ، والقَصْرِيّاتُ منهن معَهن ما ليسَ مع غيرهن من البوائقِ[2]، وعن بعضِ العلماءِ: أنا أخافُ من النساء أكثرَ مما أخاف من الشيطان؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقال لهن: (إن كيدكنَّ عظيمٌ).

《٢٩》 ﴿يُوسُفُ﴾ حذفَ منه حرفُ النداءِ؛ لأنه منادى قريبٌ مُفاطِنٌ للحديث، وفيه تقريبٌ له وتلطيفٌ لمحلِّه: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الأمرِ واكتمْه ولا تحدَّثْ به، ثم قال لراعيل: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى

---

(١) (إنْ) الشرطيةُ لا تدخل إلا على المستقبل، فإذا دخلت على ماض.. صار مستقبلاً، نحو: إن قام أكرمته، ولكن إذا دخلت على (كان) فللنحاة مذهبان: بعضهم يبقيها على المضيِّ ويقدرُ بعد (إنْ) فعلاً مستقبلاً، وبعضهم يقلبُ زمنها إلى الاستقبال كغيرها من الأفعال، ولكنها في هذه الآية دخلت على ماضٍ وَقَعَ، وهو: (كان قميصه قُدَّ)، فلا يمكن أن يقال: إنَّ (كان) صارت للمستقبل؛ بمعنى: (إن يكن)؛ فلذلك لا بدَّ من تقديرِ دخولِ (إن) على مستقبلٍ؛ أي: إن يُعْلَمْ أن قميصه قدَّ. انظر «الدر المصون» (٦/ ٤٧٣)، و«الإكليل» (٤/ ٣٤٠).

(٢) القصرياتُ: ساكناتُ القصور، البوائق: الدواهي والشرور.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ ....

لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾: من جملةِ القومِ المتعمِّدين للذنبِ، يقال: خَطِئَ: إذا أذنبَ متعمداً، وإنما قال بلفظِ التذكيرِ؛ تغليباً للذكور على الإناث، وكان العزيزُ رجلاً حليماً قليلَ الغَيرةِ حيث اقتصر على هذا القولِ.

《٣٠》 ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾: جماعةٌ من النساء، وكنَّ خمساً، امرأةُ الساقي، وامرأةُ الخباز، وامرأةُ صاحب الدوابِّ، وامرأةُ صاحبِ السجنِ، وامرأةُ الحاجبِ، والنسوةُ: اسمٌ مفردٌ لجمعِ المرأةِ، وتأنيثُها غيرُ حقيقيٍّ؛ ولذا لم يقل: قالت، وفيه لغتانِ: كسرُ النون وضمُّها، ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾: في مصرَ: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ يُردنَ قطفيرَ، والعزيزُ: الملكُ بلسانِ العربِ، ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾: غُلامَها، يقال: فتايَ وفتاتي؛ أي: غُلامي وجاريَتي، ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لتنالَ شهوتَها منه، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾: تمييزٌ؛ أي: قد شغَفَها حبُّه؛ يعني: خرقَ حبُّه شَغافَ قلبِها حتى وصلَ إلى الفؤادِ، والشَّغافُ: حجابُ القلبِ، أو: جلدةٌ رقيقةٌ يقالُ لها: لسانُ القلب، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾: في خطأٍ وبُعدٍ عن طريقِ الصوابِ.

《٣١》 ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ راعيلُ ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾: باغتيابِهنَّ وقولِهن: امرأةُ العزيز عَشِقَتْ عبدَها الكَنعانيَّ ومَقَتَها، وسُمِّيَ الاغتيابُ مكراً؛ لأنه في خُفيةٍ وحالِ غَيبةٍ، كما يُخفي الماكرُ مكرَه، وقيل: كانت استكتمتْهنَّ سرَّها فأفشينَه عليها، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: دعتْهن، قيل: دعت أربعين امرأةً، منهن الخمسُ المذكوراتُ، ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾: وهيأتْ، (افْتَعَلَتْ) من العَتادِ، ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾: ما يَتَّكِئْنَ عليه من نمارقَ، قصدت بتلك الهيئةِ وهي قعودُهن متكأتٍ والسكاكينُ في أيديهن.. أن يُدْهَشْنَ عند رؤيتِه، ويُشْغَلْنَ عن نفوسهن، فتقعَ أيديْهنَّ على أيديْهنَّ فيقطعنَها؛ لأن المتكئَ إذا بُهِتَ لشيءٍ.. وقعت يدُه على يدِه، ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وكانوا لا يأكلون في ذلك الزمانِ إلا بالسكاكينِ كفعلِ الأعاجمِ، ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾: بكسرِ التاءِ: بصريٌّ وعاصمٌ وحمزةُ، وبضمها: غيرُهم[1]، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾: أعظمْنه وهِبْنَ ذلك الحسنَ الرائقَ، والجمالَ الفائقَ، وكان فضلُ يوسفَ على الناس في الحُسْنِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على نجوم السماء، وكان إذا سار في أزقةِ مصرَ.. يُرى تلألُؤُ وجهِه على الجدران، وكان يُشبه آدمَ يومَ خلقَه ربُّه،

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٣).

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾

وقيل: ورثَ الجمالَ من جدتِه سارةَ، وقيل: (أَكْبَرْنَ) بمعنى: حِضْنَ، والهاءُ: للسكتِ؛ إذْ لا يقالُ: النساءُ قد حِضنَه؛ لأنه لا يتعدَّى إلى مفعولٍ، يقال: أكبرت المرأةُ: إذا حاضتْ، وحقيقتُه: دخلت في الكِبرِ؛ لأنها بالحيضِ تخرجُ من حدِّ الصغرِ، وكأن أبا الطيبَ أخذَ من هذا التفسيرِ قولَه[1]: [من: الطويل]

خَفِ اللهَ واسْتُرْ ذا الجمالَ بِبُرْقُعٍ فإنْ لُحْتَ حاضت في الخدورِ العواتقُ

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾: وجرحنَها، كما تقول: كنتُ أقطعُ اللحمَ فقطعتُ يدي؛ تريدُ: جرحتُها؛ أي: أردن أن يقطعنَ الطعامَ الذي في أيديْهن فدُهِشْنَ لمّا رأينه فخَدَشْنَ أيديَهن، ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ حاشا: كلمةٌ تفيدُ معنى التنزيهِ في باب الاستثناءِ؛ تقول: أساءَ القومُ حاشا زيدٍ، وهي حرفٌ من حروفِ الجرِّ، فوضعت موضعَ التنزيهِ والبراءةِ؛ فمعنى (حشا اللهِ): براءةُ الله، وتنزيهُ الله، وقراءةُ أبي عمرٍو: ﴿حاشاً لله﴾، نحوُ قولك: سقياً لك، كأنه قال: براءةٌ، ثم قال: لله؛ لبيان من يُبَرَّأُ ويُنَزَّهُ، وغيرُه: ﴿حاشَ لله﴾: بحذفِ الألفِ الأخيرةِ[2]؛ والمعنى: تنزيهُ اللهِ من صفات العجزِ، والتعجبُ من قدرتِه على خلقِ جميلٍ مثلِه، ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١﴾: نَفَيْنَ عنه البشريةَ لغرابةِ جمالِه، وأَثْبَتنَ له المَلَكِيَّةَ وبَتَتْنَ بها الحكمَ؛ لِما رُكِزَ في الطباعِ أنْ لا أحسنَ من المَلَكِ، كما رُكِزَ فيها أنْ لا أقبحَ من الشيطان.

《٣٢》 ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾: تقولُ: هو ذلك العبدُ الكنعانيُّ الذي صَوَّرْتُنَّ في أنفسِكُنَّ ثم لُمتُنَّني فيه؛ تعني: إنكن لم تَصَوَّرْنَه بحقِّ صورتِه، وإلا.. لعذرْتُنَّني في الافتتانِ به، ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ الاستعصامُ: بناءُ مبالغةٍ يدلُّ على الامتناعِ البليغِ، والتَّحَفُّظِ الشديدِ، كأنه في عصمةٍ وهو يجتهدُ في الاستزادة منها، وهذا بيانٌ جليٌّ على أن يوسفَ عليه السلام بريءٌ مما فَسَّرَ به أولئك الفريقُ الهمَّ والبرهانَ، ثم قُلْنَ له: أطعْ مولاتَك، فقالت راعيلُ: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ الضميرُ راجعٌ إلى (ما) وهي موصولةٌ؛ والمعنى: ما آمر به، فحذفَ الجارُّ كما في قوله[3]: [من: البسيط]

---

(١) البيت في «ديوان المتنبي» (٢/ ٣٤٩)، العواتق: جمع عاتق، وهي البنت تقارب البلوغ، والخدور: جمع خِدْرٍ، وهو البيت الذي تُستر فيه العواتق.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٣).

(٣) البيت لعمرو بن معديْ كرب في «ديوانه» (ص ٦٣)، وهو بتمامه:

=

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ....

أمرتك الخير.............. ....

أو: (ما): مصدريةٌ، والضمير يرجعُ إلى يوسفَ أي: ولئن لم يفعلْ أمري إياه؛ أي: مُوجَبَ أمري ومقتضاه ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾: لَيُحْبَسَنَّ، والألف في ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بدلٌ من نون التأكيدِ الخفيفةِ ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ مع السُّراقِ والسُّفَّاكِ والأُبَّاقِ، كما سرقَ قلبي، وأَبَقَ مني، وسفكَ دمي بالفراق، فلا يَهْنَأْهُ الطعامُ والشرابُ والنومُ هنالك، كما منعني هنا كلَّ ذلك، ومن لم يرضَ بمثلي في الحريرِ على السريرِ أميراً.. جُعِلَ في الحصيرِ على الحصيرِ حسيراً[1].

《٣٣》 فلما سمعَ يوسفُ تهديدَها ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ أسندَ الدعوةَ إليهن؛ لأنهن قلن له: ما عليك لو أجبتَ مولاتَك، أو: افْتَتَنَتْ كلُّ واحدةٍ فدعته إلى نفسِها سرّاً، فالتجأَ إلى ربِّه وقال: ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ من ركوبِ المعصيةِ، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ فَزِعٌ منه إلى الله في طلبِ العصمةِ، ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾: أَمِلْ إليهن، والصبوةُ: الميلُ إلى الهوى، ومنه الصَّبا؛ لأن النفوس تصبُو إليها؛ لطيبِ نسيمِها ورَوْحِها، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾: من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأن مَن لا جدوى لعلمِه.. فهو ومَن لم يعلمْ سواءٌ، أو: من السفهاء.

《٣٤》 ولما كان في قولِه: (وإلا تصرف عني كيدهن) معنى طلبِ الصرفِ والدعاءِ.. قال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي: أجابَ اللهُ دعاءَه، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعواتِ[2] الملتجئين إليه، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ بحالِه وحالِهنَّ.

《٣٥》 ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ فاعلُه مضمرٌ لدلالةِ ما يفسرُه عليه، وهو: (ليسجننه)؛ والمعنى: بدا لهم بداءٌ؛ أي: ظهرَ لهم رأيٌ، والضميرُ في (لهم): للعزيزِ وأهلِه، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ وهي الشواهدُ على براءته، كقدِّ القميصِ، وقطعِ الأيدي، وشهادةِ الصبيِّ، وغيرِ ذلك، ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾

= أمرتكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمرتَ به فقد تركتكَ ذا مالٍ وذا نشبِ
والنَّشَبُ: أكثرُ ما يُستعمل في الأموال الثابتة، كالدُّور والضِّياع. والمال: أكثر ما يستعمل فيما ليس بثابت، كالدراهم والدنانير.

(١) الحصير الأولى: السجنُ، والثانيةُ: بساطٌ يجلس عليه، حسيراً: ذليلاً.

(٢) في الأصول: (بدعوات) وما أثبته من المطبوع (٣/١٨) وهو أولى.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

لإبداءِ عذرِ الحالِ، وإرخاءِ السِّترِ على القيلِ والقالِ، وما كان ذلك إلا باستنزالِ المرأةِ لزوجها، وكان مِطواعاً لها، وحُميلاً ذلولاً زمامُه في يدِها[1]، وقد طَمِعَتْ أن يُذلَّهُ السجنُ ويُسَخِّرَه لها، أو خافت عليه العيونَ وظنت فيه الظنونَ، فألجأها الخجلُ من الناسِ، والوَجَلُ من اليأسِ إلى أن رضيتْ بالحجابِ مكانَ خوفِ الذهابِ؛ لتشتفيَ بخبرِه إذا مُنعت من نظرِه، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾: إلى زمانٍ، كأنها اقترحت أن يسجنَ زماناً حتى تُبْصِرَ ما يكون منه.

《٣٦》 ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾: عبدان للملكِ: خبازُه وشَرابيُّهُ؛ بتهمةِ السُّمِّ، فأُدخلا السجنَ ساعةَ أُدخلَ يوسفُ؛ لأن (مع) يدلُّ على معنى الصحبةِ، تقول: خرجت مع الأمير؛ تريدُ: مصاحباً له، فيجب أن يكون دخولُهما السجنَ مصاحِبَين له، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ أي: شَرابيُّهُ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أي: في المنام، وهي حكايةُ حالٍ ماضيةٍ، ﴿أَعْصِرُ خَمْرًاۖ﴾ أي: عِنباً؛ تسميةً للعنب بما يؤولُ إليه، أو: الخمرُ بلغةِ عُمانٍ اسمٌ للعنب، ﴿وَقَالَ ٱلْآخَرُ﴾ أي: خَبّازُه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ﴾: بتأويلِ ما رأيناه؛ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾: من الذين يُحسنون عبارةَ الرؤيا، أو: من المحسنين إلى أهلِ السجنِ؛ فإنك تداوي المريضَ، وتُعزّي الحزينَ، وتُوَسِّعُ على الفقيرِ، فأحسنْ إلينا بتأويلِ ما رأيناه، قيل: إنهما تَحالما له ليمتحناه، فقال الشرابيُّ: إني رأيتُ كأني في بستانٍ فإذا بأصلِ حَبَلَةٍ[2]، عليها ثلاثةُ عناقيدَ من عِنَبٍ، فقطفتُها وعصرتُها في كأسِ الملكِ وسقيتُه، وقال الخبازُ: إني رأيتُ كأن فوق رأسي ثلاثَ سِلالٍ فيها أنواعُ الأطعمةِ، فإذا سِباعُ الطيرِ تنهَشُ منها.

《٣٧》 ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: ببيانِ ماهيتِه وكيفيتِه؛ لأن ذلك يُشبه تفسيرَ المُشْكِلِ، ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ﴾ لمّا استعبراه ووصفاه بالإحسان.. افْتَرَصَ ذلك[3]، فوصلَ به وَصْفَ نفسِه بما هو فوقَ علمِ العلماءِ، وهو الإخبارُ بالغيب، وأنه يُنَبِّئُهما بما يُحمَلُ

---

(١) الحُميلُ: تصغيرُ حَمَلٍ، وهو الخروف.

(٢) الحَبَلَةُ: شجرةُ العنب.

(٣) أي: اغتنم الفرصة.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ....

إليهما من الطعام في السجنِ قبلَ أن يأتيَهما، ويصفُه لهما، ويقولُ: اليومَ يأتيكما طعامٌ من صفتِه كيتَ وكيتَ، فيكونُ كذلك، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكرَ لهما التوحيدَ، ويَعرِضَ عليهما الإيمانَ، ويُزَيِّنَه لهما، ويُقَبِّحَ إليهما الشركَ، وفيه: أن العالِمَ إذا جُهِلَتْ منزلتُه في العلم فوَصَفَ نفسَه بما هو بصددِه وغرضُه أن يُقتَبسَ منه.. لم يكن من باب التزكيةِ، ﴿ذَٰلِكُمَا﴾: إشارةٌ لهما إلى التأويل؛ أي: ذلك التأويلُ والإخبارُ بالمغيَّباتِ ﴿مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ وأوحَى به إليَّ، ولم أقلْه عن تَكَهُّنٍ وتَنَجُّمٍ، ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: يجوزُ أن يكون كلاماً مبتدأً، وأن يكون تعليلاً لما قبلَه؛ أي: عَلَّمَني ذلك، وأوحَى به إليَّ؛ لأني رفضتُ ملةَ أولئك، وهم أهلُ مصرَ، ومن كان الفتيانِ على دينِهم.

«٣٨» ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾: وهي الملةُ الحنيفيةُ، وتكريرُ (هم) للتوكيدِ[1]، وذكرُ الآباءِ ليُريَهما أنه من بيتِ النبوةِ بعد أن عَرَّفَهما أنه نبيٌّ بما ذكرَ مِن إخبارِه بالغيوبِ؛ ليُقَوِّيَ رغبتَهما في اتباعِ قولِه، والمرادُ به: تركُ الابتداءِ، لا أنه كان فيه ثم تركَه، ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾: ما صحَّ لنا معشرَ الأنبياءِ ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أيَّ شيءٍ كانَ، صنماً أو غيرَه، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيدُ ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ فضلَ اللهِ فيُشركون به ولا ينتهون.

«٣٩» ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾: يا ساكنَي السجنِ، كقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ يريدُ: التفرقَ في العددِ والتكاثرِ؛ أي: أَأَنْ تكونَ أربابٌ شتَّى يستعبدُكما هذا، ويستعبدُكما هذا خيرٌ لكما، أم يكونُ لكما ربٌّ واحدٌ قهارٌ لا يُغالَبُ ولا يُشارَكُ في الربوبية؟ وهذا مثلٌ ضربه لعبادةِ اللهِ وحدَه، ولعبادةِ الأصنامِ.

«٤٠» ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾: خطابٌ لهما ولمن كان على دينِهما من أهلِ مصرَ، ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: من دونِ اللهِ، ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: سميتم ما لا يستحقُّ الأُلوهيةَ آلهةً، ثم

---

(١) في الآية السابقة.

﴿يَٰصَىٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ....

طفقتُم تعبدونها، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماءً لا مسمياتٍ تحتها، ومعنى (سميتموها): سميتم بها، يقال: سميته زيداً، أو سميتُه بزيدٍ، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾: بتسميتِها ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾: حجةٍ، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ في أمرِ العبادةِ والدِّينِ ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾، ثم بَيَّنَ ما حكمَ به فقال: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾: الثابتُ الذي دلت عليه البراهينُ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾، وهذا يدلُّ على أن العقوبة تلزمُ العبدَ وإن جهلَ إذا أمكن له العلمُ بطريقِه.

《٤١》 ثم عبَّرَ الرؤيا فقال: ﴿يَٰصَىٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ يريدُ: الشَّرابيَّ ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾: سيدَه ﴿خَمْرًا﴾ أي: يعودُ إلى عملِه، ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ أي: الخبازُ ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ رويَ: أنه قال للأول: ما رأيتَ من الكَرْمَةِ.. هو المَلِكُ وحسنُ حالِك عنده، وأما القُضبانُ الثلاثةُ.. فإنها ثلاثةُ أيام تمضي في السجن ثم تخرجُ وتعودُ إلى ما كنتَ عليه، وقال للثاني: ما رأيتَ من السِّلالِ ثلاثةُ أيام ثم تخرجُ فتُقتَلُ، ولما سمع الخبازُ صلبَه.. قال: ما رأيتُ شيئاً، فقال يوسفُ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ أي: قُطِعَ وتمَّ ما تستفتيان فيه من أمرِكما وشأنِكما؛ أي: ما يَجرُّ إليه من العاقبة، وهي هلاكُ أحدِهما ونجاةُ الآخر.

《٤٢》 ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ الظانُّ يوسفُ عليه السلام إن كان تأويلُه بطريقِ الاجتهادِ، وإن كان بطريق الوحي.. فالظانُّ هو الشَّرابيُّ، أو يكون الظنُّ بمعنى اليقين: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾: صِفْني عند الملكِ بصفتي، وقُصَّ عليه قصتي؛ لعله يرحمُني ويخلصُني من هذه الورطةِ، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فأنسى الشَّرابيَّ ﴿ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾: أن يذكره لربِّه؛ يعني: ذِكْرَه لربه، أو عندَ ربِّه، أو فأنسى يوسفَ ذكرَ الله حين وَكَلَ أمرَه إلى غيرِه، وفي الحديث: «رحم الله أخي يوسفَ، لو لم يقل: اذكرني عند ربك.. لما لبث في السجن سبعاً»[1]، ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: سبعاً عند الجمهور، والبِضْعُ: ما بين الثلاثِ إلى التسع.

《٤٣》 ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ

(١) لم أجده.

﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ لما دنا فرجُ يوسفَ. . رأى ملكُ مصرَ الريانُ بنُ الوليدِ رؤيا عجيبةً هالتْه، رأى سبعَ بقراتٍ سمانٍ خرجن من نهرٍ يابسٍ، وسبعَ بقراتٍ عجافٍ، فابتلعت العجافُ السمانَ، ورأى سبعَ سنبلاتٍ خضرٍ قد انعقدَ حبُّها، وسبعاً أخرَ يابساتٍ قد استحصَدَتْ وأدركتْ، فالْتَوَتِ اليابساتُ على الخضرِ حتى غَلَبْنَ عليها، فاستعبرَها، فلم يجدْ في قومه من يُحْسِنُ عبارتَها، قيل: كان ابتداءُ بلاءِ يوسفَ في الرؤيا، ثم كان سببُ نجاتِه أيضاً الرؤيا، (سمانٍ): جمعُ سمينٍ وسمينةٍ، والعجافُ: المهازيلُ، والعَجَفُ: الهُزالُ الذي ليس بعدَه، والسببُ في وقوعِ (عِجاف) جمعاً لعجفاءَ، و(أفعلُ) و(فعلاءُ) لا يُجمعانِ على (فِعال) حملُه على نقيضِه وهو (سِمان)، ومن دأبِهم حملُ النظيرِ على النظيرِ، والنقيضِ على النقيضِ، وفي الآية دلالةٌ على أن (سنبلاتٍ) اليابسةَ كانت سبعاً كالخضر؛ لأن الكلام مبنيٌّ على انصبابِه إلى هذا العددِ في البقراتِ السمانِ والعجافِ والسنابلِ الخضرِ، فوجب أن يتناول معنى الأُخَرِ السبعَ، ويكونُ قولُه: (وأخرَ يابسات) بمعنى: وسبعاً أُخَرَ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾ كأنه أرادَ الأعيانَ من العلماء والحكماء، ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ اللامُ في (للرؤيا): للبيان، كقوله: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾، أو: لأن المفعولَ به إذا تَقَدَّمَ على الفعل. . لم يكن في قوتِه على العمل فيه مثلَه إذا تأخر عنه، فعُضِدَ بها، تقول عَبَرْتُ الرؤيا، وللرؤيا عبرتُ[1]، أو: يكونُ (للرؤيا) خبرَ (كان)، كقولك: كان فلانٌ لهذا الأمر: إذا كان مستقِلّاً به متمكناً منه، و(تعبرون): خبرٌ آخرُ، أو حالٌ، وحقيقةُ: عَبَرْتُ الرؤيا: ذكرتُ عاقبتَها، وآخرَ أمرِها، كما تقول: عَبَرْتُ النهرَ: إذا قطعتَه حتى تبلغَ آخرَ عرضِه، وهو عِبْرُه[2]، ونحوُه: أَوَّلْتُ الرؤيا: إذا ذكرتَ مآلَها، وهو مرجعُها، وعَبَرْتُ الرؤيا: بالتخفيفِ: هو الذي اعتمدَه الأثباتُ، ورأيتُهم ينكرون: عَبَّرْتُ: بالتشديد، والتعبيرَ، والمعبِّرَ[3].

---

(١) فتكون لامَ التقويةِ، زيدت في المفعول به.

(٢) عِبْرُ النهر: شَطُّه وجانبُه.

(٣) قولُه: (وحقيقةُ: عبرتُ الرؤيا. . .) هذا كلام الزمخشري، وقال بعده: وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في كتاب «الكامل» لبعض الأعراب:

رأيتُ رؤيا ثم عبَّرْتُها ... وكنتُ للأحلام عبّارًا

انظر «الكشاف» (٢/ ٤٤٧)، فهما لغتان جمعَهما الشاعر، فلا عبرة بمن أنكر التشديدَ، لكن التخفيف لغةُ القرآن الفصيحة، وهو أقوى وأعرفُ عند أهل اللغة من التشديد. انظر «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٥/ ١٨٠).

﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾

《٤٤》 ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: هي أضغاثُ أحلام؛ أي: تَخاليطُها وأباطيلُها وما يكون منها من حديثِ نفسٍ أو وسوسةِ شيطانٍ، وأصلُ الأضغاثِ: ما جُمعَ من أخلاطِ النباتِ وحُزِمَ، الواحدُ: ضِغْثٌ، فاسْتُعِيرت لذلك، والإضافةُ بمعنى (مِن) أي: أضغاثٌ من أحلام، وإنما جُمِعَ وهو حُلْمٌ واحدٌ؛ تَزايُداً في وصفِ الحُلْمِ بالبطلان، وجازَ أن يكون قدْ قصَّ عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرَها، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أرادُوا بالأحلام: المناماتِ الباطلةَ، فقالوا: ليس لها عندنا تأويلٌ، إنما التأويلُ للمناماتِ الصحيحةِ، أو اعترفُوا بقصورِ علمِهم، وأنهم ليسوا في تأويلِ الأحلامِ بخابرين.

《٤٥》 ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ من القتلِ ﴿مِنْهُمَا﴾: من صاحبي السجنِ، ﴿وَٱدَّكَرَ﴾: بالدالِ هو الفصيح، وأصلُه: اذْتَكر، فأبدلت الذالُ دالاً، والتاءُ دالاً، وأدغمت الأولى في الثانيةِ؛ لتقاربِ الحرفين، وعن الحسن: ﴿واذَّكَرَ﴾[1]؛ وَوُجِّهَ أنه قلبَ التاءَ ذالاً، وأدغمَ؛ أي: تذكرَ يوسفَ وما شاهدَ منه ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: بعد مدةٍ طويلةٍ، وذلك أنه حين استفتَى الملكُ في رؤياه، وأعضلَ على الملك تأويلُه.. تذكرَ الناجيْ يوسفَ، وتأويلَه رؤياه ورؤيا صاحبِه، وطلبَه إليه أن يذكرَه عند الملك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾: أنا أخبرُكم به عمَّن عنده علمُه، ﴿فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ وبالياءِ: يعقوبُ[2]؛ أي: فابعثوني إليه لأسأله، فأرسلوه إلى يوسفَ فأتاه فقال:

《٤٦》 ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾: أيها البليغُ في الصدق، وإنما قال له ذلك؛ لأنه ذاقَ أحواله وتعرَّفَ صدقَه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبِه حيثُ جاءَ كما أوَّلَ: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾: إلى الملكِ وأتباعِه؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ فضلَك ومكانَك من العلم فيطلبُوك ويُخَلِّصُوك من محنتِك.

《٤٧》 ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾: هو خبرٌ في معنى الأمر، كقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ﴾ [الصف: ١١]؛ دليلُه: قولُه: (فذروه في سنبله)، وإنما يَخرجُ الأمر في صورةِ الخبرِ؛

---

(١) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٣٣٢).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٣).

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ ....

للمبالغةِ في وجودِ المأمورِ به فيُجْعَلُ كأنه موجودٌ، فهو يُخبَرُ عنه، ﴿دَأَبًا﴾: بسكونِ الهمزةِ، وحفصٌ: يُحرِّكُه[1]، وهما مصدرا: دَأَبَ في العمل، وهو حالٌ من المأمورين؛ أي: دائبين، ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ﴾ في سنبلِه؛ كيلا يأكلَه السوسُ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ في تلك السنين.

《٤٨》 ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ﴾: هو من إسنادِ المجازِ، جُعِلَ أكلُ أهلِهن مُسْنَداً إليهن، ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: في السنينَ المُخْصِبَةِ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾: تُحْرِزُون وتخبئون.

《٤٩》 ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ أي: من بعدِ أربعَ عشرةَ سنةً ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾: من الغَوْثِ؛ أي: يُجابُ مستغيثُهم، أو: من الغَيْثِ؛ أي: يُمطرون، يقال: غِيثَتِ البلادُ: إذا مُطرت، ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ العنبَ والزيتونَ والسمسمَ، فيتخذون الأشربةَ والأدهانَ، ﴿تعصِرون﴾: حمزةُ، فأَوَّلَ البقراتِ السمانَ والسنبلاتِ الخضرَ بسنين مخاصيبَ، والعجافَ واليابساتِ بسنين مُجدبةٍ، ثم بَشَّرهم بعد الفراغِ من تأويلِ الرؤيا بأن العامَ الثامنَ يجيء مباركاً كثيرَ الخيرِ، غزيرَ النعمِ، وذلك من جهةِ الوحْيِ.

《٥٠》 ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ ليُخْرِجَه من السجن ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: الملكِ ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ أي: حالُ النسوةِ ﴿ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ إنما تَثَبَّتَ يوسفُ وتأنَّى في إجابةِ الملِكِ وقَدَّمَ سؤالَ النسوةِ؛ لِيُظهرَ براءةَ ساحتِه عمّا قُرِفَ به وسُجِن فيه[2]؛ لئلا يتسلقَ به الحاسدون إلى تقبيحِ أمرِه عنده، ويجعلوه سُلَّماً إلى حطِّ منزلتِه لديه؛ ولئلا يقولوا: ما خُلِّدَ في السجن سبعَ سنينَ إلا لأمرٍ عظيمٍ، وجُرمٍ كبيرٍ، وفيه دليلٌ على أن الاجتهادَ في نفيِ التُّهمِ واجبٌ وجوبَ اتقاءِ الوقوفِ في مواقفِها، وقال عليه السلام: «لقد عجبتُ من يوسفَ وكرمِه وصبرِه، والله يغفرُ له حين سُئِلَ عن البقراتِ العجافِ والسمانِ، ولو كنتُ مكانَه.. ما أخبرتُهم حتى أشترطَ أن يُخرجوني، ولقد عجبتُ منه حين أتاه الرسولُ فقال: ارجعْ إلى ربك، ولو كنتُ مكانَه ولبثتُ في السجن ما لبثَ.. لأسرعتُ الإجابةَ، وبادرتُ البابَ، ولما ابتغيتُ

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ١٦٤) وكذا القراءة الآتية.

(٢) قُرِفَ: رُمِيَ واتُّهم.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

العذرَ، إنْ كان لحليماً ذا أناةٍ»[1]، ومن كرمِه وحسنِ أدبِه أنه لم يذكرْ سيدتَه مع ما صنعتْ به وتسببت فيه من السجنِ والعذابِ، واقتصر على ذكر المقطّعاتِ أيديَهن، ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ أي: إن كيدَهن عظيمٌ لا يعلمُه إلا الله، وهو مجازيهن عليه.

《٥١》 فرجع الرسولُ إلى الملِكِ من عندِ يوسفَ برسالتِه، فدعا الملكُ النسوةَ المقطّعاتِ أيديَهن، ودعا امرأةَ العزيز ثم ﴿قَالَ﴾ لهنَّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾: ما شأنُكن ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هل وجدتنَّ منه ميلاً إليكن؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تعجباً من قدرتِه على خَلْقِ عفيفٍ مثلِه، ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾: من ذنبٍ، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾: ظهرَ واستقرَّ، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ في قولِه: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، ولا مزيدَ على شهادتِهن له بالبراءةِ والنزاهةِ، واعترافِهن على أنفسِهن بأنه لم يتعلقْ بشيءٍ مما قُرِفَ به، ثم رجعَ الرسولُ إلى يوسفَ، وأخبره بكلامِ النسوةِ، وإقرارِ امرأةِ العزيزِ وشهادتِها على نفسِها.

《٥٢》 فقال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: امتناعي من الخروجِ والتثبتُ لظهورِ البراءةِ ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيزُ ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾: بظهرِ الغيبِ في حُرمتِه، و(بالغيب): حالٌ من الفاعل، أو المفعول، على معنى: وأنا غائب عنه، أو: وهو غائب عني، أو: ليعلم الملكُ أني لم أخنِ العزيزَ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: وليعلمَ أن الله ﴿لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾: لا يُسدِّدُه، وكأنه تعريضٌ بامرأتِه في خيانتِها أمانةَ زوجِها.

《٥٣》 ثم أراد أن يتواضعَ لله، ويهضِمَ نفسَه؛ لئلا يكونَ لها مُزكياً؛ وليُبيِّنَ أن ما فيه من الأمانة بتوفيقِ الله وعصمتِه فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ من الزللِ، وما أشهدُ لها بالبراءةِ الكليةِ، ولا أزكيها في عمومِ الأحوالِ، أو في هذه الحادثةِ؛ لِمَا ذكرنا من الهمِّ الذي هو الخطرةُ البشريةُ لا عن طريقِ القصدِ والعزمِ؛ ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أرادَ الجنسَ؛ أي: إن هذا الجنسَ يأمرُ

---

(١) روى نحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/٢٤٩)، وروى البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ولو لبثت في السجن طولَ ما لبث يوسف.. لأجبتُ الداعي»، قال الحافظُ ابنُ حجرٍ في «فتح الباري» (٦/٤١٣): وإنما قاله صلى الله عليه وسلم تواضعاً، والتواضعُ لا يحطُّ مرتبةَ الكبير، بل يزيدُه رفعةً وجلالاً.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ....﴾

بالسوءِ، ويحملُ عليه؛ بما فيه من الشهواتِ، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾: إلا البعضَ الذي رحمَه ربي بالعصمةِ، ويجوزُ أن يكونَ (ما رحم) في معنى الزمان؛ أي: إلا وقتَ رحمةِ ربي؛ يعني: أنها أمارةٌ بالسوءِ في كلِّ وقتٍ إلا وقتَ العصمةِ، أو: هو استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: ولكن رحمةُ ربي هي التي تصرفُ الإساءةَ، وقيل: هو من كلام امرأةِ العزيزِ؛ أي: ذلك الذي قلتُ؛ ليعلمَ يوسفُ أني لم أخنْه ولم أكذبْ عليه في حال الغَيبةِ، وجئتُ بالصدق فيما سُئِلْتُ عنه، وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانةِ، فإني قد خنتُه حين قرفتُه وقلتُ: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾، وأودعتُه السجنَ؛ تريدُ الاعتذارَ مما كان منها؛ إنَّ كلَّ نفسٍ لأمارةٌ بالسوء إلا ما رحم ربي: إلَّا نفساً رحمَها اللهُ بالعصمةِ كنفسِ يوسفَ، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ استغفرت ربَّها واسترحمَتْه مما ارتكبتْ، وإنما جُعِلَ من كلامِ يوسفَ ولا دليلَ عليه ظاهرٌ؛ لأن المعنى يقودُ إليه، وقيل: هذا من تقديمِ القرآنِ وتأخيرِه؛ أي: قولُه: (ذلك ليعلم): متصلٌ بقولِه: (فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن)(١).

《٥٤》 ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾: أجعلْه خالصاً لنفسي، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ وشاهدَ منه ما لم يحتسبْ ﴿قَالَ﴾ الملكُ ليوسفَ: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾: ذو مكانةٍ ومنزلةٍ، ﴿أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾: مؤتمَنٌ على كلِّ شيءٍ، رويَ: أن الرسولَ جاءه ومعه سبعون حاجباً، وسبعون مَرْكَباً، وبعث إليه لباسَ الملوكِ فقال: أجبِ الملكَ، فخرج من السجنِ ودعا لأهلِه: اللهمَّ عَطِّفْ عليهم قلوبَ الأخيارِ، ولا تُعَمِّ عليهم الأخبارَ. فهم أعلمُ الناسِ بالأخبارِ في الواقعاتِ، وكتبَ على بابِ السجنِ: هذه منازلُ البلواءِ، وقبورُ الأحياءِ، وشماتةُ الأعداءِ، وتجربةُ الأصدقاءِ. ثم اغتسل وتنظفَ من دَرَنِ السجنِ، ولبس ثياباً جُدُداً، فلما دخل على الملكِ..
قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزتِك وقدرتِك من شرِّه. ثم سلَّمَ عليه ودعا له بالعِبرانيةِ، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسانُ آبائي، وكان الملك يتكلمُ بسبعين لساناً، فكلَّمَه بها، فأجابه بجميعِها فتعجب منه وقال: أيُّها الصديقُ إني أحبُّ أن أسمع رؤيايَ منك، قال: رأيتَ بقراتٍ، فوصفَ لونَهنَّ وأحوالَهن ومكانَ خروجِهنَّ، ووصفَ السنابلَ وما كان فيها على

---

(١) قال ابنُ جريج: هذه المقالةُ من يوسفَ هي متصلة بقوله الرسول: (إن ربي بكيدهن عليم)، وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، فالإشارةُ بقوله: (ذلك) على هذا التأويل إلى بقائِه في السجن والتماسِه البراءةَ؛ أي: هذا ليعلم سيدي أني لم أخنه. انظر «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٥٣).

قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ....

الهيئةِ التي رآها الملكُ، وقال له: من حقِّكَ أن تجمعَ الطعامَ في الأَهْراءِ[١]، فيأتيك الخلقُ من النواحي، ويَمتارون منك، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحدٍ قبلك، قال الملكُ: ومن لي بهذا؟ ومن يجمعه؟

《٥٥》 ﴿قَالَ﴾ يوسفُ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾: وَلِّنِي خزائنَ أرضِك؛ يعني: مصرَ؛ ﴿إِنِّى حَفِيظٌ﴾: أمينٌ أحفظُ ما تَسْتَحْفِظُنيه، ﴿عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾: عالمٌ بوجوه التصرفِ، وصفَ نفسَه بالأمانة والكفاية، وهما طَلِبَةُ الملوكِ ممن يُوَلُّونه، وإنما قال ذلك؛ ليتوصلَ إلى إمضاءِ أحكامِ اللهِ، وإقامةِ الحقِّ، وبسطِ العدلِ، والتمكنِ مما لأجله بُعثَ الأنبياءُ إلى العباد، ولعلمِه أن أحداً غيرَه لا يقومُ مقامَه في ذلك، فطلبه ابتغاءَ وجهِ اللهِ، لا لحبِّ الملكِ والدنيا، وفي الحديث: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل: اجعلني على خزائن الأرض.. لاستعملَه من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنةً»[٢]، قالوا: وفيه دليلٌ على أنه يجوز أن يتولى الإنسانُ عملاً من يدِ سلطانٍ جائرٍ، وقد كان السلفُ يتولون القضاءَ من جهةِ الظلمةِ، وإذا علمَ النبيُّ أو العالمُ أنه لا سبيلَ إلى الحكم بأمر الله، ودفعِ الظلمِ إلا بتمكين الملكِ الكافرِ، أو الفاسقِ.. فله أن يستظهرَ به، وقيل: كان الملكُ يَصْدُرُ عن رأيه ولا يعترضُ عليه في كلِّ ما رأى، وكان في حكم التابعِ له.

《٥٦》 ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلك التمكينِ الظاهرِ ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أرضِ مصرَ، وكانت أربعين فرسخاً في أربعين، والتمكينُ: الإقدارُ وإعطاءُ المَكِنَةِ، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي: كلَّ مكانٍ أراد أن يتخذَه منزلاً.. لم يُمنعْ منه؛ لاستيلائِه على جميعِها، ودخولِها تحت سلطانِه، ﴿نشاء﴾: مكيٌّ[٣]، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾: بعطائِنا في الدنيا من الملكِ والغنى وغيرِهما من النعم، ﴿مَن نَّشَآءُ﴾: مَن اقتضتِ الحكمةُ أن نشاءَ له ذلك، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ في الدنيا.

《٥٧》 ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريدُ: يوسفَ وغيرَه من المؤمنين إلى يوم القيامة، ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ الشركَ والفواحشَ، قال سفيانُ بنُ عيينةَ: المؤمنُ يثابُ على حسناتِه في الدنيا

---

(١) الأَهْراءُ: جمع هُرْيٍ، وهو: بيتٌ كبيرٌ يُجْمَعُ فيه طَعامُ السُّلطانِ.

(٢) رواه البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٥١) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٥).

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾ ....

والآخرة، والفاجرُ يُعَجَّلُ له الخيرُ في الدنيا، وما لَه في الآخرةِ من خلاقٍ. وتلا الآيةَ، روي: أن الملِكَ تَوَّجَه، وختمَه بخاتمِه، وردّاه بسيفِه، ووضعَ له سريراً من ذهبٍ مكلّلاً بالدرِّ والياقوتِ، فقال: أما السريرُ.. فأَشُدُّ به ملكك، وأما الخاتَمُ.. فأُدَبِّرُ به أمرَك، وأما التاج.. فليس من لُبْسي، ولا لباسِ آبائي، فجلس على السرير، ودانت له الملوكُ، وفَوَّضَ الملكُ إليه أمرَه، وعزلَ قطفيرَ، ثم مات بعدُ، فزوَّجه الملكُ امرأتَه، فلما دخل عليها.. قال: أليس هذا خيراً مما طلبتِ، فوجدها عذراءَ، فولدت له ولدين: أفرائيمُ وميشا، وأقام العدلَ بمصرَ، وأحبته الرجالُ والنساءُ، وأسلم على يديه الملكُ، وكثيرٌ من الناس، وباعَ من أهلِ مصرَ في سنينِ القحطِ الطعامَ بالدراهمِ والدنانيرِ في السنة الأولى حتى لم يبقَ معهم شيءٌ منها، ثم بالحُلِيِّ والجواهرِ في الثانيةِ، ثم بالدوابِّ في الثالثةِ، ثم بالعبيدِ والإماءِ في الرابعةِ، ثم بالدورِ والعَقارِ في الخامسة، ثم بأولادِهم في السادسةِ ثم برقابِهم في السابعةِ، حتى استرقَّهم جميعاً، ثم أعتقَ أهلَ مصرَ عن آخرِهم، وردَّ عليهم أملاكَهم، وكان لا يبيعُ لأحدٍ من المُمْتارِين أكثرَ من حملِ بعيرٍ، وأصابَ أرضَ كنعانَ نحوَ ما أصابَ مصرَ، فأرسل يعقوبُ بنيه؛ ليمتارُوا، وذلك قولُه:

《٥٨》 ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ بلا تعريفٍ ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ لتبدلِ الزيِّ؛ ولأنه كان من وراءِ الحجابِ، ولطولِ المدةِ وهو أربعون سنةً، روي: أنه لـمّا رآهم وكلمُوه بالعِبرانية.. قال لهم: أخبروني من أنتم؟ وما شأنكم؟ قالُوا: نحن قومٌ من أهلِ الشام رعاةٌ أصابنا الجَهْدُ فجئنا نمتارُ، فقال: لعلّكم جئتم عيوناً تنظرون عورةَ بلادِي، قالوا: معاذَ اللهِ نحن بنو نبيٍّ حزينٍ لفقدِ ابنٍ كان أحبَّنا إليه، وقد أمسك أخاً له من أمِّه يستأنسُ به، فقال: ائتوني به إن صدقتم.

《٥٩》 ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾: أعطى كلَّ واحدٍ حِمْلَ بعير، وقرئَ بكسرِ الجيم شاذّاً[1]، ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾: أُتِـمُّـه، ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾ كـان قـد أحسنَ إنزالَهم وضيافتَهم، رغَّبَهم بهذا الكلام على الرجوع إليه.

《٦٠》 ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾: فلا أبيعُكم طعاماً، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾ أي:

---

(١) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٧٦).

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤﴾

فإن لم تأتوني به.. تُحرمُوا ولا تَقْرَبُوا، فهو داخلٌ في حكمِ الجزاءِ، مجزومٌ معطوفٌ على محلِّ قولِه: (فلا كيل لكم)، أو: هو بمعنى النهي.

«٦١» ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾: سنخادعُه عنه، ونحتالُ حتى نَنْزِعَهُ من يده، ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١﴾ ذلك لا محالةَ، لا نُفرِّطُ فيه ولا نتوانى، قال: فدعُوا بعضَكم هنا، فتركوا عنده شمعون، وكان أحسنَهم رأياً في يوسفَ.

«٦٢» ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾: كوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ، ﴿لِفِتْيَتِهِ﴾: غيرُهم[1]، وهما جمعُ: فتىً، كإخوةٍ وإخوانٍ، في: أخٍ، و(فِعْلَةٌ): للقِلَّةِ، و(فِعلانُ): للكثرةِ؛ أي: لغلمانِه الكيّالين: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾: أوعيتِهم، وكانت نِعالاً، أو: أُدْماً، أو: وَرِقاً، وهو أليقُ بالدسِّ في الرِّحالِ؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾: يعرفون حقَّ ردِّها، وحقَّ التكرُّمِ بإعطاء البدلين، ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وفَرَّغُوا ظروفَهم؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾: لعل معرفتَهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، أو: ربما لا يجدون بضاعةً بها يرجعون، أو: ما فيهم من الديانةِ يُعيدُهم لردِّ الأمانةِ، أو: لم يَرَ من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً.

«٦٣» ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ بالطعام، وأخبروه بما فعلَ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ يريدون: قولَ يوسفَ: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾؛ لأنهم إذا أُنذروا بمنعِ الكيلِ.. فقد مُنعَ الكيلُ، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾: نَرْفَعِ المانعَ من الكيل، ونكتلْ من الطعام ما نحتاجُ إليه، ﴿يكتلْ﴾: حمزةُ وعليٌّ؛ أي: يكتل أخونا فينضمَّ اكتيالُه إلى اكتيالِنا، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣﴾ عن أن ينالَه مكروهٌ.

«٦٤» ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ يعني: أنكم قلتُم في يوسفَ: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ كما تقولونه في أخيه، ثم خُنْتُم بضمانِكم، فما يُؤْمِنُني من مثلِ ذلك؟ ثم قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ كوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ، فتوكَّلَ على الله فيه ودفعَه إليهم، وهو حالٌ أو تمييزٌ، ومن قرأ ﴿حِفظاً﴾ فهو تمييزٌ لا غيرُ، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٦٥) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾ ....

﴿الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾ فأرجوْ أن يُنعِمَ علي بحفظِه، ولا يجمعَ عليَّ مصيبتين، قال كعبٌ: لما قال: فالله خير حفظاً.. قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لأَرُدَّنَّ عليك كليهما.

«٦٥» ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ (ما): للنفي؛ أي: ما نبغي في القول، ولا نتجاوزُ الحقَّ، أو: ما نبغي شيئاً وراءَ ما فعلَ بنا من الإحسان، أو: ما نريد منك بضاعةً أُخرى، أو: للاستفهام؛ أي: أيَّ شيءٍ نطلبُ وراءَ هذا؟ ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾: جملةٌ مستأنفةٌ موضِّحةٌ لقولِه: (ما نبغي)، والجملُ بعدها معطوفةٌ عليها؛ أي: أن بضاعتنا ردتْ إلينا فنستظهرُ بها، ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ في رجوعِنا إلى الملكِ؛ أي: نَجلُبُ لهم ميرةً، وهي طعامٌ يُحمَلُ من غير بلدِك، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ في ذهابِنا ومجيئِنا، فما يصيبُه شيءٌ مما تخافُه، ﴿وَنَزْدَادُ﴾ باستصحاب أخينا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾: وِسْقَ بعير ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥)﴾: سهلٌ عليه متيسرٌ لا يتعاظمُه.

«٦٦» ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ﴾ وبالياءِ: مكيٌّ[1]، ﴿مَوْثِقًا﴾: عهداً ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ والمعنى: حتى تعطوني ما أَتَوَثَّقُ به من عند الله؛ أرادَ أن يحلفوا له بالله، وإنما جَعَلَ الحلفَ بالله موثقاً منه؛ لأن الحَلِفَ به مما يُؤَكَّدُ به العهودُ، وقد أَذِنَ اللهُ في ذلك، فهو إذنٌ منه، ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾: جوابُ اليمين؛ لأن المعنى: حتى تحلفُوا لتأتُنَّني به ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾: إلا أن تُغلَبوا فلم تُطيقُوا الإتيان به، فهو مفعولٌ له، والكلامُ المثبتُ وهو قولُه: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾: في تأويلِ النفي؛ أي: لا تمتنعوا من الإتيان إلا للإحاطةِ بكم؛ يعني: لا تَمْتَنِعُوا منه لعلةٍ من العلل، إلا لعلةٍ واحدةٍ وهي أن يُحاطَ بكم، فهو استثناءٌ من أعمِّ العامِّ في المفعول له، والاستثناءُ من أعمِّ العامِّ لا يكونُ إلا في النفي، فلا بدَّ من تأويله بالنفي، ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ قيلَ: حلفُوا بالله ربِّ محمدٍ عليه السلام، ﴿قَالَ﴾ بعضُهم يَسكت عليه؛ لأن المعنى: قال يعقوبُ: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من طلبِ الموثقِ وإعطائِه ﴿وَكِيلٌ (٦٦)﴾: رقيبٌ مطلعٌ، غيرَ أن السكتةَ تفصلُ بين القولِ والمقولِ، وذا لا يجوزُ، فالأَولى أن يُفَرِّقَ بينهما بالصوتِ، فيقصِدُ بقوةِ النغمةِ اسمَ الله.

---

(١) أثبت أبو عمرو وأبو جعفر الياء وصلاً، وحذفاها وقفاً، وأثبتها المكيُّ ويعقوبُ في الحالين، وحذفها الباقون مطلقاً. انظر «البدور الزاهرة» (ص١٦٥).

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٖ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ....

《٦٧》 ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ الجمهورُ على أنه خافَ عليهم العينَ؛ لجَمالِهم وجلالةِ أمرِهم، ولم يأمرهم بالتفرقِ في الكرةِ الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين في الكرةِ الأولى، فالعينُ حقٌّ عندنا وجودُه؛ بأن يُحْدِثَ اللهُ تعالى عندَ النظرِ إلى الشيءِ والإعجابِ به نُقصاناً فيه وخَلَلاً، وكان النبيُّ ﷺ يُعوِّذُ الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهما فيقول: «أُعيذُكما بكلماتِ اللهِ التامةِ، من كلِّ هامَّةٍ، ومن كلِّ عينٍ لامّةٍ»[1]، وأنكر الجبائيُّ العينَ، وهو مردودٌ بما ذكرنا، وقيل: إنه أحبَّ ألا يَفْطَنَ بهم أعداؤُهم فلا يحتالُون لإهلاكهم، ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ﴾ أي: إن كان اللهُ أراد بكم سوءاً.. لم ينفعْكم ولم يدفع عنكم ما أشرتُ به عليكم من التفرقِ، وهو مصيبُكم لا محالةَ، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ التوكلُ: تفويضُ الأمرِ إلى الله تعالى، والاعتمادُ عليه.

《٦٨》 ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي: متفرِّقين، ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم﴾ دخولُهم من أبوابٍ متفرقةٍ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً قطُّ؛ حيث أصابَهم ما ساءَهم مع تفرقِهم؛ من إضافةِ السرقةِ إليهم، وافتضاحِهم بذلك، وأخذِ أخيهم بوِجدانِ الصُّواعِ في رَحْلِه، وتضاعفِ المصيبةِ على أبيهم، ﴿إِلَّا حَاجَةٗ﴾: استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: ولكن حاجةً ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾: وهي شفقتُه عليهم، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٖ﴾ يعني قولَه: ﴿مَآ أُغْنِي عَنكُم﴾، وعِلْمَه بأن القَدَرَ لا يغني عنه الحَذَرُ، ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾: لتعليمِنا إياه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ذلك.

《٦٩》 ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ﴾: ضمَّ إليه بنيامينَ، وروي: أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم، فأنزلهم وأكرمهم، ثم أضافَهم وأجلسَ كل اثنين منهم على مائدةٍ، فبقي بنيامينُ وحدَه، فبكى وقال: لو كان أخي يوسفُ حيّاً.. لأجلسني معه، فقال يوسف: بقي أخوكم وحيداً فأجلسَه معه على مائدتِه، وجعل يؤاكلُه، وقال له: أتحب

(١) رواه أبو داود (٤٧٣٧)، والترمذي (٢٠٦٠)، سنن ابن ماجه (٣٥٢٥) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما، الهامّةُ: ما له سمٌّ يقتل كالحية، وقد تُطلَقُ على ما لا يقتلُ كالحشرات، لامّة: تُصيبُ بسوءٍ.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾

أن أكون أخاك بدلَ أخيك الهالكِ؟ قال: ومن يجدُ أخاً مثلَك؟ ولكن لم يلدْك يعقوبُ ولا راحيلُ، فبكى يوسف وعانقه ثم ﴿قَالَ﴾ له: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسفُ، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: فلا تحزنْ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بنا فيما مضى؛ فإن الله قد أحسن إلينا، وجمعنا على خيرٍ، ولا تُعلمهم بما أعلمتُك، ورويَ: أنه قال له: فأنا لا أفارقُك، قال: لقد علمتَ اغتمامَ والدي بي، فإن حبستُك.. ازدادَ غمُّه، ولا سبيلَ إلى ذلك إلا أن أنسُبكَ إلى ما لا يُحمدُ، قال: لا أبالي، فافعل ما بدا لك، قال: فإني أَدُسُّ صاعي في رَحْلِك، ثم أنادي عليك بأنك سرقتَه ليتهيأَ لي ردُّكَ بعد تسريحِكَ معهم، فقال: افعل.

«٧٠» ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾: هيأَ أسبابَهم، وأوفى الكيلَ لهم ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ هي: مِشْرَبةٌ يُسقَى بها، وهي الصُّواعُ، قيل: كان يُسقَى بها الملكُ، ثم جُعلت صاعاً يُكالُ به؛ لعزةِ الطعام، وكان يُشبهُ الطاسَ من فضةٍ أو ذهبٍ، ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: ثم نادى منادٍ، آذنه؛ أي: أعلَمه، وأذَّنَ: أكْثَرَ الإعلامَ، ومنه المؤذنُ؛ لكثرةِ ذلك منه، روي: أنهم ارتحلُوا، وأمهلهم يوسفُ عليه السلام حتى انطلقُوا، ثم أمرَ بهم فأُدرِكُوا وحُبِسُوا، ثم قيل لهم: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ هي: الإبلُ التي عليها الأحمال؛ لأنها تَعِيْرُ؛ أي: تذهبُ وتجيءُ؛ والمرادُ: أصحابُ العِير، ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾: كنايةٌ عن سرقتِهم إياه من أبيه.

«٧١-٧٢» ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ هو: الصاعُ، ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾: يقولُه المؤذنُ؛ يريدُ: وأنا بِحِمْلِ البعيرِ كفيلٌ أُؤَدِّيه إلى مَن جاء به، وأرادَ: وَسْقَ بعيرٍ من طعام جُعْلاً لمن حَصَّلَه.

«٧٣» ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ﴾: قسمٌ فيه معنى التعجبِ مما أُضيفَ إليهم، ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استشهدُوا بعلمِهم؛ لما ثبتَ عندهم من دلائلِ دينِهم وأمانتِهم؛ حيث دخلُوا وأفواهُ رواحلِهم مشدودةٌ؛ لئلا تتناولَ زرعاً أو طعاماً لأحدٍ من أهل السوق؛ ولأنهم ردُّوا بضاعتَهم التي وجدوها في رحالِهم، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾: وما كنا نُوصَفُ قطُّ بالسرقةِ.

«٧٤» ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ الضميرُ: للصُّواع؛ أي: فما جزاءُ سرقتِه ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ في جحودِكم وادعائِكم البراءةَ منه؟

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦ ۞قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧ ...﴾

《٧٥》 ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾ أي: جزاءُ سرقتِه أخذُ مَن وجد في رحله، وكان حكمُ السارقِ في آلِ يعقوبَ أن يُسترقَّ سنةً؛ فلذلك اسْتَفْتَوا في جزائِه، وقولُهم: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾: تقريرٌ للحكم؛ أي: فأخذُ السارقِ نفسِه هو جزاؤه لا غيرُ، أو: (جزاؤه): مبتدأٌ، والجملةُ الشرطيةُ كما هي: خبرُه، ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥﴾ أي: السُّرَّاقَ بالاسترقاقِ.

《٧٦》 ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾: فبدأ بتفتيشِ أوعيتِهم قبلَ وعاءِ بِنيامينَ؛ لنفي التهمةِ، حتى بلغَ وعاءَه فقال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركُه حتى تنظرَ في رحلِه؛ فإنه أطيبُ لنفسِك وأنفسِنا، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ أي: الصُّواعَ ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ذَكَّرَ ضميرَ الصُّواعِ مراتٍ ثم أَنَّثَه؛ لأن التأنيث يرجع إلى السقايةِ، أو: لأن الصواعَ يذكَّرُ ويؤنثُ، الكافُ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾: في محلِّ النصبِ؛ أي: مثلَ ذلك الكيدِ العظيم ﴿كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ يعني: علَّمْناه إياه، ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾: تفسيرٌ للكيد، وبيانٌ له؛ لأن الحكم في دين الملكِ؛ أي: في سيرتِه للسارقِ أن يُغرَّمَ مِثْلَيْ ما أخذَ، لا أن يُستعبدَ، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: ما كان يأخذُه إلا بمشيئةِ اللهِ وإرادتِه فيه، ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ﴾: بالتنوينِ: كوفيٌّ[1]، ﴿مَّن نَّشَآءُۗ﴾ أي: في العلم، كما رفعنا درجةَ يوسفَ فيه، ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦﴾: فوقَه: أرفعُ درجةً منه في علمه، أو فوقَ العلماء كلِّهم عليمٌ هم دونه في العلم، وهو الله عزَّ وجلَّ.

《٧٧》 ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ أرادوا يوسفَ، قيل: دخل كنيسةً فأخذ تِمثالاً صغيراً من ذهب كانوا يعبدونَه فدفنَه، وقيل: كان في المنزل دجاجةٌ فأعطاها السائلَ، وقيل: كانت مِنْطَقَةٌ لإبراهيم عليه السلام يتوارثُها أكابرُ ولدِه، فورثَها إسحاقُ، ثم وقعت إلى ابنتِه وكانت أكبرَ أولادِه، فحضنت يوسفَ وهي عمتُه بعد وفاة أمه، وكانت لا تصبرُ عنه، فلما شبَّ.. أرادَ يعقوبُ أن ينتزعَه منها، فعمدت إلى المِنْطَقةِ فحزمتْها على يوسفَ تحت ثيابه، وقالت: فقدتُ مِنطقةَ إسحاقَ فانظرُوا مَن أخذَها، فوجدوها محزومةً على يوسفَ فقالت: إنه لي

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٦٥).

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)﴾ ....

سَلَمٌ[1]؛ أفعلُ به ما شئتُ، فخلّاه يعقوبُ عندها حتى ماتتْ، ورُوِيَ: أنهم لما استخرجُوا الصاعَ من رحلِ بنيامينَ.. نكَسَ إخوتُه رؤوسَهم حياءً وأقبلُوا عليه وقالُوا له: فضحتَنا وسوَّدْتَ وجوهَنا، يا بني راحيل ما يزالُ لنا منكم بلاءٌ، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيلَ الذين لا يزالُ منكم عليهم بلاءٌ، ذهبتُم بأخي فأهلكتمُوه، ووضعَ هذا الصُّواعَ في رحلي الذي وضعَ البضاعةَ في رحالِكم، ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ أي: مقالتَهم: إنه سرق، كأنه لم يسمعْها، ﴿يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾: تمييزٌ؛ أي: أنتم شرٌّ منزلةً في السَّرَقِ؛ لأنكم سرقتم أخاكم يوسفَ من أبيه، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)﴾: تقولون، أو: تكذبون.

«٧٨» ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السنِّ وفي القدرِ، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾: بَدَلَه على وجهِ الاسترهان، أو الاستعبادِ؛ فإن أباه يتسلَّى به عن أخيه المفقود، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨)﴾ إلينا، فأَتْمِمْ إحسانَك، أو من عادتِك الإحسانُ فَاجْرِ على عادتِك ولا تُغَيِّرْها.

«٧٩» ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ أي: نعوذُ بالله معاذاً مِنْ أن نأخذَ، فأضيفَ المصدرُ إلى المفعول به، وحُذفَ (مِن)، ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩)﴾ (إذاً): جوابٌ لهم وجزاءٌ؛ لأن المعنى: إن أخذنا بدلَه.. ظَلَمْنا، وهذا لأنه وجب على قضيةِ فتواكم أخذُ من وُجِدَ الصاعُ في رحلِه واستعبادُه، فلو أخذنا غيرَه.. كان ذلك ظلماً في مذهبِكم، فلِمَ تَطلبون ما عرفتم أنه ظلم؟

«٨٠» ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا﴾: يَئِسُوا، وزيادةُ السين والتاءِ؛ للمبالغة، كما مرَّ في استعصمَ، ﴿مِنْهُ﴾: من يوسفَ وإجابتِه إياهم ﴿خَلَصُوا﴾: انفردُوا عن الناس خالصين لا يخالطُهم سِواهم، ﴿نَجِيًّا﴾: ذوي نَجْوَى، أو: فَوجاً نَجِيّاً؛ أي: مناجياً؛ لمناجاةِ بعضِهم بعضاً، أو: تمحضُوا تناجياً؛ لاستجماعِهم لذلك، وإفاضتِهم فيه بِجِدٍّ واهتمامٍ، كأنهم في أنفسِهم صورةُ التناجيْ وحقيقتُه، فالنَّجِيُّ: يكونُ بمعنى المناجِي، كالسَّمِيرِ بمعنى المسامرِ، وبمعنى المصدرِ الذي هو

---

(١) السَّلَمُ: الأسير.

ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ....

التناجيْ، وكان تناجيْهم في تدبيرِ أمرهم، على أيِّ صفةٍ يذهبون؟ وماذا يقولون لأبيهم في شأنِ أخيهم؟ ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السنِّ، وهو روبينُ، أو: في العقلِ والرأيِ، وهو يهوذا، أو رئيسُهم، وهو شمعونُ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ (ما): صلةٌ؛ أي: ومن قبلِ هذا قَصَّرْتُمْ في شأنِ يوسفَ ولم تحفظُوا عهدَ أبيكم، أو: مصدريةٌ، ومحلُّ المصدرِ: الرفعُ على الابتداءِ، وخبرُه: الظرفُ، وهو (من قبل)، ومعناه: وقعَ من قبلُ تفريطُكم في يوسفَ، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾: فلن أفارقَ أرضَ مصرَ ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في الانصرافِ إليه، ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بالخروجِ منها أو بالموت أو بقتالِهم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ لأنه لا يحكمُ إلا بالعدل.

《٨١》 ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وقرئَ ﴿سُرِّقَ﴾[1] أي: نُسِبَ إلى السرقة، ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه بالسرقةِ ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ من سرقتِه وتيقَّنا؛ إذ الصواعُ استُخرجَ من وعائِه، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾: وما علمنا أنه سيسرقُ حينَ أعطيناك المَوْثِقَ.

《٨٢》 ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ يعني: مصرَ؛ أي: أرسلْ إلى أهلها فاسألهم عن كُنْهِ القصةِ، ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾: وأصحابَ العيرِ، وكانوا قوماً من كنعانَ من جيرانِ يعقوبَ عليه السلام، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ في قولنا، فرجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم.

《٨٣》 ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾: أردتُّموه، وإلا.. فمن أدرى ذلك الرجلَ أن السارقَ يُسترَقُّ لولا فتواكم وتعليمُكم، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾: بيوسف وأخيه وكبيرِهم، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي في الحزنِ والأسفِ، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ الذي لم يبتلِني بذلك إلا لحكمةٍ.

《٨٤》 ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: وأعرضَ عنهم كراهةً لِما جاؤوا به، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: أضافَ الأسفَ، وهو أشدُّ الحزنِ والحسرةِ إلى نفسه، والألفُ بدلٌ من ياءِ الإضافةِ، والتجانسُ بين الأسفِ ويوسفَ غيرُ متكلَّفٍ، ونحوُه: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم﴾ [التوبة: ٣٨]، ﴿وَهُمْ

---

(١) قراءة شاذة. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٧٧).

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ ....

يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، ﴿مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ﴾ [النمل: ٢٢]، وإنما تأسفَ على يوسفَ دون أخيه وكبيرِهم؛ لتمادِي أسفِه على يوسفَ دون الآخرين، وفيه دليلٌ أن الرُّزْءَ فيه مع تقادم عهدِه كان غضّاً عنده طريّاً، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ إذْ أكثرَ الاستعبارَ، ومَحَقَتِ العَبْرَةُ سوادَ العين وقَلَبَتْهُ إلى بياضٍ كَدِرٍ، وقيل: قد عَمِيَ بصرُه، وقيل: يُدْرِكُ إدراكاً ضعيفاً، ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ لأن الحزنَ سببُ البكاءِ الذي حدثَ منه البياضُ، فكأنه حدث من الحزن، قيل: ما جفَّت عينا يعقوبَ من وقتِ فراقِ يوسفَ إلى حينِ لقائِه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرضِ أكرمُ على الله من يعقوبَ، ويجوزُ للنبي عليه السلام أن يبلغَ به الجزعُ ذلك المبلغَ؛ لأن الإنسان مجبولٌ على ألا يَملكَ نفسَه عند الحزن؛ فلذلك حُمِدَ صبرُه، ولقد بكى رسولُ الله ﷺ على ولده إبراهيمَ وقال: «القلبُ يجزعُ، والعينُ تدمعُ، ولا نقولُ ما يُسخطُ الربَّ، وإنا عليك يا إبراهيمُ لمحزونون»[1]، وإنما المذمومُ الصياحُ والنياحةُ ولطمُ الصدورِ والوجوهِ وتمزيقُ الثيابِ، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾: مملوءٌ من الغيظِ على أولادِه، ولا يُظهرُ ما يسوؤُهم، (فَعيل) بمعنى (مفعول)؛ بدليلِ قولِه: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] مِن كَظَمَ السِّقاءَ: إذا شدَّه على مَلْئِه.

《٨٥》 ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟﴾ أي: لا تفتأُ، فحذفَ حرفُ النفيِ؛ لأنه لا يلتبسُ؛ إذْ لو كان إثباتاً.. لم يكن بدٌّ من اللامِ والنونِ؛ ومعنى (لا تفتأ): لا تزالُ، ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾: مُشْفِياً على الهلاك مرضاً، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

《٨٦》 ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ البثُّ: أصعبُ الهمِّ الذي لا يَصبرُ عليه صاحبُه فيبثُّه إلى الناس؛ أي: ينشرُه؛ أي: لا أشكو إلى أحدٍ منكم ومن غيرِكم، إنما أشكو إلى ربي داعياً له وملتجئاً إليه، فَخَلُّوني وشَكاتي، وروي: أنه أوحيَ إلى يعقوبَ: «إنما وَجَدْتُ عليكم؛ لأنكم ذبحتُم شاةً فقام ببابِكم مسكينٌ فلم تُطعموه، وإن أحبَّ خلقِي إليَّ الأنبياءُ ثم المساكينُ، فاصنعْ طعاماً وادعُ عليه المساكين»، وقيل: اشترى جاريةً مع ولدِها فباعَ ولدَها فبكتْ حتى عميتْ، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾: وأعلمُ من رحمتِه أنه يأتيني بالفرجِ من حيثُ لا أحتسبُ، ورويَ: أنه رأى ملكَ الموتِ في منامِه فسألَه: هل قبضتَ روحَ يوسفَ؟

---

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ....

فقال: لا والله هو حيٌّ فاطلبْه وعلمَه هذا الدعاء: يا ذا المعروفِ الدائمِ الذي لا ينقطعُ معروفُه أبداً، ولا يُحصيه غيرُك فَرِّجْ عني.

《٨٧》 ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾: فتعرفُوا منهما، وتَطَلَّبُوا خبرَهما، وهو (تَفَعُّلٌ) من الإحساسِ، وهو المعرفةُ، ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾: ولا تقنطُوا من رحمةِ الله وفَرَجِه، ﴿إِنَّهُۥ﴾: إن الأمرَ والشأنَ ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ لأن من آمنَ يعلمُ أنه مُتقلبٌ في رحمةِ اللهِ ونعمتِه، وأما الكافر.. فلا يعرفُ رحمةَ اللهِ، ولا تقلبَه في رحمتِه، فييئسُ من رحمته، فخرجُوا من عندِ أبيهم راجعين إلى مصرَ.

《٨٨》 ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾: على يوسفَ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾: الهزالُ من الشدةِ والجوعِ، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾: مدفوعةٍ يدفعُها كلُّ تاجرٍ؛ رغبةً عنها واحتقاراً لها؛ مِن: أَزْجَيْتُه: إذا دفعتَه وطردتَه، قيل: كانت دراهمَ زُيوفاً لا تؤخذُ إلا بوضيعةٍ، وقيل: كانت صوفاً وسمناً، ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ الذي هو حقُّنا، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾: وتفضلْ علينا بالمسامحةِ والإغماضِ عن رداءةِ البضاعةِ، أو: زدنا على حقِّنا، أو: هبْ لنا أخانا؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

《٨٩》 لما قالوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ وتضرعُوا إليه، وطلبوا منه أن يتصدق عليهم.. ارفضَّتْ عيناه، ولم يتمالك أن عَرَّفَهم نفسَه حيث قال:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم﴾ أي: هل علمتم قبحَ ما فعلتم ﴿بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾: لا تعلمون قبحَه، أو: إذ أنتم في حدِّ السفهِ والطَّيشِ، وفعلُهم بأخيه تعريضُهم إياه للغمِّ بإفرادِه عن أخيه لأبيه وأمه، وإيذاؤُهم له بأنواعِ الأذى.

《٩٠》 ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ﴾: بهمزتين: كوفيٌّ وشاميٌّ[1]، ﴿لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ اللامُ: لامُ الابتداءِ،

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٦).

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾ ....

و(أنت): مبتدأٌ، و(يوسف): خبرُه، والجملةُ: خبرُ (إن)[1]، ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ وإنما ذَكَرَ أخاه وهم قد سألوه عن نفسه؛ لأنه كان في ذكرِ أخيه بيانٌ لما سألُوه عنه، ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بالألفةِ بعد الفُرقةِ، وذكرَ نعمةَ اللهِ بالسلامةِ والكرامةِ ولم يبدأْ بالملامةِ، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ الفحشاءَ، ﴿وَيَصْبِرْ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعةِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ أي: أجرَهم، فوَضعَ (المحسنين) موضعَ الضمير؛ لاشتماله على المتقين والصابرين، وقيل: من يتقِ مولاه، ويصبرْ على بلواه.. لا يُضيعُ أجرَه في دنياه وعُقباه.

«٩١» ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾: اختارك وفضَّلك علينا بالعِلْمِ والحلمِ والتقوى والصبرِ والحُسْنِ، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾: وإنَّ شأنَنا وحالَنا أنا كنا خاطئين متعمِّدين للإثم، لم نتقِ ولم نصبرْ، لا جرمَ أن الله أعزكَ بالملك، وأذلَّنا بالتَّمَسْكُنِ بين يديك.

«٩٢» ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾: لا تَعييرَ عليكم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: متعلقٌ بالتثريب، أو: بـ(يغفر) والمعنى: لا أُثرِّبُكُمُ اليومَ، وهو اليومُ الذي هو مَظِنَّةُ التثريبِ، فما ظنُّكم بغيره من الأيام، ثم ابتدأ فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فدعا لهم بمغفرةِ ما فَرَطَ منهم، يقال: غفرَ اللهُ لك، ويغفرُ الله لك، على لفظ الماضي والمضارع، أو: (اليومَ يغفرُ اللهُ لكم): بشارةٌ بعاجلِ غُفرانِ اللهِ، وروي: أن رسولَ اللهِ ﷺ أخذ بعِضادَتي بابِ الكعبةِ يومَ الفتحِ فقال لقريشٍ: «ما ترونني فاعلاً بكم؟» قالوا: نظنُّ خيراً، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ، وقد قَدَرتَ، فقال: أقول ما قال أخي يوسف: «لا تثريب عليكم اليوم»[2]، وروي: أن أبا سفيانَ لما جاء لِيُسْلِمَ.. قال له العباس: إذا أتيت رسولَ اللهِ.. فاتلُ عليه: (قال لا تثريب عليكم اليوم) ففعلَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «غفرَ الله لك ولِمن عَلَّمَكَ»[3]، ويُروى: أن إخوتَه لما عرفُوه.. أرسلُوا إليه أنك تدعونا إلى طعامِك بُكرةً وعشيّاً ونحن نستحيي منك؛ لما فَرَطَ منا فيك، فقال يوسفُ: إن أهلَ مصرَ وإن مُلِّكْتُ فيهم.. فإنهم ينظرون إليَّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحانَ من بَلَّغَ عبداً بِيع بعشرين درهماً ما بَلَغَ، ولقد

---

(١) وهو استفهامُ تقريرٍ؛ ولذلك أُكِّدَ بإنَّ واللام؛ لأن التأكيد يقتضي التحققَ المنافيَ للاستفهام الحقيقي، ولعلهم قالوه استغراباً وتعجباً. انظر «تفسير الآلوسي» (٧/ ٤٦).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١١٨) عن سيدنا أبي هريرة رضى الله عنه.

(٣) لم أجده.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

شُرِّفْتُ الآنَ بكم حيثُ علمَ الناسُ أني من حفدةِ إبراهيمَ، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ أي: إذا رحمتُكم وأنا الفقيرُ القَتُورُ.. فما ظنُّكم بالغنيِّ الغفورِ؟

《٩٣》 ثم سألهم عن حالِ أبيه فقالُوا: إنه عميَ من كثرةِ البكاءِ، قال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ قيل: هو القميصُ المتوارَثُ الذي كان في تعويذِ يوسفَ، وكان من الجنة، أمرَه جبريلُ أن يرسلَه إليه؛ فإن فيه ريحَ الجنةِ، لا يقعُ على مبتلىً ولا سقيم إلا عُوفيَ، ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾: يَصِرْ بصيراً، تقول: جاء البناءُ محكماً؛ أي: صار، أو: يأتِ إليَّ وهو بصيرٌ، قال يهوذا: أنا أحمِلُ قميصَ الشفاءِ كما ذهبتُ بقميصِ الجفاءِ، وقيل: حملَه وهو حافٍ حاسرٌ من مصرَ إلى كنعانَ وبينهما مسيرةُ ثمانين فرسخاً، ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ لِيَنْعُمُوا بآثارِ مُلْكِي كما اغتمُّوا بأخبارِ هُلْكِي.

《٩٤》 ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾: خرجتْ من عريشِ مصرَ، يقال: فصلَ من البلدِ فُصولاً: إذا انفصلَ منه وجاوزَ حيطانَه، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لولدِ ولدِه ومَن حولَه من قومِه: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوجدَه الله ريحَ القميصِ حين أقبلَ من مسيرةِ ثمانيةِ أيام، ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ التفنيدُ: النسبةُ إلى الفَنَدِ، وهو الحزنُ وإنكارُ العقلِ من هرمٍ، يقال: شيخٌ مُفَنَّدٌ؛ والمعنى: لولا تفنيدُكم إياي.. لصدَّقتموني.

《٩٥》 ﴿قَالُوا۟﴾ أي: أسباطُه: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾: لفي ذهابِكَ عن الصواب قديماً في إفراطِ محبتك ليوسفَ، أو: في خطئِك القديمِ من حبِّ يوسفَ، وكان عندهم أنه قد مات.

《٩٦》 ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ أي: يهوذا ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾: طرحَ البشيرُ القميصَ على وجه يعقوبَ، أو: ألقاه يعقوبُ، ﴿فَٱرْتَدَّ﴾: فرجعَ ﴿بَصِيرًا﴾ يقال: ردَّه فارتدَّ، وارتدَّه: إذا ارتجعَه، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يعني: قولَه: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾، أو: قولَه: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾، وقولُه: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾: كلامٌ مبتدأٌ لم يقع عليه القول، أو: وقعَ عليه؛ والمرادُ قولُه: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾

تَعْلَمُونَ﴾، وروي أنه سألَ البشيرَ: كيف يوسفُ؟ قال: هو مَلِكُ مصرَ، فقال: ما أصنع بالملك؟ على أيِّ دينٍ تركتَه؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآنَ تمتِ النعمةُ.

«٩٧» ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ۝٩٧﴾ أي: سلِ اللهَ مغفرةَ ما ارتكبْنا في حقِّكَ وحقِّ ابنِك، إنا تُبنا واعترفنا بخطايانا.

«٩٨» ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾ أَخَّرَ الاستغفارَ إلى وقت السحرِ، أو: إلى ليلةِ الجمعةِ، أو: ليتعرفَ حالَهم في صدق التوبةِ، أو: إلى أن يسألَ يوسفَ: هل عفا عنهم؟ ثم إن يوسفَ وَجَّهَ إلى أبيه جَهازاً، ومئتي راحلةٍ؛ ليتجهزَ إليه بمن معه، فلما بلغَ قريباً من مصرَ.. خرج يوسفُ والملكُ في أربعةِ آلافٍ من الجندِ والعظماءِ وأهلِ مصرَ بأجمعِهم، فتلقَّوا يعقوبَ وهو يمشي يتوكأُ على يَهوذا.

«٩٩» ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ﴾: ضمَّ إليه ﴿أَبَوَيْهِ﴾ واعتنقَهما، قيل: كانت أمُّه باقيةً، وقيل: ماتت وتزوجَ أبوه خالتَه، والخالةُ أمٌّ، كما أن العمَّ أبٌ، ومنه قولُه: ﴿وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، ومعنى دخولِهم عليه قبلَ دخولِهم مصرَ: أنه حين استقبلَهم.. أنزلَهم في مَضْرَبٍ أو قصرٍ كان له ثمةَ فدخلُوا عليه[1]، وضمَّ إليه أبويه، ﴿وَقَالَ﴾ لهم بعد ذلك: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾ من ملوكِها، وكانوا لا يَدخلونها إلا بجوارٍ، أو: من القحطِ، وروي: أنه لما لقيَه.. قال يعقوبُ عليه السلام: السلام عليك يا مذهبَ الأحزانِ، وقال له يوسف: يا أبتِ بكيتَ عليَّ حتى ذهب بصرُك، ألم تعلم أن القيامة تجمعُنا؟ قال: بلى ولكن خشيتُ أن يُسلبَ دينُك فيُحالَ بيني وبينك، وقيل: إن يعقوبَ وولدَه دخلُوا مصرَ وهم اثنان وسبعون، ما بين رجال ونساءٍ، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتُهم ستُّ مئةِ ألفٍ وخمسُ مئةٍ وبضعةٌ وسبعون رجلاً سوى الذُّرِّيَّةِ والهَرمى، وكانت الذريةُ ألفَ ألفٍ، ومئتي ألفٍ.

---

(١) المَضْرَبُ: بيت عظيم من شَعْرٍ.

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ....

《١٠٠》 ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ قيل: لما دخلوا مصرَ وجلسَ في مجلسه مستوياً على سريره واجتمعُوا إليه.. أكرمَ أبويه، فرفعَهما على السرير، وخرُّوا له؛ يعني: الإخوةَ الأحدَ عشرةَ والأبوينِ سجَّداً، وكانت السجدةُ عندهم جاريةً مجرى التحيةِ والتكرمةِ، كالقيام والمصافحةِ وتقبيلِ اليدِ، وقال الزجاج: سنةُ التعظيمِ في ذلك الوقت أن يُسْجَدَ للمعظَّم[1]، وقيل: ما كانت إلا انحناءةً دون تعفيرِ الجباهِ، وخرورُهم سجداً يأباه، وقيل: وخرُّوا لأجلِ يوسفَ سجداً لله شكراً، وفيه نَبْوَةٌ أيضاً[2]، واختلف في استنبائِهم[3]، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا﴾ أي: الرؤيا ﴿رَبِّى حَقًّا﴾ أي: صادقةً، وكان بين الرؤيا وبين التأويل أربعون سنةً، أو ثمانون، أو ستٌّ وثلاثون، أو اثنتان وعشرون، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ يقال: أحسن إليه وبه، وكذلك: أساءَ إليه وبه[4]، ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يذكرِ الجُبَّ؛ لقولِه: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾: من الباديةِ؛ لأنهم كانوا أصحابَ مَواشٍ ينتقلون في المياه والمناجعِ، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي: أفسدَ بيننا وأغرى، ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي: لطيفُ التدبيرِ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ بتأخيرِ الآمالِ إلى الآجالِ، أو: حكمَ بالائتلافِ بعد الاختلافِ.

《١٠١》 ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ ملكَ مصرَ، ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: تفسيرِ كتبِ اللهِ، أو: تعبيرِ الرؤيا، و(مِن) فيهما: للتبعيض؛ إذْ لم يُؤْتَ إلا بعضَ ملكِ الدنيا، وبعضَ التأويلِ، ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: انتصابُه على النداء، ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أنت الذي تتولاني بالنعمةِ في الدارين، وبوصلِ الملكِ الفاني بالملكِ الباقي، ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ طلبَ الوفاةَ على حالِ الإسلامِ، كقول يعقوبَ لولده: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠١]،

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٢٩).

(٢) النَّبْوَةُ: الارتفاعُ؛ أي: أن الكلام يأبى هذا المعنى.

(٣) رجح الإمام الرازي أنهم أنبياء، وذكر أن ما وقع منهم كان قبل النبوة، والعصمةُ إنما تعتبر في وقت النبوة لا قبلَها. انظر «تفسير الرازي» (١٨/ ٤٢١).

(٤) وقيل: ضُمِّنَ (أحسَنَ) معنى: لَطَفَ. انظر «تفسير الآلوسي» (٧/ ٥٧).

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ ....

وعن الضحاك: مخلصاً، وعن التُّسترِيِّ: مسلماً إليك أمري، وفي «عصمة الأنبياء»: إنما دعا به يوسفُ؛ ليقتديَ به قومُه ومَن بعدَه ممن ليس بمأمونِ العاقبةِ؛ لأن ظواهرَ الأنبياءِ لنظرِ الأممِ إليهم، ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ من آبائي، أو على العموم، روي: أن يوسفَ أخذَ بيدِ يعقوبَ فطاف به في خزائنه، فأدخله خزائنَ الذهبِ والفضةِ، وخزائنَ الثيابِ، وخزائنَ السلاحِ، حتى أدخلَه خِزانةَ القراطيسِ، قال: يا بنيَّ ما أعقَّكَ عندك هذه القراطيسُ وما كتبت إليَّ على ثمانِ مراحلَ! فقال: أمرني جبريلُ، قال: أَوَما تسألُه؟ قال: أنت أَبْسَطُ إليه مني فاسألْه، فقال جبريلُ: اللهُ أمرني بذلك؛ لقولِك: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾، فهلّا خِفتَني، ورويَ: أن يعقوبَ أقام معه أربعاً وعشرين سنةً ثم مات، وأوصَى أن يَدفِنَه بالشام إلى جنب أبيه إسحاقَ، فمضى بنفسه ودفنه ثمةَ، ثمَّ عادَ إلى مصرَ وعاشَ بعدَ أبيه ثلاثةً وعشرين سنةً، فلما تم أمرُه.. طلبت نفسُه الملكَ الدائمَ فتمنَّى الموتَ، وقيل: ما تمنَّاه نبيٌّ قبلَه ولا بعده، فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصمَ أهلُ مصرَ وتشاحنُوا في دفنه، كلٌّ يحبُّ أن يُدفنَ في مَحلَّتِهم حتى همُّوا بالقتال، فرأَوا أن يَعملُوا له صندوقاً من مَرْمَرٍ وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمرُّ عليه الماءُ ثم يصل إلى مصرَ؛ ليكونوا كلُّهم فيه شَرْعاً[1]، حتى نقلَ موسى عليه السلام بعدَ أربعِ مئةِ سنةٍ تابوتَه إلى بيتِ المقدسِ[2]، وَوُلِدَ له إفرائيمُ وميشا، وَولدَ لإفرائيمَ نونٌ، ولنونٍ يُوْشَعَ فتى موسى، ولقد توارثتِ الفراعنةُ من العماليقِ بعده مصرَ، ولم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دينِ يوسفَ وآبائِه.

《١٠٢》 ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما سبق من نبأِ يوسفَ، والخطابُ لرسولِ الله ﷺ، وهو مبتدأٌ، ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾: خبرانِ، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾: لدى بني يعقوبَ ﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾: عزمُوا على ما همُّوا به من إلقاءِ يوسفَ في البئرِ ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ بيوسفَ، ويبغون له الغوائلَ؛ والمعنى: أن هذا النبأَ غيبٌ لم يحصلْ لك إلا من جهةِ الوحْيِ؛ لأنك لم تحضرْ بني يعقوبَ حين اتفقُوا على إلقاءِ أخيهم في البئر.

---

(١) شَرْعاً: سواءً.

(٢) ثبت في «صحيح ابن حبان» (٧٢٣) أن سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم لما سار ببني إسرائيلَ من مصرَ حملوا معهم سيدنا يوسف صلى الله عليه وسلم.

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ۝١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ۝١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٠٧ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٨﴾ ....

«١٠٣» ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ أرادَ العمومَ، أو: أهلَ مكةَ؛ أي: وما هم بمؤمنين ولو اجتهدت كلَّ الاجتهاد على إيمانهم.

«١٠٤» ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ﴾: على التبليغ، أو: على القرآن ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾: جُعْلٍ، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾: ما القرآنُ إلا عِظَةٌ لهم وحثٌّ على طلب النجاةِ على لسانِ رسولٍ من رسلِه.

«١٠٥» ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ﴾: مِن علامةٍ ودلالةٍ على الخالقِ وعلى صفاتِه وتوحيدِه ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا﴾: على الآياتِ، أو: على الأرضِ ويشاهدونها، ﴿وَهُمۡ عَنۡهَا﴾: عن الآياتِ ﴿مُعۡرِضُونَ ۝١٠٥﴾: لا يعتبرون بها، والمرادُ: ما يَرَون من آثارِ الأممِ الهالكةِ وغيرِ ذلك من العبرِ.

«١٠٦» ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ۝١٠٦﴾ أي: وما يؤمن أكثرُهم في إقرارِه بالله، وبأنه خلقَه، وخلقَ السمواتِ والأرضَ إلا وهو مشركٌ بعبادةِ الوثنِ، الجمهورُ على أنها نزلت في المشركين؛ لأنهم مُقِرُّون بالله خالقَهم ورازقَهم، واذا حَزَبَهم أمرٌ شديدٌ. دعَوُا اللهَ، ومع ذلك يُشركون به غيرَه، ومن جملةِ الشركِ: ما يقوله القدريةُ من إثباتِ قدرةِ التخليقِ للعبدِ، والتوحيدُ المحضُ: ما يقولُه أهلُ السنةِ، وهو أنه لا خالقَ إلا اللهُ.

«١٠٧» ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ﴾: عقوبةٌ تَغشاهم وتشملُهم ﴿مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾: القيامةُ ﴿بَغۡتَةٗ﴾: حالٌ؛ أي: فجأةً ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٠٧﴾ بإتيانِها.

«١٠٨» ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾: هذه السبيلُ التي هي الدعوةُ إلى الإيمان والتوحيدِ سبيلي، والسبيلُ والطريقُ يُذَكَّران ويُؤنثان، ثم فَسَّرَ سبيلَه بقوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: أدعو إلى دينه مع حجةٍ واضحةٍ غيرِ عمياءَ، ﴿أَنَا۠﴾: تأكيدٌ للمستترِ في (أدعو) ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾: عطفٌ عليه؛ أي: أدعو إلى سبيل الله أنا، ويدعُو إليه من اتبعني، أو: (أنا): مبتدأٌ، و(على بصيرة): خبرٌ مقدمٌ، و(من اتبعني): عطفٌ على (أنا)، يُخبِر ابتداءً بأنه ومن اتبعَه على حجةٍ وبرهانٍ، لا على هوىً، ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: وأنزهُه عن الشركاءِ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٨﴾ مع اللهِ غيرَه.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

《١٠٩》 ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ لا ملائكةً؛ لأنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]، أو: ليست فيهم امرأةٌ، ﴿نُّوحِىٓ﴾: بالنونِ: حفصٌ[1]، ﴿إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لأنهم أعلمُ وأحلمُ، وأهلُ البوادي فيهم الجهلُ والجفاءُ، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: ولدارُ الساعةِ الآخرةِ ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشركَ وآمنوا به، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ وبالياءِ: مكيٌّ وأبو عمرٍو وحمزةُ وعليٌّ.

《١١٠》 ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾: يئسوا من إيمانِ القومِ، ﴿وظنوا أنهم قد كُذِّبوا﴾: وأيقنَ الرسلُ أن قومَهم كَذَّبُوهم، وبالتخفيف: كوفيٌّ؛ أي: وظن المرسَلُ إليهم أن الرسلَ قد كَذَبوا؛ أي: أخلفُوا، أو: وظنَّ المرسَلُ إليهم أنهم كُذِبُوا مِن جهةِ الرسلِ؛ أي: كَذَبَتْهُم الرسلُ في أنهم يُنصرون عليهم، ولم يَصدقُوهم فيه ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾: للأنبياء والمؤمنين بهم فَجْأةً من غيرِ احتسابٍ، ﴿فَنُجِّىَ﴾: بنونٍ واحدةٍ وتشديدِ الجيمِ وفتحِ الياءِ: شاميٌّ وعاصمٌ: على لفظِ الماضِي المبني للمفعول، والقائمُ مقام الفاعل: (مَن)، الباقون: ﴿فَنُنْجِيْ﴾، ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ أي: النبيَّ ومَن آمن به، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾: عذابُنا ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾: الكافرين.

《١١١》 ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أي: في قَصَصِ الأنبياءِ وأُممِهم، أو: في قصةِ يوسفَ وإخوتِه ﴿عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ حيثُ نُقِلَ من غايةِ الحُبِّ إلى غيابةِ الجبِّ، ومِن الحصيرِ إلى السريرِ، فصارت عاقبةُ الصبرِ سلامةً وكرامةً، ونهايةُ المكر وَخامةً وندامةً، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾: ما كان القرآنُ حديثاً مفترىً كما زعم الكفارُ، ﴿وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ولكن كان تصديقَ الكتبِ التي تقدمتْه، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يُحتاجُ إليه؛ لأنه القانون الذي تستندُ إليه السنةُ والإجماعُ والقياسُ، ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالِ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ من العذابِ، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ بالله وأنبيائِه، وما نُصِبَ بعد (لكن) معطوفٌ على خبرِ (كان).

---

(١) قرأ غيرُ حفص: ﴿يُوحَى﴾. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٨) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

....

عن رسولِ اللهِ ﷺ: «علمُوا أرقّاءَكم سورةَ يوسفَ، فأيُّما عبدٍ تلاها وعَلَّمَها أهلَه وما ملكت يمينُه.. هوَّنَ اللهُ عليه سكراتِ الموتِ، وأعطاه القوةَ ألا يحسُدَ مسلماً»[١].

قال الشيخُ أبو منصورٍ رحمه الله: في ذكرِ قصةِ يوسفَ عليه السلام وإخوتِه تصبيرٌ لرسولِ اللهِ ﷺ على أذى قريشٍ، كأنه يقول: إن إخوةَ يوسفَ مع موافقتِهم إياه في الدين ومع الأُخُوَّةِ.. عملُوا بيوسفَ ما عملُوا من الكيدِ والمكرِ، وصبرَ على ذلك، فأنت مع مخالفتِهم إياك في الدين.. أحرى أن تصبرَ على أذاهم[٢]، وقال وهبٌ: إن الله تعالى لم يُنزل كتاباً إلا وفيه (سورة يوسف) عليه السلام تامةً كما هي في القرآن العظيمِ.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٦)، وانظر «تفسير ابن كثير» (٨/ ٥).
(٢) انظر «تأويلات أهل السنة» (٢/ ٦١١).

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ....

سورة الرعد

ثلاثٌ أو خمسٌ وأربعون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿الٓمٓرۚ﴾: أنا اللهُ أعلمُ وأرى، عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما، ﴿تِلۡكَ﴾: إشارةٌ إلى آياتِ السورةِ، ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أُريدَ بالكتابِ السورةُ؛ أي: تلك الآياتُ آياتُ السورةِ الكاملةِ العجيبةِ في بابِها، ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾: القرآنُ كلُّه ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: خبرُ (والذي)، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾﴾ فيقولون: تقوَّلَه محمدٌ.

《٢》 ثم ذكر ما يُوجبُ الإيمانَ فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: خلقَها مرفوعةً، لا أن تكونَ موضوعةً فرفعَها، و(الله): مبتدأٌ، والخبرُ: (الذي رفع السموات) ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾: حالٌ، وهو جمعُ عمادٍ، أو عَمودٍ، ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ الضميرُ يعودُ إلى (السموات) أي: ترونَها كذلك، فلا حاجةَ إلى البيان، أو إلى (عمد) فيكونُ في موضعِ جرٍّ؛ على أنه صفةٌ لـ(عمد) أي: بغيرِ عمدٍ مرئيةٍ، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾: استولى بالاقتدارِ ونفوذِ السلطان، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ لمنافعِ عبادِه، ومصالحِ بلادِه، ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾: وهو انقضاءُ الدنيا، ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾: أمرَ ملكوتِه وربوبيتِه، ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾: يبينُ آياتِه في كتبِه المنزلةِ، ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾: لعلكم توقنون بأن هذا المدبرَ والمفصِّلَ لا بدَّ لكم من الرجوعِ إليه.

《٣》 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾: بَسَطَها، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾: جبالاً ثوابتَ، ﴿وَأَنۡهَٰرٗا﴾ جاريةً، ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أي: الأسودَ والأبيضَ، والحُلْوَ والحامضَ، والصغيرَ والكبيرَ، وما أشبهَ ذلك، ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾: يُلبسُه مكانَه فيصيرُ أسودَ مُظلماً، بعدَ ما كان أبيضَ منيراً، ﴿يُغَشِّي﴾: حمزةُ وعليٌّ وأبو بكرٍ[1]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ فيعلمون أن لها صانعاً عليماً حكيماً قادراً.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٨).

وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ....

《٤》 ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾: بقاعٌ مختلفةٌ مع كونها متجاورةً متلاصقةً، طيبةٌ إلى سَبِخَةٍ[١]، وكريمةٌ إلى زَهيدةٍ[٢]، وصُلْبَةٌ إلى رِخوةٍ، وذلك دليلٌ على قادرٍ مدبرٍ مريدٍ مُوْقِعٍ لأفعاله على وجهٍ دونَ وجهٍ، ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾: معطوفةٌ على (قطع)، ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾: بالرفع: مكيٌّ وبصريٌّ وحفصٌ؛ عطفٌ على (قطع)، غيرُهم: بالجرِّ[٣]؛ بالعطفِ على (أعناب)، والصنوانُ: جمع صِنْوٍ، وهي: النخلةُ لها رأسانِ وأصلُها واحد، وعن حفص: بضمِّ الصادِ[٤]، وهما لغتان، ﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ وبالياء: عاصمٌ وشاميٌّ[٥]، ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وبالياءِ: حمزةُ وعليٌّ، ﴿فِي ٱلْأُكُلِ﴾: في الثَّمرِ، وبسكون الكافِ: نافعٌ ومكيٌّ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ عن الحسنِ: مُثِّلَ اختلافُ القلوبِ في آثارِها وأنوارِها وأسرارِها باختلافِ القِطَعِ في أنهارِها وأزهارِها وثمارِها.

《٥》 ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمدُ من قولهم في إنكارِ البعثِ ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾: خبرٌ ومبتدأٌ؛ أي: فقولُهم حقيقٌ بأن يُتَعَجَّبَ منه؛ لأن مَن قَدَرَ على إنشاءِ ما عُدِّدَ عليك.. كانت الإعادةُ أهونَ شيءٍ عليه وأيسرَه، فكان إنكارُهم أعجوبةً من الأعاجيبِ، ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: في محلِّ الرفعِ: بدلٌ مِن (قولُهم)، قرأ عاصمٌ وحمزةُ كلَّ واحدٍ بهمزتين[٦]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾: أولئك الكاملون المتمادُون في كفرِهم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾: وصفٌ لهم بالإصرارِ، أو: مِن جملةِ الوعيدِ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ دلَّ تكرارُ (أولئك) على تعظيمِ الأمرِ.

---

(١) سَبِخَةٌ: مِلْحَةٌ.

(٢) زَهيدةٌ: قليلةُ الخير.

(٣) قراءة الرفع والجر في هذه الكلمات الأربعة: (وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ). انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٨).

(٤) قراءة شاذة. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٧٨).

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٨) وكذا القراءتان الآتيتان.

(٦) انظر المرجع السابق (ص ١٦٩).

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨)﴾ ....

《٦》 ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾: بالنِّقْمةِ قبلَ العافيةِ، وذلك أنهم سألُوا رسولَ اللهِ ﷺ أن يأتيَهم بالعذاب؛ استهزاءً منهم بإنذاره، ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ أي: عقوباتُ أمثالِهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبرُوا بها، فلا يستهزِئُوا، والمَثُلَةُ: العقوبةُ؛ لما بين العقاب والمعاقَبِ عليه من المماثلة؛ ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: مع ظلمِهم أنفسَهم بالذنوب، ومحلُّه: الحالُ؛ أي: ظالمين لأنفسهم، قال السُّديُّ: يعني: المؤمنين، وهي أرجَى آيةٍ في كتاب الله، حيث ذكرَ المغفرةَ مع الظلمِ، وهو بدون التوبة؛ فإن التوبة تُزيلها وترفعها[1]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)﴾ على الكافرين، أو: هما جميعاً في المؤمنين، لكنه مُعَلَّقٌ بالمشيئة فيهما؛ أي: يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء.

《٧》 ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ لم يعتدُّوا بالآياتِ المنزلةِ على رسولِ الله ﷺ؛ عناداً، فاقترحُوا نحوَ آياتِ موسى وعيسى؛ مِن انقلابِ العصا حيةً، وإحياءِ الموتى، فقيل لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾: إنما أنت رجلٌ أُرسلتَ منذِراً مُخوِّفاً لهم من سوء العاقبة وناصحاً، كغيرِك من الرسل، وما عليك إلا الإتيانُ بما يصِّح به أنك رسول منذر، وصحةُ ذلك حاصلةٌ بأيِّ آيةٍ كانت، والآياتُ كلُّها سواءٌ في حصول صحةِ الدعوى بها، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)﴾ من الأنبياء يهديْهم إلى الدين، ويدعوْهم إلى الله بآية خُصَّ بها، لا بما يريدون ويتحكَّمون.

《٨》 ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ (ما): في هذه المواضع الثلاثةِ موصولةٌ؛ أي: يعلمُ ما تحملُه من الولد على أيِّ حالٍ هو، مِن ذكورةٍ وأنوثةٍ، وتمامٍ وخِداجٍ[2]، وحسنٍ وقبحٍ، وطولٍ وقصرٍ، وغيرِ ذلك، وما تَغيضُه الأرحامُ؛ أي: ويعلم

---

(١) الأولى أن يقال: (تزيله وترفعه) لأن الضمير عائد على الظلم، ولعله أنث الضمير لعوده على المعصيةِ المفهومةِ من الظلم.
وهذه الآية دليل لمذهبِ أهلِ السنةِ وهو جواز مغفرة الكبائر والصغائر بدون توبة؛ لأنه سبحانه ذكر المغفرة مع الظلم؛ أي: الذنبِ، ولا يكون معه إلا قبل التوبة، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. انظر «تفسير الآلوسي» (٧/ ١٠١).

(٢) خِداج: نقصان.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾

ما تُنقصُه، يقال: غاض الماءُ، وغِضتُه أنا، وما تزداده؛ والمرادُ: عددُ الولدِ؛ فإنها تشتمل على واحد واثنين وثلاثاً وأربعة، أو: جسدُ الولدِ؛ فإنه يكون تاماً ومُخَدَّجاً، أو: مدةُ الولادةِ؛ فإنها تكون أقلَّ من تسعةِ أشهرٍ، وأَزْيَدَ عليها إلى سنتين عندنا، وإلى أربعِ عند الشافعي، وإلى خمس عند مالك[1]، أو: مصدريةٌ؛ أي: يعلمُ حملَ كلِّ أنثى، ويعلمُ غيضَ الأرحامِ وازديادَها، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾: بقدرٍ وَحَدٍّ لا يُجاوزُه ولا يَنقصُ عنه؛ لقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

《٩》 ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾: ما غابَ عن الخلق، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: ما شاهدُوه، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: العظيمُ الشأنِ الذي كلُّ شيءٍ دونَه، ﴿ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾: المستعلي على كلِّ شيءٍ بقدرتِه، أو: الذي كَبُرَ عن صفات المخلوقين وتَعالى عنها، وبالياء في الحالين: مكيٌّ[2].

《١٠》 ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أي: في علمِه، ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾: مُتوارٍ، ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾: ذاهبٌ في سِرْبِه؛ أي: في طريقِه ووَجْهِهِ، يقال: سربَ في الأرض سُروباً، و(سارب): عطفٌ على (مَن هو مستخف)، لا على (مستخف)، أو: على (مستخف) غيرَ أن (مَن) في معنى الاثنين[3].

《١١》 والضمير في ﴿لَهُۥ﴾: مردودٌ على (مَن) كأنه قيل: لِمَن أسرَّ ومَن جهرَ ومَن استخفَى ومن سَربَ ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾: جماعاتٌ من الملائكة تَعتقِبُ في حفظِه، والأصلُ: معتقباتٌ، فأدغمت التاءُ في القافِ، أو: هو (مُفَعِّلاتٌ) مِن: عَقَّبَهُ: إذا جاء على عَقِبِه؛ لأن بعضَهم يُعَقِّبُ بعضاً، أو لأنهم يُعَقِّبُون ما يَتكلَّم به فيكتبونَه، ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: قُدّامَه ووراءَه، ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ

---

(١) انظر «البحر الرائق شرح كنز الدقائق» (٤/ ١٧٧)، و«نهاية المحتاج» (٧/ ١٣٨)، و«التاج والإكليل لمختصر خليل» (٥/ ٤٨٥).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٩).

(٣) يعني: أن (سواء) تقتضي ذكرَ شيئين، فإذا كان (سارب) معطوفاً على جُزءِ الصفة وهو (مستخف) يكون شيئاً واحداً، فدفع الإشكال بأن (سارب) معطوفٌ على (مَن) لا على ما في حيِّزه، كأنه قيل: سواءٌ منكم إنسانٌ هو مستخفٍ، وآخرُ هو ساربٌ، أو: بأن (مَن) معناه متعدد، كأنه قيل: سواء منكم اثنان هما مستخفٍ وساربٌ، وعلى الوجهين (مَنْ): موصوفةٌ لا موصولةٌ. انظر «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٥/ ٢٢٣).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ ....

أَمْرِ ٱللَّهِ﴾: هما صفتان جميعاً، وليس (من أمر الله) بصلةٍ للحفظ، كأنه قيل: له معقباتٌ من أمرِ اللهِ، أو يحفظونه من أجلِ أمرِ اللهِ؛ أي: من أجلِ أن الله تعالى أمرهم بحفظِه، أو: يحفظونَه من بأسِ اللهِ ونقمتِه إذا أذنبَ بدعائِهم له، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافيةِ والنعمةِ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الحالِ الجميلةِ بكثرةِ المعاصي، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾: عذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾: فلا يدفعُه شيءٌ، ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾: مِن دون الله ممن يلي أمرَهم، ويدفعُ عنهم.

《١٢》 ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: انتصبا على الحال من البرقِ، كأنه في نفسه خوفٌ وطمعٌ، أو على: ذا خوفٍ، وذا طمعٍ، أو: من المخاطبين؛ أي: خائفين وطامعين؛ والمعنى: يُخاف من وقوع الصواعِق عندَ لمعِ البرقِ، ويُطمعُ في الغيثِ، قال أبو الطيب:[١] [من: الطويل]

فتى كالسحاب الجَونِ يُخشى ويُرتجَى ... يُرجَّى الحيا منه وتُخشى الصواعقُ

أو: يَخافُ المطرَ مَن له فيه ضررٌ كالمسافر، ومَن له بيتٌ يَكِفُ[٢]، ومن البلادِ ما لا ينتفعُ أهلُه بالمطر، كأهلِ مصرَ، ويَطمعُ فيه مَن له فيه نفعٌ، ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ هو اسمُ جنسٍ، واحدُه: سحابةٌ، ﴿ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ بالماءِ، وهو جمعُ ثقيلةٍ، تقولُ: سحابةٌ ثقيلةٌ، وسحابٌ ثِقالٌ.

《١٣》 ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ قيل: يسبحُ سامعو الرعدِ من العبادِ الراجين للمطر؛ أي: يَصيحون بـ: سبحان الله والحمد لله. وعن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الرعدُ ملكٌ موكلٌ بالسحاب، معه مَخاريقُ من نارٍ يسوقُ بها السحابَ، والصوتُ الذي يُسمع.. زَجرُه السحابَ حتى ينتهيَ إلى حيثُ أُمِر»[٣]، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾: ويسبحُ الملائكةُ من هيبتِه وإجلالِه، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الصاعقةُ: نارٌ تَسقطُ من السماء، لمّا ذكرَ علمَه النافذَ في كل شيء،

---

(١) البيت في «ديوانه» (٢/٣٤٦)، والجَون: الأبيضُ، والحيا: المطر.

(٢) وَكَفَ البيتُ يَكِفُ: قَطَرَ سقفُه.

(٣) رواه الترمذي (٣١١٧) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما، والمخاريق: جمع مِخراق، وهو: ثوب يُلفُّ ويَضرب به الصبيان بعضُهم بعضاً، والمراد به هنا: آلةٌ تَزجرُ بها الملائكة السحابَ وتسوقُه.

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾ ....

واستواءَ الظاهرِ والخفيِّ عنده، وما دلَّ على قدرته الباهرةِ ووحدانيتِه.. قال: ﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يعني: الذين كذَّبوا رسولَ اللهِ صلى اله عليه وسلم يجادلون في الله؛ حيث يُنكِرون على رسوله ما يصفُه به من القدرة على البعثِ وإعادةِ الخلائقِ بقولهم: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، ويَردُّون الواحدنيةَ باتخاذِ الشركاءِ، ويجعلونه بعضَ الأجسامِ بقولهم: الملائكة بناتُ اللهِ، أو: الواو: للحال؛ أي: فيصيبُ بها من يشاء في حالِ جدالِهم، وذلك أنَّ أربَدَ قال لرسول الله ﷺ حين وَفَدَ عليه مع عامرِ بنِ الطفيلِ قاصدين لقتلِه، فرمى اللهُ عامراً بِغُدَّةٍ كغدةِ البعيرِ، وموتٍ في بيتِ سَلوليةٍ، وأرسلَ على أربدَ صاعقةً فقتلَه: أخبرني عن ربِّنا أَمِنْ نحاسٍ هو أم من حديد[1]؟ ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ أي: المماحلةِ، وهي: شدةُ المُماكرةِ والمكايدةِ، ومنه: تَمَحَّلَ لكذا: إذا تكلف لاستعمال الحيلةِ واجتهدَ فيه، ومَحَلَ بفلانٍ: إذا كادَه وسعَى به إلى السلطان؛ والمعنى: أنه شديدُ المكرِ والكيدِ لأعدائِه، يأتيهم بالهَلَكَةِ من حيث لا يحتسبون.

«١٤» ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أُضِيفت الدعوةُ إلى الحق الذي هو ضدُّ الباطل؛ للدلالة على أن الدعوة ملابِسةٌ للحق، وأنها بمعزلٍ من الباطل؛ والمعنى: أن الله سبحانه يُدعَى فَيَسْتجيبُ الدعوةَ، ويُعطي الداعيَ سُؤلَه، فكانت دعوةً ملابِسةً للحق لكونِه حقيقاً بأنَّه يُوَجَّه إليه الدعاءُ؛ لما في دعوتِه من الجدوى والنفعِ، بخلافِ ما لا ينفع ولا يُجدِي دعاؤُه، واتصالُ (شديد المحال) و(له دعوة الحق) بما قبلَه على قصةِ أَربدَ ظاهرٌ؛ لأن إصابتَه بالصاعقة مِحالٌ من الله ومكرٌ به من حيث لم يشعرْ، وقد دعا رسولُ الله ﷺ عليه وعلى صاحبِه بقوله: «اللهم اخسفهما بما شئت»، فأُجيبَ فيهما، فكانت الدعوة دعوةَ حقٍّ، وعلى الأول: وعيدٌ للكفرة على مجادلتِهم رسولَ الله ﷺ بحلولِ مِحالِه بهم، وإجابةِ دعوةِ رسولِ الله ﷺ فيهم إن دعا عليهم، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: والآلهةُ الذين يدعوهم الكفار ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: من دونِ الله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ من طلباتهم ﴿إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾: استثناءٌ من المصدر؛ أي: من الاستجابة التي دلَّ عليها: (لا يستجيبون)؛ لأن الفعل بحروفِه يدلُّ على المصدر، وبصيغتِه على الزمان، وبالضرورةِ على المكان والحال، فجازَ استثناءُ كلٍّ منها من الفعل، فصار التقديرُ: لا يستجيبون استجابةً إلا استجابةً كاستجابةِ باسطِ كفيه؛ أي: كاستجابةِ الماءِ لمن بسط كفيه إليه يطلبُ منه أن يبلغ

---

(١) روى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣١).

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

فاه، والماءُ جمادٌ لا يشعر ببسطِ كفيه، ولا بعطشِه وحاجتِه إليه، ولا يقدِرُ أن يجيب دعاءَه ويبلغَ فاه، وكذلك ما يدعونه جمادٌ لا يُحِسُّ بدعائهم، ولا يستطيع إجابتَهم، ولا يقدرُ على نفعهم، واللامُ في (ليبلغ): متعلقٌ بـ (باسط كفيه)، ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾: وما الماءُ ببالغ فاه، ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾: في ضياعٍ لا منفعةَ فيه؛ لأنهم إن دَعَوا اللهَ.. لم يجبْهم، وإن دعَوا الأصنامَ.. لم تستطع إجابتَهم.

«١٥» ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سجودَ تعبدٍ وانقيادٍ، ﴿طَوْعًا﴾: حالٌ؛ يعني: الملائكةَ والمؤمنين، ﴿وَكَرْهًا﴾ يعني: المنافقين والكافرين في حالِ الشدةِ والضيقِ، ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾: معطوفٌ على (مَن)، جمعُ ظِلٍّ، ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾: جمعُ غداةٍ، كقُنِيٍّ وقَناةٍ، ﴿وَٱلْآصَالِ﴾: جمعُ أُصُلٍ: جمعُ أَصيلٍ، قيل: ظلُّ كلِّ شيءٍ يسجدُ لله بالغدو والآصال، وظلُّ الكافرِ يسجد طَوعاً وهو كارهٌ، وظلُّ المؤمنِ يسجدُ طوعاً وهو طائعٌ.

«١٦» ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾: حكايةٌ لاعترافِهم؛ لأنه إذا قال لهم: من رب السموات والأرض.. لم يكن لهم بُدٌّ مِن أن يقولوا: اللهُ؛ دليلُه: قراءةُ ابنِ مسعودٍ وأُبيٍّ: ﴿قالوا الله﴾[1]، أو هو تلقينٌ؛ أي: فإن لم يُجيبوا.. فلقنْهم؛ فإنه لا جوابَ إلا هذا، ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾: أبعدَ أن علمتُموه ربَّ السموات والأرض.. اتخذْتم من دونه آلهةً ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾: لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعُوها أو يدفعُوا ضرراً عنها، فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتُموهم على الخالق الرازقِ المثيبِ المعاقِبِ، فما أَبْيَنَ ضلالتَكم! ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الكافرُ والمؤمنُ، أو: من لا يبصرُ شيئاً ومَن لا يخفَى عليه شيءٌ، ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾: مِللُ الكفر والإيمان، ﴿يستوي﴾: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ[2]، ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾: بل أجعلُوا؛ ومعنى الهمزةِ: الإنكارُ، ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾: خلقوا مثلَ خلقِه، وهو صفةٌ لـ(شركاءَ) أي: أنهم لم يتخذوا لله شركاءَ خالقين قد خَلقوا مثلَ خلقِ اللهِ ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾: فاشتبه عليهم مخلوقُ اللهِ بمخلوقِ الشركاءِ حتى يقولوا: قَدَرَ هؤلاء على الخلق كما

---

(١) انظر «تفسير مقاتل بن سليمان» (١/ ٥٥١).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٦٩) وكذا القراءة الآتية.

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ....

قدرَ اللهُ عليه فاستحقُّوا العبادةَ فنتخذُهم له شركاءَ ونعبدُهم كما يُعبدُ، ولكنهم اتخذوا له شركاءَ عاجزين لا يقدِرون على ما يقدِرُ عليه الخلقُ فضلاً أنْ يقدِروا على ما يقدِرُ عليه الخالق، ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: خالقُ الأجسامِ والأعراضِ، لا خالقَ غيرُ الله، ولا يستقيمُ أن يكون له شريكٌ في الخلق، فلا يكونُ له شريكٌ في العبادة، ومن قال: إن الله لم يخلُقْ أفعالَ الخلقِ وهم خلقُوها.. فتشابهَ الخلقُ على قولهم، ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾: المتوَحِّدُ بالربوبية، ﴿ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾: لا يُغالبُ، وما عداه.. مربوبٌ ومقهورٌ.

《١٧》 ﴿أَنزَلَ﴾ أي: الواحدُ القهارُ، وهو الله سبحانه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: من السحابِ ﴿مَآءً﴾: مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾: جمعُ وادٍ، وهو الموضعُ الذي يَسيلُ فيه الماءُ بكثرةٍ، وإنما نُكِّرَ لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبةِ بين البقاعِ، فيسيل بعضُ أودية الأرض دون بعضٍ ﴿بِقَدَرِهَا﴾: بمقدارها الذي عَلِمَ اللهُ أنه نافع للممطور عليهم، غيرُ ضارٍّ، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾ أي: رفعَ ﴿زَبَدًا﴾ هو: ما علا وجهَ الماءِ من الرغوة؛ والمعنى: علاه زَبَدٌ ﴿رَّابِيًا﴾: منتفخاً مرتفعاً على وجه السيل، ﴿وَمِمَّا تُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ وبالياء: كوفيٌّ غيرَ أبي بكر، و(من) لابتداءِ الغاية؛ أي: ومنه ينشأُ زبدٌ مثلُ زبدِ الماءِ، أو: للتبعيض؛ أي: وبعضُه زبدٌ، ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾: حالٌ من الضمير في (عليه) أي: ومما توقدون عليه ثابتاً في النار ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾: مبتغين حليةً، فهو مصدرٌ في موضع الحال من الضمير في (توقدون)، ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ من الحديد والنحاسِ والرصاصِ يُتخذُ منها الأواني وما يُتمتَّعُ به في الحضر والسفر، وهو معطوفٌ على (حليةٍ) أي: زينةٍ من الذهب والفضة، ﴿زَبَدٌ﴾: خَبَثٌ، وهو مبتدأٌ، ﴿مِّثْلُهُۥ﴾: نعتٌ له، و(مما توقدون): خبرٌ له؛ أي: لهذه الفِلِزّاتِ إذا أُغليتْ.. زبدٌ مثلُ زبدِ الماءِ[1]، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: مثلَ الحقِّ والباطلِ، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾: حالٌ؛ أي: متلاشياً، وهو ما تقذِفُه القِدْرُ عند الغَلَيانِ، والبحرُ عند الطغيانِ، والجَفْءُ: الرميُ، وجفوتُ الرجلَ: صرعتُه، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماءِ والحُلِيِّ والأواني ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: فيثبتُ الماءُ في العيون والآبارِ، والحبوبِ والثمارِ، وكذلك الجواهرُ تبقى في الأرض مدةً طويلةً، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ ليُظهرَ الحقَّ من الباطل،

---

(١) الفِلِزُّ: جواهرُ الأرضِ كلِّها.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ ....

قيل: هذا مثلٌ ضربَه الله للحق وأهلِه، والباطلِ وحزبِه، فمَثَّلَ الحقَّ وأهلَه بالماءِ الذي ينزلُ من السماء فتسيلُ به أوديةُ الناسِ فيحيَون به وينفعُهم بأنواعِ المنافعِ، وبالفِلِزِّ الذي ينتفعون به في صَوْغِ الحُلِيِّ منه واتخاذِ الأواني والآلاتِ المختلفاتِ، وأن ذلك ماكثٌ في الأرض باقٍ بقاءً ظاهراً، يثبتُ الماءُ في منافعِه[1]، وكذا الجواهرُ تبقى أزمنةً متطاولةً، وشبَّهَ الباطلَ في سرعةِ اضمحلالِه وَوَشْكِ زوالِه بزبدِ السيلِ الذي يَرمي به، وبزبدِ الفِلِزِّ الذي يطفُو فوقَه إذا أُذيبَ، قال الجمهورُ: وهذا مَثَلٌ ضربَه الله تعالى للقرآن والقلوبِ والحقِّ والباطلِ، فالماءُ: القرآنُ نزلَ لحياةِ الجَنانِ، كالماء للأبدانِ، والأوديةُ: القلوبُ؛ ومعنى (بقدرها): بقدرِ سَعَةِ القلبِ وضيقِه، والزبدُ: هَواجِسُ النفسِ ووساوسُ الشيطانِ، والماءُ الصافي المنتفَعُ به: مَثَلُ الحقِّ، فكما يذهبُ الزبدُ باطلاً ويبقَى صفْوُ الماءِ.. كذلك تذهبُ هواجسُ النفسِ ووساوسُ الشيطانِ، ويبقَى الحقُّ كما هو، وأما حِليةُ الذهبِ والفضةِ.. فمَثَلٌ للأحوال السَّنِيَّةِ، والأخلاقِ الزكيةِ، وأما متاعُ الحديدِ والنحاسِ والرصاصِ.. فمَثَلٌ للأعمال المُمَدَّةِ بالإخلاص، المعدةِ للخَلاص؛ فإن الأعمالَ جالبةٌ للثوابِ دافعةٌ للعقابِ، كما أن تلك الجواهرَ بعضُها أداةُ النفعِ للكسبِ، وبعضُها آلةُ الدفعِ في الحرب، وأما الزبدُ.. فالرياءُ والخللُ والمللُ والكسلُ.

﴿١٨﴾ واللامُ في ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ أي: أجابُوا: متعلقةٌ بـ(يضرب) أي: كذلك يضربُ الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابُوا ﴿لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: وهي صفةٌ لمصدرِ (استجابوا) أي: استجابُوا الاستجابةَ الحسنَى، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: وللكافرين الذين لم يستجيبوا؛ أي: هما مَثَلا الفريقين، وقولُه: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾: كلامٌ مبتدأٌ في ذكرِ ما أُعِدَّ لغير المستجيبين؛ أي: لو ملكُوا أموالَ الدنيا وملكُوا معها مثلَها.. لبذلُوه؛ لِيدفعُوا عن أنفسِهم عذابَ اللهِ، والوجهُ أن الكلام قد تمَّ على (الأمثال)، وما بعدَه كلامٌ مستأنفٌ، و(الحسنى): مبتدأٌ، خبرُه (للذين استجابوا)؛ والمعنَى: لهم المثوبةُ الحسنَى وهي الجنةُ، و(الذين لم يستجيبوا): مبتدأٌ، خبرُه: (لو) مع ما في حيِّزه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾: المناقشةُ فيه، في الحديث: «مَن نُوقشَ الحسابَ.. عُذِّبَ»[2]، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾: ومرجعُهم بعد المحاسبة النارُ، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾: المكانُ الممهَّدُ، والمذمومُ محذوفٌ؛ أي: جهنمُ.

---

(١) في «الكشاف بحاشية الطيبي» (٦/ ٤٩٤): (يثبتُ الماء في منابعِه).

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٦) ومسلم (٢٨٧٦) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)﴾ ....

《١٩》 دخلت همزةُ الإنكارِ على الفاء في ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ لإنكارِ أن تقعَ شبهةٌ بعدَ ما ضُربَ من المثلِ.. في أن حالَ مَن عَلِمَ ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ فاستجاب.. بمعزلٍ من حالِ الجاهلِ الذي لم يَستبصرْ فيستجيبَ، وهو المرادُ بقولِه: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾: كبُعْدِ ما بين الزبدِ والماءِ، والخبثِ والإبريزِ[1]، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩)﴾ أي: الذين عملُوا على قضايا عقولِهم، فنظرُوا واستبصرُوا.

《٢٠》 ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾: مبتدأٌ، والخبرُ: (أولئك لهم عقبى الدار)، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾، وقيل: هو صفةٌ لأولي الألبابِ، والأولُ أوجَهُ، وعهدُ الله ما عَقدُوه على أنفسِهم من الشهادة بربوبيتِه: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

﴿وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠)﴾: ما أوثقُوه على أنفسهم وقبلُوه من الإيمان بالله وغيرِه من المواثيق بينهم وبين الله وبين العبادِ، تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ.

《٢١》 ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ من الأرحام والقراباتِ، ويدخلُ فيه وصلُ قرابةِ رسولِ الله ﷺ، وقرابةِ المؤمنين الثابتةِ بسبب الإيمان: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] بالإحسانِ إليهم على حسبِ الطاقةِ، ونُصرتِهم والذَّبِّ عنهم، والشفقةِ عليهم، وإفشاءِ السلامِ عليهم، وعيادةِ مرضاهم، ومنه مراعاةُ حقِّ الأصحابِ والخدمِ والجيرانِ والرفقاءِ في السفرِ، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: وعيدَه كلَّه، ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)﴾ خصوصاً، فيحاسِبون أنفسَهم قبلَ أن يُحاسَبُوا.

《٢٢》 ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾: مطلقٌ فيما يُصبر عليه من المصائب في النفوس والأموالِ ومشاقِّ التكاليفِ؛ ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ لا ليقالَ: ما أصبرَه وأحملَه للنوازل، وأوقرَه عند الزلازل! ولا لئلا يُعابَ في الجزع، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: داومُوا على إقامتِها، ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: من الحلال وإن كان الحرامُ رزقاً عندنا، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: يتناولُ النوافلَ؛ لأنها في السرِّ أفضلُ، والفرائضَ؛ لأن المجاهرةَ بها أفضلُ؛ نفياً للتهمة، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾: ويدفعون

---

(١) الإبريز: الذهب الخالص.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ....

بالحسن من الكلام ما يَرِدُ عليهم من سَيِّئِ غيرهم، وإذا حُرموا. . أعْطَوا، وإذا ظُلمُوا. . عَفَوا، وإذا قُطِعُوا. . وَصَلُوا، وإذا أذنبوا. . تابُوا، وإذا هَربُوا. . أنابُوا، وإذا رأَوا منكراً. . أمروا بتغييره، فهذه ثمانيةُ أعمالٍ تُشير إلى ثمانيةِ أبوابِ الجنةِ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾: عاقبةُ الدنيا، وهي الجنة؛ لأنها التي أرادَها الله أن تكون عاقبةَ الدنيا ومَرجِعَ أهلِها.

《٢٣》 ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: بدلٌ من ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ﴾ أي: آمن ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ وقرئَ: ﴿صَلُحَ﴾[1]، والفتحُ أفصحُ، و(مَن): في محلِّ الرفع بالعطفِ على الضميرِ في (يدخلونها)، وساغ ذلك وإن لم يُؤَكَّدْ؛ لأن الضميرَ المفعولَ صار فاصلاً، وأجاز الزجاجُ أن يكون مفعولاً معه[2]، ووصفَهم بالصلاح لِيُعْلِمَ أن الأنساب لا تنفعُ بنفسها؛ والمرادُ: أبَوَا كلِّ واحدٍ منهم، فكأنه قيل: من آبائِهم وأمهاتِهم، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ في قدرِ كلِّ يومٍ وليلةٍ ثلاثَ مراتٍ بالهدايا وبشارة الرضا.

《٢٤》 ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾: في موضعِ الحالِ؛ إذ المعنى: قائلين: سلامٌ عليكم، أو: مُسَلِّمين، ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾: متعلقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: هذا بما صبرتم؛ أي: هذا الثواب بسببِ صبرِكم عن الشهوات، أو على أوامرِ الله، أو: بـ(سلام) أي: نسلمُ عليكم ونكرمُكم بصبرِكم، والأول أَوْجَهُ، ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ الجناتُ.

《٢٥》 ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾: من بعدِ ما أَوْثَقُوه به من الاعترافِ والقبولِ، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بالكفرِ والظلم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾: الإبعادُ من الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾: يحتملُ أن يُرادَ سوءُ عاقبةِ الدنيا؛ لأنه في مقابَلةِ عقبى الدار، وأن يُرادَ بالدار جهنمُ، وبسوئِها عذابُها.

《٢٦》 ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: ويُضيِّقُ لمن يشاء؛ والمعنى: الله وحدَه هو يبسطُ الرزقَ ويَقدرُه دون غيره، ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: بما بُسطَ لهم من الدنيا فَرَحَ بَطَرٍ وأَشَرٍ،

---

(١) قراءة شاذة. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٧٩).

(٢) انظر «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٤٧).

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ....﴾

لا فرحَ سرورٍ بفضلِ اللهِ وإنعامِه عليهم، ولم يقابلُوه بالشكر حتى يُؤجرُوا بنعيم الآخرةِ، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ وخفي عليهم أن نعيمَ الدنيا في جنبِ نعيم الآخرةِ ليس إلا شيئاً نَزْراً يُتمتعُ به كعُجالَةِ الراكبِ، وهو: ما يَتَعَجَّلُه من تُميراتٍ أو شَرْبَةِ سويقٍ.

《٢٧》 ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: الآيةُ المقترَحَةُ، ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ باقتراحِ الآياتِ بعد ظهورِ المعجزاتِ، ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾: ويُرشِدُ إلى دينِه من رجع إليه بقلبِه.

《٢٨》 ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: هم الذين، أو: محلُّه النصبُ، بدلٌ مِن (مَن)، ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾: تسكنُ ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ على الدوام، أو: بالقرآنِ، أو: بوعده، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾: بسببِ ذكرِه تطمئنُّ قلوبُ المؤمنين.

《٢٩》 ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: مبتدأٌ، ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾: خبرُه، وهو مصدرٌ مِن: طاب، كبُشرى، ومعنى طوبى لك: أصبتَ خيراً وطِيباً، ومحلُّها النصبُ، أو الرفعُ، كقولك: طِيباً لك، وطِيبٌ لك، وسلاماً لك، وسلامٌ لك، واللامُ في (لهم): للبيان، مثلُها في سقياً لك، والواوُ في (طوبى): منقلبةٌ عن ياءٍ؛ لضمة ما قبلَها، كمُوقِن، والقراءةُ في ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾: مرجع: بالرفع والنصبِ.. تدلُّ على محلَّيها[1].

《٣٠》 ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾: مثلَ ذلك الإرسالِ أرسلناك؛ يعني: أرسلناك إرسالاً له شأنٌ وفضلٌ على سائرِ الإرسالات، ثم فسرَ كيف أرسلَه فقال: ﴿فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي: أرسلناك في أمة قد تقدمتْها أممٌ كثيرةٌ، فهي آخرُ الأمم، وأنت خاتمُ الأنبياء، ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: لتقرأَ عليهم الكتابَ العظيمَ الذي أوحينا إليك ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾: وحال هؤلاء أنهم يكفرون ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾: بالبليغ الرحمةِ الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو ربي الواحدُ المتعالي عن الشركاء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نُصرتي عليكم، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾: مَرجِعي فيُثيبني على مصابرتِكم، ﴿متابي﴾ و﴿عقابي﴾ و﴿مآبي﴾: في الحالين: يعقوبُ[2].

(١) قراءة النصب شاذة. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٧٩).
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٧٠)، و(ص١٧١).

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ....﴾

«٣١» ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن مقارِّها، ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ حتى تتصدعَ وتتزايلَ قطعاً، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فتسمعَ وتجيبَ.. لكان هذا القرآنَ؛ لكونِه غايةً في التذكير، ونهايةً في الإنذار والتخويفِ، فجوابُ (لو): محذوفٌ، أو معناه: ولو أن قرآناً وقعَ به تسييرُ الجبالِ وتقطيعُ الأرضِ وتكليمُ الموتَى وتنبيئُهم.. لما آمنوا به، ولما تنبهُوا عليه، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ...﴾ [الأنعام: ١١١] الآيةَ، ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾: بل لله القدرةُ على كلِّ شيء، وهو قادرٌ على الآيات التي اقترحُوها، ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾: أفلم يعلم، وهي لغة قوم من النَّخَعِ، وقيل: إنما استُعمِلَ اليأسُ بمعنى العلم؛ لتضمنِه معناه؛ لأن اليائس عن الشيء عالمٌ بأنه لا يكونُ، كما استُعملَ النسيانُ في معنى الترك؛ لتضمن ذلك؛ دليلُه: قراءةُ عليٍّ رضي الله عنه: ﴿أفلم يتبين﴾[1]، وقيل: إنما كتبه الكاتبُ وهو ناعسٌ مستويَ السِّنَّاتِ، وهذه - والله - فِرْيَةٌ ما فيها مِريةٌ، ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾ من كفرِهم وسوءِ أعمالِهم ﴿قَارِعَةٌ﴾: داهيةٌ تَقْرَعُهم بما يُحِلُّ اللهُ بهم في كلِّ وقتٍ من صنوفِ البلايا والمصائبِ في نفوسهم وأولادِهم وأموالِهم، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾: أو تَحُلُّ القارعةُ قريباً منهم، فيفزعُون ويتطايرُ إليهم شَرارُها، ويتعدَّى إليهم شُرُورُها، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ أي: موتُهم، أو: القيامةُ، أو: ولا يزالُ كفارُ مكةَ تصيبُهم بما صنعوا برسول الله من العداوةِ والتكذيبِ قارعةٌ؛ لأن جيش رسول الله يُغِيرُ حولَ مكةَ ويختطفُ منهم، أو: تَحُلُّ أنت يا محمدُ قريباً من دارهم بجيشِك يوم الحديبيةِ حتى يأتيَ وعدُ الله؛ أي: فتحُ مكةَ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ أي: لا خُلْفَ في موعده.

«٣٢» ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الإملاءُ: الإمهالُ، وأن يتركَ مَلاوةً من الزمان في خفضٍ وأمنٍ[2]، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ وهذا وعيدٌ لهم، وجوابٌ عن اقتراحهم الآياتِ على رسول الله استهزاءً به، وتسليةٌ له.

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٣/ ٣١٣).
(٢) المَلاوةُ: الحينُ.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ .....﴾

《٣٣》 ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾: احتجاجٌ عليهم في إشراكهم بالله؛ يعني: أفاللهُ الذي هو رقيبٌ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ صالحةٍ أو طالحةٍ ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، يعلمُ خيرَه وشرَّه، ويُعدُّ لكلٍّ جزاءَه، كمن ليس كذلك؟ ثم استأنف فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي: الأصنامَ، ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: سمُّوهم له مَن هم، ونبِّئوه بأسمائِهم، ثم قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: على (أم) المنقطعةِ؛ أي: بل أتنبؤنه بشركاءَ لا يعلمُهم في الأرض، وهو العالم بما في السموات والأرض؟ فإذا لم يعلمْهم.. عُلِمَ أنهم ليسوا بشيءٍ؛ والمرادُ: نفيُ أن يكون له شركاءُ، ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾: بل أتسمونهم شركاءَ بظاهرٍ من القول من غيرِ أن يكون لذلك حقيقةٌ كقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾: كيدُهم للإسلام بشركِهم، ﴿وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: عن سبيلِ الله، بضم الصادِ: كوفيٌّ، وبفتحِها: غيرُهم[1]؛ ومعناه: وصَدُّوا المسلمين عن سبيل الله، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾: من أحدٍ يقدرُ على هدايته.

《٣٤》 ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتلِ والأسرِ وأنواعِ المحنِ، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾: أشدُّ؛ لدوامِه، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾: من حافظٍ من عذابه.

《٣٥》 ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: صفتُها التي هي في غرابةِ المثلِ، وارتفاعُه بالابتداء، والخبرُ محذوفٌ؛ أي: فيما يتلى عليكم مثلُ الجنةِ، أو الخبرُ: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كما تقول: صفةُ زيدٍ أسمرُ، ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾: ثمرُها دائمُ الوجودِ، لا ينقطع، ﴿وَظِلُّهَا﴾ دائمٌ، لا يُنسَخ كما يُنسَخُ في الدنيا بالشمس، ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ أي: الجنةُ الموصوفةُ عُقبى تقواهم؛ يعني: منتهى أمرهم، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧١) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ ....

《٣٦》 ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريدُ مَن أسلمَ من اليهود كابنِ سلامٍ ونحوِه، ومِن النصارى بأرضِ الحبشةِ، ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: ومن أحزابِهم، وهم كَفَرتُهم الذين تحَزَّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوةِ، ككعبِ بنِ الأشرفِ وأصحابه، والسَّيِّدِ والعاقبِ وأشياعِهما ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيصَ وبعضَ الأحكامِ والمعاني مما هو ثابت في كتبِهم، وكانوا ينكرون نبوةَ محمدٍ عليه الصلاة والسلام وغيرَ ذلك مما حرَّفُوه وبدلُوه من الشرائع، ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾: هو جوابٌ للمنكرين؛ أي: قل: إنما أمرت فيما أُنزلَ إليَّ بأن أعبدَ اللهَ ولا أشركَ به، فإنكارُهم له إنكارٌ لعبادةِ الله وتوحيدِه، فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائِكم وجوبَ عبادةِ الله، وألا يُشركَ به، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ خصوصاً، لا أدعُو إلى غيرِه، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيرِه ﴿مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾: مرجعِي، وأنتم تقولون مثلَ ذلك، فلا معنى لإنكارِكم.

《٣٧》 ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾: ومثلَ ذلك الإنزالِ أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيدِه والدعوةِ إليه وإلى دِينِه، والإنذارِ بدارِ الجزاءِ، ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾: حكمةً عربيةً مترجمةً بلسان العرب، وانتصابُه على الحال، كانوا يدعون رسولَ اللهِ ﷺ إلى أمورٍ يشاركُهم فيها فقيل: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: بعدَ ثبوت العلم بالحِجَج القاطعةِ، والبراهينِ الساطعةِ، ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي: لا ينصرُك ناصرٌ، ولا يَقيك منه واقٍ، وهذا من باب التهييجِ والبعثِ للسامعين على الثبات في الدين، وأن لا يَزِلَّ زالٌّ عند الشبهةِ بعدَ استمساكِه بالحجةِ، وإلا.. فكان رسولُ الله ﷺ من شدةِ الثباتِ بمكانٍ.

《٣٨》 وكانوا يعيبونه بالزواج والولادةِ، ويقترحون عليه الآياتِ، ويُنكرون النسخَ فنزلَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾: نســـــاءً وأولاداً، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ليس في وُسْعِهِ إتيانُ الآياتِ على ما يقترحه قومُه، وإنما ذلك إلى الله، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾: لكلِّ وقتٍ حكمٌ يُكتبُ على العباد؛ أي: يُفرضُ عليهم على ما تقتضيه حكمتُه.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ ....

《٣٩》 ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾: ينسخُ ما يشاء نسخه، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بدلَه ما يشاءُ، أو: يتركُه غيرَ منسوخ، أو: يمحو من ديوانِ الحفظةِ ما يشاءُ ويُثبتُ غيرَه، أو: يمحُو كفرَ التائبين ويثبتُ إيمانَهم، أو: يميتُ مَن حان أجلُه وعكسُه، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ وحمزةُ وعليٌّ، ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: أصلُ كلِّ كتابٍ، وهو اللوحُ المحفوظُ؛ لأن كل كائنٍ مكتوبٌ فيه.

《٤٠》 ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: وكيفما دارت الحالُ؛ أريناك مصارعَهم وما وعدناهم من إنزالِ العذابِ عليهم، أو توفيناك قبلَ ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾: فما يجبُ عليك إلا تبليغُ الرسالةِ فحسبُ، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾: وعلينا حسابُهم وجزاؤهم على أعمالهم لا عليك، فلا يُهِمَّنَّك إعراضُهم، ولا تستعجل بعذابِهم.

《٤١》 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾: أرضَ الكفرةِ ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتحُ على المسلمين من بلادِهم، فننقِصُ دارَ الحربِ ونَزيدُ في دار الإسلام، وذلك من آياتِ النصرةِ والغلبةِ؛ والمعنى: عليك بالبلاغ الذي حُمِّلْتَه، ولا تَهْتَمَّ بما وراء ذلك، فنحن نَكفيكه، ونُتِمُّ ما وعدناك من الظَّفَرِ، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾: لا رادَّ لحكمِه، والمعقِّبُ الذي يَكِرُّ على الشيءِ فيُبطلُه، وحقيقتُه: الذي يُعقِّبُه؛ أي: يُقفِّيه بالردِّ والإبطال، ومنه قيل لصاحبِ الحقِّ: مُعَقِّبٌ؛ لأنه يُقفِّي غريمَه بالاقتضاءِ والطلبِ؛ والمعنى: أنه حكمَ للإسلام بالغلبةِ والإقبالِ، وعلى الكفرِ بالإدبارِ والانتكاسِ، ومحلُّ (لا معقب لحكمه): النصبُ على الحال، كأنه قيل: والله يحكمُ نافذاً حكمُه، كما تقول: جاءني زيدٌ لا عمامةَ على رأسِه ولا قَلَنْسُوَةَ له؛ تريدُ: حاسراً، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ فعمّا قليلٍ يحاسبُهم في الآخرةِ بعدَ عذابِ الدنيا.

《٤٢》 ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كفارُ الأممِ الخاليةِ بأنبيائِهم، والمكرُ: إرادةُ المكروهِ في خفيةٍ، ثم جَعلَ مكرَهم كَلَا مكرٍ بالإضافةِ إلى مَكْرِه فقال: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ ثم فسرَ ذلك بقولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ يعني: العاقبةَ المحمودةَ؛ لأن من علمَ ما تكسبُ كلُّ نفسٍ وأعدَّ لها جزاءَها.. فهو المكرُ كله؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم في غفلةٍ مما يُرادُ بهم، ﴿الكافر﴾ على إرادةِ الجنسِ: حجازيٌّ وأبو عمرٍو.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

《٤٣》 ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلٗاۚ﴾ المرادُ بهم: كعبُ بنُ الأشرفِ ورؤساءُ اليهودِ، قالوا: لست مرسلاً؛ لهذا قال عطاءٌ: هي مكيةٌ إلا هذه الآيةَ، ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ لِما أظهرَ من الأدلةِ على رسالتي، والباءُ دخلت على الفاعلِ، و(شهيداً): تمييزٌ، ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ قيل: هو اللهُ عزَّ وجلَّ، والكتابُ: اللوحُ المحفوظُ؛ دليلُه: قراءةُ من قرأ: ﴿ومِنْ عندِه علمُ الكتابِ﴾[1] أي: ومِن لدنه علمُ الكتابِ؛ لأن عِلْمَ مَن عَلِمَه مِن فضلِه ولطفِه، وقيل: ومَن هو من علماءِ أهلِ الكتابِ الذين أسلمُوا؛ لأنهم يشهدون بنعتِه في كتبِهم، وقال ابنُ سلامٍ: فيَّ نزلت هذه الآيةُ، وقيل: هو جبريلُ عليه السلام، و(مَنْ): في موضع الجرِّ بالعطف على لفظِ (الله)، أو: في موضعِ الرفعِ بالعطفِ على محلِّ الجارِّ والمجرورِ؛ إذ التقديرُ: كفى اللهُ، و(علمُ الكتابِ): يرتفعُ بالمقدرِ في الظرفِ فيكونُ فاعلاً؛ لأن الظرفَ صلةٌ لـ(مَنْ)، و(مَن) هنا بمعنى: الذي، والتقديرُ: من ثبت عنده علمُ الكتابِ؛ وهذا لأن الظرف إذا وقع صلةً يعملُ عملَ الفعلِ، نحو: مررت بالذي في الدارِ أخوه. فأخوه: فاعلٌ، كما تقول: بالذي استقر في الدار أخوه، وفي القراءةِ بكسرِ ميمِ (مِن): يرتفعُ العِلْمُ بالابتداءِ.



(١) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٣٤٠)، وهي قراءة شاذة.

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾ ....

سورة إبراهيم عليه السلام

اثنتان وخمسون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ هو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هذا كتابٌ؛ يعني: السورةَ، والجملةُ التي هي ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾: في موضعِ الرفعِ صفةٌ للنكرة، ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائِك إياهم ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: من الضلالةِ إلى الهدى ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾: بتيسيرِه وتسهيلِه، مستعارٌ من الإذن الذي هو تسهيلٌ للحجابِ، وذلك ما يمنحهم من التوفيق[1]، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾: بدلٌ من النورِ بتكريرِ العاملِ، ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: الغالبِ بالانتقام، ﴿ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾: المحمودِ على الإنعام.

《٢》 ﴿اللهُ﴾ بالرفع: مدنيٌّ وشاميٌّ؛ على: هو اللهُ، وبالجرِّ: غيرُهما[2]؛ على أنه عطفُ بيانٍ لـ(العزيزِ الحميدِ)، ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ خلقاً وملكاً، ولما ذكر الخارجين من ظلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمانِ.. توعَّدَ الكافرين بالويلِ، وهو نقيضُ الوَأْلِ، وهو النجاةُ، وهو اسمُ معنىً كالهلاك، فقال: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢﴾ وهو مبتدأٌ وخبرٌ وصفةٌ[3].

《٣》 ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ﴾: يختارون ويؤثرون ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دينِه، ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾: يطلبون لسبيلِ اللهِ زَيغاً واعوجاجاً، والأصلُ: ويبغون لها، فحذف الجارُّ، وأُوْصِلَ الفعلُ، (الذين): مبتدأٌ، خبرُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾ عن الحقِّ، ووصفُ الضلالِ بالبعد.. من الإسناد المجازيِّ، والبعدُ في الحقيقةِ للضالِّ؛ لأنه هو الذي

---

(١) أي: الإذن مجاز مرسل من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم؛ فحقيقة الإذن رفع الحجاب، ويلزمه التيسير والتسهيل. انظر «الإكليل» (٤/٤٢٦).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧١).

(٣) أي: (من عذاب) صفة لـ (ويل).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٦﴾ ....

يتباعدُ عن طريق الحق، فوصف به فعلُه، كما تقول: جَدَّ جِدُّه، أو: مجرورٌ صفةٌ لـ(الكافرين)، أو: منصوبٌ على الذم، أو: مرفوعٌ على: أعني الذين، أو: هم الذين.

《٤》 ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾: إلا متكلماً بلغتِهم، ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ ما هو مبعوثٌ به وله، فلا يكون لهم حجةٌ على الله، ولا يقولون: لم نفهم ما خُوطبْنا به، فإن قلت: إن رسولَنا ﷺ بُعث إلى الناس جميعاً بقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، بل إلى الثقلين، وهم على ألسنةٍ مختلفةٍ، فإن لم تكن للعرب حجةٌ.. فلغيرِهم الحجةُ، قلت: لا يخلو: إما أن ينزلَ بجميع الألسنةِ، أو بواحدٍ منها، فلا حاجةَ إلى نزوله بجميعِ الألسنةِ؛ لأن الترجمةَ تنوب عن ذلك وتكفي التطويلَ، فتعيَّنَ أن ينزلَ بلسانٍ واحدٍ، وكان لسانُ قومِه أولى بالتعيين؛ لأنهم أقربُ إليه، ولأنه أبعدُ من التحريف والتبديلِ، ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾: مَن آثر سببَ الضلالةِ، ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾: من آثر سببَ الهداية، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فلا يُغالبُ على مشيئتِه، ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾ فلا يَخذُلُ إلا أهلَ الخِذلانِ.

《٥》 ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التسع ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾: بأن أخرجْ، أو: أي أخرجْ[1]؛ لأن الإرسالَ فيه معنى القول، كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له: أخرج قومك ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾: وأنذرْهم بوقائعِه التي وقعت على الأمم قبلَهم قوم نوح وعادٍ وثمودَ، ومنه أيامُ العرب: لحروبِها وملاحمِها، أو: بأيام الإنعام، حيث ظللَ عليهم الغمامَ، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى، وفلقَ لهم البحر، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ على البلايا، ﴿شَكُورٖ ۝٥﴾ على العطايا، كأنه قال: لكلِّ مؤمنٍ؛ إذ الإيمانُ نصفان: نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ.

《٦》 ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ (إذ): ظرفٌ للنعمة؛ بمعنى: الإنعام؛ أي: إنعامَه عليكم ذلك الوقتَ، أو: بدلُ اشتمالٍ من (نعمةَ الله) أي: اذكروا وقتَ إنجائِكم، ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ ذكرَ في (البقرة):

---

(١) يعني: (أن) مصدرية أو تفسيرية.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ....

﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة: ٤٩]، وفي (الأعراف): ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤١] بلا واوٍ، وهنا مع الواو، والحاصلُ: أن التذبيح حيث طُرِحَ الواوُ جُعِلَ تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبتَ الواوُ جُعِلَ التذبيحُ من حيث إنه زادَ على جنس العذاب كأنه جنسٌ آخرُ، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ الإشارةُ إلى العذاب، والبلاءُ: المحنةُ، أو: إلى الإنجاءِ، والبلاءُ: النعمةُ ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

《٧》 ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: آذنَ، ونظيرُ تأذَّنَ وآذنَ: توعَّدَ وأوعدَ، ولا بدَّ في (تفعل) مِن زيادةِ معنىً ليس في (أفعل)، كأنه قيل: وإذْ آذن ربُّكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوكُ والشبهُ، وهو من جملةِ ما قال موسى لقومِه، وانتصابُه للعطفِ على (نعمةَ الله عليكم)، كأنه قيل: وإذْ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذنَ ربُّكم؛ والمعنى: وإذ تأذن ربُّكم فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيلَ ما خوَّلتكم من نعمةِ الإنجاءِ وغيرِها ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمةً إلى نعمةٍ، فالشكرُ قيدُ الموجودِ، وصيدُ المفقودِ، وقيل: إذا سمعتِ النعمةُ نَغْمَةَ الشكرِ.. تأهَّبت للمزيد، وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: لئن شكرتم بالجِدِّ في الطاعةِ.. لأزيدنكم بالجِدِّ في المثوبةِ، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ما أنعمتُ به عليكم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ لمن كفرَ نعمتي، أمّا في الدنيا.. فسلبُ النعمِ، وأما في العقبى فتوالي النقمِ.

《٨》 ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيلَ، ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: والناسُ كلُّهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكرِكم، ﴿حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ وإن لم يحمَدْه الحامدون، وأنتم ضَرَرْتُم أنفسَكم حيث حرمتُموها الخيرَ الذي لا بدَّ لكم منه.

《٩》 ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾: من كلام موسى لقومِه، أو: ابتداءُ خطابٍ لأهلِ عصرِ محمدٍ عليه السلام، ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: جملةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ وقعت اعتراضاً، أو: عُطفَ (الذين من بعدهم) على (قومِ نوحٍ)، و(لا يعلمهم إلا الله): اعتراضٌ؛ والمعنى: أنهم من الكثرةِ بحيث لا يعلمُ عددَهم إلا الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: بين عدنانَ وإسماعيلَ ثلاثون أباً لا يُعرفون، وروي أنه عليه السلام

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ ....

قال عند نزول هذه الآية: «كذَبَ النسابون»[(١)]، ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالمعجزاتِ، ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الضميرانِ يعودانِ إلى الكفرةِ؛ أي: أخذُوا أناملَهم بأسنانِهم تعجباً، أو: عضُّوا عليها تغيُّظاً، أو: الثاني يعودُ إلى الأنبياء؛ أي: ردَّ القومُ أيديَهم في أفواهِ الرسلِ كيلا يتكلموا بما أُرسلُوا به، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله والتوحيد ﴿مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾: موقعٍ في الريبةِ.

《١٠》 ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أُدخلت همزةُ الإنكارِ على الظرف؛ لأن الكلام ليس في الشكِّ، إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتملُ الشكَّ؛ لظهور الأدلةِ، وهو جوابُ قولِهم: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ إذا آمنتُم، ولم تجيءْ مع (مِنْ) إلا في خطاب الكافرين، كقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣ ـ ٤]، ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ [الصف: ١٠] إلى أن قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢]، وغيرِ ذلك مما يُعرف بالاستقراء، وكأن ذلك للتفرقةِ بين الخطابين، ولئلا يُسويَ بين الفريقين في الميعادِ[(٢)]، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى وقتٍ قد سماه وبيَّنَ مِقدارَه، ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: القومُ: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا فضلَ بيننا وبينَكم، ولا فضلَ لكم علينا، فلِمَ تُخصُّون بالنبوة دوننا؟ ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ يعني: الأصنامَ، ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾: بحجةٍ بينةٍ، وقد جاءتهم رسلُهم بالبينات، وإنما أرادوا بالسلطان المبين آيةً قد اقترحوها تعنتاً ولَجاجاً[(٣)].

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥٣٠) عن ابن مسعودٍ أنه كان يقرؤها: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إلا اللهُ﴾ ثم يقول: كذب النسابون. وروى ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٥٦) عن ابن عباس: أن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا انتسب.. لم يجاوز في نسبه معدَّ بنَ عدنانَ بنَ أُدَدَ، ثم يمسكُ ويقول: «كذب النسابون، قال الله عز وجل: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]».

(٢) أي: ليس ذكرُ مغفرةِ بعضِ الذنوب؛ للدلالةِ على أن بعضاً آخر لا يُغفر؛ فإنه من قبيل دلالةِ مفهوم اللقبِ ولا اعتدادَ به، ثم إن للتخصيص فائدةً أخرى وهي التفرقة بين الخطابين، بالتصريح بمغفرةِ الكلِّ، وإبقاءِ البعضِ في حقِّ الكفرة مسكوتاً عنه؛ لئلا يتكلوا على الإيمان. انظر «تفسير الآلوسي» (٧/ ١٨٦).

(٣) التعنت: إدخال المشقة والأذى على الغير، واللَّجاج: التمادي في العنادِ في تعاطي الفعلِ المنهيِّ عنه.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ....

《١١》 ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: تسليمٌ لقولهم: إنهم بشرٌ مثلُهم، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالإيمانِ والنبوةِ كما منَّ علينا، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: جوابٌ لقولهم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ والمعنى: أن الإتيانَ بالآيةِ التي قد اقترحتموها ليس إلينا، ولا في استطاعتِنا، وإنما هو أمرٌ يتعلق بمشيئةِ اللهِ تعالى، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾: أمرٌ منهم للمؤمنين كافةً بالتوكلِ، وقصدُوا به أنفسَهم قصداً أوّليّاً، كأنهم قالوا: ومِن حقنا أن نتوكلَ على الله في الصبرِ على معاندتِكم ومعاداتِكم وإيذائِكم، ألا ترى إلى قولِه:

《١٢》 ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ معناه: وأيُّ عذرٍ لنا في ألا نتوكلَ عليه ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾: وقد فعلَ بنا ما يُوجبُ توكلَنا عليه، وهو التوفيقُ لهدايةِ كلٍّ منا سبيلَه الذي يجبُ عليه سلوكُه في الدين، قال أبو ترابٍ: التوكلُ: طرحُ البدنِ في العبوديةِ، وتعلقُ القلبِ بالربوبيةِ، والشكرُ عند العطاء، والصبرُ عند البلاء، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾: جوابُ قسم مضمرٍ؛ أي: حلفُوا على الصبرِ على أذاهم، وألا يُمسكُوا عن دعائِهم، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: فليثبت المتوكلون على توكلهم؛ حتى لا يكونَ تكراراً.

《١٣》 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ ﴿سبْلنا﴾ ﴿لرسْلهم﴾: أبو عمروٍ[1]، ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا﴾: من ديارِنا، ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي: ليكوننَّ أحدُ الأمرين: إخراجُكم أو عودُكم، وحلفوا على ذلك، والعودُ بمعنى: الصيرورةِ، وهو كثيرٌ في كلام العرب، أو: خاطبوا به كلَّ رسولٍ ومَن آمن معه، فغَلَّبُوا في الخطاب الجماعةَ على الواحدِ، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ القولُ مضمرٌ، أو أُجري الإيحاءُ مُجرَى القولِ؛ لأنه ضربٌ منه.

《١٤》 ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: أرضَ الظالمين وديارَهم، في الحديثِ: «من

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٢).

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ ...

آذى جاره.. ورثّه اللهُ داره»[1]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإهلاكُ والإسكانُ؛ أي: ذلك الأمرُ حقٌّ، ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾: موقفِي، وهو موقفُ الحسابِ، أو: المقامُ مُقحمٌ[2]، أو: خاف قيامي عليه بالعلم، كقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] والمعنى: أن ذلك حقٌّ للمتقين، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾: عذابي، وبالياء: يعقوبُ[3].

《١٥》 ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾: واستنصرُوا اللهَ على أعدائهم، وهو معطوفٌ على ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾: وخسرَ كلُّ متكبرٍ بَطِرٍ، ﴿عَنِيدٍ ۝١٥﴾: مجانبٍ للحقِّ؛ معناه: فنُصِروا وظَفِروا وأفلحُوا وخاب كلُّ جبارٍ عنيدٍ، وهم قومُهم، وقيل: الضميرُ للكفارِ؛ ومعناه: واستفتحَ الكفارُ على الرسل ظنّاً منهم بأنهم على الحقِّ، والرسلُ على الباطلِ، وخاب كلُّ جبارٍ عنيدٍ منهم ولم يفلحْ باستفتاحِه.

《١٦》 ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾: من بينِ يديه ﴿جَهَنَّمُ﴾ وهذا وصفُ حالِه وهو في الدنيا؛ لأنه مُرصدٌ لجهنمَ، فكأنها بين يديه وهو على شفيرِها، أو وصفُ حالِه في الآخرةِ حيث يُبْعَثُ ويُوْقَفُ، ﴿وَيُسْقَىٰ﴾: معطوفٌ على محذوفٍ تقديرُه: من ورائه جهنمُ يَلقَى فيها ما يلقَى، ويُسقَى ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦﴾: ما يسيلُ من جلودِ أهلِ النارِ، و(صديد): عطفُ بيانٍ لـ(ماءٍ)؛ لأنه مبهمٌ، فبُيِّنَ بقوله: (صديد).

《١٧》 ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾: يشربُه جَرعةً جَرعةً، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾: ولا يُقاربُ أن يُسيغَه، فكيف تكونُ الإساغة؟ كقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠] أي: لم يَقرُبْ من رؤيتِها فكيف يراها؟ ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: أسبابُ الموتِ من كلِّ جهةٍ، أو من كلِّ مكانٍ من جسدِه، وهذا تَفظيعٌ لما يُصيبُه من الآلام؛ أي: لو كان ثمةَ موتٌ.. لكان كلُّ واحدٍ منها مُهلكاً، ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ لأنه لو مات.. لاستراح، ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾: ومن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ أي: في كلِّ وقتٍ يستقبلُه.. يتلقَّى عذاباً أشدَّ مما قبلَه وأغلظَ، وعن الفضيل: هو قَطْعُ الأنفاسِ وحبسُها في الأجساد.

---

(١) لم أجده.

(٢) أي: الأصل: خافني، وكلمة (مقام) مزيدة؛ وهذا القول ضعيف؛ إذ الأسماء لا تزاد.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٢) وكذا القراءة الآتية.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾ ....

《١٨》 ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ؛ أي: فيما يُتلى عليكم مثلُ الذين ﴿كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ والمثلُ مستعارٌ للصفةِ التي فيها غَرابةٌ، وقولُه: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾: جملةٌ مستأنفةٌ على تقدير سؤالِ سائلٍ يقولُ: كيف مثلُهم؟ فقيل: أعمالُهم كرمادٍ ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ ﴿الرياح﴾: مدنيٌّ، ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ جُعِلَ العصفُ لليوم، وهو لما فيه وهو الريح، كقولك: يومٌ ماطرٌ، وأعمالُ الكفرةِ: المكارمُ التي كانت لهم؛ مِن صلة الأرحام، وعتقِ الرقاب، وفداءِ الأسرى، وعقرِ الإبلِ للأضيافِ، وغيرِ ذلك، شبَّهَها في حُبوطِها لبنائِها على غيرِ أساسٍ وهو الإيمانُ بالله تعالى.. برمادٍ طيَّرته الريحُ العاصفُ، ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يومَ القيامةِ ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من أعمالِهم ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: لا يَرون له أثراً من ثوابٍ، كما لا يُقْدَرُ من الرماد المطيَّرِ في الريح على شيءٍ، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨﴾: إشارةٌ إلى بُعْدِ ضلالِهم عن طريقِ الحقِّ، أو عن الثواب.

《١٩》 ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تعلم، الخطابُ لكلِّ أحد، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿خالقُ﴾ مضافاً: حمزةُ وعليٌّ، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالحكمةِ والأمرِ العظيم، ولم يخلقْها عبثاً، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩﴾ أي: هو قادرٌ على أن يُعدِمَ الناسَ ويَخْلُقَ مكانَهم خلقاً آخرَ على شكلِهم، أو على خلافِ شكلِهم؛ إعلاماً بأنه قادر على إعدامِ الموجودِ وإيجادِ المعدوم.

《٢٠》 ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾: بمتعذِّرٍ.

《٢١》 ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: ويبرُزون يومَ القيامةِ، وإنما جيءَ به بلفظِ الماضي؛ لأن ما أخبرَ به عزَّ وعَلا لِصدقِه كأنه قد كان وَوُجِد، ونحوُه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وغيرُ ذلك؛ ومعنى بُروزِهم لله واللهُ تعالى لا يَتوارى عنه شيءٌ حتى يَبرز له: أنهم كانوا يَستتِرون من العيون عند ارتكابِ الفواحشِ، ويظُنُّون أن ذلك خافٍ على الله، فإذا كان يومُ القيامةِ.. انكشفُوا لله عند أنفسِهم، وعلمُوا أن الله لا تخفى عليه خافيةٌ، أو: خرجُوا من قبورِهم فبرزُوا لحساب الله وحكمِه، ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ في الرأيِ وهم السَّفَلَةُ

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ ....

والأتباعُ، وكُتِبَ بواوٍ قبلَ الهمزةِ على لفظ مَن يُفَخِّمُ الألفَ قبلَ الهمزةِ فيُمِيلُها إلى الواو[1]، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا﴾ وهم: السادةُ والرؤساءُ الذين استغوَوْهُم وصدُّوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعِهم، ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾: تابعين، جُمِعَ (تابعٌ) على تَبَع، كخادم وخَدَم، وغائِب وغَيَب، أو: ذوي تبعٍ، والتَّبَعُ: الاتِّباعُ، يقال: تَبِعَهُ تَبعاً، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾: فهل تَقدِرون على دفعِ شيءٍ مما نحن فيه؟ و(مِن) الأولى: للتبين، والثانيةُ: للتبعيض، كأنه قيل: فهل أنتم مُغنون عنا بعضَ الشيءِ الذي هو عذابُ الله؟ أو هما: للتبعيض؛ أي: فهل أنتم مُغنون عنا بعضَ شيءٍ هو بعضُ عذابِ اللهِ؟ أي: بعضَ بعضِ عذابِ الله، ولما كان قولُ الضعفاءِ توبيخاً لهم وعِتاباً على استغوائِهم؛ لأنهم علمُوا أنهم لا يَقدِرُون على الإغناء عنهم ﴿قَالُوا﴾ لهم مُجيبين مُعتذِرين: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ أي: لو هدانا الله إلى الإيمان في الدنيا.. لهديناكم إليه؛ أي: لو هدانا اللهُ طريقَ النجاةِ من العذاب.. لهديناكم؛ أي: لأَغْنَينا عنكم وسَلَكْنا بكم طريقَ النجاةِ كما سَلَكْنا بكم سبيلَ الهَلَكَةِ، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾: مُستويان علينا الجزعُ والصبرُ، والهمزةُ و(أم): للتسويةِ، وروي: أنهم يقولون في النار: تعالَوا نجزعْ فيَجزَعُون خمسَ مئةِ عامٍ فلا ينفعُهم الجزعُ، فيقولون: تعالَوا نصبرْ فيصبِرُون خمسَ مئةِ عامٍ، فلا ينفعُهم الصبرُ، ثم يقولون: (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا)، واتصالُه بما قبله من حيث إن عتابَهم لهم كان جزعاً مما هم فيه، فقالوا لهم: (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) يريدون أنفسَهم وإياهم؛ لاجتماعهم في عقابِ الضلالةِ التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجزعُ والتوبيخُ ولا فائدةَ في الجزع كما لا فائدةَ في الصبرِ، ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾: مَنْجىً ومهربٍ جزعنا أم صبرنا، ويجوز أن يكون هذا من كلام الضعفاءِ والمستكبرين جميعاً.

《٢٢》 ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: حُكِمَ بالجنة والنار لأَهْلَيهما وفُرِغَ من الحساب ودَخَل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، وروي: أن الشيطانَ يقومُ عند ذلك خطيباً على مِنبرٍ من نارٍ فيقول يا أهل النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو البعثُ والجزاءُ على الأعمالِ، فوفَّى لكم بما وعدَكم، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ بأنْ لا بعثَ ولا حسابَ ولا جزاءَ ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ

(١) رُدَّ بأنه ليس من لغة العرب، ولا حاجة للتوجيه بذلك؛ لأن الرسم سنةٌ متبعةٌ. انظر «تفسير الآلوسي» (٧/ ١٩٤).

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ ....

عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾: من تَسلُّطٍ واقتِدارٍ ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾: لكني دعوتُكم إلى الضلالةِ بِوَسْوَسَتي وتَزْيِيْني، والاستثناءُ منقطعٌ؛ لأن الدعاءَ ليس من جنسِ السلطانِ، ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾: فأسرعتُم إجابتي، ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ لأن من تجرد للعداوة.. لا يُلامُ إذا دعا إلى أمرٍ قبيحٍ، مع أن الرحمن قد قال لكم: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ حيث اتبعتموني بلا حجةٍ وبرهانٍ، وقولُ المعتزلةِ: هذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختارُ الشقاوةَ أو السعادةَ ويُحصِّلُها لنفسه وليس من الله إلا التمكينُ، ولا من الشيطان إلا التزيينُ.. باطلٌ؛ لقوله: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٢١] أي: إلى الايمان ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١]، كما مرَّ، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾: لا يُنجِي بعضُنا بعضاً من عذاب الله ولا يُغيثُه، والإصراخُ: الإغاثةُ، ﴿بمصرخيِّ﴾: حمزةُ؛ إتباعاً للخاء، غيرُه: بفتحِ الياءِ[1]؛ لئلا تجتمع الكسرةُ والياءانِ بعدَ كسرتين، وهو جمع مُصْرِخٍ، فالياءُ الأولى ياءُ الجمعِ، والثانيةُ ضميرُ المتكلمِ، ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ وبالياءِ: بَصريٌّ، و(ما): مصدريةٌ، ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلِّقٌ بـ(أشركتموني) أي: كفرت اليوم بإشراكِكم إياي مع الله من قبلِ هذا اليومِ؛ أي: في الدنيا، كقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]؛ ومعنى كُفْرِه بإشراكِهم إياه: تبرُّؤُه منه واستنكارُه له، كقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤]، أو: (من قبل): متعلقٌ بـ(كفرت)، و(ما): موصولةٌ؛ أي: كفرت من قبلُ حين أَبَيْتُ السجودَ لآدمَ بالذي أشركتُمُونِيه وهو الله عزَّ وجلَّ، تقول: أشركني فلانٌ؛ أي: جعلني له شريكاً؛ ومعنى إشراكِهم الشيطانَ بالله طاعتُهم له فيما كان يزينُه لهم من عبادة الأوثان، وهذا آخرُ قولِ الشيطانِ، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ، وقيل: هو من تمامِ كلامِ إبليسَ، وإنما حكى اللهُ عزَّ وجلَّ ما سيقولُه في ذلك الوقتِ ليكون لُطفاً للسامعين.

《٢٣》 ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: عطفٌ على (برزوا)، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: متعلقٌ بـ(أُدخلَ) أي: أدخلتهم الملائكةُ الجنةَ بإذن الله وأمرِه، ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ هو تسليمُ بعضِهم على بعضٍ في الجنة، أو: تسليمُ الملائكةِ عليهم.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٣) وكذا القراءة الآتية.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ ....

《٢٤》 ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: وصفه وبيَّنه ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: نصبٌ بمضمرٍ؛ أي: جعلَ كلمةً طيبةً ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو تفسيرٌ لقوله: (ضرب الله مثلاً) نحو: شرَّفَ الأميرُ زيداً؛ كساه حُلَّةً وحَمَلَه على فرسٍ، أو: انتصب (مثلاً) و(كلمة) بـ(ضرب) أي: ضرب كلمةً طيبةً مثلاً؛ يعني: جعلَها مثلاً، ثم قال: كشجرةٍ طيبةٍ؛ على أنها خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هي كشجرة طيبة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: في الأرض ضاربٌ بعروقِه فيها، ﴿وَفَرْعُهَا﴾: وأعلاها ورأسُها ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، والكلمةُ الطيبةُ: كلمةُ التوحيدِ، أصلُها: تصديقٌ بالجَنان، وفرعُها: إقرارٌ باللسان، وأُكُلُها: عملُ الأركان، وكما أن الشجرةَ شجرةٌ وإن لم تكن حاملاً.. فالمؤمنُ مؤمنٌ وإن لم يكن عاملاً، ولكن الأشجارَ لا تُرادُ إلا للثمار، فما أقواتُ النارِ إلا من الأشجار إذا اعتادت الإخفارَ في عهد الإثمارِ، والشجرةُ: كلُّ شجرةٍ مثمرةٍ طيبةِ الثمارِ كالنخلة وشجرة التِّين ونحوِ ذلك، والجمهورُ على أنها النخلةُ، فعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال ذاتَ يومٍ: «إن الله تعالى ضرب مثلَ المؤمنِ شجرةً، فأخبروني ما هي؟» فوقع الناسُ في شجر البوادي، وكنت صبيّاً فوقع في قلبي أنها النخلةُ، فَهِبْتُ رسولَ الله ﷺ أن أقولَها وأنا أصغرُ القومِ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا إنها النخلةُ» فقال عمر: يا بُني لو كنتَ قلتَها.. لكانت أحبَّ إليَّ مِن حُمْرِ النَّعَمِ[1].

《٢٥》 ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾: تعطي ثمرَها كلَّ وقتٍ وقَّته اللهُ لإثمارِها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: بتيسيرِ خالقِها وتكوينِه، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لأن في ضرب الأمثال زيادةَ إفهامٍ وتذكيرٍ وتصويرٍ للمعاني.

《٢٦》 ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي: كلمةُ الكفر ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي: كلُّ شجرةٍ لا يطيبُ ثمرُها، وفي الحديث: أنها شجرةُ الحنظلِ[2]، ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾: استُؤْصِلت جُثَّتُها، وحقيقةُ الاجتثاثِ: أخذُ الجُثَّةِ كلِّها، وهو في مقابلةِ: أصلُها ثابتٌ، ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: استقرارٍ، يقال: قرَّ الشيءُ قراراً، كقولك: ثَبَتَ ثباتاً، شُبِّهَ بها القولُ الذي لم يُعْضَدْ بحجةٍ فهو داحضٌ غيرُ ثابتٍ.

---

(١) رواه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١) بنحوه.

(٢) رواه الترمذي (٣١١٩) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ....﴾

《٢٧》 ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يُديمُهم عليه ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ هو: قولُ لا إله إلا الله محمد رسول الله، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حتى إذا فُتنوا في دينهم.. لم يَزِلُّوا، كما ثَبَتَ الذين فتنَهم أصحابُ الأخدود وغيرُ ذلك، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الجمهورُ على أن المراد به في القبر بتلقين الجوابِ وتمكين الصوابِ؛ فعن البراء: أن رسول الله ﷺ ذكرَ قبضَ روحِ المؤمنِ فقال: «ثم تُعادُ روحُه في جسده فيأتيه ملكان فيُجلسانِه في قبره فيقولان له: من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونَبيي محمدٌ ﷺ، فينادي منادٍ من السماء أنْ صَدَقَ عبدي، فذلك قولُه: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) ثم يقول الملكان: عِشتَ سعيداً ومِتَّ حميداً نَمْ نومةَ العَروس»[1]، ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فلا يثبتُهم على القول الثابتِ في مواقفِ الفتنِ، وتَزِلُّ أقدامُهم أولَ شيءٍ، وهم في الآخرةُ أضلُّ وأزلُّ، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ فلا اعتراضَ عليه في تثبيتِ المؤمنين وإضلالِ الظالمين.

《٢٨》 ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: شكرَ نعمةِ اللهِ ﴿كُفْرًا﴾ لأن شكرَها الذي وجب عليهم وضعُوا مكانه كفراً، فكأنهم غيَّرُوا الشكر إلى الكفرِ، وبدَّلوه تبديلاً، وهم أهل مكةَ، أكرمهم بنبيه محمدٍ عليه السلام فكفرُوا نعمةَ اللهِ بدلَ ما لزمَهم من الشكر، ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الذين تابعُوهم على الكفر ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾: دارَ الهلاكِ.

《٢٩》 ﴿جَهَنَّمَ﴾: عطفُ بيانٍ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: يدخلونها، ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾: وبئس المقرُّ جهنمُ.

《٣٠》 ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾: أمثالاً في العبادةِ أو في التسميةِ ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وبفتحِ الياءِ: مكيٌّ وأبو عمرو[2]، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ في الدنيا، والمرادُ به الخذلانُ والتخليةُ، قال ذو النون: التمتعُ: أن يقضيَ العبدُ ما استطاع من شهوتِه، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾: مرجعُكم إليها.

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٥٣) بنحوه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٣).

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ....﴾

«٣١» ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خصَّهم بالإضافة إليه تشريفاً، وبسكون الياءِ: شاميٌّ وحمزةُ وعليٌّ[١]، والأعشى، ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ المقولُ محذوفٌ؛ لأن (قُلْ) تقتضي مقولاً، وهو: أقيموا، وتقديره: قل لهم: أقيموا الصلاة وأنفقوا.. يُقيموا الصلاة وينفقوا، وقيل: إنه أمرٌ، وهو المقول، والتقديرُ: لِيقيموا ولِينفقوا، فحذف اللامُ لدلالةِ (قل) عليه، ولو قيل: (يقيموا الصلاة وينفقوا) ابتداءً بحذف اللام.. لم يَجُزْ، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: انتصبا على الحالِ؛ أي: ذوي سرٍّ وعلانيةٍ؛ يعني: مُسرِّين ومُعلِنين، أو: على الظرف؛ أي: وَقْتَيْ سرٍّ وعلانيةٍ، أو: على المصدر؛ أي: إنفاقَ سرٍّ وإنفاقَ علانيةٍ؛ والمعنى: إخفاءُ التطوعِ وإعلانُ الواجبِ، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ أي: لا انتفاعَ فيه بمبايعةٍ ولا مُخالّةٍ، والخِلالُ: المُخَالَّةُ، وإنما يُنتفعُ فيه بالإنفاق لوجهِ اللهِ، بفتحهما: مكيٌّ وبصريٌّ، والباقون: بالرفعِ والتنوينِ.

«٣٢» ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأٌ، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: خبرُه، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: من السحاب مطراً، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ (من الثمرات): بيانٌ للرزقِ؛ أي: أخرج به رزقاً هو ثمراتٌ، أو: (من الثمرات): مفعولُ (أخرج)، و(رزقاً): حالٌ من المفعول ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾.

«٣٣» ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾: دائمين، وهو حالٌ من الشمسِ والقمرِ؛ أي: يَدْأبان في سيرِهما وإنارتِهما ودرئِهما الظلماتِ وإصلاحِهما ما يُصْلِحانِ من الأرض والأبدانِ والنباتِ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خِلْفَةً لمعاشكم وسُباتِكم[٢].

«٣٤» ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ (مِن): للتبعيض؛ أي: آتاكم بعضَ جميعِ ما سألتموه، أو: وآتاكم من كلِّ شيءٍ سألتُموه وما لم تسألوه، فـ(ما): موصوفةٌ، والجملةُ صفةٌ لها،

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ١٧٤) وكذا القراءة الآتية.

(٢) السُّباتُ: النومُ وأصلُه الراحةُ.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ....

وحذفت الجملةُ الثانيةُ؛ لأن الباقيَ يدلُّ على المحذوف، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، ﴿مِن كلٍّ﴾ عن أبي عمروٍ[1]، و(ما سألتموه): نفيٌ، ومحلُّه: النصبُ على الحال؛ أي: آتاكم من جميعِ ذلك غيرَ سائليه، أو: (ما): موصولةٌ؛ أي: وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه، فكأنكم سألتُموه أو طلبتُموه بلسانِ الحالِ، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾: لا تُطيقُوا عدَّها وبلوغَ آخرِها، هذا إذا أرادُوا أن يَعُدُّوها على الإجمال، وأما التفصيلُ.. فلا يعلمُه إلا الله، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ يظلمُ النعمةَ بإغفالِ شكرِها، ﴿كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾: شديدُ الكُفْرانِ لها، أو: ظلومٌ في الشدة يشكو ويجزعُ، كفّارٌ في النعمة يجمعُ ويمنعُ، والإنسانُ للجنسِ، فيتناول الإخبارُ بالظلمِ والكفرانِ مَن يوجدان منه.

《٣٥》 ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾: واذكر إذْ قال إبراهيمُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي: البلدَ الحرامَ ﴿ءَامِنًا﴾: ذا أمنٍ، والفرقُ بين هذه وبين ما في (البقرة)[2]: أنه قد سأل فيها أن يَجعلَه من جملة البلدانِ التي يأمنُ أهلُها، وفي الثاني: أن يُخرجَه من صفةِ الخوفِ إلى الأمنِ، كأنه قال: هو بلدٌ مخوفٌ فاجعله آمنا، ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾: وبَعِّدْني؛ أي: ثبتني وأَدِمْني على اجتنابِ عبادتِها، كما قال: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] أي: ثبتْنا على الإسلام، ﴿وَبَنِىَّ﴾ أرادَ: بَنِيه مِن صُلبِه ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾: مِن أن نعبدَ.

《٣٦》 ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ جُعِلْنَ مُضِلّاتٍ على طريقِ التَّسبيبِ؛ لأن الناس ضلُّوا بسببهنَّ، فكأنهن أضلَلْنَهم، ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ على مِلَّتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: هو بعضِي؛ لِفَرْطِ اختصاصِه بي، ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ فيما دونَ الشركِ ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾، أو: ومن عصاني عصيانَ شركٍ.. فإنك غفورٌ رحيمٌ إن تاب وآمن.

《٣٧》 ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾: بعضَ أولادي، وهم إسماعيلُ ومَن وُلِدَ منه، ﴿بِوَادٍ﴾: هو وادي مكةَ، ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾: لا يكونُ فيه شيءٌ من زرعٍ قطُّ، ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾

---

(١) قراءة شاذة نقلها في «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٣٤٣) عن الحسن والأعمش.

(٢) ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ ....

هو: بيتُ اللهِ؛ سُمِّيَ به لأن الله تعالى حَرَّمَ التعرضَ له والتهاونَ به، وجعلَ ما حوله حَرَماً لمكانه، أو: لأنه لم يزل مُمَنَّعاً يهابُه كلُّ جبارٍ، أو: لأنه محترمٌ عظيمُ الحرمةِ لا يحلُّ انتهاكُها، أو: لأنه حُرِّمَ على الطُّوفانِ؛ أي: مُنِعَ منه، كما سُمِيَ عتيقاً؛ لأنه أُعتق منه، ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللامُ: متعلقةٌ بـ(أسكنتُ) أي: ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقعِ إلا ليقيموا الصلاةَ عند بيتك المحرمِ ويَعمُروه بذكرك وعبادتك[(١)]، ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: أفئدةً من أفئدةِ الناسِ، و(من): للتبعيض؛ لما روي عن مجاهدٍ: لو قال: أفئدةَ الناسِ.. لزاحمتْكم عليه فارسُ والرومُ والتُّركُ والهندُ، أو: للابتداءِ، كقولك: القلبُ مني سقيمٌ؛ تريد: قلبي، فكأنه قيل: أفئدةَ ناسٍ، ونكرتُ المضافَ إليه في هذا التمثيلِ؛ لتنكيرِ (أفئدة) لأنها في الآية نكرةٌ؛ ليتناولَ بعضَ الأفئدةِ[(٢)]، ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾: تسرعُ إليهم وتطيرُ نحوَهم شوقاً، ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مع سكناهم وادياً ما فيه شيءٌ منها؛ بأن تُجْلَبَ إليهم من البلاد الشاسعةِ، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ النعمةَ في أن يُرزقُوا أنواعَ الثمراتِ في وادٍ ليس فيه شجرٌ ولا ماءٌ.

《٣٨》 ﴿رَبَّنَآ﴾ النداءُ المكرَّرُ دليلُ التضرعِ واللجإِ إلى الله، ﴿إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾: تعلمُ السرَّ كما تعلمُ العَلَنَ، ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾: من كلامِ الله عزَّ وجلَّ تصديقاً لإبراهيمَ عليه السلام، أو: من كلام إبراهيمَ، و(مِن): للاستغراقِ، كأنه قيل: وما يخفى على الله شيءٌ ما.

《٣٩》 ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ (على) بمعنى: مع، وهو في موضع الحال؛ أي: وهب لي وأنا كبيرٌ ﴿إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ رويَ: أن إسماعيلَ وُلِدَ له وهو ابن تسعٍ وتسعين سنةً، وولد له إسحقُ وهو ابن مئةٍ وثنتي عشرةَ سنةً، وروي: أنه وُلِدَ له إسماعيلُ لأربعٍ وستين، وإسحقُ لتسعين، وإنما ذكرَ حالَ الكبرِ لأن المنةَ بهبةِ الولدِ فيها أعظمُ؛ لأنها حالُ وقوعِ اليأسِ من الولادةِ، والظفرُ بالحاجةِ على عقبِ اليأسِ من أجلِّ النعم، ولأن الولادة في تلك السنِّ العاليةِ كانت آيةً لإبراهيمَ، ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾: مجيبُ الدعاءِ؛ من قولك: سمع الملكُ

---

(١) البلقعُ: الأرضُ الخالية التي لا شيءَ بها.

(٢) أي: لم يقل: أفئدةَ الناسِ؛ لئلا يتعرف بالإضافة فيستغرق جميع الأفئدة؛ إذ هو في الآية نكرةٌ غيرُ مستغرقٍ.

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٤٢﴾ ....

كلامَ فلانٍ: إذا تَلَقّاه بالإجابة والقبولِ، ومنه: «سمع الله لمن حمده»[1]، وكان قد دعا ربه وسأله الولدَ فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] فشكر لله ما أكرمه به من إجابتِه، وإضافةُ السميعِ إلى الدعاءِ من إضافةِ الصفةِ إلى مفعولِها، وأصلُه: لسميعٌ الدعاءَ، وقد ذكر سيبويهِ (فعيلاً) في جملةِ أبنيةِ المبالغةِ العاملةِ عملَ الفعلِ[2]، كقولك: هذا رحيمٌ أباه.

《٤٠》 ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾: وبعضَ ذريتي: عطفاً على المنصوب في (اجعلني)، وإنما بَعَّضَ؛ لأنه علمَ بإعلامِ اللهِ أنه يكون في ذريته كفارٌ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يزال من ولدِ إبراهيمَ ناسٌ على الفطرة إلى أن تقوم الساعة. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآئِي﴾: بالياء في الوصل والوقفِ: مكيٌّ، وافقه أبو عمرٍو وحمزةُ في الوصلِ، الباقون: بلا ياءٍ[3]؛ أي: استجبْ دعائي، أو عبادتي، ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

《٤١》 ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ أي: آدمَ وحواءَ، أو: قاله قبل النهي واليأسِ عن إيمانِ أبويه، ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾ أي: يَثْبُتُ، أو: أُسنِدَ إلى الحساب قيامُ أهلِه إسناداً مجازيّاً، مثلُ: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

《٤٢》 ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾: تسليةٌ للمظلوم وتهديدٌ للظالم، والخطابُ لغير الرسول عليه السلام، وإن كان للرسول.. فالمراد تثبيتُه عليه السلام على ما كان عليه من أنه لا يَحْسَبُ اللهَ غافلاً، كقولِه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٨٧ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ [القصص: ٨٧- ٨٨]، وكما جاء في الأمرِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقيل: المرادُ به: الإيذانُ بأنه عالمٌ بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيءٌ، وأنه معاقبُهم على قليله وكثيره على سبيلِ الوعيدِ والتهديدِ، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ﴾ أي: عقوبتَهم، ﴿لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٤٢﴾ أي: أبصارُهم لا تَقَرُّ في أماكنها من هولِ ما ترى.

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٧٩٦)، ومسلم (٤٠٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «الكتاب» لسيبويه (١/ ١١٠).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٤).

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ ....

《٤٣》 ﴿مُهْطِعِينَ﴾: مسرعين إلى الداعي، ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: رافعيها، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾: لا يرجعُ إليهم نظرُهم فينظروا إلى أنفسهم، ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾: صِفْرٌ من الخير لا تَعِي شيئاً من الخوف، والهواءُ: الخلاءُ الذي لم تَشغلْه الأجرامُ، فوُصِفَ به، فقيل: قلبُ فلانٍ هواءٌ: إذا كان جباناً لا قوةَ في قلبِه ولا جراءةَ، وقيل: جُوفٌ لا عقولَ لهم.

《٤٤》 ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي: يومَ القيامةِ، و(يومَ): مفعولٌ ثانٍ لـ(أنذر)، لا ظرفٌ؛ إذ الإنذارُ لا يكون في ذلك اليوم، ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: الكفارُ: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ أي: رُدَّنا إلى الدنيا وأمهلْنا إلى أمدٍ وحدٍّ من الزمان قريب نتداركْ ما فرَّطنا فيه من إجابةِ دعوتِك واتباعِ رسلِك، فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: حلفْتم في الدنيا أنكم إذا متم.. لا تُزالُون عن تلك الحالةِ ولا تنتقلون إلى دارٍ أخرى؛ يعني: كفرتم بالبعثِ كقولِه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، و(ما لكم): جوابُ القسم، وإنما جاء بلفظِ الخطابِ لقولِه: (أقسمتم)، ولو حُكِيَ لفظُ المقسِمين.. لقيل: ما لنا من زوال، أو: أريدَ باليوم يومُ هلاكِهم بالعذاب العاجلِ، أو يومُ موتِهم معذَّبين بشدةِ السكراتِ ولقاءِ الملائكةِ بلا بُشرى؛ وأنهم يَسألون يومئذٍ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب.

《٤٥》 يقال: سكن الدارَ وسكن فيها، ومنه: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر؛ لأن السكنى: من السكون، وهو اللبثُ، والأصلُ تعديتُه بـ(في)، نحو: قَرَّ في الدار وأقام فيها، ولكنه لما نُقلَ إلى سكونٍ خاصٍّ تُصُرِّفَ فيه فقيل: سكن الدار، كما قيل: تبوأها، ويجوز أن يكون (سكنُوا) من السكون؛ أي: قَرُّوا فيها واطمأنُّوا طَيِّبِيْ النفوسِ، سائرين سيرةَ مَن قبلَهم في الظلم والفسادِ، لا يُحدِّثُونها بما لقي الأولون من أيام الله، وكيف كان عاقبةُ ظلمِهم فيعتبرُوا ويرتدِعوا، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بالأخبارِ أو المشاهدةِ، وفاعلُ (تبين): مضمرٌ دلَّ عليه الكلامُ؛ أي: تبين لكم حالُهم، و﴿كَيْفَ﴾: ليس بفاعلٍ؛ لأن الاستفهامَ لا يعملُ فيه ما قبلَه، وإنما نصبَ (كيف) بقوله: ﴿فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي: أهلكناهم وانتقمْنا منهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: صفاتِ ما فعلوا وما فُعلَ بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبةِ لكلِّ ظالمٍ.

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ....

《٤٦》 ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أي: مكرَهم العظيمَ الذي استفرغُوا فيه جهدَهم، وهو ما فعلوه من تأييد الكفرِ وبطلانِ الإسلامِ، ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾: وهو مضافٌ إلى الفاعل كالأول؛ والمعنى: ومكتوبٌ عند الله مكرُهم، فهو مُجازيهم عليه بمكرٍ هو أعظم منه، أو: إلى المفعول؛ أي: وعند الله مكرُهم الذي يمكرهم به وهو عذابُهم الذي يأتيهم من حيث لا يشعرون، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾: بكسرِ اللامِ الأولى ونصبِ الثانيةِ، والتقدير: وإن وقع مكرُهم لزوالِ أمرِ النبيِّ ﷺ، فعبَّرَ عن أمر النبي عليه السلام بالجبال لعظم شأنِه، و(كان): تامةٌ، أو: (إن): نافيةٌ واللامُ مؤكدةٌ لها، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]؛ والمعنى: ومحالٌ أن تزولَ الجبالُ بمكرهم، على أن الجبالَ مثلٌ لآيات الله وشرائعِه؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسيةِ ثباتاً وتمكناً؛ دليله: قراءةُ ابنِ مسعودٍ: ﴿وما كان مكرُهم﴾[١]، وبفتح اللامِ الأولى ورفعِ الثانيةِ: عليٌّ[٢]؛ أي: وإن كان مكرُهم من الشدة بحيث تزولُ منه الجبال وتَنقلعُ عن أماكنها، فـ(إن): مخففةٌ من (إنَّ)، واللامُ مؤكدةٌ.

《٤٧》 ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ يعني: قولَه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، (مخلفَ): مفعولٌ ثانٍ لـ(تحسبن)، وأضاف (مخلف) إلى (وعده)، وهو المفعول الثاني له، والأولُ: (رسلَه)، والتقديرُ: مخلفَ رسلِه وعدَه، وإنما قُدِّمَ المفعولُ الثاني على الأول؛ ليعلمَ أنه لا يُخلفُ الوعدَ أصلاً، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، ثم قال: (رسلَه) ليؤذنَ أنه إذا لم يخلفْ وعدَه أحداً. . فكيف يخلفُه رسلَه الذين هم خيرتُه وصفوتُه؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: غالبٌ لا يُماكَرُ، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ لأوليائه من أعدائه.

《٤٨》 وانتصابُ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ على الظرفِ للانتقام، أو: على إضمار (اذكر)؛ والمعنى: يوم تبدل هذه الأرضُ التي تعرفونها أرضاً أخرى غيرَ هذه المعروفةِ، وتُبدل السمواتُ غيرَ السمواتِ، وإنما حذف لدلالةِ ما قبله عليه، والتبديلُ: التغييرُ، وقد يكون

---

(١) انظر «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٩).
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٤).

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾

في الذواتِ كقولك: بدلتُ الدراهمَ دنانيرَ. وفي الأوصاف كقولك: بدَّلتُ الحَلْقَةَ خاتَماً: إذا أذبتَها وسوَّيتها خاتماً فنقلتَها من شكل إلى شكلٍ. واختُلفَ في تبديلِ الأرضِ والسمواتِ، فقيل: تبدلُ أوصافُها، وتُسير عن الأرض جبالُها، وتفجرُ بحارُها، وتُسوَّى فلا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمتاً، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي تلك الأرضُ، وإنما تُغيَّرُ، وتُبدلُ السماءُ بانتثارِ كواكبِها، وكسوفِ شمسِها، وخسوفِ قمرِها، وانشقاقِها، وكونِها أبواباً، وقيل: تُخلقُ بدلَها أرضٌ وسمواتٌ أُخرُ، وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه: يُحشرُ الناسُ على أرضٍ بيضاءَ لم يُخطئ عليها أحدٌ خطيئةً، وعن عليٍّ رضي الله عنه: تبدلُ أرضاً من فضةٍ، وسمواتٍ من ذهبٍ، ﴿وَبَرَزُوا﴾: وخرجُوا من قبورِهم، ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾: هو كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] لأن المُلْكَ إذا كان لواحدٍ غلّابٍ لا يُغالبُ، فلا مستغاثَ لأحدٍ إلى غيره.. كان الأمرُ في غايةِ الشدةِ.

《٤٩》 ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: الكافرين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يومَ القيامةِ ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: قُرِنَ بعضُهم مع بعضٍ، أو مع الشياطين، أو قرنت أيديهم إلى أرجلِهم مُغَلَّلِينَ ﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾: متعلقٌ بـ(مقرنين) أي: يُقرَنون في الأصفاد، أو: غيرُ متعلقٍ به؛ والمعنى: مقرنين مصفَّدين، والأصفادُ: القيودُ أو الأغلالُ.

《٥٠》 ﴿سَرَابِيلُهُم﴾: قُمُصُهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ هو: ما يَتَحلَّبُ من شجرٍ يُسمّى الأَبْهلَ، فيطبخُ فتُهنأُ به الإبل الجَرْبَى[١]، فيحرقُ الجربَ بحدتِه وحرِّه، ومن شأنه أن يُسْرِعَ فيه اشتعالُ النارِ، وهو أسودُ اللون منتنُ الريح، فيُطلَى به جلودُ أهلِ النارِ حتى يعود طلاؤُه لهم كالسرابيل؛ ليجتمعَ عليهم لَذْعُ القطرانِ، وحُرْقَتُه، وإسراعُ النار في جلودِهم، واللونُ الوحشُ، ونتنُ الريح، على أن التفاوت بين القَطِرانينِ كالتفاوت بين النارينِ، وكلُّ ما وعده اللهُ، أو أوعدَ به في الآخرة.. فبينَه وبين ما يُشاهَدُ من جنسِه ما لا يُقادرُ قدرُه، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي، والمسمياتُ ثمةَ، نعوذُ بالله من سخطِه وعذابِه، ﴿مِن قِطْرٍ آنٍ﴾: زيدٌ عن يعقوبَ[٢]: نحاسٌ مذابٌ، بلغَ حرُّه أناه[٣]، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾: تعلُوها باشتعالِها، وخُصَّ الوجهُ؛ لأنه أعزُّ موضعٍ في ظاهر البدن، كالقلب في باطنه، ولذا قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٧].

---

(١) تُهنأُ: تُطلَى.
(٢) انظر «تفسير الثعلبي» (٥/ ٣٢٩).
(٣) أناه: نهايته.

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

《٥١》 ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: يفعلُ بالمجرمين ما يفعلُ؛ ليجزي كلَّ نفسٍ مجرمةٍ ما كسبت، أو كلَّ نفسٍ مجرمةٍ أو مطيعةٍ؛ لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم.. عُلِمَ أنه يثيب المؤمنين بطاعتهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾: يحاسبُ جميعَ العبادِ في أسرعَ من لمحِ البصرِ.

《٥٢》 ﴿هَٰذَا﴾ أي: ما وصفه في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ [إبراهيم: ٤٢] إلى قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١]، ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾: كفايةٌ في التذكيرِ والموعظةِ، ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾: بهذا البلاغ، وهو معطوف على محذوفٍ؛ أي: لينصحوا ولينذروا، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ لأنهم إذا خافُوا ما أُنذروا به.. دعتْهم المخافةُ إلى النظر حتى يتوصلُوا إلى التوحيد؛ لأن الخشية أمُّ الخيرِ كلِّه، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾: ذوو العقولِ.



﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ ....

سورة الحجر

تسع وتسعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾ (تلك): إشارةٌ إلى ما تضمنته السورةُ من الآياتِ، والكتابُ والقرآنُ المبينُ: السورةُ، وتنكيرُ القرآنِ للتفخيم؛ والمعنى: تلك آياتُ الكتابِ الكاملِ في كونه كتاباً، وأيِّ قرآنٍ مبينٍ، كأنه قيل: الكتابُ الجامعُ للكمال وللغرابة في البيان.

《٢》 ﴿رُّبَمَا﴾ بالتخفيفِ: مدنيٌّ وعاصمٌ، وبالتشديدِ: غيرُهما[١]، و(ما) هي الكافةُ؛ لأنها حرفٌ يجرُّ ما بعده، ويختصُّ بالاسم النكرة، فإذا كُفَّتْ.. وقع بعدها الفعلُ الماضي والاسم، وإنما جاز: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لأن المترقَّبَ في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحقيقِه، فكأنه قيل: ربما وَدَّ، وَوَدادَتُهم تكون عند النَّزْعِ، أو يومَ القيامةِ إذا عاينوا حالَهم وحالَ المسلمين، أو إذا رأَوا المسلمين يخرجون من النار، فيتمنى الكافرُ لو كان مسلماً، كذا عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما[٢]، ﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾: حكايةُ وَدَادتِهم، وإنما جيءَ بها على لفظ الغَيبةِ؛ لأنهم مخبَرٌ عنهم، كقولك: حلف بالله ليفعلنَّ، ولو قيل: حلف لأفعلنَّ، ولو كنَّا مسلمين.. لكان حسناً، وإنما قَلَّلَ بـ(ربَّ) لأن أهوال القيامةِ تشغلُهم عن التمني، فإذا أفاقوا من سكرات العذابِ.. ودُّوا لو كانوا مسلمين، وقولُ مَن قال: إن (ربَّ) يُعنَى بها الكثرةُ.. سهوٌ؛ لأنه ضدُّ ما يعرفه أهلُ اللغة؛ لأنها وضعت للتقليل[٣].

《٣》 ﴿ذَرۡهُمۡ﴾: أمرُ إهانةٍ؛ أي: اقطع طمعَكَ من ارعوائِهم، ودعْهم عن النهي عمّا هم عليه بالتذكرة والنصيحة وخلِّهم ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بدنياهم، ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾: ويشغلُهم أملُهم وأمانيُّهم عن الإيمان، ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ سوءَ صنيعِهم، وفيه تنبيهٌ على أن إيثارَ التلذذِ والتنعمِ وما يؤدِّي إليه طولُ الأملِ ليس من أخلاقِ المؤمنين.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٦٢).

(٣) ذكر ابن هشام في «مغني اللبيب» (ص ١٨٠) أنها ترد للتكثير كثيراً، وللتقليل قليلاً.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧﴾ ....

«٤» ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤﴾ (ولها كتاب): جملةٌ واقعةٌ صفةً لـ(قرية)، والقياسُ ألا يتوسطَ الواوُ بينهما، كما في ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، وإنما توسطت لتأكيدِ لُصوقِ الصفةِ بالموصوفِ؛ إذ الصفةُ ملتصقةٌ بالموصوفِ بلا واوٍ، فجيءَ بالواو تأكيداً لذلك، والوجهُ أن تكون هذه الجملةُ حالاً لـ(قرية)؛ لكونها في حكم الموصوفةِ، كأنه قيل: وما أهلكنا قرية من القرى؛ لا وصفاً[١]، وقولُه: (كتاب معلوم) أي: مكتوبٌ معلومٌ، وهو أجلُها الذي كتب في اللوحِ المحفوظِ وبُيِّنَ؛ ألا ترى إلى قوله:

«٥» ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾: في موضعِ كتابِها ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾ أي: عنه، وحُذِفَ لأنه معلومٌ، وأَنَّثَ الأمةَ أوّلاً ثم ذكَّرها آخراً؛ حملاً على اللفظ والمعنى.

«٦» ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: الكفارُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ أي: القرآنُ ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ يعنون: محمداً عليه السلام، وكان هذا النداءُ منهم على وجهِ الاستهزاءِ، كما قال فرعونُ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء: ٢٧]، وكيف يُقِرُّون بنزولِ الذكرِ عليه وينسبونه إلى الجنونِ؟ والتعكيسُ في كلامهم للاستهزاء والتهكم شائعٌ[٢]، ومنه: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]؛ والمعنى: إنك لتقولُ قولَ المجانين حيث تدعي أن الله نزل عليك الذكرَ.

«٧» ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧﴾ (لو) رُكبت مع (لا) و(ما)؛ لامتناع الشيءِ لوجودِ غيرِه، أو للتحضيض، و(هل) ركبت مع (لا)؛ للتحضيض فحسبُ، والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقِكَ، أو: هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبِنا لك إن كنت صادقاً.

---

(١) المسوغ لمجيء الحال من (قرية) تقدمُ النفي، وامتناعُ الوصفية؛ إذ الحال متى امتنع كونها صفةً.. جاز مجيئها من النكرة، والمانعُ من الصفة اقترانُ الجملة بـ: إلا؛ إذ لا يجوز التفريغ في الصفات، واقترانُها بالواو. انظر «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» (ص ٤٧٧).

(٢) التَّهَكُّمُ: إخراجُ الكلام على ضدِّ مقتضى الحال استهزاءً بالمخاطب. انظر «الطراز لأسرار البلاغة» (٣/ ٩١).

مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾

«٨» ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ﴾: كوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ، ﴿تُنَزَّلُ الملائكةُ﴾: أبو بكرٍ، ﴿تَنَزَّلُ الملائكةُ﴾ أي: تَتَنَزَّلُ: غيرُهم[1]، ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾: إلا تنزيلاً ملتبساً بالحكمةِ، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ (إذاً): جوابُ لهم، وجزاءٌ لشرطٍ مقدرٍ، تقديره: ولو نزلنا الملائكة.. ما كانوا منظرين إذاً، وما أُخِّرَ عذابُهم.

«٩» ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾: القرآنَ، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾: للقرآن ﴿لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾: وهو ردٌّ لإنكارهم واستهزائهم في قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ [الحجر: ٦]، ولذلك قال: (إنا نحن) فأَكَّدَ عليهم أنه هو المنزلُ على القطعِ، وأنه هو الذي نزله محفوظاً من الشياطين، وهو حافظُه في كل وقتٍ من الزيادةِ والنقصانِ، والتحريف والتبديل، بخلاف الكتب المتقدمةِ؛ فإنه لم يتولَّ حفظَها، وإنما استحفظَها الربانيين والأحبارَ فاختلفُوا فيما بينهم بغياً، فوقع التحريفُ، ولم يَكِلِ القرآنَ إلى غير حفظِه، وقد جعلَ قوله: (وإنا له لحافظون) دليلاً على أنه منزلٌ من عنده آيةً؛ إذ لو كان من قول البشر، أو غيرَ آيةٍ.. لَتَطَرَّقَ عليه الزيادةُ والنقصانُ، كما يتطرقُ على كلِّ كلامٍ سواه، أو الضميرُ في (له): لرسول الله ﷺ، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

«١٠» ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً في الفِرَقِ الأولين، والشيعةُ: الفِرقةُ إذا اتفقوا على مذهبٍ وطريقةٍ.

«١١» ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم﴾: حكايةُ حالٍ ماضيةٍ؛ لأن (ما) لا تدخلُ على مضارع إلا وهو في معنى الحال، ولا على ماضٍ إلا وهو قريبٌ من الحال، ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾﴾: يُعزِّي نبيَّه عليه السلام.

«١٢» ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي: كما سلكنا الكفرَ أو الاستهزاءَ في شيع الأولين.. نسلكُه؛ أي: الكفرَ أو الاستهزاءَ في قلوب المجرمين من أمتك مَن اختار ذلك، يقال: سلكتُ الخيطَ في الإبرةِ، وأسلكتُه: إذا أدخلتَه فيها، وهو حجة على المعتزلة في الأصلحِ، وخلقِ الأفعالِ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٥) وكذا القراءة الآتية.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ....﴾

《١٣》 ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: باللهِ، أو بالذكرِ، وهو حالٌ، ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾: مضت طريقتُهم التي سنَّها اللهُ في إهلاكِهم حين كَذَّبوا رسلَه، وهو وعيدٌ لأهل مكةَ على تكذيبهم.

《١٤》 ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: ولو أظهرْنا لهم أوضحَ آيةٍ، وهو فتحُ بابٍ من السماء ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾: يصعدُون.

《١٥》 ﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾: حُيِّرَتْ، أو: حُبست من الإبصار؛ مِن السُّكْرِ، أو من السَّكْرِ، ﴿سُكِرَتْ﴾: مكيٌّ؛ أي: حُبِست كما يُحبس النهرُ من الجَرْيِ؛ والمعنى: أن هؤلاء المشركين بلغ من غُلُوِّهم في العناد أن لو فتحَ لهم بابٌ من أبواب السماء ويُسِّرَ لهم معراجٌ يصعدون فيه إليها ورأَوا من العِيان ما رأَوا.. لقالوا: هو شيء نتخايلُه لا حقيقةَ له، ولقالُوا: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾: قد سحرَنا محمدٌ بذلك، أو: الضميرُ للملائكة؛ أي: لو أريناهم الملائكةَ يصعدون في السماء عِياناً.. لقالوا ذلك، وذكَرَ الظُّلولَ؛ ليجعل عروجَهم بالنهار؛ ليكونوا مستوضحين لما يرون، وقال: (إنما)؛ ليدلَّ على أنهم يَبُتُّونَ القولَ بأن ذلك ليس إلا تسكيراً للأبصار.

《١٦》 ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: خلقنا فيها ﴿بُرُوجًا﴾: نُجوماً، أو: قصوراً فيها الحرسُ، أو: منازلَ للنجوم، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي: السماءَ ﴿لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾.

《١٧》 ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾: السماءَ ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾: ملعونٍ، أو: مرميٍّ بالنجوم.

《١٨》 ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: المسموعَ، و(مَن): في محلِّ النصبِ على الاستثناء، ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾: نَجْمٌ ينقضُّ فيعودُ، ﴿مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾: ظاهرٌ للمبصرين، قيل: كانوا لا يُحجبون عن السموات كلِّها، فلما ولد عيسى عليه السلام.. مُنعوا من ثلاثِ سمواتٍ، فلما ولد محمدٌ ﷺ.. مُنعوا من السموات كلِّها.

《١٩》 ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾: بسطناها من تحتِ الكعبةِ، والجمهورُ على أنه تعالى مدَّها على وجه الماءِ، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾: في الأرض جبالاً ثوابتَ، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾: وُزِنَ بميزان الحكمةِ، وقدر بمقدارٍ تقتضيه، لا تصلحُ فيه زيادةٌ ولا نقصانٌ، أو: له وزنٌ وقدرٌ

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ٢١ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ ....

في أبواب المنفعةِ والنعمةِ، أو: ما يوزنُ كالزعفرانِ والذهبِ والفضةِ والنحاسِ والحديدِ وغيرِها، وخصَّ ما يُوْزَنُ؛ لانتهاءِ الكيلِ إلى الوزنِ.

《٢٠》 ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾: في الأرض ﴿مَعَايِشَ﴾: ما يُعاشُ به من المطاعم، جمعُ مَعيشةٍ، وهي بياء صريحةٍ، بخلاف الخبائث ونحوِها؛ فإن تصريح الياء فيها خطأٌ[١]، ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾ (مَن): في محلِّ النصبِ بالعطف على (معايشَ)، أو: على محلِّ (لكم) كأنه قيل: وجعلنا لكم فيها معايشَ، وجعلنا لكم مَن لستم له برازقين، أو: جعلنا لكم فيها معايشَ ولمن لستم له برازقين، وأراد بهم: العيالَ والمماليك والخدمَ الذين يظنون أنهم يَرزقونهم ويخطِئُون؛ فإن الله هو الرزاقُ يرزقُهم وإياهم، ويدخلُ فيه الأنعامُ والدوابُّ ونحوُ ذلك، ولا يجوز أن يكون محلُّ (مَن) جرّاً بالعطفِ على الضميرِ المجرور في (لكم)؛ لأنه لا يُعطف على الضمير المجرورِ إلا بإعادةِ الجارِّ[٢].

《٢١》 ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ٢١﴾ ذكرُ الخزائنِ تمثيلٌ؛ والمعنى: وما من شيءٍ ينتفعُ به العباد إلا ونحن قادرون على إيجادِه وتكوينِه والإنعامِ به، وما نعطيه إلا بمقدارٍ معلومٍ، فضربَ الخزائنَ مثلاً لاقتداره على كل مقدورٍ.

《٢٢》 ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾: جمعُ لاقحةٍ؛ أي: وأرسلنا الرياحَ حواملَ بالسحاب؛ لأنها تحمل السحابَ في جوفِها كأنها لاقحةٌ بها؛ مِن: لَقِحَتِ الناقةُ: حَمَلَتْ، وضدُّها: العقيمُ، ﴿الريْحَ﴾: حمزةُ[٣]، ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾: فجعلناه لكم سُقْيا، ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾: نفي عنهم ما أثبته لنفسه في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]، كأنه قال: نحن الخازنون للماءِ؛ على معنى: نحن القادرون على خلقِه في السماءِ وإنزالِه منها، وما أنتم عليه بقادرين، دلالةٌ عظيمةٌ على قدرته وعجزِهم.

---

(١) من مواضع قلبِ الياءِ همزةً: أن تقعَ بعد ألفِ (مفاعل) وشبهه، بشرطِ أن تكون في المفرد زائدةً، مثلُ خبيثةٍ وخبائثَ، والياءُ في: معيشةٍ: أصليةٌ، فلا تقلبُ همزةً، ومن قلبها همزة.. فلتشبيهها بالزائدة. انظر «شذا العرف» (ص ١٢٤).

(٢) أجاز الأخفش والكوفيين العطف على المجرور دون إعادة الخافض، ورجحه ابن مالك. انظر «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» (٣/ ٣٥٣).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٥).

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ....

《٢٣》 ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾ بالإيجادِ ﴿وَنُمِيتُ﴾ بالإفناء، أو: نميت عند انقضاءِ الآجالِ، ونحيي لجزاءِ الأعمالِ؛ على التقديم والتأخير؛ إذ الواوُ للجمع المطلقِ. ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾: الباقون بعدَ هلاكِ الخلقِ كلِّه، وقيل للباقي: وارثٌ؛ استعارةً مِن وارثِ الميتِ؛ لأنه يبقى بعد فنائه.

《٢٤》 ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾: مَن تقدمَ ولادةً وموتاً، ومن تأخرَ، أو: مَن خرج من أصلابِ الرجالِ ومَن لم يخرج بعدُ، أو: مَن تقدم في الإسلام أو في الطاعة، أو في صف الجماعة، أو صف الحرب، ومن تأخرَ.

《٢٥》 ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: هو وحدَه يقدرُ على حشرِهم، ويحيطُ بحصرِهم، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾: باهرُ الحكمةِ واسعُ العلمِ.

《٢٦》 ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: آدمَ، ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾: طينٍ يابسٍ غيرِ مطبوخ، ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾: صفةٌ لـ(صلصال) أي: خلقَه من صلصالٍ كائنٍ من حمإٍ؛ أي: طينٍ أسودَ متغيرٍ، ﴿مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾: مُصَوَّرٍ، وفي الأول كان تراباً، فعجن بالماء فصارَ طيناً، فمكث فصارَ حمأً، فخلُصَ فصار سُلالةً، فَصُوِّرَ ويَبِسَ فصار صَلصالاً، فلا تناقضَ.

《٢٧》 ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾: أبا الجانِّ كآدمَ للناس، أو: هو إبليسُ، وهو منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ يفسرُه: ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾: من قبلِ آدمَ، ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾: من نارِ الحرِّ الشديدِ النافذِ في المسامِّ، قيل: هذه السَّمومُ جزءٌ من سبعين جزأً من سَموم النارِ التي خلقَ اللهُ منها الجانَّ.

《٢٨》 ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾: واذكر وقتَ قولِه ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾.

《٢٩》 ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: أتممتُ خلقتَه وهيأتُها لنفخِ الروحِ فيها، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾: وجعلتُ فيه الروحَ وأحييتُه، وليس ثَمةَ نفخٌ، وإنما هو تمثيلٌ، والإضافةُ للتخصيص. ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾: هو أمرٌ، مِن: وَقَعَ يقعُ؛ أي: اسقطُوا على الأرض؛ يعني: اسجدُوا له، ودخل الفاءُ؛ لأنه جوابُ (إذا)، وهو دليلٌ على أنه يجوزُ تقدمُ الأمرِ عن وقت الفعل.

فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ....

《٣٠》 ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ فالملائكةُ: جمعٌ عامٌّ محتملٌ للتخصيص، فقطعَ بابَ التخصيص (كلهم)، وذِكْرُ الكلِّ احتمل تأويلَ التفرق فقطعه بقوله: (أجمعون)[1].

《٣١》 ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ ظاهرُ الاستثناءِ يدلُّ على أنه كان من الملائكة؛ لأن المستثنى يكون من جنس المستثنى منه، وعن الحسن أن الاستثناء منقطعٌ، ولم يكن هو من الملائكة، قلنا: غيرُ المأمورِ لا يصيرُ بالترك ملعوناً، وقال في «الكشاف»: كان بينهم مأموراً معهم بالسجود فغُلِّبَ اسمُ الملائكةِ، ثم استثنى بعد التغليب، كقولك: رأيتُهم إلا هنداً. ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾: امتنع أن يكون معهم، و(أبى): استئنافٌ على تقديرِ قولِ قائلٍ يقول: هلّا سجد، فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه، وقيل: معناه: ولكنَّ إبليسَ أبى.

《٣٢》 ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾ حرفُ الجرِّ مع (أن) محذوفٌ، تقديرُه: ما لك في ألا تكونَ مع الساجدين؟ أي: أيُّ غرضٍ لك في إبائك السجودَ؟

《٣٣》 ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ اللامُ لتأكيدِ النفي؛ أي: لا يصحُّ مني أن أسجدَ ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.

《٣٤》 ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾: من السماءِ، أو: من الجنة، أو: من جملة الملائكة، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾: مطرودٌ من رحمة الله؛ ومعناه: ملعونٌ؛ لأن اللعن هو الطردُ من الرحمةِ والإبعادُ منها.

《٣٥》 ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ ضربَ يومَ الدين حدّاً للعنةِ؛ لأنه أبعدُ غايةٍ يضربُها الناس في كلامهم؛ والمرادُ به: إنك مذمومٌ مدعوٌّ عليك باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين، من غير أن تُعذَّبَ، فإذا جاء ذلك اليومُ.. عُذِّبْتَ بما يُنسَى اللعنُ معه.

《٣٦》 ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾: فأخرني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

---

(١) ذهب ابن الوراق في «علل النحو» (ص ٢٥٩) إلى أن (أجمع) تفيد معنى (كل) وتزيد عليها بإفادة معنى الاجتماع على الفعل في وقت واحد، وقال ابن يعيش في «شرح المفصل» (٢/ ٢٢٢): والصواب أن معناهما واحد؛ مِن قِبَلِ أن أصل التأكيد إعادةُ اللفظِ وتكرارُه، وإنما كرهوا تواليَهما بلفظٍ واحدٍ، فأبدلوا من الثاني لفظاً يدل على معناه، فجاؤوا بـ: كل، وأجمع؛ ليدلوا بهما على معنى الأول، ولو كان في الثاني زيادة فائدة.. لم يكن تأكيداً؛ لأن التأكيد تمكينُ معنى المؤكَّدِ.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾ ....

《٣٧ - ٣٨》 ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾: يومِ الدينِ، و(يوم يبعثون)، و(يوم الوقت المعلوم): في معنى واحدٍ، ولكن خُولفَ بين العبارات سلوكاً بالكلام طريقةَ البلاغةِ، وقيل: إنما سأل الإنظارَ إلى اليومِ الذي فيه يبعثون؛ لئلا يموتَ؛ لأنه لا يموتُ يومَ البعثِ أحدٌ، فلم يُجبْ إلى ذلك، وأُنظرَ إلى آخرِ أيامِ التكليفِ.

《٣٩》 ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ الباءُ: للقسم، و(ما): مصدرية، وجوابُ القسم: (لأزينن لهم)؛ والمعنى: أقسمُ بإغوائِكَ إياي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ المعاصيَ، ونحوُه: قولُه: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ [الحجر: ٢٩]، ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص: ٨٢] في أنه إقسامٌ، إلا أن أحدَهما إقسامٌ بصفةِ الذاتِ، والثاني بصفةِ الفعلِ، وقد فرق الفقهاءُ بينهما فقال العراقيون: الحلفُ بصفةِ الذاتِ كالقدرةِ والعظمةِ والعزةِ يمينٌ، والحلفُ بصفةِ الفعلِ كالرحمة والسخطِ ليس بيمينٍ[1]، والأصحُّ أن الأيمان مبنيةٌ على العرف، فما تعارف الناسُ الحلفَ به يكون يميناً، وما لا.. فلا[2]، والآيةُ حجةٌ على المعتزلة في خلق الأفعال، وحملُهم على التسبيب عدولٌ عن الظاهر، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: في الدنيا التي هي دارُ الغرور، وأراد: إني أقدر على الاحتيال لآدمَ والتزيينِ له الأكلَ من الشجرة وهو في السماء، فأنا على التزيين لأولادِه في الأرض أقدرُ، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾.

《٤٠》 ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ وبكسرِ اللامِ: بصريٌّ ومكيٌّ وشاميٌّ[3]، استثنى المخلصين؛ لأنه علم أن كيده لا يعملُ فيهم ولا يقبلونَه منه.

《٤١ - ٤٢》 ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ أي: هذا طريقٌ حقٌّ عليَّ أن أراعيَه، وهو ألا يكونَ لك سلطانٌ على عبادي إلا من اختار اتباعَك منهم لغَوايتِه، وقيل: معنى (عليَّ): إليَّ، ﴿عليٌّ﴾: يعقوبُ؛ مِن علوِّ الشرفِ والفضلِ.

《٤٣》 ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾ الضميرُ للغاوين.

---

(١) انظر «بدائع الصنائع» (٣/ ٩).
(٢) انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٧١٢).
(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٥) وكذا القراءة الآتية.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

«٤٤» ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾: مِن أتباعِ إبليسَ ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾: نصيبٌ معلومٌ مفرَزٌ، قيل: أبوابُ النارِ: أطباقُها وأدراكُها، فأعلاها: للموحِّدين، يُعذَّبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون، والثاني: لليهود، والثالثُ: للنصارى، والرابعُ: للصابئين، والخامسُ: للمجوس، والسادسُ: للمشركين، والسابعُ: للمنافقين.

«٤٥» ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعِيُونٍ﴾ وبضمِّ العينِ: مدنيٌّ وبصريٌّ وحفصٌ[1]، المتقي على الإطلاق: مَن يتقي ما يجب اتقاؤه مما نُهي عنه، وقال في «الشرح»: إن دخل أهلُ الكبائر في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ فالمراد بالمتقين: الذين اتقوا الكبائرَ، وإلا.. فالمراد به: الذين اتقوا الشركَ[2].

«٤٦» ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لهم: ادخلُوها ﴿بِسَلَامٍ﴾: حالٌ؛ أي: سالمين، أو: مُسلَّماً عليكم، تُسلمُ عليكم الملائكةُ ﴿آمِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ من الخروج منها، والآفاتِ فيها، وهو حالٌ أخرى.

«٤٧» ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾: وهو الحقدُ الكامنُ في القلب؛ أي: إن كان لأحدهم غِلٌّ في الدنيا على آخرَ.. نزعَ اللهُ ذلك في الجنة من قلوبهم وطيَّبَ نفوسَهم، وعن علي رضي الله عنه: أرجو أن أكون أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ منهم[3]، وقيل: معناه: طهرَ اللهُ قلوبَهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ونزع منها كلَّ غِلٍّ، وألقى فيها التوادَّ والتحابَّ، ﴿إِخْوَانًا﴾: حالٌ، ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ كذلك، قيل: تدورُ بهم الأَسِرَّةُ حيثما داروا، فيكونون في جميعِ أحوالِهم متقابلين، يرى بعضُهم بعضاً.

«٤٨» ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾: في الجنة تعبٌ، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ فتمام النعمةِ بالخلودِ، ولما أتمَّ ذكرَ الوعدِ والوعيدِ.. أتبعه:

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ١٧٦).
(٢) انظر «تأويلات أهل السنة» (٣/ ٥٢).
(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٥/ ١١٨).

نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ....

《٤٩ - ٥٠》 ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾[(١)]: تقريراً لما ذكر وتمكيناً له في النفوس، قال عليه السلام: «لو يعلمُ العبدُ قدرَ عفوِ الله. . لما تورَّعَ عن حرامٍ، ولو يعلمُ قدرَ عذابِه. . لبخعَ نفسَه في العبادة، ولما أقدم على ذنبٍ»[(٢)].

《٥١》 وعطف: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: وأخبرْ أمتَكَ على ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ ليتخذُوا ما أحلَّ من العذاب بقوم لوطٍ عبرةً يَعتبرون بها سخطَ اللهِ وانتقامَه من المجرمين، ويتحققُوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم، ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ أي: أضيافِه، وهو جبريلُ عليه السلام مع أحدَ عشرَ ملكاً، والضيفُ يجيءُ واحداً وجمعاً؛ لأنه مصدرُ: ضافَه.

《٥٢》 ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: نسلمُ عليك سلاماً، أو سلمنا سلاماً، ﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيمُ: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾: خائفون؛ لامتناعِهم من الأكل، أو لدخولهم بغير إذنٍ، وبغير وقتٍ.

《٥٣》 ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾: لا تخفْ، ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾: استئنافٌ في معنى التعليل للنهي عن الوجل؛ أي: إنك مُبَشَّرٌ آمنٌ؛ فلا توجلْ، وبالتخفيفِ وفتحِ النونِ: حمزةُ[(٣)]، ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ هو إسحاقُ؛ لقوله في (سورة هود): ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: ٧١].

《٥٤》 ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ أي: أبشرتموني مع مسِّ الكبرِ بأن يُولدَ لي؛ أي: إن الولادة أمرٌ مستنكرٌ عادةً مع الكبرِ، ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾: هي (ما) الاستفهاميةُ دخلها معنى التعجب، كأنه قيل: فبأيِّ أُعجوبةٍ تبشرون؟ وبكسر النون والتشديد: مكيٌّ، والأصل: تبشرونني، فأُدغم نونُ الجمعِ في نونِ العمادِ[(٤)]، ثم حذفت الياءُ وبقيت الكسرةُ دليلاً عليها، ﴿تبشرونِ﴾ بالتخفيف: نافعٌ، والأصل: تبشرونَني، فحذفت الياءُ اجتزاءً بالكسرة، وحذف نونُ الجمعِ؛ لاجتماع النونين، الباقون: بحذف النون وحذف المفعول، والنونُ نونُ الجمع[(٥)].

---

(١) في «تفسير الآلوسي» (٧/ ٣٠٤): وفي توصيف ذاته تعالى بالمغفرة والرحمة دون التعذيب؛ حيث لم يقل سبحانه: وإني أنا المعذِّب المؤلِم. . ترجيحٌ لجانب الوعد على الوعيد.

(٢) روى نحوه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (ص ٧٥).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٦).

(٤) نونُ الجمع هي نون الرفع، وهي الأولى، ونونُ العماد هي نونُ الوقاية، وهي الثانية.

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٦) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ ....

«٥٥» ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: باليقين الذي لا لَبْسَ فيه، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾: من الآيِسين من ذلك.

«٥٦» ﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيمُ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ وبكسرِ النونِ: بصريٌّ وعليٌّ، ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾: إلا المخطئون طريقَ الصواب، أو: إلا الكافرون، كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: لم أستنكرْ ذلك قنوطاً من رحمته، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها.

«٥٧» ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾: فما شأنكم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

«٥٨» ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: قومِ لوط.

«٥٩» ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ يريدُ: أهلَه المؤمنين، والاستثناءُ منقطعٌ؛ لأن القوم موصوفون بالإجرام، والمستثنَى ليس كذلك، أو: متصلٌ، فيكون استثناءً من الضمير في ﴿مُّجْرِمِينَ﴾، كأنه قيل: إلى قوم قد أجرمُوا كلُّهم إلا آلَ لوطٍ وحدَهم، والمعنى يختلف باختلاف الاستثناءين؛ لأن آلَ لوطٍ مخرجون في المنقطعِ من حكم الإرسال؛ يعني: أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة، ولم يُرسَلوا إلى آل لوط أصلاً؛ ومعنى إرسالِهم إلى القوم المجرمين: كإرسال السهم إلى المرمَى؛ في أنه في معنى التعذيب والإهلاكِ، كأنه قيل: إنا أهلكنا قوماً مجرمين، ولكنَّ آلَ لوطٍ أنجيناهم، وأما في المتصل.. فهم داخلون في حكم الإرسالِ؛ يعني أن الملائكة أُرسلوا إليهم جميعاً؛ ليهلكوا هؤلاء ويُنجوا هؤلاء، وإذا انقطع الاستثناءُ.. جرى ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾ مَجرى خبرِ (لكنَّ) في الاتصال بآلِ لوطٍ؛ لأن المعنى: لكنَّ آلَ لوطٍ مُنجَون، وإذا اتصل.. كان كلاماً مستأنفاً، كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم: فما حالُ آلِ لوطٍ؟ فقالوا: إنا لمنجوهم.

«٦٠» ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾: مستثنى من الضمير المجرور في (لمنجوهم)، وليس باستثناءٍ من الاستثناء؛ لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتَّحد الحكمُ فيه؛ بأن يقول: أهلكناهم إلا آلَ لوطٍ إلا امرأتَه، وهنا قد اختلف الحكمان؛ لأن آل لوط متعلقٌ بـ(أرسلنا)، أو: بـ(مجرمين)، و(إلا امرأتَه) متعلقٌ بـ(منجوهم)، فكيف يكون استثناءً من استثناءٍ؟ ﴿لَمُنْجُوهم﴾: بالتخفيف: حمزةُ وعليٌّ، ﴿قَدَّرْنَآ﴾ وبالتخفيف: أبو بكرٍ، ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾: الباقين

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ . .

في العذاب، قيل: لو لم تكن اللام في خبرِها . . لوجب فتحُ (إنَّ)؛ لأنه مع اسمِه وخبره مفعولُ (قدرنا)، ولكنه كقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]، وإنما أسند الملائكةُ فعلَ التقديرِ إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدَّرَ اللهُ؛ لقربهم، كما يقول خاصةُ الملكِ: أَمَرْنا بكذا، والآمرُ هو الملك.

«٦١ - ٦٢» ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: لا أَعرفُكم؛ أي: ليس عليكم زِيُّ السفر، ولا أنتم من أهل الحضر، فأخاف أن تَطرُقوني بِشَرٍّ.

«٦٣» ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: ما جئناك بما تُنكرُنا لأجله، بل جئناك بما فيه سرورُك وتَشَفِّيك من عدوِّك، وهو العذاب الذي كنتَ تتوعدُهم بنزوله، فيمترون فيه؛ أي يَشكُّون ويكذبونك.

«٦٤» ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: باليقين من عذابِهم، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ في الإخبار بنزوله بهم.

«٦٥» ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: في آخرِ الليلِ، أو بعدَ ما يمضي شيءٌ صالحٌ من الليل، ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾: وسِرْ خلفَهم لتكون مُطَّلِعاً عليهم وعلى أحوالهم، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لئلا يَرَوا ما ينزلُ بقومهم من العذاب فَيَرِقُّوا لهم، أو: جُعلَ النهيُ عن الالتفات كنايةً عن مُواصلة السير وتركِ التواني والتوقفِ؛ لأن مَن يلتفتُ لا بدَّ له في ذلك من أدنى وقفةٍ، ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾: حيث أمركم اللهُ بالمضيِّ إليه، وهو الشامُ أو مصرُ.

«٦٦» ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ عُدِّيَ (قضينا) بـ(إلى)؛ لأنه ضُمِّنَ معنى (أوحينا)، كأنه قيل: وأوحينا إليه مَقضياً مبتوتاً، وفُسِّرَ ذلك الأمرُ بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ وفي إبهامه وتفسيره تفخيمٌ للأمر، ودابرُهم: آخرُهم؛ أي: يُستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقَى منهم أحدٌ، ﴿مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾: وقتَ دخولهم في الصبح، وهو حالٌ عن (هؤلاء).

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٧٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ۝٧٣﴾ ....

《٦٧》 ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾: سَدُومَ التي ضُرِبَ بِقاضِيها المثلُ في الجَوْرِ[1]، ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٦٧﴾ بالملائكة طمعاً منهم في رُكوبِ الفاحشةِ.

《٦٨》 ﴿قَالَ﴾ لوطٌ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨﴾ بفضيحةِ ضيفي؛ لأن من أساء إلى ضيفي.. فقد أساء إليَّ.

《٦٩》 ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۝٦٩﴾ أي: ولا تُذلونِ بإذلالِ ضيفي؛ من الخِزْيِ، وهو الهَوانُ، وبالياء فيهما: يعقوبُ[2].

《٧٠》 ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾: عن أن تُجِيْرَ منهم أحداً أو تدفعَ عنهم؛ فإنهم كانوا يَتعرَّضُون لكلِّ أحدٍ، وكان عليه السلام يقومُ بالنهي عن المنكرِ، والحَجْزِ بينهم وبين المتعرَّضِ له، فأوعدوه وقالوا: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، أو: عن ضيافةِ الغُرباءِ.

《٧١》 ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ فانكِحوهن، وكان نكاحُ المؤمنات من الكفار جائزاً، ولا تتعرضُوا لهم، ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾: إن كنتم تريدون قضاءَ الشهوةِ فيما أحل اللهُ دون ما حرم، فقالت الملائكة لِلُوطٍ عليه السلام:

《٧٢》 ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ أي: في غَوايتِهم التي أذهبت عقولَهم وتمييزَهم بين الخطأِ الذي هم عليه، وبين الصواب الذي تُشير به عليهم من ترك البنين إلى البناتِ، ﴿يَعۡمَهُونَ ۝٧٢﴾: يتحيرون، فكيف يقبلون قولك ويُصغون إلى نصيحتِك؟ أو: الخطابُ لرسولِ الله ﷺ، وهو قَسَمٌ بحياته، وما أقسم بحياةِ أحدٍ قطُّ تعظيماً له[3]، والعُمُرُ والعَمْرُ واحدٌ، وهو البقاءُ، إلا أنهم خصُّوا القسمَ بالمفتوحِ إيثاراً للأخفِّ؛ لكثرة دَوْرِ الحلفِ على ألسنتِهم، ولذا حذفُوا الخبرَ، وتقديرُه: لعمرك قسمي.

《٧٣》 ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾: صيحةُ جبريلَ عليه السلام ﴿مُشۡرِقِينَ ۝٧٣﴾: داخلين في الشروقِ وهو بُزوغُ الشمسِ.

---

(١) قالوا في المثل: (أَجْوَرُ مِن قاضي سدومَ). انظر «مجمع الأمثال» (١/ ١٩٠).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٦).

(٣) روى الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١١٨) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرمَ على الله من محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وما سمعتُ اللهَ أقسمَ بحياةِ أحدٍ غيرِه.

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾

«٧٤» ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ رفعها جبريلُ عليه السلام إلى السماء ثم قلبها، والضميرُ لقُرى قومِ لوطٍ، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾[1].

«٧٥» ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾: للمتفرّسين المتأملين، كأنهم يَعرفون باطنَ الشيءِ بسمةٍ ظاهرةٍ.

«٧٦» ﴿وَإِنَّهَا﴾: وإن هذه القرى؛ يعني: آثارَها ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾: ثابتٍ يسلكه النّاسُ لم يندرسْ بعدُ، وهم يُبصرون تلك الآثارَ، وهو تنبيهٌ لقريشٍ، كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

«٧٧» ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ لأنهم المنتفعون بذلك.

«٧٨» ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾: وإن الأمرَ والشأنَ كان أصحابُ الأيكةِ؛ أي: الغَيضةِ ﴿لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾: لكافرين، وهم قوم شعيبٍ عليه السلام.

«٧٩» ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: فأهلكناهم لما كذبوا شعيباً، ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني: قُرى قومِ لوط والأيكةِ ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾: لبطريقٍ واضحٍ، والإمامُ: اسمُ ما يُؤتَمُّ به، فسمِّيَ به الطريقُ، ومِطْمرُ البناء؛ لأنهما مما يؤتَمُّ به[2].

«٨٠» ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ هم: ثمودُ، والحِجْرُ: واديْهم، وهو بين المدينة والشام، ﴿الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ يعني بتكذيبهم صالحاً؛ لأن كلَّ رسولٍ كان يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعاً، فمن كذب واحداً منهم.. فكأنما كذَّبَهم جميعاً، أو: أراد صالحاً ومَن معه من المؤمنين، كما قيل: الخُبَيْبيُّون: في ابنِ الزبيرِ وأصحابِه.

«٨١» ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: أعرضُوا عنها ولم يؤمنوا بها.

«٨٢» ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي: ينقُبون في الجبال بيوتاً، أو: يَبنون من الحجارةِ ﴿آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ لوثاقةِ البيوتِ واستحكامِها من أن تنهدمَ، ومِن نقبِ اللصوصِ والأعداءِ، أو: آمنين من عذاب الله، يَحْسَبون أن الجبال تحميهم منه.

---

(١) السجيل: الطين المتحجر.

(٢) المطمر: الخيطُ الذي يُقَدَّرُ به البناءُ.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ....

«٨٣» ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾: العذابُ ﴿مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾: في اليوم الرابعِ وقتَ الصبحِ.

«٨٤» ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ من بناءِ البيوتِ الوثيقةِ، واقتناءِ الأموالِ النفيسةِ.

«٨٥» ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: إلا خَلقاً ملتبساً بالحقِّ، لا باطلاً وعبثاً، أو: بسببِ العدلِ والإنصافِ يومَ الجزاءِ على الأعمال، ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامةَ؛ لِتوَقُّعِها كلَّ ساعةٍ ﴿لَءَاتِيَةٌ﴾ وإن الله ينتقمُ لك فيها من أعدائِك، ويجازيك وإياهم على حسناتِك وسيآتهم؛ فإنه ما خلق السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلا لذلك، ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾: فأعرِضْ عنهم إعراضاً جميلاً بِحلمٍ وإغضاءٍ، قيل: هو منسوخٌ بآيةِ السيفِ، وإن أريدَ به المخالفةُ.. فلا يكونُ منسوخاً.

«٨٦» ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الذي خلقَكَ وخلقَهم، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ بحالِكَ وحالِهم، فلا يخفَى عليه ما يجرى بينكم، وهو يحكمُ بينكم.

«٨٧» ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ أي: سبعَ آياتٍ، وهي (الفاتحةُ)، أو: سبعَ سورٍ، وهي الطِّوالُ، واختلفَ في السابعة فقيل: (الأنفالُ) و(براءةُ)؛ لأنهما في حكم سورةٍ؛ بدليلِ عدمِ التسميةِ بينهما، وقيل: (سورة يونس)، أو: أسباعَ القرآن[1]، ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾: هي من التثنية، وهي التكريرُ؛ لأن الفاتحةَ مما يتكررُ في الصلاة، أو: من الثناء؛ لاشتمالها على ما هو ثناءٌ على الله، الواحدةُ: مَثناةٌ، أو: مُثْنِيَةٌ: صفةٌ لآيةٍ، وأما السورُ أو الأسباعُ.. فلِما وقع فيها من تكريرِ القَصصِ والمواعظِ والوعدِ والوعيدِ؛ ولما فيها من الثناء، كأنها تُثني على الله، وإذا جَعلْت السبعَ مثانيَ.. فـ(مِن): للتبيين، وإذا جَعلْتَ القرآنَ مثانيَ.. فـ(مِن): للتبعيض، ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾: هذا ليس بعطفِ الشيءِ على نفسه؛ لأنه إذا أريد بالسبع: الفاتحةُ، أو الطِّوالُ.. فما وراءَهن ينطلقُ عليه اسم القرآن؛ لأنه اسمٌ يقعُ على البعض كما يقعُ على الكلِّ؛ دليلُه: قولُه: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]؛ يعني: (سورة يوسف)، وإذا أريد به: الأسباعُ.. فالمعنى: ولقد آتيناك ما يقال له: السبعُ المثاني والقرآنُ العظيم؛ أي: الجامعُ لهذين النعتين، وهو التثنيةُ، أو الثناءُ والعِظَمُ.

---

(١) أي: تقسيم القرآن إلى سبعة أقسام. انظر كيفية التقسيم في «جمال القراء وكمال الإقراء» (ص ٢١٧).

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ....

《٨٨》 ثم قال لرسوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تَطمحْ ببصرك طموحَ راغبٍ فيه، مُتَمَنٍّ له، ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾: أصنافاً من الكفار، كاليهود والنصارى والمجوس؛ يعني: قد أُوتيتَ النعمةَ العظمى التي كلُّ نعمةٍ وإن عَظُمَتْ.. فهي إليها حقيرةٌ، وهي القرآنُ العظيمُ؛ فعليك أن تستغنيَ به، ولا تمدنَّ عينيك إلى متاعِ الدنيا، وفي الحديث: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»[1]، وحديثِ أبي بكر: «من أُوتيَ القرآنَ، فرأى أن أحداً أُوتيَ من الدنيا أفضلَ مما أُوتي.. فقد صغَّرَ عظيماً، وعظَّم صغيراً»[2]، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تتمنَّ أموالَهم، ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوَّى بمكانهم الإسلامُ والمسلمون، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾: وتواضعْ لمن معك من فقراءِ المؤمنين، وطِب نفساً عن إيمانِ الأغنياءِ.

《٨٩》 ﴿وَقُلْ﴾ لهم: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾: أنذرُكم ببيانٍ وبرهانٍ أن عذاب الله نازلٌ بكم.

《٩٠》 ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾: متعلقٌ بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أي: أنزلنا عليك مثلَ ما أنزلنا ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ وهم أهلُ الكتابِ.

《٩١》 ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾: أجزاءً؛ جمعُ: عِضَةٍ، وأصلُها: عِضَوَةٌ، (فِعَلَةٌ) مِن: عَضَّى الشاةَ: إذا جعلها أعضاءً، حيث قالوا بعنادهم: بعضُه حقٌّ موافقٌ للتوراة والإنجيل، وبعضُه باطلٌ مخالفٌ لهما، فاقتسمُوه إلى حقٍّ وباطلٍ، وعَضَّوْهُ، وقيل: كانوا يستهزِئُون به، فيقول بعضُهم: (سورة البقرة) لي، ويقول الآخرُ: (سورة آل عمران) لي، أو: أريد بالقرآن: ما يقرؤونه من كتبِهم، وقد اقتسموه، فاليهود أَقَرَّتْ ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض، ويجوز أن يكون (الذين جعلوا القرآن عضين) منصوباً بالنذير؛ أي: أنذرِ المعضِّين الذين يُجزِّئون القرآنَ إلى سحرٍ وشعرٍ وأساطيرَ مثلَ ما أنزلنا على المقتسمين،

---

(١) رواه البخاري (٧٥٢٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، واختلف في معنى (يتغن): فذهب أكثر العلماء إلى أن معناه: يحسن صوته به، وعند سفيان بن عيينة: يستغني به؛ قيل: يستغني به عن الناس، وقيل: عن غيره من الأحاديث والكتب. انظر «شرح صحيح مسلم» للنووي (٦/٧٨).

(٢) روى البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/١٧٩) عن سيدنا رجاء الغنوي رضي الله عنه مرفوعاً: «من أعطاه الله حفظَ كتابِه.. لو ظن أن أحداً أوتي أفضلَ مما أوتي.. فقد غمطَ أعظمَ النعم».

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)﴾ ....

وهم الاثنا عشر الذين اقتسمُوا مداخلَ مكةَ أيامَ الموسِم، فقعدوا في كل مَدخلٍ متفرقين؛ لِيُنفِّروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ، يقول بعضُهم: لا تغتروا بالخارج منا؛ فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر، فأهلكهم الله، و(لا تمدن عينيك) على الوجه الأول[١]: اعتراض بينهما؛ لأنه لما كان ذلك تسليةً لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم.. اعترض بما هو مددٌ لمعنى التسلية؛ من النهي عن الالتفات إلى دنياهم، والتأسف على كفرهم؛ ومن الأمر بأن يُقبلَ بكليتِه على المؤمنين.

《٩٢ - ٩٣》 ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ أقسم بذاته وربوبيتِه ليسألن يومَ القيامة واحداً واحداً مِن هؤلاء المقتسمين عمّا قالوه في رسول الله ﷺ، أو في القرآن، أو في كتب الله.

《٩٤》 ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾: فاجهر به وأظهِرْه، يُقال: صدعَ بالحجة: إذا تكلم بها جهاراً؛ من الصديع، وهو: الفجرُ، أو: (فاصدع): فافْرُقْ بين الحق والباطل؛ من الصدعِ في الزجاجةِ، وهو: الإبانةُ بما تؤمر؛ والمعنى: بما تؤمرُ به من الشرائع، فحذف الجارُّ، كقوله[٢]: [من: البسيط]

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ....

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾: هو أمرُ استهانةٍ بهم.

《٩٥》 ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)﴾ الجمهورُ على أنها نزلت في خمسةِ نفرٍ كانوا يبالغون في إيذاءِ رسولِ اللهِ ﷺ والاستهزاءِ به، فأهلكهم الله، وهم: الوليدُ بنُ المغيرةِ، مرَّ بِنِبالٍ فتعلق بثوبه سهمٌ فأصاب عِرقاً في عَقِبِه فقطعه فمات، والعاصُ بنُ وائلٍ، دخل في أَخْمَصِه شوكةٌ[٣]،

(١) أي: تعلق (كَمَا أنزَلْنَا) بقوله: ﴿ولقد آتيناك﴾.

(٢) تتمة البيت:

فقد تركتكَ ذا مال وذا نشب

وهو لسيدنا عمرو بن معدي كرب رضي الله عنه، في «ديوانه» (ص٦٣)، والنَّشَبُ: أكثرُ ما يُستعمل في الأموال الثابتة، كالدُّور والضِّياع. وهذا البيت يذكر فيه وصيةَ والدِه له.

(٣) الأَخْمَصُ: باطنُ القدم، وما رقَّ من أسفلِها وتجافى عن الأرض.

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾

فانتفخت رجلُه فمات، والأسودُ بنُ عبدِ المطلبِ، عميَ، والأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ، جعل ينطحُ رأسَه بالشجرة ويضربُ وجهه بالشوك حتى مات، والحارثُ بنُ قيسٍ امتخط قيحاً ومات.

《٩٦》 ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦﴾ عاقبةَ أمرِهم يومَ القيامةِ.

《٩٧》 ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ فيك، أو في القرآن، أو في الله.

《٩٨》 ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾: فافزَعْ فيما نابك إلى الله، والفزعُ إلى الله هو الذكرُ الدائمُ وكثرةُ السجودِ.. يكفِكَ ويكشفْ عنك الغمَّ.

《٩٩》 ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾: ودُمْ على عبادةِ ربِّكَ ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ أي: الموتُ؛ يعني: ما دمت حياً.. فاشتغل بالعبادة، و(كان رسول الله ﷺ إذا حزَبَه أمرٌ.. فَزِعَ إلى الصلاة)[1].



(١) رواه أبو داود (١٣١٩) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه.

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤ ....

سورة النحل

مئةٌ وثمان وعشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 كانوا يستعجلون ما وُعِدوا من قيام الساعة أو: نزولِ العذابِ بهم يومَ بدرٍ؛ استهزاءً وتكذيباً بالوعد، فقيل لهم: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظراً؛ لِقربِ وقوعِه، ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١﴾: تبرأ جلَّ وعزَّ عن أن يكون له شريكٌ، وعن إشراكهم، فـ(ما): موصولةٌ، أو مصدريةٌ، واتصالُ هذا باستعجالهم مِن حيث إن استعجالَهم استهزاءٌ وتكذيبٌ، وذلك من الشرك.

《٢》 ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ وبالتخفيف: مكيٌّ وأبو عمرٍو[1]، ﴿بِٱلرُّوحِ﴾: بالوحيِ، أو بالقرآن؛ لأن كُلّاً منهما يقومُ في الدين مقامَ الروحِ في الجسد، أو يحيي القلوبَ الميتةَ بالجهل، ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ (أن): مفسرةٌ؛ لأن تنزيلَ الملائكةِ بالوحي فيه معنى القول؛ ومعنى (أنذروا) ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾: أعلِموا بأن الأمر ذلك، من: نذرتُ بكذا: إذا علمتَه؛ والمعنى: أعلِموا الناسَ قولي: (لا إله إلا أنا) ﴿فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾: فخافونِ، وبالياءِ: يعقوبُ.

《٣》 ثم دلَّ على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكَر مما لا يقدرُ عليه غيرُه؛ مِن خلقِ السمواتِ والأرضِ، وهو قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣﴾ وبالتاءِ في الموضعين: حمزةُ وعليٌّ.

《٤》 وخلقِ الإنسانِ وما يكون منه، وهو قوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾ أي: فاذا هو مِنْطِيْقٌ مُجادلٌ عن نفسه، مكافحٌ لخصومِه، مبينٌ لحجتِه، بعد ما كان نطفةً لا حِسَّ به ولا حركةَ، أو: فإذا هو خصيمٌ لربِّه، منكرٌ على خالقه، قائلٌ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]، وهو وصفٌ للإنسان بالوقاحةِ والتمادي في كفرانِ النعمةِ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٨) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧﴾ ....

《٥》 وخلقِ ما لا بدَّ له منه؛ مِن خلقِ البهائمِ لأكله وركوبه، وجَرِّ أثقالِه وسائرِ حاجاتِه، وهو قولُه: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ﴾ هي: الأزواجُ الثمانيةُ، وأكثرُ ما يقع على الإبل، وانتصابُها بمضمرٍ يفسرُه الظاهرُ، كقوله: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]، أو بالعطف على الإنسان؛ أي: خلق الإنسانَ والأنعامَ، ثم قال: (خلقها لكم) أي: ما خلقها إلا لكم يا جنسَ الإنسانِ ﴿فِيهَا دِفۡءٞ﴾ هو: اسمُ ما يُدفأ به من لباسٍ معمولٍ من صوفٍ أو وبرٍ أو شعرٍ، ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ وهي: نسلُها ودَرُّها، ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥﴾ قُدِّمَ الظرفُ، وهو يؤذن بالاختصاص، وقد يُؤكلُ من غيرها؛ لأن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمدُه الناسُ في معايشِهم، وأما الأكلُ من غيرها كالدجاج والبطِّ وصيدِ البرِ والبحرِ.. فكغيْرِ المعتدِّ به، وكالجاري مَجرى التَّفَكُّهِ.

《٦》 ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾: تَرُدُّونَها من مراعيها إلى مراحِها بالعشي، ﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦﴾: تُرسلونها بالغداة إلى مسارحِها، مَنَّ اللهُ تعالى بالتجمُّلِ بها كما مَنَّ بالانتفاع بها؛ لأنه من أغراضِ أصحابِ المواشي؛ لأن الرُّعْيانَ إذا روَّحوها بالعشيِّ، وسرَّحُوها بالغداة.. فزُيِّنَتْ[1] بإراحتها وتسريحِها الأفنيةُ، وفرحت أربابُها، وأكسبتْهم الجاهَ والحُرمةَ عند الناس، وإنما قُدِّمَت الإراحةُ على التسريح؛ لأن الجَمال في الإراحة أظهرُ إذا أقبلت مَلْأَى البطونِ، حافلةَ الضُّروع.

《٧》 ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾: أحمالَكم ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ وبفتح الشين: أبو جعفرٍ[2]، وهما لغتان في معنى المشقة، وقيل: المفتوحُ: مصدرُ: شقَّ الأمرُ عليه شَقّاً، وحقيقتُه راجعةٌ إلى الشَّقِّ الذي هو الصَّدعُ، وأما الشِّقُّ.. فالنصفُ، كأنه يذهب نصفُ قوتِه؛ لما ينالُه من الجَهْدِ؛ والمعنى: وتحملُ أثقالَكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه لو لم تُخلقِ الإبلُ إلا بجهدٍ ومشقةٍ، فضلاً أن تحملوا أثقالكم على ظهوركم، أو معناه: لم تكونوا بالغيه بها إلا بشقِّ الأنفسِ، وقيل: (أثقالكم): أبدانكم، ومنه: الثَّقَلان: للجنِّ والإنس، ومنه: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] أي: بني آدم، ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧﴾ حيث رحمَكم بخلقِ هذه الحواملِ، وتيسيرِ هذه المصالح.

---

(١) في المطبوع (٣/ ١١٣): (تَزَيَّنَتْ) وهو أولى.
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٨).

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾ ....

«٨» ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾: عطفٌ على (الأنعام) أي: وخلق هؤلاء للركوب والزينة، وقد احتج أبو حنيفةَ رحمه الله على حرمة أكلِ لحمِ الخيلِ لأنه عللَ خلقَها للركوب والزينة[١]، ولم يَذكر الأكلَ بعد ما ذكره في الأنعام، ومنفعةُ الأكلِ أقوى، والآيةُ سيقت لبيان النعمة، ولا يليق بالحكيم أن يذكر في مواضعِ المنةِ أدنى النعمتين ويتركَ أعلاهما[٢]، وانتصابُ (زينةً) على المفعول له؛ عطفاً على محلِّ (لتركبوها).

وخلقِ ما لا تعلمون من أصنافِ خلائقِه[٣]، وهو قولُه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾، ومَن هذا وصفُه يتعالى عن أن يُشرَكَ به غيرُه.

«٩» ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ المرادُ به الجنسُ، ولذا قال: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ والقصدُ: مصدرٌ بمعنى الفاعل، وهو: القاصدُ، يقال: سبيلٌ قصدٌ وقاصدٌ؛ أي: مستقيمٌ، كأنه يَقْصِدُ الوجهَ الذي يؤمُّه السالكُ لا يعدلُ عنه، ومعناه: أن هداية الطريق الموصل إلى الحقِّ.. عليه، كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢]، وليس ذلك للوجوب؛ إذ لا يجب على الله شيءٌ، ولكن يفعلُ ذلك تفضُّلاً، وقيل: معناه: وإلى الله، وقال الزجاج: وعلى الله تبيينُ الطريقِ الواضحِ المستقيم، والدعاءُ إليه بالحجج[٤]، (ومنها جائرٌ): من السبيل مائلٌ عن الاستقامة، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ أراد: هدايةَ اللطفِ بالتوفيق والإنعام بعدَ الهدى العامِّ.

«١٠» ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ (الكم): متعلقٌ بـ(أنزل)، أو: خبرٌ لـ(شراب)، وهو: ما يُشرَبُ، ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ يعني: الشجرَ الذي ترعاه المواشي، ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾: مِن سامتِ الماشيةُ: إذا رعت، فهي سائمةٌ، وأسامها صاحبُها، وهو من السُّومةِ، وهي العلامةُ؛ لأنها تؤثرُ بالرعيِ علاماتٍ في الأرض.

---

(١) كذا في الأصول، والأولى: (بأنه عللَ...).

(٢) انظر «المبسوط» للسرخسي (١١/ ٢٣٤)، وبعض الحنفية يرجح أن لحم الخيل مكروه تنزيهاً، وبعضهم يرجح أنه مكروه تحريماً. انظر «حاشية ابن عابدين» (٦/ ٣٠٥).

(٣) قولُه: (وخلقِ ما لا تعلمون...) معطوفٌ على قوله السابقِ: (خلقِ السمواتِ والأرضِ...).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٩٢).

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾ ....

«١١» ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ ولم يقل: كلَّ الثمرات؛ لأن كلَّها لا تكون إلا في الجنة، وإنما أُنبِتَ في الأرض بعضٌ مِن كلِّها؛ للمتذكرة، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ فيستدلون بها عليه، وعلى قدرته وحكمته، والآيةُ: الدلالةُ الواضحةُ.

«١٢» ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾: بنصب الكلِّ؛ على: وجعلَ النجومَ مسخراتٍ، ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ فقط: حفصٌ، ﴿والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ﴾: شاميٌّ؛ على الابتداء والخبر[1]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾: جمعَ الآيةَ وذكَرَ العقلَ؛ لأن الآثارَ العُلويةَ أظهرُ دلالةً على القدرة الباهرة، وأبْيَنُ شهادةً للكبرياء والعظمة.

«١٣» ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوفٌ على الليل والنهار؛ أي: ما خلق فيها من حيوانٍ وشجرٍ وثمرٍ وغيرِ ذلك ﴿مُخۡتَلِفًا﴾: حالٌ، ﴿أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾: يتعظون.

«١٤» ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾: هو السمكُ، ووصفَه بالطراوة؛ لأن الفسادَ يُسرعُ إليه فيؤكلُ سريعاً طريّاً خيفةَ الفسادِ، وإنما لا يحنث بأكله إذا حلف لا يأكل لحماً؛ لأن مَبْنَى الأيمانِ على العرف، ومن قال لغلامه: اشترِ بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك.. كان حقيقاً بالإنكار، ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ﴾: هي اللؤلؤةُ والمَرْجانُ، ﴿تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ المرادُ بلبسِهم: لُبْسُ نسائِهم ولكنهن إنما يتزيَّنَّ بها من أجلهم، فكأنها زينتُهم ولباسُهم، ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ﴾: جواريَ تجري جرياً، وتشقُّ الماءَ شقّاً، والمَخْرُ: شقُّ الماء بحَيْزُومِها[2]، ﴿فِيهِ﴾: في البحر، ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾: هو معطوفٌ على محذوفٍ؛ أي:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٨).

(٢) الحيزوم: وسط الصدر.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ ....

لتعتبرُوا ولتبتغُوا، وابتغاءُ الفضل: التجارةُ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ اللهَ على ما أنعم عليكم به.

《١٥》 ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾: جبالاً ثوابتَ ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: كراهية أن تميلَ بكم أو تضطرب، أو: لئلا تميدَ بكم، لكن حذفُ المضافِ أكثرُ، قيل: خلق الله الأرض، فجعلت تَمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقرِّ أحدٍ على ظهرها، فأصبحت وقد أُرْسِيَتْ بالجبال، لم تَدر الملائكة ممَّ خُلقتْ، ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾: وجعل فيها أنهاراً؛ لأن (ألقى): فيه معنى: جعل، ﴿وَسُبُلًا﴾: طُرُقاً، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ إلى مقاصدِكم، أو إلى توحيدِ ربكم.

《١٦》 ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ هي: معالـمُ الطرقِ وكلُّ ما يَستدلُّ به السابلةُ من جبلٍ وغيرِ ذلك، ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ المرادُ بالنجم: الجنسُ، أو هو: الثريا والفرقدانِ وبناتُ نَعْشٍ والجَدْيُ.

فإن قلت: (وبالنجم هم يهتدون): مُخرَجٌ عن سَنَنِ الخطاب، مُقَدَّمٌ فيه النجم، مُقحَمٌ فيه (هم)، كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون، فمَنِ المرادُ بهم؟

قلت: كأنه أراد قريشاً، فلهم اهتداءٌ بالنجوم في مسايِرِهم، ولهم بذلك علمٌ لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكرُ أوجبَ عليهم، والاعتبارُ ألزمَ لهم فخُصِّصُوا.

《١٧》 ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ أي: اللهُ تعالى، ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ أي: الأصنامُ، وجيءَ بـ(من) الذي هو لأولي العلم؛ لزعمهم، حيث سمَّوها آلهةً وعبدُوها، فأجْرَوها مُجرَى أولي العلم، ولأن المعنى: أن مَن يخلقُ ليس كمن لا يخلق مِن أولي العلم، فكيف بما لا علمَ عنده؟ وإنما لم يقل: أفمن لا يخلقُ كمن يخلقُ؟ مع اقتضاءِ المقام بظاهره إياه؛ لكونه إلزاماً للذين عبدوا الأوثانَ وسمَّوها آلهةً تشبيهاً بالله؛ لأنهم حين جعلُوا غيرَ اللهِ مثلَ اللهِ في تسميته باسمه والعبادةِ له.. فقد جعلوا الله من جنسِ المخلوقاتِ وشبيهاً بها، فأنكرَ عليهم ذلك بقوله: أفمن يخلقُ كمن لا يخلقُ[1]؟ وهو حجةٌ على المعتزلةِ في خلقِ الأفعالِ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ فتعرفون فسادَ ما أنتم عليه.

---

(١) أي: أن المشركين لم يشبهوا الخالق بالأوثان، ولكن شبهوا الأوثان بالخالق، فكان الظاهر أن يقال لهم: (أفمن لا يخلق كمن يخلق)، ولكن السِّرَّ فيما عبَّر به القرآن: أنّ وجه التشبيه إذا قوي بين المشبه والمشبه به.. رجع التشبيه إلى التشابه، فيقال: وجهُ الخليفة كالقمر، والقمرُ كوجه الخليفة، والمشركون لما عاملُوا الأصنام معاملةَ الإله الخالق؛ إذْ سمَّوها آلهة وعبدوها.. لم يبق عندهم فرق بينها وبينه تعالى عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً، فحصل التشابه، فلذا عبَّر بما ذُكر.

=

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ....

«١٨» ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾: لا تَضبطُوا عددَها، ولا تبلغْه طاقتُكم، فضلاً أن تُطيقُوا القيام بحقِّها من أداء الشكر، وإنما أتبعَ ذلك ما عددَ من نعمِه؛ تنبيهاً على أن ما وراءها لا ينحصرُ ولا يُعدُّ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ يتجاوزُ عن تقصيرِكم في أداء شكرِ النعمة، ولا يقطعُها عنكم لتفريطِكم.

«١٩» ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ من أقوالِكم وأفعالِكم، وهو وعيدٌ.

«٢٠» ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: والآلهةُ الذين يدعوهم الكفار ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وبالتاءِ: غيرُ عاصم[1]، ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

«٢١» ﴿أَمْوَٰتٌ﴾ أي: هم أمواتٌ، ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ نَفَى عنهم حصائصَ الإلهيةِ بنفيِ كونهم خالقين وأحياءً لا يموتون، وعالِمين بوقتِ البعثِ، وأثبت لهم صفاتِ الخلقِ؛ بأنهم مخلوقون أمواتٌ جاهلون بالبعث؛ ومعنى (أمواتٌ غيرُ أحياء): أنهم لو كانوا آلهةً على الحقيقة.. لكانوا أحياءً غيرَ أمواتٍ؛ أي: غيرَ جائزٍ عليها الموت، وأمرُهم بالعكس من ذلك، والضميرُ في (يبعثون): للداعين؛ أي: لا يشعرون متى تُبعثُ عبدتُهم، وفيه تَهَكُّمٌ بالمشركين، وأن آلهتهم لا يعلمون وقتَ بعثِهم، فكيف يكون لهم وقتُ جزاءٍ منهم على عبادتِهم؟ وفيه دلالةٌ على أنه لا بدَّ من البعث.

«٢٢» ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾ أي: ثبت بما مرَّ أن الإلهيةَ لا تكون لغير الله، وأن معبودَكم واحدٌ، ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ للوحدانيةِ، ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ عنها وعن الإقرار بها.

«٢٣» ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقّاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ أي: سرَّهم وعلانيتَهم فيجازيْهم، وهو وعيدٌ، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ عن التوحيد؛ يعني: المشركين.

= ويمكن أن يجاب بأن هذا من التشبيه المقلوب؛ إذ من حقِّ المشبه أن يكون أقلَّ رتبةً من المشبه به فيما وقع فيه التشبيه، فإذا عُكِسَ.. كان فيه مزيد تقريعٍ وتجهيلٍ. انظر «فتوح الغيب» (٩/ ٩٧).

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٨) وكذا القراءتان الآتيتان.

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ....

«٢٤» ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾: لهؤلاء الكفار: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (ماذا): منصوبٌ بـ(أنزل) أي: أيَّ شيءٍ أنزل ربُّكم؟ أو: مرفوعٌ بالابتداء؛ أي: أيُّ شيءٍ أنزله ربُّكم؟ و(أساطير): خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، قيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسمُوا مداخلَ مكةَ يُنفِّرون عن رسول الله ﷺ، إذا سألهم وفودُ الحاجِّ عمّا أُنزل على رسول الله ﷺ.. قالوا: أساطيرُ الأولين؛ أي: أحاديثُ الأولين وأباطيلُهم، واحدتُها أُسطورةٌ، وإذا رأَوا أصحابَ رسولِ الله ﷺ يخبرونهم بصدقِه وأنه نبيٌّ.. فهُمُ الذين قالوا خيراً.

«٢٥» ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ أي: قالوا ذلك إضلالاً للناس، فحملوا أوزارَ إضلالهم كاملةً، وبعضَ أوزارِ مَن ضلَّ بضلالهم، وهو وزر الإضلال؛ لأن المُضِلَّ والضّالَّ شريكان، واللامُ للتعليل، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: حالٌ من المفعول؛ أي: يُضلون من لا يعلم أنهم ضُلّالٌ، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ محلُّ (ما): رفعٌ.

«٢٦» ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: من جهةِ القواعدِ، وهي الأساطين، وهذا تمثيلٌ؛ يعني: أنهم سَوَّوا منصوباتٍ؛ ليمكروا بها رسلَ اللهِ، فجعل اللهُ هلاكَهم في تلك المنصوباتِ، كحالِ قومٍ بنَوا بنياناً وعمَّدُوه بالأساطين، فأُتي البنيانُ من الأساطين بأن ضُعْضِعَتْ، فسقط عليهم السقفُ وهلكوا، والجمهور على أن المراد به نُمرودُ ابنُ كنعانَ حين بنى الصرحَ ببابلَ، طولُه خمسةُ آلافِ ذراعٍ، وقيل: فرسخان، فَأَهَبَّ اللهُ الريحَ، فخرَّ عليه وعلى قومه فهلكُوا، فأتى اللهُ؛ أي: أمرُه بالاستئصالِ، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾: من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون.

«٢٧» ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾: يُذلهم بعذاب الخزي سوى ما عُذبُوا به في الدنيا، ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ على الإضافة إلى نفسه؛ حكايةً لإضافتهم؛ ليوبخَهم بها على طريق الاستهزاء بهم، ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾: تُعادُون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم، ﴿تُشاقونِ﴾: نافعٌ؛ أي: تُشاقُّونَني فيهم؛ لأن مُشاقَّة المؤمنين كأنها مُشاقَّةُ الله، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ....

﴿الْعِلْمَ﴾ أي: الأنبياءُ والعلماءُ من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان، ويعظونهم فلا يلتفتون إليهم، ويشاقونهم، يقولون ذلك شماتةً بهم، أو: هم الملائكة: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾: الفضيحةَ، ﴿وَالسُّوءَ﴾: العذابَ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

《٢٨》 ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وبالياء: حمزةُ، وكذا ما بعده، ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بالكفر بالله، ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي: الصلحَ والاستسلامَ، أي: أخبتُوا، وجاؤوا بخلافِ ما كانوا عليه في الدنيا من الشِّقاقِ، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ وجحدُوا ما وُجِدَ منهم من الكفران والعدوان، فردَّ عليهم أولو العلم وقالوا: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أيضاً من الشماتة، وكذلك:

《٢٩》 ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ جهنمُ.

《٣٠》 ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشركَ: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ وإنما نُصبَ هذا ورفعَ (أساطيرُ)؛ لأن التقدير هنا: أنزل خيراً، فأطبقوا الجوابَ على السؤال، وثمةَ التقدير: هو أساطيرُ الأولين، فعدلوا بالجواب عن السؤال[١]، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ أي: آمنوا وعملوا الصالحات، أو: قالوا: لا إله إلا الله، ﴿حَسَنَةٌ﴾: بالرفع؛ أي: ثوابٌ وأمنٌ وغنيمةٌ، وهو بدلٌ من (خيراً)[٢]؛ حكايةً لقول الذين اتقوا؛ أي: قالوا هذا القولَ، فقدَّمَ عليه تسميتَه خيراً، ثم حكاه، أو: هو كلام مستأنَفٌ؛ عِدَةٌ للقائلين، وجُعِلَ قولُهم من جملةِ إحسانهم، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: لهم في الآخرة ما هو خيرٌ منها، كقوله: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ دارُ الآخرةِ، فحذف المخصوصُ بالمدح؛ لتقدم ذكره.

《٣١》 ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾: خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أو: هو مخصوصٌ بالمدح، ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾: حالٌ، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

---

(١) لو قالوا: (أساطيرَ) بالنصب.. لكان اعترافاً منهم بالإنزال؛ إذ التقدير: أنزل أساطيرَ... ولكن رفعوا ليقولوا: هو أساطيرُ الأولين، وليس من الإنزال في شيء.

(٢) البدل هو جملة (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة).

ﵟٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﰟ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﰠ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﰡ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﰢ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﰣﵞ ....

«٣٢» ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾: طاهرين من ظلم أنفسِهم بالكفر؛ لأنه في مقابلةِ ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ قيل: (إذا أشرف العبدُ المؤمنُ على الموت.. جاءه ملكٌ فقال: السلام عليك يا وليَّ الله، الله يقرأُ عليك السلام، ويبشرُه بالجنة)[1]، ويقال لهم في الآخرة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﰟ﴾: بعملِكم.

«٣٣» ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾: ما ينتظرُ هؤلاء الكفارُ ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبضِ أرواحِهم وبالياء: عليٌّ وحمزةُ[2]، ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ أي: العذابُ المستأصِلُ، أو القيامةُ، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الفعلِ من الشرك والتكذيب ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتدميرِهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﰠ﴾ حيث فعلوا ما استحقُّوا به التدميرَ.

«٣٤» ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾: جزاءَ سيئاتِ أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﰡ﴾: وأحاط بهم جزاءُ استهزائِهم.

«٣٥» ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾: هذا الكلام صدر منهم استهزاءً، ولو قالوه اعتقاداً.. لكان صواباً، ﴿وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ يعني: البَحيرةَ والسائبةَ ونحوَهما، ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: كذبوا الرسل، وحرموا الحلالَ، وقالوا مثلَ قولهم استهزاءً، ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﰢ﴾: إلا أن يُبَلِّغُوا الحقَّ ويُطْلِعوا على بطلان الشرك وقبحِه.

«٣٦» ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: بأن وحِّدوه، ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾: الشيطانَ؛ يعني: طاعتَه، ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ لاختيارِهم الهدى، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ

---

(١) روى نحوه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٦٢٣) من قول محمد بن كعب القرظي.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٩) وكذا القراءة الآتية.

إن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ....

حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: لزمته لاختياره إياها، ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ حيث أهلكهم اللهُ، وأخلَى ديارَهم عنهم.

«٣٧» ثم ذكر عنادَ قريشٍ وحرصَ رسولِ اللهِ ﷺ على إيمانهم، وأعلمه أنهم من قسم مَن حقت عليه الضلالةُ فقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾: بفتح الياءِ وكسر الدالِ: كوفيٌّ، الباقون: بضم الياء وفتح الدال، والوجهُ فيه: أن (مَن يُضِلُّ): مبتدأٌ، و(لا يُهدَى): خبرُه[1]، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ يمنعونهم من جريان حكمِ اللهِ عليهم، ويدفعون عنهم عذابَه الذي أُعدَّ لهم.

«٣٨» ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: معطوفٌ على (وقال الذين أشركوا)، ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ﴾: هو إثباتٌ لما بعد النفي؛ أي: بل يبعثُهم ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ وهو مصدرٌ مؤكِّدٌ لما دل عليه (بلى)؛ لأنَّ يبعثُ: موعدٌ من الله، وبَيَّنَ أنَّ الوفاء بهذا الوعد حقٌّ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أن وعده حقٌّ، أو أنهم يبعثون.

«٣٩» ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾: متعلقٌ بما دلَّ عليه (بلى) أي: يبعثُهم؛ ليبين لهم، والضمير لـ(من يموت)، وهو يشمل المؤمنين والكافرين، ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ هو: الحقُّ، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ في قولهم: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.

«٤٠» ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ أي: فهو يكونُ، وبالنصب: شاميٌّ وعليٌّ[2]؛ على جوابِ (كن)، (قولُنا): مبتدأٌ، و(أن نقول): خبرُه، و(كن فيكون): من (كان) التامةِ التي بمعنى الحدوث والوجود[3]؛ أي: إذا أردنا وجودَ شيءٍ.. فليس إلا أن نقول

(١) هذا الإعراب مشكل؛ إذ لا يجوز تقديم الخبر إن كان فعلاً رافعاً لضمير مستتر عائد على المبتدإ، فالصواب أن يُعرب (مَن) نائب فاعل لـ(يُهدَى)، والعائد على الموصول محذوف؛ أي: يُضِلُّهُ، وجملة (لا يُهدى...) خبرُ (إنَّ)، والرابط: فاعل (يُضِلُّ).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٩).

(٣) ذكر الإمام الرازي في «التفسير» (١/ ١٢٣) أن (كان) لا تفيد إلا الحدوث والوجود، إلا أن التامة تفيد حدوث الشيء في نفسه، فتتم الفائدة بإسنادها إلى ذلك الشيء الواحد؛ لأنها تفيد أن ذلك الشيء قد حدث وحصل، =

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

له: احدُثْ، فهو يحدثُ بلا توقفٍ، وهذه عبارة عن سرعة الإيجاد، تُبيِّنُ أن مُراداً لا يمتنع عليه، وأن وجوده عند إرادته غيرُ متوقف، كوجود المأمور به عند أمرِ الآمرِ المطاعِ إذا وردَ على المأمورِ المطيعِ الممتثلِ، ولا قولَ ثَمَّ؛ والمعنى: أن إيجاد كلِّ مقدورٍ على الله بهذه السهولةِ، فكيف يمتنع عليه البعثُ الذي هو من بعض المقدوراتِ؟

《٤١》 ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾: في حقِّه ولوجهه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ هم: رسول الله وأصحابُه، ظلمهم أهلُ مكةَ ففرُّوا بدينهم إلى الله، منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، فجمع بين الهجرتين، ومنهم من هاجر إلى المدينة، ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: صفةٌ للمصدر؛ أي: تبوئةً حسنةً، أو: لنبوئنهم مباءةً حسنةً، وهي المدينةُ حيث آواهم أهلُها ونصروهم، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ الوقفُ لازمٌ عليه؛ لأن جوابَ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ محذوفٌ، والضميرُ للكفار؛ أي: لو علموا ذلك.. لرغبُوا في الدين، أو: للمهاجرين؛ أي: لو كانوا يعلمون.. لزادُوا في اجتهادهم وصبرِهم.

《٤٢》 ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: هم الذين صبروا، أو: أعني الذين صبروا، وكلاهما مدحٌ؛ أي: صبروا على مفارقة الوطن الذي هو حَرَمُ اللهِ المحبوبُ في كلِّ قلبٍ، فكيف بقلوبِ قوم هو مَسْقَطُ رؤوسهم، وعلى المجاهدةِ وبذلِ الأرواحِ في سبيل الله، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: يُفَوِّضُون الأمرَ إلى ربهم، ويرضَون بما أصابهم في دين الله.

《٤٣》 ولما قالت قريش: اللهُ أعظمُ من أن يكون رسوله بشراً.. نزل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً يُوحَى إِلَيْهِمْ﴾ على ألسنةِ الملائكةِ، ﴿نُّوحِىٓ﴾: حفصٌ[1]، ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾: أهلَ الكتابِ لِيعْلِمُوكم أن الله لم يبعثْ إلى الأمم السالفةِ إلا بشراً، وقيل للكتاب: الذكرُ؛ لأنه موعظةٌ وتنبيهٌ للغافلين، ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

= نحو: كان الشتاء، والناقصةُ تفيد حدوثَ موصوفيةِ شيء بشيء آخر، فلا تتم الفائدة إلا بذكر الاسمين، نحو: (كان زيد عالماً)، معناه: أنه حدث وحصل موصوفيةُ زيد بالعلم.

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٩).

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ٤٧ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ٤٨﴾ ....

«٤٤» ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ أي: بالمعجزات والكتبِ، والباءُ يتعلق بـ(رجالاً) صفةٌ له؛ أي: رجالاً ملتبسين بالبينات، أو بـ(أرسلنا) مضمراً، كأنه قيل: بِمَ أُرسلوا؟ فقيل: بالبينات، أو بـ(يوحى) أي: يوحَى إليهم بالبينات، أو بـ(لا تعلمون)، وقولُه: (فاسألوا أهل الذكر) اعتراضٌ على الوجوه المتقدمة، ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾: القرآنَ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ في الذكر مما أُمِروا به ونُهوا عنه، ووُعِدُوا به وأُوعِدُوا، ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ في تنبيهاتِه فينتبهُوا.

«٤٥» ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: المَكَراتِ السيئاتِ[1]، وهم أهل مكة، وما مكروا به رسولَ اللهِ عليه السلام، ﴿أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كما فعل بمن تقدَّمَهم، ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥﴾ أي: بغتةً.

«٤٦» ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾: مُتَقَلِّبين في مسايِرِهم ومتاجِرِهم، ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦﴾.

«٤٧» ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾: متخوِّفين، وهو أن يُهْلِكَ قوماً قبلَهم فيتخوَّفُوا فيأخذهم العذاب وهم مُتَخوِّفُون مُتَوَقِّعُون، وهو خلافُ قولِه: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النحل: ٤٥]، ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ٤٧﴾ حيث يَحْلُمُ عنكم ولا يعاجلُكم مع استحقاقِكم؛ والمعنى: أنه إذا لم يأخذْكم مع ما فيكم.. فإنما رأفتُه تقيكم، ورحمتُه تحميكم.

«٤٨» ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ وبالتاءِ: حمزةُ وعليٌّ وأبو بكرٍ[2]، ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ (ما): موصولةٌ بـ(خلقَ اللهُ) وهو مبهمٌ، بيانُه: ﴿مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أي: يرجعُ عن موضع إلى موضع، وبالتاء: بصريٌّ، ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: الأيمانِ، ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾: جمعُ شَمالٍ، ﴿سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾: حالٌ من الظِّلال، عن مجاهد: إذا زالت الشمسُ.. سجد كلُّ شيءٍ، ﴿وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ٤٨﴾: صاغرون، وهو حالٌ من الضمير في (ظلالُه)؛ لأنه في معنى الجمع، وهو: ما خلق الله من كل شيء له ظل، وجُمعَ بالواو والنون؛ لأن الدُّخورَ من أوصاف العقلاءِ، أو لأن في جملة ذلك مَن يعقلُ،

---

(١) أي أن (السيئات): صفة لمفعول مطلق محذوف؛ لأن الفعل (مكر) لازم، ويصح أن تعرب مفعولاً به؛ على تضمين (مكروا) معنى (عمِلوا). انظر «حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٣٤).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧٩) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ . .

فغُلِّبَ؛ والمعنى: أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلالٌ مُتَفَيِّئَةٌ عن أيمانها وشمائلها؛ أي: ترجعُ الظلال من جانبٍ إلى جانبٍ منقادةً لله تعالى غيرَ ممتنعةٍ عليه فيما سخرها له من التفيُّؤِ، والأجرامُ في أنفسِها داخرةٌ أيضاً، صاغرةٌ منقادةٌ لأفعالِ الله فيها غيرُ ممتنعةٍ.

《٤٩》 ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ (مِن): بيانٌ لما في السموات وما في الأرض جميعاً؛ على أن في السموات خلقاً يَدِبُّون فيها كما تَدِبُّ الأناسيُّ في الأرض، أو: بيانٌ لما في الأرض وحدَه، والمرادُ بما في السموات: ملائكتُهن، وبقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: ملائكةُ الأرض من الحفظةِ وغيرِهم، قيل: المرادُ بسجودِ المكلفين: طاعتُهم وعبادتُهم، وبسجودِ غيرِهم: انقيادُهم لإرادة الله؛ ومعنى الانقيادِ يجمعُهما فلم يختلفا، فلذا جاز أن يُعبَّرَ عنهما بلفظٍ واحدٍ، وجيءَ بـ(ما)؛ إذ هو صالح للعقلاء وغيرِهم، ولو جيءَ بـ(مَن) لتناول العقلاءَ خاصةً، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

《٥٠》 ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ هو حالٌ من الضمير في (لا يستكبرون) أي: لا يستكبرون خائفين ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾: إن علقتَه بـ(يخافون) فمعناه: يخافونه أن يرسِلَ عليهم عذاباً من فوقهم، وإن علقتَه بـ(ربّهم) حالاً منه.. فمعناه: يخافون ربهم عالياً لهم قاهراً، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ وفيه دليلٌ على أن الملائكة مُكلفون مُدارُون على الأمر والنهي، وأنهم بين الخوف والرجاء.

《٥١》 ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ **فإن قلت**: إنما جمعُوا بين العدد والمعدود فيما وراءَ الواحدِ والاثنين فقالوا: عندي رجالٌ ثلاثةٌ؛ لأن المعدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاصِّ، فأما رجلٌ ورجلانِ.. فمعدودان فيهما دلالةٌ على العدد، فلا حاجةَ إلى أن يُقالَ: رجلٌ واحدٌ، ورجلان اثنان.. قلت: الاسمُ الحاملُ لمعنى الإفرادِ والتثنيةِ دالٌّ على شيئين؛ على الجنسيةِ والعددِ المخصوصِ، فإذا أريدت الدلالةُ على أن المعنيَّ به منهما هو العددُ.. شُفِعَ بما يؤكدُه، فدُلَّ به على القصد إليه والعناية به؛ ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إلهٌ ولم تؤكدْه بواحدٍ.. لم يحسن، وخُيِّلَ أنك تثبتُ الإلهيةَ لا الوحدانيةَ؟ ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ نقلَ الكلامَ عن الغيبة إلى التكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترغيب من قوله: فإياه فارهبوا، ﴿فارهبوني﴾: يعقوبُ.

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُوا۟ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ....

«٥٢» ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ أي: الطاعة ﴿وَاصِبًاۚ﴾: واجباً ثابتاً؛ لأن كلَّ نعمة منه، فالطاعةُ واجبةٌ له على كلِّ منعَم عليه، وهو حالٌ عَمِلَ فيه الظرفُ، أو: وله الجزاءُ دائماً؛ يعني: الثوابَ والعقابَ، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

«٥٣» ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ وأيُّ شيءٍ اتصل بكم من نعمةِ عافيةٍ وغنىً وخِصْبٍ ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾: فهو من الله، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾: المرضُ والفقرُ والجَدْبُ ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾: فما تتضرعون إلا إليه، والجُؤارُ: رفعُ الصوتِ بالدعاء والاستغاثة.

«٥٤» ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ الخطابُ في ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾: إن كان عامّاً.. فالمرادُ بالفريق: الكفرةُ، وإن كان الخطابُ للمشركين.. فقولُه: (منكم): للبيان لا للتبعيض، كأنه قال: فإذا فريقٌ كافرٌ وهم أنتم، ويجوزُ أن يكون فيهم مَن اعتبر، كقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ﴾ [لقمان: ٣٢].

«٥٥» ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ﴾ من نعمةِ الكشفِ عنهم، كأنهم جَعَلُوا غرضَهم في الشرك كفرانَ النعمةِ، ثم أوعدَهم فقال: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾: هو عدول إلى الخطابِ على التهديد.

«٥٦» ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْۗ﴾ أي: لآلهتِهم؛ ومعنى (لا يعلمون): أنهم يسمونها آلهةً ويعتقدون فيها أنها تضرُّ وتنفعُ وتشفعُ عند الله وليس كذلك؛ لأنها جمادٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ، أو الضميرُ في (لا يعلمون): للآلهة؛ أي: لأشياءَ غيرَ موصوفةٍ بالعلم، ولا تشعرُ أجعلُوا لها نصيباً في أنعامهم وزروعِهم أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم ذلك تقرباً إليهم، ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾: وعيدٌ، ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أنها آلهةٌ، وأنها أهلٌ للتقرب إليها.

«٥٧» ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ كانت خزاعةُ وكِنانةُ تقول: الملائكةُ بناتُ الله، ﴿سُبْحَٰنَهُۥۙ﴾: تنزيهٌ لذاته من نسبةِ الولدِ إليه، أو تعجبٌ من قولهم، ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ يعني: البنين، ويجوز في (ما): الرفعُ على الابتداء، و(لهم): الخبرُ، والنصب على العطف على (البنات)، و(سبحانه): اعتراضٌ بين المعطوف والمعطوف عليه؛ أي: وجعلُوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ....

《٥٨》 ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: صار، فـ: ظلَّ وأمسى وأصبح وبات: تستعمل بمعنى الصيرورة؛ أو: لأن أكثرَ الوضعِ يتفقُ بالليل، فيظلُّ نهارَه مُغْتَمّاً مسودَّ الوجهِ من الكآبة والحياء من الناس، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾: مملوءٌ حَنَقاً على المرأة.

《٥٩》 ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ﴾ يستخفي منهم من أجلِ سوءِ المبشَّرِ به، ومن أجل تَعْيِيرِهم، ويُحدِّثُ نفسَه وينظرُ ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾: أيمسكُ ما بُشِّرَ به على هُوْنٍ وذُلٍّ ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ﴾: أم يَئِدُهُ؟ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ حيث يجعلون الولدَ الذي هذا محلُّه عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكسِ هذا الوصف.

《٦٠》 ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ﴾: صفةُ السَّوءِ، وهي الحاجةُ إلى الأولاد الذكورِ، وكراهةُ الإناثِ ووأدُهن خشيةَ الإملاقِ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ﴾ وهو: الغِنَى عن العالمين، والنزاهةُ عن صفاتِ المخلوقين، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالبُ في تنفيذِ ما أراد، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ في إمهالِ العبادِ.

《٦١》 ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾: بكفرِهم ومعاصيهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾: على الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ قطُّ، ولأهْلَكَها كلَّها بشؤمِ ظلمِ الظالمين، عن أبي هريرة رضي الله عنه: إن الحُبارَى لتموت في وَكْرِها بظلم الظالم[1]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كاد الجُعْلُ يهلِكُ في جُحْرِهِ بذنب ابن آدم[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (من دابة): مِن مُشركٍ يدبُّ، ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ﴾ أي: أجلِ كلِّ أحدٍ، أو: وقتٍ تقضيه الحكمةُ، أو: القيامةِ، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

《٦٢》 ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾: ما يكرهونه لأنفسهم من البنات، ومن شركاءَ في رياستِهم، ومن الاستخفاف برسلِهم، ويجعلون له أرذلَ أموالهم، ولأصنامهم أكرمَها، ﴿وَتَصِفُ

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩/ ٥٤٥)، **والحبارى**: طائرٌ طويل العنق، على شكل الإِوَزَّةِ، في منقاره طولٌ.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٠٨). **والجُعْلُ**: حيوان كالخنفساء.

تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ....

﴿أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ مع ذلك؛ أي: ويقولون الكذبَ ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ عند الله، وهي الجنةُ إن كان البعث حقّاً، كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، و(أن لهم الحسنى): بدلٌ من (الكذب)، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ﴿مُفْرِطون﴾: نافعٌ، ﴿مُفَرِّطون﴾: أبو جعفر[1]، فالمفتوح بمعنى: مُقدَّمون إلى النار معجَّلون إليها، مِن: أفرطتُ فلاناً، وفرَطْتُه في طلب الماء: إذا قَدَّمْتَه، أو: مَنْسِيُّون متروكون، من: أَفرطتُ فلاناً خلفي: إذا خَلَّفْتَه ونسيتَه، والمكسورُ المخففُ: من الإفراطِ في المعاصي، والمشدَّدُ: من التفريطِ في الطاعات؛ أي: التقصيرِ فيها.

《٦٣》 ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: أرسلنا رسلاً إلى من تقدمك من الأمم، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من الكفرِ والتكذيبِ بالرسل، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: قرينُهم في الدنيا تَوَلَّى إضلالَهم بالغرور، أو: الضميرُ لمشركي قريشٍ؛ أي: زَيَّنَ للكفار قبلهم أعمالَهم، فهو وليُّ هؤلاء؛ لأنهم منهم، أو: هو على حذف المضاف؛ أي: فهو وليُّ أمثالِهم اليومَ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ في القيامة.

《٦٤》 ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآنَ ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾: للناس ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾: هو البعثُ؛ لأنه كان فيهم مَن يؤمنُ به، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: معطوفان على محلِّ (لتبين) إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعولٌ لهما؛ لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب، ودخلت اللامُ على (لتبين)؛ لأنه فعل المخاطَبِ، لا فعلُ المُنْزِلِ[2]، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

《٦٥》 ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ سماعَ إنصافٍ وتدبر؛ لأن من لم يسمع بقلبه.. فكأنه لا يسمعُ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٠).

(٢) أي: إنما جُرَّ المفعولُ له باللام ولم ينصب؛ لأن شرط جوازِ نصب المفعول له اتحادُه مع فعله في الفاعل.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ....

《٦٦》 ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ وبفتحِ النونِ: نافعٌ وشاميٌّ وأبو بكرٍ[١]، قال الزجاجُ: سقيتُه وأسقيتُه بمعنىً واحدٍ[٢]. ذكر سيبويه الأنعامَ في الأسماءِ المفردةِ الواردةِ على (أفعال)[٣]، ولذا رجع الضمير إليه مفرداً، وأما ﴿فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنين: ٢١] في (سورة المؤمنين) فلأن معناه الجمعُ، وهو استئنافٌ، كأنه قيل: كيف العبرةُ؟ فقال: (نسقيكم مما في بطونه) ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ أي: يَخلُقُ اللهُ اللبن وسيطاً بين الفرثِ والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخٌ لا يبغي أحدُهما عليه بلونٍ ولا طعمٍ ولا رائحةٍ، بل هو خالصٌ من ذلك كلِّه، قيل: إذا أكلت البهيمةُ العلفَ فاستقرَّ في كَرِشِها وطَبَخَتْه.. فكان أسفلُه فرثاً وأوسطُه لبناً وأعلاه دماً، والكبدُ مُسَلَّطَةٌ على هذه الأصنافِ الثلاثةِ تقسمُها فتُجري الدمَ في العروق، واللبنَ في الضُّروع، ويبقى الفرثُ في الكَرِشِ، ثم ينحدرُ[٤]، وفي ذلك عبرةٌ لمن اعتبر، وسئل شقيقٌ عن الإخلاص فقال: تَميُّزُ العملِ من العيوب كتميزِ اللبنِ من بين فرثٍ ودم، ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾: سهلَ المرور في الحلق، ويقال: لم يَغَصَّ أحدٌ باللبن قطُّ، و(مِن) الأولى: للتبعيض؛ لأن اللبن بعضُ ما في بطونها، والثانية: لابتداء الغايةِ.

《٦٧》 ويتعلق ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ بمحذوفٍ تقديرُه: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب؛ أي: من عصيرهما، وحذف لدلالة (نسقيكم) قبله عليه، وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾: بيانٌ وكشفٌ عن كنهِ الإسقاءِ، أو: (تتخذون)[٥]، و(منه): مِن تكريرِ الظرفِ للتوكيد، والضميرُ في (منه): يرجعُ إلى المضاف المحذوف الذي هو العصيرُ، والسَّكَرُ: الخمرُ؛ سميت بالمصدر، مِن: سَكِرَ سَكَراً وسُكراً، نحو: رَشَدَ رَشَداً ورُشْداً، ثم فيه وجهان: أحدُهما: أن تكون الآية سابقةً على تحريم الخمر، فتكون منسوخةً، وثانيهما: أن يَجمعَ بين العتاب والمنة[٦]، وقيل: السكرُ: النبيذُ، وهو عصيرُ العنبِ والزبيبِ والتمرِ إذا طُبخ حتى يذهبَ ثلثاه،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٠).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٢٠٨).

(٣) «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٢٣٠).

(٤) هذه المعلومات تغيرت، فيرجع فيها إلى ما يقرره العلم الحديث.

(٥) أي: أو يتعلق بـ (تتخذون).

(٦) في «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٣٢): (والآية إن كانت سابقة على تحريم الخمر.. فدالةٌ على كراهتها، وإلا.. فجامعة بين العتاب والمنة).

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾

ثم يُتركُ حتى يشتدَّ، وهو حلالٌ عند أبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله إلى حدِّ السكرِ، ويحتجان بهذه الآية، وبقوله عليه السلام: «الخمر حرام لعينها، والسكرُ من كلِّ شرابٍ»[١]، وبأخبار جمَّةٍ[٢]، ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ هو: الخلُّ والرُّبُّ والتمرُ والزبيبُ وغيرُ ذلك[٣]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾.

《٦٨》 ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾: وألْهَمَ ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾: هي (أن) المفسرة؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول، قال الزجاجُ: واحدُ النحلِ: نحلةٌ، كنخلٍ ونخلةٍ[٤]. والتأنيثُ باعتبار هذا[٥]، و(مِن) في (من الجبال) ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨﴾: يرفعون من سقوفِ البيت، أو: ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تَتَعَسَّلُ فيها.. للتبعيض؛ لأنها لا تَبني بيوتَها في كلِّ جبلٍ وكلِّ شجرٍ وكلِّ ما يُعْرَشُ، والضميرُ في (يعرشون): للناس، وبضم الراء: شاميٌّ وأبو بكر[٦].

《٦٩》 ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: ابني البيوتَ ثم كلي كلَّ ثمرةٍ تشتهيها، فإذا أكلتِها ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾: فادخلي الطرقَ التي ألهمكِ وأفهمكِ في عملِ العسلِ، أو: إذا أكلتِ الثمارَ في المواضع البعيدة من بيوتك.. فاسلكي إلى بيوتك راجعةً سبلَ ربِّك لا تَضِلين فيها، ﴿ذُلُلًا﴾: جمعُ ذَلولٍ، وهي حالٌ من السبل؛ لأن الله تعالى ذلَّلها وسهَّلها، أو من الضمير في (فاسلكي) أي: وأنت ذُلُلٌ منقادةٌ لما أُمرتِ به غيرُ ممتنعةٍ، ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ يريدُ: العسلَ؛ لأنه مما يشربُ، تلقيه مِن فِيْها، ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾: منه أبيضُ وأصفرُ وأحمرُ مِن الشبابِ والكهولِ

---

(١) رواه النسائي في «المجتبى» (٨/ ٣٢١) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً قال: «حرمت الخمر بعينها قليلها وكثيرها، والسكرُ من كل شراب».

(٢) انظر «المبسوط» للسرخسي (٢٤/ ١٢). ولكن الفتوى في المذهب الحنفي على قول الإمام محمد وهو أن كلَّ مسكر حرامٌ، قليلُه وكثيرُه. انظر «الدر المختار وحاشية ابن عابدين» (٦/ ٤٥٥).

(٣) الرُّبُّ: دِبْسُ الرطب إذا طبخ.

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٢١٠).

(٥) النحل: اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء، فيجوز تذكيره باعتبار لفظه، وتأنيثه باعتبار معناه، وهو أنه طائفة منه وجماعة، والتأنيثُ لغةُ أهلِ الحجازِ. انظر «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٥/ ٣٤٧).

(٦) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٠).

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ....

والشِّيْبِ[١]، أو على ألوانِ أغذيتِها، ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ لأنه من جملةِ الأدويةِ النافعةِ، وقلَّ معجونٌ من المعاجين لم يذكر الأطباءُ فيه العسلَ، وليس الغرضُ أنه شفاء لكل مريضٍ، كما أن كلَّ دواءٍ كذلك، وتنكيرُه لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن فيه بعضَ الشفاءِ؛ لأن النكرة في الإثبات تخصُّ، وشكا رجلٌ استطلاقَ بطنِ أخيه فقال عليه السلام: «اسقِه عسلاً» فجاءه وقال: زاده شرّاً، فقال عليه السلام: «صدق الله وكذب بطنُ أخيك، اسقِه عسلاً»، فسقاه فصحَّ[٢]، وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه: العسلُ شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفاءين: القرآنِ والعسلِ[٣]، ومِن بدعِ الروافضِ أن المراد بالنحلِ: عليٌّ وقومُه، وعن بعضِهم: أنه قال عند المهديِّ: إنما النحلُ بنو هاشم، يخرجُ من بطونهم العلمُ، فقال له رجل: جعل اللهُ طعامَك وشرابَك مما يخرجُ من بطونهم، فضحك المهديُّ، وحَدَّثَ به المنصورَ فاتخذوه أضحوكةً من أضاحيكهم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ في عجيبِ أمرِها فيعلمون أن الله أودعَها علماً بذلك وفطَّنَها، كما أعطَى أولي العقول عقولَهم.

《٧٠》 ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ بقبضِ أرواحِكم من أبدانكم، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: إلى أَخَسِّهِ وأحقرِه، وهو خمسٌ وسبعون سنةً، أو ثمانون، أو تِسعون، ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾: لينسَى ما يَعلمُ، أو لئلا يعلمَ زيادةَ علمٍ على علمِه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بحكم التحويلِ إلى الأرذلِ من الأكملِ، أو إلى الإفناء من الإحياء، ﴿قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ على تبديلِ ما يَشاءُ كما يشاءُ من الأشياء.

《٧١》 ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ أي: جعلكم متفاوتين في الرزقِ، فرزقكم أفضلَ مما رزق مماليكَكم وهم بَشَرٌ مثلُكم، ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ في الرزق؛ يعني: المُلّاكَ،

---

(١) أي: يختلف لون العسل بحسب اختلاف سنِّ النحل.

(٢) رواه بنحوه البخاري (٥٦٨٤) ومسلم (٢٢١٧) عن سيدنا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) روى ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٢٦) أولَه إلى قوله: (في الصدور)، وباقيَه في «المصنف» (٥/ ٦٠)، وفي «سنن ابن ماجه» (٣٤٥٢) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «عليكم بالشفاءين: العسل، والقرآن».

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ....

﴿بِرَآدِّى﴾: بمعطِي ﴿رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ فكان ينبغي أن تردُّوا فضلَ ما رُزقتموه عليهم حتى تَتساوَوا في الملبسِ والمطعم، ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾: جملةٌ اسميةٌ وقعت في موضعِ جملةٍ فعليةٍ في موضع النصب؛ لأنه جوابُ النفي بالفاء، وتقديرُه: فما الذين فضلوا برادِّي رزقِهم على ما ملكت أيمانُهم فيستووا مع عبيدهم في الرزقِ، وهو مثلٌ ضربه الله للذين جعلُوا له شركاء فقال لهم: أنتم لا تُسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمتُ به عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضَون ذلك لأنفسكم، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ وبالتاء: أبو بكرٍ[1]، فجعل ذلك من جملةِ جحودِ النعمة.

《٧٢》 ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: من جنسِكم، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: جمعُ حافدٍ، وهو الذي يَحْفِدُ؛ أي: يُسرعُ في الطاعة والخدمة، ومنه قولُ القانت: «وإليك نسعى ونحفِدُ»[2]، واختلف فيه، فقيل: هم الأَخْتانُ على البنات[3]، وقيل: أولادُ الأولادِ؛ أو: المعنى: وجعل لكم حفدةً؛ أي: خدماً يحفِدون في مصالحِكم ويُعينونكم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: بعضَها؛ لأن كلَّ الطيبات في الجنة، وطيباتُ الدنيا أُنموذجٌ منها، ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ هو: ما يعتقدونه من منفعةِ الأصنام وشفاعتِها، ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: الإسلام ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أو: الباطلُ: الشيطانُ، والنعمةُ: محمدٌ ﷺ، أو: الباطل: ما يُسوِّلُ لهم الشيطانُ من تحريم البحيرةِ والسائبةِ وغيرِهما، ونعمةُ اللهِ: ما أحلَّ لهم.

《٧٣》 ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾: أي: الصنمَ، وهو جمادٌ لا يملك أن يرزقَ شيئاً، فالرزقُ يكون بمعنى المصدر، وبمعنى ما يُرزقُ، فإن أردتَ المصدرَ.. نصبتَ به شيئاً؛ أي: لا يملك أن يرزقَ شيئاً، وإن أردت المرزوقَ.. كان (شيئاً) بدلاً منه؛ أي: قليلاً، و(من السموات والأرض): صلةٌ للرزق إن كان مصدراً؛ أي: لا يَرزقُ من السموات مطراً، ولا من الأرض نباتاً، وصفةٌ إن كان اسماً لما يُرزقُ، والضميرُ في ﴿وَلَا

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٠).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢١٠) عن خالد بن أبي عمران مرفوعاً.

(٣) الأَختانُ: جمعُ خَتَنٍ، وهو زوجُ البنتِ.

فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ......

﴿يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾: لـ(ما)؛ لأنه في معنى الآلهةِ، بعد ما قال: (لا يملك): على اللفظ؛ والمعنى: لا يملكون الرزقَ ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتَّى ذلك منهم.

《٧٤》 ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾: فلا تجعلوا لله مثلاً؛ فإنه لا مثلَ له؛ أي: فلا تجعلوا له شركاءَ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أنه لا مثلَ له من الخلقِ، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ذلك، أو: إن الله يعلمُ كيف يضربُ الأمثالَ، وأنتم لا تعلمون ذلك، والوجهُ الأولُ.

《٧٥》 ثم ضرب المثلَ فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا﴾: هو بدلٌ من (مثلاً) ﴿مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾: مصدران في موضع الحال؛ أي: مثلُكم في إشراكِكم بالله الأوثانَ مثلُ من سوَّى بين عبدٍ مملوكٍ عاجزٍ عن التصرف، وبين حرٍّ مالكٍ قد رزقَه اللهُ مالاً فهو يتصرفُ فيه وينفقُ منه كيف شاء، وقيَّدَ بالمملوك؛ ليميزه من الحرِّ؛ لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً؛ إذ هما من عباد الله، وبـ(لا يقدر على شيء)؛ ليمتازَ من المكاتبِ والمأذونِ، فهما يقدرانِ على التصرف، و(مَن): موصوفةٌ؛ أي: وحُرّاً رزقناه؛ ليطابق عبداً، أو: موصولةٌ، ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾: جمعَ الضميرَ لإرادة الجمع؛ أي: لا يستوي القبيلان، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أن الحمدَ والعبادةَ لله.

《٧٦》 ثم زاد في البيان فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ الأبكمُ: الذي وُلِدَ أخرسَ فلا يَفْهمُ ولا يُفْهِمُ، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ أي: ثِقَلٌ وعِيالٌ على مَن يلي أمرَه ويعولُه، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾: حيثما يرسلُه ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم.. لم ينفع ولم يأت بنُجْحٍ، ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: ومن هو سليم الحواس نَفّاعٌ ذو كِفايات مع رُشْدٍ ودِيانة فهو يأمر الناس بالعدل والخير، ﴿وَهُوَ﴾ في نفسِه ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾: على سيرةٍ صالحةٍ ودينٍ قويمٍ، وهذا مثلٌ ثانٍ ضربه لنفسه، ولما يُفيضُ على عباده من آثار رحمته ونعمته، وللأصنام التي هي أموات لا تضرُّ ولا تنفعُ.

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ....

《٧٧》 ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يختصُّ به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفي عليهم علمُه، أو: أراد بغيب السمواتِ والأرضِ: يومَ القيامةِ، على أن علمَه غائبٌ عن أهلِ السموات والأرض لم يَطلعْ عليه أحدٌ منهم، ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ في قربِ كونِها وسرعةِ قيامِها ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾: كرجْعِ طرفٍ، وإنما ضُربَ به المثل لأنه لا يُعرفُ زمانٌ أقلُّ منه، ﴿أَوْ هُوَ﴾ أي: الأمرُ ﴿أَقْرَبُ﴾، وليس هذا لشكِّ المخاطِبِ، ولكن المعنى: كُونوا في كونها على هذا الاعتبار، وقيل: بل هو أقرب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ فهو يقدرُ على أن يُقِيمَ الساعةَ ويبعثَ الخلقَ؛ لأنه بعضُ المقدورات.

《٧٨》 ثم دلَّ على قدرته بما بعده فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وبكسرِ الألفِ وفتحِ الميم: عليٌّ؛ إتباعاً لكسرةِ النون، وبكسرِهما: حمزةُ[1]، والهاءُ مزيدةٌ في (أمهات) للتوكيد، كما زيدت في: أراق، فقيل: أهْراق، وشذت زيادتُها في الواحدة[2]، ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾: حالٌ؛ أي: غيرَ عالِمين شيئاً من حقِّ المُنْعِم الذي خلقكم في البطون، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: وما ركَّبَ فيكم هذه الأشياءَ إلا آلاتٍ لإزالةِ الجهلِ الذي وُلدتم عليه، واجتلابِ العلمِ والعملِ به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه، والأفئدةُ في فؤادٍ: كالأغربةِ في غُرابٍ، وهو من جموع القلةِ التي جرت مجرى جموعِ الكثرةِ؛ لعدم السماع في غيرِها.

《٧٩》 ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ وبالتاءِ: شاميٌّ وحمزةُ[3]، ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾: مُذَلَّلاتٍ للطيران بما خلقَ لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك، ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ هو: الهواءُ المتباعِدُ من الأرض في سَمْتِ العُلْوِ، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في قبضِهن وبسطِهن ووقوفِهن ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بقدرتِه، وفيه نفيٌ لما يُصوِّره الوهمُ من خاصيةِ القُوى الطبيعيةِ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ بأن الخلق لا غنى به عن الخالق.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨١).

(٢) فيقال للأم: أُمَّهَةٌ.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨١).

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ ....

《٨٠》 ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ هو (فَعَلٌ) بمعنى (مفعول) أي: ما يُسكنُ إليه ويُنقطعُ إليه من بيتٍ أو إِلْفٍ، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ هي: قِبابُ الأَدَمِ، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾: تَرَونها خفيفةَ المَحْمِلِ في الضرب والنقض والنقل، ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ بسكون العين: كوفيٌّ وشاميٌّ، وبفتح العين: غيرُهم، والظعَنُ: بفتح العين وسكونِها: الارتحالُ، ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾: قرارِكم في منازِلكم؛ والمعنى: أنها خفيفةٌ عليكم في أوقاتِ السفرِ والحضرِ، على أن اليوم بمعنى الوقتِ، ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أي: أصوافِ الضأنِ، ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾: وأوبارِ الإبلِ، ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾: وأشعارِ المعزِ، ﴿أَثَاثًا﴾: متاعَ البيتِ، ﴿وَمَتَاعًا﴾: وشيئاً يُنتفعُ به ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾: مدةٍ من الزمان.

《٨١》 ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾: كالأشجارِ والسقوفِ، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾: جمعُ كِنٍّ، وهو: ما سترك من كهفٍ أو غارٍ، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ هي: القُمصانُ والثيابُ من الصوفِ والكَتانِ والقُطنِ، ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وهي تقيْ البردَ أيضاً، إلا أنه اكتفِيَ بأحد الضدين، ولأن الوقاية من الحرِّ أهمُّ عندهم؛ لكون البرد يسيراً محتملاً، ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾: ودُروعاً من الحديد تردُّ عنكم سلاحَ عدوِّكم في قتالكم، والبأسُ: شدةُ الحربِ، والسِّربالُ: عامٌّ يقع على ما كان من حديدٍ أو غيرِه، ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: تنظرون في نعمته الفائضةِ فتؤمنون به وتنقادون له.

《٨٢》 ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أعرضُوا عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ أي: فلا تبعةَ عليك في ذلك؛ لأن الذي عليك هو التبليغُ الظاهرُ، وقد فعلتَ.

《٨٣》 ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي عدَّدْناها.. بأقوالهم؛ فإنهم يقولون: إنها من الله، ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بأفعالهم؛ حيث عبدُوا غيرَ المنعم، أو في الشدة ثم في الرخاء، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: الجاحدون غيرُ المعترفين، أو: نعمةُ الله: نبوةُ محمد ﷺ، كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عناداً، وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم، و(ثم): يدلُّ على أن إنكارهم أمرٌ مستبعدٌ بعد حصول المعرفة؛ لأن حقَّ مَن عرف النعمةَ أن يعترفَ، لا أن ينكرَ.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ....

《٨٤》 ﴿وَيَوْمَ﴾: انتصابُه بـ: اذكر، ﴿نَبْعَثُ﴾: نحشرُ ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾: نبيّاً يشهدُ لهم وعليهم بالتصديق والتكذيبِ، والإيمانِ والكفرِ، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار؛ والمعنى: لا حجةَ لهم، فدلَّ بترك الإذنِ على أنْ لا حجةَ لهم ولا عذرَ، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾: ولا هم يُسترضَون؛ أي: لا يقال لهم: أرضُوا ربَّكم؛ لأن الآخرة ليست بدار عمل؛ ومعنى (ثم): أنهم يُمْنَوْنَ بعد شهادةِ الأنبياء عليهم السلام بما هو أطمُّ منها[1]، وهو أنهم يُمنعون الكلامَ فلا يؤذنُ لهم في إلقاءِ معذرةٍ ولا إدلاءٍ بحجةٍ.

《٨٥》 ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: كفروا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: العذابُ بعد الدخول، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾: يُمهلون قبلَه.

《٨٦》 ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾: أوثانهم التي عبدوها، ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا﴾ أي: آلهتُنا التي جعلناها شركاءَ، ﴿الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ أي: نعبدُ، ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: أجابوهم بالتكذيب؛ لأنها كانت جماداً لا تعرفُ مَن عبدَها، ويحتملُ أنهم كذَّبوهم في تسميتِهم شركاءَ وآلهةً؛ تنزيهاً لله من الشركِ.

《٨٧》 ﴿وَأَلْقَوْا﴾ يعني: الذين ظلموا ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ إلقاءُ السلمِ: الاستسلامُ لأمر الله وحكمِه بعد الإباء والاستكبارِ في الدنيا، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: وبطلَ عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ من أن لله شركاءَ، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

《٨٨》 ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أنفسِهم، ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وحَملُوا غيرَهم على الكفر ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أي: عذاباً بكفرهم، وعذاباً بصدهم عن سبيل الله، ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾: بكونهم مفسدين الناسَ بالصدِّ.

---

(١) يُمْنَوْنَ: يُبتلَون.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ ....

《٨٩》 ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: نبيَّهم؛ لأنه كان يُبعث أنبياءُ الأممِ فيهم منهم، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمدُ ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾: على أمتك، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا﴾ بليغاً ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين، أما في الأحكامِ المنصوصةِ.. فظاهرٌ، وكذا فيما ثبت بالسنة، أو بالإجماع، أو بقول الصحابة، أو بالقياس؛ لأن مرجع الكل إلى الكتاب؛ حيث أَمَرَنا فيه باتباع رسوله عليه السلام وطاعتِه بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢]، وحثَّنا على الإجماع فيه بقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]، وقد رضي رسولُ الله ﷺ لأمته باتباع أصحابه بقوله: «أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتم.. اهتديتم»[١]، وقد اجتهدُوا وقاسُوا ووَطَّؤُوا طرقَ الاجتهادِ والقياس، مع أنه أَمَرنا به بقوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، فكانت السنةُ والإجماعُ وقولُ الصحابي والقياسُ مستندةً إلى تِبيانِ الكتاب، فتبيَّنَ أنه كان تِبياناً لكلِّ شيء، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾: ودلالةً إلى الحق، ورحمةً لهم، وبشارةً لهم بالجنة.

《٩٠》 ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾: بالتسويةِ في الحقوق فيما بينكم وتركِ الظلم وإيصالِ كلِّ ذي حقٍّ إلى حقِّه، ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ إلى من أساء إليكم، أو: هما: الفرضُ والندبُ؛ لأن الفرض لا بدَّ من أن يقع فيه تفريطٌ فيجبرُه الندب، ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾: وإعطاءِ ذي القرابة وهو صلةُ الرحم، ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾: عن الذنوب المفرطةِ في القبح، ﴿وَالْمُنكَرِ﴾: ما تنكره العقولُ، ﴿وَالْبَغْيِ﴾: طلبِ التطاولِ بالظلم والكبرِ، ﴿يَعِظُكُمْ﴾: حالٌ أو مستأنفٌ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾: تتعظون بمواعظِ اللهِ، وهذه الآيةُ سببُ إسلامِ عثمانَ بنِ مظعونٍ؛ فإنه قال: ما كنتُ أسلمتُ إلا حياءً منه عليه السلام؛ لكثرةِ ما كان يَعْرِضُ عليَّ الإسلامَ ولم يستقرَّ الإيمانُ في قلبي حتى نزلت هذه الآيةُ وأنا عنده، فاستقرَّ الإيمانُ في قلبي، فقرأتها على الوليد بن المغيرةِ فقال: واللهِ إن له لحلاوةً، وإن عليه لطُلاوةً[٢]، وإن أعلاه لمثمرٌ، وإن أسفله لمُغْدِقٌ[٣]، وما هو

(١) قال الحافظ ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٢٤): هذا الكلام لا يصح عن النبي صلى الله عليه. وانظر «البدر المنير» لابن الملقن (٩/ ٥٨٤).

(٢) الطُّلاوة: الحسن.

(٣) مُغْدِق: مُبْتَلٌّ ريّانُ.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

بقولِ البشر[١]. وقال أبو جهل: إن إلهه ليأمرُ بمكارمِ الأخلاقِ. وهي أجمعُ آيةٍ في القرآن للخيرِ والشر، ولذا يقرؤُها كلُّ خطيبٍ على المنبر في آخرِ كلِّ خطبةٍ؛ لتكون عظةً جامعةً لكلِّ مأمورٍ ومنهيٍّ.

《٩١》 ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ هي: البيعةُ لرسولِ الله ﷺ على الإسلام، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾: أيمانَ البيعةِ ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: بعد توثيقِها باسم الله، وأَكَّدَ، وَوَكَّدَ: لغتان فصيحتان، والأصلُ: الواوُ، والهمزةُ بدلٌ منها، ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾: شاهداً ورقيباً؛ لأن الكفيلَ مُراعٍ لحالِ المكفولِ به، مُهَيْمِنٌ عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ من البرِّ والحِنْثِ فيجازيكم به.

《٩٢》 ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ في نقضِ الأيمانِ ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾: كالمرأة التي أَنْحَتْ على غزلها بعد أن أحكمتْه وأبرمتْه فجعلتْه ﴿أَنكَٰثًا﴾: جمعُ نِكْثٍ، وهو ما يُنكَثُ فتلُه، قيل: هي رَيطة، وكانت حمقاءَ تَغْزِلُ هي وجوارِيها من الغداةِ إلى الظهرِ، ثم تأمرُهن فينقضن ما غزلن، ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ﴾: حالٌ كـ(أنكاثاً)، ﴿دَخَلًۢا﴾: أحدُ مفعولي (تتخذ) أي: ولا تنقضوا أيمانَكم متخذيها دخلاً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي: مَفْسَدةً وخِيانةً؛ ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾: بسببِ أن تكون أمةٌ؛ يعني: جماعةَ قريشٍ، ﴿هِىَ أَرْبَىٰ﴾: هي أزيدُ عدداً، وأوفرُ مالاً ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾: من جماعةِ المؤمنين، (هي أربى): مبتدأٌ وخبرٌ في موضعِ الرفعِ صفةٌ لـ(أمةٌ)، و(أمةٌ): فاعلُ (تكون)، وهي تامةٌ، و(هي) ليست بفصلٍ[٢]؛ لوقوعِها بين نكرتين، ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ الضميرُ: للمصدرِ؛ أي: إنما يختبرُكم بكونِهم أربى؛ لِيَنْظُرَ أتتمسكون بحبلِ الوفاءِ بعهدِ اللهِ وما وَكَّدْتُم من أيمانِ البيعةِ لرسولِ الله ﷺ، أم تغترُّون بكثرةِ قريشٍ وثروتِهم وقلةِ المؤمنين وفقرِهم، ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب، وفيه تحذيرٌ عن مخالفةِ ملةِ الإسلام.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٢٨٨)، دون قصة سيدنا عثمان رضي الله عنه.

(٢) أي: لا يصح إعرابها ضميرَ فصلٍ.

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ....

《٩٣》 ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: حنيفةً مسلمةً، ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾: من علمَ منه اختيارَ الضلالةِ، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: من علم منه اختيارَ الهدايةِ، ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ يوم القيامة فتُجْزون به.

《٩٤》 ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾: كررَ النهيَ عن اتخاذِ الأيمان دخلاً بينهم؛ تأكيداً عليهم، وإظهاراً لِعِظَمِهِ، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾: فتزلَّ أقدامُكم عن مَحَجَّةِ الإسلامِ بعدَ ثبوتِها عليها، وإنما وُحِّدَتِ القدمُ ونكرت؛ لاستعظامِ أن تزل قدمٌ واحدةٌ عن طريق الحق بعد أن تثبت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟ ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ في الدنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾: بصدودكم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وخروجِكم عن الدين، أو: بصدِّكم غيرَكم؛ لأنهم لو نقضوا أيمانَ البيعةِ وارتدُّوا. لاتخذوا نقضَها سُنَّةً لغيرهم يستنُّون بها، ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ في الآخرة.

《٩٥》 ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ﴾: ولا تستبدلوا ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ وبيعةِ رسولِ الله ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: عرضاً من الدنيا يسيراً، كأن قوماً ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطانُ لجزعهم مما رأوا من غلبةِ قريش واستضعافِهم المسلمين، ولما كانوا يَعِدُونهم إن رجعوا من المواعيد أن يَنقضُوا ما بايَعوا عليه رسول الله ﷺ، فثبتهم اللهُ، ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من ثوابِ الآخرةِ ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

《٩٦》 ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من أعراضِ الدنيا ﴿يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من خزائنِ رحمتِه ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفدُ، ﴿وَلَيَجْزِيَنَّ﴾ وبالنونِ: مكيٌّ وعاصمٌ[1]، ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على أذى المشركين ومشاقِّ الإسلامِ ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

《٩٧》 ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ (من): مبهمٌ يتناولُ النوعين، إلا أن ظاهرَه للذكور، فبيَّنَ بقوله: ﴿من ذكر أو أنثى﴾ ليعمَّ الموْعِدُ النوعين، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرطَ الإيمانَ؛

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٢).

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ ....﴾

لأن أعمال الكفار غيرُ معتدٍّ بها، وهو يدلُّ على أن العمل ليس من الإيمان، ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ وعده اللهُ ثوابَ الدنيا والآخرةِ، كقوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً يعيشُ عَيشاً طيّباً، إن كان موسراً.. فظاهرٌ، وإن كان معسراً.. فمعه ما يُطَيِّبُ عيشَه وهو القناعةُ والرضا بقسمةِ اللهِ تعالى، وأما الفاجرُ.. فأمره بالعكس، إن كان معسراً.. فظاهرٌ، وإن كان موسراً.. فالحرصُ لا يدعُه أن يتهنأَ بعيشِه، وقيل: الحياةُ الطيبةُ القناعةُ، أو حلاوةُ الطاعةِ، أو المعرفةُ بالله، وصدقُ المقامِ مع الله، وصدقُ الوقوفِ على أمر الله، والإعراضُ عما سوى الله.

《٩٨》 ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: فإذا أردتَ قراءةَ القرآنِ ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فعبَّرَ عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؛ لأنها سببٌ له[١]، والفاءُ لتعقيبِ أن القراءةَ بالاستعاذة من العمل الصالح المذكور، ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني: إبليسَ، ﴿ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾: المطرودِ الملعونِ، قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: قرأتُ على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي: «قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام»[٢].

《٩٩》 ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ﴾: لإبليسَ ﴿سُلْطَٰنٌ﴾: تسلطٌ وولايةٌ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ فالمؤمنُ المتوكلُ لا يَقبل منه وساوسَه.

《١٠٠》 ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾: يتخذونه وليّاً ويتبعون وساوسَه، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ الضميرُ يعودُ إلى ربهم، أو إلى الشيطان؛ أي: بسببه.

《١٠١》 ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ تبديلُ الآيةِ مكانَ الآيةِ هو النسخُ، والله تعالى ينسخُ الشرائعَ بالشرائع لحكمةٍ رآها، وهو معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ وبالتخفيفِ: مكيٌّ وأبو عمرٍو[٣]، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾: هو جوابُ (إذا)، وقولُه: (والله أعلم بما ينزل):

---

(١) فهو مجاز مرسل، من إطلاقِ المسببِ وإرادة السببِ.

(٢) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٦/ ٤١).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٢) وكذا القراءة الآتية.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ....﴾

اعتراضٌ، كانوا يقولون: إن محمداً يسخرُ بأصحابه، يأمرهم اليومَ بأمر وينهاهم عنه غداً، فيأتيهم بما هو أهونُ، ولقد افترَوا، فقد كان يُنسخُ الأشقُّ بالأهونِ، والأهونُ بالأشقِّ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ الحكمةَ في ذلك.

《١٠٢》 ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: جبريلُ عليه السلام، أضيف إلى القدس وهو الطهرُ، كما يقال: حاتِمُ الجودِ؛ والمرادُ: الروحُ المقدَّسُ، وحاتِمُ الجوادُ، والمقدَّسُ: المطهرُ من المآثم، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: من عنده وأمرِه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حالٌ؛ أي: نزله ملتبساً بالحكمةِ؛ ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: ليبلوَهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه: هو الحقُّ من ربنا والحكمة؛ لأنه حكيم لا يفعل إلا ما هو حكمة وصوابٌ.. حكم لهم بثبات القدمِ، وصحةِ اليقين، وطمأنينةِ القلوبِ، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾: مفعولٌ لهما معطوفان على محلِّ (ليثبت)، والتقديرُ: تثبيتاً لهم وإرشاداً وبشارةً ﴿لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وفيه تعريضٌ بحصولِ أضدادِ هذه الخصالِ لغيرهم.

《١٠٣》 ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ أرادوا به غلاماً كان لِحُويطبٍ قد أسلم وحسن إسلامُه، اسمه عائشٌ أو يعيشُ، وكان صاحبَ كتبٍ، أو: هو جَبْرٌ، غلامٌ روميٌّ، أو: عبدانِ: جبرٌ ويسارٌ، كانا يقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسولُ الله ﷺ يسمعُ ما يقرآن، أو: سلمانُ الفارسيُّ، ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ وبفتح الياءِ والحاءِ: حمزةُ وعليٌّ، ﴿أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: لسانُ الرجل الذي يُميلون قولَهم عن الاستقامة إليه لسانٌ أعجميٌّ غيرُ بَيِّنٍ، وهذا القرآن لسان عربي مبين ذو بيان وفصاحة؛ ردّاً لقولهم وإبطالاً لطعنهم، وهذه الجملة؛ أعني: (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي): لا محل لها؛ لأنها مستأنفةٌ جوابُ لقولهم، واللسانُ: اللغةُ، ويقال: أَلْحَدَ القبرَ ولَحَدَه، وهو مُلْحَدٌ ومَلحودٌ: إذا أمال حفرَه عن الاستقامة فحفرَ في شقٍّ منه، ثم استعيرَ لكلِّ إمالةٍ عن الاستقامة، فقالوا: ألحدَ فلانٌ في قوله، وألحدَ في دينه، ومنه المُلْحِدُ؛ لأنه أمالَ مذهبَه عن الأديان كلِّها.

《١٠٤》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآنِ ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ ما داموا مختارين للكفرِ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ في الآخرة على كفرهم.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾ ....

《١٠٥》 ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ على الله ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: إنما يليق افتراءُ الكذب بمن لا يؤمنُ؛ لأنه لا يَتَرَقَّبُ عِقاباً عليه، وهو ردٌّ لقولهم: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾، ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾: إشارةٌ إلى الذين لا يؤمنون؛ أي: وأولئك ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾ على الحقيقةِ، الكاملون في الكذب؛ لأن تكذيب آيات الله أعظمُ الكذبِ، أو: وأولئك هم الكاذبون في قولهم: إنما أنت مفتر.

《١٠٦》 جَوَّزُوا أن يكون ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾: شرطاً مبتدأً وحذف جوابُه؛ لأن جواب (من شرح) دالٌّ عليه، كأنه قيل: من كفر بالله.. فعليهم غضب، ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾: ساكن به، ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: طاب به نفساً واعتقدَه ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾، وأن يكون بدلاً من (الذين لا يؤمنون بآيات الله)، على أن يجعل (وأولئك هم الكاذبون) اعتراضاً بين البدل والمبدل منه؛ والمعنى: إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه، واستثنَى منهم المكرهَ فلم يدخلْ تحت حكم الافتراء، ثم قال: ولكن من شرح بالكفر صدراً.. فعليهم غضبٌ من الله، وأن يكون بدلاً من المبتدأ الذي هو (أولئك) أي: ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون، أو: من الخبر الذي هو (الكاذبون) أي: وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانِه، وأن ينتصب على الذمِّ.

روي: أن ناساً من أهل مكة فُتِنُوا فارتدُّوا وكان فيهم من أكره فأجرَى كلمةَ الكفرِ على لسانه وهو معتقدٌ للإيمان، منهم عمارٌ، وأما أبواه ياسرٌ وسميةُ.. فقد قُتلا، وهما أولُ قتيلين في الإسلام، فقيل لرسول الله ﷺ: إن عماراً كفرَ فقال: «كلا إن عماراً مُلِئَ إيماناً من قَرْنِه إلى قدمِه واختلط الايمانُ بلحمِه ودمِه»، فأتى عمارٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل رسولُ الله ﷺ يمسحُ عينيه، وقال: «ما لك؟ إن عادُوا لك.. فَعُدْهم بما قلتَ»[1]، وما فعل أبو عمار أفضلُ؛ لأن في الصبر على القتل إعزازاً للإسلام.

---

(١) روى الآجري في «الشريعة» (٥/ ٢٣٣٣) أن سيدنا عليّاً رضي الله عنه سئل عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما فقال: خلط الله عزَّ وجلَّ الإيمان ما بين قرنه إلى قدمه، وخلط الإيمان بلحمه ودمه، يزول مع الحق حيث زال، وليس ينبغي للنار أن تأكل منه شيئاً. وروى البيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٠٨) عن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وذكر آلهتَهم بخير ثم =

ﵟذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠ ۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١ﵞ

《١٠٧》 ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى الوعيدِ، وهو لحوقُ الغضبِ والعذابِ العظيمِ ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ﴾: آثروا ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: بسبب إيثارِهم الدنيا على الآخرة، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾: ما داموا مختارين الكفر.

《١٠٨》 ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾ فلا يتدبرون ولا يُصغون إلى المواعظ، ولا يبصرون طريق الرشادِ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾ أي: الكاملون في الغفلة؛ لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غايةُ الغفلةِ ومنتهاها.

《١٠٩》 ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾.

《١١٠》 ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ (ثم): يدل على تباعدِ حالِ هؤلاءِ من حالِ أولئك، ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ من مكةَ؛ أي: أنه لهم لا عليهم[1]؛ يعني: أنه وليُّهم وناصرُهم، لا عدوُّهم وخاذلُهم، كما يكون الملكُ للرجل لا عليه، فيكون محميّاً منفوعاً غيرَ مَضرور، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ بالعذاب والإكراه على الكفر، ﴿فَتَنُوا﴾: شاميٌّ[2]؛ أي: بعد ما عذَّبوا المؤمنين ثم أسلمُوا، ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾ المشركين بعد الهجرةِ، ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾ على الجهاد، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾: من بعد هذه الأفعالِ، وهي الهجرةُ والجهادُ والصبرُ ﴿لَغَفُورٞ﴾ لهم ما كان منهم من التكلم بكلمةِ الكفرِ تَقِيَّةً، ﴿رَّحِيمٞ ١١٠﴾ لا يعذبُهم على ما قالوا في حالةِ الإكراهِ.

《١١١》 ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي﴾: منصوبٌ بـ﴿رَّحِيمٞ﴾، أو بـ: اذكر، ﴿كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾

= تركوه، فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما وراءك؟» قال: شرٌّ يا رسول الله، ما تُرِكْتُ حتى نلتُ منك وذكرت آلهتَهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئنّاً بالإيمان قال: «إن عادوا . . فعد».

(١) أي: أن (للذين) متعلق بخبر (إن)، وقيل: خبر (إن): (لغفور رحيم)، و(إن) الثانيةُ واسمُها تأكيدٌ للأولى واسمِها، فكأنه قيل: ثم إن ربك إن ربك لغفور رحيم، و(للذين) يتعلق بـ: (غفور) أو (رحيم)، أو بمحذوف، تقديره: الغفرانُ والرحمةُ للذين هاجروا. انظر «الدر المصون» (٧/ ٢٩١).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٣).

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ ....

وإنما أضيفت النفسُ إلى النفس؛ لأنه يقال لِعَيْنِ الشيءِ وذاتِه: نفسُه، وفي نقيضِه: غيرُه، والنفسُ: الجملةُ كما هي، فالنفس الأولى هي: الجملةُ، والثانيةُ: عينُها وذاتُها، فكأنه قيل: يومَ يأتي كلُّ إنسان يجادل عن ذاته لا يَهمُّه شأنُ غيرِه، كلٌّ يقول: نفسي نفسي، ومعنى المجادلةِ عنها: الاعتذارُ، كقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] الآيةَ، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾: تُعطَى جزاءَ عملِها وافياً، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ في ذلك.

《١١٢》 ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي: جعل القريةَ التي هذه حالها.. مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمةُ، فكفروا وتولَّوا، فأنزل اللهُ بهم نِقْمَتَه، فيجوز أن يرادَ قريةٌ مُقَدَّرَةٌ على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأولين قريةٌ كانت هذه حالَها، فضربها الله مثلاً لمكةَ إنذاراً مِن مثلِ عاقبتِها، ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ من القتلِ والسبي، ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾: لا يُزعجُها خوفٌ، لأن الطمأنينة مع الأمن، والانزعاجَ والقلقَ مع الخوف، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾: واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾: من كلِّ بلدٍ، ﴿فَكَفَرَتْ﴾ أهلُها ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾: جمعُ نعمةٍ؛ على ترك الاعتدادِ بالتاءِ، كدِرعٍ وأَدْرُعٍ[1]، أو: جمعُ نُعْمٍ، كبُؤْسٍ وأَبْؤُسٍ، ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ الإذاقةُ واللباسُ: استعارتان، والإذاقةُ المستعارةُ مُوقَعَةٌ على اللباس المستعار، ووجهُ صحةِ ذلك: أن الإذاقةَ جاريةٌ عندهم مَجرى الحقيقةِ لشيوعِها في البلايا والشدائدِ وما يَمَسُّ الناسَ منها، فيقولون: ذاق فلانٌ البؤسَ والضرَّ، وأذاقه العذابَ، شُبِّهَ ما يُدرَكُ من أثر الضرر والألم بما يُدرَكُ من طعمِ المرِّ والبَشِعِ، وأما اللباس.. فقد شُبِّهَ به؛ لاشتماله على اللابسِ.. ما غَشَّى الإنسانَ والتبسَ به من بعض الحوادثِ، وأما إيقاعُ الإذاقةِ على لباس الجوع والخوف؛ فلأنه لما وقعَ عبارةً عمّا يَغشَى منهما ويُلابِسُ.. فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيَهم من الجوع والخوف.

《١١٣》 ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: محمدٌ ﷺ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: في حال التباسِهم بالظلم، وقالوا: إنه القتل بالسيف يومَ بدرٍ، روي: أن رسول الله ﷺ وَجَّهَ إلى أهلِ مكةَ في سِنِيْ القحطِ بطعامٍ، فَفُرِّقَ فيهم، فقال الله لهم بعد أن أذاقهم الجوعَ:

---

(١) أي: أن (نعمة) لا تجمع على (أنعم) إلا بتقدير إسقاطِ التاءِ؛ وفي «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٥٨١): وقد كُسّرت (فِعلةٌ) على (أفعُلٍ)، وذلك قليل عزيز، ليس بالأصل.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ ....

《١١٤》 ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ على يَدَي محمدٍ ﷺ ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ بدلاً عما كنتم تأكلونه حراماً خبيثاً من الأموال المأخوذةِ بالغاراتِ والغُصُوبِ وخبائثِ الكُسوبِ، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾: تطيعون، أو: إن صح زعمُكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة لأنها شفعاؤكم عنده.

《١١٥》 ثم عدد عليهم محرماتِ اللهِ ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ (إنما): للحصر؛ أي: المحرمُ هذا دون البحيرةِ وأخواتِها، وباقي الآيةِ قد مرَّ تفسيرُه.

《١١٦》 ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ هو منصوبٌ بـ(لا تقولوا) أي: ولا تقولوا الكذبَ لما تصفه ألسنتُكم من البهائم بالحلِّ والحرمةِ في قولِكم: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ﴾ [الأنعام: ١٣٩] من غيرِ استنادِ ذلك الوصفِ إلى الوحي، أو إلى القياسِ المستنبطِ منه، واللامُ مثلُها في قولك: لا تقولوا لما أحل الله: هو حرامٌ[١]، وقوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾: بدلٌ من الكذب، ولك أن تنصبَ الكذبَ بـ(تصف) وتجعلَ (ما) مصدريةً، وتعلقَ (هذا حلال وهذا حرام) بـ(لا تقولوا) أي: ولا تقولوا: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، وهذا لوصفِ ألسنتِكم الكذبَ؛ أي: ولا تحرِّموا ولا تُحللوا لأجلِ قولٍ تنطقُ به ألسنتُكم ويجولُ في أفواهكم، لا لأجلِ حجةٍ وبينةٍ، ولكن قولٌ ساذَجٌ[٢]، ودعوى بلا برهانٍ، وقولُه: (تصف ألسنتكم الكذب): من فصيحِ الكلام، جعلَ قولَهم كأنه عينُ الكذبِ، فإذا نطقت به ألسنتُهم.. فقد حلَّت الكذبَ بحليتِه، وصوَّرته بصورتِه، كقولك: وجهُها يصفُ الجمال، وعينُها تصف السحر، واللامُ في: ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ﴾: من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغَرَضِ[٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

---

(١) فيكون معنى اللام: التعليل؛ أي: لأجل ما تصفه ألسنتكم، أو تكون بمعنى (في) أي: في شأن ما تصفه ألسنتكم.

(٢) حجة ساذجة: غيرُ بالغة، والمراد هنا: قول لا دليل عليه.

(٣) وتسمى لامَ العاقبةِ؛ إذ ليس المراد التعليل.

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ .....﴾

«١١٧» ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾: هو خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ؛ أي: منفعتُهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعةٌ قليلةٌ، وعذابُها عظيمٌ.

«١١٨» ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ في (سورة الأنعام) يعني: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ...﴾ [الأنعام: ١٤٦] الآيةَ، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بالتحريم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ فحرمنا عليهم عقوبةً على معاصيْهم.

«١١٩» ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾: في موضع الحالِ؛ أي: عملُوا السوء جاهلين غيرَ متدبرين للعاقبةِ؛ لغلبة الشهوة عليهم، ومرادُهم لذةُ الهوى لا عِصيانُ المولى، ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾: من بعد التوبةِ ﴿لَغَفُورٌ﴾ بتكفيرِ ما كثَّروا قبلُ من الجرائم، ﴿رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ بتوثيقِ ما وثَّقوا بعد من العزائم.

«١٢٠» ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: إنه كان وحدَه أمةً من الأمم؛ لكمالِه في جميع صفات الخير، كقوله[١]: [من: السريع]

ليس على الله بمستنكرٍ أن يجمعَ العالمَ في واحدِ

وعن مجاهدٍ: كان مؤمناً وحدَه والناسُ كلُّهم كفار، أو: كان أمةً؛ بمعنى: مأموم؛ أي: يؤمُّه الناسُ ليأخذوا منه الخير، ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ هو: القائمُ بما أمره اللهُ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله. فقيل له: إنما هو إبراهيم عليه السلام، فقال: الأمةُ: الذي يُعَلِّمُ الخيرَ، والقانتُ: المطيعُ لله ورسولِه، وكان معاذٌ كذلك[٢]، وقال عمرُ رضي الله عنه: لو كان معاذٌ حيّاً.. لاستخلفتُه؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو عبيدةَ أمينُ هذه الأمةِ، ومعاذٌ أمةٌ لله، قانتٌ لله، ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون»[٣]، ﴿حَنِيفًا﴾: مائلاً عن الأديان إلى ملةِ الإسلام، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ نَفى عنه الشركَ تكذيباً لكفار قريش لزعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم، وحَذْفُ النونِ للتشبيه بحروفِ اللِّينِ.

---

(١) البيت لأبي نواس في «ديوانه» (ص٨٧).
(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢٧١).
(٣) لم أجده، وروى البخاري (٤٣٨٢) عن سيدنا أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ....

《١٢١》 ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ روي: أنه كان لا يتغدَّى إلا مع ضيفٍ، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فَأَخَّرَ غداءَه فإذا هو بفوجٍ من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام، فَخَيَّلُوا له أن بهم جُذاماً، فقال: الآنَ وجبت مؤاكلتُكم؛ شكراً لله على أنه عافاني وابتلاكم، ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾: اختصَّه واصطفاه للنبوة، ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾: إلى ملة الإسلام.

《١٢٢》 ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: نبوةً أو: أموالاً وأولاداً، أو: تَنويهُ اللهِ بذكره، فكلُّ أهلِ دينٍ يتولونه، أو: قولُ المصلي منا: كما صليتَ على إبراهيمَ، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾: لمن أهلِ الجنةِ.

《١٢٣》 ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ في (ثم): تعظيمُ منزلةِ نبيِّنا عليه السلام وإجلالُ محلِّه، والإيذانُ بأن أشرفَ ما أوتيَ خليلُ الله من الكرامة اتباعُ رسولِنا ملتَه.

《١٢٤》 ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: فُرِضَ عليهم تعظيمُه وتركُ الاصطيادِ فيه، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ روي: أن موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوعِ يوماً للعبادة، وأن يكون يومَ الجمعةِ فأبَوا عليه وقالوا: نريدُ اليومَ الذي فرغ اللهُ فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت، إلا شرذمةً منهم قد رَضُوا بالجمعة، فهذا اختلافُهم في السبت؛ لأن بعضَهم اختارُوه، وبعضَهم اختارُوا عليه الجمعة، فأذن اللهُ لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد، فأطاع أمرَ اللهِ الراضون بالجمعة، فكانوا لا يصيدون، وأعقابُهم لم يصبروا عن الصيد فمسخَهم اللهُ دون أولئك، وهو يحكم بينهم يوم القيامة، فيجازي كلَّ واحدٍ من الفريقين بما هو أهلُه.

《١٢٥》 ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾: إلى الإسلام ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾: بالمقالةِ الصحيحةِ المحكمةِ، وهو الدليل المُوَضِّحُ للحقِّ المزيلُ للشبهةِ، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾: وهي التي لا يخفى عليهم أنك تُناصِحُهم بها، وتقصِدُ ما ينفعُهم فيها، أو: بالقرآن؛ أي: ادعُهم بالكتاب الذي هو حكمةٌ

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ ....

وموعظةٌ حسنةٌ، أو: الحكمةُ: المعرفةُ بمراتبِ الأفعالِ، والموعظةُ الحسنةُ: أن يَخلِطَ الرغبةَ بالرهبةِ، والإنذارَ بالبشارةِ، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: بالطريقةِ التي هي أحسنُ طرقِ المجادلةِ؛ من الرفقِ واللينِ من غير فظاظةٍ، أو: بما يوقظ القلوبَ ويَعِظُ النفوسَ ويجلُو العقولَ، وهو ردٌّ على مَن يأبى المناظرةَ في الدين، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: هو أعلم بهم، فمن كان فيه خيرٌ.. كفاه الوعظُ القليلُ، ومن لا خيرَ فيه.. عَجَزَت عنه الحِيَلُ.

《١٢٦》 ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ سَمَّى الفعل الأولَ عقوبةً والعقوبةُ هي الثانيةُ؛ لازدواجِ الكلامِ[١]، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فالثانيةُ ليست بسيئةٍ؛ والمعنى: إن صُنع بكم صنيعُ سوءٍ من قتل أو نحوه.. فقابلوه بمثله ولا تزيدُوا عليه، روي: أن المشركين مَثَّلوا بالمسلمين يومَ أحدٍ؛ بقرُوا بطونَهم، وقطعُوا مذاكيرَهم، فرأى النبي عليه السلام حمزةَ مبقورَ البطنِ، فقال: «أما والذي أحلفُ به لأمثلنَّ بسبعين مكانَك»، فنزلت، فكفَّرَ عن يمينه وكفَّ عمّا أراده[٢]، ولا خلاف في تحريمِ المُثلةِ؛ لورود الأخبار بالنهيِ عنها حتى بالكلبِ العقورِ[٣]، ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ الضميرُ في (لهو): يرجع إلى مصدرِ (صبرتم)، والمراد بـ(الصابرين): المخاطبون؛ أي: ولئن صبرتم لَصبرُكم خيرٌ لكم، فوُضِعَ (الصابرين) موضعَ الضميرِ؛ ثناءً من الله عليهم؛ لأنهم صابرون على الشدائد.

《١٢٧》 ثم قال لرسول الله ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أنتَ، فعزم عليه بالصبر، ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه وتثبيته، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: على الكفار أن لم يؤمنوا، أو: على المؤمنين وما فعل بهم الكفار؛ فإنهم وصلُوا إلى مطلوبهم، ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ ﴿ضِيقٍ﴾: مكيٌّ[٤]، والضَّيْقُ: تخفيفُ الضَّيِّقِ؛ أي: في أمرٍ ضَيِّقٍ[٥]، ويجوز أن يكونا مصدرين، كالقِيل والقَول؛ والمعنى: ولا يَضيقنَّ صدرُك من مكرهم؛ فإنه لا ينفذُ عليك.

---

(١) ويسمى المشاكلة، وهي: أن يُذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته.
(٢) روى نحوه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٩٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) روى البخاري (٢٤٧٤) عن سيدنا عبد الله بن يزيد الأنصاري قال: نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن النُّهبَى والمثلةِ.
(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٣).
(٥) فعلى هذا: (الضَّيْقُ): صفة مشبهة، و(الضِّيقُ): مصدر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾

《١٢٨》 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ أي: هو وليُّ الذين اجتنبوا السيئاتِ، ووليُّ العاملين بالطاعات، قيل: من اتقى في أفعاله، وأحسن في أعماله.. كان الله معه في أحواله، ومعيتُه: نُصرتُه في المأمور، وعصمتُه في المحظور.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ ....

سورةُ بني إسرائيل

مكيةٌ، وهي مئةٌ وعشرُ آياتٍ: بصري، وإحدى عشرةَ آيةً: كوفيٌّ وشاميٌّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿سُبْحَانَ﴾: تنزيهُ اللهِ عن السوء، وهو عَلَمٌ للتسبيح، كعثمانَ للرجل، وانتصابُه بفعلٍ مضمرٍ متروكٍ إظهارُه، تقديرُه: أسبح اللهَ سبحانَ، ثم نُزِّلَ (سبحان) منزلةَ الفعلِ فسدَّ مسدَّه، ودلَّ على التنزيه البليغ، ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾: محمدٍ ﷺ، وسَرى وأسرى: لغتان، ﴿لَيْلًا﴾: نصبٌ على الظرف، وقيَّدَه بالليل والإسراءُ لا يكون إلا بالليل؛ للتأكيد، أو ليدلَّ بلفظ التنكيرِ على تقليل مدةِ الإسراءِ، وأنه أَسرَى به في بعض الليل من مكةَ إلى الشامِ مسيرةَ أربعين ليلةً، ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قيل: أُسْرِيَ به من دارِ أمِّ هانئٍ بنتِ أبي طالبٍ، والمرادُ بالمسجد الحرام: الحرمُ؛ لإحاطته بالمسجد، والتباسِه به، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الحرمُ كلُّه مسجدٌ، وقيل: هو المسجد الحرام بعينه، وهو الظاهر؛ فقد قال عليه السلام: «بينما أنا في المسجد الحرام في الحِجْرِ عند البيت بين النائم واليقظان.. إذ أتاني جبريلُ بالبُراقِ وقد عُرِجَ بي إلى السماء في تلك الليلةِ»[١]، وكان العروجُ به من بيت المقدس، وقد أخبر قريشاً عن عِيرِهم وعددِ جِمالِها وأحوالِها، وأخبرهم أيضاً بما رأى في السماء من العجائب، وأنه لقي الأنبياءَ عليهم السلام[٢]، وبلغ البيتَ المعمورَ وسدرةَ المنتهَى[٣]، وكان الإسراءُ قبل الهجرةِ بسنةٍ، وكان في اليقظة، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: والله ما فُقِدَ جسدُ رسولِ الله ﷺ، ولكن عُرِجَ بروحِه[٤]، وعن معاويةَ مثلُه[٥]، وعلى الأول: الجمهورُ؛ إذ لا فضيلةَ للحالم، ولا مزيةَ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤) عن سيدنا مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٢) ورد هذا في حديث رواه أبو يعلى في «المعجم» (ص ٤٣) عن سيدتنا أم هانئ رضي الله عنها.

(٣) هذا جزء من الحديثِ السابقِ نفسِه عن سيدنا مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٥٠).

(٥) المرجع السابق (١٧/ ٣٤٩).

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ....

للنائم[1]، ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾: هو بيتُ المقدسِ؛ لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجدٌ، ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ يريدُ بركاتِ الدين والدنيا؛ لأنه متعبَّدُ الأنبياء عليهم السلام، ومَهبِطُ الوحي، وهو محفوفٌ بالأنهار الجارية، والأشجار المثمرة، ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ أي: محمداً عليه السلام، ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ الدالةِ على وحدانيةِ اللهِ وصدقِ نبوته برؤيتِه السمواتِ وما فيها من الآياتِ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للأقوال، ﴿ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ بالأفعال، ولقد تَصرَّفَ الكلامُ على لفظِ الغائبِ والمتكلم، فقيل: (أَسرى)، ثم (باركنا)، ثم (إنه هو)، وهي طريقةُ الالتفاتِ التي هي من طريقِ البلاغةِ.

《٢》 ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب، وهو التوراةُ ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ أي: لا تتخذُوا، وبالياء: أبو عمرو[2]؛ أي: لئلا يتخذوا، ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾: ربّاً تكِلُون إليه أمورَكم.

《٣》 ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾: نصبٌ على الاختصاص، أو على النداء فيمن قرأ: (لا تتخذوا) بالياءِ على النهي؛ أي: قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلا يا ذريةَ مَن حملنا مع نوحٍ، ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن نوحا عليه السلام ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ في السراءِ والضراءِ، والشكرُ: مقابلةُ النعمةِ بالثناءِ على المنعم، وروي أنه كان لا يأكلُ ولا يشربُ ولا يلبَسُ إلا قال: الحمدُ لله، وأنتم ذريةُ مَن آمن به وحُمِلَ معه، فاجعلوه أسوتَكم كما جعلَه آباؤُكم أسوتَهم، وآيةُ رشدِ الأبناءِ صحةُ الاقتداءِ بسنةِ الآباءِ، وقد عرفتم حالَ الآباءِ هنالك، فكونوا أيُّها الأبناءُ كذلك.

《٤》 ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: وأوحينا إليهم وحياً مقضيّاً؛ أي: مقطوعاً مبتوتاً بأنهم يُفسدون في الأرض لا محالةَ، والكتابُ: التوراةُ، و(لتفسدن): جوابُ قسم محذوفٍ، أو: جَرى القضاءُ المبتوتُ مَجرى القسم، فيكون (لتفسدن) جواباً له، كأنه قال: وأقسمنا لتفسدنَّ ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ أولاهما: قتلُ زكرياءَ عليه السلام، وحبسُ إرْمِياءَ عليه السلام حين أنذرهم سخطَ اللهِ، والأخرى: قتلُ يحيى بنِ زكرياءَ عليهما السلام، وقصدُ قتلِ عيسى عليه

---

(١) قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» (٢/٢٠٩): والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسري بجسده صلى الله عليه وسلم، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها، ولا يُعدَلُ عن ظاهرها إلا بدليل، ولا استحالةَ في حملها عليه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٤).

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ۝٧﴾ ....

السلام، ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾: ولتستكبرُنَّ عن طاعةِ الله؛ مِن قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، والمرادُ به البغيُ والظلمُ وغلبةُ المفسدين على المصلحين.

《٥》 ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: وعدُ عقابِ أُولاهما ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾: سَلَّطْنا عليكم ﴿عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: أشداءَ في القتال؛ يعني: سنجاريبَ وجنودَه، أو: بُخْتَنَصَّرَ، أو: جالوتَ، قتلوا علماءَهم، وأحرقوا التوراةَ، وخرَّبوا المسجدَ، وسَبَوا منهم سبعين ألفاً، ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾: تَرَدَّدُوا للغارة فيها، قال الزجاجُ: الجَوْسُ: طلب الشيء بالاستقصاء[1]، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾: وكان وعدُ العقابِ وعداً لا بدَّ أن يفعلَ.

《٦》 ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ أي: الدولةَ والغلبةَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾: على الذين بُعثوا عليكم حين تُبتُم ورجعتم عن الفساد، والعُلُوِّ، قيل: هي قتلُ بُخْتَنَصَّرَ، واستنقاذُ بني إسرائيلَ أسراهم وأموالَهم، ورجوعُ الملك إليهم، وقيل: أعدْنا لكم الدولة بملك طالوتَ، وقتلِ داود جالوتَ، ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ مما كنتم، وهو: تمييزٌ، جمعُ نَفَرٍ، وهو من يَنفرُ مع الرجل من قومه.

《٧》 ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾ قيل: اللامُ بمعنى: على، كقوله: ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والصحيحُ أنها على بابها؛ لأن اللام للاختصاص، والعاملُ مختصٌّ بجزاءِ عملِه حسنةً كانت أو سيئةً؛ يعني: أن الإحسان والإساءةَ مختصٌّ بأنفسكم، لا يتعدَّى النفعُ والضررُ إلى غيركم، وعن علي رضي الله عنه: ما أحسنتُ إلى أحدٍ، ولا أسأتُ إليه. وتلاها، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ﴾ المرةِ ﴿ٱلْأٓخِرَةِ﴾.. بعثناهم؛ ﴿لِيَسُـُٔواْ﴾ أي: هؤلاءِ ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ وحذف لدلالةِ ذكرِه أَوَّلاً عليه[2]، أي: ليجعلوها باديةً آثارُ المساءةِ والكآبةِ فيها، كقوله: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الملك: ٢٧]، ﴿لِيَسُوءَ﴾: شاميٌّ وحمزةُ وأبو بكرٍ، والضميرُ لله عزَّ وجلَّ،

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٢٢٧).

(٢) أي: حذف جواب الشرط وهو: بعثناهم؛ لدلالة الأول عليه، وهو قوله تعالى: (فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم).

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ ....

أو: للوعدِ، أو: للبعثِ، ﴿لِنَسوءَ﴾: عليٌّ[(١)]، ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾: بيتَ المقدسِ، ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ (ما علوا): مفعولُ (ليتبروا) أي: لِيُهلكوا كلَّ شيءٍ غلبوه واستولَوا عليه، أو: بمعنى: مدةَ عُلُوِّهم[(٢)].

«٨» ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعدَ المرةِ الثانيةِ إن تبتم توبةً أخرى وانزجرتم عن المعاصي، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ مرةً ثالثةً ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتِكم، وقد عادُوا فأعادَ اللهُ عليهم النقمةَ بتسليطِ الأكاسرةِ، وضربِ الإتاوةِ عليهم[(٣)]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: سُلِّطَ عليهم المؤمنون إلى يوم القيامة، ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾: مَحْبِساً، يقال للسجن: مَحْصَرٌ وحَصيرٌ.

«٩» ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾: للحالة التي هي أقومُ الحالاتِ وأَسَدُّها، وهي توحيدُ اللهِ والإيمانُ برسلِه والعملُ بطاعتِه، أو: للملةِ أو للطريقةِ، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾: ﴿وَيَبْشُرُ﴾: حمزةُ وعليٌّ[(٤)]، ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾: بأن لهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ أي: الجنة.

«١٠» ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ﴾: وبأن الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا﴾ أي: أعددْنا، قُلِبَتْ تاءً، ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ يعني: النارَ، والآيةُ تردُّ القولَ بالمنزلةِ بين المنزلتين؛ حيث ذكرَ المؤمنين وجزاءَهم، والكافرين وجزاءَهم، ولم يذكر الفسقةَ.

«١١» ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي: ويدعو اللهَ عند غضبِه بالشرِّ على نفسه وأهله وماله وولدِه كما يدعو لهم بالخير، أو: يَطلبُ النفعَ العاجلَ وإن قلَّ بالضرر الآجلِ وإن جلَّ، ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾: يَتَسَرَّعُ إلى طلبِ كلِّ ما يقعُ في قلبه ويخطرُ بباله، لا يتأنَّى فيه تأنِّيَ المتبصرِ، أو: أُريدَ بالإنسان: الكافرُ، وأنه يدعوه بالعذاب استهزاءً، ويستعجلُ به، كما يدعو بالخير إذا مسته الشدةُ، وكان الإنسان عجولاً؛ يعني: أن العذاب آتيْه لا محالةَ، فما هذا الاستعجالُ؟ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو النضرُ بنُ الحارث، قال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٤).

(٢) فتكون (ما) مصدرية ظرفية.

(٣) **الإتاوةُ**: الجزيةُ والخراجُ.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٤).

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ....

﴿هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآيةَ، فأجيب، فضُربت عنقُه صَبْراً[(١)]، وسقوطُ الواوِ مِن (يدعُ) في الخطِّ على موافقةِ اللفظِ.

《١٢》 ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: الليلُ والنهارُ آيتان في أنفُسِهما، فتكونُ الإضافةُ في آيةِ الليلِ وآيةِ النهارِ: للتبيين، كإضافةِ العددِ إلى المعدود؛ أي: فمحونا الآيةَ التي هي الليلُ، وجعلنا الآيةَ التي هي النهارُ مبصرةً، أو: وجعلنا نَيِّرَي الليلِ والنهارِ آيتين؛ يريدُ: الشمسَ والقمرَ، فمحونا آيةَ الليلِ التي هي القمرُ؛ حيث لم يَخْلُقْ له شُعاعاً كشعاع الشمس فتُرَى الأشياءُ به رؤيةً بينةً، وجعلنا الشمسَ ذاتَ شعاعٍ يُبْصَرُ في ضوئها كلُّ شيءٍ، ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: لتتوصَّلُوا ببياض النهار إلى التصرف في معايِشِكم، ﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ باختلافِ الجديدَين ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ يعني: حسابَ الآجالِ ومواسمَ الأعمالِ، ولو كانا مِثْلَين.. لَما عُرفَ الليلُ من النهار، ولا استراح حِراصُ المكتَسبين والتُّجار، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ مما تفتقِرُون إليه في دينكم ودنياكم ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾: بيَّنّاه بياناً غيرَ ملتبسٍ فأَزَحْنا عِلَلَكم، وما تركنا لكم حجةً علينا.

《١٣》 ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾: عملَه ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ يعني: أن عمله لازمٌ له لزومَ القِلادةِ أو الغُلِّ للعنقِ لا يُفكُّ عنه، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ﴾: هو صفةٌ لـ(كتاباً)، ﴿يُلَقَّاه﴾: شاميٌّ[(٢)]، ﴿مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾: حالٌ مِن (يلقاه)[(٣)]؛ يعني: غيرَ مطويٍّ؛ لِيُمْكِنَه قراءتُه، أو: هما صفتان للكتاب، ونقول له:

《١٤》 ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أي: كتابَ أعمالِك، وكلٌّ يُبعثُ قارئاً، ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ﴾ الباءُ: زائدةٌ؛ أي: كفى نفسُك ﴿حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾: تمييزٌ، وهو بمعنى: حاسب[(٤)]، و(على): متعلقٌ به، من قولك: حَسَبَ عليه كذا، أو بمعنى: الكافي، وُضِعَ موضعَ الشهيدِ فعُدِّيَ بـ(على)؛ لأن

---

(١) يقال لمن يُقدَّمُ فتضربُ عنقُه: قتل صَبْراً؛ يعني: أنه أُمسك على الموت.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٤).

(٣) أي: من الهاء في (يلقاه).

(٤) **الحاسبُ**: العادُّ.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ ....

الشاهد يَكْفِي المدَّعِيَ ما أَهمَّه، وإنما ذَكَّرَ (حسيباً) لأنه بمنزلة الشهيدِ والقاضي والأميرِ؛ إذ الغالبُ أن يتولى هذه الأمورَ الرجالُ، فكأنه قيل: كفى نفسُك رجلاً حسيباً، أو تُؤَوَّلُ النفسُ بالشخص.

《١٥》 ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ أي: فلها ثوابُ الاهتداء، وعليها وَبالُ الضلالِ، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ أي: كلُّ نفسٍ حاملةٌ وِزراً.. فإنما تحملُ وِزْرَها لا وِزْرَ نفسٍ أخرى، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾: وما صحَّ منا أن نُعذِّبَ قوماً عذابَ استئصالٍ في الدنيا إلا بعد أن نبعثَ إليهم رسولاً فنُلزِمُهم الحجةَ.

《١٦》 ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي: أهلَ قريةٍ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: مُتَنَعِّمِيها وجبابرتَها بالطاعة، عن أبي عمرٍو والزجاج[1]، ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ أي: خرجُوا عن الأمر، كقولك: أمرتُه فعصَى، أو: (أمرنا): كثَّرْنا؛ دليلُه: قراءةُ يعقوبَ: ﴿آمَرْنا﴾[2]، ومنه الحديثُ: «خيرُ المالِ سِكَّةٌ مأبورةٌ، ومُهرةٌ مأمورةٌ»[3] أي: كثيرةُ النسلِ، ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾: فوجب عليها الوعيدُ، ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾: فأهلكناها إهلاكاً.

《١٧》 ﴿وَكَمْ﴾: مفعولُ ﴿أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: بيانٌ لـ(كم)، ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ﴾ يعني: عاداً وثمودَ وغيرَهما، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾ وإن أخفَوها في الصدور، ﴿بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ وإن أَرْخَوا عليها الستورَ.

《١٨》 ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ لا ما يشاءُ، ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾: بدلٌ مِن (له) بإعادة الجارِّ، وهو بدلُ البعض من الكلِّ؛ إذ الضميرُ يرجعُ إلى (مَن) أي: من كانت العاجلة همَّه

---

(١) انظر «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٢٣١).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٤). يقال: آمره؛ أي: كثَّره، وأَمِرَ الشيءُ: كَثُرَ، وقال أبو عبيد: آمرتُه، وأَمَرْتُه لغتان بمعنى: كَثَّرْتُه. انظر «تاج العروس» (١٠/ ٦٨).

(٣) رواه الإمام أحمد (٣/ ٤٦٨) عن سيدنا سويد بن هبيرة رضي الله عنه، السِّكةُ: الطريقُ من النخلِ المصطفةِ، والمأبورة: الملقحةُ.

وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

ولم يُرِدْ غيرَها كالكفرة.. تفضلْنا عليه من منافعِها بما يشاءُ لمن نريد، فقيَّدَ المعجَّلَ بمشيئته، والمعجَّلَ له بإرادته، وهكذا الحالُ، تَرى كثيراً من هؤلاء يَتمنَّون ما يتمنَّون، ولا يُعطَون إلا بعضاً منه، وكثيراً منهم يتمنَّون ذلك البعضَ وقد حُرِمُوه، فاجتمع عليهم فقرُ الدنيا وفقرُ الآخرة، وأما المؤمنُ التقيُّ.. فقد اختار غِنى الآخرةِ؛ فإن أُوتي حظّاً من الدنيا.. فبها، وإلا.. فربما كان الفقرُ خيراً له، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿يَصْلَىٰهَا﴾: يدخلُها ﴿مَذْمُومًا﴾: ممقوتاً ﴿مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾: مطروداً من رحمة الله.

《١٩》 ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ هو: مفعولٌ به؛ أي: حقَّها من السعي وكِفاءَها من الأعمال الصالحة، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: مُصدِّقٌ لله في وعده ووعيده، ﴿فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾: مقبولاً عند الله مُثاباً عليه، عن بعض السلف: من لم يكن معه ثلاثٌ.. لم ينفعْه عملُه: إيمانٌ ثابتٌ، ونيةٌ صادقةٌ، وعملٌ مُصيبٌ، وتلا الآيةَ، فإنه شُرِطَ فيها ثلاثُ شرائطَ في كونِ السعيِ مشكوراً: إرادةُ الآخرةِ، والسعيُ فيما كُلِّفَ، والإيمانُ الثابتُ.

《٢٠》 ﴿كُلًّا﴾: كلَّ واحدٍ من الفريقين، والتنوينُ عوضٌ عن المضاف إليه، وهو منصوبٌ بقوله: ﴿نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: بدلٌ من (كُلّاً) أي: نُمدُّ هؤلاءِ ﴿وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: مَن أراد العاجلةَ ومن أراد الآخرةَ ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾: رزقِه، و(مِنْ): تتعلقُ بـ(نمدُّ)، والعطاءُ: اسمٌ للمعطَى؛ أي: نزيدُهم من عطائنا، ونجعل الآنفَ منه مَدَداً للسالف[1]، لا نقطعُه، فنَرزُقُ المطيعَ والعاصيَ جميعاً على وجه التفضُّل، ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾: ممنوعاً من عباده وإن عَصَوا.

《٢١》 ﴿ٱنظُرْ﴾ بعينِ الاعتبارِ ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في المالِ والجاهِ والسعةِ والكمالِ، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ رويَ: أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعُوا بباب عمرَ رضي الله عنه، فخرج الإذنُ لبلالٍ وصهيبٍ، فشقَّ على أبي سفيان، فقال سهيلُ بنُ عمرٍو: إنما أُتينا من قِبَلِنا؛ إنهم دُعُوا ودُعِينا - يعني: إلى الإسلام - فأسرعُوا

---

(١) الآنفُ: العطاءُ المستأنَفُ مرة بعد أخرى، والسالفُ: العطاءُ السابقُ.

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾ ....

وأبطأْنا، وهذا بابُ عمرَ، فكيف التفاوتُ في الآخرة؟ ولئن حسدتموهم على باب عمرَ.. لَما أعدَّ اللهُ لهم في الجنة أكثر[1].

《٢٢》 ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطابُ للنبي ﷺ والمرادُ به أُمَّتُه، ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢﴾: فتصيرَ جامعاً على نفسك الذمَّ والخِذلانَ، وقيل: مشتوماً بالإهانة، محروماً عن الإعانة؛ إذ الخذلانُ ضدُّ النصرِ والعَونِ؛ دليلُه: قولُه تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠] حيث ذكرَ الخِذلانَ بمقابلةِ النصر.

《٢٣》 ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾: وأمر أمراً مقطوعاً به ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (أنْ): مفسرةٌ، و(لا تعبدوا): نهيٌ، أو: بأن لا تعبدوا، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، أو: بأن تُحسنُوا بالوالدين إحساناً، ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ (إما) هي: (إن) الشرطيةُ، زِيدَت عليها (ما) تأكيداً لها، ولذا دخلت النونُ المؤكدةُ في الفعل، ولو أُفردتْ (إن) لم يصحَّ دخولُها، لا تقول: إن تُكرمنَّ زيداً.. يكرمْك، ولكن: إمّا تكرمَنَّه، ﴿أَحَدُهُمَآ﴾: فاعلُ (يبلغنّ)، وهو في قراءةِ حمزةَ وعليٍّ: ﴿يبلغانِّ﴾: بدلٌ من ألفِ الضميرِ الراجعِ إلى الوالدين[2]، ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾: عطفٌ على (أحدُهما) فاعلاً وبدلاً، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾: مدنيٌّ وحفصٌ، ﴿أفَّ﴾: مكيٌّ وشاميٌّ، ﴿أُفِّ﴾: غيرُهم، وهو صوتٌ يدلُّ على تضجرٍ، فالكسرُ: على أصلِ التقاءِ الساكنين، والفتحُ: للتخفيف، والتنوينُ: لإرادةِ التنكيرِ؛ أي: أَتَضجرُ تضجُّراً، وتركُه: لقصدِ التعريف؛ أي: أتضجَّرُ التضجرَ المعلومَ، ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: ولا تزجرْهما عمّا يَتعاطيانه مما لا يعجبُك، والنهيُ والنهرُ أخوانِ، ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾: بدلَ التأفيف والنهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾: جميلاً ليّناً كما يقتضيه حسنُ الأدبِ، أو: هو أن يقول: يا أبتاه يا أمّاه، ولا يدعوهما بأسمائِهما؛ فإنه من الجفاء، ولا بأس

---

(١) روى البخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ١٠٣) عن الحسن قال: كان المهاجرون والأنصار بباب عُمر، فجعل يأذن لهم على قدر منازلهم، وثَمّ جماعةٌ من الطلقاء، فنظر بعضُهم إلى بعضٍ، فقال لهم سُهَيل بْن عَمرو: على أنفسكم فاغضَبوا، دُعي القوم ودعيتم، فأسرَعُوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دعيتم إلى أَبْواب الجنة، والله لا أدع موقفاً وقفتُه مع المشركين إلا وقفت مع المسلمين مثله، ولا نفقةً أنفقتُها مع المشركين إلا أنفقتُ على المسلمين مثلها.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٥) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ۝٢٤﴾ ....

به في غير وجهِه كما قالت عائشةُ رضي الله عنها: نَحَلَني أبو بكرٍ كذا[١]، وفائدةُ (عندك): أنهما إذا صارا كَلّاً على ولدهما ولا كافلَ لهما غيرُه.. فهما عنده في بيته وكنفِه، وذلك أشقُّ عليه، فهو مأمور بأن يستعملَ معهما لِيْنَ الخُلُقِ حتى لا يقولَ لهما إذا أضجرَه ما يستقذرُ منهما: أُفٍّ، فضلاً عمّا يزيدُ عليه، ولقد بالغ سبحانه في التوصيةِ بهما؛ حيثُ افتتحَها بأن شَفَعَ الإحسانَ إليهما بتوحيده، ثم ضيَّقَ الأمرَ في مراعاتِهما حتى لم يُرخِّصْ في أدنى كلمةٍ تَنْفَلِتُ من المتضَجِّرِ مع موجباتِ الضجرِ، ومع أحوالٍ لا يكادُ يصبرُ الإنسانُ معها.

《٢٤》 ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: اخفض لهما جناحَك، كما قال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، فأضافه إلى الذلِّ كما أُضيفَ حاتِمٌ إلى الجودِ؛ والمعنى: واخفض لهما جناحكَ الذليلَ[٢]، ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾: من فَرْطِ رحمتِك لهما، وعطفِك عليهما؛ لكبرِهما وافتقارِهما اليومَ إلى مَن كان أفقرَ خلقِ اللهِ إليهما بالأمسِ، وقال الزجاجُ: وَأَلِنْ جانبَكَ متذللاً لهما من مبالغتِك في الرحمةِ لهما[٣]، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ۝٢٤﴾: ولا تكتفِ برحمتك عليهما التي لا بقاءَ لها، وادعُ اللهَ بأن يرحمَهما رحمتَه الباقيةَ، واجعل ذلك جزاءً لرحمتهما عليك في صغرِك وتربيتِهما لك، والمرادُ بالخطاب: غيرُه عليه السلام، والدعاءُ مختصٌّ بالأبوين المسلمين، وقيل: إذا كانا كافرين.. له أن يسترحم لهما بشرط الإيمان، وأن يدعوَ اللهَ لهما بالهدايةِ، وعن النبي ﷺ: «رضا الله في رضا الوالدين، وسخطُه في سخطِهما»[٤]، وروي: «يفعلُ البارُّ ما شاء أن يفعلَ فلن يدخلَ النارَ، ويفعلُ العاقُّ ما شاء أن يفعلَ فلن يدخلَ الجنةَ»[٥]، وعنه عليه السلام: «إياكم وعقوقَ الوالدين؛ فإن الجنة يوجدُ ريحُها من مسيرة ألفِ عام، ولا يجدُ ريحَها عاقٌّ ولا قاطعُ رحمٍ ولا شيخٌ زانٍ ولا جارٌّ إزارَه خُيَلاءَ، إن الكبرياء لله ربِّ العالمين»[٦].

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ١٧٨) وأوله: كان أبو بكر رضي الله عنه نحلني جَدادَ عشرين وَسْقاً...

(٢) فهي من إضافة الموصوف إلى صفته.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٢٣٥).

(٤) رواه الترمذي (١٨٩٩) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٥) روى أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٣/ ٢١٥) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقالُ للعاقِّ: اعمل ما شئتَ من الطاعة، فإني لا أغفرُ لك، ويقال للبارِّ: اعمل ما شئتَ، فإني أغفرُ لك».

(٦) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٦٦٤) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ....﴾

《٢٥》 ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾: بما في ضمائركم من قصدِ البرِّ إلى الوالدين، ومن النشاط والكرامة في خدمتِهما، ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾: قاصدين الصلاحَ والبرَّ، ثم فَرَطَتْ منكم في حالَ الغضبِ وعند حَرَجِ الصدر هَنَةٌ تؤدِّي إلى أذاهُما[1]، ثم أُبْتُمْ إلى الله واستغفرتُم منها ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ الأوّابُ الذي إذا أذنب.. بادرَ إلى التوبة، وجاز أن يكون هذا عامّاً لكلِّ من فَرَطَتْ منه جنايةٌ ثم تاب منها، ويندرج تحتَه الجاني على أبويه التائبُ من جنايتِه؛ لورودِه على أثرِه.

《٢٦》 ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ﴾ منك ﴿حَقَّهُ﴾ أي: النفقةَ إذا كانوا محارمَ فقراءَ، ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي: وآتِ هؤلاءِ حقَّهم من الزكاة، ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾: ولا تسرفْ إسرافاً، قيل: التبذيرُ: تفريقُ المالِ في غير الحلِّ والمحَلِّ، فعن مجاهدٍ: لو أنفق مُدّاً في باطل.. كان تبذيراً، وقد أنفق بعضُهم نفقةً في خيرٍ فأكثرَ، فقال له صاحبُه: لا خيرَ في السرفِ، فقال: لا سرفَ في الخير.

《٢٧》 ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾: أمثالَهم في الشرارةِ، وهي غايةُ المذمةِ؛ لأنه لا شرَّ من الشيطان، أو: هم إخوانُهم وأصدقاؤُهم؛ لأنهم يُطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف، ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ فما ينبغي أن يُطاعَ؛ لأنه لا يدعو إلا إلى مثل فعلِه.

《٢٨》 ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾: وإن أعرضتَ عن ذي القربى والمسكينِ وابنِ السبيلِ حياءً من الردِّ؛ ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: وإن أعرضت عنهم لفقدِ رزقٍ من ربك ترجو أن يُفتحَ لك - فسمَّى الرزقَ رحمةً - فَرُدَّهم ردّاً جميلاً، فوُضِعَ الابتغاءُ موضعَ الفقْدِ؛ لأن فاقدَ الرزقِ مُبْتَغٍ له، فكان الفقدُ سببَ الابتغاءِ، والابتغاءُ مسبَّباً عنه، فوضعَ المسبَّبُ موضعَ السببِ، يقالُ: يُسِرَ الأمرُ وعُسِرَ، مثلُ: سُعِدَ الرجلُ ونُحِسَ، فهو (مفعول)[2]، وقيل:

---

(١) حرجُ الصدرِ: ضيقُه، والهَنَةُ تأنيثُ الهنِ، وهو: كناية عن كل اسم جنس، والمرادُ بالهنةِ هنا: فعلٌ يصدرُ من الولد.

(٢) أي: أن (ميسوراً): اسم مفعول من: يُسِرَ.

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ....

معناه: فقل لهم: رَزَقَنا الله وإياكم من فضله، كأن معناه: قولاً ذا مَيسورٍ، وهو اليُسْرُ؛ أي: دعاءٌ فيه يُسْرٌ[1]، و(ابتغاءَ): مفعولٌ له أو: مصدرٌ في موضع الحال، و(ترجوها): حال أيضاً.

《٢٩》 ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ (كلَّ): نصبٌ على المصدر؛ لإضافته إليه، وهذا تمثيلٌ لمنعِ الشحيحِ وإعطاءِ المسرفِ، أُمِرَ بالاقتصاد الذي هو بين الإسرافِ والتقتيرِ، ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾: فتصير ملوماً عند الله؛ لأن المسرفَ غيرُ مرضيٍّ عنده وعند الناس، يقول الفقيرُ: أعطى فلاناً وحَرَمَني، ويقول الغنيُّ: ما يحسن تدبيرَ أمرِ المعيشةِ، وعند نفسك إذا احتجتَ فندمتَ على ما فعلتَ، ﴿مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾: مُنقطَعاً بك لا شيءَ عندك، مِن: حَسَرَهُ السفرُ: إذا أَثَّرَ فيه أثراً بليغاً، أو: عارياً؛ مِن: حَسَرَ رأسَه، وقد خاطرتْ مُسلمةٌ ضرتَها اليهوديةَ في أنه؛ يعني: محمداً عليه السلام.. أجودُ من موسى عليه السلام، فبعثت ابنتَها تسألُه قميصَه الذي عليه، فدفعَه وقعد عُرياناً، فأقيمت الصلاةُ، فلم يخرجْ للصلاةِ فنزلت[2].

《٣٠》 ثم سَلَّى رسولَه عليه السلام بأن ذلك ليس لِهَوانٍ منك عليه، ولا لبُخلٍ به عليك ولكن لأن بسطَ الأرزاقِ وقدرَها مُفوَّضٌ إلى الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فليس البسطُ إليك، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو يُضيِّقُ فلا لومَ عليك، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾ بمصالحِهم فيُمضِيْها، ﴿بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ بحوائجِهم فيَقضِيْها.

《٣١》 ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ قتلُهم أولادَهم: وَأْدُهم بناتِهم، ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾: فقرٍ، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ نهاهم عن ذلك وضمنَ أرزاقَهم، ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾: إثماً

---

(١) فعلى هذا يكون قوله: (ميسوراً): مصدراً بتقدير مضاف.

(٢) لم أجده، والظاهر أنه غير ثابت؛ فما كانت الصلاة تُقام حتى يخرج؛ روى الترمذي (٣٢٣٥) عن سيدنا معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: احتبسَ عنّا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ غداةٍ من صلاة الصبح حتى كِدْنا نَتراءى عينَ الشمس، فخرجَ سريعاً فثُوِّبَ بالصلاة، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتَجوَّزَ في صلاته... وروى البخاري (٦٨٧) ومسلم (٤١٨) حديثَ مرضِ سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها، وفيه: فقال: «أصلى الناس؟» فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، والناس عكوف في المسجد، ينتظرون النبي عليه السلام لصلاة العشاء الآخرة.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ....

عظيماً، يقال: خَطِئَ خِطْأً، ك: أَثِمَ إثماً، ﴿خَطَأً﴾: يزيدُ، وهو ضِدُّ الصواب، اسمٌ من: أخطأ، وقيل: هو والخِطْءُ: كالحَذَرِ والحِذْرِ، ﴿خِطاءً﴾: مكيٌّ[1].

《٣٢》 ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ القصرُ فيه أكثرُ، والمدُّ: لغةٌ، وقد قرئ به، وهو نهيٌ عن دواعي الزنا، كالمسِّ والقُبلةِ ونحوِهما، ولو أريدَ النهيُ عن نفسِ الزنا.. لقال: ولا تزنوا، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾: معصيةً مجاوزةً حدَّ الشرعِ والعقلِ، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾: وبئس طريقاً طريقُه.

《٣٣》 ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بارتكابِ ما يُبيحُ الدمَ، ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾: غيرَ مرتكبٍ ما يُبيحُ الدمَ ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: تَسلُّطاً على القاتلِ في الاقتصاصِ منه، ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ الضميرُ للولي؛ أي: فلا يقتلْ غيرَ القاتلِ، ولا اثنين والقاتلُ واحدٌ كعادة أهل الجاهلية، أو: الإسرافُ: المُثلةُ، أو: الضميرُ: للقاتلِ الأول[2]، ﴿فلا تسرف﴾: حمزةُ وعليٌّ، على خطابِ الوليِّ، أو قاتلِ المظلومِ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ الضميرُ للولي؛ أي: حسبُه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص، فلا يستزدْ على ذلك، أو: للمظلوم؛ أي: اللهُ ناصرُه حيث أوجب القصاصَ بقتلِه، وينصرُه في الآخرةِ بالثواب، أو: للذي يقتلُه الولي بغير حقٍّ، ويسرفُ في قتله؛ فإنه كان منصوراً بإيجاب القصاص على المسرِفِ، وظاهرُ الآيةِ يدلُّ على أن القصاص يجري بين الحرِّ والعبدِ، وبين المسلم والذمي؛ لأن أنفسَ أهلِ الذمةِ والعبيدِ داخلةٌ في الآية؛ لكونها محرمةً.

《٣٤》 ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: بالخصلةِ أو: الطريقةِ التي هي أحسنُ، وهي حفظُه عليه وتثميرُه، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: ثمانيَ عشرةَ سنةً[3]، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾: بأوامرِ الله تعالى ونواهيه، ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾: مطلوباً يُطلبُ من العاهِدِ ألا يُضيِّعَهُ ويفيَ به، أو: أن صاحبَ العهدِ كان مسؤولاً.

---

(١) قرأ ابن ذكوان ويزيد: (خَطَأً). انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٥).

(٢) والمعنى: لا يسرف القاتلُ بأن يقتلَ من لا يحل قتله فيقتلَ، فيكون سبباً لهلاك نفسه وهلاك غيره. انظر «فتوح الغيب» (٩/ ٢٩١).

(٣) هذا سن البلوغ للذكر، وأما الأنثى فسبع عشرة سنة، هذا مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه. انظر «الاختيار لتعليل المختار» (٢/ ٩٥).

وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ....

《٣٥》 ﴿وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقُسْطَاسِ﴾ وبكسر القاف: حمزةُ وعليٌّ وحفصٌ[١]، وهو كلُّ ميزانٍ صَغُرَ أو كَبُر من موازين الدراهم وغيرِها، وقيل: هو القَرَسْطُون[٢]، ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾: المعتدلِ، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ في الدنيا، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾: عاقبةً، وهو (تفعيلٌ) مِن: آلَ: إذا رجعَ، وهو ما يؤولُ إليه.

《٣٦》 ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: ولا تتبعْ ما لا تعلم؛ أي: لا تقلْ: رأيتُ وما رأيتَ، وسمعتُ وما سمعتَ، وعن ابنِ الحنفيةِ: لا تشهدْ بالزور. وعن ابن عباس: لا تَرْمِ أحداً بما لا تعلمُ. ولا يصحُّ التشبث به لمبطلِ الاجتهادِ؛ لأن ذلك نوعٌ من العلم ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠][٣]، وأقام الشارعُ غالبَ الظنِّ مُقامَ العلم، وأمر بالعمل به، كما في الشهادات، ولنافِي العملِ بخبرِ الواحدِ؛ لما ذكرنا[٤]، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ (أولئك): إشارةٌ إلى (السمع والبصر والفؤاد) لأن (أولئك) كما يكون إشارةً إلى العقلاء يكونُ إشارةً إلى غيرِهم، كقول جريرٍ[٥]: [من: الكامل]

ذُمَّ المنازلَ بعدَ منزلةِ اللِّوى ... والعيشَ بعدَ أولئكَ الأيامِ

و(عنه): في موضع الرفع بالفاعلية[٦]؛ أي: كلُّ واحدٍ منها كان مسؤولاً عنه، فـ(مسؤول): مسندٌ إلى الجارِّ والمجرورِ، كالـ(مغضوب) في ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] يقال للإنسان: لِمَ سمعتَ ما لم يحلَّ لك سماعُه؟ ولِمَ نظرتَ إلى ما لم يحلَّ لك النظرُ إليه؟ ولم عزمتَ على ما لم يَحِلَّ لك العزمُ عليه؟ كذا في «الكشاف»[٧]، وفيه نظرٌ لبعضهم؛ لأن الجار والمجرور إنما يقومان مقام الفاعل إذا تأخرا عن الفعل، فأما إذا تقدما.. فلا[٨].

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٥).

(٢) ويسمَّى القبان، وهو: ميزان ذو ذراع طويلة مقسمة أقساماً ينقل عليها جسم ثقيل يسمى الرمانة لتعين وزن ما يوزن.

(٣) فإن العلم بإيمانهن إنما يكون بإقرارهن، وهو لا يفيدُ إلا الظنَّ. انظر «تفسير الآلوسي» (٨/ ٧١).

(٤) أي: لا يصح التمسك بالآية لمن نفى حجية خبر الآحاد.

(٥) انظر «شرح نقائض جرير والفرزدق» لأبي عبيدة (٢/ ٤٤٤).

(٦) أي: نائب فاعل.

(٧) «الكشاف» (٢/ ٦٢٤).

(٨) لذا قدر ابن هشام في «مغني اللبيب» (ص ٢٦٤) الآيةَ: (إن كلَّ أفعالِ هذه الجوارحِ كان المكلفُ مسؤولاً عنه) فنائب الفاعل: ضمير مستتر يعود على المكلف.

وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ....

《٣٧》 ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هو حالٌ؛ أي: ذا مرحٍ، ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾: لن تجعلَ فيها خَرْقاً بِدَوْسِكَ لها وشدةِ وطئتِك، ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ بتطاولِك، وهو تهكُّمٌ بالمختال، أو: ولن تحاذيَها قوةً، وهو حالٌ من الفاعل أو المفعول.

《٣٨》 ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾: كوفيٌّ وشاميٌّ على إضافةِ سَيِّئٍ إلى ضمير كلٍّ، (سيئةً): غيرُهم[١]، ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ ذكَّرَ (مكروهاً)؛ لأن السيئةَ في حكم الأسماءِ، بمنزلةِ الذنبِ والإثم، زال عنه حكمُ الصفاتِ، فلا اعتبار بتأنيثِه، ألا تراك تقول: الزنا سيئةٌ، كما تقول: السرقةُ سيئةٌ[٢].

فإن قلت: الخصالُ المذكورةُ بعضُها سَيِّئٌ وبعضُها حسنٌ؛ ولذلك قرأ مَن قرأ: (سيِّئُه) بالإضافةِ؛ أي: ما كان من المذكور سيئاً.. كان عند الله مكروهاً، فما وجهُ قراءةِ مَن قرأ: (سيئةً)؟

قلتُ: (كلُّ ذلك): إحاطةٌ بما نُهيَ عنه خاصةً، لا بجميع الخصال المعدودة.

《٣٩》 ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما تقدم من قولِه: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢] إلى هذه الغايةِ، ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾: مما يحكمُ العقلُ بصحتِه، وتَصلحُ النفسُ بأُسْوَتِه، ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾: مطروداً من الرحمة، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: هذه الثماني عشرةَ آيةً كانت في ألواحِ موسى عليه السلام، أولُها: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]، وآخرُها: ﴿مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، ولقد جُعلت فاتحتُها وخاتمتُها النهيَ عن الشرك؛ لأن التوحيد رأسُ كلِّ حكمةٍ ومِلاكُها، ومَن عَدِمَه.. لم تنفعْه حكمةٌ وإن بَذَّ فيها الحكماءَ، وحكَّ بيافوخِه السماءَ[٣]، وما أغنت عن الفلاسفةِ أسفارُ الحِكَمِ وهم عن دينِ اللهِ أضلُّ من النَّعَمِ.

《٤٠》 ثم خاطب الذين قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ بقولِه: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ الهمزةُ:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٥).

(٢) ويجوز إعراب (مكروهاً) خبراً ثانياً لـ(كان) فلا إشكال في تذكيره. انظر «تفسير الآلوسي» (٨/ ٧٤).

(٣) بَذَّ: غلب، واليافوخُ: وسطُ الرأسِ.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ ....

للإنكارِ؛ يعني: أَفَخصَّكم ربُّكم على وجه الخُلوصِ والصفاءِ بأفضلِ الأولادِ وهم البنون، ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾: واتخذَ أدْوَنَهم وهي البناتُ، وهذا خلافُ الحكمةِ وما عليه معقولُكم، فالعبيدُ لا يُؤثَرون بأجودِ الأشياءِ وأصفاها، ويكونُ أردؤُها وأدْونُها للسادات، ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ حيثُ أضفتُم إليه الأولادَ، وهي من خواصِّ الأجسامِ، ثم فضلتُم عليه أنفسَكم حيث تجعلون له ما تكرهون.

《٤١》 ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: التنزيلِ؛ والمرادُ: ولقد صرفناه؛ أي: هذا المعنى في مواضعَ من التنزيل، فتُرِكَ الضميرُ لأنه معلوم، ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ وبالتخفيفِ: حمزةُ وعليٌّ[1]؛ أي: كَرَّرْناه؛ ليتعظوا، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ عن الحقِّ، وكان الثوريُّ إذا قرأها.. يقول: زادني لك خُضوعاً ما زاد أعداءَك نُفوراً.

《٤٢》 ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ﴾ وبالياءِ: مكيٌّ وحفصٌ، ﴿إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾: لطلبوا إلى مَن له الملكُ والربوبيةُ سبيلاً بالمغالبة، كما يَفعلُ الملوكُ بعضُهم مع بعض، أو: لَتَقرَّبُوا إليه، كقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]، و(إذاً): دالةٌ على أن ما بعدها وهو (لابتغوا): جوابٌ عن مقالة المشركين، وجزاءٌ لـ(لو).

《٤٣》 ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ وبالتاء: حمزةُ وعليٌّ، ﴿عُلُوًّا﴾ أي: تعالياً؛ والمرادُ البراءةُ من ذلك والنزاهةُ، ﴿كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ وُصِفَ العُلُوُّ بالكبر مبالغةً في معنى البراءةِ والبعدِ مما وصفُوه به.

《٤٤》 ﴿يسبح﴾ وبالتاءِ: عِراقيٌّ غيرَ أبي بكر، ﴿لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: يقول: سبحان الله وبحمده، عن السديِّ، قال عليه السلام: «ما اصطيد حوتٌ في البحر، ولا طائرٌ يطير إلا بما يُضَيِّعُ من تسبيح الله تعالى»[2]، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لاختلاف اللغاتِ، أو لتعسرِ الإدراكِ، أو: سببٌ لتسبيحِ الناظرِ إليه[3]، والدالُّ على الخير كفاعله، والوجهُ الأولُ، ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ عن جهلِ العبادِ، ﴿غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ لذنوبِ المؤمنين.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٥) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٣٧) عن سيدنا يزيد بن مرثد رضي الله تعالى عنه.

(٣) أي: معنى (يسبح): أنه سبب لتسبيح الناظر.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ .....﴾

《٤٥》 ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾: ذا ستر، أو: حجاباً لا يُرى، فهو مستورٌ.

《٤٦》 ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمعُ كنانٍ، وهو الذي يَسترُ الشيءَ، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: كراهةَ أن يَفقهوه، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾: ثِقلاً يمنعُ عن الاستماع، ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ يقال: وَحَدَ يَحِدُ وَحْداً وحِدَةً، نحوُ: وَعَدَ يَعِدُ وَعْداً وعِدَةً، فهو مصدرٌ سدَّ مسدَّ الحالِ، أصلُه: يَحِدُ وَحْدَهُ؛ بمعنى: واحداً[1]، ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾: رجعُوا على أعقابهم، ﴿نُفُورًا ۝٤٦﴾: مصدرٌ بمعنى التوليةِ، أو: جمعُ نافرٍ، كقاعدٍ وقعودٍ؛ أي: يُحبون أن تذكرَ معَه آلهتُهم؛ لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد.. نَفَرُوا.

《٤٧》 ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: نحن أعلمُ بالحال أو الطريقةِ التي يستمعون القرآن به، فالقرآنُ هو المستمَعُ، وهو محذوفٌ، و(به): حالٌ وبيانٌ لـ(ما) أي: يستمعون القرآنَ هازئين لا جادِّينَ، والواجبُ عليهم أن يستمعوه جادِّين، ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾: نصبٌ بـ(أعلم) أي: أعلمُ وقتَ استماعِهم بما به يستمعون، ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾: وبما يتناجون به إذْ هم ذَوُو نجوى، ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: بدلٌ مِن (إذْ هم)، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧﴾ سُحِرَ فَجُنَّ.

《٤٨》 ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾: مثَّلُوك بالشاعر والساحر والمجنون، ﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾ أي: فضلُّوا في جميع ذلك ضلالَ مَن يطلبُ في التِّيْه طريقاً يسلكُه فلا يقدرُ عليه، فهو متحيرٌ في أمره لا يدري ما يصنعُ.

《٤٩》 ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أي: مُنكرُو البعثِ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾ أي: مُجدَّداً، و(خلقاً): حالٌ؛ أي: مخلوقين.

---

(١) أي: أن (وحده): مصدر وقع حالاً.

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ۝٥٣ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤﴾ ....

《٥٠ - ٥١》 ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: السمواتِ والأرضِ؛ فإنها تكبُرُ عندكم عن قبولِ الحياةِ، ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ﴾ يعيدُكم ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والمعنى: أنكم تستبعدُون أن يجددَ اللهُ خلقَكم ويردَّه إلى حال الحياة بعد ما كنتم عظاماً يابسةً، مع أن العظام بعضُ أجزاءِ الحيِّ، بل هي عمودُ خلقِه الذي يُبنَى عليه سائرُه، فليس ببدعٍ أن يردَّها اللهُ بقدرته إلى الحالة الأولى، ولكن لو كنتم أبعدَ شيءٍ من الحياة، وهو أن تكونوا حجارة أو حديداً.. لكان قادراً على أن يردَّكم إلى حال الحياة، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾: فَسيُحرِّكُونها نحوَكَ تعجباً واستهزاءً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ أي: البعثُ؛ استبعاداً له ونفياً، ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ أي: هو قريبٌ، و(عسى): للوجوب.

《٥٢》 ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ إلى المحاسبةِ، وهو يومُ القيامةِ ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تُجيبون حامدين، والباءُ: للحالِ، عن سعيد بن جبير: ينفُضُون الترابَ عن رؤوسِهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ أي: لُبثاً قليلاً، أو زماناً قليلاً في الدنيا، أو في القبر.

《٥٣》 ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾: وقل للمؤمنين: ﴿يَقُولُوا﴾ للمشركين الكلمةَ ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وألينُ، ولا يُخاشنُوهم، وهي أن يقولوا: يَهديكم اللهُ، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾: يُلقي بينهم الفسادَ، ويُغري بعضَهم على بعضٍ لِيُوْقِعَ بينهم المشاقَّةَ، والنَّزْغُ: إيقاعُ الشرِّ وإفسادُ ذات البين، وقرأ طلحةُ: ﴿يَنْزِغُ﴾: بالكسر[1]، وهم لغتان، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ۝٥٣﴾: ظاهرَ العداوةِ.

《٥٤》 أو: فَسَّرَ (التي هي أحسن) بقولِه: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالهدايةِ والتوفيقِ، ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالخِذلانِ؛ أي: يقولوا لهم هذه الكلمةَ ونحوَها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار وإنكم معذَّبون وما أشبه ذلك؛ مما يغيظُهم ويَهيجُهم على الشرِّ، وقولُه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾: اعتراضٌ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤﴾: حافظاً لأعمالهم وموكولاً إليك أمرُهم، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً، فدارِهم ومُرْ أصحابَكَ بالمداراة.

---

(١) انظر «الكشاف» (٢/ ٦٢٩).

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ....

«٥٥» ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ وبأحوالِهم وبكلٍّ ما يستأهلُ كلُّ واحدٍ منهم، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾: فيه إشارةٌ إلى تفضيل رسولِ اللهِ صلى اله عليه وسلم، وقولُه: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾: دلالةٌ على وجه تفضيلِه، وأنه خاتَمُ الأنبياء، وأن أمتَه خيرُ الأمم؛ لأن ذلك مكتوبٌ في زَبُورِ داود، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وهم محمدٌ وأمتُه، ولم يُعَرِّفِ الزبورَ هنا، وعرَّفَه في قولِه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؛ لأنه كالعباسِ وعباسٍ، والفضلِ وفضلٍ[1].

«٥٦» ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنها آلهتُكم ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾: من دون الله وهم الملائكة، أو: عيسى وعزيرٌ، أو: نفرٌ من الجن عبدَهم ناسٌ من العرب، ثم أسلم الجنُّ ولم يشعرُوا ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ أي: ادعُوهم فهؤلاء لا يستطيعون أن يكشفُوا عنكم الضرَّ من مرضٍ أو فقرٍ أو عذابٍ، ولا أن يُحَوِّلُوه من واحدٍ الى آخرَ.

«٥٧» ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأٌ، ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: صفةٌ؛ أي: يدعونهم آلهةً، أو: يعبدونهم، والخبرُ: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يعني: أن آلهتَهم أولئك يبتغون الوسيلةَ وهي القُربةُ إلى الله عزَّ وجلَّ، ﴿أَيُّهُمْ﴾: بدلٌ من واوِ (يبتغون) و(أي): موصولةٌ؛ أي: يبتغي مَن هو ﴿أَقْرَبُ﴾ منهم الوسيلةَ إلى الله، فكيف بغير الأقربِ؟ أو: ضُمِّنَ (يبتغون الوسيلة) معنى: يَحْرِصُون، فكأنه قيل: يحرصون أيُّهم يكونُ أقربَ إلى الله، وذلك بالطاعة وازدياد الخير ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ كغيرِهم من عبادِ اللهِ، فكيف يزْعُمون أنهم آلهة، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾: حقيقاً بأن يحذره كلُّ أحدٍ من مَلَكٍ مقرَّبٍ ونبيٍّ مرسَلٍ فضلاً عن غيرهم.

«٥٨» ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ﴾ قيلَ: الهلاكُ للصالحةِ والعذابُ للطالحةِ، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾: في اللوحِ المحفوظِ ﴿مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾:

---

(١) زبور قبل العلمية معناه: مزبور؛ أي: مكتوب، ثم صار علماً على كتاب سيدنا داود، فإذا أريد لمحُ الأصلِ.. دخلت (أل) فقيل: الزبور، وإلا قيل: زبور. قال ابن مالك:

وبعض الاعلام عليه دخلا ... لِلَمْحِ ما قد كان عنه نُقِلا

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ ....

مكتوباً، وعن مقاتلٍ: وجدتُ في كتبِ الضحاك في تفسيرها: أما مكةُ.. فَيُخَرِّبُها الحبشةُ، وتَهْلِكُ المدينةُ بالجوع، والبصرةُ بالغَرَقِ، والكوفةُ بالتُّركِ، والجبالُ بالصواعقِ والرواجفِ، وأما خُراسانُ.. فعذابُها ضُرُوبٌ، وأما بَلْخُ.. فتصيبُهم هَدَّةٌ فيهلكُ أهلُها، وأما بَدَخْشانُ.. فيخربُها أقوامٌ، وأما تِرْمِذُ.. فأهلُها يموتون بالطاعون، وأما صفانيانُ إلى واشْجِرْدَ.. فيُقتلون بقتلٍ ذَرِيْعٍ، وأما سمرقندُ.. فيغلبُ عليها بنو قنطوراءَ فَيقتلون أهلَها قتلاً ذَريعاً، وكذا فَرْغانةُ والشاشُ وإسبيجابُ وخُوارِزْمُ، وأما بُخارَى.. فهي أرضُ الجبابرةِ فيموتون قحطاً وجُوعاً، وأما مَرْوُ.. فيغلبُ عليها الرملُ ويَهلِكُ بها العلماءُ والعُبّادُ، وأما هَراةُ.. فيُمطَرون بالحياتِ فتأكلُهم أكلاً، وأما نَيسابُورُ.. فيصيبُ أهلَها رعدٌ وبرقٌ وظلمةٌ فيهلِكُ أكثرُهم، وأما الرَّيُّ.. فيغلبُ عليها الطَّبَرِيَّةُ والدَّيْلَمُ فيقتلونهم، وأما أَرمينيةُ وأَذْرَبِيجانُ.. فيهلكُها سنابكُ الخيولِ والجيوشُ والصواعقُ والرواجفُ، وأما هَمَذانُ.. فالدَّيلَمُ يدخلُها ويُخرِّبُها، وأما حُلوانُ.. فيمرُّ بها ريحٌ ساكنةٌ وهم نيامٌ فيصبحُ أهلُها قِردةً وخنازيرَ، ثم يخرُجُ رجلٌ من جُهينةَ فيدخلُ مصرَ، فويلٌ لأهلِها ولأهلِ دمشقَ، وويلٌ لأهلِ إفريقيةَ، وويلٌ لأهلِ الرملةِ، ولا يدخلُ بيتَ المقدسِ، وأما سِجِسْتانُ.. فيصيبُهم ريحٌ عاصفٌ أياماً، ثم هَدَّةٌ تأتيهم، ويموتُ فيها العلماءُ، وأما كَرْمانُ وأَصْبَهانُ وفارسُ.. فيأتيهم عدوٌّ وصاحُوا صيحةً تنخلعُ القلوبُ وتموتُ الأبدانُ.

«٥٩» ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ استعيرَ المنعُ لتركِ إرسالِ الآياتِ، و(أن) الأولى مع صلتِها: في موضعِ النصبِ؛ لأنها مفعولٌ ثانٍ لـ(منعنا)، و(أن) الثانية مع صلتِها: في موضعِ الرفعِ؛ لأنها فاعلُ (منعنا)، والتقديرُ: وما منعَنا إرسالَ الآياتِ إلا تكذيبُ الأولين؛ والمرادُ: الآياتُ التي اقترحتْها قريشٌ من قلبِ الصفا ذهباً، ومِن إحياءِ الموتَى وغيرِ ذلك، وسنةُ اللهِ في الأمم: أن من اقترحَ منهم آيةً فأُجِيبَ إليها ثم لم يؤمِنْ.. أن يعاجَلَ بعذابِ الاستئصالِ؛ والمعنى: وما منعَنا عن إرسالِ ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالُهم من المطبوعِ على قلوبِهم كعادٍ وثمودَ، وأنها لو أُرسلتْ.. لكذبوا بها تكذيبَ أولئك، وعُذِّبوا العذابَ المستأصِلَ، وقد حكمْنا أن نؤخرَ أمرَ مَن بُعثْتَ إليهم.. إلى يوم القيامةِ، ثم ذكرَ مِن تلك الآياتِ التي اقترحها الأولون، ثم كذَّبوا بها لما أُرسِلَتْ فأُهلكوا.. واحدةً، وهي ناقةُ صالحٍ عليه السلام؛ لأن آثارَ هلاكِهم قريبةٌ من حدودِهم، يُبصرُها صادرُهم وواردُهم فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ باقتراحِهم ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾: آيةً بينةً ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾: فكفروا بها، ﴿وَمَا نُرۡسِلُ

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ....

﴿بِالْآيَاتِ﴾: إن أرادَ بها الآياتِ المقترَحةَ.. فالمعنى: لا نرسلُها ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ من نزول العذاب العاجل، كالطليعةِ والمقدمةِ له، فإن لم يخافُوا.. وقع عليهم، وإن أراد غيرَها.. فالمعنى: وما نرسلُ ما نرسِلُ من الآيات كآيات القرآن وغيرِها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذابِ الآخرةِ، وهو مفعولٌ له.

《٦٠》 ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾: واذكر إذْ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريشٍ عِلْماً وقدرةً، فكلُّهم في قبضتِه، فلا تُبالِ بهم، وامضِ لأمرِك، وبَلِّغْ ما أرسلتَ به، أو: بَشرناك بوقعةِ بدرٍ وبالنصرةِ عليهم، وذلك قولُه: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]، فجعله كأنْ قد كان ووُجِدَ فقال: (أحاط بالناس) على سُنَّتِهِ في إخبارِه، ولعل الله تعالى أَراه مصارعَهم في منامه؛ فقد كان يقول حين ورد ماءَ بدرٍ: والله لكأني أنظرُ إلى مصارعِ القومِ وهو يُومئُ إلى الأرض ويقول: هذا مَصرَع فلانٍ هذا مَصرَع فلانٍ، فتسامعت قريشٌ بما أُوحِيَ إلى رسول الله ﷺ من أمر بدرٍ وما أُرِيَ في منامه من مصارعِهم، فكانوا يضحكون ويسخرون ويستعجلون به استهزاءً، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ﴾ أي: وما جعلنا الشجرةَ الملعونةَ في القرآن إلا فتنةً للناس؛ فإنهم حين سمِعوا بقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٤] جعلوها سخريةً وقالُوا: إن محمداً يَزْعُمُ أن الجحيم تُحرقُ الحجارةَ ثم يقول: تَنبتُ فيها الشجرةُ، وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِه إذ قالوا ذلك؛ فإنه لا يمتنعُ أن يجعلَ اللهُ الشجرة من جنسٍ لا تأكلُه النارُ، فوَبَرُ السَّمَنْدَلِ وهو دُوَيْبَّةٌ ببلاد التُركِ يُتخذُ منه مناديلُ، إذا اتَّسختْ.. طُرِحَتْ في النار، فذهب الوسخُ وبقيَ المنديلُ سالماً لا تعملُ فيه النارُ، وترى النَّعامةَ تبتلعُ الجمرَ فلا يضرُّها، وخلقَ في كل شجرةٍ ناراً فلا تحرقُها، فجاز أن يخلقَ في النار شجرةً لا تحرقُها؛ والمعنى: أن الآياتِ إنما تُرسَلُ تخويفاً للعباد، وهؤلاء قد خُوِّفُوا بعذاب الدنيا وهو القتلُ يومَ بدرٍ، وخُوِّفُوا بعذاب الآخرةِ، وبشجرة الزقوم، فما أَثَّر فيهم، ثم قال: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: بمخاوفِ الدنيا والآخرةِ ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويفُ ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ فكيف يخافُ قومٌ هذه حالُهم بإرسالِ ما يقترحون من الآياتِ؟ وقيل: الرؤيا: هي الإسراءُ، والفتنةُ: ارتدادُ مَن استعظمَ ذلك، وبه تَعَلَّقَ مَن يقول: كان الإسراءُ في المنام، ومن قال: كان في اليقظة.. فَسَّرَ الرؤيا بالرؤيةِ، وإنما سماها رؤيا على قول المكذبين؛ حيث قالوا له: لعلها رؤيا رأيتَها؛ استبعاداً

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ ....

منهم، كما سمى أشياءَ بأساميها عند الكفرةِ، كقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١]، ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [النحل: ٢٧]، أو: هي رؤيا أنه سيدخلُ مكةَ، والفتنةُ: الصدُّ بالحديبية.

فإن قلت: ليس في القرآن ذكرُ لعنِ شجرةِ الزقوم.

قلت: معناه: والشجرةُ الملعونُ آكلُها وهم الكفرةُ؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٣]، فوصفت بلعنِ أهلِها على المجاز؛ ولأن العرب تقول لكلِّ طعامٍ مكروهٍ ضارٍّ: ملعونٌ؛ ولأن اللعن هو الإبعادُ من الرحمة، وهي في أصل الجحيم في أبعدِ مكانٍ من الرحمة.

《٦١》 ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾: هو تمييزٌ أو: حالٌ من الموصول، والعامل فيه: (أأسجدُ) أي: أأسجدُ له وهو طينٌ؛ أي: أصلُه طينٌ.

《٦٢》 ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى﴾ الكافُ: لا موضعَ لها؛ لأنها ذُكِرت للخطاب تأكيداً، (هذا): مفعولٌ به؛ والمعنى: أخبرني عن هذا الذي ﴿كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: فضَّلته، بِمَ كرمتَه عليَّ وأنا خير منه؛ خلقتني من نارٍ وخلقتَه من طين، فحَذفَ ذلك اختصاراً؛ لدلالةِ ما تقدمَ عليه، ثم ابتدأ فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ وبلا ياءٍ: كوفيٌّ وشاميٌّ[1]، واللامُ: موطئةٌ للقسم المحذوفِ، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾: لأستأصِلَنَّهم بإغوائهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾: وهم المخلَصون، قيل: مِن كلِّ ألفٍ واحدٌ، وإنما عَلِمَ المَلْعُونُ ذلك بالإعلامِ، أو: لأنه رأى أنه خلقٌ شهوانيٌّ.

《٦٣》 ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾: ليس من الذهاب الذي هو ضدُّ المجيء، وإنما معناه: امضِ لشأنِك الذي اخترتَه؛ خِذلاناً وتخليةً، ثم عقَّبه بذكرِ ما جرَّه سوءُ اختيارِه فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ والتقديرُ: فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤُك، ثم غُلِّبَ المخاطبُ على الغائب فقيل: جزاؤُكم، وانتصب: ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ أي: مُوَفَّراً بإضمارِ: تُجازَون.

---

(١) أثبت الياءَ وصلاً: المدنيان والبصريُّ، وفي الحالين: المكيُّ ويعقوبُ، وحذفها الباقون في الحالين، ومن يُثبتُ الياءَ.. لا يفتحُها في الوصل. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٧).

وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ....

《٦٤》 ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾: استزِلَّ، أو استخِفَّ، استفزَّه؛ أي: استخفَّه، والفَزُّ: الخفيفُ، ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾: بالوسوسةِ، أو: بالغناءِ، أو: بالمزمار، ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾: اجمَعْ وصِحْ بهم؛ من الجَلَبَةِ، وهو الصياحُ، ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ﴾: بكلِّ راكبٍ وماشٍ من أهلِ العَيثِ، فالخيلُ: الخيالةُ، والرَّجْلُ: اسمُ جمعٍ للراجل[1]، ونظيرُه: الركبُ والصحبُ، ﴿وَرَجِلِكَ﴾: حفصٌ[2]؛ على أن (فعلاً) بمعنى: (فاعل)، كَتَعِبٍ وتاعبٍ؛ ومعناه: وجمعِك الرَّجِلِ، وهذا لأن أقصى ما يُستطاعُ في طلب الأمور الخيلُ والرَّجِلُ، وقيل: يجوز أن يكون لإبليسَ خيلٌ ورِجالٌ، ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قال الزجاجُ: كلُّ معصيةٍ في مال وولد فإبليسُ شريكُهم فيها، كالربا، والمكاسبِ المحرمةِ، والبحيرةِ، والسائبةِ، والإنفاقِ في الفسوقِ، والإسرافِ، ومنعِ الزكاةِ، والتوصلِ إلى الأولادِ بالسببِ الحرام، والتسميةِ بعبدِ العُزَّى وعبدِ شمسٍ، ﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيدَ الكاذبةَ من شفاعةِ الآلهةِ، والكرامةِ على الله بالأنسابِ الشريفةِ، وإيثارِ العاجلِ على الآجلِ، ونحوِ ذلك، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾: هو تزيينُ الخطأِ بما يوهم أنه صواب.

《٦٥》 ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الصالحين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾: يدٌ بتبديلِ الإيمانِ، ولكن بتسويلِ العِصيانِ، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ لهم يتوكلون به في الاستعاذةِ منك، أو حافظاً لهم عنك، والكلُّ أمرُ تهديدٍ فيعاقبُ به، أو إهانةٍ؛ أي: لا يُخِلُّ ذلك بملكي.

《٦٦》 ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى﴾: يُجري ويُسير ﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ يعني: الربحَ في التجارةِ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

《٦٧》 ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي: خوفُ الغرقِ ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: ذهب عن أوهامِكم كلُّ مَن تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحدَه، فإنكم لا تذكرون سواه، أو: ضلَّ من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم، ولكن الله وحده هو الذي ترجونه؛ على الاستثناء المنقطع، ﴿فَلَمَّا

---

(١) اسم الجمع: ما لا واحد له من لفظه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٧) وكذا القراءة الآتية.

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ....

﴿نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإخلاص بعدَ الخلاص، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: الكافرُ ﴿كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ للنعمِ.

《٦٨》 ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزةُ: للإنكارِ، والفاءُ: للعطفِ على محذوف تقديرُه: أَنجوتم فأمنتم فحملَكم ذلك على الإعراض، ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ انتصبَ جانبُ بـ(يخسفَ) مفعولاً به، كالأرض في قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]، و(بكم): حال؛ والمعنى: أن يخسف جانب البرِّ؛ أي: يقلبُه وأنتم عليه، والحاصل: أن الجوانبَ كلَّها في قدرته سواءٌ، وله في كل جانب برّاً كان أو بحراً سببٌ من أسباب الهلاك، ليس جانبُ البحرِ وحدَه مختصّاً به، بل إن كان الغرقُ في جانبِ البحرِ.. ففي جانب البرِّ الخسفُ، وهو تغييبٌ تحت التراب، والغرقُ تغييبٌ تحت الماء، فعلى العاقل أن يستويَ خوفُه من الله في جميع الجوانب وحيثُ كان، ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ هي: الريحُ التي تَحْصِبُ؛ أي: ترمي بالحصباء؛ يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف.. أصابكم به من فوقكم بريحٍ يرسلُها عليكم فيها الحصباءُ، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ يصرفُ ذلك عنكم.

《٦٩》 ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أم أمنتم أن يُقويَ دواعيَكم، ويُوفِّرَ حوائجَكم إلى أن ترجعوا فتركبُوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم، فينتقمَ منكم بأن يرسلَ عليكم ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ وهي: الريح التي لها قَصيفٌ، وهو الصوت الشديدُ، أو هو الكاسرُ للفُلْكِ، ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾: بكفرانكم النعمةَ، وهو إعراضُكم حين نجاكم، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾: مُطالباً؛ مِن قوله: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي: مطالبةٌ؛ والمعنى: إنا نفعل ما نفعل بهم، ثم لا تجدُ أحداً يطالبُنا بما فعلنا؛ انتصاراً منا، ودَرْكاً للثأر من جهتِنا، ﴿أن نخسف﴾، ﴿أو نرسل﴾، ﴿أن نعيدكم﴾، ﴿فنرسل﴾، ﴿فنغرقكم﴾: بالنون: مكيٌّ وأبو عمرٍو.

《٧٠》 ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بالعقلِ والنطقِ والخطِّ والصورةِ الحسنةِ والقامةِ المعتدلةِ وتدبيرِ أمرِ المعاشِ والمعادِ والاستيلاءِ وتسخيرِ الأشياءِ وتناولِ الطعامِ بالأيدي، وعن الرشيد أنه

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ....

أحضر طعاماً، فدعا بالملاعقِ وعنده أبو يوسف رحمه الله تعالى، فقال له: جاء في تفسيرِ جدِّكَ ابنِ عباس رضي الله عنهما: قوله تعالى: (ولقد كرمنا بني آدم): جعلنا لهم أصابعَ يأكلون بها. فأُحضرتِ الملاعِقُ فردَّها وأكلَ بأصابعِه، ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ على الدوابِّ، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على السفنِ، ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: باللذيذات، أو: بما كسبت أيديهم، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ أي: على الكلِّ، كقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣] قال الحسن: أي: كلُّهم. وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ [يونس: ٣٦]، ذكَرَ في «الكشاف» أن المراد بالأكثر: الجميعُ[١]، وعنه عليه السلام: «المؤمنُ أكرمُ على الله من الملائكة»[٢]، وهذا لأنهم مجبولون على الطاعة، ففيهم عقلٌ بلا شهوةٍ، وفي البهائم شهوةٌ بلا عقلٍ، وفي الآدمي كلاهما، فمن غلب عقلُه شهوتَه.. فهو أكرم من الملائكة، ومن غلبت شهوتُه عقلَه.. فهو شرٌّ من البهائم، ولأنه خلقَ الكلَّ لهم، وخلقهم لنفسه.

《٧١》 ﴿يَوْمَ نَدْعُوا﴾: منصوبٌ بـ(اذكر)، ﴿كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ الباءُ: للحال، والتقدير: مختلطين بإمامهم؛ أي: بمن ائتموا به؛ مِن نبي، أو مُقدَّم في الدين، أو كتابٍ، أو دِينٍ، فيقال: يا أتباعَ فلانٍ، يا أهلَ دينِ كذا، أو كتابِ كذا، وقيل: بكتابِ أعمالِهم فيقال: يا أصحابَ كتابِ الخيرِ، ويا أصحابَ كتابِ الشرِّ، ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ من هؤلاء المدْعُوِّين ﴿كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ وإنما قيل: (أولئك) لأن (مَن) في معنى الجمع، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾: ولا يُنقَصون من ثوابهم أدنى شيء[٣]، ولم يذكرِ الكفارَ وإيتاءَ كتبِهم بشمالهم؛ اكتفاءً بقوله:

《٧٢》 ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ كذلك، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ من الأعمى؛ أي: أضلُّ طريقاً، والأعمى: مستعارٌ ممن لا يُدرك المبصراتِ؛ لفسادِ حاسَّتِهِ لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة، أما في الدنيا.. فَلِفَقْدِ النظرِ، وأما في الآخرة.. فلأنه لا ينفعُه الاهتداءُ إليه، وقد جَوَّزُوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل؛ بدليل عطفِ (وأضلُّ)، ومِن ثَمَّ قرأ

---

(١) «الكشاف» (٢/ ٣٣٠).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٩٤٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه، وانظر «تحفة المريد» للبيجوري ففيه تفصيل في التفضيل بين الناس والملائكة.

(٣) الفتيل: القشرة الرقيقة على ظهر النواة، وأريد به هنا الشيء القليل جداً.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ ....

أبو عمرٍو الأولَ مُمالاً، والثاني مفخماً[١]؛ لأن (أفعل التفضيل) تمامُه بِمِنْ، فكانت ألفُه في حكمِ الواقعةِ في وسطِ الكلمةِ، فلم يَقبل الإمالةَ[٢]، وأما الأول.. فلم يتعلق به شيءٌ، فكانت ألفُه واقعةً في الطَّرَفِ فقبلتِ الإمالةَ، وأمالَهما: حمزةُ وعليٌّ، وفخمَهما: الباقون[٣].

《٧٣》 ولما قالت قريش: اجعل آيةَ رحمةٍ آيةَ عذابٍ، وآيةَ عذابٍ آيةَ رحمةٍ حتى نؤمنَ بك.. نزل: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ (إن): مخففةٌ من الثقيلة، واللامُ: فارقةٌ بينها وبين النافية؛ والمعنى: إنَّ الشأنَ قاربوا أن يفتنوك؛ أي: يخدعوك فاتنين ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من أوامرنا ونواهِينا ووعدنا ووعيدِنا ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾: لِتتقوَّلَ علينا ما لم نقل؛ يعني: ما اقترحوه من تبديلِ الوعدِ وعيداً، والوعيدِ وعداً، ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: ولو اتبعت مُرادَهم.. لاتخذوك خليلاً، ولكنتَ لهم وليّاً وخرجتَ مِن وِلايتي.

《٧٤》 ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ﴾: ولولا تثبيتُنا وعِصمتُنا ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾: لقاربتَ أن تميلَ إلى مكرِهم ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾: رُكوناً قليلاً، وهذا تهييجٌ من الله له، وفَضْلُ تثبيتٍ.

《٧٥》 ﴿إِذًا﴾ لو قاربتَ تركنُ إليهم أدنى رَكْنةٍ ﴿لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾: لأذقناك عذابَ الآخرةِ وعذابَ القبرِ مُضاعَفين؛ لعظيم ذنبك بشرف منزلتِك ونبوتِك، كما قال: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ...﴾ [الأحزاب: ٣٠] الآيةَ، وأصلُ الكلامِ: لأذقناك عذابَ الحياةِ وعذابَ المماتِ؛ لأن العذاب عذابان: عذابٌ في الممات، وهو عذاب القبر، وعذابٌ في حياة الآخرة، وهو عذاب النار، والعذابُ يُوصفُ بالضِّعف، كقوله: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: مُضاعَفاً، فكأن أصل الكلام: لأذقناك عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات، ثم حُذف الموصوفُ وأقيمت الصفةُ مُقامَه، وهو الضعفُ، ثم أضيفت الصفةُ

---

(١) أي: بلا إمالة.

(٢) اعترض على هذا التعليل بأن بعض القراء أمالوا ﴿ولا أدنى من ذلك﴾ [المجادلة: ٧] مع التصريح بـ(من)، فلأَنْ يُميلوا (أعمى) مقدراً معه (مِن) أولى، فلعل ترك الإمالة للجمع بين اللغتين الإمالةِ وتركها. انظر «إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص ٢١٨)، و«الدر المصون» (٧/ ٣٩١).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٩) والتفخيم ترك الإمالة.

وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ....

إضافةَ الموصوفِ فقيل: (ضعفَ الحياةِ وضعفَ المماتِ)، ويجوز أن يُرادَ بضعفِ الحياةِ: عذابُ الحياةِ الدنيا، وبضعفِ المماتِ: ما يَعقُبُ الموتَ من عذاب القبر وعذابِ النارِ، وفي ذكر الكيدودةِ وتقليلِها مع إتباعِها الوعيدَ الشديدَ بالعذاب المضاعَفِ في الدارين.. دليلٌ على أن القبيح يَعظُم قبحُه بمقدارِ عظمِ شأنِ فاعلِه، ولما نزلت.. كان عليه السلام يقول: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[1]، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾: مُعيناً لك يمنعُ عذابَنا عنك.

《٧٦》 ﴿وَإِن كَادُوا۟﴾ أي: أهلُ مكةَ ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾: ليزعجونك بِعداوتِهم ومكرِهم، ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: من أرض مكةَ؛ ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾: لا يَبْقَون ﴿خَلْفَكَ﴾: بعدَكَ أي: بعدَ إخراجِك، ﴿خِلَـٰفَكَ﴾: كوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ وشاميٌّ[2]، بمعناه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾: زماناً قليلاً؛ فإن الله مهلكهم، وكان كما قال، فقد أُهلكُوا ببدرٍ بعد إخراجِه بقليلٍ، أو معناه: ولو أخرجوك.. لاستُؤصلُوا عن بَكْرَةِ أبيهم، ولم يخرجوه، بل هاجر بأمر ربه، وقيل: من أرض العرب، أو: من أرض المدينة.

《٧٧》 ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ﴾ يعني: أن كل قومٍ أَخرجُوا رسولَهم من بين ظهرانَيهم.. فسنةُ اللهِ أن يهلكهم، ونُصبت نصبَ المصدرِ المؤكدِ؛ أي: سنَّ الله ذلك سنةً، ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾: تبديلاً.

《٧٨》 ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾: لزوالها، وعلى هذا: الآيةُ جامعةٌ للصلوات الخمس، أو: لغروبِها، وعلى هذا: يخرجُ الظهرُ والعصرُ، ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ هو: الظلمةُ، وهو وقت صلاة العشاء، ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾: صلاةَ الفجرِ؛ سميت قرآناً، وهو القراءةُ؛ لكونها ركناً، كما سميت ركوعاً وسجوداً، وهو حجةٌ على الأصمِّ، حيث زعم أن القراءة ليست بركن، أو سميت قرآناً؛ لطول قراءتِها، وهو عطفٌ على الصلاة، ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾: يشهدُه ملائكةُ

---

(١) روى أبو داود (٥٠٩٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤١٢) عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه مرفوعاً: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت».

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٨).

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ ....

الليل والنهار، ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء، فهو في آخر ديوان الليل، وأولِ ديوانِ النهارِ، أو يشهدُه الكثيرُ من المصلين في العادة.

《٧٩》 ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾: وعليك بعضَ الليلِ[١] ﴿فَتَهَجَّدۡ﴾ والتهجدُ: تركُ الهُجودِ للصلاة، ويقال في النوم أيضاً: تَهَجُّدٌ، ﴿بِهِۦ﴾: بالقرآنِ، ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾: عبادةً زائدةً لك على الصلوات الخمس، وُضِعَ (نافلة) موضعَ تهجداً؛ لأن التهجدَ عبادةٌ زائدةٌ، فكان التهجدُ والنافلةُ يجمعهما معنى واحدٌ؛ والمعنى: أن التهجد زِيدَ لك على الصلوات المفروضةِ غنيمةً لك، أو فريضةً عليك خاصةً دون غيرك؛ لأنه تطوعٌ لهم، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾: نصبٌ على الظرف؛ أي: عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمَكَ مقاماً محموداً، أو: ضمن (يبعثك) معنى: يقيمك، وهو مقامُ الشفاعةِ عند الجمهور؛ ويدلُّ عليه الأخبار[٢]، أو هو مقامٌ يُعطَى فيه لواءَ الحمدِ.

《٨٠》 ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾: وهو مصدرٌ؛ أي: أدخلني القبرَ إدخالاً مَرضيّاً على طهارةٍ من الزلات، ﴿وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ أي: أخرجني منه عند البعث إخراجاً مرضيّاً، مُلَقّىً بالكرامة، آمناً من الملامة؛ دليلُه ذكرُه على أثرِ ذلك البعثَ، وقيل: نزلت حين أُمرَ بالهجرة؛ يريد: إدخالَ المدينةِ والإخراجَ من مكةَ، أو: هو عامٌّ في كلِّ ما يَدخلُ فيه ويُلابسُه من أمرٍ ومكانٍ، ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾: حجةً تنصرُني على من خالفني، أو مُلكاً وعزّاً قويّاً، ناصراً للإسلام على الكفر، مُظهراً له عليه.

《٨١》 ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾: الإسلامُ، ﴿وَزَهَقَ﴾: وذهب وهلكَ ﴿ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾: الشركُ، أو جاء القرآنُ وهلك الشيطانُ، ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾: كان مُضمحلاً في كلِّ أوانٍ.

《٨٢》 ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ وبالتخفيفِ: أبو عمرٍو[٣]، ﴿مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ (مِن): للتبيين، ﴿مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾

---

(١) هذا التقدير مشكل؛ لأنه يفيد أن (مِن) اسم منصوب على الإغراء، و(من) الجارةُ لا تكون اسماً، فالأولى تعليقها بـ(تهجد)، أو بمحذوف تقديره: وقم من الليل. انظر «الدر المصون» (٧/ ٣٩٨).

(٢) كما روى ذلك البخاري (٧٤٤٠).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٨).

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ ....

من أمراض القلوب، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: وتفريجٌ للكروب وتطهيرٌ للعيوب وتكفيرٌ للذنوب، ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي الحديث: «من لم يستشفِ بالقرآن.. فلا شفاه الله»[1]، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾: ضلالاً لتكذيبهم به وكفرهم.

《٨٣》 ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بالصحة والسعةِ ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكر الله، أو: أنعمنا بالقرآن أعرضَ، ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: تأكيدٌ للإعراض؛ لأن الإعراض عن الشيء أن يُوليه عُرْضَ وجهِه[2]، والنأْيُ بالجانب: أن يَلويَ عنه عِطفَه ويُولِّيَه ظهرَه، أو: أراد الاستكبارَ؛ لأن ذلك من عادةِ المستكبرين، ﴿نأى﴾ بالإمالة: حمزةُ، وبكسرهما: عليٌّ[3]، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾: الفقرُ والمرضُ، أو: نازلةٌ من النوازل ﴿كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾: شديدَ اليأسِ من رَوحِ الله.

《٨٤》 ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: كلُّ أحدٍ ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾: على مذهبه وطريقته التي تُشاكلُ حالَه في الهدى والضلال، ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾: أَسَدُّ مذهباً وطريقةً.

《٨٥》 ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من الأمر الذي يعلمه ربي، الجمهورُ على أنه الرُّوحُ الذي في الحيوان، سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من أمرِ اللهِ؛ أي: مما استأثر بعلمه، وعن أبي هريرة: لقد مضى النبي ﷺ وما يعلمُ الروحَ[4]. وقد عجزت الأوائلُ عن إدراك ماهيتِه بعدَ إنفاقِ الأعمارِ الطويلةِ على الخوض فيه، والحكمةُ في ذلك تعجيزُ العقلِ عن إدراكِ معرفةِ مخلوقٍ مجاورٍ له؛ ليدلَّ على أنه عن إدراك خالقِه أعجزُ، ولذا رُدَّ ما قيل في حده: إنه جسمٌ دقيقٌ هوائيٌّ في كل جزءٍ من الحيوان، وقيل: هو خلقٌ عظيمٌ روحانيٌّ أعظمُ من الملك، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو جبريل عليه السلام[5]؛ دليله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ

---

(١) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢/ ١١٢٧) عن سيدنا رجاء الغنوي رضي الله عنه بنحوه.

(٢) عُرْضُ الشيءِ: ناحيتُه.

(٣) بإمالة النون والهمزة معاً: الكسائي وخلف عن حمزة، والهمزة فقط لشعبة وخلاد، وبتقليل الهمزة فقط لورش بخلف عنه. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٩).

(٤) لم أجده.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٤٤).

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ....

قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وعن الحسن: القرآن؛ دليله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ولأن به حياةَ القلوبِ، و(من أمر ربي) أي: مِن وحيه وكلامِه، ليس من كلام البشر، وروي: أن اليهود بعثت إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عن الكلِّ، أو سكت عن الكلِّ.. فليس بنبيٍّ، وإن أجاب عن بعض، وسكت عن بعض.. فهو نبيٌّ، فَبَيَّنَ لهم القِصتين، وأَبْهَمَ أمر الروح، وهو مُبهمٌ في التوارة، فندموا على سؤالهم[1]، وقيل: كان السؤال عن خلق الروح؛ يعني: أهو مخلوق أم لا؟ وقولُه: (من أمر ربي): دليلُ خلقِ الروحِ، فكان هذا جواباً، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ الخطابُ عامٌّ؛ فقد روي: أن رسول الله ﷺ لما قال لهم ذلك.. قالُوا: نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه؟ فقال: «بل نحن وأنتم لم نؤتَ من العلم إلا قليلاً»[2]، وقيل: هو خطاب لليهود خاصة؛ لأنهم قالوا للنبي ﷺ: قد أُوتينا التوراة وفيها الحكمةُ، وقد تَلَوْتَ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فقيل لهم: إن علم التوراة قليلٌ في جنب علم الله، فالقلةُ والكثرةُ من الأمور الإضافية، فالحكمةُ التي أُوتِيَها العبدُ خيرٌ كثيرٌ في نفسها، إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله تعالى.. فهي قليلة.

«٨٦» ثم نبه على نعمة الوحْيِ وعزّاه بالصبر على أذى الجدال في السؤال بقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ (لنذهبن): جوابُ قسمٍ محذوفٍ، مع نيابته عن جزاء الشرط، واللامُ الداخلةُ على (إن): موطئةٌ للقسم؛ والمعنى: إن شئنا.. ذهبنا بالقرآن ومَحَوناه من الصدورِ والمصاحفِ فلم نترك له أثراً، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ أي: ثم لا تجد لك بعدَ الذهابِ به مَن يتوكل علينا باستردادِه وإعادتِه محفوظاً مسطوراً.

«٨٧» ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ أي: إلا أن يرحمَك ربُّك

---

(١) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرث، وهو متكئ على عسيب، إذ مر اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رأيكم إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي فلما نزل الوحي، قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. رواه البخاري (٤٧٢١) ومسلم (٢٧٩٤).

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/١٥٢).

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ....﴾

فيردَّه عليك، كأن رحمتَه تتوكلُ عليه بالردِّ، أو: يكونُ على الاستثناء المنقطع؛ أي: ولكن رحمةٌ من ربك تركتْه غيرَ مذهوبٍ به، وهذا امتنانٌ من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المِنَّةِ العظيمةِ في تنزيله وتحفيظه.

《٨٨》 ونزل جواباً لقول النضر: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١]:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾: مُعيناً، و(لا يأتون): جوابُ قسمٍ محذوفٍ، ولولا اللامُ الموطئةُ.. لجاز أن يكون جواباً للشرط، كقوله[١]: [من: البسيط]

.... يقـولُ لا غـائـبٌ مـالـي ولا حَـرِمُ

لأن الشرط وقع ماضياً[٢]؛ أي: لو تظاهرُوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسنِ نظمِه وتأليفِه.. لعجزوا عن الإتيان بمثله.

《٨٩》 ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾: رَدَّدْنا وكرَّرْنا ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: مِن كلِّ معنىً هو كالمثل في غرابتِه وحسنِه، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾: جُحوداً، وإنما جاز (فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) ولم يَجُزْ: ضربت إلا زيداً؛ لأن (أبى) مُتأوَّلٌ بالنفي، كأنه قيل: فلم يرضَوا إلا كفوراً، ولمّا تَبَيَّنَ إعجازُ القرآن وانضمَّتْ إليه المعجزاتُ الأُخَرُ ولزمتْهم الحجةُ وغُلبُوا.. اقترحُوا الآياتِ فعلَ المبهوتِ المحجوجِ المتحيِّرِ.

《٩٠》 ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُفَجِّرَ لَنَا﴾ وبالتخفيفِ: كوفيٌّ[٣]، ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي:

---

(١) هذا عجز بيت لزهير بن أبي سلمى في «ديوانه» (ص١٠٥)، وصدره:

وإن أتـاه خـلـيـلٌ يـومَ مـسـألـةٍ

والحَرِمُ: الحِرْمان؛ بمعنى: المحروم منه؛ أي: لا غائب مالي ولا محروم منه.

(٢) إذا كان الشرط ماضياً والجزاء مضارعاً.. جاز رفع الجواب، نحو: إن قام زيد أقوم، والتقدير: فأنا أقوم، فالجواب جملة، أو: على التقديم والتأخير؛ أي: أقوم إن قام زيد، فالجواب محذوف دل عليه: أقوم. انظر «مغني اللبيب» (ص ٥٥٢).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٨) وكذا القراءة الآتية.

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ....

مكة، ﴿يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾: عيناً غزيرةً، من شأنِها أن تَنْبُعَ بالماء لا تُقْطَعُ، (يفْعُول) مِن نبعَ الماءُ.

《٩١》 ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ﴾ والتشديدُ هنا مُجمعٌ عليه؛ لقوله: ﴿ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا﴾: وَسَطها، ﴿تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾.

《٩٢》 ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾: بفتحِ السينِ: مدنيٌّ وعاصمٌ؛ أي: قِطَعاً، يقال: أعطني كِسْفَةً من هذا الثوب، وبسكون السين: غيرُهما؛ جمعُ كِسْفَةٍ، كسدْرَةٍ وسِدْرٍ؛ يعنون قولَه: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩]، ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾: كفيلاً بما تقولُ، شاهداً بصحته؛ والمعنى: أو تأتي بالله قبيلاً وبالملائكة قبيلاً، كقوله[1]: [من: الطويل]

..... كنتُ منه ووالدي بريّاً ....

أو: مُقابِلاً كالعشير؛ بمعنى: المعاشِرِ، ونحوُه: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، أو: جماعةً: حالاً من الملائكة.

《٩٣》 ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾: ذهبٍ، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: تصعدُ إليها، ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾: لأجلِ رُقِيِّكَ ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ وبالتخفيف: أبو عمرو[2]، ﴿كِتَٰبًا﴾ أي: من السماءِ فيه تصديقُك، ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾: صفةُ كتاب، ﴿قُلْ﴾ ﴿قال﴾: مكيٌّ وشاميٌّ؛ أي: قال الرسولُ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى﴾: تعجبٌ من اقتراحاتهم عليه، ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ أي: أنا رسولٌ كسائر الرسل، بشرٌ مثلُهم، وكان الرسلُ لا يأتون قومَهم إلا بما يُظهرُه اللهُ عليهم من الآيات، فليس أمرُ الآيات إليَّ، إنما هو إلى الله، فما بالُكم تتخيَّرونها عليَّ؟

《٩٤》 ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: أهلَ مكةَ، ومحلُّ ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾: نصبٌ بأنه مفعول ثانٍ

---

(١) البيت لابن أحمر، وهو بتمامه:

رماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي ... بَريّاً ومن أجل الطَّويِّ رماني

انظر «الكتاب» لسيبويه (١/ ٧٥)، الطويّ: البئر؛ أي: رماه ووالدَه بأمرٍ هما بريئان منه بسبب خصومة في بئر.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٨) وكذا القراءة الآتية.

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ ....

لـ(منع)، ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾: النبيُّ والقرآنُ، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾: فاعلُ (منع)، والتقديرُ: وما منعَهم الإيمانَ بالقرآن وبنبوةِ محمدٍ ﷺ إلا قولُهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ أي: إلا شبهةٌ تمكنت في صدورِهم، وهي إنكارُهم أن يرسلَ اللهُ البشرَ، والهمزةُ في: (أَبَعَثَ اللهُ): للإنكار، وما أنكروه.. ففي قضيةِ حكمتِه مُنكر[1].

《٩٥》 ثم ردَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ على أقدامِهم كما يمشي الإنسُ، ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعُوا من أهلها ويعلمُوا ما يجب عليهم ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾: حالٌ؛ أي: ساكنين في الأرض قارِّينَ ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ يعلمُهم الخيرَ ويَهديْهم المَراشدَ، فأما الإنسُ.. فإنما يُرسَلُ المَلَكُ إلى مختارٍ منهم للنبوةِ، فيقومُ ذلك المختار بدعوتهم وإرشادِهم، و(بشراً وملكاً): حالان من (رسولاً).

《٩٦》 ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ على أني بلغتُ ما أُرسلتُ به إليكم، وأنكم كذبتم وعاندتم، (شهيداً): تمييزٌ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ المنذِرين والمنذَرين ﴿خَبِيرًۢا﴾: عالماً بأحوالهم، ﴿بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ بأفعالِهم، فهو مجازيهم، وهذه تسليةٌ لرسول الله عليه السلام، ووعيدٌ للكفرة.

《٩٧》 ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ وبالياء: يعقوبُ وسهلٌ، وافقهما أبو عمرٍو ومدنيٌّ في الوصل[2]؛ أي: مَن وفقه الله لقبول ما كان من الهدى.. فهو المهتدي عند الله، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي: ومن يخذلْه ولم يعصمْه حتى قَبِلَ وساوسَ الشيطانِ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: أنصاراً، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: يُسحبون عليها؛ لقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]، وقيل لرسول الله عليه السلام: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمشيَهم على وجوهم»[3]، ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ كما كانوا في الدنيا، لا يستبصرون ولا ينطقون بالحقِّ، ويتصامُّون عن استماعه، فهم في الآخرة كذلك،

---

(١) عبارة «الكشاف»: (٢/٦٤٩): وما أنكروه.. فخلافُه هو المنكرُ عند الله؛ لأن قضيةَ حكمتِه ألّا يرسلَ ملكَ الوحْيِ إلا إلى أمثالِه، أو إلى الأنبياء.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٨٨).

(٣) رواه الترمذي (٣١٤٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ....

لا يُبصرون ما يُقِرُّ أعينَهم، ولا يَسمعون ما يُلِذُّ مسامعَهم، ولا ينطقون بما يُقبَلُ منهم، ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ﴾: طَفِئَ لهبُها ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾: تَوَقُّداً.

《٩٨》 ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ أي: ذلك العذاب بسبب أنهم كَذَّبُوا بالإعادة بعد الإفناء، فجعل الله جزاءَهم أن سلطَ النارَ على أجزائِهم تأكلُها، ثم يعيدُها، لا يزالون على ذلك؛ ليزيدَ في تحسرِهم على تكذيبِهم البعثَ.

《٩٩》 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾: أولـم يـعـلـمـوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ من الإنس، ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو الموتُ، أو القيامةُ، ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾: جحوداً مع وضوح الدليل.

《١٠٠》 ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ تقديرُه: لو تملكون تملكون؛ لأن (لو) تدخل على الأفعال دون الأسماء، فلا بدَّ من فعلٍ بعدها، فأُضمر (تملك) على شريطة التفسير، وأُبدل من الضمير المتصل وهو الواو ضميرٌ منفصلٌ وهو (أنتم)؛ لسقوطِ ما يتصل به من اللفظ، فـ(أنتم): فاعلُ الفعلِ المضمرِ، و(تملكون): تفسيرُه، وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علمُ الإعراب، وأما ما يقتضيه علم البيان.. فهو: أن (أنتم تملكون): فيه دلالة على الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشحِّ المتبالغِ[١]، ﴿خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾: رزقِه وسائرِ نعمه على خلقِه، ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ﴾ أي: لَبَخِلتم خشيةَ أن يُفنيَه الإنفاقُ، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾: بخيلاً.

《١٠١》 ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: هي العصا واليدُ والجرادُ والقُمّلُ والضفادعُ والدمُ والحجرُ والبحرُ والطورُ الذي نَتَقَهُ على بني إسرائيل[٢]،

---

(١) قيل: أفاد الحصر عند البلاغيين لأن نظرهم في مثل هذا التركيب إلى صورته؛ وهو في صورة المبتدأ والخبر، ومن طرق الحصر أن يكون المبتدأ معرفة وخبره جملة فعلية مثبتة. وقيل: أفاد الحصر لأن (أنتم) في المعنى فاعلٌ مقدمٌ، وتقديمُ الفاعل المعنوي يفيد الاختصاص إذا ناسب المقام. انظر «فتوح الغيب» (٩/ ٣٨٥)، و«حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٦/ ٦٣). و«البلاغة العربية» للشيخ عبد الرحمن حبنكة (١/ ٥٤٠)..

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٦٤).

قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ . . . .

وعن الحسن: الطُّوفانُ والسِّنونَ ونقصُ الثمرات، مكانَ الحجرِ والبحرِ والطورِ، ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: فقلنا له: سلْ بني إسرائيلَ؛ أي: سلْهم مَنْ فرعونُ؟ وقل له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، وقولُه: ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾: متعلقٌ بالقولِ المحذوفِ؛ أي: فقلنا له: سلْهم حين جاءهم، ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾: سُحِرْتَ فخولطَ عقلُك.

《١٠٢》 ﴿قَالَ﴾ أي: موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعونُ ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآياتِ ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: خالقُهما ﴿بَصَآئِرَ﴾: حالٌ؛ أي: بيناتٍ مكشوفاتٍ؛ ولكنك معاندٌ، ونحوُه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ﴿عَلِمْتُ﴾: عليٌّ[1]؛ أي: إني لست بمسحورٍ كما وصفتني، بل أنا عالم بصحة الأمر، وإن هذه الآياتِ منزلُها ربُّ السموات والأرض، ثم قارع ظنَّه بظنِّه بقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ كأنه قال: إن ظننتني مسحوراً.. فأنا أظنُّك مثبوراً، وظني أَصَحُّ من ظنك؛ لأن له أمارةً ظاهرةً، وهي إنكارُك ما عرفتَ صحتَه، ومكابرتُك لآياتِ اللهِ بعد وضوحِها، وأما ظنُّكَ.. فكذبٌ بَحْتٌ؛ لأن قولك مع علمك بصحة أمري: إني لأظنك مسحوراً.. قولُ كذّابٍ، وقال الفراء: (مثبوراً): مصروفاً عن الخير؛ من قولهم: ما ثَبَرَكَ عن هذا؟ أي: ما منعك وصرفك؟

《١٠٣》 ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعونُ ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾: يخرجَهم؛ أي: موسى وقومَه ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ارضِ مصرَ، أو: ينفيَهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾: فحاق به مكرُه؛ بأن استفزَّه اللهُ بإغراقِه مع قِبْطِه.

《١٠٤》 ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: من بعد فرعون ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد فرعون أن يستفزَّكم منها، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: القيامةِ ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾: جميعاً مختلطين إياكم وإياهم، ثم نحكمُ بينكم، ونُمَيِّزُ بين سعدائِكم وأشقيائِكم، واللفيفُ: الجماعاتُ من قبائلَ شتَّى.

《١٠٥》 ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾: وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة، وما نزل إلا مُلتبساً بالحق والحكمة؛ لاشتمالِه على الهداية إلى كل خير، أو: ما أنزلناه من السماء إلا بالحق،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٩).

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ....

محفوظاً بالرَّصَدِ من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين، قال الراوي: اشتكى محمدُ بنُ السَّمَّاكِ فأخذنا ماءَه وذهبنا به إلى طبيبٍ نصرانيٍّ، فاستقبلَنا رجلٌ حسنُ الوجهِ طيبُ الرائحةِ نقيُّ الثوبِ، فقال لنا: إلى أين؟ فقلنا له: إلى فلان الطبيب نُريه ماءَ ابنِ السمَّاك، فقال: سبحان الله، تستعينون على وليِّ اللهِ بعدوِّ اللهِ، اضربُوه على الأرض وارجعوا إلى ابن السَّمَّاكِ وقولوا له: ضَعْ يدَكَ على موضع الوجع وقل: (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل)، ثم غاب عنا فلم نَرَه، فرجعنا إلى ابن السماك فأخبرْناه بذلك، فوضع يده على موضعِ الوجعِ وقال ما قال الرجلُ، وعُوفي في الوقت، وقال: كان ذلك الخضرَ عليه السلام[1]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ من النار.

《١٠٦》 ﴿وَقُرْءَانًا﴾: منصوبٌ بفعلٍ يفسرُه ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ أي: فَصَّلْناه أو فرَّقْنا فيه الحقَّ من الباطل؛ ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: على تُؤَدَةٍ وتَثَبُّتٍ، ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ على حسب الحوادثِ.

《١٠٧ - ١٠٨》 ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي: اختاروا لأنفسكم النعيمَ المقيمَ، أو العذابَ الأليمَ، ثم عللَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: التوراةِ من قبلِ القرآنِ ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآنُ ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾: حالٌ، ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ لقوله[2]: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي: أعرض عنهم؛ فإنهم إن لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بالقرآن.. فإن خيراً منهم وهم العلماء الذين قرؤوا الكتبَ قد آمنوا به وصدقُوه، فإذا تُلِيَ عليهم.. خَرُّوا سجداً وسبحُوا اللهَ تعظيماً لأمره، ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلةِ، وبَشَّرَ به من بعثة محمد ﷺ، وإنزالِ القرآنِ عليه، وهو المراد بالوعد المذكور، (إنْ) بمعنى: (إنَّه)، وهي تؤكدُ الفعل، كما أنَّ (إنَّ) تؤكدُ الاسم، وكما أُكِّدَتْ (إنَّ) باللام في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصافات: ١٥٨] تأكدت (إنْ) باللام في (لمفعولاً)[3].

---

(١) روى هذه القصة القشيري في «الرسالة» (٢/ ٥٥٣).

(٢) متعلق بقوله: (عَلَّلَ).

(٣) (إنْ): مخففة من الثقيلة، وهي هنا غيرُ عاملةٍ، فلا يقدرُ لها اسمٌ، واللامُ في (لمفعولاً) هي اللام الفارقة بين النافية والمخففة، وهي لامُ الابتداء عند بعض النحاة جيء بها للفرق، وهذا ما جرى عليه النسفي؛ ولذا قرَّر أنها تفيد التأكيد.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

«١٠٩» ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ ومعنى الخُرور للذَّقَنِ: السقوطُ على الوجه، وإنما خُصَّ الذَّقَنُ؛ لأن أقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض عند السجود الذَّقَنُ، يقال: خرَّ على وجهه، وعلى ذَقَنِهِ، وخرَّ لوجهه ولذقَنِه، أما معنى: على.. فظاهرٌ، وأما معنى اللام.. فكأنه جَعَلَ ذقنَه ووجهَه للخرور واختصَّه به؛ إذ اللامُ: للاختصاص، وكرَّرَ (يخرون للأذقان) لاختلاف الحالين وهما خرورُهم في حالِ كونِهم ساجدين، وخرورُهم في حال كونهم باكين، ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآنُ ﴿خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾: لِيْنَ قلبٍ ورطوبةَ عينٍ.

«١١٠» ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ لما سمعه أبو جهل يقول: يا الله يا رحمن.. قال: إنه نهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخرَ، فنزلت، وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لَتُقِلُّ ذكرَ الرحمنِ وقد أكثرَ اللهُ في التوراة هذا الاسمَ فنزلت، والدعاءُ بمعنى التسميةِ، لا بمعنى النداءِ، و(أو): للتخيير؛ أي: سَمُّوا بهذا الاسم أو بهذا، أو: اذكروا إما هذا وإما هذا، والتنوينُ في ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا﴾: عوضٌ من المضاف إليه، و(ما): زيدت للتوكيد، و(أيّاً): نصبٌ بـ(تدعوا)، وهو مجزومٌ بـ(أيٍّ)؛ أي: أيَّ هذين الاسمين ذَكرتُم وسميتُم ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والضميرُ في (فله): يرجعُ إلى ذاتِ الله تعالى، والفاءُ لأنه جوابُ الشرط؛ أي: أيّاً ما تدعوا.. فهو حسنٌ، فوضع موضعَه قولُه: (فله الأسماء الحسنى) لأنه إذا حَسُنت أسماؤُه كلُّها.. حَسُنَ هذان الاسمان؛ لأنهما منها، ومعنى كونِها أحسنَ الأسماءِ أنها مستقلة بمعاني التمجيدِ والتقديسِ والتعظيم، ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾: بقراءةِ صلاتِك؛ على حذف المضافِ؛ لأنه لا يُلْبِسُ؛ إذ الجهر والمخافتةُ تعتقبان على الصوت لا غيرُ، والصلاةُ أفعالٌ وأذكارٌ، وكان رسول الله ﷺ يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون.. لَغَوا وسَبُّوا، فأُمِرَ بأن يَخفِضَ من صوته؛ والمعنى: ولا تجهر حتى تُسمِعَ المشركِينَ، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ حتى تُسمِعَ من خلفَكَ، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: بين الجهرِ والمخافتةِ ﴿سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾: وَسَطاً، أو معناه: ولا تجهرْ بصلاتِك كلِّها، ولا تخافتْ بها كلِّها، وابتغِ بين ذلك سبيلاً؛ بأن تجهرَ بصلاة الليل، وتخافتَ بصلاةِ النهار، أو: (بصلاتك): بدعائك.

«١١١» ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعمتِ اليهودُ والنصارى وبنو مُلَيْحٍ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كما زعمَ المشركون ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ أي: لم يَذِلَّ فيحتاجَ

إلى ناصرٍ، أو: لم يُوالِ أحداً من أجل مذلةٍ به ليدفعَها بموالاتِه، ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾: وعظِّمْه وصِفْه بأنه أكبرُ من أن يكون له ولدٌ أو شريكٌ؛ وسَمَّى النبيُّ عليه السلام الآيةَ آيةَ العزِّ[1]، وكان إذا أفصحَ الغلامُ من بني عبد المطلب.. عَلَّمَه هذه الآيةَ[2].

* * *

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ٤٣٩) عن سيدنا معاذ بن أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص ٣٧٤) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ....

سورةُ الكهف

مكيةٌ، وهي مئةٌ وإحدى عشرةَ آيةً: بصريٌّ، وعشرُ آياتٍ: كوفيٌّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾: محمدٍ ﷺ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآنَ، لَقَّنَ اللهُ عبادَه وَفَقَّهَهُم كيف يُثنون عليه ويَحمَدُونه على أجزلِ نعمائِه عليهم وهي نعمةُ الإسلام، وما أنزلَ على محمدٍ ﷺ من الكتاب الذي هو سببُ نجاتِهم، ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ أي: شيئاً من العوج[1]، والعوجُ في المعاني كالعوجِ في الأعيان؛ قال: في رأيه عوجٌ، وفي عصاه عوجٌ؛ والمرادُ: نفيُ الاختلافِ والتناقضِ عن معانيه، وخروجُ شيءٍ منه من الحكمة.

《٢》 ﴿قَيِّمًا﴾: مستقيماً، وانتصابُه بمضمرٍ، وتقديرُه: جعله قيماً؛ لأنه إذا نَفَى عنه العوجَ.. فقد أثبت له الاستقامةَ، وفائدةُ الجمع بين نفيِ العوجِ وإثباتِ الاستقامةِ وفي أحدهما غِنىً عن الآخر: التأكيدُ؛ فَرُبَّ مستقيمٍ مشهودٍ له بالاستقامةِ ولا يخلو من أدنى عِوَجٍ عند التصفحِ، أو: قيماً على سائر الكتب مصدقاً لها شاهداً بصحتِها، ﴿لِّيُنذِرَ﴾ (أنذر): متعدٍّ إلى مفعولين، كقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠] فاقتصرَ على أحدِهما، وأصلُه: لينذر الذين كفروا ﴿بَأْسًا﴾: عذاباً ﴿شَدِيدًا﴾ وإنما اقتصرَ على أحدِ مفعولَي (أنذر)؛ لأن المنذَرَ به هو المسوقُ إليه، فاقتصر عليه، ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾: صادراً من عندِه، ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأن لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ أي: الجنةَ، ﴿وَيَبْشُرَ﴾: حمزة وعليٌّ[2].

《٣》 ﴿مَّٰكِثِينَ ﴿٣﴾﴾: حالٌ مِن (هم) في (لهم) ﴿فِيهِ﴾: في الأجرِ وهو الجنةُ ﴿أَبَدًا ﴿٣﴾﴾.

《٤》 ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ ذَكَرَ المنذَرين دون المنذَرِ به بعكس الأولِ؛ استغناءً بتقديم ذكره.

---

(١) استفيد العموم من وقوع النكرة في سياق النفي.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٨٤).

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ....

«٥» ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بالولد، أو: باتخاذِه؛ يعني: أن قولهم هذا لم يصدُرْ عن علمٍ، ولكن عن جهلٍ مُفرطٍ، فإن قلت: اتخاذُ اللهِ ولداً.. في نفسه محالٌ، فكيف قيل: ما لهم به من علم؟ قلتُ: معناه: ما لهم به من علم؛ لأنه ليس مما يُعلم؛ لاستحالته، وانتفاءُ العلم بالشيء إما للجهلِ بالطريق الموصلِ إليه، أو لأنه في نفسه محالٌ، ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ المقلِّدين، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾: نصبٌ على التمييز، وفيه معنى التعجبِ، كأنه قيل: ما أكبرَه كلمةً، والضميرُ في (كبرت): يرجعُ إلى قولهم: (اتخذ الله ولداً)؛ وسميت كلمةً كما يُسمُّون القصيدةَ بها، ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: صفةٌ لـ(كلمة) تفيدُ استعظاماً لاجترائِهم على النطق بها وإخراجِها من أفواههم؛ فإن كثيراً مما يُوسوسُه الشيطانُ في قلوب الناس من المنكَراتِ لا يَتمالَكُون أن يَتَفوَّهُوا به، بل يَكظِمُون عليه، فكيف بمثل هذا المنكر! ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾: ما يقولون ذلك إلا كذباً، هو صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: قولاً كذباً.

«٦» ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: قاتلٌ نفسَكَ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي: آثارِ الكفارِ، شبَّهه وإياهم حين تولَّوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخلَه من الأسف على تولِّيهم.. برجلٍ فارقَه أحبتُه، فهو يتساقطُ حسراتٍ على آثارِهم، ويبخعُ نفسَه وَجْداً عليهم، وتلهفاً على فراقِهم، ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: بالقرآن ﴿أَسَفًا ﴿٦﴾﴾: مفعولٌ له؛ أي: لِفَرْطِ الحزنِ، والأسفُ: المبالغةُ في الحزنِ، والغضبُ.

«٧» ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ أي: ما يصلح أن يكون زينةً لها ولأهلها من زخارفِ الدنيا وما يُستحسنُ منها؛ ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ وحسنُ العملِ الزهدُ فيها، وتركُ الاغترارِ بها.

«٨» ثم زَهَّدَ في الميل إليها بقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ من هذه الزينةِ ﴿صَعِيدًا﴾: أرضاً مَلْساءَ، ﴿جُرُزًا ﴿٨﴾﴾: يابساً لا نباتَ فيها، بعد أن كانت خضراءَ مُعشِبةً؛ والمعنى: نعيدُها بعد عِمارتِها خراباً بإماتة الحيوان، وتجفيفِ النباتِ والأشجارِ وغيرِ ذلك.

«٩» ولما ذكرَ من الآياتِ الكليةِ تزيينَ الأرضِ بما خَلَقَ فوقَها من الأجناس التي لا حصرَ لها، وإزالةَ ذلك كلِّه كأنْ لم يكن.. قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ يعني: أن

إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ....

ذلك أعظمُ من قصةِ أصحابِ الكهف وإبقاءِ حياتِهم مدةً طويلةً، والكهفُ: الغارُ الواسعُ في الجبل، والرقيمُ: اسمُ كلبِهم أو قريتِهم، أو: اسمُ كتابٍ كُتِبَ في شأنِهم، أو: اسمُ الجبلِ الذي فيه الكهفُ، ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ أي: كانوا آيةً عجباً من آياتنا، وصفاً بالمصدر، أو: على: ذاتِ عجبٍ.

«١٠» ﴿إِذْ﴾ أي: اذكرْ إذْ ﴿أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: رحمةً من خزائنِ رحمتِك، وهي المغفرةُ والرزقُ والأمنُ من الأعداء، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: الذي نحنُ عليه من مفارقةِ الكفارِ، ﴿رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ حتى نكونَ بسببه راشدين مهتدين، أو: اجعل أمرَنا رشداً كلَّه، كقولك: رأيت منك أسداً[1]، أو: يَسِّرْ لنا طريقَ رضاك.

«١١» ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ﴾ أي: ضربْنا عليها حجاباً من النوم؛ يعني: أنَمْناهم إنامةً ثقيلةً لا تُنبههم فيها الأصواتُ، فحذفَ المفعولُ الذي هو الحجاب، ﴿سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾: ذواتِ عددٍ، فهو صفة لـ(سنين)، قال الزجاج: أي: تُعَدُّ عدداً؛ لكثرتِها؛ لأن القليل يُعلمُ مقدارُه من غير عددٍ، فإذا كَثُرَ.. عُدَّ[2]، فأما ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠] فهي على القلة؛ لأنهم كانوا يَعُدُّون القليل، ويَزِنُون الكثيرَ.

«١٢» ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾: أيقظناهم من النوم، ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ المختَلِفين منهم في مدة لبثهم؛ لأنهم لما انتبهوا.. اختلفُوا في ذلك، وذلك قولُه: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، وكان الذين قالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول، أو: أيُّ الحزبين المختلفين مِن غيرِهم، ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾: غايةً، و(أحصى): فعلٌ ماضٍ، و(أمداً): ظرفٌ لـ(أحصى)، أو مفعوله[3]، والفعلُ الماضي خبرُ المبتدأِ، وهو أي: والمبتدأ مع خبرِه سدَّ مسدَّ مفعولَي (نعلم)؛ والمعنى: أيُّهم

(١) وتسمى (مِن) تجريديةً، والتجريد: أن يَنتزع المتكلمُ من أمرٍ ذي صفةٍ أمراً آخرَ مثلَه في تلك الصفة؛ مبالغةً في كمالها في المنتزَع منه، حتى صار بحيثُ يمكن أن ينتزعَ منه موصوفٌ آخرُ بها، فيكون المعنى في الآية: الدعاء بأن يبلغ أمرهم حدّاً من الرشد بحيث يصحُّ أن يُستخلصَ منه آخرُ مثلُه في الرَّشَدِ. انظر «جواهر البلاغة» (ص ٣٠٨).

(٢) انظر «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٢٧١).

(٣) أي: مفعول به لـ(أحصى)، وهذا أولى من جعله ظرفاً؛ لأن الإحصاء وقع على الأمد نفسه؛ ولم يقع فيه.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ ....

ضبطَ أمداً لأوقات لُبثِهم، أو: أحاط علماً بأمدِ لُبْثِهم، ومن قال: (أحصى): (أفعلُ)؛ من الإحصاءِ، وهو العَدُّ. . فقد زلَّ؛ لأن بناءَه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس، وإنما قال: (لنعلم) مع أنه تعالى لم يزل عالماً بذلك؛ لأن المراد ما تَعَلَّقَ به العلمُ من ظهور الأمر لهم؛ ليزدادوا إيماناً واعتباراً؛ وليكون لطفاً لمؤمنِي زمانِهم، وآيةً بينةً لكفارِه، أو: المرادُ: لنعلمَ اختلافَهما موجوداً كما علمناه قبلَ وجودِه.

《١٣》 ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾: بالصدقِ، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾: جمعُ فتىً، والفتوةُ: بذلُ الندَى، وكفُّ الأذى، وتركُ الشكوى، واجتنابُ المحارم، واستعمالُ المكارم، وقيل: الفتى: مَن لا يدَّعي قبل الفعل، ولا يزكي نفسَه بعد الفعل، ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾: يقيناً، وكانوا من خواصِّ دِقْيانُوسَ، قد قذف الله في قلوبهم الإيمانَ، وخاف بعضُهم بعضاً، وقالوا: لِيَخْلُ اثنان اثنان منّا فيُظْهِرْ كِلاهما ما يُضمِرُ لصاحبه ففعلوا، فحصل اتفاقُهم على الإيمان.

《١٤》 ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: وقوَّيناها بالصبر على هِجرانِ الأوطانِ والفرارِ بالدين إلى بعضِ الغِيرانِ، وجسّرناهم على القيام بكلمة الحقِّ والتظاهرِ بالإسلام، ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ بين يدي الجبارِ وهو دِقْيانُوسُ من غير مبالاةٍ به حين عاتبَهم على ترك عبادة الأصنام، ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مفتخرين، ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ ولئن سميناهم آلهةً ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾: قولاً ذا شططٍ، وهو الإفراطُ في الظلم والإبعادُ فيه؛ مِن: شطَّ يشِطُّ ويَشُطُّ: إذا بَعُدَ.

《١٥》 ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: مبتدأٌ، ﴿قَوْمُنَا﴾: عطفُ بيانٍ، ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾: خبرٌ، وهو إخبارٌ في معنى الإنكارِ، ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾: هلّا يأتون على عبادتِهم، فحذفَ المضافُ ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾: بحجةٍ ظاهرةٍ، وهو تبكيتٌ؛ لأن الإتيان بالسلطان على عبادةِ الأوثانِ محالٌ، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ بنسبةِ الشريكِ إليه.

《١٦》 ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾: خطابٌ مِن بعضِهم لبعضٍ، حيث صَمَّمَتْ عزيمتُهم على الفرار بدينِهم، ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾: نصبٌ، عطفٌ على الضميرِ؛ أي: وإذ اعتزلتموهم واعتزلتُم معبودِيهم

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ....

﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾: استثناءٌ متصلٌ؛ لأنهم كانوا يُقرُّون بالخالق ويشركون معه غيرَه، كأهلِ مكةَ، أو: منقطعٌ؛ أي: وإذ اعتزلتم الكفارَ والأصنامَ التي يعبدونَها من دون الله، أو: هو كلامٌ معترضٌ إخبارٌ من الله تعالى عن الفتية أنهم لم يعبدوا غيرَ اللهِ، ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾: صِيرُوا إليه، أو: اجعلُوا الكهفَ مأواكم، ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾: من رزقِه، ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ ﴿مرفقاً﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ[1]، وهو: ما يُرتفقُ به؛ أي: يُنتفعُ، وإنما قالوا ذلك ثقةً بفضل الله، وقوةً في رجائِهم؛ لتوكلِهم عليه ونُصوعِ يقينِهم، أو: أخبرَهم به نبيٌّ في عصرِهم.

«١٧» ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾: بتخفيفِ الزاي: كوفيٌّ، ﴿تَزْوَرُّ﴾: شاميٌّ، ﴿تزّاورُ﴾: غيرُهم[2]، وأصلُه: تتزاورُ، فخففَ بإدغامِ التاءِ في الزاي، أو حذفِها، والكلُّ من الزَّوْرِ، وهو الميلُ، ومنه: زارَه: إذا مال إليه، والزُّوْرُ: الميلُ عن الصدق، ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ أي: تَميلُ عنه ولا يقعُ شعاعُها عليهم، ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾: جهةَ اليمينِ، وحقيقتُها: الجهةُ المسماةُ باليمين، ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾: تقطعُهم؛ أي: تتركُهم وتعدِلُ عنهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾: في مُتَّسَعٍ من الكهفِ؛ والمعنى: أنهم في ظِلٍّ نهارَهم كلَّه، لا تصيبُهم الشمسُ في طلوعها ولا غروبِها، مع أنهم في مكانٍ واسعٍ منفتحٍ معرضٍ لإصابةِ الشمسِ لولا أن الله يحجُبُها عنهم، وقيل: مُنْفَسَحٍ من غارهم، ينالُهم فيه رَوْحُ الهواءِ وبردُ النسيمِ ولا يُحسُّون كربَ الغارِ، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما صنعَه اللهُ بهم من ازْورارِ الشمسِ وقرضِها طالعةً وغاربةً آيةٌ من آياتِ اللهِ؛ يعني: أن ما كان في ذلك السمتِ تصيبُه الشمسُ ولا تصيبُهم؛ اختصاصاً لهم بالكرامة، وقيل: بابُ الكهفِ شماليٌّ، مستقبلٌ لبنات نعشٍ[3]، فهم في مَقنأةٍ أبداً[4]؛ ومعنى (ذلك من آيات الله): أن شأنهم وحديثَهم من آياتِ اللهِ، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾: مثلُ ما مرَّ في (سبحان)[5]، وهو ثناءٌ عليهم بأنهم جاهَدُوا في الله وأسلمُوا له وجوهَهم، فأرشدَهم إلى نيلِ تلك الكرامةِ السَّنِيَّةِ، ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ أي: من أضلَّه.. فلا هاديَ له.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٩٠).

(٢) انظر المرجع السابق (ص ١٩١).

(٣) اسم مجموعة من الكواكب.

(٤) المَقْنَاةُ: المكانُ الذي لا تطلعُ عليه الشمسُ.

(٥) أي: في (سورة الإسراء).

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾

《١٨》 ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾: بفتحِ السينِ: شاميٌّ وحمزةُ وعاصمٌ غيرَ الأعشى وهبيرة[١]، وهو خطابٌ لكل أحد، ﴿أَيْقَاظًا﴾: جمعُ يَقِظ، ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾: نيامٌ، قيل: عيونُهم مفتحةٌ وهم نيام، فيحسبُهم الناظرُ لذلك أيقاظاً، ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قيل: لهم تَقَلُّبتان في السنة، وقيل: تَقَلُّبَةٌ واحدةٌ في يوم عاشوراء[٢].

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾: حكايةُ حالٍ ماضيةٍ؛ لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المُضيِّ، ﴿بِالْوَصِيدِ﴾: بالفِناءِ، أو: العَتَبَة، ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾: لو أشرفْتَ عليهم فنظرتَ إليهم ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾: لأعرضتَ عنهم وهَرَبْتَ منهم ﴿فِرَارًا﴾: منصوبٌ على المصدر؛ لأن معنى (ولّيت منهم): فررتَ منهم، ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ﴾: وبتشديدِ اللامِ: حِجازيٌّ للمبالغةِ[٣]، ﴿رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾: تمييزٌ، وبضم العين: شاميٌّ وعليٌّ، وهو الخوفُ الذي يُرعِبُ الصدرَ؛ أي: يملؤه، وذلك لِما ألبسهم اللهُ من الهَيبة، أو: لِطولِ أظفارِهم وشعورِهم وعظمِ أجرامِهم[٤]، وعن معاويةَ أنه غزا الرومَ فمرَّ بالكهفِ فقال: أريدُ أن أدخل، فقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: لقد قيل لمن هو خيرٌ منك: (لوليت منهم فراراً)، فدَخَلَتْ جماعةٌ بأمره فأحرقتْهم ريحٌ.

《١٩》 ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾: وكما أَنَمْناهم تلك النومةَ.. كذلك أيقظناهم؛ إظهاراً للقدرة على الإنامةِ والبعثِ جميعاً، ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾: ليسألَ بعضُهم بعضاً ويَتَعَرَّفُوا حالَهم وما صنعَ اللهُ بهم فيعتبرُوا ويستدلُّوا على عِظَمِ قدرةِ اللهِ ويزدادوا يقيناً ويشكرُوا ما أنعم اللهُ به عليهم، ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾: رئيسُهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾: كم مدةً لبثتُم؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: جوابٌ مبنيٌّ على غالبِ الظنِّ، وفيه دليل على جواز الاجتهادِ والقولِ بالظنِّ الغالبِ، ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٩١).

(٢) في «تفسير الآلوسي» (٨/ ٢١٤): ظاهر الآية يدل على الكثرة؛ لمكان المضارع الدال على الاستمرار التجددي مع ما فيه من التثقيل.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٩١) وكذا القراءة الآتية.

(٤) لو حصل لهم هذا التغير.. لأنكروا أحوالهم ولم يقولوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. انظر «البحر المحيط» (٦/ ١٠٦).

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ . . . .

﴿بِمَا لَبِثْتُمْ﴾: بمدةِ لُبثِكم، إنكارٌ عليهم من بعضهم، كأنهم قد علمُوا بالأدلة، أو بإلهام أن المدة متطاولةٌ، وأن مقدارَها لا يعلمُه إلا اللهُ، ورويَ: أنهم دخلوا الكهفَ غُدْوةً، وكان انتباهُهم بعد الزوال، فظنُّوا أنهم في يومهم، فلما نظرُوا إلى طُول أظفارِهم وأشعارِهم.. قالوا ذلك، وقد استدل ابنُ عباس رضي الله عنه على أن الصحيح أن عددهم سبعةٌ؛ لأنه قد قال في الآية: (قال قائل منهم كم لبثتم) وهذا واحدٌ، وقالوا في جوابه: (لبثنا يوماً أو بعض يوم) وهو جمعٌ، وأقلّه ثلاثةٌ، ثم قال: (ربكم أعلم بما لبثتم) وهذا قولُ جمعٍ آخرين، فصاروا سبعةً[1]، ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم﴾ كأنهم قالوا: ربُّكم أعلمُ بذلك، لا طريقَ لكم إلى علمه، فخذُوا في شيءٍ آخرَ مما يَهُمُّكم، فابعثوا أحدكم؛ أي: تَمْلِيخا، ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ هي: الفضةُ مضروبةً كانت أو غيرَ مضروبةٍ، وبسكون الراء: أبو عمرٍو وحمزةُ وأبو بكرٍ[2]، ﴿هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي: طَرَسُوسُ، وحملُهم الوَرِقَ عند فرارِهم دليلٌ على أن حمل النفقة وما يَصلُحُ للمسافر هو رأيُ المتوكلين على الله دون المتَّكلين على الاتفاقات، وعلى ما في أوعيةِ القومِ من النفقات، وعن بعض العلماء أنه كان شديدَ الحنينِ إلى بيت الله ويقول: ما لهذا السَّفَرِ إلا شيئان: شدُّ الهِمْيانِ، والتوكلُ على الرحمن[3]، ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ﴾: أيُّ أهلِها، فحذفَ كما في: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وأيُّ: مبتدأٌ وخبرُه: ﴿أَزْكَىٰ﴾: أحلُّ وأطيبُ وأكثرُ وأرخصُ، ﴿طَعَامًا﴾: تمييزٌ، ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾: وليتكلفْ اللطفَ فيما يُباشرُه من أمرِ المبايعةِ حتى لا يُغبنَ، أو: في أمرِ التَّخفِّي حتى لا يُعرفَ، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾: ولا يفعلنَّ ما يُؤدِّي إلى الشعورِ بنا من غير قصدٍ منه، فسمِّيَ ذلك إشعاراً منه بهم؛ لأنه سبب فيه.

《٢٠》 والضميرُ في ﴿إِنَّهُمْ﴾: راجعٌ إلى الأهل المقدرِ في ﴿أَيُّهَآ﴾، ﴿إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ يَطَّلعوا عليكم، ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: يقتلوكم أخبثَ القِتلةِ، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ بالإكراهِ، والعودُ بمعنى: الصيرورةِ كثيرٌ في كلامهم، ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ (إذاً): يدلُّ على الشرط؛ أي: ولن تفلحوا إن دخلتم في دينهم أبداً[4].

---

(١) لا أظنُّ هذا ثابتاً عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما؛ إذ إنه استدلال ضعيف جدّاً.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٩١).

(٣) **الهِمْيانُ**: كيسُ النفقة يُشدُّ على الوسطِ.

(٤) إنما قال: إن دخلتم... لأن عدم الفلاح لا ينشأ عن إعادتهم إلى الكفر مكرهين مع اطمئنان قلوبهم بالإيمان، فلذا قَدَّرَ: إن دخلتم فيه؛ أي: حقيقة لا ظاهراً. انظر «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٦/ ٨٥).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

《٢١》 ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾: وكما أنمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة.. أطلعْنا عليهم؛ ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟﴾ أي: الذين أطلعناهم على حالهم ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: وهو البعثُ ﴿حَقٌّ﴾: كائنٌ؛ لأن حالهم في نومهم وانتباههم بعدها كحالِ مَن يموتُ ثم يُبعثُ، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ فإنهم يستدلون بأمرهم على صحةِ البعثِ، ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾: متعلقٌ بـ(أعثرنا) أي: أعثرْناهم عليهم حين يتنازعُ أهلُ ذلك الزمانِ ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾: أمرَ دينِهم، ويختلفون في حقيقة البعث، فكان بعضهم يقول: تُبعثُ الأرواحُ دون الأجساد، وبعضُهم يقول: تُبعثُ الأجسادُ مع الأرواح؛ ليرتفعَ الخلافُ، وليتبين أن الأجسادَ تُبعثُ حيةً حساسةً، فيها أرواحُها كما كانت قبلَ الموتِ، ﴿فَقَالُوا۟﴾ حين توفَّى اللهُ أصحابَ الكهفِ: ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ أي: على باب كهفِهم؛ لئلا يَتَطرَّقَ إليهم الناسُ؛ ضَنّاً بتُربتِهم، ومحافظةً عليها، كما حُفِظَتْ تربةُ رسولِ الله ﷺ بالحظيرة[1]، ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾: مِن كلامِ المتنازِعين، كأنهم تذاكرُوا أمرَهم وتناقلُوا الكلام في أنسابِهم وأحوالِهم ومدةِ لُبثِهم، فلما لم يهتدُوا إلى حقيقة ذلك.. قالُوا: ربُّهم أعلمُ بهم، أو: من كلام الله عزَّ وجلَّ ردّاً لقول الخائضين في حديثِهم، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ من المسلمين وملكِهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم﴾ على بابِ الكهفِ ﴿مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ يُصلِّي فيه المسلمون، ويتبركون بمكانِهم، روي: أن أهلَ الانجيلِ عظُمت فيهم الخطايا، وطغت ملوكُهم حتى عبدُوا الأصنامَ، وأكرهُوا على عبادتها، وممن شدَّدَ في ذلك دِقيانوسُ، فأراد فتيةً من أشرافِ قومِه على الشرك، وتَوَعَّدَهم بالقتل، فأَبوا إلا الثباتَ على الإيمان والتَّصَلُّبَ فيه، ثم هربُوا إلى الكهف، ومرُّوا بكلبٍ فتبعهم، فطردوه، فأنطقَه اللهُ تعالى، فقال: ما تريدون مني؟ إني أحبُّ أحباءَ اللهِ، فناموا وأنا أحرسُكم، وقيل: مرُّوا براعٍ معه كلبٌ فتبعهم على دينِهم ودخلُوا الكهفَ، فضربَ اللهُ على آذانهم، وقبلَ أن يبعثَهم اللهُ مَلَكَ مدينتَهم رجلٌ صالحٌ مؤمنٌ، وقد اختلفَ أهلُ مملكتِه في البعثِ معترفين وجاحدين، فدخلَ الملكُ بيتَه وأغلقَ بابَه

(١) الحظيرة: سورٌ من رصاص يحيط بالحجرة الشريفة التي تضم الحبيب صلى الله عليه وسلم، صنعه الملكُ العادلُ نورُ الدينِ الشهيدُ؛ وذلك أنه رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم في نومه في ليلةٍ ثلاثَ مرات وهو يشير إلى رجلين أشقرين ويقول: أَنجِدْني أَنقِذْني من هذين، فعثر عليهما فإذا هما يَحفِران في الأرض للوصول إلى القبر الشريف، فقُتلا وحفظ الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم. انظر «خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى» (٢/ ١٧٦).

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ....

ولَبِسَ مِسْحاً[١]، وجلسَ على رمادٍ وسأل ربَّه أن يُبَيِّنَ لهم الحقَّ، فألقى الله في نفسِ رجلٍ من رُعيانِهم، فهدمَ ما سُدَّ به فمُ الكهفِ؛ ليتخذَه حظيرةً لغنمه، ولما دخل المدينةَ مَن بعثُوه لابتياعِ الطعامِ وأخرجَ الوَرِقَ وكان من ضَرْبِ دِقيانوسَ.. اتهموه بأنه وجدَ كنزاً، فذهبوا به إلى الملكِ فقصَّ عليه القصةَ، فانطلق الملكُ وأهلُ المدينةِ معه وأبصرُوهم وحَمِدُوا اللهَ على الآية الدالة على البعث، ثم قالت الفِتيةُ للملك: نستودعك اللهَ ونعيذُك به من شرِّ الجنِّ والإنسِ، ثم رجعُوا إلى مضاجعِهم، وتوفَّى اللهُ أنفسَهم فألقى الملكُ عليهم ثيابَه، وأَمَرَ فجُعِلَ لكلٍّ واحدٍ تابوتٌ من ذهبٍ، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعلَها من الساج[٢]، وبنى على باب الكهف مسجداً.

《٢٢》 ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الضميرُ في (سيقولون): لمن خاضَ في قصتِهم في زمن رسولِ الله ﷺ من المؤمنين وأهلِ الكتابِ، سألُوا رسولَ اللهِ ﷺ عنهم، فأخَّرَ الجوابَ إلى أن يُوحَى إليه فيهم، فنزلت إخباراً بما سيجري بينهم من اختلافهم في عددِهم، وأن المصيبَ منهم مَن يقول: سبعةٌ وثامنُهم كلبهم، ويُروَى: أن السَّيِّدَ والعاقبَ وأصحابَهما من أهل نجرانَ كانوا عند النبي ﷺ، فجرى ذكرُ أصحابِ الكهفِ، فقال السيدُ وكان يَعقوبياً: كانوا ثلاثةً رابعُهم كلبُهم، وقال العاقب: وكان نِسطورياً: كانوا خمسةً سادسُهم كلبهم، وقال المسلمون: كانوا سبعةً وثامنُهم كلبُهم، فحققَ اللهُ قولَ المسلمين، وإنما عَرَفُوا ذلك بإخبارِ رسولِ اللهِ ﷺ، وبما ذكرنا من قبلُ، وعن علي رضي الله عنه: هم سبعةُ نفرٍ، أسماؤُهم: يمليخا ومكشلينا ومشلينيا، هؤلاءِ أصحابُ يمينِ الملكِ، وكان عن يساره مرنوشُ ودبرنوشُ وشاذنوشُ، وكان يستشيرُ هؤلاءِ الستةَ في أمره، والسابعُ الراعي الذي وافقَهم حين هربُوا من ملكهم دِقيانوسَ، واسم مدينتِهم أفسوسُ، واسمُ كلبِهم قطميرُ، وسينُ الاستقبالِ وإن دخل في الأول دون الآخرين فهُما داخلان في حكم السين، كقولك: قد أكرم وأنعمَ؛ تريدُ معنى التوقُّعِ في الفعلين جميعاً، أو: أُريدَ بـ(يفعلُ) معنى الاستقبال الذي هو صالحٌ له، (ثلاثة): خبرُ متبدأٍ محذوفٍ؛ أي: هم ثلاثةٌ، وكذلك خمسةٌ وسبعةٌ،

---

(١) المِسْحُ: نوع من الثياب.

(٢) الساج: شجرٌ له خشب حسنٌ.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾ ....

و(رابعُهم كلبهم): جملةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ واقعةٌ صفةً لـ(ثلاثة)، وكذلك (سادسُهم كلبهم)، و(ثامنهم كلبهم)، ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾: رمياً بالخبرِ الخفيِّ، وإتياناً به، كقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [سبأ: ٥٣] أي: يأتون به، أو: وُضِعَ الرَّجْمُ موضعَ الظنِّ، فكأنه قيل: ظنّاً بالغيب؛ لأنهم أكثروا أن يقولوا: رَجَمَ بالظنِّ، مكانَ قولِهم: ظنَّ، حتى لم يبقَ عندهم فرقٌ بين العبارتين، والواوُ الداخلةُ على الجملةِ الثالثةِ هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعةِ صفةً للنكرة، كما تدخلُ على الواقعة حالاً عن المعرفة في قولك: جاءني رجل ومعه آخرُ، ومررت بزيد وفي يده سيفٌ، وفائدتُها توكيدُ لُصوقِ الصفةِ بالموصوفِ، والدلالةُ على أن اتصافَه بها أمرٌ ثابتٌ مستقرٌ[(١)]، وهذه الواوُ التي آذنت بأن الذين قالوا: (سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم) قالُوه عن ثباتِ علم، ولم يَرجُموا بالظنِّ كما رَجَمَ غيرُهم؛ دليلُه: أن الله تعالى أتبعَ القولين الأولين قولَه: (رجماً بالغيب)، وأتبع القولَ الثالثَ قولَه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي: قل ربي أعلم بعدتهم وقد أخبركم بها بقوله: (سبعةٌ وثامنُهم كلبهم)، ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: (أنا من ذلك القليل)، وقيل: إلاّ قليلٌ من أهل الكتاب، والضمير في (سيقولون) على هذا لأهل الكتاب خاصةً؛ أي: سيقول أهلُ الكتابِ فيهم كذا وكذا، ولا علمَ بذلك إلا في قليلٍ منهم، وأكثرُهم على ظنٍّ وتخمينٍ، ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾: فلا تجادلْ أهلَ الكتابِ في شأنِ أصحابِ الكهفِ، ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾: إلا جدالاً ظاهراً غيرَ متعمِّقٍ فيه، وهو أن تَقُصَّ عليهم ما أَوحَى اللهُ إليك فحسبُ، ولا تزيدَ من غيرِ تجهيلٍ لهم، أو بمشهدٍ من الناس ليظهرَ صدقُك، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢﴾: ولا تسألْ أحداً منهم عن قصتِهم سؤالَ مُتَعنتٍ له حتى يقولَ شيئاً فتردَّه عليه وتُزَيِّفَ ما عنده، ولا سؤالَ مسترشدٍ؛ لأن الله تعالى قد أرشدَك بأنْ أوحى إليك قصتَهم.

《٢٣》 ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾: لأجلِ شيءٍ تَعْزِمُ عليه: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيء ﴿غَدًا﴾ أي: فيما يُستقبلُ من الزمان، ولم يُرِدِ الغدَ خاصةً.

《٢٤》 ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن تقولَه؛ بأن يأذنَ لك فيه[(٢)]، أو: ولا تقولنَّه إلا بأن يشاء اللهُ؛

---

(١) منع ابن هشام دخول الواو على جملة الصفة، وقرر أنها واو الحال، والجملة حالية، وأن الحال متى امتنع كونُها صفة جازَ مجيئُها من النكرة. انظر «مغني اللبيب» (ص ٤٧٧).

(٢) أي: لا تقولن: (إني فاعل...) إلا أن يشاء الله أن تقوله، ومشيئةُ الله تُعلمُ من إذنه بذلك، فصار المعنى: إلا أن يأذن الله لك بأن تقوله فأنت غيرُ منهي عنه. انظر «التحرير والتنوير» (١٥/ ٢٩٥).

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ ....

أي: إلا بمشيئتِه، وهو في موضعِ الحالِ؛ أي: إلا ملتبساً بمشيئةِ اللهِ قائلاً: إن شاء الله، وقال الزجاج: معناه: ولا تقولنَّ: إني أفعل ذلك إلا بمشيئةِ الله تعالى؛ لأن قولَ القائلِ: أنا أفعل ذلك إن شاء الله؛ معناه: لا أفعلُه إلا بمشيئةِ اللهِ[1]، وهذا نهيٌ تأديبٍ من الله لنبيِّه حين قالت اليهود لقريشٍ: سلوه عن الروح، وعن أصحابِ الكهفِ، وذي القرنين، فسألوه فقال: ائتوني غداً أُخبرْكم، ولم يستثنِ، فأبطأ عليه الوحي حتى شقَّ عليه، ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾ أي: مشيئةَ ربِّك وقلْ: إن شاء الله، ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾: إذا فَرَطَ منك نسيانٌ لذلك؛ والمعنى: إذا نسيت كلمةَ الاستثناءِ ثم تنبهتَ عليها.. فتداركْها بالذكرِ، عن الحسن: ما دام في مجلسِ الذكرِ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ولو بعد سنةٍ[2]، وهذا محمولٌ على تداركِ التبركِ بالاستثناء، فأما الاستثناء المغيِّرُ حكماً.. فلا يصحُّ إلا متصلاً، وحكيَ أنه بلغ المنصورَ أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابنَ عباسٍ رضي الله عنهما في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لِيُنْكِرَ عليه، فقال له أبو حنيفة: هذا يَرجعُ عليك، إنك تأخذ البَيعةَ بالأيمان، أفترضَى أن يخرجُوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك؟ فاستحسن كلامَه وأمرَ الطاعنَ فيه بإخراجه من عنده، أو معناه: واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمةَ الاستثناءِ؛ تشديداً في البعث على الاهتمام بها، أو صلِّ صلاةً نسيتَها إذا ذَكَرْتَها، أو: إذا نسيت شيئاً.. فاذكره لِيُذَكِّرَكَ المَنْسِيَّ، ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ يعني: إذا نسيتَ شيئاً.. فاذكر ربَّكَ، وذِكرُ ربِّكَ عند نسيانِه أن تقول: عسى ربي أن يهدِيَني لشيءٍ آخرَ بدلَ هذا المنسيِّ أقربَ منه رشداً، وأدنى خيراً ومنفعةً، ﴿أن يهدين﴾، ﴿إن ترن﴾، ﴿أن يؤتين﴾، ﴿أن تعلمن﴾: مكيٌّ في الحالين، ووافقه أبو عمرٍو ومدنيٌّ في الوصلِ[3].

《٢٥》 ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ يريدُ لُبثَهم فيه أحياءً مضروباً على آذانهم هذه المدةَ، وهو بيانٌ لِما أُجملَ في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١] و(سنين): عطفُ بيانٍ لـ(ثلاث مئة)، ﴿ثلاثَ مئةِ سنين﴾ بالإضافة: حمزةُ وعليٌّ[4]؛ على وضع

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٢٧٨).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٠٣).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٩١، ١٩٢، ١٩٤).

(٤) انظر المرجع السابق (ص ١٩١).

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ......

الجمعِ موضعَ الواحدِ في التمييز، كقوله: ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا﴾ [الكهف: ١٠٣]، ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: تسعَ سنين؛ لدلالةِ ما قبلَه عليه، و(تسعاً): مفعولٌ به؛ لأن (زاد) تقتضي مفعولين، فـ(ازداد) يقتضي مفعولاً واحداً.

《٢٦》 ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ أي: هو أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم، والحقُّ ما أخبرك به، أو: هو حكاية لكلام أهل الكتاب، و(قل الله أعلم): ردٌّ عليهم، والجمهور على أن هذا إخبارٌ من الله سبحانه وتعالى أنهم لبثوا في كهفهم كذا مدةً، ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذكرَ اختصاصَه بعلمِ ما غاب في السموات والأرض وخفي فيها من أحوال أهلها ومن غيرها، ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: وأسمع به؛ والمعنى: ما أبصرَه بكلِّ موجودٍ، وما أسمعَه لكلِّ مسموعٍ، ﴿مَا لَهُم﴾: لأهلِ السمواتِ والأرضِ، ﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾: من مُتَوَلٍّ لأمورهم، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ﴾: في قضائِه ﴿أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ منهم، ﴿ولا تشرك﴾ على النهي: شاميٌّ[1].

《٢٧》 كانوا يقولون له: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] فقيل له:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي: من القرآنِ ولا تَسمعْ لما يَهذُون به من طلب التبديل؛ فإنه ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ أي: لا يقدرُ أحدٌ على تبديلها وتغييرِها، إنما يقدِرُ على ذلك هو وحدَه، ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾: مَلْجأً تعدِلُ إليه إن هممت بذلك.

《٢٨》 ولما قال قومٌ من رؤساءِ الكفرةِ لرسولِ اللهِ ﷺ: نَحِّ هؤلاءِ الموالي وهم صهيبٌ وعمارٌ وخبابٌ وسلمانُ وغيرُهم من فقراء المسلمين حتى نجالسَك.. نزل:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾: واحبسْها معهم وثبتْها ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ دائِبِيْنَ على الدعاء في كل وقت، أو: بالغداةِ لطلبِ التوفيقِ والتيسيرِ، والعشيِّ لطلبِ عفوِ التقصيرِ، أو: هما صلاةُ الفجرِ والعصرِ، ﴿بالغُدْوَة﴾: شاميٌّ، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: رِضا اللهِ، ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾: ولا تُجاوزْ، عَداه: إذا جاوزَه، وعُدِّيَ بـ(عن)؛ لتضمنِ (عدا) معنى: نَبا، في قولك: نَبتْ عنه

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٩١) وكذا القراءة الآتية.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾ ....

غلبه عطشُ يوم القيامةِ، فيحسَبه ماءً، فيأتيه فلا يجدُ ما رجاه، ويجدُ زبانيةَ اللهِ عنده يأخذونَه فيعتِلونه إلى جهنمَ، فيسقونه الحميمَ والغَسّاق، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٣]، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، قيل: نزلت في عتبةَ بنِ ربيعةَ بنِ أميةَ، كان يترهبُ ملتمساً للدِّين في الجاهلية، فلما جاء الإسلام.. كفر.

«٤٠» ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ﴾ (أو) هنا: كـ(أو) في ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ١٩] ﴿لُّجِّيٍّ﴾: عميق كثيرِ الماءِ منسوب إلى اللُّجِّ، وهو معظم ماء البحر، ﴿يَغْشَىٰهُ﴾: يغشَى البحرَ، أو مَن فيه؛ أي: يعلُوه ويُغطِّيه ﴿مَوْجٌ﴾: هو ما ارتفع من الماء، ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي: مِن فوق الموجِ موج آخرُ، ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾: مِن فوق الموج الأعلى سحاب، ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ أي: هذه ظلماتٌ، ظلمةُ السحابِ وظلمةُ الأمواج وظلمةُ البحرِ، ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: ظلمةَ الموج على ظلمة البحر، وظلمةُ الموج على الموج، وظلمه السحاب على الموج، ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ أي: الواقعَ فيه ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾: مبالغةٌ في: لم يرها؛ أي: لم يقربْ أن يراها فضلاً عن أن يراها، شبَّهَ أعمالَهم أولاً في فوات نفعِها، وحضورِ ضررِها بسرابٍ لم يجده مَن خدعه من بعيد شيئاً، ولم يكفه خيبةً وكَمَداً أن لم يجده شيئاً كغيره من السراب، حتى وجد عنده الزبانيةَ تَعْتِلُه إلى النار[١]، وشَبَّهَها ثانياً في ظلمتِها وسوادِها لكونها باطله، وفي خلُوها عن نور الحقِّ بظلماتٍ متراكمةٍ، مِن لُجِّ البحر والأمواج والسحاب، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾: مَن لم يهدِه الله.. لم يهتد، عن الزجاج[٢]، في لحديث: «خلق الله الخلق في ظلمة، ثم رشَّ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور.. اهتدى، ومن أخطأه.. ضلَّ»[٣].

---

(١) تَعتِلُه: تجذبه جذباً عنيفاً.

(٢) انظر «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/٤٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٤٢) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ومعنى الحديث: أن الله خلق الإنس والجن في ظلمة الطبيعة والنفس الأمارة المجبولة بالشهوات المردية والأهواء المضلة، فألقى عليهم من نوره؛ أي: أقام الشواهد والبراهين وأنزل من الآيات والنذر، فمن شاء الله هدايته.. أصابه من ذلك النور فخلص من تلك الظلمة واهتدى إلى إصابة طرق السعداء، ومن أخطأه ذلك النور لعدم مشاهدة تلك الايات.. ضلَّ؛ أي: بقي في ظلمة الطبيعة متحيراً كالأنعام. انظر «التيسير بشرح الجامع الصغير» (١/٢٥١).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾ ....

《٤١》 ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تعلم يا محمدُ علماً يقوم مقامَ العيان في الإيقان ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ﴾: عطفٌ على (مَن)، ﴿صَافَّاتٍ﴾: حالٌ من الطير؛ أي: يصففن أجنحتَهن في الهواء، ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ الضميرُ في (علم) لـ(كلٌّ)، أو (الله)، وكذا في (صلاته وتسبيحه)، والصلاةُ: الدعاءُ، ولم يَبعُدْ أن يُلهِمَ اللهُ الطيرَ دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائرَ العلومِ الدقيقةِ التي لا يكادُ العقلاء يهتدون إليها، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾: لا يعزُبُ عن علمه شيءٌ.

《٤٢》 ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنه خالقُهما، ومن ملك شيئاً.. فبتمليكه إياه، ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾: مرجعُ الكلِّ.

《٤٣》 ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي﴾: يسوقُ إلى حيث يريدُه ﴿سَحَابًا﴾: جمعُ سحابةٍ؛ دليلُه: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾[1]، وتذكيرُه للفظِ؛ أي: يضمُّ بعضَه إلى بعضٍ، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾: مُتراكماً بعضُه فوقَ بعضٍ، ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾: المطرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾: من فتوقِه ومخارجِه: جمعُ خَلَلٍ، كجبال في جبل، ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ ﴿وينزل﴾: مكيٌّ وبصريٌّ[2]، ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾: لابتداء الغاية؛ لأن ابتداءَ الإنزال من السماء، ﴿مِن جِبَالٍ﴾ (من): للتبعيض؛ لأن ما يُنزلُه اللهُ بعضُ تلك الجبال التي ﴿فِيهَا﴾: في السماء ﴿مِن بَرَدٍ﴾: للبيان، أو: الأُوليان للابتداء، والآخِرةُ للتبعيض؛ ومعناه: أنه يُنزلُ البردَ من السماء من جبالٍ فيها، وعلى الأول: مفعولُ (ينزل): (من جبال) أي: بعضَ جبالٍ فيها؛ ومعنى (من جبال فيها من برد): أن يخلق اللهُ في السماء جبالَ بَرَدٍ، كما خلق في الأرض جبالَ حجرٍ، أو: يريدُ الكثرةَ بذكرِ الجبالِ، كما يقال: فلانٌ يملك جبالاً من ذهب، ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾: بالبَرَدِ ﴿مَن يَشَاءُ﴾ أي: يصيبُ الإنسانَ وزرعَه، ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ فلا يصيبُه،

---

(١) أي: إضافةُ (بين) إلى ضمير السحاب تدل على أن السحاب جمع؛ أي: اسم جنس جمعي؛ لأنها لا تضاف إلا إلى متعدد، ومن ذهب إلى أن السحابَ مفرد.. يقول: المرادُ يؤلفُ بين أجزائِه وقِطَعِه، وبهذا التأويل يحصل التعدد. انظر «تفسير الآلوسي» (٩/ ٣٨١).

(٢) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤١٢).

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾﴾ ....

أو يعذبُ به مَن يشاءُ، ويصرفُه عمن يشاء فلا يعذبُه، ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾: ضوؤه، ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾: يَخطِفُها، ﴿يذهب﴾: يزيدُ؛ على زيادة الباء[1].

《٤٤》 ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾: يُصَرِّفُها في الاختلافِ طُولاً وقِصراً، أو: التعاقب، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: في إزجاء السحاب، وإنزالِ الوَدْقِ والبَرَدِ وتقليبِ الليل والنهار، ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾: لِذوي العقولِ، وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته، حيث ذكر تسبيحَ مَن في السموات والأرض، وما يطيرُ بينهما، ودعاءَهم له، وتسخيرَ السحابِ، إلى آخرِ ما ذكر، فهي براهين لائحةٌ على وجوده، ودلائلُ واضحة على صفاته لمن نظر وتدبر.

《٤٥》 ثم بَيَّنَ دليلاً آخر فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ﴾ ﴿خالقُ كلِّ﴾: حمزةُ وعليٌّ، ﴿دَآبَّةٍ﴾: كلَّ حيوانٍ يَدِبُّ على وجه الأرض، ﴿مِّن مَّآءٍ﴾: من نوعٍ من الماء مختصٍّ بتلك الدابةِ، أو: من ماءٍ مخصوصٍ وهو النطفةُ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة، فمنها هوامُّ، ومنها بهائمُ، ومنها أناسيُّ، وهو كقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِۚ﴾ [الرعد: ٤]، وهذا دليل على أن لها خالقاً ومدبراً، وإلا.. لم تختلف؛ لاتفاق الأصل، وإنما عَرَّفَ الماء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] لأن المقصود ثَمَّ أن أجناس الحيوان مخلوقةٌ مِن جنسِ الماءِ، وأنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائطُ، قالوا: إن أول ما خلقَ اللهُ الماءَ، فخلق منه النارَ والريحَ والطينَ، فخلق من النار الجنَّ، ومن الريح الملائكةَ، ومن الطين آدمَ، ودوابَّ الأرضِ، ولما كانت الدابةُ تشمَلُ المميزَ وغيرَ المميزِ.. غُلِّبَ المميزُ، فأُعطيَ ما وراءَه حُكمَه، كأن الدوابَّ كلَّهم مميزون، فمن ثَمَّ قيل: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحية والحُوتِ؛ وسمِّيَ الزحفُ على البطن مشياً استعارةً، كما يقال في الأمر المستمرِّ: قد مشى هذا الأمرُ، أو: على طرائقِ المشاكلةِ؛ لذكر الزاحف مع الماشين، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ﴾ كالبهائم، وقُدِّمَ ما هو أَعْرَقُ في القدرةِ وهو الماشي بغير آلةِ مَشْيٍ مِن أرجلٍ أو غيرِها، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربعٍ، ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾ كيف يشاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾: لا يتعذرُ عليه شيءٌ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٤) وكذا القراءة الآتية.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ....

《٤٦》 ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بلطفه ومشيئته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾: إلى دين الإسلام الذي يُوصلُ إلى جنته، فالآياتُ لإلزام حجته.

《٤٧》 لما ذكر إنزال الآيات.. ذكر بعدها افتراقَ الناسِ إلى ثلاثِ فرقٍ، فِرقةٌ صدَّقت ظاهراً وكذبت باطناً وهم المنافقون، وفرقةٌ صدقت ظاهراً وباطناً وهم المخلصون، وفرقةٌ كذبت ظاهراً وباطناً وهم الكافرون، على هذا الترتيب، وبدأ بالمنافقين فقال:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ بألسنتهم، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الله والرسولَ، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾: يُعرض عن الانقياد لحكم الله ورسولِه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعدِ قولهم: (آمنا بالله وبالرسول وأطعنا)، ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: المخلصين، وهو إشارةٌ إلى القائلين: آمنّا وأطعنا، لا إلى الفريقِ المتولِّي وحدَه، وفيه إعلامٌ من الله بأن جميعَهم منتفٍ عنهم الإيمانُ؛ لاعتقادهم ما يعتقدُ هؤلاء، والإعراضُ وإن كان من بعضهم.. فالرضا بالإعراض من كلهم.

《٤٨》 ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إلى رسول الله، كقولك: أعجبني زيدٌ وكرمُه؛ تريد: كرمَ زيدٍ[1]، ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الرسولُ ﴿بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: فاجأَ مِن فريقٍ منهم الإعراضُ، نزلت في بشرٍ المنافقِ وخصمِه اليهوديِّ حين اختصما في أرضٍ، فجعل اليهوديُّ يجرُّه إلى رسول الله ﷺ، والمنافقُ إلى كعبِ بنِ الأشرفِ، ويقول: إن محمداً يَحيفُ علينا.

《٤٩》 ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: إذا كان الحقُّ لهم على غيرهم ﴿يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾: إلى الرسول ﴿مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾: حال؛ أي: مسرعين في الطاعة طلباً لحقِّهم، لا رضاً بحكم رسولِهم، قال الزجاجُ: الإذعانُ: الإسراعُ مع الطاعة؛ والمعنى: أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحقُّ المرُّ، والعدلُ البحتُ.. يمتنعون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحقُّ؛ لئلا تَنتزعَه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومِهم، وإن ثبت لهم حقٌّ على خصمٍ.. أسرعوا إليك، ولم يَرضَوا إلا بحكومتِك لتأخذَ لهم ما وجب لهم في ذمة الخصم.

---

(١) وذكر الله تعالى لتفخيمه عليه الصلاة والسلام، والإيذانِ بجلالة محله عنده تعالى، وأن حكمه في الحقيقة حكمُ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه إذا ذكر اسمان متعاطفان، والحكمُ إنما هو لأحدِهما.. أفاد قوة اختصاص المعطوف بالمعطوف عليه. انظر «تفسير الآلوسي» (٩/ ٣٨٦).

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ ....

«٥٠» ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ قسمَ الأمرَ في صدودِهم عن حكومته إذا كان الحقُّ عليهم بأن يكونوا مرضَى القلوب منافقين، أو مُرْتابين في أمر نُبوته، أو خائفين الحيفَ في قضائه، ثم أبطل خوفَهم حيفه بقوله: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾ أي: لا يخافون أن يحيفَ عليهم؛ لمعرفتهم بحاله، وإنما هم ظالمون، يريدون أن يظلموا من له الحقُّ عليهم، وذلك شيءٌ لا يستطيعونه في مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام، فمن ثَمَّ يأبَون المحاكمةَ إليه.

«٥١» ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وعن الحسن: ﴿قولُ﴾: بالرفع[1]، والنصبُ أقوى؛ لأن أولى الاسمين بكونه اسماً لـ(كان) أَوْغَلُهما في التعريف، و(أن يقولوا): أَوْغَلُ، بخلاف (قول المؤمنين)[2]، ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ﴾ النبيُّ عليه الصلاة والسلام ﴿لِيُحْكَمَ﴾: يزيدُ[3]؛ أي: لِيُفْعَلَ الحكمُ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ بحكم الله الذي أُنزلَ عليه، ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا﴾ قولَه ﴿وَأَطَعۡنَاۚ﴾ أمرَه، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥١﴾: الفائزون.

«٥٢» ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في فرائضه، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في سُنَنِه[4]، ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه[5]، ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ فيما يستقبلُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافيةٍ فتُليت عليه هذه الآيةُ، وهي جامعةٌ لأسباب الفوز، ﴿وَيَتَّقْهْ﴾: بسكون الهاء: أبو عمرٍو وأبو بكرٍ؛ بنية الوقف، وبسكون القاف وبكسر الهاء مُختلسةً: حفصٌ، وبكسر القاف والهاء: غيرُهم[6].

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٤/ ١٩١)، وهي شاذة.

(٢) إنما كان المصدر المؤول أعرف لأنه يشبه الضمير من حيث إنه لا يوصف ولا يوصف به، ومذهب سيبويه أن المتكلم مخيرٌ في أن يجعل ما شاء منهما اسماً والأخرى خبراً. انظر «الكتاب» لسيبويه (١/ ٤٩)، و«الدر المصون» (٢/ ٢٤٥).

(٣) في الموضعين. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٤).

(٤) في «تفسير أبي السعود» (٦/ ١٨٨): أي: ومن يطعهما كائناً من كان فيما أَمرا به من الأحكام الشرعية.

(٥) وتكون الخشية أيضاً في المستقبل فتمنعه من الذنوب.

(٦) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٤).

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ ....

«٥٣» ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: حلف المنافقون بالله، وهو جهدُ اليمين؛ لأنهم بذلوا فيها مجهودَهم، وجهدُ يمينِه مستعارٌ مِن: جَهَدَ نفسَه: إذا بلغ أقصى وُسْعِها، وذلك إذا بالغ في اليمين، وبلغ غايةَ شدتِها ووَكادَتِها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من قال: بالله.. فقد جَهَدَ يمينَه. وأصلُ أقسمَ جهدَ اليمين: أقسم يَجْهَدُ اليمينَ جهداً، فحُذِفَ الفعلُ، وقُدِّمَ المصدرُ فوضع موضعَه مضافاً إلى المفعول، كقوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٣]، وحكمُ هذا المنصوبِ حكمُ الحالِ، كأنه قال: جاهدين أيمانَهم[1]، ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي: لئن أَمَرْتَنا محمدٌ بالخروج إلى الغزو.. لَغَزَوْنا، أو بالخروج من ديارنا.. لخرجْنا، ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾: لا تحلفوا كاذبين؛ لأنه معصية، ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أمثلُ وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة، مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ، أو: خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ؛ أي: الذي يُطلبُ منكم طاعةٌ معروفةٌ معلومةٌ لا يُشكُّ فيها ولا يُرتابُ، كطاعة الخُلَّصِ من المؤمنين، لا أيمانٌ تُقسمون بها بأفواهكم، وقلوبُكم على خلافها، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾: يعلمُ ما في ضمائركم، ولا يَخفى عليه شيءٌ من سرائركم، وإنه فاضحُكم لا محالةَ، ومُجازيكم على نفاقِكم.

«٥٤» ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾: صرفَ الكلامَ عن الغَيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات، وهو أبلغُ في تبكيتِهم، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ يريدُ: فإن تتولَّوا.. فما ضررتُموه، وإنما ضَرَرْتُم أنفسَكم؛ فإن الرسول ليس عليه إلا ما حَمَّلَه الله تعالى وكلَّفَه من أداء الرسالة، فإذا أدَّى.. فقد خرج عن عُهْدَةِ تكليفِه، وأما أنتم.. فعليكم ما كُلِّفْتُم من التلقي بالقبول والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم.. فقد عرَّضْتُم نفوسَكم لسخطِ الله وعذابِه، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أي: وإن أطعتموه فيما يأمركم وينهاكم.. فقد أحرزتُم نصيبَكم من الهدى، فالضررُ والنفعُ عائدان إليكم، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾: وما على الرسول إلا أن يبلغ ما لَه نفعٌ في قلوبكم، ولا عليه ضررٌ في تولِّيكم، والبلاغُ بمعنى التبليغ، كالأداء بمعنى التأدية، و(المبين): الظاهرُ؛ لكونه مقروناً بالآيات والمعجزات، ثم ذكر المخلصين فقال:

---

(١) الأولى أن يقال: (جهدَ أيمانهم) فيها وجهان: مفعولٌ مطلقٌ، أو حالٌ. انظر «الدر المصون» (٨/ ٤٣٢).

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ....

《٥٥》 ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الخطابُ للنبي عليه الصلاة والسلام ولمن معه، و(منكم): للبيان، وقيل: المرادُ به المهاجرون، و(من): للتبعيض، ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ الكفارِ، وقيل: أرضِ المدينةِ، والصحيحُ أنه عامٌّ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «ليدخلنَّ هذا الدينُ على ما دخل عليه الليلُ»[١]، ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ ﴿استُخْلِفَ﴾: أبو بكرٍ[٢]، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ ﴿وليُبْدِلَنَّهم﴾: بالتخفيف: مكيٌّ وأبو بكر، ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وعدهم اللهُ أن ينصرَ الاسلامَ على الكفر ويُورثَهم الأرضَ ويجعلَهم فيها خُلفاء، كما فعل ببني إسرائيلَ حين أورثَهم مصرَ والشامَ بعد إهلاك الجبابرة، وأن يُمَكِّنَ الدينَ المرتضَى وهو دين الإسلام، وتمكينُه: تثبيتُه وتَوطيده، وأن يُؤَمِّنَ سَرْبَهم[٣]، ويُزِيْلَ عنهم الخوف الذي كانوا عليه، وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابَه مكثوا بمكةَ عشرَ سنين خائفين، ولما هاجروا.. كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح، ويُمسون فيه، حتى قال رجلٌ: ما يأتي علينا يوم نأمنُ فيه ونضعُ السلاحَ؟ فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تَغْبُرُون إلا يسيراً حتى يجلسَ الرجلُ منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس معه حديدةٌ»[٤]، فأنجزَ اللهُ وعدَه وأظهرَهم على جزيرة العرب، وافتتحوا أبعدَ بلادِ المشرقِ والمغربِ، ومزَّقُوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنَهم، واستولَوا على الدنيا، والقَسمُ المتلقَّى باللام والنون في (ليستخلفنهم) محذوفٌ، تقديرُه: وَعدَهم الله وأقسمَ ليستخلفنهم، أو: نُزِّلَ وعدُ اللهِ في تحقُّقِه منزلةَ القسمِ فَتُلُقِّيَ بما يُتَلقَّى به القسمُ، كأنه قيل: أقسمَ اللهُ ليستخلفنهم، ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ إن جعلته استئنافاً.. فلا محلَّ له، كأنه قيل: ما لهم يُستخلَفون ويُؤَمَّنُون؟ فقال: يعبدونني، وإن جعلته حالاً عن (وعدهم) أي: وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم.. فمحلُّه النصبُ، ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾: حال من فاعل (يعبدونني) أي: يعبدونني موحِّدين، ويجوز أن يكون حالاً بدلاً من الحال

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/٥٨) بنحوه عن سيدنا تميم الداري رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٥) وكذا القراءة الآتية.

(٣) السَّرْبُ: الطريق.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/٢٠٩) عن أبي العالية.

وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ....

الأُولى، ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد الوعد؛ والمرادُ: كُفرانُ النعمة، كقوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]، ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾: هم الكاملون في فسقهم؛ حيث كفروا تلك النعمةَ الجسيمةَ، وجَسَرُوا على غمطِها[1]، قيل: أولُ من كفر هذه النعمة قتلةُ عثمانَ رضي الله عنه، فاقتتلوا بعد ما كانوا إخواناً وزال عنهم الخوفُ، والآيةُ أوضحُ دليلٍ على صحة خلافة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين؛ لأن المستخلَفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هُمْ هُمْ.

《٥٦》 ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾: معطوفٌ على ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾، ولا يضرُّ الفصلُ وإن طال، ﴿وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾ فيما يدعوكم إليه، وكُرِّرَت طاعةُ الرسول تأكيداً لوجوبها؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: لكي تُرحمُوا؛ فإنها من مُسْتَجْلِباتِ الرحمةِ، ثم ذكر الكافرين فقال:

《٥٧》 ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فائتين اللهَ بأن لا يَقدِرَ عليهم فيها، فالتاءُ خطابٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو الفاعل، والمفعولان: (الذين كفروا) و(معجزين)، بالياء: شاميٌّ وحمزةُ[2]، والفاعل: النبيُّ ﷺ لتقدم ذكرِه، والمفعولان: (الذين كفروا) و(معجزين)، ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾: معطوفٌ على (لا تحسبن الذين كفروا معجزين) كأنه قيل: الذين كفروا لا يفوتون اللهَ ومأواهم النار، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ أي: المرجعُ النارُ.

《٥٨》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: أمرٌ بأن يستأذنَ العبيدُ والإماءُ، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾: والأطفالُ الذين لم يحتلموا من الأحرار، وقرئ: بسكون اللام تخفيفاً[3]، ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ في اليوم والليلة، وهي: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجعِ، وطرحِ ما يُنامُ فيه من الثياب، ولبسِ ثيابِ اليقظةِ، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾

---

(١) جَسَرَ على الأمر: أقدم عليه، وغَمَطَ النعمةَ: احتقرَها وتركَ شكرَها.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٥).

(٣) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤١٣)، وهي شاذة.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

وهي: نصف النهار في القيظ؛ لأنها وقت وضع الثياب للقيلولة، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ لأنه وقتُ التجردِ من ثياب اليقظةِ، والالتحافِ بثيابِ النومِ، ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ أي: هي أوقاتُ ثلاثِ عوراتٍ، فحذف المبتدأُ والمضافُ، وبالنصب: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ[1]؛ بدلاً من (ثلاثَ مراتٍ) أي: أوقاتَ ثلاثِ عوراتٍ؛ وسُمي كلُّ واحد من هذه الأحوال عورةً؛ لأن الإنسان يختلُّ تستُّره فيها، والعورةُ الخللُ، ومنها الأعورُ: المختلُّ العين، دخل غلام من الأنصار يقال له: مدلجُ بنُ عمرٍو على عمرَ رضي الله عنه وقتَ الظهيرة وهو نائمٌ وقد انكشف عنه ثوبُه، فقال عمر رضي الله عنه: وَددتُ أن الله نهى عن الدخول في هذه الساعات إلا بالإذن، فانطلق إلى النبي ﷺ وقد نزلت عليه الآيةُ، ثم عَذَرَهم في ترك الاستئذان وراءَ هذه المراتِ بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: لا إثمَ عليكم ولا على المذكورين في الدخول بغير استئذان بعدهن، ثم بيَّنَ العلةَ في ترك الاستئذان في هذه الأوقات بقوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ أي: هم طوافون بحوائجِ البيتِ، ﴿بَعْضُكُمْ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، وتقديرُه: بعضُكم طائفٌ على بعض، فحذف طائفٌ لدلالة (طوافون) عليه، ويجوز[2] أن تكون الجملة بدلاً من التي قبلها، وأن تكون مبينةً مؤكدةً؛ يعني: أن بكم وبهم حاجةً إلى المخالطة والمداخلة، يطوفون عليكم للخدمة، وتطوفون عليهم للاستخدام، فلو جُزِمَ الأمرُ بالاستئذان في كل وقت.. لأفضى إلى الحرج، وهو مدفوع في الشرع بالنصِّ، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: كما بيَّنَ حكمَ الاستئذانِ.. يُبين لكم غيرَه من الآيات التي احتجتُم إلى بيانها، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالحِ عبادِه، ﴿حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ في بيان مرادِه.

《٥٩》 ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ﴾ أي: الأحرارُ دونَ المماليك، ﴿ٱلْحُلُمَ﴾: الاحتلامَ؛ أي: إذا بلغوا وأرادوا الدخولَ عليكم ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ في جميع الأوقات، ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: الذين بلغوا الحلم من قبلهم، وهم الرجال، أو: الذين ذُكروا من قبلهم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟﴾ الآيةَ؛ والمعنى: أن الأطفال مأذونٌ لهم في الدخول بغير إذنٍ إلا في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفالُ ذلك ثم

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٥).

(٢) في الأصل: (فيجوز)، والمثبتُ من المطبوع (٣/ ٣٦٢) وهو أولى.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ ....

بلغُوا بالاحتلام أو بالسنِّ.. وجب أن يُفطَموا عن تلك العادة، ويُحْمَلُوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات، كالرجال الكبار الذين لم يعتادُوا الدخولَ عليكم إلا بإذن، والناس عن هذا غافلون، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ثلاثُ آياتٍ جحدهن الناسُ: الإذنُ كلُّه، وقولُه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ [النساء: ٨][١]، وعن سعيدِ بنِ جُبيرٍ: يقولون: هي منسوخةٌ، والله ما هي بمنسوخةٍ. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فيما يُبين من الأحكام، ﴿حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ بمصالحِ الأنام.

《٦٠》 ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾: جمعُ قاعدٍ؛ لأنها من الصفات المختصة بالنساء، كالطالق والحائض؛ أي: اللاتي قعدْنَ عن الحيض والولد لِكِبَرِهن، ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: حالٌ، ﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾: لا يَطعمنَ فيه، وهي في محل الرفع صفةٌ للمبتدأ، وهي القواعدُ، والخبرُ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾: إثمٌ، ودخلت الفاء لما في المبتدأ من معنى الشرط؛ بسبب الألف واللام، ﴿أَن يَضَعْنَ﴾: في أن يضعن ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: الظاهرةَ، كالملحفة والجِلبابِ الذي فوق الخمار، ﴿غَيْرَ﴾: حالٌ، ﴿مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: غيرَ مظهراتِ زينةٍ؛ يريدُ الزينةَ الخفيَّةَ كالشعر والنحرِ والساقِ ونحوِ ذلك؛ أي: لا يَقصِدن بوضعها التبرجَ، ولكن التخفيفَ، وحقيقةُ التبرج: تكلُّفُ إظهارِ ما يجب إخفاؤه، ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ أي: يطلبْنَ العفةَ عن وضع الثياب فيستترن، وهو مبتدأٌ، خبرُه: ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يُعْلِنَّ، ﴿عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ بما يَقصِدْنَ.

《٦١》 ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ قال سعيدُ بنُ المسيَّبِ: كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزوة مع النبي ﷺ.. وضعُوا مفاتيحَ بيوتِهم عند الأعمى والمريض والأعرج، وعند أقاربِهم، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم، وكانوا يتحرجون

---

(١) روى نحوه الطبريُّ في «تفسيره» (١٩/١٤٨).

....

من ذلك ويقولون: نخشى ألا تكونَ أنفسُهم بذلك طيبةً، فنزلت الآية[١]؛ رخصةً لهم، ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: حرجٌ ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوتِ أولادِكم؛ لأن ولد الرجل بعضُه، وحكمُه حكمُ نفسِه، ولذا لم يُذكر الأولادُ في الآية، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أنت ومالك لأبيك»[٢]، أو: بيوت أزواجِكم؛ لأن الزوجين صارا كنفس واحدة، فصار بيتُ المرأة كبيت الزوج، ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ لأن الإذن من هؤلاء ثابتٌ دلالةً، ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾: جمعُ مِفْتَحٍ، وهو ما يفتح به الغَلَقُ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو وكيل الرجلِ وقَيِّمُه في ضيعته وماشيتِه، له أن يأكل من ثمر ضيعتِه، ويشربَ من لبن ماشيتِه؛ أُريدَ بملك المفاتيح: كونُها في يده وحفظه، وقيل: أُريدَ به: بيتُ عبدِه؛ لأن العبدَ وما في يده لمولاه، ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ يعني: أو بيوتِ أصدقائِكم، والصديقُ يكون واحداً وجمعاً، وهو مَن يصدقُكَ في مودتِه وتصدقُه في مودتك، وكان الرجل من السلف يدخلُ دارَ صديقِه وهو غائبٌ فيسألُ جاريتَه كيسَه، فيأخذُ ما شاء، فإذا حضر مولاها فأخبرتْه.. أعتقَها سروراً بذلك، فأما الآنَ.. فقد غلب الشحُّ على الناس، فلا يأكلْ إلا بإذن، ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا﴾: مجتمعين، ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾: متفرقين، جمعُ شَتٍّ، نزلت في بني ليثِ ابنِ عمرٍو، وكانوا يتحرجون أن يأكل الرجلُ وحدَه، فربما قعد منتظراً نهارَه إلى الليل، فإن لم يجدْ من يُؤاكلُه.. أكلَ ضرورةً، أو: في قومٍ من الأنصار إذا نزل بهم ضيفٌ.. لا يأكلون إلا مع ضيفِهم، أو تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكلِ وزيادةِ بعضِهم على بعض، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت لتأكلوا ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: فابدؤوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابةً، أو بيوتاً فارغةً، أو مسجداً.. فقولُوا: السلامُ علينا وعلى عباد الله الصالحين، ﴿تَحِيَّةً﴾: نصبٌ بـ(سلموا)؛ لأنها في معنى تسليماً، نحو: قعدتُ جلوساً، ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ثابتةً بأمره، مشروعةً من لَدُنْه، أو: لأن التسليم والتحية طلبُ سلامةٍ وحياةٍ

---

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٣٤٠).

(٢) روى ابن ماجه (٢٢٩١) عن سيدنا جابر رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي مالاً وولداً، وإن أبي يريد أن يجتاحَ مالي، فقال: «أنت ومالك لأبيك». ومعنى الحديث: أنه إذا احتاج لماله.. أخذه، لا أنه يباح له مالُه مطلقاً. انظر «التيسير بشرح الجامع الصغير» (٢/ ٢١٠).

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ....

للمسلَّمِ عليه والمحيّا من عند الله، ﴿مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ وَصَفَها بالبركة والطيب لأنها دعوةُ مؤمنٍ لمؤمنٍ يُرجَى بها من الله زيادةُ الخير وطيبُ الرزق، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾: لكي تعقلُوا أو تفهمُوا.

《٦٢》 ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: الذي يُجمعُ له الناسُ، نحوُ الجهاد والتدبير في الحرب، وكلِّ اجتماع في الله، حتى الجمعةِ والعيدين، ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أي: ويأذنَ لهم، ولما أراد الله عزَّ وجلَّ أن يُريَهم عِظَمَ الجِناية في ذهاب الذاهبِ عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنِه إذا كانوا معه على أمر جامعٍ.. جَعَلَ تركَ ذهابِهم حتى يستأذنوه ثالثَ الإيمانِ بالله، والإيمانِ برسوله، وجَعَلَهما كالتشبيب له، والبساط لذكره[1]، وذلك مع تصدير الجملة بـ(إنما) وإيقاعِ المؤمنين مبتدأً مخبراً عنه بموصولٍ أحاطت صلتُه بذكر الإيمانَين، ثم عقَّبه بما يزيدُه توكيداً وتشديداً؛ حيث أعاده على أسلوبٍ آخرَ، وهو قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وضمَّنه شيئاً آخرَ، وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداقِ لصحةِ الإيمانين، وعرَّضَ بحال المنافقين وتَسلُّلِهم لِواذاً، ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ في الانصراف ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾: أمرهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾: فيه رفعُ شأنِه عليه الصلاة والسلام، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ وذكرُ الاستغفارِ للمستأذِنين دليلٌ على أن الأفضل ألا يستأذنوه، قالوا: وينبغي أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومُقدَّميهم في الدين والعلم، يُظاهرونهم، ولا يتفرَّقُون عنهم إلا بإذنٍ، قيل: نزلت يوم الخندق، كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم من غير استئذانٍ.

《٦٣》 ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: إذا احتاج رسولُ الله ﷺ

---

(١) التشبيب في الأصل: ذكر أيام الشباب واللهو والغزل، ويكون في ابتداء القصائد، ثم سمي به ابتداؤها مطلقاً وإن لم يكن فيه ذكرُ الشباب، والمراد بالتشبيب هنا: الابتداء بذكر الإيمان بالله ورسوله تمهيداً لذكر ما بعده. انظر «فتوح الغيب» (١١/ ١٥٧).

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾

إلى اجتماعِكم عنده لأمر فَدَعاكم.. فلا تفرَّقوا عنه إلا بإذنه، ولا تقيسوا دعاءَه إياكم على دعاء بعضِكم بعضاً، ورجوعِكم عن المَجْمَع بغير إذنِ الداعي، أو: لا تجعلوا تسميتَه ونداءَه بينكم كما يُسمِّي بعضُكم بعضاً ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه، فلا تقولوا: يا محمدُ، ولكن: يا نبيَّ اللهِ يا رسولَ اللهِ، مع التوقيرِ والتعظيم والصوتِ المخفوضِ، ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾: يخرجون قليلاً قليلاً ﴿مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ﴾: حالٌ؛ أي: مُلاوِذين، اللِّواذُ والمُلاوذةُ هو: أن يَلُوذَ هذا بذاك، وذاك بهذا؛ أي: يَنْسَلُّون عن الجماعة في الخِفيةِ على سبيل الملاوذةِ واستتارِ بعضِهم ببعضٍ، ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: الذين يَصُدُّون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون؛ يقال: خالفَه إلى الأمر: إذا ذهب إليه دونه، ومنه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود: ٨٨]، وخالفه عن الأمر: إذا صدَّ عنه دونه، والضميرُ في (أمره) لله سبحانه، أو للرسول عليه الصلاة والسلام؛ والمعنى: عن طاعته ودينِه، ومفعولُ (يحذر): ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾: مِحنةٌ في الدنيا، أو: قتلٌ، أو: زلازلُ وأهوالٌ، أو: تسليطُ سلطانٍ جائرٍ، أو: قسوةُ القلبِ عن معرفةِ الربِّ، أو: إسباغُ النعم استدراجاً، ﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ في الآخرة، والآيةُ تدلُّ على أن الأمر للإيجاب.

《٦٤》 ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ (ألا): تنبيهٌ على ألا يُخالفوا أمرَ مَن له ما في السموات والأرض، ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أدخل (قد) ليؤكدَ علمَه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق، ومرجعُ توكيدِ العلم إلى توكيد الوعيد؛ والمعنى: أن جميع ما في السموات والأرض مختصٌّ به خلقاً وملكاً وعلماً، فكيف تَخفى عليه أحوالُ المنافقين وإن كانوا يجتهدون في سَترِها؟ ﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ وبفتح الياء وكسر الجيم: يعقوبُ[1]؛ أي: ويعلمُ يومَ يُردُّون إلى جزائه وهو يوم القيامة، والخطاب والغيبة في قوله: (قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه) يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون (ما أنتم عليه) عامّاً، و(يرجعون إليه) للمنافقين، ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا عَمِلُواْۗ﴾: بما أبطنوا من سوء أعمالِهم، ويجازيهم حقَّ جزائِهم، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾ فلا يَخفى عليه خافيةٌ، وروي: أن ابن عباس رضي الله عنه قرأ (سورة النور) على المنبر في الموسمِ وفسَّرها على وجهٍ لو سمعت الروم به.. لأسلمت.



(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٥).

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ ....

سورة الفرقان

سبعٌ وسبعون آيةً، مكيةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿تَبَارَكَ﴾: تفاعلٌ من البركة، وهي كثرةُ الخيرِ وزيادتُه؛ ومعنى (تبارك الله): تزايد خيرُه وتكاثر، أو: تزايد عن كلِّ شيءٍ وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، وهي كلمةُ تعظيمٍ لم تستعمل إلا لله وحدَه، والمستعملُ منه الماضي فحسبُ، ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ هو مصدرُ فَرَقَ بين الشيئين: إذا فصَلَ بينهما؛ وسمِّيَ به القرآن لفصله بين الحق والباطل، والحلال والحرام، أو لأنه لم يَنزلْ جملةً، ولكن مفروقاً مفصولاً بين بعضه وبعض في الإنزال، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾: محمدٍ عليه الصلاة والسلام؛ ﴿لِيَكُونَ﴾ العبدُ أو الفرقانُ ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾: للجن والإنس، وعمومُ الرسالة من خصائصه عليه الصلاة والسلام، ﴿نَذِيرًا ۝١﴾: مُنذِراً؛ أي: مُخْوِفاً، أو: إنذاراً، كالنكير بمعنى الإنكار، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦].

《٢》 ﴿ٱلَّذِى﴾: رفعٌ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو: على الإبدال من (الذي نزل)، وجُوِّزَ الفصلُ بين البدل والمبدل منه بقوله: (ليكون) لأن المبدل منه صلتُه (نَزَّلَ) و(ليكون): تعليلٌ له، فكأن المبدلَ منه لم يتمَّ إلا به، أو: نصبٌ على المدح، ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على الخلوص، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعم اليهود والنصارى في عُزَيْرٍ والمسيحِ عليهما السلام، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما زعمت الثَّنَوِيَّةُ، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أحدثَ كلَّ شيءٍ وحدَه، لا كما يقوله المجوسُ والثنويةُ من النور والظلمة، ويزدانَ وأهرمَنَ، ولا شبهةَ فيه لمن لا يقول: إن الله شيءٌ[1]، ولا لمن يقول: بخلق القرآن؛ لأن الفاعل بجميع صفاته لا يكون

---

(١) أهلُ السنة يطلقون لفظ الشيء عليه سبحانه فيقولون: هو شيءٌ لا كالأشياء، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وبقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فاستثنى من كل شيء الوجهَ وهو بمعنى الذات، والجهميةُ يمنعون إطلاق لفظ الشيء على الله، وهذا الخلاف لفظي ما له مِن ثمراتٍ. انظر «شرح الشيخ علي القاري على بدء الأمالي» (ص٢٧) و«تفسير الآلوسي» (٤/ ١١١).

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ افْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ....

مفعولَه، على أن لفظ (شيء) اختصَّ بما يصحُّ أن يُخلقَ بقرينةِ (وخلق)، وهذا أوضحُ دليلٍ لنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد، ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾: فهيَّأه لما يصلح له بلا خللٍ فيه، كما أنه خلق الإنسان على هذا الشكل الذي تراه، فقدَّره للتكاليف والمصالح المنوطةِ به في الدين والدنيا، أو: فقدَّره للبقاء إلى أمدٍ معلوم.

《٣》 ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ الضميرُ للكافرين؛ لاندراجهم تحت العالمين، أو لدلالة (نذيراً) عليهم؛ لأنهم المنذَرون، ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي: الأصنامَ، ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: أنهم آثَروا على عبادة مَن هو منفرد بالألوهيةِ والملكِ والخلقِ والتقديرِ عبادةَ عَجَزَةٍ لا يَقدِرون على خلق شيءٍ وهم مخلوقون، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾: ولا يستطيعون لأنفسهم دفعَ ضررٍ عنها، ولا جلبَ نفعٍ إليها، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾: إماتةً، ﴿وَلَا حَيَوٰةً﴾ أي: إحياءً، ﴿وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾: إحياءً بعد الموت، وجَعَلَها كالعقلاء لزعم عابدِيْها.

《٤》 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ﴾: ما هذا القرآنُ ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾: كذبٌ ﴿افْتَرَىٰهُ﴾: اختلقَه واخترعَه محمدٌ من عند نفسه، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي: اليهودُ، أو: عدّاسٌ ويَسارٌ وأبو فُكَيهةَ الروميُّ، قاله النضرُ بنُ الحارث، ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾: هذا إخبارٌ من الله ردٌّ للكفرة، فيرجع الضمير إلى الكفار، وجاء: يُستعمل في معنى: فَعَلَ، فيعدَّى تعديتَها، أو: حُذفَ الجارُّ وأُوصلَ الفعلُ؛ أي: بظلم وزورٍ، وظلمُهم أن جعلوا العربيَّ يَتَلَقَّنُ من العجمي الروميِّ كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميعَ فصحاءِ العربِ، والزُّور أن بهتوه بنسبةِ ما هو بريءٌ منه.. إليه.

《٥》 ﴿وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هو أحاديثُ المتقدمين وما سَطَرُوه كرُسْتُمَ وغيرِه، جمعُ أسطارٍ وأُسطورةٍ، كأُحدوثة، ﴿اكْتَتَبَهَا﴾: كتبها لنفسه، ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُلقَى عليه من كتابه ﴿بُكْرَةً﴾: أولَ النهارِ، ﴿وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾: آخرَه، فيَحفظُ ما يُملى عليه ثم يتلوه علينا.

《٦》 ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ: ﴿أَنزَلَهُ﴾ أي: القرآنَ ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلمُ كلَّ سرٍّ خَفِيَ في السموات والأرض؛ يعني: أن القرآن لمّا اشتمل على علم الغيوب التي يستحيلُ عادةً أن يعلمَها محمدٌ عليه الصلاة والسلام من غير تعليمٍ.. دلَّ ذلك على أنه من عند

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ ....

علام الغيوب، ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ فيمهلُهم ولا يعاجلُهم بالعقوبة وإن استوجبوها بمكابرتهم.

《٧》 ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ وقعت اللامُ في المصحف مفصولةً عن الهاء، وخطُّ المصحف سنةٌ لا تُغيَّرُ، وتسميتُهم إياه بالرسول سخريةٌ منهم، كأنهم قالوا: أيُّ شيءٍ لهذا الزاعم أنه رسولٌ ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾: حالٌ، والعاملُ فيها: (هذا)، ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾.

《٨》 ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: إن صحَّ أنه رسول الله.. فما بالُه يأكل الطعام كما نأكلُ، ويترددُ في الأسواق لطلب المعاش كما نترددُ؛ يعنون: أنه كان يجبُّ أن يكون مَلَكاً مستغنياً عن الأكل والتعيُّشِ، ثم نزلوا عن ذلك الاقتراح إلى أن يكون إنساناً معه ملكٌ حتى يَتسانَدا في الإنذار والتخويف، ثم نزلوا إلى أن يكون مَرفُوداً بكنزٍ يُلقَى إليه من السماء[1]، يستظهرُ به ولا يحتاجُ إلى تحصيل المعاش، ثم نزلوا إلى أن يكون رجلاً له بستانٌ يأكلُ منه كالمياسيرِ، أو: نأكلُ نحن، كقراءة عليٍّ وحمزةَ[2]، وحَسُنَ عطفُ المضارع وهو (يُلقَى) و(تكون) على (أُنزلَ) وهو ماضٍ.. لدخولِ المضارعِ وهو (فيكونَ) بينهما، وانتصب (فيكون) على القراءة المشهورة؛ لأنه جوابُ (لولا) بمعنى: هلا، وحكمُه حكمُ الاستفهام، وأراد بالظالمين في قوله: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾: إياهم بأعيانهم، غيرَ أنه وُضِعَ الظاهرُ موضعَ المضمرِ تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوا، وهم كفارُ قريش: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ سُحِرَ فَجُنَّ، أو: ذا سُحْرٍ، وهو الرِّئَةُ؛ عَنَوا أنه بشرٌ لا ملكٌ[3].

《٩》 ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا﴾: بيَّنوا ﴿لَكَ الْأَمْثَالَ﴾: الأشباهَ؛ أي: قالوا فيك تلك الأقوالَ، واخترعُوا لك الصفاتِ والأحوالَ من المفترِي والمملَى عليه والمسحورِ، ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الحقِّ، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾: فلا يجدون طريقاً إليه.

---

(١) مرفوداً بكنز: مُعْطىً كنزاً.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٦).

(٣) الرئةُ: آلةُ التنفس؛ أي: أنه يتنفسُ مثلهم، والتنفسُ من لوازم البشرية.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ ....

《١٠》 ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ أي: تكاثر خيرُ الذي إن شاء.. وهبَ لك في الدنيا خيراً مما قالوا، وهو أن يُعَجِّلَ لك مثلَ ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور، و(جنات): بدلٌ من (خيراً)، ﴿ويجعلُ﴾: بالرفع: مكيٌّ وشاميٌّ وأبو بكر[1]؛ لأن الشرط إذا وقع ماضياً.. جاز في جزائه الجزمُ والرفعُ.

《١١》 ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾: عطفٌ على ما حكى عنهم، يقول: بل أَتَوا بأعجبَ مِن ذلك كلِّه، وهو تكذيبُهم بالساعة، أو: متصلٌ بما يليه، كأنه قال: بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب[2]؟ وكيف يُصدِّقون بتعجيلِ مثلِ ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بها؟ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾: وهيأْنا للمكذبين بها ناراً شديدةً في الاستعار.

《١٢》 ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾: النارُ؛ أي: قابلتْهم ﴿مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: إذا كانت منهم بمرأ الناظرين في البُعدِ ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ أي: سمعُوا صوت غَلَيانها، وشُبِّهَ ذلك بصوت المتغيِّظِ والزافر، أو: إذا رأتهم زبانيتُها.. تغيَّظُوا وزفرُوا غضباً على الكفار.

《١٣》 ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا﴾: من النار ﴿مَكاناً ضَيْقاً﴾: مكيٌّ[3]، الكرب مع الضيق، كما أن الرَّوحَ مع السعة، ولذا وُصفت الجنةُ بأن عرضَها السمواتُ والأرضُ، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه يَضيقُ عليهم كما يَضيقُ الزُّجُّ في الرُّمْحِ[4]، ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: وهم مع ذلك الضِّيْقِ مسلسلون مقرنون في السلاسل، قُرنت أيديْهم إلى أعناقهم في الأغلال، أو يُقرنُ مع كل كافرٍ شيطانُه في سلسلة، وفي أرجلهم الأصفادُ، ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ﴾: حينئذ[5]، ﴿ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾: هلاكاً؛ أي: قالوا: واثبوراه؛ أي: تعالَ يا ثبورُ؛ فهذا حينُكَ، فيقال لهم:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٦).

(٢) وهو: (تبارك الذي...).

(٣) الباقون: ﴿ضَيِّقاً﴾. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٦).

(٤) الزُّجُّ: الحديدةُ التي في أسفلِ الرمح.

(٥) جعل الإمام النسفي (هنالك) للزمان مجازاً، ففي «شرح المفصل» لابن يعيش (٢/ ٣٦٨) أنه لا يُشارُ بها إلَّا إلى ما حضر من المكان، وأبقاها الآلوسي في «تفسيره» (٩/ ٤٣٣) للمكان فقال: أي: في ذلك المكان الهائل.

﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ ....

《١٤》 ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ أي: إنكم وقعتُم فيما ليس ثبورُكم فيه واحداً، إنما هو ثبورٌ كثيرٌ.

《١٥》 ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: المذكورُ من صفة النار خيرٌ، ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: وُعدها، فالراجعُ إلى الموصول محذوفٌ، وإنما قال: (أذلك خير) ولا خيرَ في النار؛ توبيخاً للكفار، ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾: ثواباً، ﴿وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾: مرجعاً، وإنما قيل: (كانت) لأن ما وَعَدَ اللهُ كأنه كان؛ لتحققِه، أو كان ذلك مكتوباً في اللوح قبل أن خَلَقَهم.

《١٦》 ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: ما يشاؤونه ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حالٌ من الضمير في (يشاؤون) والضميرُ في ﴿كَانَ﴾: لـ(ما يشاؤون)، ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ أي: موعوداً ﴿مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾: مطلوباً، أو: حقيقاً أن يُسألَ، أو: قد سأله المؤمنون والملائكةُ في دَعَواتِهم ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]، ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨].

《١٧》 ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ للبعث، عند الجمهور، وبالياء: مكيٌّ ويزيدُ ويعقوبُ وحفصٌ[١]، ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يريدُ: المعبودين من الملائكة، والمسيحِ وعزير، وعن الكلبي: يعني: الأصنامَ ينطقُها اللهُ، وقيل: عامٌّ، و(ما) يتناولُ العقلاءَ وغيرَهم؛ لأنه أريدَ به الوصفُ، كأنه قيل: ومعبودِيهم، ﴿فَيَقُولُ﴾ وبالنون شاميٌّ، ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾: بدلٌ من (عبادي) أي: المشركين، ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ والقياسُ: ضلُّوا عن السبيل، إلا أنهم تركوا الجارَّ، كما تركوه في: هداه الطريقَ، والأصلُ: إلى الطريق، أو للطريق، وضلَّ: مطاوعُ: أضلَّه؛ والمعنى: أأنتم أوقعتُموهم في الضلال عن طريق الحقِّ بإدخال الشُّبَهِ أم هم ضلُّوا عنه بأنفسهم؟ وإنما لم يُقَلْ: أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلُّوا السبيل، وزِيْدَ (أنتم) و(هم) لأن السؤال ليس عن الفعل ووجودِه؛ لأنه لولا وجودُه.. لما توجَّه هذا العتابُ، وإنما هو عن مُتَوَلِّيه، فلا بدَّ مِن ذكره وإيلائِه حرفَ الاستفهام؛ ليُعلمَ أنه المسؤول عنه، وفائدةُ سؤالِهم مع علمه تعالى بالمسؤول عنه: أن يُجيبُوا بما أجابوا به حتى يُبكِّتَ عَبَدَتَهم بتكذيبهم إياهم فتزيدَ حسرتُهم.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٦) وكذا القراءتان الآتيتان.

قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ....

«١٨» ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ﴾: تعجبٌ منهم مما قيل لهم، أو: قصدوا به تنزيهَه عن الأنداد، وأن يكون له نبيٌّ أو ملكٌ أو غيرُهما نِدّاً، ثم قالوا: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ما كان يصحُّ لنا ولا يستقيمُ أن نتولَّى أحداً دونك، فكيف يصحُّ لنا أن نحملَ غيرَنا على أن يتولَّونا دونك، ﴿نُتَّخَذَ﴾: يزيدُ، واتخذ: يتعدَّى إلى مفعول واحد، نحو: اتخذ وليّاً، وإلى مفعولين، نحو: اتخذ فلاناً وليّاً، قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: ٢١]، وقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، فالقراءةُ الأولى من المتعدي إلى واحدٍ، وهو (من أولياء)، والأصل: أن نتخذَ أولياءَ، وزِيدت (مِن) لتأكيدِ معنى النفي[1]، والقراءةُ الثانيةُ مِن المتعدي إلى المفعولين، فالمفعولُ الأولُ: ما بُني له الفعلُ[2]، والثاني: (من أولياء)، و(مِن) للتبعيض؛ أي: لا نُتَّخَذَ بعضَ أولياءَ؛ لأن (مِن) لا تزاد في المفعول الثاني، بل في الأول، تقول: ما اتخذت من أحدٍ وليّاً، ولا تقول: ما اتخذت أحداً مِن وليٍّ، ﴿وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بالأموال والأولادِ وطولِ العمرِ والسلامةِ من العذاب، ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: ذكرَ اللهِ والإيمانَ به والقرآنَ والشرائعَ، ﴿وَكَانُوا۟﴾ عند الله ﴿قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾: هَلْكَى: جمعُ بائرٍ كعائذٍ وعُوذٍ، ثم يقال للكفار بطريق الخطاب عدولاً عن الغَيبةِ إليه:

«١٩» ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ وهذه المفاجأةُ بالاحتجاج والإلزام حسنةٌ رائعةٌ، وخاصة إذا انضمَّ إليها الالتفاتُ وحذفُ القولِ، ونظيرُها: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]، إلى قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩][3]، وقولُ القائلِ[4]:

[من: البسيط]

قالوا خراسانُ أقصى ما يُرادُ بنا ... ثم القُفولُ فقد جئنا خُراسانا

---

(١) ويجوز أن تكون من المتعدي لاثنين، والأول: (أولياء)، والثاني: (من دونك)، والتقدير: أن نتخذ أولياء كائنين من دونك. انظر «الدر المصون» (٨/ ٤٦٥).

(٢) أي: النائب عن الفاعل، وهو الضمير المستتر في (نُتَّخَذَ).

(٣) ففي الآية حذف؛ أي: لا تعتذروا بقولكم: ما جاءنا؛ فقد جاءكم. انظر «تفسير البيضاوي» (٢/ ١٢١).

(٤) البيت للعباس بن الأحنف في «ديوانه» (ص٢٧٩)، والشاهد فيه حذف القول؛ أي: فقولوا لهم: قد جئنا خراسانا.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ ....

﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾: بقولكم فيهم: إنهم آلهة، والباءُ على هذا كقوله: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ق: ٥] والجارُّ والمجرورُ بدلٌ من الضمير، كأنه قيل: فقد كذبوا بما تقولون، وعن قنبلٍ بالياء[١]؛ ومعناه: فقد كذبوا بقولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨]، والباءُ على هذا كقولك: كتبت بالقلم، ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً﴾ أي: فما يستطيع آلهتُكم أن يصرفوا عنكم العذابَ، أو ينصروكم، وبالتاء: حفصٌ[٢]؛ أي: فما تستطيعون أنتم يا كفارُ صرفَ العذابِ عنكم، ولا نصرَ أنفسِكم، ثم خاطب المكلفين على العموم بقوله: ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾ أي: يشركْ؛ لأن الظلم وضعُ الشيءِ في غير موضعِه، ومن جعلَ المخلوق شريكَ خالقِه.. فقد ظلم؛ يؤيدُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩﴾ فُسِّرَ بالخلود في النار، وهو يليق بالمشرك دون الفاسق، إلا على قول المعتزلة والخوارج.

《٢٠》 ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ كسرت (إنَّ) لأجل اللام في الخبر، والجملةُ بعد (إلا) صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ؛ والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا آكلين وماشين، وإنما حذف اكتفاءً بالجارِّ والمجرور؛ أي: من المرسلين، ونحوُه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي: وما منا أحدٌ، قيل: هو احتجاج على مَن قال: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، وتسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ أي: محنةً وابتلاءً، وهذا تصبيرٌ لرسول الله ﷺ عمّا عَيَّروه به من الفقر ومَشْيِه في الأسواق؛ يعني: أنه جعل الأغنياءَ فتنةً للفقراء، فيُغني من يشاء ويُفقرُ مَن يشاءُ، ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ على هذه الفتنةِ فتُؤجَروا، أم لا تصبرون فيزدادُ غمُّكم؟ وحكي: أن بعض الصالحين تبرَّمَ بِضَنْكِ عيشِه فخرج ضَجِراً فرأى خَصِيّاً في مواكبَ ومراكبَ، فخطر بباله شيءٌ، فإذا بمن يقرأُ هذه الآيةَ، فقال: بلى نصبرُ ربَّنا، أو: جعلناك فتنةً لهم؛ لأنك لو كنتَ غنيّاً صاحبَ كنوزٍ وجِنانٍ.. لكانت طاعتُهم لك للدنيا، أو ممزوجةً بالدنيا؛ فإنما بعثناك فقيراً لتكون طاعة من يطيعك خالصةً لنا، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾: عالماً بالصواب فيما يَبتلِي به، أو بمن يصبرُ ويجزعُ.

---

(١) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٣٤).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٦).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ ....

«٢١» ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾: لا يأمُلُون ﴿لِقَآءَنَا﴾ بالخيرِ؛ لأنهم كَفَرَةٌ لا يؤمنون بالبعث، أو: لا يخافون عقابَنا، إما لأن الراجي قَلِقٌ فيما يرجوه كالخائف، أو: لأن الرجاءَ في لغة تِهامةَ الخوفُ، ﴿لَوْلَآ﴾: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ رُسُلاً دون البشر، أو: شهوداً على نبوتِه ودعوى رسالتِه، ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ جهرةً فيخبرُنا برسالته واتِّباعِه، ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أضمروا الاستكبارَ عن الحقِّ وهو الكفر والعنادُ في قلوبهم، ﴿وَعَتَوْ﴾: وتجاوزُوا الحدَّ في الظلم، ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ وَصفَ العُتُوَّ بالكبر فبالغَ في إفراطِه؛ أي: أنهم لم يَجْسُرُوا على هذا القولِ العظيمِ إلا لأنهم بلغُوا غايةَ الاستكبارِ وأقصى العتوِّ، واللامُ جوابُ قسم محذوف.

«٢٢» ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: يومَ الموتِ، أو: يومَ البعثِ، و(يوم): منصوبٌ بما دلَّ عليه: ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ أي: يومَ يرون الملائكةَ يُمنعون البشرى، وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: مؤكدٌ لـ(يوم يرون)، أو بإضمار: اذكر؛ أي: اذكر يومَ يرون الملائكةَ، ثم أخبر فقال: لا بشرى بالجنة يومئذ، ولا ينتصبُ بـ(يرون) لأن المضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا بـ(بشرى) لأنها مصدرٌ، والمصدرُ لا يعمل فيما قبله؛ ولأن المنفيَّ بـ: لا.. لا يعملُ فيما قبلَ: لا، ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾: ظاهرٌ في موضع ضميرٍ، أو: عامٌّ يتناولهم بعمومِه، وهم الذين اجترموا الذنوب[(١)]، والمراد الكافرون؛ لأن مطلق الأسماء يتناولُ أكملَ المسمَّيات، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الملائكةُ: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾: حراماً مُحرماً عليكم البشرى؛ أي: جعل الله ذلك حراماً عليكم، إنما البشرى للمؤمنين، والحِجْرُ: مصدرٌ، والكسر والفتح لغتان، وقرئ بهما[(٢)]، وهو من: حَجَره: إذا منعَه، وهو من المصادر المنصوبة بأفعالٍ متروكٍ إظهارُها، ومحجوراً لتأكيدِ معنى الحِجْرِ، كما قالوا: موتٌ مائت.

«٢٣» ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾: هو صفةٌ، ولا قدومَ هنا، ولكن مُثِّلَتْ حالُ هؤلاءِ وأعمالُهم التي عملوها في كفرهم من صلةِ رحمٍ، وإغاثةِ ملهوفٍ، وقِرَى ضيفٍ ونحوِ ذلك.. بحالِ مَن خالف سلطانَه وعصاه، فقَدِمَ إلى أشيائه وقصدَ إلى ما تحت يديه

---

(١) أي: اكتسبوها.

(٢) انظر «إملاء ما من به الرحمن» (٢/ ١٦٢).

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ....

فأفسدَها ومزَّقَها كلَّ مُمَزَّقٍ، ولم يتركْ لها أثراً، والهباءُ: ما يخرجُ من الكُوَّةِ مع ضوء الشمس شبيهاً بالغبار، والمنثورُ: المفرَّقُ، وهو استعارةٌ عن جعله بحيث لا يقبلُ الاجتماعَ، ولا يقع به الانتفاعُ.

《٢٤》 ثم بيَّن فضلَ أهلِ الجنةِ على أهل النار فقال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾: تمييزٌ، والمستقرُّ: المكانُ الذي يكونون فيه في أكثرِ أوقاتِهم مستقرين يتجالسون ويتحادثون، ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾: مكاناً يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم، ولا نومَ في الجنة، ولكنه سَمَّى مكانَ استرواحِهم إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه، وروي: أنه يُفْرَغُ من الحساب في نصف ذلك اليومِ، فيَقيلُ أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار، وفي لفظِ الأحسنِ تهكُّمٌ بهم.

《٢٥》 ﴿وَيَوْمَ﴾: واذكر يومَ ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ والأصلُ: تتشقَّقُ، فحَذفَ كوفيٌّ وأبو عمرٍو التاءَ، وغيرُهم: أدغمَها في الشين[1]، ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ لما كان انشقاقُ السماءِ بسببِ طلوعِ الغمامِ منها.. جُعِلَ الغمامُ كأنه الذي تشقَّقُ به السماءُ، كما تقول: شققتُ السَّنامَ بالشفرة فانشقَّ بها، ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ ﴿ونُنْزِلُ الملائكةَ﴾: مكيٌّ، و(تنزيلاً) على هذا: مصدرٌ من غير لفظ الفعل؛ والمعنى: أن السماء تنفتحُ بغمامٍ أبيضَ يخرجُ منها، وفي الغمام الملائكةُ ينزلون في أيديهم صحائفُ أعمالِ العبادِ.

《٢٦》 ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: مبتدأ، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرفُه، ﴿ٱلْحَقُّ﴾: نعتُه؛ ومعناه: الثابتُ؛ لأن كل مِلكٍ يزولُ يومئذ، ولا يبقى إلا مُلكُه، ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾: خبرُه، ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليومُ ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾: شديداً؛ يقال: عَسُرَ عليه فهو عسيرٌ وعَسِرٌ، ويُفهمُ منه يُسرُه على المؤمنين، ففي الحديث: «يَهُوْنُ يومُ القيامة على المؤمنين حتى يكونَ عليهم أخفَّ من صلاة مكتوبةٍ صَلَّوها في الدنيا»[2].

《٢٧》 ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ عضُّ اليدين كنايةٌ عن الغَيظِ والحسرةِ؛ لأنه من رَوادِفِها، فتُذكرُ الرادفةُ ويُدَلُّ بها على المردوف[3]، فيرتفع الكلامُ به في طبقة الفصاحة، ويجدُ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٧) وكذا القراءة الآتية.

(٢) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٧٥) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) من روادفها: من توابعها؛ أي: أن عضَّ اليدين من توابعِ الحسرةِ؛ فذُكِرَ العضُّ وأُريدت الحسرةُ.

يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ ....

السامع عنده في نفسه من الروعة ما لا يجدُه عند لفظ المكْنِيِّ عنه، واللامُ في (الظالم) للعهد، وأريدَ به عقبةُ؛ لما تبيَّنَ، أو: للجنس، فيتناولُ عقبةَ وغيرَه من الكفار، ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ﴾ في الدنيا ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾: مع محمدٍ عليه الصلاة والسلام، ﴿سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾﴾: طريقاً إلى النجاة والجنةِ وهو الإيمان.

《٢٨》 ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ وقرئ: ﴿يا ويلتي﴾: بالياء[1]، وهو الأصل؛ لأن الرجل يُنادي وَيْلتَه، وهي هَلَكتُه، يقول لها: تعالَي فهذا أوانُكِ، وإنما قُلبت الياءُ ألفاً كما في صحارَى ومدارى[2]، ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾﴾ فلانٌ: كنايةٌ عن الأعلام، فإن أُريدَ بالظالم عقبةُ؛ لما روي: أنه اتخذ ضيافةً، فدعا إليها رسولَ الله عليه الصلاة والسلام فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطقَ بالشهادتين، ففعل، فقال له أبيُّ بنُ خلف وهو خليلُه: وجهي من وجهك حرامٌ إلا أن ترجعَ، فارتدَّ؛ فالمعنى: يا ليتني لم أتخذْ أُبيّاً خليلاً، فكنَّى عن اسمه، وإن أريد به الجنسُ.. فكلُّ مَن اتخذ من المضِلِّين خليلاً.. كان لخليله اسمُ علمٍ لا محالةَ، فجُعلَ كنايةً عنه، وقيل: هو كناية عن الشيطان.

《٢٩》 ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾: عن ذكر الله، أو القرآنِ، أو الإيمانِ، ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ من الله، ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: خليلُه، سمّاه شيطاناً؛ لأنه أضلَّه كما يُضلُّه الشيطانُ، أو: إبليسُ؛ لأنه الذي حمله على مُخالَّةِ المضِلِّ، ومخالفةِ الرسولِ، ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾ المطيع له ﴿خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾: هو مبالغة من الخِذلانِ؛ أي: من عادته تركُ مَن يُواليْه، وهذا حكاية كلام الله، أو كلامِ الظالمِ.

《٣٠》 ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: محمد عليه الصلاة والسلام في الدنيا: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي﴾: قريشاً ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾﴾: متروكاً؛ أي: تركوه ولم يؤمنوا به؛ مِن الهجران، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ(اتخذوا)، وفي هذا تعظيمٌ للشكاية، وتخويفٌ لقومه؛ لأن الأنبياء إذا شَكَوا إليه قومَهم.. حلَّ بهم العذابُ، ولم يُنْظَرُوا، ثم أقبل عليه مُسلِّياً، ووعده النصرةَ عليهم فقال:

---

(١) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤١٧) وهي شاذة.

(٢) مدارَى: جمع مِدْرىً وهو مثل الشوكة تحك به المرأة رأسَها، وأصلها: مَدارِيْ، ثم أبدلت الكسرة فتحةً؛ اتباعاً لفتحة ما قبل الألف، فقلبت الياء ألفاً لتحركِها وانفتاحِ ما قبلها. انظر «حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك» (٣/ ٣٥٩).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ ....

《٣١》 ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ أي: وكذلك كان كلُّ نبيٍّ قبلَكَ مُبتلىً بعداوةِ قومِه، وكفاك بي هادياً إلى طريقِ قهرِهم، والانتصارِ منهم، وناصراً لك عليهم، والعدوُّ: يجوز أن يكون واحداً وجمعاً، والباءُ: زائدةٌ؛ أي: وكفى ربُّك هادياً، وهو تمييزٌ.

《٣٢》 ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: قريشٌ أو اليهودُ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً﴾: حالٌ من القرآن؛ أي: مجتمعاً، ﴿وَٰحِدَةً﴾ يعني: هلّا أُنزل عليه دفعةً واحدةً في وقت واحد، كما أُنزلت الكتبُ الثلاثةُ، وما له أُنزلَ على التفاريقِ؟ وهذا فُضولٌ من القول ومماراةٌ بما لا طائلَ تحتَه؛ لأن أمر الإعجاز والاحتجاجَ به لا يختلفُ بنزوله جملةً واحدةً أو مفرقاً، و(نُزِّلَ) هنا بمعنى: أُنزل، وإلا.. لكان مُتدافعاً؛ بدليل: (جملةً واحدةً)[١]، وهذا اعتراضٌ فاسدٌ؛ لأنهم تُحُدُّوا بالإتيان بسورة واحدة من أصغرِ السورِ، فأبرزوا صفحةَ عجزِهم حتى لاذُوا بالمناصبةِ[٢]، وفزِعُوا إلى المحاربة، وبذلُوا المُهَجَ، وما مالُوا إلى الحُجَجِ، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جوابٌ لهم؛ أي: كذلك أُنزِلَ مفرقاً في عشرين سنةً، أو في ثلاثٍ وعشرين، و(ذلك) في (كذلك): إشارةٌ إلى مدلولِ قولِه: (لولا نزل عليه القرآن جملة)؛ لأن معناه: لِمَ أُنزل عليه القرآن مفرقاً؟ فأَعلمَ أن ذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾: لِنُقَوِّيَ بتفريقه فؤادك حتى تَعِيَهُ وتحفَظَه؛ لأن المتلقِّنَ إنما يَقوى قلبُه على حفظ العلم شيئاً بعد شيءٍ، وجُزءاً عقيب جزءٍ، ولو أُلقي عليه جملةً واحدةً.. لعجز عن حفظه، أو: لنثبتَ به فؤادك عن الضجر بتواترِ الوصولِ، وتتابع الرسولِ؛ لأن قلب المحبِّ يسكنُ بتواصلِ كتبِ المحبوبِ، ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾: معطوفٌ على الفعل الذي تعلق به (كذلك) كأنه قال: كذلك فَرَّقْناه ورتلناه؛ أي: قدرناه آيةً بعد آية، ووقفة عقيب وقفة، أو: أمرنا بترتيل قراءَتِه، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] أي: اقرأه بترسُّلٍ وتثبتٍ، أو: بيَّنَّاه تبييناً، والترتيلُ: التبيينُ في تَرَسُّلٍ وتَثبتٍ.

《٣٣》 ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾: بسؤالٍ عجيبٍ من سُؤالاتِهم الباطلةِ، كأنه مَثَلٌ في البطلان،

---

(١) يستعمل غالباً (أنزل) لما نزل دفعة واحدة، و(نزل) لما نزل تدريجاً.

(٢) المناصبة: العداوة.

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾ ....

﴿إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾: إلا أتيناك بالجواب الحقِّ الذي لا محيدَ عنه، ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾: وبما هو أحسنُ معنىً ومؤدّىً من مَثَلِهم؛ أي: من سؤالهم، وإنما حذف: مِن مثلهم؛ لأن في الكلام دليلاً عليه، كما لو قلت: رأيت زيداً وعمراً، وإن كان عمرٌو أحسنَ وجهاً، فيه دليلٌ على أنك تريدُ: مِن زيدٍ، ولما كان التفسيرُ هو التكشيفَ عمّا يدلُّ عليه الكلام.. وضعَ موضعَ معناه فقالوا: تفسيرُ هذا الكلام كيتَ وكيتَ، كما قيل: معناه: كذا وكذا، أو: لا يأتونك بحالٍ وصفةٍ عجيبةٍ يقولون: هلّا أنزل عليك القرآنُ جملةً.. إلا أعطيناك من الأحوالِ ما يحقُّ لك في حكمتنا أن تُعطاه، وما هو أحسنُ تكشيفاً لما بُعثتَ عليه ودلالةً على صحته؛ يعني: أن تنزيله مفرقاً، وتحديَهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريقِ كلما نُزِّلَ شيء منها.. أدخلُ في الإعجاز مِن أن يُنْزَلَ كلُّه جملةً.

《٣٤》 ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ﴾ (الذين): مبتدأ، و(أولئك): مبتدأٌ ثانٍ، و(شرٌّ): خبرُ (أولئك)، و(أولئك) مع (شرٌّ): خبرُ (الذين)، أو: التقدير: هم الذين، أو: أعني الذين، و(أولئك): مستأنفٌ، ﴿مَّكَانٗا﴾ أي: مكانةً ومنزلةً، أو: مسكناً ومنزلاً، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾: وأخطأُ طريقاً، وهو من الإسناد المجازيِّ؛ والمعنى: إن حاملَكم على هذه السؤالاتِ أنكم تَضلُّون سبيلَه، وتحتقرون مكانَه ومنزلتَه، ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنمَ.. لعلمتُم أن مكانكم شرٌّ من مكانه، ومنزلةَ سبيلِكم أضلُّ من سبيله، وفي طريقته قولُه: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٦٠] الآية، وعن النبي ﷺ: «يحشرُ الناسُ يوم القيامة على ثلاثة أصنافٍ، صنفٌ على الدوابِّ، وصنفٌ على أرجلهم، وصنفٌ على وجوههم»، قيل: يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «الذي أمشاهم على أقدامهم يمشيهم على وجوههم»[(١)].

《٣٥》 ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾: التوراة، كما آتيناك القرآن، ﴿وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾: بدلٌ أو عطفُ بيانٍ، ﴿وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾ هو في اللغة: مَن يُرجع إليه؛ ويتحصنُ برأيه؛ مِن الوَزَرِ، وهو الملجأُ، والوزارةُ لا تنافي النبوة؛ فقد كان يُبعثُ في الزمن الواحد أنبياءُ، ويؤمرون بأن يُؤازرَ بعضُهم بعضاً.

---

(١) رواه الترمذي (٣١٤٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ....﴾

《٣٦》 ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: إلى فرعون وقومِه، وتقديرُه: فذهبا إليهم وأنذرا فكذبوهما، ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ التدميرُ: الإهلاكُ بأمر عجيب، أراد اختصارَ القصةِ، فذكر أوَّلَها وآخرَها؛ لأنهما المقصود من القصة؛ أعني: إلزامَ الحجة ببعثة الرسل، واستحقاقَ التدميرِ بتكذيبهم.

《٣٧》 ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: ودمرنا قومَ نوحٍ ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ يعني: نوحاً وإدريسَ وشيثاً، أو: كان تكذيبُهم لواحد منهم تكذيباً للجميع، ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطوفان، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾: وجعلنا إغراقَهم، أو قصتَهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾: عبرةً يعتبرون بها، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: وهيأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: لقوم نوحٍ، وأصلُه: وأعتدنا لهم، إلا أنه أراد تظليمَهم فأظهرَ، أو: هو عامٌّ لكلِّ مَن ظلمَ ظُلْمَ شركٍ، ويتناولُهم بعمومه، ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: النارَ.

《٣٨》 ﴿وَعَادًا﴾: ودمرنا عاداً، ﴿وَثَمُودَا۟﴾: حمزةُ وحفصٌ؛ على تأويل القبيلة، وغيرُهما: ﴿وثموداً﴾[1]؛ على تأويل الحيِّ، أو: لأنه اسمٌ للأبِ الأكبرِ، ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾: هم قومُ شعيبٍ، كانوا يعبدون الأصنام فكذبُوا شعيباً، فبَيْنا هُمْ حولَ الرَّسِّ وهي البئرُ غيرُ المطويةِ.. انهارت بهم، فخُسِفَ بهم وبديارهم[2]، وقيل: الرسُّ: قريةٌ قَتلوا نبيَّهم فهلكوا، أو: هم أصحابُ الأخدودِ، والرسُّ: الأخدود، ﴿وَقُرُونًۢا﴾: وأهلكنا أمماً ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكورِ ﴿كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ لا يعلمُها إلا اللهُ، أرسلَ إليهم الرسلُ فكذبُوهم فأُهلكُوا.

《٣٩》 ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾: بيَّنَّا له القِصَصَ العجيبةَ من قِصصِ الأولين، ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ أي: أهلكنا إهلاكاً، و(كلاً) الأولُ: منصوبٌ بما دلَّ عليه (ضربنا له الأمثال)، وهو: أنذرْنا، أو حذرْنا، والثاني بـ(تبرنا) لأنه فارغٌ له.

《٤٠》 ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟﴾ يعني: أهلَ مكةَ ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾: سدومَ، وهي أعظمُ قُرى قوم لوط، وكانت خمساً، أهلك الله أربعاً مع أهلها، وبقيتْ واحدةٌ، ﴿ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ أي:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٧).

(٢) البئر المطوية: المبنية.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ ....

أمطر اللهُ عليها الحجارةَ؛ يعني: أن قريشاً مرُّوا مِراراً كثيرةً في متاجرهم إلى الشام على تلك القريةِ التي أُهْلِكَت بالحجارة من السماء، و(مطرَ السوء): مفعولٌ ثانٍ، والأصلُ: أُمطرت القريةُ مطراً، أو: مصدرٌ محذوفُ الزوائدِ؛ أي: إمطارَ السوء، ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾: أمَا شاهدُوا ذلك بأبصارهم عند سفرهم إلى الشام فيتفكرُوا فيؤمنوا، ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾: بل كانوا قوماً كفرةً بالبعث، لا يخافون بعثاً، فلا يؤمنون، أو: لا يأمُلُون نشوراً كما يَأْمُلُه المؤمنون؛ لطمعِهم في الوصول إلى ثوابِ أعمالِهم.

《٤١》 ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ (إن): نافيةٌ، ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ اتخذه هُزُؤاً؛ في معنى: استهزأ به، والأصل: اتخذه موضعَ هُزُؤٍ، أو مهزوءاً به[1]، ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى﴾: محكيٌّ بعد القول المضمر، و(هذا): استصغارٌ واستهزاءٌ؛ أي: قائلين: أهذا الذي ﴿بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ والمحذوفُ حالٌ، والعائدُ إلى (الذي) محذوفٌ؛ أي: بعثه.

《٤٢》 ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ (إن): مخففةٌ من الثقيلة واللامُ فارقةٌ، وهو دليلٌ على فَرْطِ مجاهدةِ رسولِ اللهِ ﷺ في دعوتِهم، وعرضِ المعجزاتِ عليهم حتى شارفُوا بزعمهم أن يتركوا دينَهم إلى دين الإسلام لولا فَرْطُ لَجاجِهم، واستمساكِهم بعبادة آلهتهم، ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ هو وعيدٌ ودلالةٌ على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدةُ الإمهال، ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ هو كالجواب عن قولهم: إن كاد ليضلنا؛ لأنه نسبةٌ لرسول الله ﷺ إلى الضلال؛ إذْ لا يُضِلُّ غيرَه إلا من هو ضالٌّ في نفسه.

《٤٣》 ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: من أطاع هواه فيما يأتي ويذَرُ.. فهو عابدُ هواه، وجاعلُه إلهَه، فيقول لرسوله: هذا الذي لا يَرى معبوداً إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوَه إلى الهدى؟ يُروَى: أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبدُ الحجر، فإذا مرَّ بحجر أحسنَ منه.. تركَ الأولَ وعبدَ الثاني، وعن الحسن: هو في كلِّ متبعِ هواه، ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ أي:

---

(١) أي: أن (هزؤاً): مصدرٌ بتقدير مضاف، أو مصدر بمعنى المفعول، ويجوز إبقاء المصدر بلا تقدير مضاف ولا تأويل، فيكون من الوصف بالمصدر مبالغةً، كما يقال: عندي رجلٌ عدلٌ، كأنه العدلُ نفسُه. انظر «الدر المصون» (٨/ ١٥٥)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٦/ ٤٢٤).

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ....

حفيظاً تحفظُه عن متابعةِ هواه، وعبادةِ ما يَهواه، أو: أفأنت تكون عليه مُوكَّلاً فتصرفُه عن الهوى إلى الهدى؟ عرَّفَه أن إليه التبليغَ فقط.

《٤٤》 ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ (أم): منقطعةٌ؛ معناه: بل أتحسبُ؟ كأن هذه المذمةَ أشدُّ من التي تقدمتها حتى حُقَّتْ بالإضراب عنها إليها، وهي كونُهم مسلوبي الأسماعِ والعقولِ؛ لأنهم لا يُلقون إلى استماع الحق أُذُناً، ولا إلى تدبره عقلاً، ومشبهين بالأنعام التي هي مَثَلٌ في الغفلة والضلالة، فقد ركبَهم الشيطانُ بالاستذلال؛ لتركهم الاستدلالَ، ثم هم أرجحُ ضلالةً منها؛ لأن الأنعام تُسبحُ ربَّها، وتسجدُ له، وتُطيعُ مَن يَعلِفُها، وتعرفُ مَن يُحْسِنُ إليها ممن يُسيءُ إليها، وتطلبُ ما ينفعُها، وتجتنبُ ما يضرُّها، وتهتدي لمراعيها ومشاربِها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانَه إليهم مِن إساءة الشيطان الذي هو عدوُّهم، ولا يطلُبون الثواب الذي هو أعظم المنافعِ، ولا يتقون العقابَ الذي هو أشدُّ المضارِّ والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المَشْرَعُ الهنيُّ، والعذبُ الرويُّ، وقالوا: للملائكة رُوحٌ وعقلٌ، وللبهائمِ نفسٌ وهوىً، والآدميُّ مجمعُ الكلِّ ابتلاءً، فإن غلبتْه النفسُ والهوى.. فَضَلَتْه الأنعامُ، وإن غلبتْه الروحُ والعقلُ.. فَضَلَ الملائكةَ الكرامَ، وإنما ذَكَرَ الأكثرَ؛ لأن فيهم مَن لم يَصدَّه عن الإسلام إلا حبُّ الرياسة وكفى به داءً عُضالاً، ولأن فيهم مَن آمن.

《٤٥》 ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾: ألم تنظر إلى صنعِ ربِّك وقدرتِه، ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي: بَسَطَهُ فعمَّ الأرضَ، وذلك من حينِ طلوعِ الفجرِ إلى وقتِ طلوعِ الشمسِ في قول الجمهور؛ لأنه ظلٌّ ممدودٌ لا شمسَ معه ولا ظلمةَ، وهو كما قال في ظلِّ الجنةِ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] لا شمسَ معه ولا ظلمةَ، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: دائماً لا يزولُ ولا تُذهبُه الشمسُ، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾: على الظلِّ ﴿دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ لأنه بالشمس يُعرفُ الظلُّ، ولولا الشمسُ.. لما عُرِفَ الظلُّ، فالأشياء تعرفُ بأضدادها.

《٤٦》 ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ أي: أخذنا ذلك الظلَّ الممدودَ ﴿إِلَيْنَا﴾: إلى حيث أردْنا، ﴿قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾: سهلاً غيرَ عسيرٍ، أو: قليلاً قليلاً؛ أي: جزءاً فجزءاً بالشمس التي تأتي عليه،

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ ....

وجاء بـ(ثم) لتفاضلِ ما بين الأمور، فكأنَّ الثانيَ أعظمُ من الأول، والثالثَ أعظمُ من الثاني، شبَّهَ تباعدَ ما بينهما في الفضل بتباعدِ ما بين الحوادث في الوقت.

«٤٧» ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾: جعلَ الظلامَ الساترَ كاللباس، ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾: راحةً لأبدانكم، وقطعاً لأعمالكم، والسبتُ: القطعُ، والنائمُ مسبوتٌ؛ لأنه انقطع عملُه وحركتُه، وقيل: السُّباتُ: الموتُ، والمسبوتُ: الميتُ؛ لأنه مقطوعُ الحياة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، ويَعضُدُه ذكرُ النشور في مقابلته، ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾: ذا نُشور؛ أي: انبعاثٍ من النوم، كنُشور الميت؛ أي: يُنشرُ فيه الخلقُ للمعاش، وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق.. فيها إظهارٌ لنعمته على خلقه؛ لأن في الاحتجاب بِسَتْرِ الليلِ فوائدَ دينيةً ودنيويةً، وفي النوم واليقظة المشبَّهين بالموت والحياةِ عبرةٌ لمن اعتبر، وقال لقمانُ لابنه: كما تنامُ فتوقظُ كذلك تموتُ فتُنشرُ.

«٤٨» ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ﴿الرِّيْحَ﴾: مكيٌّ[١]، والمرادُ به الجنسُ، ﴿بُشْرًا﴾ تخفيفُ بُشُرٍ: جمعُ بَشُوْرٍ، ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾: قُدّامَ المطر؛ لأنه ريحٌ ثم سحابٌ ثم مطرٌ، وهذه استعارةٌ مليحة[٢]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: مطراً ﴿طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾: بليغاً في طهارته، والطَّهور صفةٌ، كقولك: ماءٌ طهورٌ؛ أي: طاهرٌ، واسمٌ، كقولك لما يُتطهرُ به: طَهورٌ، كالوَضوء والوَقود لما يُتوضأُ به وتُوقدُ به النارُ، ومصدرٌ بمعنى التطهر، كقولك: تطهرتُ طَهوراً حسناً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا صلاة إلا بِطَهور»[٣] أي: بطهارةٍ، وما حُكِيَ عن ثعلبٍ: هو ما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره، وهو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى؛ إن كان هذا زيادةَ بيانٍ لطهارتِه.. فحسنٌ، ويعضده قولُه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]، وإلا.. فليس (فعول) من (التفعيل) في شيءٍ، وقياسُه على ما هو مشتقٌّ من الأفعال المعتدية كقَطوع ومَنوع.. غيرُ سديدٍ؛ لأن بناء (الفَعول) للمبالغة، فإن كان الفعل متعدياً.. فالفَعولُ متعدٍّ، وإن كان لازماً.. فلازمٌ[٤].

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٧).

(٢) حيث شبه المطر بالرحمة.

(٣) روى الترمذي (١)، وابن ماجه (٢٧٢) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «لا يقبلُ اللهُ صلاةً إلا بطهور».

(٤) ذكر الإمام الرازي في «تفسيره» (٢٤/٤٦٦) أن الله تعالى ذكر الماء الطهور في معرض الإنعام، فوجب حمله

﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝٤٩ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾ ....

«٤٩» ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ﴾: بالمطر ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ذكّر (ميتاً) على إرادة البلد أو المكان، ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝٤٩﴾ أي: ونُسقي الماءَ البهائمَ والناسَ، و(مما خلقْنا): حالٌ من (أنعاماً) و(أناسيَّ) أي: أنعاماً وأناسيَّ مما خلقنا، وسَقَى وأسقى: لغتان، وقرأ المفضلُ والبُرجُميُّ: ﴿ونَسْقِيَه﴾[1]، والأناسيُّ: جمعُ إنسيٍّ على القياس، ككرسيٍّ وكراسيَّ، أو: إنسانٍ، وأصلُه: أناسين، كسِرحانٍ وسَراحينَ، فأبدلت النونُ ياءً وأُدغمت، وقُدم إحياءُ الأرضِ على سقْيِ الأنعامِ والأناسيِّ؛ لأن حياتَها سبب لحياتِهما، فقُدِّمَ ما هو سببُ حياتهما على سقْيِهما، وتخصيصُ الأنعام من الحيوان الشارب؛ لأن عامة منافعِ الأناسيِّ متعلقةٌ بها، فكأن الإنعام بسقْيِ الأنعامِ.. كالإنعامِ بسقيِهم، وتنكيرُ الأنعام والأناسيِّ ووصفُها بالكثرة؛ لأن أكثر الناس مُنيخون بالقربِ من الأودية والأنهار، فيهم غُنيةٌ عن سقْيِ الماء، وأعقابُهم وبقاياهم كثيرٌ يعيشون بما ينزلُ اللهُ من رحمته، وتنكيرُ البلدة لأنه يُريدُ بعضَ بلادِ هؤلاءِ المتبعِّدِين عن مظانِّ الماءِ، ولما كان سقْيُ الأناسيِّ من جملة ما أُنزلَ له الماءُ.. وصفَه بالطَّهور إكراماً لهم، وبيانَ أن من حقهم أن يُؤثِرُوا الطهارة في بواطنهم وظواهرهم؛ لأن الطَّهورية شرطٌ للإحياء.

«٥٠» ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ﴿لِيَذْكُرُوا﴾: حمزةُ وعليٌّ[2]؛ يريدُ: ولقد صرفنا هذا القولَ بين الناس في القرآن وفي سائرِ الكتبِ المنزلةِ على الرسل، وهو ذكرُ إنشاءِ السحابِ وإنزالِ القطرِ؛ ليتفكروا ويعتبروا ويعرفُوا حقَّ النعمة فيه فيشكروا، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾: فأبى أكثرُهم إلا كفرانَ النعمةِ وجحودَها وقلةَ الاكتراثِ لها، أو: صرفنا المطرَ بينهم في البلدان المختلفة، والأوقات المتغايرة، وعلى الصفات المتفاوتة؛ مِن وابلٍ وطلٍّ وجَوْدٍ ورَذاذٍ ودِيْمَةٍ[3]، فأبَوا إلا الكُفورَ وأن يقولوا: مُطرنا بِنَوء كذا[4]، ولا يذكروا صنعَ اللهِ تعالى

= على الوصف الأكمل، ولا شكَّ أن المطهر أكملُ من الطاهر، وفي «التحرير والتنوير» (١٩/ ٤٧): ووصف الماء بالطهور يقتضي أنه مطهر لغيره؛ إذ العدول عن صيغة «فاعل» إلى صيغة «فعول» لزيادة معنى في الوصف، فاقتضاؤه في هذه الآية أنه مطهر لغيره اقتضاءٌ التزاميٌّ؛ ليكون مستكملاً وصف الطهارة القاصرة والمتعدية.

(١) انظر «الكشف والبيان» للثعلبي (٧/ ١٤٠) وهي شاذة.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٧).

(٣) الوابل: المطر الشديد، الطلُّ: أضعف المطر، الجَود: المطر الواسع الغزير، الرَّذاذ: المطر الساكن الدائم، الصغار القطر كالغبار، الديمة: المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق.

(٤) روى مسلم (٧١) عن سيدنا زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم =

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ .....

ورحمتِه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما من عام أقلُّ مطراً من عام، ولكن الله يصرفُه حيث يشاء، وقرأ الآية[1]، وروي: أن الملائكة يعرفون عدد المطرِ ومقدارَه في كلِّ عامٍ؛ لأنه لا يختلف، ولكن يختلف فيه البلاد، ويُنتزعُ من هنا جوابٌ في تنكير البلدةِ والأنعام والأناسيِّ[2]، ومَن نسب الإمطارَ إلى الأنواء وجحدَ أن تكون هي والأنواءُ من خلق الله تعالى.. كفر، وإن رأى أن الله تعالى خالقُها وقد نصب الأنواء أماراتٍ ودلالاتٍ عليها.. لم يكفرْ.

《٥١ - ٥٢》 ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لو شئنا.. لخفَّفْنا عنك أعباءَ نذارةِ جميعِ القُرى، ولبعثنا في كل قرية نبيّاً يُنذرُها، ولكن شئنا أن نجمَعَ لك فضائلَ جميعِ المرسَلين بالرسالة إلى كافة العالمين، فقَصَرْنا الأمرَ عليك وعظَّمْناك به، فتكون وحدك ككلِّهم، ولذا خُوطبَ بالجمع: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١]، فقابِلْ ذلك بالشكر والصبر والتشدُّدِ، ولا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتِهم، وكما آثرتُك على جميع الأنبياء.. فآثِرْ رضائي على جميع الأهواء، وأُريدَ بهذا تهييجُه وتهييجُ المؤمنين وتحريكُهم، ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ أي: بالله؛ يعني: بعونِه وتوفيقِه، أو: بالقرآن؛ أي: جادِلهم به وقَرِّعْهم بالعجز عنه، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾: عظيماً موقعُه عند الله؛ لما يُحتملُ فيه من المشاقّ، ويجوز أن يرجع الضميرُ في (به) إلى ما دلَّ عليه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝٥١﴾ من كونه نذيرَ كافةِ القُرى؛ لأنه لو بُعثَ في كل قرية نذيرٌ.. لوجب على كل نذيرٍ مجاهدةُ قريتِه، فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهداتُ، فكبُرَ جهادُه من أجل ذلك وعظم، فقال له: وجاهدهم بسبب كونك نذيرَ كافةِ القرى جهاداً كبيراً جامعاً لكل مجاهدة.

= صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت من الليل، فلما انصرف.. أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته.. فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا.. فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

النوء: مصدرُ ناءَ النجمُ؛ أي: سقط وغاب، وقيل: نهض وطلع، وكان أهل الجاهلية إذا كان عند ذلك مطر ينسبونه إلى النجم الساقط الغارب، وقيل: إلى الطالع، ثم إن النجم نفسَه قد يسمى نَوءاً تسمية للفاعل بالمصدر. انظر «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ٦١).

(١) روى نحوه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٠٤).

(٢) وذلك الجواب هو: أن إنزال المطر إذا كان بقدر احتياج الناس إليه واستغنائهم عنه.. فلا بدَّ من التصريف، فإن من سكن بقرب منابع الماء لم يحتج إلى المطر احتياجَ من هو بعيد من ذلك. انظر «فتوح الغيب» (١١/ ٢٥٩).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ ....

《٥٣》 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: خلّاهما متجاورين متلاصقين[١]؛ تقول: مَرَجْتُ الدابةَ: إذا خليتَها ترعى، وسمَّى الماءَين الكثيرين الواسعين بَحرين، ﴿هَٰذَا﴾ أي: أحدُهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾: صفةٌ لـ(عذبٌ) أي: شديدُ العُذوبةِ حتى يَقربَ إلى الحلاوة، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾: صفةٌ لـ(ملح) أي: شديدُ الملوحةِ، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾: حائلاً من قدرته يفصلُ بينهما ويمنعُهما التمازجَ، فهما في الظاهر مختلطان، وفي الحقيقةِ منفصلان، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾: وستراً ممنوعاً عن الأعين، كقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

《٥٤》 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي: النطفةِ ﴿بَشَرًا﴾: إنساناً، ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أرادَ تقسيمَ البشرِ قسمين: ذوي نسبٍ؛ أي: ذكوراً ينسب إليهم فيقال: فلانُ بنُ فلان، وفلانةُ بنتُ فلان؛ وذواتِ صِهرٍ؛ أي: إناثاً يُصاهَرُ بهنَّ، وهو كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩]، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ حيث خلقَ من النطفة الواحدة بشراً نوعين، ذكراً وأنثى، وقيل: فجعله نسباً؛ أي: قرابةً، وصِهراً؛ أي: مُصاهرةً؛ يعني: الوُصلةَ بالنكاح، مَنَّ بالأنساب؛ لأن التواصل يقع بها، وبالمصاهرةِ؛ لأن التوالدَ يكون بها.

《٥٥》 ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عَبَدُوه، ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوه، ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾: على معصيةِ ربِّه ﴿ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾: معينا ومظاهراً، و(فعيلٌ) بمعنى (مفاعِل) غيرُ عزيز، والظهيرُ والمظاهِرُ كالعَوين والمعاوِن، والمظاهرةُ: المعاونةُ؛ والمعنى: أن الكافر بعبادة الصنم يُتابعُ الشيطان ويعاونُه على معصية الرحمن.

《٥٦》 ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ للكافرين.

《٥٧》 ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: على التبليغ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾: جُعْلٍ. مثالُ ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ والمرادُ: إلا فِعلَ من شاء، واستثنائِه عن الأجر.. قولُ ذي شفقةٍ عليك قد سعى لك في تحصيلِ مالٍ: ما أطلبُ منك ثواباً على ما سعيتُ إلا أن تحفَظَ هذا المالَ

---

(١) خلّاهما: أرسلهما، وفي «التحرير والتنوير» (١٩/ ٥٤): المرجُ: الخلطُ، واستعير هنا لشدة المجاورةِ، والقرينةُ قولُه: (وجعل بينهما برزخاً).

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ ....

ولا تضيعَه، فليس حفظُك المالَ لنفسك من جنس الثواب، ولكن صَوَّرَه بصورة الثواب[1]، كأنه يقول: إن حفظتَ مالَك.. اعْتَدَّ حفظَك بمنزلة الثواب لي، ورضائي به كرضا المثابِ بالثواب، ولَعمري إنه عليه الصلاة والسلام مع أمته بهذا الصدد؛ ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلاً: تقربُهم إليه بالإيمان والطاعة، أو: بالصدقة والنفقة، وقيل: المرادُ: ولكن من شاء أن يتخذ بالإنفاق إلى رضاء ربه سبيلاً.. فليفعلْ[2]، وقيل: تقديرُه: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً إلا اتخاذَ المدعوِّ سبيلاً إلى ربه بطاعته، فذلك أجري؛ لأن الله يأجرُني عليه[3].

«٥٨» ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾: اتَّخِذْ مَن لا يموتُ وكيلاً.. لا يَكِلْكَ إلى من يموت ذليلاً؛ يعني: ثِقْ به وأسندْ أمرك إليه في استكفاءِ شرورِهم، ولا تتكلْ على حيٍّ يموتُ، وقرأها بعضُ الصالحين فقال: لا يصحُّ لذي عقلٍ أن يثق بعدها بمخلوق، والتوكل: الاعتمادُ عليه في كلِّ أمرٍ، ﴿وَسَبِّحْ﴾: ونزهه عن أن يَكِلَ إلى غيره مَن توكلَ عليه، ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾: بتوفيقِه الذي يُوجبُ الحمدَ، أو: قل: سبحان الله وبحمده، أو: نَزِّهْهُ عن كل العيوب بالثناء عليه[4]، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ أي: كفى اللهُ خبيراً بذنوب عباده؛ يعني: أنه خبيرٌ بأحوالهم، كافٍ في جزاءِ أعمالِهم.

«٥٩» ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في مدةٍ مقدارِ هذه المدةِ: لأنه لم يكن حينئذ ليلٌ ولا نهارٌ، روي عن مجاهد: أولُها: يومُ الأحد، وآخرُها: يومُ الجمعة، وإنما خلقها في ستة أيام وهو يقدرُ على أن يخلقَها في لحظة؛ تعليماً لخلقه الرفقَ والتثبتَ، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: هو الرحمن، فـ(الرحمنُ): خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أو: بدلٌ من الضمير في (استوى)، أو: (الذي خلق): مبتدأٌ، و(الرحمن): خبرُه، ﴿فَسَلْ﴾: بلا همزةٍ: مكيٌّ وعليٌّ[5]، ﴿بِهِۦ﴾: صلةُ (سل)، كقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] كما تكون (عن) صلته

---

(١) فالاستثناء متصل على هذا الوجه؛ لتنزيل فعلهم منزلة الأجر، فكأن المستثنى من جنس المستثنى منه. انظر «تفسير الآلوسي» (١٠/ ٣٧).

(٢) والاستثناء على هذا منقطع.

(٣) والاستثناء على هذا متصل؛ لأن طاعتهم لله جعلت من جنس الأجر مجازاً لكونها سبب الأجر.

(٤) في الأصل: (بثناء تُثني عليه)، والمثبت من المطبوع (٣/ ٣٧٧) وهو أولى.

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٨) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ ....

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، فَسَأَلَ به: كقولك: اهتمَّ به واشتغلَ به، وسألَ عنه: كقولك: بحثَ عنه، وفتَّشَ عنه، أو: صلةُ ﴿خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾، ويكون (خبيراً) مفعولَ (سل) أي: فاسأل عنه رجلاً عارفاً يُخبرُك برحمته، أو: فاسأل رجلاً خبيراً به وبرحمته، أو: (الرحمن): اسمٌ من أسماء الله تعالى، مذكورٌ في الكتب المتقدمة، ولم يكونوا يعرفونه، فقيل: فاسأل بهذا الاسم من يخبرُك مِن أهل الكتب حتى تُعَرِّفَ مَن ينكرُه، ومن ثَمَّ كانوا يقولون: ما نعرفُ الرحمن إلا الذي باليمامة؛ يعنون: مُسيلِمةَ، وكان يقال له: رحمانُ اليمامةِ.

《٦٠》 ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: إذا قال محمدٌ عليه الصلاة والسلام للمشركين: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾: صلُّوا لله واخضعُوا له ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: لا نعرفُ الرحمنَ فنسجدَ له، فهذا سؤالٌ عن المسمَّى به؛ لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤالُ عن المجهول بـ(ما)، أو: عن معناه؛ لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم، كما استعمل الرحيمُ والراحمُ والرَّحومُ، ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾: للذي تأمرُنا بالسجود له، أو: لأمرك بالسجود يا محمدُ مِن غيرِ علم منا به، ﴿يأمرُنا﴾: عليٌّ وحمزةُ، كأن بعضهم قال لبعض: أنسجدُ لما يأمرُنا محمدٌ، أو: يأمرُنا المسمَّى بالرحمن ولا نعرفُ ما هو؟ فقد عاندوا؛ لأن معناه عند أهل اللغة: ذو الرحمة التي لا غايةَ بعدها في الرحمة؛ لأن (فَعلان) من أبنية المبالغة؛ تقول: رجلٌ عطشانُ: إذا كان في نهاية العطش، ﴿وَزَادَهُمْ﴾ قولُه: (اسجدوا للرحمن) ﴿نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾: تَباعداً عن الإيمان.

《٦١》 ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ هي: منازلُ الكواكب السيارة، لكلِّ كوكبٍ بَيتان يَقوَى حالُه فيهما، وللشمس بيتٌ، وللقمر بيتٌ، فالحَمَلُ والعقربُ: بيتا المرِّيخ، والثَّور والميزان: بيتا الزهرةِ، والجوزاءُ والسُّنبلةُ: بيتا عُطاردَ، والسرطانُ: بيتُ القمر، والأسدُ بيتُ الشمس، والقوسُ والحوتُ بيتا المشتري، والجَدْيُ والدَّلْوُ بيتا زُحَلَ، وهذه البروجُ مقسومةٌ على الطبائع الأربع، فيصيبُ كلُّ واحد منها ثلاثةُ بُروجٍ، فالحَمَلُ والأَسَدُ والقَوسُ مثلثةٌ ناريةٌ، والثورُ والسنبلةُ والجديُ مثلثةٌ أرضيةٌ، والجوزاءُ والميزانُ والدلوُ مثلثةٌ هوائيةٌ، والسرطانُ والعقربُ والحوتُ مثلثةٌ مائيةٌ؛ سميت بالبروج التي هي القصورُ العاليةُ؛ لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانِها، واشتقاقُ البروجِ من التبرجِ؛ لظهوره عنه، قال الحسنُ وقتادةُ ومجاهدٌ: البروجُ هي: النجومُ الكبارُ؛ لظهورها، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾: في السماءِ ﴿سِرَٰجًا﴾ يعني: الشمسَ لتوقدِها، ﴿سُرُجاً﴾: حمزةُ وعليٌّ؛ أي: نجوماً، ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾: مضيئاً بالليل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ....

«٦٢» ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾: (فِعلة) مِن: خَلَفَ، كالرِّكبةِ من: رَكِبَ، وهي الحالةُ التي يَخلُفُ عليها الليلُ والنهارُ كلٌّ واحدٍ منهما الآخرَ؛ والمعنى: جعلهما ذوي خِلفةٍ يخلُفُ أحدُهما الآخرَ عند مُضِيِّهِ، أو يخلُفه في قضاءِ ما فاته من الوِرْدِ[1]، ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾: يتدبرَ في تسخيرهما واختلافِهما فيعرفَ مدبرَهما، ﴿يَذْكُرَ﴾: حمزةُ وخلفٌ[2]؛ أي: يذكرَ اللهَ أو المنسيَّ فيقضيَ، ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾: أن يشكرَ نعمةَ ربه عليه فيهما.

«٦٣» ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾، أو: (أولئك يجزون)، و(الذين يمشون) وما بعدهما: صفةٌ، والإضافةُ إلى الرحمن للتخصيص والتفضيل، وَصَفَ أولياءَه بعدَ ما وصفَ أعداءَه، ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾: حالٌ، أو: صفةٌ للمشي؛ أي: هَيِّنِين، أو مشياً هيِّناً، والهَوْنُ: الرفقُ واللِّينُ؛ أي: يمشون بسكينة ووقار وتواضع دون مَرَحٍ واختيالٍ وتكبرٍ، فلا يضربون بأقدامهم، ولا يَخفِقون بنعالهم أَشراً وبطراً، ولذا كره بعضُ العلماء الركوبَ في الأسواق، ولقوله: ﴿وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي: السفهاءُ بما يكرهون ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾: سَداداً من القول يَسلمون فيه من الإيذاء والإثم، أو: تَسلُّماً منكم نُتارككم ولا نُجاهلُكم، فأقيم السلامُ مُقامَ التَّسلُّم[3]، وقيل: نسختْها آيةُ القتال، ولا حاجة إلى ذلك فالإغضاءُ عن السفهاء مستحسَنٌ شرعاً ومروءةً، هذا وصفُ نهارِهم، ثم وصف ليلَهم بقوله:

«٦٤» ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا﴾: جمعُ ساجدٍ، ﴿وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾: جمعُ قائمٍ، والبيتوتةُ: خلافُ الظُّلول، وهي: أن يدركك الليلُ، نِمتَ أو لم تَنَمْ، وقالوا: من قرأ شيئاً من القرآن في صلاة وإن قلَّ.. فقد بات ساجداً وقائماً، وقيل: هما الركعتان بعد المغرب، والركعتان بعد العشاء، والظاهرُ أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثرِه.

«٦٥» ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾: هلاكاً لازماً، ومنه الغريمُ؛ لملازمته، وصفَهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، ثم عقَّبه بذكر دعوتِهم هذه إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله في صرف العذاب عنهم.

---

(١) أي: مَن فاته في أحدهما وِردُه من العبادة.. قام به في الآخر.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٨).

(٣) فعلى هذا الوجه: (سلاماً): مفعول مطلق لفعل محذوف؛ أي: نتسلم منكم تسلماً.

إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ....

«٦٦» ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ أي: إن جهنم، و(ساءت) في حكم: بئست، وفيها ضميرٌ مبهمٌ يفسرُه: (مستقرّاً)، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ؛ معناه: ساءت مستقرّاً ومقاماً هي، وهذا الضميرُ هو الذي ربطَ الجملةَ باسم (إن)، وجعلها خبراً لها، أو: بمعنى: أَحْزَنَتْ، وفيها ضميرٌ اسمُ (إن)، و(مستقراً): حالٌ، أو تمييزٌ، ويصحُّ أن يكون التعليلان متداخلين ومترادفين[١]، وأن يكونا من كلام الله تعالى، وحكايةً لقولهم.

«٦٧» ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾: لم يُجاوزوا الحدَّ في النفقة، أو: لم يأكلوا للتنعم، ولم يَلبَسُوا للتصلُّف[٢]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لم ينفقوا في المعاصي. فالإسرافُ مجاوزةُ حدِّ الأمرِ لا مجاوزةُ القَدْرِ، وسمع رجلٌ رجلاً يقول: لا خيرَ في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير، وقال عليه الصلاة والسلام: «من منع حقّاً.. فقد قتَّرَ، ومن أعطى في غير حقٍّ.. فقد أسرف»[٣]، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾: بضم التاء: كوفيٌّ، وبضم الياء وكسر التاء: مدنيٌّ وشاميٌّ، وبفتح الياء وكسر التاء: مكيٌّ وبصريٌّ[٤]، والقَتْرُ والإقتارُ والتقتيرُ: التضييقُ الذي هو نقيضُ الإسراف، ﴿وَكَانَ﴾ إنفاقُهم ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الإسرافِ والإقتارِ ﴿قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ أي: عدلاً بينهما، فالقَوامُ: العدلُ بين الشيئين، والمنصوبان؛ أي: (بين ذلك قواماً): خبران، وصفَهم بالقصد الذي هو بين الغُلُوِّ والتقصير، وبمثله أُمر عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] الآيةَ، وسأل عبدُ الملك بنُ مروان عمرَ بنَ عبد العزيز عن نفقته حين زوَّجه ابنته فقال: الحسنةُ بين السيئتين، فعرف عبدُ الملك أنه أراد ما في هذه الآية، وقيل: أولئك أصحابُ محمد عليه الصلاة والسلام، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يَلبَسون ثيابهم للجمال والزينة، ولكن لسدِّ الجَوْعَةِ، وسَترِ العورةِ، ودفعِ الحرِّ والقَرِّ، وقال عمرُ رضي الله عنه: كفى سرفاً ألا يشتهيَ الرجلُ شيئاً إلا أكله[٥].

---

(١) التعليلان: (إن عذابها كان غراماً)، و(إنها ساءت مستقرّا ومقاماً)، فإن كان الثاني تعليلاً للأول.. فهما متداخلان، وإن كان كلاهما تعليلاً لطلب صرف العذاب.. فهما مترادفان.

(٢) التصلف: التكبر.

(٣) لم أجده.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٨).

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٤٥٨).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠)﴾ ....

《٦٨》 ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: لا يشركون، ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: حرمها؛ يعني: قتلَها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: بِقَوَدٍ أو رَجم أو رِدَّةٍ أو شركٍ أو سعيٍ في الأرض بالفساد، وهو متعلقٌ بالقتل المحذوف[1]، أو: بـ(لا يقتلون)، ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ ونَفْيُ هذه الكبائر عن عباده الصالحين تعريضٌ لما كان عليه أعداؤُهم من قريش وغيرِهم، كأنه قيل: والذين طهَّرهم الله مما أنتم عليه، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور ﴿يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)﴾: جزاءَ الإثم.

《٦٩》 ﴿يُضَاعَفْ﴾: بدلٌ من (يلق)؛ لأنهما في معنىً واحدٍ؛ إذ مضاعفةُ العذاب هي لقاءُ الآثام، كقوله[2]: [من: الطويل]

متى تأتنا تُلمم بنا في ديارنا ... تجدْ حطباً جزلاً وناراً تأجَّجا

فجزم (تلمم)؛ لأنه بمعنى: (تأتنا)؛ إذ الإتيان هو الإلمامُ، ﴿يُضَعَّفْ﴾: مكيٌّ ويزيدُ ويعقوبُ، ﴿يُضَعَّفُ﴾: شاميٌّ، ﴿يُضاعَفُ﴾: أبو بكر[3]؛ على الاستئناف، أو على الحال، ومعنى يضاعف ﴿لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أنْ يُعَذَّبَ على مُرور الأيام في الآخرة عذاباً على عذاب، وقيل: إذا ارتكب المشركُ معاصيَ مع الشركِ.. عُذِّبَ على الشرك وعلى المعاصي جميعاً، فتُضاعَفُ العقوبةُ لمضاعفة العذاب المعاقَبِ عليه، ﴿وَيَخْلُدْ﴾: جَزَمَهُ جازِمُ (يضاعف)، ورَفَعَه رافِعُه؛ لأنه معطوف عليه، ﴿فِيهِ﴾: في العذاب، ﴿فيهِۦ﴾: مكيٌّ وحفصٌ بالإشباع[4]، وإنما خَصَّ حفصٌ الإشباع بهذه الكلمة؛ مبالغةً في الوعيد، والعربُ تمدُّ للمبالغة، مع أن الأصل في هاء الكنايةِ الإشباعُ، ﴿مُهَانًا (٦٩)﴾: حالٌ؛ أي: ذليلاً.

《٧٠》 ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن الشرك، وهو استثناءٌ من الجنس في موضع النصب، ﴿وَآمَنَ﴾ بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام، ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ بعد توبتِه ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أي: يوفقُهم للمحاسن بعد القبائح، أو: يمحوها بالتوبة ويثبتُ مكانَها الحسناتِ

---

(١) أي: إلا قتلاً بالحق.

(٢) البيت لعبيد الله بن الحُرِّ. انظر «خزانة الأدب» للبغدادي (٩/ ٩٠).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٨).

(٤) انظر المرجع السابق (ص ٢٢٩).

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ۝٧٢ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣﴾ ....

الإيمانَ والطاعةَ، ولم يُرد به أن السيئة بعينِها تصيرُ حسنةً، ولكن المراد ما ذكرنا[١]، ﴿يُبْدِلُ﴾: مخففاً: البُرجُمي[٢]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ يكفرُ السيئاتِ، ﴿رَّحِيمًا ۝٧٠﴾ يبدلُها بالحسنات.

《٧١》 ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾ أي: ومن تاب وحقق التوبةَ بالعمل الصالح.. فإنه بذلك تائب إلى الله تعالى متاباً مرضيّاً عنده، مكفراً للخطايا، محصِّلاً للثواب.

《٧٢》 ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: الكذبَ؛ يعني: ينفُرُون عن محاضرِ الكذابين، ومجالسِ الخطّائين، فلا يقرَبونها؛ تنزهاً عن مخالطة الشرِّ وأهلِه؛ إذ مشاهدةُ الباطلِ شَرِكَةٌ فيه، ولذلك قيل في النَّظّارة إلى ما لم تُسوغه الشريعةُ: هم شركاء فاعليه في الآثام؛ لأن حضورهم ونظرَهم دليلُ الرضا به، وسببُ وجود الزيادة فيه، وفي مواعظِ عيسى عليه السلام: إياكم ومجالسةَ الخاطئين. أو: لا يشهدون شهادةَ الزورِ؛ على حذف المضاف، وعن قتادة: المرادُ مجالسُ الباطل، وعن ابن الحنفية: لا يشهدون اللهوَ والغناءَ، ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾: بالفحشِ وكلِّ ما ينبغي أن يُلغَى ويُطرَحَ؛ والمعنى: وإذا مرُّوا بأهل اللغو والمشتغلين به ﴿مَرُّواْ كِرَامًا ۝٧٢﴾: معرضين عنه مكرِّمين أنفسَهم عن التلوث به، كقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]، وعن الباقر رضي الله عنه: إذا ذكروا الفروجَ.. كَنَّوا عنها.

《٧٣》 ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: قرئ عليهم القرآنُ، أو وُعِظُوا بالقرآن ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣﴾ هذا ليس بنفيٍ للخُرورِ، بل هو إثباتٌ له ونفيٌ للصَّمَمِ والعمَى، ونحوُه: لا يلقاني زيدٌ مُسلِّماً، هو نفيٌ للسلام لا للقاء؛ يعني: أنهم إذا ذُكروا بها.. خرُّوا سجداً وبُكيّاً، سامعين بآذان واعية، مبصرين بعيون راعية لما أُمروا به ونُهوا عنه، لا كالمنافقين وأشباههم؛ دليلُه: قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

---

(١) روى مسلم (١٩٠) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه حديثَ آخرِ أهل الجنة دخولاً، وفيه: «فإن لك مكان كل سيئة حسنة»، ورواه أبو عوانة في «المستخرج» (١/١٤٦) وزاد فيه: ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾.

(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٩٣) ولم ينسبها للبرجمي، وهي شاذة.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ....

《٧٤》 ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾ (مِن): للبيان، كأنه قيل: هبْ لنا قرة أعين، ثم بُينت القُرةُ وفُسرت بقوله: (من أزواجنا) ﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ ومعناه: أن يجعلهم الله لهم قرةَ أعين، وهو من قولهم: رأيت منك أسداً؛ أي: أنت أسدٌ، أو: للابتداء؛ على معنى: هب لنا من جهتِهم ما تَقَرُّ به عيونُنا من طاعة وصلاح، ﴿وَذُرِّيَّتِنا﴾: أبو عمرٍو وكوفيٌّ غيرَ حفص؛ لإرادة الجنس، وغيرُهم: ﴿ذرياتنا﴾[1]، ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ وإنما نَكَّرَ؛ لأجل تنكير القُرَّةِ، لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنه قال: هبْ لنا منهم سروراً وفرحاً، وإنما قيل: (أعين) على القلة دون: عيون؛ لأن المراد أعينُ المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرِهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ويجوز أن يقال في تنكير (أعين): إنها أعينٌ خاصةٌ وهي أعينُ المتقين[2]؛ والمعنى: أنهم سألوا ربَّهم أن يرزقَهم أزواجاً وأعقاباً عُمّالاً لله تعالى، يُسَرُّون بمكانهم، وتَقَرُّ بِهم عيونُهم، وقيل: ليس شيءٌ أقرَّ لِعَيْنِ المؤمن مِن أن يَرى زوجتَه وأولادَه مطيعين لله تعالى، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هو الولد إذا رآه يكتب الفقه، ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ أي: أئمةً يَقتدون بنا في الدين، فاكتُفِيَ بالواحد؛ لدلالته على الجنس، ولعدم اللبس، أو: واجعل كلَّ واحد منا إماماً، قيل: في الآية ما يدلُّ على أن الرياسة في الدين يجب أن تُطلبَ ويُرغبَ فيها.

《٧٥》 ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ أي: الغرفاتِ، وهي العلالي في الجنة، فوَحَّد اقتصاراً على الواحد الدالِّ على الجنس؛ دليلُه قولُه: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾: بصبرهم على الطاعات، وعن الشهوات، وعلى أذى الكفار، وعلى مجاهدتِهم، وعلى الفقرِ وغيرِ ذلك، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ ﴿وَيَلْقَوْنَ﴾: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ[3]، ﴿تَحِيَّةً﴾: دعاءً بالتعمير، ﴿وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾: ودعاءً بالسلامة؛ يعني: أن الملائكة يُحيونهم ويسلمون عليهم، أو: يحيي بعضُهم بعضاً ويُسلمُ عليه.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٩).
(٢) إذْ لو عرفت بأل.. لاستغرقت كل العيون.
(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٩).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۝٧٦ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ۝٧٧﴾

《٧٦》 ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾: حالٌ، ﴿حَسُنَتۡ﴾ أي: الغرفةُ، ﴿مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۝٧٦﴾: موضعَ قرارٍ وإقامةٍ، وهي في مقابلة: ﴿سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾.

《٧٧》 ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ (ما): متضمنةٌ لمعنى الاستفهام، وهي في محّل النصب؛ ومعناه: ما يصنعُ بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام؟ أو: لولا عبادتُكم له؟ أي: أنه خلقكم لعبادته، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: الاعتبارُ عند ربكم لعبادتكم، أو: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهةً؟ وهو كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ﴾ [النساء: ١٤٧] ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾ رسولي يا أهل مكة، ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ﴾ العذابُ ﴿لِزَامَۢا ۝٧٧﴾ أي: ذا لِزامٍ، أو مُلازماً، وُضِعَ مَصدرُ لازمَ موضعَ اسم الفاعل، وقال الضحاك: (ما يعبأ): ما يبالي بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه إلهاً آخرَ.



﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ....

سورة الشعراء

مكيةٌ إلا ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ...﴾ إلى آخر السورة، وهي مئتان وعشرون وسبعُ آياتٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ و﴿طسٓ﴾ و﴿يسٓ﴾ و﴿حمٓ﴾: ممالةٌ: كوفيٌّ غيرَ الأعشى والبُرجُميِّ وحفصٍ[١]، ويُظهرُ النونَ عند الميم: يزيدُ وحمزةُ، وغيرُهما: يدغمها[٢].

《٢》 ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾﴾: الظاهرِ إعجازُه وصحةُ أنه من عند الله؛ والمراد به السورة أو القرآن؛ والمعنى: آياتُ هذا المؤلَّفِ من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين.

《٣》 ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ﴾: قاتلٌ، و(لعل) للإشفاق، ﴿نَّفۡسَكَ﴾ من الحزن؛ يعني: أَشفِقْ على نفسك أن تقتلَها حسرةً وحزناً على ما فاتك من إسلام قومك، ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾﴾: لئلا يؤمنوا، أو: لا متناع إيمانهم، أو: خيفةَ ألا يؤمنوا.

《٤》 ﴿إِن نَّشَأۡ﴾ إيمانَهم ﴿نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾: دلالةً واضحةً ﴿فَظَلَّتۡ﴾ أي: فتظلُّ؛ لأن الجزاء يقع فيه لفظ الماضي في معنى المستقبل؛ تقول: إن زُرتَني.. أكرمتُك؛ أي: أُكرمُك، كذا قاله الزجاجُ[٣]، ﴿أَعۡنَٰقُهُمۡ﴾: رؤساؤُهم ومقدَّمُوهم، أو جماعاتُهم؛ يقال: جاءنا عُنُقٌ من الناس، لِفوجٍ منهم[٤]، ﴿لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾: منقادين، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت فينا وفي بني أمية، فتكون لنا عليهم الدولةُ فتذلُّ لنا أعناقُهم بعد صعوبةٍ، ويلحقُهم هَوانٌ بعد عِزَّةٍ[٥].

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ٢٣١)، و(ص ٢٣٥)، و(ص ٢٦٥)، و(ص ٢٧٩).

(٢) سكت يزيدُ على حروف الهجاء الثلاثة من غير تنفس، وحمزةُ أظهر النون. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٢٩)، و(ص ٢٣١).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٨٢).

(٤) إنما حمل الأعناق على هذين المعنيين لأنه أخبر عنها بـ(خاضعين) وهو لجماعة العقلاء، ولكن يمكن حملُها على المعنى الظاهر ويكون الأصل: فظلوا لها خاضعين، ثم زيدت الأعناقُ لبيان موضع الخضوعِ، وتُرك الخبر على أصله، أو نقول: لما وُصفت الأعناقُ بصفات العقلاء.. أُجريت مُجراهم. انظر «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٣٣).

(٥) قال في «التحرير والتنوير» (١٩/ ٩٧): وهذا من تحريف كَلِم القرآنِ عن مواضعه، ونُحاشِي ابنَ عباسٍ رضي الله عنه أن يقوله وهو الذي دعا له رسول الله ﷺ بأن يعلمه التأويل... والقرآنُ أَجلُّ مِن أن يَتعرَّضَ لهذه السفاسف.

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ....

《٥》 ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ أي: وما يُجددُ اللهُ لهم بوحْيه موعظةً وتذكيراً إلا جَدَّدُوا إعراضاً عنه وكفروا به.

《٦》 ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ محمداً ﷺ فيما أتاهم به، ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾: فسيعلمون ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾: أخبارُ ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾ وهذا وعيدٌ لهم وإنذارٌ بأنهم سيعلمون إذا مسَّهم عذابُ الله يوم بدر أو يوم القيامة ما الشيءُ الذي كانوا يستهزؤون به، وهو القرآن، وسيأتيهم أنباؤه وأحواله التي كانت خافيةً عليهم.

《٧》 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا﴾ (كم): نصبٌ بـ(أنبتنا)، ﴿فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾: صنفٍ من النبات، ﴿كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾: محمودٍ كثيرِ المنفعةِ، يأكلُ منه الناس والأنعام، كالرجل الكريم الذي نفعُه عامٌّ، وفائدةُ الجمع بين كلمتي الكثرة والإحاطة: أن كلمة (كل) تدلُّ على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل، و(كم) تدلُّ على أن هذا المحيط متكاثرٌ مُفْرِطُ الكثرة، وبه نبَّهَ على كمال قدرته.

《٨》 ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ أي: إن في إنبات تلك الأصناف لآيةً على أن مُنبتها قادرٌ على إحياء الموتى، وقد علم الله أن أكثرهم مطبوعٌ على قلوبهم، غيرُ مُرَجّىً إيمانُهم.

《٩》 ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من الكفرة، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ لمن آمن منهم، وَوَحَّدَ (آية) مع الإخبار بكثرتها؛ لأن (ذلك) مشارٌ به إلى مصدر (أنبتنا)، أو: المرادُ: إنَّ في كل واحدة من تلك الأزواج لآيةً أيَّ آيةٍ.

《١٠ - ١١》 ﴿وَإِذْ﴾: مفعولٌ به؛ أي: اذكر إذْ ﴿نَادَىٰ﴾: دعا ﴿رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ﴾ (أنْ) بمعنى: أَيْ، ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ أنفسهم بالكفر، وبني إسرائيلَ بالاستعباد وذبحِ الأولادِ، سجَّلَ عليهم بالظلم، ثم عطفَ ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ عليهم عطفَ البيان، كأن معنى: القوم الظالمين وترجمتَه: قومُ فرعون، وكأنهما عبارتان تَعتقِبان على مؤدّىً واحدٍ، ﴿أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: ائتِهم زاجراً؛ فقد آن لهم أن يتقوا، وهي كلمةُ حثٍّ وإغراءٍ، ويحتمل أنه حالٌ من الضمير في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يظلمون غيرَ متقين الله وعقابَه، فأدخلت همزةُ الإنكار على الحال.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ ....

《١٢》 ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ الخوفُ: غمٌّ يَلحقُ الإنسان لأمر سيقع، ﴿أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾.

《١٣》 ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي﴾ بتكذيبهم إياي، مستأنفٌ أو عطفٌ على (أخاف)، ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ بأن تَغلبَني الحميَّةُ على ما أرى من المُحَالِ[1]، وأسمعَ من الجدال، وينصبُهما: يعقوبُ[2]؛ عطفاً على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾ فالخوفُ متعلقٌ بهذه الثلاثة على هذا التقدير، وبالتكذيب وحدَه بتقدير الرفعِ، ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: أرسل إليه جبريلَ، واجعلْه نبيّاً يُعينُني على الرسالة، وكان هارون بمصرَ حين بُعث موسى نبيّاً بالشام، ولم يكن هذا الالتماسُ من موسى عليه السلام تَوقُّفاً في الامتثال، بل التماسَ عونٍ في تبليغ الرسالة، وتمهيدُ العذر على التماسِ المعينِ على تنفيذ الأمر ليس بتوقفٍ في امتثال الأمر، وكفى بطلب العون دليلاً على التقبُّل لا على التعلُّل.

《١٤》 ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾ أي: تَبِعَةُ ذنبٍ بقتل القِبطيِّ، فحذف المضاف، أو: سَمَّى تبعةَ الذنب ذنباً، كما سَمَّى جزاءَ السيئةِ سيئةً، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ أي: يقتلوني به قِصاصاً، وليس هذا تعللاً أيضاً، بل استدفاعٌ للبلية المتوقَّعةِ، وفَرَقٌ مِن أن يُقتلَ قبلَ أداءِ الرسالة، ولذا وعده بالكلاءة والدفع بكلمة الردعِ، وجمعَ له الاستجابتين معاً في قوله:

《١٥》 ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا﴾ لأنه استدفعه بلاءَهم، فوعدَه اللهُ الدفعَ بردعِه عن الخوف، والتمس منه رسالةَ أخيه، فأجابه بقوله: اذهبا؛ أي: جعلتُه رسولاً معك فاذهبا، وعُطِفَ (فاذهبا) على الفعل الذي يدلُّ عليه (كلا)، كأنه قيل: ارتدعْ يا موسى عمّا تَظُنُّ فاذهبْ أنت وهارونُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: مع آياتنا، وهي اليدُ والعصا وغيرُ ذلك، ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ أي: معكما بالعَونِ والنصرةِ، ومع مَن أُرسلتما إليه بالعلم والقدرة، ﴿مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾: خبرٌ لـ(إنَّ) و(معكم): لغوٌ[3]، أو: هما

---

(١) المُحَالُ: الباطل.

(٢) أي: نصب (يضيقَ) و(لا ينطلقَ). انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٠).

(٣) أي: متعلق بـ(مستمعون)، وسمي لغواً لأنه لا يتحمل ضميراً، والظرفُ الذي يتحمل ضميراً يسمى مستقرّاً، وهو المتعلّق بمحذوف، نحو: زيدٌ عندك، حُذف الخبرُ فانتقل ضميرُه إلى الظرف. انظر «حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك» (١/ ٢٩٣)، وقال ابنُ يعيشَ في «شرح المفصل» (٤/ ٣٧٠): سيبويه كان يسمي الظرف والجار والمجرور متى وقع واحدٌ منهما خبراً.. مستقرّاً؛ لأنه يقدر بـ: استقر، ومتى لم يكن خبراً.. سماه لغواً.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ ....

خبران؛ أي: سامعون، والاستماعُ في غير هذا: الإصغاءُ للسماع، يقال: استمع إلى حديثِه؛ أي: أصغَى إليه، ولا يجوزُ حملُه ههنا على ذلك، فحُمل على السماع.

《١٦》 ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ لم يُثَنِّ الرسولَ كما ثَنَّى في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]؛ لأن الرسول يكون بمعنى المرسَلِ، وبمعنى الرسالة(١)، فجعل ثَمَّةَ بمعنى المرسَلِ، فلم يكن بُدٌّ مِن تثنيتِه، وجعل هنا بمعنى الرسالة، فيستوي في الوصف به الواحدُ والتثنيةُ والجمعُ، ولأنهما لاتحادهما واتفاقهما على شريعة واحدة كأنهما رسولٌ واحدٌ، أو: أُريدَ: إنَّ كلَّ واحدٍ منّا.

《١٧》 ﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ بمعنى أي: أرسلْ؛ لتضمن الرسول معنى الإرسال، وفيه معنى القول، ﴿مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ يريدُ: خَلِّهم يذهبوا معنا إلى فِلَسطينَ، وكانت مسكنَهما، فأَتيا بابَه، فلم يُؤذنْ لهما سنةً، حتى قال البواب: إن ههنا إنساناً يزعُم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له؛ لعلنا نضحكُ منه، فأدَّيا إليه الرسالةَ فعرف فرعونُ موسى، فعند ذلك:

《١٨》 ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ وإنما حُذِفَ: فأَتيا فرعون فقالا له ذلك؛ اختصاراً، والوليدُ: الصبيُّ لِقربِ عهدِه من الولادة؛ أي: ألم تكن صغيراً فربَّيْناك، ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ قيل: ثلاثين سنةً.

《١٩》 ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ يعني: قَتْلَ القِبطيِّ، فعرَّضَ إذْ كان مَلِكاً، ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ بنعمتي؛ حيث قتلتَ خبّازي، أو: كنتَ على ديننا الذي تُسمِّيه كفراً، وهذا افتراءٌ منه عليه؛ لأنه معصوم من الكفر، وكان يُعايشُهم بالتَّقِيَّة.

《٢٠》 ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي: إذْ ذاك، ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾: الجاهلين بأنها تبلغُ القتلَ، والضالُّ عن الشيء هو: الذاهبُ عن معرفته، أو: الناسِين؛ من قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فدفع وصفَ الكفرِ عن نفسه، ووضع (الضالين) موضع (الكافرين)، و(إذاً): جوابٌ وجزاءٌ معاً، وهذا الكلامُ وقع جواباً لفرعونَ وجزاءً له؛ لأن قول فرعون: (وفعلت فعلتك) معناه: أنك جازيت نعمتي بما فعلتَ، فقال له موسى: نعم فعلتُها مجازياً لك؛ تسليماً لقوله؛ لأن نعمته كانت جديرةً بأن تُجازى بنحو ذلك الجزاء.

---

(١) فيكون مصدراً.

فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ....

《٢١》 ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ إلى مدينَ ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أن تقتلوني، وذلك حين قال له مؤمن مِن آل فرعون: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ...﴾ [القصص: ٢٠] الآية، ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾: نبوة وعِلماً، فزال عني الجهلُ والضلالةُ، ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾: من جملة رسلِه.

《٢٢》 ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ كرَّ على امتنانه عليه بالتربية فأبطلَه من أصله، وأَبى أن تُسمَّى نعمتَه إلا نِقمةً؛ حيث بيَّن أن حقيقة إنعامه عليه تعبيدُ بني إسرائيلَ؛ لأن تعبيدَهم وقصدَهم بذبح أبنائهم هو السببُ في حصوله عنده وتربيتِه، ولو تركهم.. لربّاه أبواه، فكأن فرعون امتنَّ على موسى بتعبيد قومِه، وإخراجِه من حِجْرِ أبويه إذا حَقَّقْتَ، وتعبيدُهم: تذليلُهم واتخاذُهم عبيداً، ووحَّدَ الضمير في (تمنُّها) و(عبَّدت)، وجمعَ في (منكم) و(خفتكم)؛ لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحدَه، ولكن منه ومن ملتِه المؤتمرين بقتله؛ بدليل قوله: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]، وأما الامتنانُ.. فمنه وحده، وكذا التعبيدُ، و(تلك): إشارةٌ إلى خَصلةٍ شنعاءَ مبهمةٍ لا يُدرى ما هي إلا بتفسيرها، ومحلُّ (أن عبدت): الرفعُ عطفُ بيانٍ لـ(تلك) أي: تعبيدُك بني إسرائيلَ نعمةٌ تمنُّها عليَّ؟

《٢٣》 ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: إنك تدعي أنك رسول ربِّ العالمين، فما صفتُه؟ لأنك إذا أردتَ السؤال عن صفة زيد.. تقول: ما زيدٌ؟ تعني: أطويلٌ أم قصيرٌ؟ أفقيهٌ أم طبيبٌ؟ نصَّ عليه صاحبُ «الكشاف» وغيرُه[1].

《٢٤》 ﴿قَالَ﴾ موسى مجيباً له على وَفْقِ سؤالِه: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: وما بين الجِنسين، ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل.. فكفى خلقُ هذه الأشياءِ دليلاً، أو: إن كان يُرجَى منكم الإيقانُ الذي يؤدي إليه النظرُ الصحيحُ.. نفعكم هذا الجوابُ، وإلا.. لم ينفعْ، والإيقانُ: العلمُ الذي يستفادُ بالاستدلال، ولذا لا يقال: اللهُ مُوقِنٌ.

《٢٥ - ٢٦》 ﴿قَالَ﴾ أي: فرعونُ ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ من أشرافِ قومِه وهم خمسُ مئةِ رجلٍ، عليهم الأساورُ، وكانت للملوك خاصةً: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ معجِّباً قومَه من جوابه؛ لأنهم يزعُمون قدمَهما، وينكرون حدوثَهما، وأن لهما ربّاً، فاحتاج موسى إلى أن يستدلَّ بما شاهدُوا

---

(١) انظر «الكشاف» (٣/ ٢٧٣).

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ....

حدوثَه وفناءَه فاستدلَّ حيث ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: هو خالقُكم وخالقُ آبائِكم، فإن لم تستدلُّوا بغيركم.. فبأنفسكم، وإنما قال: ربُّ آبائِكم؛ لأن فرعون كان يدعي الربوبيةَ على أهل عصرِه دون من تقدمَهم.

《٢٧》 ﴿قَالَ﴾ أي: فرعونُ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ حيث يزعم أن في الوجود إلهاً غيري، وكان ينكرُ إلهية غيرِه.

《٢٨》 ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فتستدلون بما أقول، فتعرفون ربَّكم، وهذا غاية الإرشاد، حيث عمَّمَ أوّلاً بخلق السموات والأرض وما بينهما، ثم خَصَّصَ من العام للبيان أنفسَهم وآباءَهم؛ لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسُه ومن وُلِدَ منه، وما شاهد من أحواله من وقت ميلاده إلى وقت وفاتِه، ثم خصَّصَ المشرقَ والمغربَ؛ لأن طلوع الشمس من أحد الخافِقَين[1]، وغروبَها في الآخر على تقديرٍ مستقيمٍ في فصول السنة، وحسابٍ مُستوٍ.. من أظهر ما استدَلَّ به، ولظهوره انتقلَ إلى الاحتجاج به خليلُ الرحمن عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نُمرودَ بنِ كنعانَ، وقيل: سأله فرعونُ عن الماهية جاهلاً عن حقيقة سؤاله، فلما أجاب موسى بحقيقة الجواب.. وقع عنده أن موسى حادَ عن الجواب؛ حيث سأله عن الماهية، وهو يجيبُ عن ربوبيته وآثارِ صُنْعِه، فقال معجِّباً لهم من جواب موسى: ألا تستمعون؟ فعاد موسى إلى مثل قولِه الأولِ، فجنَّنه فرعونُ زاعماً أنه حائد عن الجواب، فعاد ثالثاً إلى مثل كلامه الأولِ مُبَيِّناً أن الفردَ الحقيقيَّ إنما يُعرفُ بالصفات، وأن السؤال عن الماهية مُحالٌ، وإليه الإشارة في قوله تعالى: (إن كنتم تعقلون) أي: إن كان لكم عقلٌ.. علمتم أنه لا تُمكنُ معرفته إلا بهذا الطريق، فلما تحيَّر فرعون ولم يتهيأْ له أن يدفع ظهورَ آثارِ صنعه:

《٢٩》 ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ أي: غيري إلهاً ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لأجعلنك واحداً ممن عرفتَ حالَهم في سجوني، وكان من عادته أن يأخذ من يريدُ سجنَه فيطرحَه في هُوَّةٍ ذاهبة في الأرض، بعيدةِ العُمقِ، فرداً لا يُبْصِرُ فيها ولا يَسمع، فكان ذلك أشدَّ من القتل، ولو قيل: لأسجننك.. لم يؤدِّ هذا المعنى وإن كان أخصرَ.

---

(١) **الخافقان**: المشرقُ والمغربُ، وهذا تغليب؛ لأن الخافق هو الغائب، وهو المغرب، فغلبوا المغرب على المشرق، فقالوا: الخافقان.

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ....

«٣٠» ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ الواوُ: للحال، دخلت عليها همزةُ الاستفهام؛ أي: أتفعلُ بي ذلك ولو جئتُك ﴿بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: جائياً بالمعجزة.

«٣١» ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ﴾: بالذي يُبيِّنُ صِدقَكَ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ أن لك بينةً، وجوابُ الشرط مقدرٌ؛ أي: فأحضرْه.

«٣٢» ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾: ظاهرُ الثُّعبانيةِ لا شيءٌ يشبه الثعبان، كما تكون الأشياء المزورة بالشعوذة والسحر، وروي: أن العصا ارتفعت في السماء قدرَ مِيلٍ، ثم انحطَّتْ مقبلةً على فرعون وجعلت تقول: يا موسى مُرني بما شئت، ويقول فرعون: أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتَها، فأخذها فعادت عصاً.

«٣٣» ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾: فيه دليلٌ على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النَّظَّارةُ على النظر إليه؛ لخروجه عن العادة، وكان بياضها نُوريّاً، روي: أن فرعون لما أبصر الآية الأولى.. قال: فهل غيرُها؟ فأخرج يده، فقال لفرعون: ما هذه؟ قال فرعون: يدُك، فأدخلها في إبْطِهِ ثم نزعها ولها شعاعٌ يَكادُ يُغشي الأبصار ويَسدُّ الأفق.

«٣٤» ﴿قَالَ﴾ أي: فرعونُ ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ هو: منصوبٌ نصبين: نصبٌ في اللفظ، والعامل فيه ما يُقَدَّرُ في الظرف، ونصبٌ في المحل، وهو النصب على الحال من (الملأ) أي: كائنين حولَه، والعاملُ فيه: (قال)[1]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ بالسحر، ثم أغرى قومَه على موسى بقوله:

«٣٥» ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا﴾: منصوبٌ؛ لأنه مفعول به؛ من قولك: أمرتُك الخيرَ، ﴿تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾: تُشيرون في أمره من حبس أو قتل؛ من المؤامرةِ، وهي: المشاورة، أو: من الأمرِ الذي هو ضدُّ النهيِ، لما تحيَّرَ فرعونُ برؤية الآيتين، وزال عنه ذكرُ دعوى الإلهية، وحطَّ عن منكبيه كبرياءَ الربوبية، وارتعدت فرائصُه خوفاً.. طَفِقَ يُؤامرُ قومَه الذين هم بزعمه عبيدُه وهو إلهُهم، أو: جعلهم آمرين ونفسَه مأموراً.

---

(١) الأوضح أن يقال: (حولَه): ظرفٌ متعلق بحال محذوف، لكن لما حذف الحال.. صار الظرف كأنه هو الحال؛ فسمَّاه ظرفاً وحالاً.

قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِى ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ ....

《٣٦》 ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾: أَخِّرْ أمرَهما ولا تُباغِتْ قتلَهما خوفاً من الفتنة، ﴿وَٱبۡعَثۡ فِى ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾: شُرَطاً يَحشُرون السحرة، وعارضُوا قول فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بقولهم:

《٣٧》 ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ فجاءوا بكلمة الإحاطة، وصيغة المبالغة؛ ليسكنوا بعض قَلَقِهِ.

《٣٨》 ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي: يوم الزينة، وميقاتُه: وقتُ الضحى؛ لأنه الوقتُ الذي وَقَّتَه لهم موسى عليه السلام من يومِ الزينةِ في قوله تعالى: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]، والميقاتُ: ما وُقِّتَ به؛ أي: حُدِّدَ من زمان أو مكان، ومنه مواقيتُ الإحرام.

《٣٩》 ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: اجتمعُوا، وهو استبطاءٌ لهم في الاجتماع، والمرادُ منه استعجالُهم.

《٤٠》 ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ في دينهم ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾: إن غَلبوا موسى، ولا نتبعُ موسى في دينه، وليس غرضُهم اتباعَ السحرة، وإنما الغرض الكليُّ ألا يتبعوا موسى، فساقوا الكلام مَساقَ الكناية؛ لأنهم إذا اتبعوهم.. لم يكونوا متبعين لموسى.

《٤١ - ٤٢》 ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ﴾ وبكسر العينِ: عليٌّ[1]، وهما لغتان، ﴿وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: قال فرعون: نعم لكم أجرٌ عندي، وتكونون مع ذلك من المقربين عندي في المرتبة والجاه، فتكونون أولَ مَن يدخلُ عليَّ، وآخرَ من يخرجُ، ولما كان قولُهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ في معنى جزاء الشرط؛ لدلالته عليه، وكان قولُه: (وإنكم إذاً لمن المقربين) معطوفاً عليه.. دخلت (إذاً) قارَّةً في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء.

《٤٣》 ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ من السحر، فسوف ترون عاقبتَه.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٠).

فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ....

《٤٤》 ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ﴾: سبعين ألفَ حبلٍ، ﴿وَعِصِيَّهُمْ﴾: سبعين ألفَ عصاً، وقيل: كانت الحبال اثنين وسبعين ألفاً، وكذا العِصِيُّ، ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أقسمُوا بعزته وقوته، وهو من أيمان الجاهلية.

《٤٥》 ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾: تبتلعُ ﴿مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾: ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم، ويُزوِّرونه ويُخيِّلُون في حبالهم وعصيِّهم أنها حيات تسعى.

《٤٦》 ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ عبَّرَ عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكلة؛ لأنه ذُكر مع الإلقاءات؛ ولأنهم لسرعة ما سجدُوا.. صاروا كأنهم أُلْقُوا.

《٤٧》 ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ عن عكرمة رضي الله عنه: أصبحوا سَحَرَةً، وأمسَوا شهداءَ.

《٤٨》 ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾: عطفُ بيانٍ لـ(رب العالمين)؛ لأن فرعون كان يدَّعي الربوبيةَ، فأرادوا أن يَعزلُوه، وقيل: إن فرعون لما سمع منهم: آمنا برب العالمين.. قال: إياي عَنيتُم؟ قالوا: ربِّ موسى وهارون.

《٤٩》 ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ بذلك، ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وقد تواطأْتُم على أمرٍ ومكرٍ، ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبالَ ما فعلتُم، ثم صرَّحَ فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾: من أجل خلافٍ ظهر منكم[1]، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ كأنه أراد به ترهيبَ العامة؛ لئلا يتبعوهم في الإيمان.

《٥٠》 ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾: لا ضررَ، وخبرُ (لا) محذوفٌ؛ أي: في ذلك، أو علينا، ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

---

(١) في «تفسير الآلوسي» (٥/٢٨): (من خلاف) أي: من كل جانب عضواً مغايراً للآخر، كاليد من جانب، والرجلِ من آخر، والجارُّ في موضع الحال؛ أي: مختلفةً، والقولُ بأن (مِن) تعليلية متعلقة بالفعل؛ أي: لأجل خلافِكم بعيدٌ.

إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ......

«٥١» ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ﴾: لِأن كنا، ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ مِن أهلِ المشهدِ، أو: مِن رعيةِ فرعونَ؛ أرادُوا: لا ضررَ علينا في ذلك، بل لنا فيه أعظمُ النفع لما يحصُلُ لنا في الصبر عليه لوجه الله؛ من تكفير الخطايا، أو: لا ضيرَ علينا فيما تتوعدُنا به، إنه لا بدَّ لنا من الانقلاب إلى ربنا بسببٍ من أسباب الموت، والقتلُ أهونُ أسبابه وأرجاها، أو: لا ضيرَ علينا في قتلك، إنك إن قتلتنا.. انقلبنا إلى ربنا انقلابَ مَن يَطمعُ في مغفرته ويرجو رحمتَه؛ لما رَزَقَنا من السبق إلى الإيمان.

«٥٢» ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ﴾ وبوصل الهمزة: حجازيٌّ[1]، ﴿بِعِبَادِىٓ﴾: بني إسرائيلَ؛ سمّاهم عبادَه لإيمانهم بنبيه؛ أي: سِرْ بهم ليلاً، وهذا بعد سنين مِن إيمان السحرة، ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾: يَتَّبِعُكم فرعونُ وقومُه، عَلَّلَ الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنودِه آثارَهم؛ يعني: إني بَنيتُ، تدبيرَ أمرِكم وأمرِهم على أن تتقدمُوا ويتبعوكم حتى يدخلُوا مَدخلَكم من طريق البحر، فأُهلكُهم، وروي: أنه مات في تلك الليلة في كلِّ بيتٍ من بيوتهم ولدٌ، فاشتغلُوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه، وروي: أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن اجمعْ بني إسرائيلَ كلَّ أربعةِ أبياتٍ في بيت، ثم اذبح الجِداءَ واضربوا بدمائها على أبوابكم، فإني سآمرُ الملائكة ألا يدخلوا بيتاً على بابه دمٌ، وسآمرهم بقتلِ أبكارِ القِبْطِ، واخبِزُوا خُبزاً فَطيراً؛ فإنه أسرعُ لكم، ثم أَسْرِ بعبادي حتى تنتهيَ إلى البحر فيأتيك أمري.

«٥٣» ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾: جامعين للناس بِعُنْفٍ، فلما اجتمعوا.. قال:

«٥٤» ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ والشرذمةُ: الطائفةُ القليلةُ، ذكرهم بالاسم الدالِّ على القِلَّةِ، ثم جعلَها قليلاً بالوصف، ثم جمع القليلَ، فجعل كلَّ حزبٍ منهم قليلاً، واختار جمعَ السلامة الذي هو للقلة، وأراد بالقلة الذِّلَّةَ لا قِلَّةَ العدد؛ أي: أنهم لِقلتِهم لا يُبالَى بهم، ولا تُتَوَقَّعُ غلبتُهم، وإنما استقلَّ قومَ موسى وكانوا ستَّ مئةِ ألفٍ وسبعين ألفاً؛ لكثرة مَن معه، فعن الضحاك: كانوا سبعةَ آلافِ ألفٍ.

«٥٥» ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: إنهم يفعلون أفعالاً تَغيظُنا وتُضيِّقُ صدورَنا، وهي خروجُهم من مصرِنا، وحملُهم حُلِيَّنا، وقتلُهم أبكارَنا.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣١) وكذا القراءة الآتية.

وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ....

《٥٦》 ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾: شاميٌّ وكوفيٌّ، وغيرُهم: ﴿حَذِرُون﴾، فالحَذِرُ: المتيقظُ، والحاذرُ: الذي يُجددُ حِذْرَهُ، وقيل: المُؤْدِي في السلاح[1]، وإنما يفعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه؛ يعني: ونحن قوم من عادتنا التيقظُ والحذرُ واستعمالُ الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارجٌ.. سارعْنا إلى حسمِ فسادِه، وهذه معاذيرُ اعتذر بها إلى أهلِ المدائن؛ لئلا يُظنَّ به العجزُ والفُتور.

《٥٧》 ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ﴾: بَساتينَ، ﴿وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾﴾: وأنهارٍ جاريةٍ.

《٥٨》 ﴿وَكُنُوزٍ﴾: وأموالٍ ظاهرةٍ من الذهب والفضة، وسماها كنوزاً لأنهم لا يُنفقون منها في طاعة الله تعالى، ﴿وَمَقَامٍ﴾: ومنزلٍ ﴿كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾: بَهِيٍّ بهيجٍ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: المنابرُ.

《٥٩》 ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يحتملُ النصبَ على: أخرجناهم مثلَ ذلك الإخراجِ الذي وصفْنا، والرفعَ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: الأمرُ كذلك، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ عن الحسن: لما عَبَرُوا النهرَ.. رجعُوا وأخذُوا ديارهم وأموالهم.

《٦٠》 ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾: فأعقبوهم، ﴿فاتَّبَعُوهُمْ﴾: يزيدُ[2]، ﴿مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾: حالٌ؛ أي: داخلين في وقت شروق الشمس وهو طلوعُها؛ أي: أدرك قومُ فرعونَ موسى وقومَه وقتَ طلوع الشمس.

《٦١》 ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابلا بحيث يَرى كلُّ فريقٍ صاحبَه، والمرادُ: بنو إسرائيل والقِبْطُ ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: قَرُبَ أن يَلحقَنا عدوُّنا، وأمامَنا البحرُ.

《٦٢》 ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ثقةً بوعدِ اللهِ إياه: ﴿كَلَّآ﴾: ارتدعوا عن سوء الظن بالله فلن يدركوكم؛ ﴿إِنَّ مَعِيْ﴾ ﴿مَعِىَ﴾: حفصٌ[3]، ﴿رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ أي: سيهديني طريقَ النجاة مِن إدراكهم وإضرارِهم، ﴿سيهديني﴾: بالياء: يعقوبُ.

---

(١) يقال: آدَى: قوي بالسلاح ونحوه، فهو مُؤْدٍ، ويقال للكاملِ السلاحِ: مُؤْدٍ.

(٢) قرأ بها الحسن كما في «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤٢١) وهي شاذة.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣١) وكذا القراءة الآتية.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ....

«٦٣» ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: القَلْزَمَ أو النِّيْلَ، ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ أي: فضربَ فانفلقَ فانشقَّ فصار اثني عشرَ فِرْقاً على عدد الأسباطِ، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ أي: جُزْءٍ تفرقَ منه ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾: كالجبل المنطادِ في السماء[١].

«٦٤» ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾: حيث انفلق البحرُ ﴿ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾: قوم فرعونَ؛ أي: قَرَّبْناهم من بني إسرائيلَ، أو من البحر.

«٦٥» ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ من الغرق.

«٦٦» ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾: فرعونَ وقومَه، وفيه إبطالُ القول بتأثير الكواكب في الآجال وغيرها من الحوادث، فإنهم اجتمعوا في الهلاك مع اختلاف طوالعِهم، روي: أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل، وبين آل فرعون، فكان يقول لبني إسرائيلَ: ليلحقْ آخرُكم بأولِكم، ويستقبلُ القِبطَ فيقول: رُويدَكم يلحقْ آخرُكم بأولكم، فلما انتهى موسى إلى البحر.. قال يُوشَعُ لموسى: أين أُمرتَ؟ فهذا البحر أمامَك، وغَشِيَكَ آلُ فرعون، قال موسى: ههنا، فخاض يُوشَعُ الماءَ، وضرب موسى بعصاه البحرَ فدخلوا، وروي: أن موسى عليه الصلاة والسلام قال عند ذلك: يا مَن كان قبل كلِّ شيء، والمُكَوِّنُ لكلِّ شيء، والكائنُ بعد كل شيء.

«٦٧» ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما فعلنا بموسى وفرعون ﴿لَءَايَةً﴾: لعبرةً عجيبةً لا تُوصفُ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: المِصريِّيْن ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ قالُوا: لم يؤمن منهم إلا آسِيَةُ وحِزقِيْلُ مؤمنُ آل فرعون، ومريمُ التي دلَّت موسى على قبر يوسفَ[٢].

«٦٨» ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ بالانتقام من أعدائه، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ بالإنعام على أوليائه.

«٦٩» ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾: على مشركي قريشٍ ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾: خبرَه.

---

(١) المنطاد: الذاهبُ فِي الْهَوَاء أو الجو صاعداً.

(٢) روى ابنُ حبان في «صحيحه» (٧٢٣) قصة التي دلَّت موسى على قبر يوسفَ عليه الصلاة والسلام، ولم يُذْكَرِ اسمُها فيه.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾

《٧٠》 ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾: قومِ إبراهيمَ، أو قومِ الأبِ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: أيَّ شيء تعبدون؟ وإبراهيمُ عليه السلام يعلم أنهم عبدةُ الأصنام، ولكنه سألهم ليريَهم أن ما يعبدونه ليس بمستحقٍّ للعبادة.

《٧١》 ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وجوابُ (ما تعبدون): (أصناماً)، كـ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣]؛ لأنه سؤال عن المعبود لا عن العبادة، وإنما زادُوا: (نعبد) في الجواب؛ افتخاراً ومباهاةً بعبادتها، ولذا عطفُوا على (نعبد): ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾: فنقيمُ على عبادتها طُوْلَ النهار، وإنما قالوا: (فنظلُّ)؛ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، أو: معناه الدوام.

《٧٢》 ﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيمُ: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾: هل يسمعون دعاءَكم؛ على حذف المضاف. فحُذف؛ لدلالة: ﴿إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ عليه.

《٧٣》 ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ إن عبدتموها، ﴿أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ إن تركتُم عبادتَها.

《٧٤》 ﴿قَالُوا۟ بَلْ﴾: إضرابٌ؛ أي: لا تَسمعُ ولا تنفعُ ولا تضرُّ ولا نعبدُها لشيءٍ من ذلك، ولكن ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ فقلدْناهم.

《٧٥ - ٧٦》 ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾: الأولون.

《٧٧》 ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: الأصنامَ ﴿عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ والعدوُّ والصديقُ يجيئان في معنى الوحدةِ والجماعةِ؛ يعني: لو عبدتُّهم.. لكانوا أعداءً لي يومَ القيامة، كقوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]، وقال الفراء: هو من المقلوب؛ أي: فإني عدوُّهم، وفي قوله: (عدوٌّ لي) دون لكم: زيادةُ نصحٍ؛ ليكون أدعى لهم إلى القبول، ولو قال: فإنهم عدوٌّ لكم.. لم يكن بتلك المثابة، ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾: استثناءٌ منقطعٌ؛ لأنه لم يدخل تحت الأعداء، كأنه قال: لكنْ ربُّ العالمين.

《٧٨》 ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ بالتكوين في القَرار المكين، ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ لمناهجِ الدنيا ولمصالحِ الدينِ، والاستقبالُ في (يهديني) مع سبق العناية بالهداية؛ لأنه يحتملُ يهديني للأهم الأفضل، والأتمِّ الأكمل، أو: الذي خلقني لأسباب خدمته، فهو يهديني إلى آداب خُلَّتِه.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ....﴾

《٧٩》 ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي﴾ أضاف الإطعامَ إلى وليِّ الإنعام؛ لأن الركون إلى الأسباب عادةُ الأنعام، ﴿وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ قال ابنُ عطاء: هو الذي يُحييني بطعامه، ويُرَبِّيْني بشرابه.

《٨٠》 ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ وإنما لم يقل: أمرضَني؛ لأنه قصد الذكر بلسان الشكر، فلم يضف إليه ما يقتضي الضُّرَّ، قال ابن عطاء: وإذا مرضتُ برؤية الخلقِ ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ بمشاهدة الحقِّ، قال الصادق: إذا مرضتُ برؤية الأفعال.. فهو يشفين بكشفِ منةِ الإفضال.

《٨١》 ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ ولم يقل: إذا مِتُّ؛ لأنه الخروج من حبس البلاءِ، ودارِ الفناءِ، إلى روضِ البقاءِ لوعد اللقاءِ، وأَدخلَ (ثم) في الإحياء؛ لتراخيه عن الإفناء، وأدخلَ الفاءَ في الهدايةِ والشفاءِ؛ لأنهما يَعقُبانِ الخلقَ والمرضَ، لا مَعاً معاً.

《٨٢》 ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ﴾ طمعُ العبيدِ في الموالي بالإفضال، لا على الاستحقاق بالسؤال، ﴿أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ قيل: هو قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧] للبازغ، «هي أختي» لسارةَ[1]، وما هي إلا معاريضُ جائزةٌ، وليست بخطايا يُطلبُ لها الاستغفارُ، واستغفارُ الأنبياء تواضعٌ منهم لربهم، وهضمٌ لأنفسهم، وتعليمٌ للأمم في طلب المغفرة، ﴿يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾: يوم الجزاء.

《٨٣》 ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾: حِكمةً، أو: حُكماً بين الناس بالحق، أو: نبوة؛ لأن النبي ذو حِكمة، وذو حُكم بين عباد الله، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: الأنبياءِ، ولقد أجابه حيث قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

《٨٤》 ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: ثناءً حسناً، وذكراً جميلاً في الأمم التي تجيءُ بعدي، فأُعطيَ ذلك، فكلُّ أهلِ دينٍ يَتَوَلَّونه ويُثنون عليه، ووضع اللسانُ موضع القولِ؛ لأن القول يكون به.

《٨٥》 ﴿وَاجْعَلْنِي مِن﴾: يتعلق بمحذوف؛ أي: وارثاً من ﴿وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ أي: من الباقين فيها.

---

(١) رواه البخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ....

《٨٦》 ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ : اجعلْه أهل المغفرة بإعطاء الإسلام، وكان وَعَدَه الإسلامَ يوم فارقه؛ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ : الكافرين.

《٨٧》 ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ الإخزاءُ: من الخِزْي، وهو: الهوان، أو: من الخَزاية، وهو: الحياء، وهذا نحوُ الاستغفار كما بيَّنا، ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ الضميرُ فيه: للعباد؛ لأنه معلوم، أو: للضالين وأن يُجعلَ من جملة الاستغفار لأبيه؛ أي: ولا تخزني في يوم يبعثُ الضالون وأبي فيهم.

《٨٨》 ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾ هو: بدلٌ من ﴿يَوْمَ﴾ الأولِ، ﴿وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أحداً.

《٨٩》 ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ عن الكفرِ والنفاقِ، فقلبُ الكافر والمنافق مريضٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] أي: إن المال إذا صُرِفَ في وجوه البرِّ وبنوه صالحون.. فإنه ينتفع به وبهم سليمُ القلبِ، أو: جُعِلَ المال والبنون في معنى الغِنَى، كأنه قيل: يوم لا ينفع غِنىً إلا غِنَى مَن أتى الله بقلب سليم؛ لأن غِنى الرجل في دينه بسلامةِ قلبه، كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه، وقد جُعِلَ (مَن) مفعولاً لـ(ينفع) أي: لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلا رجلاً سَلِمَ قلبُه مع مالِه، حيث أنفقه في طاعة الله، ومع بنيه، حيث أرشدَهم إلى الدين وعلمَهم الشرائعَ، ويجوز على هذا: إلا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين، وقد صَوَّبَ الجليلُ استثناء الخليل؛ إكراماً له، ثم جعلَه صفةً له في قوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤].

وما أحسنَ ما رَتَّبَ عليه السلامُ كلامَه مع المشركين؛ حيث سألهم أوّلاً عمّا يعبدون سؤالَ مقرِّرٍ لا مستفهم، ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرَها بأنها لا تضرُّ ولا تنفعُ ولا تسمعُ، وعلى تقليدهم آباءَهم الأقدمين، فأخرجَه من أن يكون شبهةً، فضلاً عن أن يكون حجةً، ثم صوَّرَ المسألة في نفسه دونهم، حتى تخلَّصَ منها إلى ذكر الله تعالى، فعظَّمَ شأنَه، وعدَّد نعمته من حين إنشائه إلى وقت وفاته، مع ما يُرجّي في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهلَ اليه ابتهال الأوّابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثوابِ اللهِ وعقابه، وما يُدفعُ إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلالِ، وتَمَنِّي الكرَّةِ إلى الدنيا ليؤمنوا ويُطيعوا.

《٩٠》 ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: قُرِّبَتْ، عطفُ جملة على جملة؛ أي: تُزْلَفُ من موقف السعداء فينظرون إليها.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾ ....﴾

《٩١》 ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ﴾ أي: أُظهرت حتى يكادَ يأخذُهم لهبُها، ﴿لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾: للكافرين.

《٩٢ - ٩٣》 ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ يُوبَّخون على إشراكهم فيقال لهم: أين آلهتكم؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم؟ أو هل ينفعون أنفسَهم بانتصارهم؟ لأنهم وآلهتَهم وقودُ النارِ.

《٩٤》 ﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾: أُنْكِسُوا وطُرِحَ بعضُهم على بعض، ﴿فِيهَا﴾: في الجحيم، ﴿هُمۡ﴾ أي: الآلهةُ، ﴿وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾: وعَبَدَتُهم الذين بُرِّزَتْ لهم الجحيمُ، والكبكبةُ: تكريرُ الكبِّ، جُعِلَ التكريرُ في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا أُلقِيَ في جهنم.. ينكبُّ مرةً إثرَ مرةٍ حتى يستقرَّ في قعرها، نعوذُ بالله منها.

《٩٥》 ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾: شياطينُه، أو: مُتبعوه من عُصاة الإنس والجنِّ.

《٩٦》 ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ يجوزُ أن يُنْطِقَ اللهُ الأصنامَ حتى يصحَّ التقاوُلُ والتخاصمُ، ويجوز أن يَجْرِيَ ذلك بينَ العُصاة والشياطينِ.

《٩٧ - ٩٨》 ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم﴾: نَعدِلُكم أيُّها الأصنامُ ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ في العبادة.

《٩٩》 ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: رؤساؤُهم الذين أضلُّوهم، أو: إبليسُ وجنودُه ومَن سَنَّ الشركَ.

《١٠٠》 ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ كما للمؤمنين من الأنبياء والأولياء والملائكة.

《١٠١》 ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾ كما نرى لهم أصدقاءَ؛ إذْ لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون، وأما أهلُ النار.. فبينهم التعادي، ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، أو: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾ من الذين كنا نَعُدُّهم شفعاءَ وأصدقاءَ؛ لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤُهم عند الله، وكان لهم الأصدقاءُ من شياطين الإنس، والحميمُ: من الاحتمام، وهو: الاهتمامُ، وهو الذي يَهُمُّه ما يَهُمُّك، أو: من الحامَّةِ بمعنى: الخاصَّةِ، وهو: الصديقُ الخاصُّ، وجمعَ الشافعَ، ووحَّدَ الصديقَ؛ لكثرة

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ ....

الشفعاء في العادة، وأما الصديقُ وهو الصادقُ في وِدادِك، الذي يَهُمُّه ما أهمَّك.. فقليلٌ، وسئل حكيم عن الصديق فقال: اسمٌ لا معنى له، وجاز أن يُرادَ بالصديق: الجمعُ.

《١٠٢》 ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾: رجعةً إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾، وجوابُ (لو) محذوفٌ، وهو: لفعلنا كيتَ وكيتَ، أو: (لو) في مثل هذا للتمني، كأنه قيل: فليت لنا كرةً، لِمَا بين معنى لو وليتَ مِن التلاقي[1].

《١٠٣》 ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: فيما ذُكِرَ من الأنباء ﴿لَآيَةً﴾ أي: لعبرةً لمن اعتبرَ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ فيه أن فريقاً منهم آمنوا.

《١٠٤》 ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: المنتقمُ ممن كذَّبَ إبراهيم بنار الجحيم.

﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾: المُسْلِمُ كلَّ ذي قلب سليم إلى جنة النعيم.

《١٠٥》 ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ القومُ يُذكَّرُ ويؤنثُ، قيل: وُلِدَ نوحٌ في زمن آدمَ عليه السلام، ونظيرُ قولِه: (المرسلين) والمرادُ: نوحٌ عليه السلام: قولُك: فلانٌ يركب الدوابَّ ويَلبَسُ البُرودَ، وما له إلا دابةٌ أو بُردٌ، أو: كانوا يُنكرون بعثَ الرسل أصلاً، فلذا جُمِعَ، أو: لأن من كذَّبَ واحداً منهم.. فقد كذب الكلَّ؛ لأن كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل، وكذا جميعُ ما في هذه السورة.

《١٠٦》 ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نسباً لا ديناً ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ خالقَ الأنامِ فتتركوا عبادة الأصنام.

《١٠٧》 ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ كان مشهوراً بالأمانة فيهم كمحمد عليه الصلاة والسلام في قريشٍ.

《١٠٨》 ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ فيما آمرُكم به وأدعوكم إليه من الحقِّ.

《١٠٩》 ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: على هذا الأمر ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾: جزاءً، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾: بالفتح: مدنيٌّ وشاميٌّ وأبو عمرٍو وحفصٌ[2]، ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ فلذلك أريدُه.

---

(١) ويدل على أن (لو) هنا للتمني نصبُ المضارع بعدها (فنكونَ).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٠).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ ....

《١١٠》 ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ كرَّره؛ ليقررَه في نفوسهم مع تعليق كلٍّ واحد منهما بعلةٍ، فَعِلَّةُ الأول: كونُه أميناً فيما بينهم، وعلةُ الثاني: حَسمُ طمعِه منهم، كأنه قال: إذا عرفتم رسالتي وأمانتي.. فاتقوا اللهَ، ثم إذا عرفتم احترازي عن الأجر.. فاتقوا الله.

《١١١》 ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ﴾ الواو: للحال، وقد: مضمرةٌ بعدَها؛ دليلُه: قراءة يعقوبَ: ﴿وأتباعُك﴾[1]: جمعُ تابعٍ، كشاهد وأشهاد، أو: تَبَعٍ، كبطل وأبطال، ﴿الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾: السَّفِلةُ، والرَّذالةُ: الخِسَّةُ والدناءةُ، وإنما استرذلُوهم لاتِّضاعِ نسبِهم وقلةِ نصيبِهم من الدنيا، وقيل: كانوا من أهل الصناعات الدنيئةِ، والصناعةُ لا تُزري بالديانة، فالغِنَى غِنَى الدين، والنسبُ نسبُ التقوى، ولا يجوز أن يُسمَّى المؤمنُ رَذْلاً وإن كان أفقرَ الناسِ وأوضعَهم نسباً، وما زالت أتباعُ الأنبياء كذلك.

《١١٢》 ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي﴾: وأيُّ شيءٍ علمي؟ ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ من الصناعات، إنما أطلبُ منهم الإيمان، وقيل: إنهم طعنُوا مع استرذالهم في إيمانهم، وقالوا: إن الذين آمنوا بك ليس في قلوبهم ما يُظهرونه، فقال: ما عليَّ إلا اعتبارُ الظواهر دون التفتيش عن السرائرِ.

《١١٣》 ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أن الله يحاسبُهم على ما في قلوبهم.

《١١٤》 ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: ليس من شأني أن أتبع شهواتِكم بطردِ المؤمنين طمعاً في إيمانكم.

《١١٥》 ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾: ما عليَّ إلا أن أنذركم إنذاراً بيِّناً بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحقُّ من الباطل، ثم أنتم أعلم بشأنكم.

《١١٦》 ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ﴾ عمّا تقولُ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾: من المقتولين بالحجارة.

《١١٧》 ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ ليس هذا بإخبارٍ بالتكذيب؛ لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلمُ، ولكنه أراد أنهم كذبوني في وحيك ورسالتك.

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ٢٣٢).

فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ....

《١١٨》 ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾: فاحكم بيني وبينهم حكماً، والفَتَاحَةُ: الحُكومةُ، والفَتّاحُ: الحاكمُ؛ لأنه يَفتحُ المستغلِقَ، كما سُمي فيصلاً؛ لأنه يَفْصِلُ بين الخصومات، ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيْ﴾ ﴿مَعِيَ﴾: حفصٌ[1]، ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾: من عذاب عملِهم.

《١١٩》 ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ (الفلكُ): السفينةُ، وجمعُه: فُلْكٌ، فالواحدُ بوزن قُفْلٍ، والجمعُ بوزن أُسْدٍ[2]، ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾﴾: المملوءِ، ومنه: شِحْنَةُ البلد؛ أي: الذي يملؤه كفاية[3].

《١٢٠》 ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ﴾: بعد إنجاء نوحٍ ومن آمن معه ﴿ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ من قومه.

《١٢١》 ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾.

《١٢٢》 ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: المنتقمُ بإهانةِ مَن جحد وأصرَّ، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾: المنعمُ بإعانةِ مَن وَحَّدَ وأقَرَّ.

《١٢٣》 ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ هي: قبيلةٌ، وفي الأصل: اسمُ رجلٍ هو أبو القبيلة.

《١٢٤ - ١٢٥》 ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ﴾ نسباً ﴿هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾﴾.

《١٢٦》 ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في تكذيب الرسولِ الأمينِ، ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾.

《١٢٧》 ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

《١٢٨》 ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾: مكانٍ مرتفعٍ ﴿ءَايَةٗ﴾: برجَ حَمَامٍ، أو بناءً يكون لارتفاعه كالعلامة، يَسخرون بمن مرَّ بهم، ﴿تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾: تلعبون.

《١٢٩》 ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾: مآخذَ الماءِ[4]، أو قصوراً مَشيدةً، أو حُصوناً؛ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾: ترجون الخلودَ في الدنيا.

---

(١) قرأ حفص وورش: بفتح الياء. انظر المرجع السابق (ص ٢٣٢).

(٢) فوزنُ المفرد والجمع واحدٌ، والتغييرُ تقديري.

(٣) شِحنةُ البلد: مَن فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان.

(٤) أي: الحياض.

وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ....

«١٣٠» ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾: أخذتم أخذَ العقوبةِ ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾: قتلاً بالسيف وضرباً بالسَّوط، والجبار الذي يقتلُ ويضرب على الغضب.

«١٣١» ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في البطش، ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ فيما أدعوكم إليه.

«١٣٢» ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ من النعم، ثم عدَّدها عليهم فقال:

«١٣٣» ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ قَرَنَ البنين بالأنعام؛ لأنهم يُعينونهم على حفظها والقيام عليها.

«١٣٤ - ١٣٥» ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ إن عصيتُموني.

«١٣٦» ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: لا نقبلُ كلامك ودعوتك، وعظتَ أم سكتَّ، ولم يقل: أم لم تعظْ؛ لرؤوس الآي.

«١٣٧» ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾: ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت واتخاذ الأبنيةِ إلا عادةُ الأولين، أو: ما هذا الذي نحن عليه دينُ الأولين، ﴿إلا خَلْقُ الأولين﴾: مكيٌّ وبصريٌّ ويزيدُ وعليٌّ[1]؛ أي: ما جئتَ به اختلاقُ الأولين وكذبُ المتنبئين قبلَك، كقولهم: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، أو: خَلْقُنا كخلق الأولين، نموت ونحيا.

«١٣٨» ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ في الدنيا، ولا بعثَ ولا حسابَ.

«١٣٩ - ١٤٠» ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: هوداً، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

«١٤١ - ١٤٥» ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٢) وكذا القراءة الآتية.

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ....

«١٤٦» ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾: إنكارٌ لأن يُتركُوا مخلدين في نعيمِهم، لا يُزالون عنه، ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾: في الذي استقرَّ في هذا المكان من النعيم ﴿ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ من العذابِ والزوالِ والموتِ، ثم فسَّرَه بقوله:

«١٤٧ - ١٤٨» ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾﴾ وهذا أيضاً إجمالٌ ثم تفصيلٌ، ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ﴾ وعَطَفَ (نخل) على (جنات) مع أن الجنة تتناولُ النخلَ أوَّلَ شيءٍ؛ تفضيلاً للنخل على سائر الشجر، ﴿طَلْعُهَا﴾ هو: ما يخرج من النخلة، كنصل السيف، ﴿هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾: لَيِّنٌ نَضيجٌ، كأنه قال: ونخلٍ قد أرطبَ ثمرُه.

«١٤٩» ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: تُنَقِّبون ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾: شاميٌّ وكوفيٌّ: حاذقين، حالٌ، وغيرُهم: ﴿فَرِهِينَ﴾: أَشِرين، والفراهةُ: الكَيْسُ والنشاطُ.

«١٥٠ - ١٥١» ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾: الكافرين، أو: التسعةِ الذين عقرُوا الناقة، جعل الأمر مُطاعاً على المجاز الحكمي، والمرادُ: الآمرُ، وهو: كلُّ جملة أخرجتَ الحكمَ المفادَ بها عن موضوعه في العقل لضربٍ من التأول، كقولهم: أنبت الربيعُ البقلَ[1].

«١٥٢» ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالظلم والكفر، ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ بالإيمان والعدل؛ والمعنى: أن فسادهم فسادٌ مُصْمَتٌ ليس معه شيءٌ من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطةً ببعض الصلاح.

«١٥٣» ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ المسحَّرُ: الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقلِه، وقيل: هو من السَّحْرِ: الرئةُ، وأنه بشرٌ.

«١٥٤» ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ في دعوى الرسالة.

«١٥٥» ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾: نصيبٌ من الماء فلا تزاحموها فيه، ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ لا تُزاحمُكم هي فيه، روي: أنهم قالوا: نريد ناقة عُشَراءَ تخرجُ من هذه الصخرة،

---

(١) أسند الفعل إلى زمانه، والأصل: أنبت اللهُ البقلَ وقتَ الربيعِ.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥﴾ ....

فتلدُ سَقْباً[(١)]، فقعد صالحٌ يتفكرُ، فقال له جبريل: صل ركعتين واسأل ربك الناقةَ، ففعل فخرجت الناقة ونُتِجَتْ سَقْباً مثلَها في العِظَمِ، وصدرُها ستون ذراعاً، وإذا كان يومُ شربِها.. شربت ماءَهم كلَّه، وإذا كان يومُ شربِهم.. لا تشرب فيه الماء، وهذا دليل على جواز المهايأةِ؛ لأن قوله: لها شربٌ ولكم شربُ يوم معلومٍ.. من المهايأة[(٢)].

《١٥٦》 ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾: بضربٍ أو عَقْرٍ أو غيرِ ذلك، ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦﴾ عَظَّمَ اليومَ لحلول العذابِ فيه، وَوَصْفُ اليومِ به أبلغُ من وصف العذاب؛ لأن الوقت إذا عَظُمَ بسببه.. كان موقعُه من العِظَمِ أشدَّ.

《١٥٧》 ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقرَها قُدارُ، ولكنهم راضون به، فأُضيفَ إليهم، روي: أن عاقرها قال: لا أعقِرُها حتى ترضَوا أجمعين، فكانوا يدخلون على المرأة في خِدْرِها فيقولون: أترضين؟ فتقول: نعم، وكذلك صِبيانُهم، ﴿فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧﴾ على عقرها خوفاً من نزول العذاب بهم، لا ندمَ توبةٍ، أو ندموا حين لا ينفعُ الندمُ، وذلك عند معاينة العذاب، أو على تركِ الولدِ[(٣)].

《١٥٨ - ١٥٩》 ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ المقدَّمُ ذكرُه، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩﴾.

《١٦٠ - ١٦٥》 ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥﴾: أراد بالعالمين: الناسَ؛ أي: أَتَطَؤون الذكورَ من الناس مع كثرة الإناث، أو: أتطؤون أنتم مِن بين مَن عَداكم من العالمين الذكرانَ؛ أي: أنتم مختصون بهذه الفاحشةِ، و(العالمين) على هذا: كلُّ ما يَنكِحُ من الحيوان.

---

(١) السَّقْبُ: الذَّكَر من وَلَدِ الناقة.

(٢) المهايأة: قسمةُ المنافع في الأعيان المشترَكَةِ، كأن تكون دارٌ مشتركةً بين اثنين، فيتفقان على أن يسكنها كلٌّ منهما شهراً.

(٣) أي: على عدمِ قتلِ ولدِها معَها.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ١٦٧ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٣﴾ ....

《١٦٦》 ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ﴾ (مِن): تبيينٌ لـ(ما خلق)، أو: تبعيضٌ؛ والمرادُ بـ(ما خلق): العضوُ المباحُ منهن، وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم، وفيه دليلٌ على تحريم أدبار الزوجات والمملوكات، ومن أجازه.. فقد أخطأ خطأً عظيماً، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ العادي: المتعدي في ظلمِه، المتجاوزُ فيه الحدَّ؛ أي: بل أنتم قومٌ أحقّاءُ بأن تُوصفُوا بالعُدوان؛ حيث ارتكبتُم مثلَ هذه العظيمةِ.

《١٦٧》 ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ﴾ عن إنكارك علينا، وتقبيحِ أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ١٦٧﴾: من جملة مَن أخرجناه من بين أظهرِنا، وطردناه من بلدنا، ولعلهم كانوا يُخْرِجُون مَن أخرجوه على أسوأِ حالٍ.

《١٦٨》 ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨﴾ هو أبلغُ مِن أن يقول: قالٍ، فقولُك: فلان من العلماء: أبلغُ من قولك: فلان عالم؛ لأنك تشهدُ بأنه مُساهِمٌ لهم في العلم، والقِلَى: البغضُ الشديد، كأنه بغض يَقْلِي الفؤادَ والكبدَ، وفيه دليلٌ على عظم المعصية؛ لأن قِلاه من حيث الدين.

《١٦٩》 ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩﴾: من عقوبة عملِهم.

《١٧٠》 ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٧٠﴾ يعني: بناتِه ومن آمن معه.

《١٧١》 ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي: امرأةُ لوطٍ، وكانت راضيةً بذلك، والراضي بالمعصية في حكم العاصي، واستثناءُ الكافرة من الأهل وهم مؤمنون للاشتراك في هذا الاسم وإن لم تشاركهم في الإيمان، ﴿فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ١٧١﴾: صفةٌ لها؛ أي: في الباقين في العذاب، فلم تَنْجُ منه، والغابرُ في اللغة: الباقي، كأنه قيل: إلا عجوزاً غابرةً؛ أي: مُقَدَّراً غُبُورُها؛ إذ الغُبورُ لم يكن صفتَها وقتَ تَنْجيتِهم.

《١٧٢》 ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ١٧٢﴾ والمرادُ بتدميرهم: الائتفاكُ بهم.

《١٧٣》 ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ عن قتادةَ: أمطر اللهُ على شُذّاذِ القوم حجارةً من السماء فأهلكهم الله، وقيل: لم يَرْضَ بالائتفاك حتى أتبعَه مطراً من حجارة، ﴿فَسَآءَ﴾ فاعلُه: ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٣﴾ والمخصوصُ بالذم، وهو: مطرُهم: محذوفٌ، ولم يُرِدْ بـ(المنذرين) قوماً بأعيانهم، بل المرادُ جنسُ الكافرين.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ....

《١٧٤ - ١٧٥》 ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

《١٧٦》 ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾: بالهمزةِ والجرِّ، هي: غَيضةٌ تُنبتُ ناعمَ الشجر، عن الخليل، ﴿لَيْكَةَ﴾: حجازيٌّ وشاميٌّ، وكذا في «ص»[١]: عَلَمٌ لبلدٍ، قيل: أصحابُ الأيكةِ هم: أهلُ مَدْيَنَ، التجؤُوا إلى غيضةٍ إذْ ألحَّ عليهم الوَهَجُ[٢]، والأصحُّ أنها غيرُهم، نزلُوا غَيضةً بعينها بالبادية، وأكثرُ شجرِهم المُقْلُ؛ بدليل أنه لم يقل هنا: أخوهم شعيب؛ لأنه لم يكن من نَسَبِهم، بل كان من نسب أهل مدينَ، ففي الحديث: «أن شعيباً أخا مدينَ أُرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة» ﴿الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾.

《١٧٧ - ١٨٠》 ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

《١٨١》 ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾: أتمُّوه، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾: ولا تنقُصوا حقوقَهم، فالكيلُ وافٍ وهو مأمور به، وطفيفٌ وهو منهي عنه، وزائدٌ وهو مسكوت عنه، فتركُه دليلٌ على أنه إن فَعَلَ.. فقد أحسن، وإن لم يفعل.. فلا شيءَ عليه.

《١٨٢》 ﴿وَزِنُوا بِالْقُسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وبكسر القاف: كوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ[٣]، وهو الميزان، أو القَبّانُ، فإن كان من القِسطِ، وهو العدلُ، وجَعَلْتَ العينَ مكررةً.. فوزنُه: (فعلاس)[٤]، وإلا.. فهو رباعيٌّ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٢و٢٧١).

(٢) الوَهَجُ: شدةُ الحرِّ.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٣).

(٤) في «تفسير الآلوسي» (١٠/١١٧): (ووزنه فعلاع؛ بتكرير العين شذوذاً؛ إذ هي لا تُكررُ وحدَها مع الفصل باللام) وإنما قال: وزنه: (فعلاع)؛ لأن الزيادة إن كانت ناشئة من تكرير حرف من أصول الكلمة، كُرِّرَ ما يقابلُه في الميزان. انظر «شذا العرف في فن الصرف» (ص ١٤).

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ ....

《١٨٣》 ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ﴾ يقال: بَخَسْتُه حقَّه: إذا نقصته إياه، ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾: دراهمَهم ودنانيرَهم بقطع أطرافِها، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾: ولا تُبالغوا فيها في الإفساد، وذلك نحوُ قطعِ الطريقِ والغارةِ وإهلاكِ الزروعِ، وكانوا يفعلون ذلك فنُهُوا عنه، يقال: عثا في الأرض: إذا أفسدَ، وعَثِيَ في الأرض لغةٌ في: عَثا.

《١٨٤》 ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ أي: الخلقَ، عطفٌ على (كم) أي: اتقوا الذي خلقكم وخلقَ الجِبِلَّةَ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾: الماضين.

《١٨٥》 ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾.

《١٨٦》 ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إدخالُ الواو هنا ليفيد معنيين كلاهما منافٍ للرسالة عندهم: التسحيرُ والبشريةُ، وتركُها في قصة ثمودَ ليفيدَ معنىً واحداً، وهو كونُه مسحّراً، ثم قُرِّرَ بكونه بشراً مثلَهم، ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ (إن): مخففةٌ من الثقيلة، واللامُ دخلت للفرق بينها وبين النافية، وإنما تَفرَّقَتا على فعل الظنِّ وثاني مفعولَيه؛ لأن أصلهما أن يتفرقا على المبتدأ والخبر، كقولك: إنْ زيدٌ لمنطلقٌ، فلما كان بابا كانَ وظننتُ من جنس باب المبتدأ والخبر.. فُعِلَ ذلك في البابين، فقيل: إن كان زيدٌ لمنطلقاً، وإن ظننتُه لمنطلقاً.

《١٨٧》 ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفاً﴾، ﴿كِسَفًا﴾: حفصٌ[1]، وهما جَمْعا كِسْفَةٍ، وهي: القطعةُ، وكَسَفَهُ: قطعَه، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحابِ، أو: المُظلة، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ أي: إن كنت صادقاً أنك نبيٌّ.. فادعُ الله أن يُسقطَ علينا كسفاً من السماء؛ أي: قطعاً من السماء عقوبةً.

《١٨٨》 ﴿قَالَ رَبِّىٓ﴾: بفتح الياء: حجازيٌّ وأبو عمروٍ، وبسكونها: غيرُهم، ﴿أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ أي: إن الله أعلمُ بأعمالكم وبما تستحقُّون عليها من العقاب، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كِسَفٍ من السماء.. فعل، وإن أراد عقاباً آخرَ.. فإليه الحكم والمشيئة.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٣) وكذا القراءتان الآتيتان.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ....

«١٨٩ - ١٩٠» ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ هي: سحابةٌ أظلَّتْهم بعد ما حَبست عنهم الريح وعُذِّبُوا بالحرِّ سبعةَ أيامٍ، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من الحرِّ، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾.

«١٩١» ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ وقد كُرِّرَ في هذه السورة في أول كل قصة وآخرِها ما كُرِّر تقريراً لمعانيها في الصدور؛ ليكون أبلغَ في الوعظ والزجر، ولأن كل قصة منها كتنزيل برأسِه، وفيها من الاعتبار مثلُ ما في غيرها، فكانت جديرة بأن تُفتَتَحَ بما افتُتِحت به صاحبتُها، وأن تُختم بما اختُتمت به.

«١٩٢» ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآنَ ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾: منزَّلٌ منه.

«١٩٣» ﴿نَزَلَ بِهِ﴾: مخففٌ، الفاعلُ: ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ أي: جبريلُ؛ لأنه أمينٌ على الوحي الذي فيه الحياةُ: حجازيٌّ، وأبو عمرٍو وزيدٌ وحفصٌ، وغيرُهم: بالتشديد ونصبِ الروح، والفاعلُ هو الله تعالى؛ أي: جعل الله الروح نازلاً به، والباءُ على القراءتين للتعدية.

«١٩٤» ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: حَفَّظَكَ وفهَّمَكَ إياه وأثبتَه في قلبك إثباتَ ما لا يُنسَى، كقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ [الأعلى: ٦]، ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

«١٩٥» ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾: بلغةِ قريشٍ وجُرْهُم، ﴿مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾: فصيحٍ، ومُصَحِّحٍ عمّا صحفته العامةُ، والباءُ: إما أن يتعلق بـ(المنذِرين) أي: لتكون من الذين أنذرُوا بهذا اللسان، وهم هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ وإسماعيلُ عليهم السلام، أو: بـ(نزل) أي: نزَّلَه بلسان عربي لتنذرَ به؛ لأنه لو نزله بلسان أعجميٍّ.. لتجافَوا عنه أصلاً، ولقالوا: ما نصنعُ بما لا نفهمُه؟ فيتعذر الإنذارُ به، وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي لسانُك ولسانُ قومك تنزيلٌ له على قلبك؛ لأنك تفهمُه وتُفهِمُه قومَك، ولو كان أعجمياً.. لكان نازلاً على سمعك دون قلبِك؛ لأنك تسمع أجراسَ حروفٍ لا تفهمُ معانيَها ولا تعيْها، وقد يكون الرجل عارفاً بعدةِ لغاتٍ، فإذا كُلِّمَ بلغته التي نشأ عليها.. لم يكن قلبُه ناظراً إلا إلى معاني الكلام، وإن كُلِّمَ بغيرها.. كان نظرُه أولاً في ألفاظها، ثم في معانيها وإن كان ماهراً بمعرفتها، فهذا تقريرُ أنه نزل على قلبه لِنزوله بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ ....

«١٩٦» ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: وإن القرآن ﴿لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ يعني: ذكرُه مثبتٌ في سائر الكتب السماوية، وقيل: إن معانيَه فيها، وفيه دليل على أن القرآنَ قرآنٌ إذا تُرجم بغير العربية، فيكون دليلاً على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة[1].

«١٩٧» ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾: شاميٌّ، جُعلت (آية) اسمَ كان، وخبرُه: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ أي: القرآنَ؛ لوجود ذكرِه في التوراة، وقيل: في (تكن) ضميرُ القصة، و(آية): خبرٌ مقدمٌ، والمبتدأُ: (أن يعلمه)، والجملة: خبرُ كان، وقيل: كان: تامةٌ، والفاعلُ: (آية)، و(أن يعلمه): بدلٌ منها، أو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: أَوَلَمْ تحصلْ لهم آيةٌ، وغيرُه: (يكن): بالتذكير، و(آيةً): بالنصب[2]؛ على أنها خبرُه، و(أن يعلمه) هو الاسمُ، وتقديرُه: أَوَلَمْ يكن لهم عِلْمُ علماءِ بني إسرائيلَ آيةً، ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ كعبد الله بن سلام وغيره، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]، وخُطَّ في المصحف: ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ﴾: بواو قبل الألف.

«١٩٨» ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾: جمعُ أَعْجَمٍ، وهو الذي لا يُفْصِحُ، وكذلك الأعجميُّ إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادةَ تأكيدٍ، ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه.. قالوا له: أعجمُ وأعجميٌّ، شبَّهوه بمن لا يُفْصِحُ ولا يُبينُ، والعجميُّ: الذي من جنس العجم أفصحَ أو لم يُفْصِحْ، وقرأ الحسنُ: ﴿الأَعْجَمِيِّينَ﴾[3]، وقيل: (الأعجمين): تخفيف (الأعجميين)، كما قالوا: الأشعرُون؛ أي: الأشعريُّون، بحذف ياء النسبةِ، ولولا هذا التقديرُ.. لم يَجُزْ أن يُجمعَ جمعَ السلامةِ؛ لأن مؤنثَه عجماء[4].

«١٩٩» ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ والمعنى: إنا أنزلنا هذا القرآنَ على رجل عربي بلسانٍ عربيٍّ مبين، ففهموه وعرَفوا فصاحتَه وأنه معجزٌ، وانضمَّ إلى ذلك اتفاقُ علماء أهل

---

(١) كان هذا قولاً للإمام أبي حنيفة، ثم رجع إلى قول صاحبيه أبي يوسف ومحمد، وهو أنه لا تجوز القراءة في الصلاة بغير العربية إلا لعاجزٍ عن العربية. انظر «حاشية ابن عابدين» (١/ ٤٨٥).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٣).

(٣) انظر «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٤٣) وهي شاذة.

(٤) أي: كونُ (الأعجمين) جمعَ أعجمَ مشكلٌ؛ إذ لا يصح جمعه جمع مذكر سالماً؛ لأن مؤنثه عجماء، وشرط جمع المذكر السالم ألا يكون من باب (أفعل فعلاء)، ولكن هذا جائز عند الكوفيين. انظر «الدر المصون» (٨/ ٥٥٦).

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ . . .

الكتبِ قبلَه على أن البشارة بإنزاله وصفته في كتبهم، وقد تَضمَّنَتْ معانيَه وقِصَصَه، وصحَّ بذلك أنها من عند الله وليست بأساطيرَ كما زعموا، فلم يؤمنوا به، وسمَّوه شعراً تارةً، وسحراً أخرى، وقالوا: هذا من افتراء محمدٍ عليه الصلاة السلام، ولو نزلناه على بعض الأعاجم الذي لا يُحْسِنُ العربية فضلاً أن يقدر على نظم مثلِه فقرأه عليهم هكذا معجزاً.. لكفروا به كما كفروا، ولتمحَّلُوا لجحودهم عذراً، ولسمَّوه سحراً، ثم قال:

«٢٠٠» ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أي: أدخلنا التكذيبَ أو الكفرَ، وهو مدلول قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾، ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾: الكافرين الذين عَلِمْنا منهم اختيارَ الكفر والإصرارَ عليه؛ يعني: مثلَ هذا السَّلْكِ سلكناه في قلوبهم، وقرَّرْناه فيها، فكيفما فُعِلَ بهم، وعلى أيِّ وجهٍ دُبِّرَ أمرُهم.. فلا سبيلَ إلى أن يَتَغَيَّرُوا عمّا هم عليه من الكفر به والتكذيب له، كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، وهو حجتُنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد خيرِها وشرِّها.

«٢٠١» وموقعُ قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: بالقرآن من قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ موقعُ الموضحِ والملخِّصِ؛ لأنه مسوقٌ لِثباتِه مُكَذَّباً مجحوداً في قلوبهم، فأُتْبِعَ ما يُقرِّرُ هذا المعنى؛ من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحودِه حتى يُعاينوا الوعيدَ، ويجوز أن يكون حالاً؛ أي: سلكناه فيها غيرَ مؤمَنٍ به، ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ المرادُ: معاينة العذاب عند الموت، ويكون ذلك إيمانَ يأسٍ فلا ينفعُهم.

«٢٠٢» ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾: فجأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ بإتيانه.

«٢٠٣» ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ و(فيأتيهم): معطوفان على (يروا): ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ يسألون النَّظِرَةَ والإمهالَ طرفة عين فلا يُجابُون إليها.

«٢٠٤» ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾: توبيخٌ لهم وإنكارٌ عليهم قولَهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ونحوَ ذلك.

«٢٠٥» قال يحيى بنُ معاذ: أشدُّ الناس غفلة مَن اغترَّ بحياته، والتذَّ بمراداته، وسكن إلى مألوفاته، والله تعالى يقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ قيل: هي سِنُو مدةِ الدنيا.

﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢٠٩ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾

《٢٠٦》 ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٢٠٦﴾ من العذاب.

《٢٠٧》 ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ به في تلك السنينَ؛ والمعنى: أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غيرُ كائنٍ ولا لاحقٍ بهم، وأنهم مُمَتَّعون بأعمارٍ طِوالٍ في سلامة وأمنٍ، فقال اللهُ تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أشراً واستهزاءً واتّكالاً على الأمل الطويل؟ ثم قال: هبْ أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرِهم، فإذا لحقهم الوعيدُ بعد ذلك ما ينفعُهم حينئذ ما مضى من طول أعمارِهم، وطيبِ معايِشِهم، وعن ميمون بنِ مِهران: أنه لقي الحسنَ في الطواف وكان يتمنَّى لقاءَه فقال له: عِظْني، فلم يزدْه على تلاوة هذه الآيةَ، فقال ميمون: قد وَعظتَ فأبلغتَ، وعن عمرَ بنِ عبد العزيز: أنه كان يقرؤُها عند جلوسه للحكم.

《٢٠٨》 ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨﴾: رُسُلٌ يُنذرونهم، ولم تدخل الواوُ على الجملة بعد (إلا) كما في ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]؛ لأن الأصل عدم الواو؛ إذ الجملة صفةٌ لقرية، وإذا زيدت.. فلتأكيد وصلِ الصفةِ بالموصوف[(١)].

《٢٠٩》 ﴿ذِكْرَىٰ﴾: منصوبةٌ بمعنى: تذكرةً؛ لأن: أنذرَ وأَذْكَرَ: متقاربان، فكأنه قيل: مُذْكَرون تذكرةً، أو: حالٌ من الضمير في (منذرون)؛ أي: يُنذرونهم ذوي تذكرةٍ، أو: مفعولٌ له؛ أي: ينذرون لأجل التذكرة والموعظة، أو: مرفوعةٌ على أنها خبر مبتدأ محذوفٍ؛ بمعنى: هذه ذكرى، والجملة اعتراضيةٌ، أو: صفةٌ؛ بمعنى: منذرون ذوو ذكرى، أو تكونُ (ذكرى) متعلقةً بـ(أهلكنا) مفعولاً له؛ والمعنى: وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجةَ بإرسال المنذِرين إليهم؛ ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم، فلا يعصُوا مثلَ عِصيانِهم، ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢٠٩﴾ فنهلك قوماً غيرَ ظالمين.

《٢١٠》 ولما قال المشركون: إن الشياطين تُلقي القرآنَ على محمد.. نزلت: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: القرآنِ ﴿الشَّيَاطِينُ ۝٢١٠﴾.

《٢١١》 ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾: وما يتسهَّلُ لهم، ولا يقدِرون عليه.

---

(١) ذكر ابن هشام في «مغني اللبيب» (ص ٥٦٥) أن الجملة بعد (إلا): حالٌ، وأن الواوَ وإلا يمنعان الوصفيةَ.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ ....

《٢١٢》 ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾: عن استراقه ﴿لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾: لممنوعون بالشُّهُب.

《٢١٣》 ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾: تهديدٌ لغيره على التعريض وتحريكٌ له على زيادة الإخلاص.

《٢١٤》 ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ خصَّهم لنفي التهمة؛ إذ الإنسان يُساهلُ قرابته، أو ليعلموا أنه لا يُغْنِي عنهم من الله شيئاً، وأن النجاة في اتباعه دون قُرْبِهِ، ولما نزلت.. صَعِدَ الصفا ونادى الأقربَ فالأقربَ وقال: «يا بني عبد المطلب، يا بني هاشم، يا بني عبدِ مَناف، يا عباسُ عمَّ النبي، يا صفيةُ عمةَ رسولِ اللهِ، إني لا أملك لكم من الله شيئاً»[١].

《٢١٥》 ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾: وأَلِنْ جانبك وتواضعْ، وأصلُه: أن الطائر إذا أراد أن ينحطَّ للوقوع.. كسر جناحَه وخفضَه، وإذا أراد أن ينهضَ للطيران.. رفع جناحَه، فَجُعِلَ خفضُ جناحِه عند الانحطاط مثلاً في التواضعِ ولِينِ الجانبِ، ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ من عشيرتك وغيرِهم.

《٢١٦》 ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ يعني: أنذر قومك، فإن اتبعوك وأطاعوك.. فاخفض جناحك لهم، وإن عصَوك ولم يتبعوك.. فتبرأْ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيرِه.

《٢١٧》 ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾: على الذي يقهر أعداءَكَ بعزتِه، وينصرُك عليهم برحمته.. يكفِكَ شرَّ مَن يعصيْك منهم ومن غيرهم، والتوكلُ: تفويضُ الرجل أمرَه إلى مَن يملك أمرَه، ويقدِرُ على نفعه وضُرِّه، وقالوا: المتوكلُ: مَن إذا دَهَمَه أمرٌ.. لم يحاول دفعَه عن نفسه بما هو معصية لله، وقال الجنيد: رضي الله عنه: التوكلُ: أن تُقْبِلَ بالكُلِّيَّةِ على ربك، وتُعْرِضَ بالكُلِّيَّةِ عمّا دونه، فإن حاجتك إليه في الدارين، ﴿فتوكل﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ[٢]: عطفٌ على ﴿فَقُلْ﴾ أو ﴿فَلَا تَدْعُ﴾.

《٢١٨》 ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ متهجداً.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣) مسلم (٢٠٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٣).

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ ....

《٢١٩》 ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ أي: ويرى تقلبَكَ ﴿فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾: في المصلين، أَتْبَعَ كونَه رحيماً على رسوله ما هو من أسباب الرحمة، وهو ذكرُ ما كان يفعلُه في جوف الليل من قيامِه للتهجد وتقلبِه في تصفحِ أحوالِ المتهجدين من أصحابه؛ لِيَطَّلِعَ عليهم من حيث لا يشعرون، ولِيَعْلَمَ أنهم كيف يعبدون الله ويعملون لآخرتهم، وقيل: معناه: يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعةً، وتقلبُه في الساجدين: تَصرُّفُه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أَمَّهم، وعن مقاتل: أنه سأل أبا حنيفة هل تجدُ الصلاة بالجماعة في القرآن؟ فقال: لا يحضرني، فتلا له هذه الآيةَ.

《٢٢٠》 ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقولُه، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ بما تنويه وتعملُه، هَوَّنَ عليه معاناةَ مشاقِّ العبادات؛ حيث أخبرَ برؤيته له؛ إذْ لا مشقةَ على مَنْ يعلمُ أنه يعمل بمرأى مولاه، وهو كقوله: بِعَيْنِيْ ما يَتَحَمَّلُ المُتَحَمِّلون من أجْلِيْ[1].

《٢٢١》 ونزل جواباً لقول المشركين: إن الشياطين تُلقي السمعَ على محمد ﷺ:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: هل أُخبرُكم أيُّها المشركون ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ ثم نبَّأ فقال:

《٢٢٢》 ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾: مرتكبٍ للآثام، وهم الكَهَنَةُ والمتنبئةُ، كسَطِيحٍ وطليحةَ ومُسيلمةَ، ومحمدٌ ﷺ يشتمُ الأفّاكين ويذمُّهم، فكيف تنزل الشياطينُ عليه؟

《٢٢٣》 ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾: هم الشياطينُ، كانوا قبل أن يُحجَبُوا بالرجم يستمعون إلى الملأ الأعلى فيَخْطَفُون بعض ما يتكلمون به مما اطَّلعُوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم، و(يُلقون): حالٌ؛ أي: تنزلُ مُلقِين السمعَ، أو: صفةٌ لكلِّ أفّاكٍ؛ لأنه في معنى الجمع، فيكونُ في محل الجرِّ، أو: استئنافٌ فلا يكون له محلٌّ، كأنه قيل: لِمَ تنزلُ على الأفّاكين؟ فقيل: يفعلون كيتَ وكيتَ، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ فيما يوحون به إليهم؛ لأنهم يُسْمِعُونهم ما لم يَسمعوا، وقيل: يُلقون إلى أوليائهم السمعَ؛ أي: المسموعَ من الملائكة، وقيل: الأفّاكون يُلقون السمع إلى الشياطين، ويتلقَّون وحيَهم إليهم، أو يُلقون المسموعَ من الشياطين إلى الناس، وأكثرُ الأفّاكين كاذبون، يفترون على الشياطينِ ما لم يُوحُوا إليهم، والأفّاكُ: الذي يُكْثِرُ الإفكَ، ولا يدلُّ ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك، فأراد أن هؤلاء الأفّاكين قلَّ مَن يَصدقُ منهم فيما

---

(١) روى أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٦٠) عن وهب بن منبه قال: أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه. . . فذكره.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾

يَحكِي عن الجنِّيِّ، وأكثرُهم مفترٍ عليه، وعن الحسن: وكلُّهم[1]، وإنما فُرِّقَ بين ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، و﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]، و﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢٢١] وهنَّ أخواتٌ؛ لأنه إذا فُرِّقَ بينهن بآيات ليست منهن، ثم رُجِعَ إليهنَّ مرَّةً بعد مرَّةٍ.. دلَّ ذلك على شدة العناية بهنَّ، كما إذا حدَّثتَ بحديث وفي صدرك اهتمامٌ بشيء فتعيدُ ذكرَه ولا تنفكُّ عن الرجوع إليه.

《٢٢٤》 ونزل فيمن كان يقول الشعر، ويقول: نحن نقول كما يقول محمدٌ ﷺ، واتَّبعهم غُواةٌ من قومهم يستمعون أشعارهم:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ أي: لا يتبعهم على باطلِهم وكذبِهم، وتمزيقِ الأعراضِ والقدحِ في الأنساب، ومدحِ من لا يستحقُّ المدحَ، والهجاءِ، ولا يَستحسنُ ذلك منهم إلا الغاوون، أي: السفهاءُ، أو: الراوُون، أو: الشياطينُ، أو: المشركون، قال الزجاج: إذا مدح أو هجا شاعرٌ بما لا يكونُ، وأحب ذلك قومٌ وتابَعوه.. فهم الغاوون، ﴿يَتْبَعُهُم﴾: نافعٌ[2].

《٢٢٥》 ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ﴾ من الكلام ﴿يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾: خبرُ (أنَّ) أي: في كل فنٍّ من الكذب يتحدثون، أو: في كل لغوٍ وباطلٍ يخوضون، والهائم: الذاهبُ على وجهه لا مَقْصِدَ له، وهو تمثيل لذهابهم في كل شِعْبٍ من القول واعتسافِهم حتى يُفضِّلُوا أجبنَ الناس على عنترةَ، وأبخلَهم على حاتمٍ. عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله[3]: [من: الوافر]

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الخِتَامِ

فقال: وجب عليك الحدُّ، فقال: قدْ درأ اللهُ عني الحدَّ بقوله:

《٢٢٦》 ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ حيث وصفهم بالكذبِ، والخَلْفِ في الوعد، ثم استثنى الشعراءَ المؤمنين الصالحين بقوله:

---

(١) أي: أُطلق الأكثر وأريد الكل.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٣).

(٣) لم أجده في ديوانه، وانظر «مشاهد الإنصاف» (ص١٢٠).

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

《٢٢٧》 ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ كعبد الله بنِ رواحةَ، وحسانِ بنِ ثابت، وكعبِ ابنِ زهير، وكعبِ بنِ مالك رضي الله عنهم، ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: كان ذكرُ اللهِ وتلاوةُ القرآنِ أغلبَ عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعراً.. قالوه في توحيدِ اللهِ تعالى والثناءِ عليه، والحكمةِ والموعظةِ والزهدِ والأدبِ ومدحِ رسولِ اللهِ والصحابةِ وصلحاءِ الأمةِ ونحوِ ذلك مما ليس فيه ذنبٌ، وقال أبو يزيد: الذكرُ الكثيرُ ليس بالعدد والغفلة، لكنه بالحضور، ﴿وَٱنتَصَرُواْ﴾: وهَجَوا ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ هَجْواً؛ أي: ردُّوا هجاء من هجا رسولَ الله ﷺ والمسلمين، وأحقُّ الخلق بالهجاء مَن كذَّبَ رسولَ الله ﷺ وهجاه، وعن كعبِ بنِ مالكٍ أن رسول الله ﷺ قال له: «اهجُهم، فوالذي نفسي بيده لَهُوَ أشدُّ عليهم من النَّبْلِ»[1]، وكان يقول لحسانٍ: «قلْ وروحُ القدس معك»[2]، ختم السورة بما يقطع أكبادَ المُتَدَبِّرين، وهو قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ، وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ وإطلاقُه، وقولُه: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ وإبهامُه، وقد تلاها أبو بكر لعمرَ رضي الله تعالى عنه حين عَهِدَ إليه، وكان السلف يتواعظون بها، قال ابن عطاء: سيعلمُ المُعْرِضُ عنا ما الذي فاتَه منا. و(أيَّ): منصوبٌ بـ(ينقلبون) على المصدر، لا بـ(يعلم)؛ لأن أسماء الاستفهام لا يعملُ فيها ما قبلها؛ أي: ينقلبون أيَّ انقلابٍ.



---

(١) روى مسلم (٢٤٩٠) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «اهجُوا قريشاً؛ فإنه أشدُّ عليها من رشق بالنبل» فأرسل إلى ابن رواحة فقال: «اهجهم» فهجاهم فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه.. قال حسان: قد آنَ لكم أن تُرسِلوا إلى هذا الأسدِ الضاربِ بِذَنَبِهِ، ثم أَدْلَعَ لسانَه فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق لأَفْرِيَنَّهم بلساني فَرْيَ الأديم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تَعجَلْ؛ فإن أبا بكر أعلمُ قريشٍ بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً، حتى يُلَخِّصَ لك نسبي» فأتاه حسانُ، ثم رجع فقال: يا رسول الله قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأَسُلَّنَّكَ منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»، وقالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «هجاهم حسان فشفى واشتفى».

(٢) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٢٣٧) عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه.

﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤﴾ ....

سورة النمل

سورةُ النملِ مكيةٌ، وهي ثلاثٌ وتسعون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١﴾ أي: وآياتِ كتابٍ مبينٍ، و(تلك): إشارةٌ إلى آيات السورة، والكتابُ المبينُ: اللوحُ، وآياتُه: أنه قد خُطَّ فيه كلُّ ما هو كائنٌ، فهو يُبين للناظرين فيه آياتِه، أو: القرآنُ، وآياتُه: أنه يُبينُ ما أُودِعَ فيه من العلوم والحكم، وعلى هذا عطفُه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى، نحو: هذا فعلُ السخيِّ والجوادِ، ونُكِّرَ الكتابُ ليكون أفخمَ له، وقيل: إنما نَكَّرَ الكتابَ هنا وعرَّفَه في (الحِجْرِ)، وعرَّفَ القرآنَ هنا ونكَّرَه ثَمَّ؛ لأن القرآن والكتاب اسمان عَلَمان للمنْزَلِ على محمدٍ ﷺ، ووصفان له؛ لأنه يُقرأُ ويُكتبُ، فحيث جاء بلفظ التعريف.. فهو العَلَمُ، وحيث جاء بلفظ التنكير.. فهو الوصف.

《٢》 ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ﴾: في محلِّ النصب على الحال من ﴿ءَايَٰتُ﴾ أي: هاديةً ومبشرةً، والعاملُ فيها ما في ﴿تِلۡكَ﴾ من معنى الإشارة، أو: الجرِّ على أنه بدلٌ من "كتاب" أو: صفةٌ له، أو: الرفعِ على: هي هدىً وبشرى، أو: على البدل من (آيات)، أو: على أن يكون خبراً بعد خبر لـ(تلك) أي: تلك آياتٌ وهاديةٌ من الضلالة ومبشرةٌ بالجنة، وقيل: هدىً لجميع الخلق، وبشرى ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ خاصةً.

《٣》 ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: يُديمون على فرائضها وسننِها، ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: يؤدون زكاةَ أموالِهم، ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣﴾: من جملة صلة الموصول، ويحتملُ أن تَتِمَّ الصلةُ عنده، وهو استئنافٌ، كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة، ويدلُّ عليه أنه عقدَ جملةً اسميةً، وكرَّرَ فيها المبتدأ الذي هو (هم) حتى صار معناه: وما يوقن بالآخرة حقَّ الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن خوف العاقبة يحملُهم على تحمل المشاقِّ.

《٤》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ بخلقِ الشهوةِ فيهم حتى رأوا ذلك حسناً، كما قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤﴾: يتردَّدون في ضلالتهم، كما يكون حالُ الضالِّ عن الطريق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٧﴾

«٥» ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾: القتلُ والأسرُ يوم بدر بما كان منهم من سوء الأعمال، ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥﴾: أشدُّ الناس خسراناً؛ لأنهم لو آمنوا.. لكانوا من الشهداء على جميع الأمم، فخسروا ذلك مع خسران النجاةِ وثوابِ اللهِ.

«٦» ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ﴾: لتؤتاه وتُلَقَّنُه ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾: من عند أيِّ حكيم وأيِّ عليم، وهذا معنى تنكيرهما، وهذه الآية بساطٌ وتمهيدٌ لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيصِ، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائقِ علمِه.

«٧» ﴿إِذۡ﴾: منصوبٌ بـ: اذكر، كأنه قال على أثر ذلك: خذْ من آثار حكمته وعلمه قصةَ موسى عليه السلام، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ﴾: لزوجته ومن معه عند مسيره من مدينَ إلى مصرَ: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾: أبصرتُ ﴿نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ عن حال الطريق؛ لأنه كان قد ضلَّه، ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ﴾: بالتنوين: كوفيٌّ؛ أي: شعلةٍ مضيئةٍ، ﴿قَبَسٖ﴾: نارٍ مقبوسةٍ، بدلٌ أو صفةٌ، وغيرُهم: ﴿بشهابِ قبسٍ﴾[1]؛ على الإضافة؛ لأنه يكون قبساً وغيرَ قبسٍ، ولا تدافعَ بين قولِه (سآتيكم هنا)، و﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [القصص: ٢٩] في (القَصَصِ) مع أن أحدهما تَرَجٍّ، والآخرَ تيقُّنٌ؛ لأن الراجيَ إذا قوي رجاؤُه.. يقول: سأفعل كذا، وسيكون كذا، مع تجويزه الخيبةَ، ومجيئُه بسين التسويف عِدَةٌ لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدةً، وبـ(أو) لأنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفرْ بحاجتيه جميعاً.. لم يَعْدِمْ واحدةً منها، إما هدايةُ الطريق، وإما اقتباسُ النار، ولم يدرِ أنه ظافرٌ على النار بحاجتيه الكُلِّيَّتَيْنِ، وهما عزُّ الدنيا والآخرة، واختلافُ الألفاظ في هاتين السورتين والقصةُ واحدةٌ دليلٌ عن جواز نقل الحديث بالمعنى، وجوازِ الصلاةِ بالفارسية، وجوازِ النكاح بغير لفظ النكاح والتزوج، ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٧﴾: تَستدفئون بالنار من البرد الذي أصابكم، والطاءُ بدلٌ من تاء (افتعل) لأجل الصاد.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٤).

فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ....

«٨» ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي: النارَ التي أبصرها ﴿نُودِيَ﴾ موسى ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾: مخففةٌ من المثقلة، وتقديرُه: نودي بأن بورك، والضميرُ ضميرُ الشأن، وجاز ذلك من غير عِوَضٍ وإن منعه الزمخشري[(١)]؛ لأن قوله: (بورك) دعاءٌ، والدعاءُ يخالفُ غيرَه في أحكامٍ كثيرةٍ[(٢)]، أو: مفسرةٌ؛ لأن في النداء معنى القول؛ أي: قيل له: بورك؛ أي: قُدِّسَ، أو جُعِلَ فيه البركةُ والخيرُ، ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: بورك من في مكان النار وهم الملائكة، ومَن حول مكانِها؛ أي: موسى؛ لحدوث أمر دينيٍّ فيها، وهو تكليم الله موسى، واستنباؤُه له، وإظهارُ المعجزات عليه، ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ هو من جملة ما نودي، فقد نزَّه ذاتَه عمّا لا يليق به من التشبيه وغيرِه.

«٩» ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ الضميرُ في (إنه): للشأن، والشأنُ (أنا الله): مبتدأٌ وخبرٌ، (العزيزُ الحكيمُ): صفتان للخبر، أو: يرجعُ إلى ما دلَّ عليه ما قبلَه؛ أي: إنَّ مُكَلِّمَك أنا، و(الله): بيانٌ لـ(أنا)، و(العزيز الحكيم): صفتان للمبيِّنِ، وهو تمهيدٌ لما أراد أن يُظهر على يده من المعجزات.

«١٠» ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ لتعلمَ معجزتَك فتأنسَ بها، وهو عطفٌ على (بورك)؛ لأن المعنى: نودي أن بورك من في النار، وأن ألق عصاك، كلاهما تفسيرٌ لـ(نودي)، والمعنى: قيل له: بورك من في النار، وقيل له: ألق عصاك، ويدلُّ عليه ما ذكر في (سورة القصص): ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١] بعد قوله: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ﴾ [القصص: ٣٠] على تكرير حرف التفسير، ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾: تتحرك: حالٌ من الهاء في (رآها)، ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾: حيةٌ صغيرةٌ: حالٌ من الضمير في (تهتز) ﴿وَلَّىٰ﴾ موسى ﴿مُدْبِرًا﴾: أدبر عنها وجعلها تَلِي ظهرَه خوفاً من وُثوب الحية عليه، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: ولم يلتفت، أو لم يرجع؛ يقال: قد عقَّبَ فلانٌ: إذا رجع يقاتل بعد أن وَلَّى، فنودي: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: لا يخاف عندي المرسلون حالَ خطابي إياهم، أو: لا يخاف لدي المرسلون من غيري.

---

(١) انظر «الكشاف» (٣/ ٣٥٤).

(٢) أي: إذا كان خبر أَنْ جملةً فعلُها دعاءٌ.. لم يُفصل بينها وبين خبرها، فمراده بالعوض: الفاصلُ، نحو: علمتُ أن قد تذهبُ.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ ....

《١١》 ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: لكن مَن ظلمَ مِن غيرِهم؛ لأن الأنبياء لا يظلمون، أو: لكن من ظلم منهم: أي: زلَّ من المرسلين فجاء منه غيرُ ما أذنت له مما يجوز على الأنبياء، كما فَرَطَ من آدمَ ويونسَ وداودَ وسليمانَ عليهم السلام، ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ أي: أتبع توبةً ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾: زلةٍ، ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ أقبلُ توبتَه وأغفرُ زلتَه وأرحمُه فأحقق أمنيتَه، وكأنه تعريضٌ بما قال موسى حين قتل القبطي: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ١٦].

《١٢》 ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾: جيبِ قميصِك وأخرجْها، ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾: نيرةً تغلب نور الشمس، ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: برصٍ، و(بيضاءَ) و(من غير سوء): حالان، ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾: كلامٌ مستأنَفٌ، و(في): يتعلق بمحذوف؛ أي: اذهب في تسع آيات، أو: وألق عصاك وأدخل يدك في جملة تسع آيات، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ (إلى): يتعلقُ بمحذوف؛ أي: مرسلاً إلى فرعونَ وقومه، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾: خارجين عن أمر الله كافرين.

《١٣》 ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: معجزاتُنا ﴿مُبْصِرَةً﴾: حالٌ؛ أي: ظاهرةً بيِّنةً، جُعِلَ الإبصارُ لها، وهو في الحقيقة لمتأمِّليها؛ لملابستِهم إياها بالنظر والتفكر فيها[1]، أو: جعلت كأنها تبصر فتهدي؛ لأن العُمْيَ لا تقدر على الاهتداء فضلاً أن تهدي غيرها، ومنه قولهم: كلمةٌ عمياءُ وعوراءُ؛ لأن الكلمة الحسنة تُرشدُ، والسيئةَ تُغوي[2]، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾: ظاهرٌ لمن تأملَه، وقد قوبل بين المبصرة والمبين.

《١٤》 ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ قيل: الجُحودُ لا يكون إلا مِن علمٍ من الجاحدِ، وهذا ليس بصحيح؛ لأن الجحود هو الإنكار، وقد يكون الإنكار للشيء للجهل به، وقد يكون بعد المعرفة تعنتاً، كذا ذكر في «شرح التأويلات»[3]، وذكر في «الديوان»: يقال: جحدَ حقَّه وبحقه، بمعنىً، والواوُ في ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾: للحال، وقدْ بعدَها مضمرةٌ، والاستيقانُ أبلغُ من الإيقان، ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ أي: جحدوا بألسنتهم واستيقنُوها في قلوبهم وضمائرِهم، ﴿ظُلْمًا﴾: حالٌ من الضمير

---

(١) فهو مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى سببه.

(٢) فهي استعارة مكنية، حيث شبهت الآيات بشخص مبصر.

(٣) انظر «تأويلات أهل السنة» (٣/ ٥٥٣).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ ....

في (جحدوا)، وأيُّ ظلم أفحشُ مِن ظلم من استيقن أنها آياتٌ من عند الله ثم سمّاها سحراً بيّناً؟ ﴿وَعُلُوًّا﴾: وتكبراً وترفعاً عن الإيمان بما جاء به موسى، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ وهو الإغراقُ هنا، والإحراق ثَمّةَ.

《١٥》 ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾: أعطينا ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾: طائفةً من العلم، أو: علماً سَنِيّاً غزيراً؛ والمرادُ: علمُ الدين والحُكْمِ، ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ والآيات حجةٌ لنا على المعتزلة في ترك الأصلح، وهنا محذوفٌ ليصحَّ عطفُ الواو عليه، ولولا تقديرُ المحذوف.. لكان الوجهُ الفاءَ، كقولك: أعطيتُه فشكر، وتقديره: آتيناهما علماً فعمِلا به وعلَّماه، وعَرَفا حقَّ النعمة فيه، وقالا: الحمدُ لله الذي فضلنا، والكثيرُ المفضَّلُ عليه: من لم يُؤتَ علماً، أو: مَن لم يُؤتَ مثلَ علمِهما، وفيه: أنهما فُضِّلا على كثيرٍ، وفُضِّلَ عليهما كثيرٌ، وفي الآية دليلٌ على شرف العلم وتقدُّمِ حَمَلَتِه وأهلِه، وأن نعمة العلم من أجلِّ النعمِ، وأن مَن أُوْتِيَه.. فقد أُوتيَ فضلاً على كثيرٍ من عباده، وما سمّاهم رسولُ الله ﷺ ورثةَ الأنبياءِ إلا لِمُداناتِهم لهم في الشرف والمنزلة؛ لأنهم القُوّامُ بما بُعثُوا من أجله، وفيها: أنه يلزمُهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمَدوا اللهَ على ما أُوتُوه، وأن يعتقدَ العالم أنه إن فُضِّلَ على كثير.. فقد فُضِّلَ عليه مثلُهم، وما أحسنَ قولَ عمرَ رضي الله عنه: كلُّ الناس أفقهُ من عمر[1].

《١٦》 ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ ورثَ منه النبوةَ والملك دون سائرِ بَنِيْهِ، وكانوا تسعةَ عشرَ، قالوا: أُوتيَ النبوةَ مثلَ أبيه، فكأنه ورثَه، وإلا.. فالنبوةُ لا تُورثُ، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ تشهيراً لنعمة الله تعالى، واعترافاً بمكانها، ودعاءً للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي عِلْمُ مَنطقِ الطيرِ، والمنطقُ: كلُّ ما يُصوَّتُ به من المفرَدِ والمؤلَّفِ المفيدِ وغيرِ المفيدِ، وكان سليمان عليه السلام يفهمُ عنها كما يفهمُ بعضُها عن بعض، روي: أنه صاحت فاختةٌ فأخبرَ أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يُخلَقوا، وصاح طاووسٌ فقال: يقول: كما تَدين تُدان، وصاح هُدْهُدٌ فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبين، وصاح خُطّافٌ فقال: يقول: قَدموا خيراً تجدوه، وصاحت رَخَمَةٌ فقال: تقول: سبحان ربي الأعلى ملءَ سمائِه وأرضِه، وصاح قُمْرِيٌّ فأخبرَ أنه يقول: سبحان ربي الأعلى، وقال: الْحِدَأَةُ تقول: كلُّ شيءٍ هالك إلا الله، والقَطاةُ تقول: من

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٢٣٣).

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾ ....

سكت.. سَلِمَ، والديكُ يقول: اذكروا الله يا غافلون، والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئتَ آخرُك الموتُ، والعُقاب يقول: في البعد من الناس أُنْسٌ، والضِّفدعُ يقول: سبحان ربي القُدُّوس، ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ المرادُ به كثرةُ ما أُوتيَ، كما تقول: فلانٌ يعلم كل شيء، ومثلُه: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦﴾: قولٌ واردٌ على سبيل الشكر، كقوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخرَ»[1] أي: أقول هذا القولَ شكراً، ولا أقولُه فخراً، والنونُ في (عُلِّمْنا) و(أوتينا) نونُ الواحدِ المُطاعِ، وكان مَلِكاً مُطاعاً، فكلَّمَ أهل طاعته على الحال التي كان عليها[2]، وليس التكبرُ من لوازم ذلك.

《١٧》 ﴿وَحُشِرَ﴾: وجُمِعَ ﴿لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ رُوِيَ: أن مُعسكره كان مئةَ فرسخٍ في مئة فرسخٍ، خمسةٌ وعشرون للجن، وخمسةٌ وعشرون للإنس، وخمسةٌ وعشرون للطير، وخمسةٌ وعشرون للوحش، وكان له ألفُ بيت من قواريرَ على الخشب، فيها ثلاثُ مئةِ منكوحةٍ، وسبع مئةِ سُرِّيَّةٍ، قد نَسجت له الجن بِساطاً من ذهب وإِبْرِيسَم فرسخاً في فرسخ، وكان يُوضَع منبرُه في وسطه، وهو من ذهب وفضة، فيقعدُ عليه وحولَه ستُّ مئة ألف كرسي من ذهب وفضة، فتقعد الأنبياء على كراسيِّ الذهب، والعلماء على كراسي الفضة وحولَهم الناسُ، وحولَ الناس الجنُّ والشياطينُ، وتُظلُّه الطيرُ بأجنحتها حتى لا يقعَ عليه حرُّ الشمس، وتَرفع ريحُ الصَّبا البِساطَ فتسيرُ به مسيرة شهر، ويُروَى أنه كان يأمر الريح العاصفَ تحملُه، ويأمر الرُّخاءَ تُسيِّرُه، فأوحى الله تعالى إليه وهو يَسيرُ بين السماء والأرض: إني قد زِدْتُ في ملكك ألا يتكلم أحدٌ بشيء إلا ألقته الريحُ في سمعك، فيُحكَى أنه مرَّ بحرّاث فقال: لقد أُوتِيَ آلُ داود ملكاً عظيماً، فألقته الريح في أذنه، فنزل ومشى إلى الحرّاث وقال: إنما مشيتُ إليكَ لئلا تتمنَّى ما لا تقدرُ عليه، ثم قال: لَتسبيحةٌ واحدةٌ يقبلُها الله تعالى خيرٌ مما أوتِيَ آلُ داود، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾: يُحبسُ أولُهم على آخرهم؛ أي: يُوقَفُ سُلَافُ العسكرِ حتى يلحقَهم التوالي[3]؛ ليكونوا مجتمعين، وذلك للكثرة العظيمة، والوَزْعُ: المنعُ، ومنه قولُ عثمان رضي الله عنه: ما يَزَعُ السلطانُ أكثرُ مما يَزَعُ القرآنُ[4].

---

(١) رواه الترمذي (٣١٤٨) وابن ماجه (٤٣٠٨) عن سيدنا أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أي: بما يليق بحاله التي كان عليها.

(٣) **سلاف العسكر**: مقدمة الجيش، والتوالي: مؤخرة الجيش.

(٤) رواه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٨٨).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ ....

《١٨》 ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ أي: ساروا حتى إذا بلغوا واديَ النملِ، وهو وادٍ بالشام كثيرُ النمل، وعُدِّيَ بـ(على)؛ لأن إتيانَهم كان من فوقُ، فأتى بحرف الاستعلاء، ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ عرجاءُ تُسمَّى طاخية، أو منذرة، وعن قتادة: أنه دخل الكوفةَ فالتفَّ عليه الناسُ فقال: سلُوا عمّا شئتم، فسأله أبو حنيفة رضي الله عنه وهو شابٌّ عن نملةِ سليمانَ أكانت ذكراً أم أنثى؟ فأُفحمَ فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: كانت أنثى، فقيل له: بماذا عرفت؟ فقال: بقوله: قالت نملةٌ، ولو كانت ذكراً.. لقال: قال نملةٌ، وذلك أن النملة مثلُ الحمامة في وقوعِها على الذكر والأنثى، فيُميَّزُ بينهما بعلامةٍ، نحو قولهم: حمامةٌ ذكرٌ، وحمامةٌ أنثى، وهو، وهي[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ ولم يقل: ادخلنَ؛ لأنه لما جعلها قائلةً، والنملَ مقولاً لهم كما يكون في أولي العقل.. أَجْرى خطابَهن مُجرَى خطابِهم، ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾: لا يكسرنَّكم، والحَطْمُ: الكسرُ، وهو نهيٌ مستأنفٌ، وهو في الظاهر نهيٌ لسليمان عن الحَطْمِ، وفي الحقيقة نهيٌ لهن عن البُروز والوقوف؛ على طريقة: لا أَرَيَنَّكَ ههنا؛ أي: لا تحضرْ هذا الموضعَ، وقيل: هو جواب الأمر، وهو ضعيفٌ، يدفعه نونُ التأكيد؛ لأنه من ضرورات الشعر، ﴿سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ قيل: أراد: لا يحطمنكم جنودُ سليمانَ، فجاء بما هو أبلغ[2]، ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾: لا يعلمون بمكانكم؛ أي: لو شعروا.. لم يفعلُوا، قالت ذلك على وجه العذر واصفةً سليمانَ وجنودَه بالعدل.

《١٩》 فسمع سليمان قولَها من ثلاثة أميال، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾: متعجباً من

---

(١) اعترض أحمد بن المنير في «حاشيته على الكشاف» (٤/ ٤٤٠) على هذا بأن النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى؛ لأنه اسم جنس فيقال: نملة ذكر، ونملة أنثى، كما يقولون: حمامة ذكر وحمامة أنثى، وشاة ذكر وشاة أنثى، فلفظها مؤنث، ومعناها محتمِل، فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها وإن كانت واقعة على ذكر، فقوله تعالى: (قالت نملة) رُوعيَ فيه تأنيثُ اللفظ، وأما المعنى.. فيحتمل التذكير والتأنيث، ثم رجَّحَ عدمَ صحة هذه الحكاية.

وفي «تفسير الآلوسي» (١٠/ ١٧٣): والحزمُ القولُ بعدم صحة هذه الحكاية؛ فأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه مَن عرفتَ وإن كان إذ ذاك غلاماً حدثاً، وقتادةُ بنُ دعامة السدوسي بإجماع العارفين بالرجال كان بصيراً بالعربية، فيبعدُ كلَّ البعد وقوعُ ما ذكر منهما، والله تعالى أعلم.

(٢) هذا القول ضعيف؛ لأن فيه صرف اللفظ عن ظاهره بلا دليل؛ إذ لا مانع من أن يكون سيدنا سليمان مع جنوده حينئذ.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ....

حَذَرِها، واهتدائِها لمصالحِها، ونصيحتِها للنمل، أو: فرحاً لظهور عدلِه، و(ضاحكاً): حالٌ مؤكدة؛ لأن (تبسم) بمعنى: ضحك، وأكثرُ ضحك الأنبياء التبسم، كذا قاله الزجاج[1]، ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾: ألهمني، وحقيقته: كُفَّنِي عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك، ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من النبوة والعلم والملك، ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ لأن الإنعام على الوالدين إنعامٌ على الولد، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ في بقية عمري، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: وأدخلني الجنة برحمتك لا بصالحِ عملي؛ إذْ لا يدخلُ الجنةَ أحدٌ إلا برحمته، كما جاء في الحديث[2]، ﴿فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: في زمرة أنبيائك المرسلين، أو: مع عبادك الصالحين، روي: أن النملة أحسَّتْ بصوت الجنود ولا تعلمُ أنهم في الهواء، فأمر سليمان الريح فوقفت؛ لئلا يُذْعَرْنَ حتى دخلْن مساكنهن ثم دعا بالدعوة.

《٢٠》 ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ﴾: مكيٌّ وعليٌّ وعاصمٌ، وغيرُهم: بسكون الياء[3] والتفقدُ: طلب ما غاب عنك، ﴿لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (أم) بمعنى: بل: والمعنى: أنه تعرَّفَ الطيرَ فلم يجدْ فيها الهدهدَ فقال: ما لي لا أراه؛ على معنى: أنه لا يراه وهو حاضرٌ لساتر سترَه، أو غيرِ ذلك، ثم لاح له أنه غائب، فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: بل هو غائب، وذُكِرَ أن سليمان عليه السلام لما حجَّ.. خرج إلى اليمن، فوافى صنعاءَ وقت الزوال، فنزل ليصلي فلم يجد الماء، وكان الهدهد قُناقِنَهُ[4]، وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يُرى الماءُ في الزجاجة، فتستخرجُ الشياطينُ الماء، فتفقَّدَه لذلك، وذُكر أنه وقعت نفحةٌ من الشمس على رأس سليمان، فنظر فإذا موضعُ الهدهدِ خالٍ، فدعا عريفَ الطيرِ وهو النَّسْرُ، فسأله عنه فلم يجد عنده علمَه، ثم قال لسيد الطير وهو العُقابُ: عليَّ به، فارتفع فنظر فإذا هو مقبلٌ، فقصده فناشده اللهَ فتركَه، فلما قرب من سليمان.. أرخى ذَنَبَه وجناحَيه يَجُرُّهما على الأرض وقال: يا نبي الله، اذكر وقوفك بين يدي الله، فارتعد سليمانُ وعفا عنه.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ١١٢).

(٢) روى البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن ينجي أحداً منكم عملُه» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة...».

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٤).

(٤) **القُناقِنُ**: البصير بالماء تحت الأرض.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ ....

《٢١》 ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بنتفِ ريشِه وإلقائِه في الشمس، أو: بالتفريق بينه وبين إِلْفِهِ، أو: بإلزامه خدمةَ أقرانِه، أو: بالحبس مع أضداده، وعن بعضهم: أضيقُ السجون معاشرةُ الأضداد، أو: بإيداعه القفصَ، أو: بطرحه بين يدي النمل لِيَأْكُلْنَهُ، وحلَّ له تعذيبُ الهدهدِ لما رأى فيه من المصلحة، كما حلَّ ذبحُ البهائم والطيور للأكل وغيرِه من المنافع، وإذا سُخِّرَ له الطيرُ ولم يتمَّ التسخيرُ إلا بالتأديب.. حلَّ له التأديبُ والسياسةُ، ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى﴾: بالنون الثقيلة؛ ليشاكلَ قولَه: (لأعذبنه)، وحُذِفَ نونُ العِمادِ للتخفيف، ﴿لَيأْتِيَنَّنِي﴾: بنونين: مكيٌّ، الأولى: للتأكيد، والثانيةُ: للعماد[1]، ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾: بحجةٍ له فيها عذرٌ ظاهرٌ على غَيبتِه، والإشكالُ أنه حلفَ على أحد ثلاثة أشياء: اثنان منها فعلُه، ولا مقالَ فيه، والثالثُ فعلُ الهدهد، وهو مشكل؛ لأنه من أين دَرى أنه يأتي بسلطان حتى قال: والله ليأتيني بسلطان؟ والجوابُ: أن معنى كلامه: ليكوننَّ أحدُ الأمور؛ يعني: إن كان الإتيان بسلطان.. لم يكن تعذيبٌ ولا ذبحٌ، وإن لم يكن.. كان أحدُهما، وليس في هذا ادعاءُ درايةٍ.

《٢٢》 ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهدُ بعد تفقُّدِ سليمانَ إياه، وبضم الكاف: غيرُ عاصمٍ وسهلٍ ويعقوبَ[2]، وهما لغتان، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: مُكثاً غيرَ طويل، أو: غيرَ زمانٍ بعيد، كقولك: عن قريب، وَوَصَفَ مكثَه بقصر المدة للدلالة على إسراعه؛ خوفاً من سليمان، فلما رجع.. سأله عما لقي في غَيبته ﴿فَقَالَ أَحَطتُ﴾: علمتُ شيئاً من جميع جهاتِه، ﴿بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ألهم الله الهدهدَ فكافحَ سليمان بهذا الكلام، مع ما أُوتيَ من فضل النبوة والعلوم الجمَّةِ؛ ابتلاءً له في علمه، وفيه دليلُ بطلانِ قول الرافضة: إن الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحدٌ أعلمَ منه، ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأَ﴾: غيرُ منصرف: أبو عمرٍو، وجعله اسماً للقبيلة، أو المدينة، وغيرُه: بالتنوين[3]، جعله اسماً للحيِّ، أو الأبِ الأكبرِ، ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ النبأُ: الخبرُ الذي له شأنٌ، وقولُه: (من سبأ بنبإ) من محاسن الكلام، ويسمى البديعَ[4]، وقد حَسُنَ وبَدُعَ لفظاً ومعنى ههنا؛

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٤)، ونون العماد هي: نون الوقاية.

(٢) فتحَ الكافَ: رَوحٌ وعاصمٌ. انظر المرجع السابق.

(٣) قرأ البزيُّ والبصريُّ بفتح الهمز من غير تنوين، وقُنبلٌ: بإسكانها، والباقون: بكسرها منونةً. انظر المرجع السابق.

(٤) يسمَّى الجناسَ المزدوجَ، وهو من أقسام البديع. انظر «البلاغة العربية» لعبد الرحمن حبنكة (٢/ ٤٩٦).

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ....

ألا ترى أنه لو وُضِعَ مكان (بنبإ): بخبر.. لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصحُّ؛ لما في النبإ من الزيادة التي يطابقُها وصفُ الحال[1].

《٢٣》 ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ﴾ هي: بلقيسُ بنتُ شراحيلَ، وكان أبوها ملكَ أرضِ اليمن، ولم يكن له ولدٌ غيرُها، فغَلبتْ على الملك، وكانت هي وقومُها مجوساً يعبدون الشمس، والضميرُ في ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾: راجعٌ إلى سبأٍ على تأويل القوم، أو أهلِ المدينةِ، ﴿وَأُوتِيَتۡ﴾: حالٌ، وقدْ: مقدرةٌ، ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من أسباب الدنيا مما يليق بحالِها، ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ﴾: سريرٌ ﴿عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾: كبيرٌ، قيل: كان ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً، وطولُه في الهواء ثمانون ذراعاً، وكان من ذهب وفضة، وكان مُرَصَّعاً بأنواع الجواهر، وقوائمُه من ياقوتٍ أحمرَ وأخضرَ ودُرٍّ وزُمُرُّدٍ، وعليه سبعة أبيات، على كل بيت بابٌ مغلق، واستصغَرَ حالَها إلى حال سليمانَ، فاستعظَمَ عرشَها لذلك، وقد أخفى الله تعالى على سليمان ذلك لمصلحةٍ رآها، كما أخفى مكانَ يوسفَ على يعقوبَ عليهما السلام.

《٢٤》 ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيلِ التوحيدِ، ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إلى الحقِّ، ولا يبعدُ من الهدهدِ التهدِّي إلى معرفة الله تعالى، ووجوبِ السجودِ له، وحرمةِ السجودِ للشمس؛ إلهاماً من الله له، كما ألهمَه وغيرَه من الطيور وسائرِ الحيوانِ المعارفَ اللطيفةَ التي لا يكادُ العقلاءُ الرُّجَّاحُ العقولِ يهتدون لها.

《٢٥》 ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ﴾: بالتشديد؛ أي: فصدَّهم عن السبيل لئلا يسجدوا، فحُذفَ الجارُّ مع (أن)، وأُدغمت النون في اللام، ويجوز أن تكون (لا) مزيدةً، ويكون المعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا، وبالتخفيف: يزيدُ وعليٌّ[2]، وتقديره: ألا يا هؤلاء اسجدُوا، فـ(ألا): للتنبيه، و(يا): حرفُ نداء، ومناداه محذوفٌ، فمن شدَّدَ.. لم يقفْ إلا على ﴿ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، ومن

---

(١) قال الراغب في «المفردات في غريب القرآن» (ص ٧٨٨): النَّبأُ: خبرٌ ذو فائدة عظيمة يحصلُ به علمٌ أو غَلَبَة ظنّ، ولا يقال للخبر في الأصل: نبأٌ حتى يتضمّنَ هذه الأشياءَ الثّلاثةَ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٤).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ....

خفَّفَ.. وقف على ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ثم ابتدأ: (ألا يسجدوا)، أو وقف على (ألا يا) ثم ابتداء: (اسجدوا)، وسجدةُ التلاوة واجبةٌ في القراءتين جميعاً، بخلافِ ما يقوله الزجاجُ: إنه لا يجب السجودُ مع التشديد[1]؛ لأن مواضع السجدة إما أمرٌ بها، أو مدحٌ للآتي بها، أو ذمٌّ لتاركها، وإحدى القراءتين أمرٌ، والأخرى ذمٌّ للتارك، ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ سُمِّي المخبوءُ بالمصدر، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قتادة: خَبءُ السماءِ: المطرُ، وخَبءُ الأرض: النباتُ، ﴿وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وبالتاء فيهما: عليٌّ وحفصٌ[2].

《٢٦》 ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ وَصْفُ الهدهدِ عرشَ الله بالعِظَم تعظيمٌ له بالنسبة إلى سائر ما خَلَقَ من السموات والأرض، ووصفُه عرش بلقيس تعظيمٌ له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسِها من الملوك، إلى ههنا كلامُ الهدهدِ.

《٢٧》 فلما فرغ من كلامه ﴿قَالَ﴾ سليمانُ للهدهد: ﴿سَنَنظُرُ﴾ من النظر الذي هو التأملُ ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرتَ ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وهذا أبلغُ من: أم كذبت؛ لأنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلكِ الكاذبين.. كان كاذباً لا محالة، وإذا كان كاذباً.. اتُّهِمَ بالكذب فيما أخبرَ به فلم يوثَق به، ثم كتب سليمانُ كتاباً صورتُه: من عبد الله سليمانَ بنِ داود إلى بلقيسَ ملكةِ سبأٍ، بسم الله الرحمن الرحيم، السلامُ على من اتبع الهدى، أما بعدُ.. فلا تعلُوا عليَّ وأْتوني مسلمين، وطبعه بالمسك، وختمَه بخاتَمِه، وقال للهدهد:

《٢٨》 ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ﴾: بسكون الهاء تخفيفاً: أبو عمرٍو وعاصمٌ وحمزةُ، ويختلسُها كسرةً لتدلَّ الكسرةُ على الياء المحذوفة: يزيدُ وقالونُ ويعقوبُ، ﴿فألقهي﴾: بإثبات الياء: غيرُهم، ﴿إِلَيْهِمْ﴾: إلى بلقيسَ وقومِها؛ لأنه ذَكَرَهم معها في قوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾، وبُنيَ الخطابُ في الكتاب على لفظ الجمع لذلك، ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: تَنَحَّ عنهم إلى مكان قريب بحيث تراهم ولا يرونك؛ ليكون ما يقولونه بمسمعٍ منك، ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾: ما الذي يردُّونَه من الجواب.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ١١٥).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٥) وكذا القراءتان الآتيتان.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ....

《٢٩》 فأخذ الهدهدُ الكتابَ بمنقاره ودخل عليها من كُوَّةٍ، فطرح الكتاب على نحرِها وهي راقدةٌ، وتوارى في الكُوَّةِ، فانتبهت فَزِعَةً، أو: أتاها والجنودُ حوالَيها، فرفرفَ ساعةً، وألقى الكتاب في حِجْرِها وكانت قارئةً، فلما رأت الخاتم ﴿قَالَتْ﴾ لقومها خاضعةً خائفةً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ﴾ وبفتح الياء: مدنيٌّ، ﴿أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾: حسنٌ مضمونُه وما فيه، أو: مختومٌ، قال عليه الصلاة والسلام: «كرمُ الكتابِ ختمُه»[1]، وقيل: مَن كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختِمْه.. فقد استخفَّ به، أو: مُصَدَّرٌ بـ: بسم الله الرحمن الرحيم، أو: لأنه من عند مَلِكٍ كريم.

《٣٠》 ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾: هو تبيينٌ لما أُلْقِيَ إليها، كأنها لما قالت: إني ألقي إلي كتاب كريم.. قيل لها: ممن هو؟ وما هو؟ فقالت: إنه من سليمان وإنه كيتَ وكيتَ.

《٣١》 و(أن) في ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟﴾: لا ترتفعوا ﴿عَلَىَّ﴾، ولا تتكبروا كما تفعل الملوك.. مفسرةٌ؛ كقوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ [ص: ٦] يعني: أي: امشُوا، ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾: مؤمنين أو: منقادين، وكتبُ الأنبياء مبنيةٌ على الإيجاز والاختصار.

《٣٢》 ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾: أشيروا عليَّ في الأمر الذي نزل بي، والفتوى: الجوابُ في الحادثة، اشتقت على طريق الاستعارة من الفَتاءِ في السن[2]؛ والمرادُ هنا بالفتوى: الإشارةُ عليها بما عندهم من الرأي، وقصدُها بالرجوع إلى استشارتهم تطييبُ نفوسهم ليمالِئُوها ويَقوموا معها، ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾: فاصلةً أو ممضيةً حُكماً ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾: بكسر النونِ، والفتحُ لحنٌ؛ لأن النون إنما تُفتح في موضع الرفع، وهذا في موضع النصب، وأصله تشهدونني، فحذفت النونُ الأولى للنصب، والياءُ لدلالة الكسرة عليها، وبالياء في الوصل والوقف: يعقوب[3]؛ أي: تحضروني، أو: تشيرونَ وتشهدوا أنه صواب؛ أي: لا أَبُتُّ أمراً إلا بمحضركم، وقيل: كان أهلُ مشورتِها ثلاثَ مئةٍ وثلاثةَ عشرَ رجلاً، كلُّ واحد على عشرة آلاف.

---

(١) رواه الشهاب القضاعي في «مسنده» (١/ ٥٨).

(٢) والجامع بين المستعار والمستعار له إما الإحداث، كما يقال للفتى: هو حديث السن، أو القوة، فإن الفتى مظنة القوة. انظر «فتوح الغيب» (١١/ ٥١٩).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٦).

قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ....

«٣٣» ﴿قَالُوا۟﴾ مجيبين لها: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أرادوا بالقوة: قوةَ الأجسادِ والآلاتِ، وبالبأس: النجدةَ والبلاءَ في الحرب، ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: موكولٌ إليك، ونحن مطيعون لكِ، فمُرِيْنا بأمركِ نطعْكِ ولا نخالفْكِ، كأنهم أشاروا عليها بالقتال، أو: أرادوا: نحن من أبناء الحرب، لا من أبناء الرأي والمشورة، وأنت ذاتُ الرأي والتدبير، فانظري ماذا تَرَيْنَ نتبعْ رأيَكِ.

«٣٤» فلما أحسَّتْ منهم الميل إلى المحاربة.. مالت إلى المصالحة، ورتبت الجواب، فزيَّفَتْ أولاً ما ذكروه، وأرتْهم الخطأَ فيه؛ حيث قالت: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ عَنوةً وقهراً ﴿أَفْسَدُوهَا﴾: خرَّبُوها، ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾: أَذَلُّوا أعزتَها، وأهانُوا أشرافَها، وقَتلوا وأَسَرُوا، فذكرت لهم سوءَ مغبة الحرب ثم قالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أرادتْ: وهذه عادتهم المستمرةُ التي لا تتغير؛ لأنها كانت في بيت الملك القديم، فسمعت نحوَ ذلك، ورأتْ، ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية، وما رأت من الرأي السديد، وقيل: هو تصديق من الله لقولها. واحتجَّ الساعي في الأرض بالفساد بهذه الآية، ومن استباح حراماً.. فقد كفر، وإذا احتجَّ له بالقرآن على وجه التحريف.. فقد جمع بين كُفرَين.

«٣٥» ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ أي: مرسلةٌ رسلاً بهدية ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾: فمنتظرةٌ ﴿بِمَ﴾ أي: بما؛ إلا أن الألف تحذف مع حرف الجرِّ في ما الاستفهامية، ﴿يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾: بقبولها أم بِردِّها؟ لأنها عرفت عادة الملوك، وحسنَ مواقعِ الهدايا عندهم، فإن كان مَلِكاً.. قَبِلَها وانصرف، وإن كان نبيّاً.. ردَّها ولم يرضَ منا إلا أن نتبعَه على دينه، فبعثت خمسَ مئةِ غلام، عليهم ثيابُ الجواري وحُلِيُّهن، راكبي خيلٍ مُغشّاةٍ بالديباج، محلّاةِ اللُّجُم والسروج بالذهب المرصَّعِ بالجواهر، وخمسَ مئةِ جاريةٍ على رِماكٍ في زِيِّ الغِلمان، وألفَ لَبِنَةٍ من ذهب وفضة، وتاجاً مكللاً بالدرِّ والياقوت، وحُقّاً فيه دُرَّةٌ عَذراءُ، وجِزْعَةٌ مُعْوَجَّةُ الثقب[1]، وبعثت رسلاً، وأمَّرت عليهم المنذرَ بنَ عمرٍو؛ بدليل قوله تعالى: (بم يرجع المرسلون) وكتبت كتاباً في نسخة الهدايا، وقالت فيه: إن كنت نبيّاً.. فميِّزْ بين الوُصَفاءِ والوَصائفِ، وأَخبرْ بما في الحُقِّ، واثقب

---

(١) **درة عذراء**: جوهرة لم تثقب، **والجِزْعة**: نوع من الجواهر الملونة.

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ....

الدرةَ ثُقباً، واسلكْ في الخَرَزَةِ خيطاً، ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبانَ.. فهو مَلِكٌ، فلا يهولنك منظرُه، وإن رأيته بَشّاشاً لطيفاً.. فهو نبيٌّ، فأقبل الهدهدُ فأخبر سليمانَ الخبر كلَّه، فأمر سليمانُ الجنَّ فضربوا لَبِناتِ الذهب والفضة، وفرشُوها في مَيدانٍ بين يديه، طولُه سبعةُ فراسخَ، وجعلوا حولَ الميدان حائطاً، شُرَفُه من الذهب والفضة، وأمر بأحسنِ الدوابِّ في البرِّ والبحرِ فربطُوها عن يمين الميدان ويسارِه على اللَّبِناتِ، وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأُقيموا عن اليمين واليسار، ثم قعد على سريره والكراسيُّ من جانبيه، واصطفَّتِ الشياطين صفوفاً فراسخَ، والإنسُ صفوفاً فراسخَ، والوحشُ والسباعُ والطيورُ والهوامُّ كذلك، فلما دنا القوم ورأَوُا الدوابَّ تروثُ على اللَّبِنِ.. رمَوا بما معهم من الهدايا، ولما وقفوا بين يديه.. نظر إليهم سليمانُ بوجه طلقٍ، فأعطَوه كتاب الملكةِ، فنظر فيه وقال: أين الحُقُّ؟ فأمر الأَرَضَةَ فأخذت شعرةً ونَفَذَتْ في الدُّرَّةِ، وأخذت دودةٌ بيضاءُ الخيطَ بِفِيْها ونفذت فيها، ودعا بالماء فكانت الجاريةُ تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضربُ به وجهها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه، ثم ردَّ الهديةَ وقال للمنذر: ارجع إليهم.

《٣٦》 ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ رسولُها المنذرُ بنُ عمرٍو ﴿سُلَيْمَنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِيْ بِمَالٍ﴾: بنونين وإثبات الياء في الوصل والوقف: مكيٌّ وسهلٌ، وافقهما مدنيٌّ وأبو عمرٍو في الوصل، ﴿أَتُمِدُّونِّيْ﴾: حمزةُ ويعقوبُ في الحالين، وغيرُهم: بنونين بلا ياءٍ فيهما[١]، والخطابُ للرسل، ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من النبوة والملك والنعمة، وبفتح الياء: مدنيٌّ وأبو عمرٍو وحفصٌ[٢]، ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ من زخارفِ الدنيا، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الهديةُ: اسم المهدَى، كما أن العطية اسمُ المعطَى، فتُضافُ إلى المهدِي والمهدَى له؛ تقول: هذه هديةُ فلانٍ؛ تريد: هي التي أهداها، أو أُهديت إليه؛ والمعنى: إن ما عندي خيرٌ مما عندكم، وذلك أن الله آتاني الدينَ الذي فيه الحظُّ الأوفرُ، والغنى الأوسعُ، وآتاني من الدنيا ما لا يُستزادُ عليه، فكيف يَرضَى مثلي بأن يُمَدَّ بمال، بل أنتم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فلذلك تفرحون بما تُزادون ويُهدَى إليكم؛ لأن ذلك مبلغ همتِكم، وحالي خلافُ حالِكم، وما أرضَى منكم بشيء، ولا أفرحُ به إلا بالإيمان وترك المجوسية.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٦).

(٢) قرأ المدنيان والبصريُّ وحفصٌ ورويسٌ بإثبات ياء مفتوحة بعد النون في الوصل، وأما في الوقف.. فلقالونَ والبصريِّ وحفصٍ حذفُها وإثباتُها ساكنة، ولورشٍ وأبي جعفرٍ حذفُها، ولرويسٍ إثباتُها، وقرأ رَوحٌ بحذفها وصلاً، وإثباتِها وقفاً، ولقالونَ بحذفها في الحالين. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٦).

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

والفرقُ بين قولك: أتمدُّني بمال وأنا أغنى منك؟ وبين أن تقوله بالفاء: أني إذا قلتُه بالواو.. جعلتُ مخاطَبي عالماً بزيادتي في الغنى، وهو مع ذلك يمدُّني بمال، وإذا قلتُه بالفاء.. فقد جعلتُه ممن خفيت عليه حالي، فأنا أخبرُه الساعةَ بما لا أحتاجُ معه إلى إمدادِه، كأني أقول له: أُنكرُ عليك ما فعلت؛ فإني غنيٌّ عنه، وعليه وَرَدَ: (فما آتاني الله)، ووجهُ الإضراب: أنه لما أنكر عليهم الإمدادَ وعلَّلَ إنكاره.. أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه، وهو أنهم لا يعرفون سببَ رضاً ولا فرحٍ إلا أن يُهدَى إليهم حظٌّ من الدنيا التي لا يعلمون غيرَها.

《٣٧》 ﴿ٱرْجِعْ﴾: خطابٌ للرسول أو للهدهد محمَّلاً كتاباً آخرَ ﴿إِلَيْهِمْ﴾: إلى بلقيسَ وقومِها، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ﴾: لا طاقةَ ﴿لَهُم بِهَا﴾، وحقيقةُ القِبَلِ: المقاومةُ والمقابلةُ؛ أي: لا يقدرون أن يقابلُوهم، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾: من سبأٍ ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ الذُّلُّ: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العزِّ والملكِ، والصَّغارُ: أن يقعوا في أسرٍ واستبعادٍ.

《٣٨》 فلما رجع إليها رسولُها بالهدايا وقصَّ عليها القصةَ.. قالت: هو نبيٌّ، وما لنا به طاقةٌ، ثم جعلت عرشَها في آخرِ سبعة أبيات، وغلقت الأبواب، ووكَّلَت به حرساً يحفظونه، وبعثت إلى سليمان: إني قادمةٌ إليك لأنظرَ ما الذي تدعو إليه، وشَخَصَتْ إليه في اثني عشرَ ألفَ قَيْلٍ، تحت كل قَيْلٍ أُلوفٌ، فلما بلغت على رأس فرسخٍ من سليمان ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أراد أن يُريَها بذلك بعضَ ما خصَّه اللهُ تعالى به من إجراء العجائب على يده، مع إطلاعِها على عظمِ قدرةِ اللهِ تعالى، وعلى ما يشهدُ لنبوة سليمان، أو: أراد أن يأخذه قبل أن تُسلمَ لعلمِه أنها إذا أسلمت.. لم يَحِلَّ له أخذُ مالِها، وهذا بعيدٌ عند أهل التحقيق، أو: أراد أن يُؤتَى به فيُنكَّر ويُغيَّر ثم ينظرَ أتثبتُه أم تنكرُه اختباراً لعقلِها.

《٣٩》 ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: وهو الخبيثُ الماردُ، واسمُه ذكوانُ، ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾: مجلسِ حكمِك وقضائِك، ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾: على حمله ﴿لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾: آتي به كما هو، لا آخذُ منه شيئاً، ولا أُبدِّلُه، فقال سليمان عليه السلام: أريدُ أعجلَ مِن هذا.

《٤٠》 ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: مَلَكٌ بيده كتابُ المقادير، أرسله الله تعالى عند

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ....

قول العفريت، أو: جبريلُ عليه السلام، والكتابُ على هذا: اللوحُ المحفوظُ، أو: الخضرُ، أو آصَفُ بنُ بَرْخِيا كاتبُ سليمانَ، وهو الأصح، وعليه الجمهور، وكان عنده اسمُ الله الأعظم، الذي إذا دُعيَ به.. أجاب، وهو: يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، أو: يا إلهَنا وإلهَ كلِّ شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت، وقيل: له علم بمجاري الغيوب إلهاماً: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾: بالعرش، و(آتيك) في الموضعين: يجوز أن يكون فعلاً، أو اسمَ فاعلٍ؛ ومعنى قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: أنك تُرسلُ طرفك إلى شيء فقبلَ أن تَردَّه.. أبصرتَ العرشَ بين يديك، ويُروى أن آصَفَ قال لسليمان عليه السلام: مُدَّ عينيك حتى ينتهيَ طرفُك، فمدَّ عينيه، فنظر نحو اليمين، فدعا آصَفُ، فغارَ العرشُ في مكانه ثم نبعَ عند مجلس سليمانَ بقدرة الله تعالى قبلَ أن يرتدَّ طرفُه، ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي: العرشَ ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾: ثابتاً لديه غيرَ مضطربٍ ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ أي: حصولُ مرادي، وهو حضور العرش في مدةِ ارتدادِ الطرفِ ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ عليَّ وإحسانِه إليَّ بلا استحقاقٍ مني، بل هو فضل خالٍ من العوض، صافٍ عن الغرض، ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾: ليمتحنني ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ إنعامَه ﴿أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنه يَحُطُّ به عنها عِبْءَ الواجبِ ويصونُها عن سمةِ الكُفران، ويستجلبُ به المزيد، وترتبطُ به النعمة، فالشكرُ قيدٌ للنعمة الموجودة، وصيدٌ للنعمة المفقودة، وفي كلام بعضهم: إن كفران النعمة بَوارٌ، وقلما أقشعت نافرةٌ فرجعت في نصابها[1]، فاستدعِ شاردَها بالشكر، واستدمْ راهنَها بكرم الجِوارِ، واعلم أن سُبوغَ سَترِ الله تعالى مُتقلِّصٌ عمّا قريبٍ إذا أنت لم تَرْجُ لله وقاراً؛ أي: لم تشكر لله نعمَه، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بترك الشكر على النعمة ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عن الشكر، ﴿كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ بالإنعام على مَن يكفرُ نعمتَه، قال الواسطيُّ: ما كان منّا من الشكر.. فهو لنا، وما كان منه من النعمة.. فهو إلينا، وله المنةُ والفضلُ علينا.

《٤١》 ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾: غيِّروا؛ أي: اجعلوا مُقدَّمَه مُؤخَّرَه، وأعلاه أسفلَه ﴿نَنظُرْ﴾: بالجزم على الجواب، ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ إلى معرفة عرشِها، أو للجوابِ الصوابِ إذا سئلت عنه، ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾.

《٤٢》 ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ بلقيسُ ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ (ها): للتنبيه، والكافُ: للتشبيه، و(ذا):

---

(١) **أقشعت**: زالت.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ....

اسم إشارة، ولم يقل: أهذا عرشك؟ ولكن: أَمِثْلُ هذا عرشُك؛ لئلا يكون تلقيناً، ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فأجابت أحسنَ جوابٍ، فلم تقل: هو هو، ولا ليس به، وذلك من رجاحةِ عقلِها، حيث لم تقطع في المحتمِلِ للأمرين، أو: لما شبَّهوا عليها بقولهم: أهكذا عرشك؟ شبهت عليهم بقولها: كأنه هو، مع أنها علمت أنه عرشُها، ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾: من كلام بلقيسَ؛ أي: أوتينا العلم بقدرة الله تعالى، وبصحة نبوتك بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسل من قبل هذه المعجزة؛ أي: إحضارِ العرشِ، أو: من قبل هذه الحالةِ، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾: منقادين لك مطيعين لأمرك، أو: من كلام سليمانَ وملئِه، عطفُوا على كلامها قولَهم: وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قبلَ علمِها، أو: أوتينا العلم بإسلامها ومجيئِها طائعةً من قبل مجيئِها، وكنا مسلمين: موحدين خاضعين.

《٤٣》 ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: متصلٌ بكلام سليمان؛ أي: وصدَّها عن العلم بما عَلِمْناه، أو: عن التقدم إلى الإسلام عبادةُ الشمسِ ونَشْؤُها بين ظَهرانَي الكفرةِ، ثم بيَّنَ نَشْأَها بين الكَفَرَةِ بقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أو: كلامٌ مبتدأٌ؛ أي: قال الله تعالى: وصدَّها قبل ذلك عمّا دخلت فيه ضلالُها عن سواء السبيل، أو: صدَّها اللهُ، أو سليمانُ عمّا كانت تعبدُ، بتقدير حذف الجارِّ وإيصالِ الفعلِ.

《٤٤》 ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ أي: القصرَ، أو صحنَ الدارِ، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾: ماءً عظيماً، ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ ﴿سَأْقيها﴾: بالهمزة: مكيٌّ[1]، روي: أن سليمان أَمَرَ قبل قدومِها فَبُنِي له على طريقها قصرٌ من زجاج أبيضَ، وأجرى مِن تحته الماءَ، وألقى فيه السمك وغيرَه، ووضع سريرَه في صدره فجلس عليه، وعكفَ عليه الطيرُ والجنُّ والإنسُ، وإنما فعل ذلك؛ ليزيدَها استعظاماً لأمره، وتحقيقاً لنبوته، وقيل: إن الجن كرهوا أن يتزوجَها فتفضيَ إليه بأسرارهم؛ لأنها كانت بنتَ جنيةٍ، وقيل: خافوا أن يولدَ له منها ولدٌ يجمع فطنة الجن والإنس، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشدُّ، فقالوا له: إن في عقلها شيئاً، وهي شَعْراءُ

---

(١) هذه قراءة قنبل. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٦)، ووجه الهمز: أنه على لغة مَن يقلب الألف همزة، أو على التشبيه برأس وكأس. انظر «الدر المصون» (٨/ ٦٢٠).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ....

الساقين، ورِجلُها كحافر الحمار، فاخْتَبَرَ عقلَها بتنكير العرش، واتخذَ الصرحَ ليعرف ساقَها ورجلَها، فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً، إلا أنها شَعراءُ فصرف بصرَه ثم ﴿قَالَ﴾ لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾: مُمَلَّسٌ مستوٍ، ومنه: الأمرُد، ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾: من الزجاج، وأراد سليمان تزوجَها فكره شعرَها، فعملت لها الشياطينُ النُّورةَ فأزالته، فنكحها سليمانُ وأحبَّها وأقرَّها على ملكها، وكان يزورها في الشهر مرة، فيقيم عندها ثلاثةَ أيام، وولدت له، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بعبادة الشمس، ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ قال المحققون: لا يحتملُ أن يحتال سليمانُ لينظرَ إلى ساقيها وهي أجنبيةٌ، فلا يصلحُ القولُ بمثله.

«٤٥» ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ في النسبِ ﴿صَٰلِحًا﴾: بدلٌ، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: بكسر النون في الوصل: عاصمٌ وحمزةٌ وبصريٌّ، وبضم النون: غيرُهم إتباعاً للباء[1]؛ والمعنى: بأن اعبدوا الله وحده[2]، ﴿فَإِذَا﴾: للمفاجأة، ﴿هُمْ﴾: مبتدأٌ، ﴿فَرِيقَانِ﴾: خبرٌ ﴿يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾: صفةٌ، وهي العامل في (إذا)؛ والمعنى: فإذا قوم صالح فريقان: مؤمن به وكافر به يختصمون، فيقول: كلُّ فريق: الحقُّ معي، وهو مُبيَّنٌ في قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦]، وقال الفريق الكافر: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

«٤٦» ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: بالعذاب الذي تُوعدون ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: قبل التوبة، ﴿لَوْلَآ﴾: هلا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾: تطلُبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزولِ العذابِ بكم؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ بالإجابة.

«٤٧» ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾: تشاءَمْنا بك؛ لأنهم قُحِطُوا عند مبعثه لتكذيبهم، فنسبُوه إلى مجيئه، والأصلُ: ﴿تَطيرنا﴾، وقرئ به[3]، فأدغمت التاء في الطاء، وزيدت الألف لسكون

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٣٦).

(٢) ويجوز أن تكون (أن) مفسرة، لأن الإرسال فيه معنى القول.

(٣) انظر «الكشاف» (٣/ ٣٧٦) وهي شاذة.

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ....

الطاء، ﴿وَبِمَن مَّعَكَ﴾ من المؤمنين، ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: سببُكم الذي يجيءُ منه خيرُكم وشرُّكم عند الله، وهو قَدَرُهُ وقِسمتُه، أو: عملُكم مكتوبٌ عند الله، فإنما نَزَلَ بكم ما نَزَلَ عقوبةً لكم وفتنةً، ومنه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]، وأصلُه: أن المسافر إذا مرَّ بطائر.. يزجرُه، فإن مرَّ سانحاً.. تيامَن، وإذا مرَّ بارحاً.. تشاءم[(١)]، فلما نَسبُوا الخير والشر إلى الطائر.. استعيرَ لما كان سببَهما مِن قدر الله وقسمتِه، أو: مِن عملِ العبد الذي هو السببُ في الرحمة والنِّقمة، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾: تُختَبرون أو تعذبون بذنبكم.

《٤٨》 ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾: مدينةِ ثمودَ، وهي: الحِجْرُ، ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ هو جمعٌ لا واحدَ له، فلذا جاز تمييز التسعة به، فكأنه قيل: تسعةُ أنفسٍ، وهو من الثلاثة إلى العشرة، وعن ابن دريد: رأسُهم قُدَارُ بنُ سالفٍ، وهم الذين سَعَوا في عقر الناقة، وكانوا أبناءَ أشرافِهم، ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ يعني: أن شأنهم الإفسادُ البَحْتُ الذي لا يُخلَطُ بشيء من الصلاح، كما ترى بعضَ المفسدين قد يَنْدُرُ منه بعضُ الصلاح، وعن الحسن: يظلمون الناس ولا يَمنعون الظالمين من الظلم، وعن ابن عطاء: يتبعون معايبَ الناسِ، ولا يَسترون عوراتِهم.

《٤٩》 ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: تحالفوا، خبرٌ في محلِّ الحال بإضمارِ قَدْ؛ أي: قالوا متقاسمين، أو: أَمْرٌ؛ أي: أَمَرَ بعضُهم بعضاً بالقسم، ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾: لنقتلنه بياتاً؛ أي: ليلاً، ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾: ولدَه وتبعَه، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾: لولي دمِه، ﴿لَتُبَيِّتُنَّهُ﴾: بالتاء وضمِّ التاء الثانية، ﴿ثم لَتَقُولُنَّ﴾: بالتاء وضم اللام: حمزةُ وعليٌّ[(٢)]، ﴿مَا شَهِدْنَا﴾: ما حضرْنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾: حفصٌ، ﴿مَهْلَكَ﴾: أبو بكرٍ وحمادٌ والمفضلُ؛ مِن: هلكَ، فالأول: موضعُ الهلاك، والثاني: المصدر، ﴿مُهْلَكَ﴾: غيرُهم؛ مِن: أَهْلَكَ، وهو: الإهلاكُ، أو: مكانُ الإهلاك؛ أي: لم نتعرض لأهله، فكيف تعرضْنا له؟ أو: ما حضرنا موضعَ هلاكِه فكيف تَوَلَّيْناه؟ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فيما ذكرنا.

---

(١) السانحُ: ما مرَّ بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك، والبارح: ما مرَّ من الطير والوحش من يمينك إلى يسارك.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٦) وكذا القراءة الآتية.

وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ....

《٥٠》 ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ مكرُهم: ما أَخْفَوه من تدبير الفَتْكِ بصالحٍ وأهلِه، ومكرُ اللهِ: إهلاكُهم من حيث لا يشعرون، شُبِّهَ بمكر الماكر على سبيل الاستعارة، روي: أنه كان لصالحٍ مسجدٌ في الحِجرِ في شِعبٍ يصلي فيه، فقالوا: زعم صالحٌ أنه يَفْرُغُ منّا إلى ثلاث، فنحن نَفْرُغُ منه ومن أهله قبل الثالث، فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلي.. قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله صخرةً من الهَضْبِ حيالَهم[1]، فبادرُوا فطبقت الصخرة عليهم فَمَ الشِّعب، فلم يدر قومُهم أين هم، ولم يدرُوا ما فُعل بقومهم، وعذَّب اللهُ كلّاً منهم في مكانه، ونجّى صالحاً عليه السلام ومن معه.

《٥١》 ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾: بفتح الألف: كوفيٌّ وسهلٌ، وبكسرها: غيرُهم[2]؛ على الاستئناف، ومَن فَتَحَه.. رفعَه على أنه بدل مِن العاقبة، أو: خبر مبتدأ محذوف، تقديرُه: هي تدميرُهم، أو: نصبه على معنى: لِ(أنّا)[3]، أو: على أنه خبر كان؛ أي: كان عاقبةُ مكرهم الدمارَ، ﴿وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ بالصيحة.

《٥٢》 ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ﴾: ساقطةً منهدمةً؛ مِن: خَوَى النجم: إذا سقط، أو: خاليةً؛ مِن الخَواء، وهي: حالٌ عمل فيها ما دلَّ عليه (تلك)، ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾: بظلمهم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: فيما فُعِلَ بثمودَ ﴿لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ قدرتَنا فيتعظون.

《٥٣》 ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بصالحٍ ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ تركَ أوامرِه، وكانوا أربعة آلافٍ نَجَوا مع صالحٍ من العذاب.

《٥٤》 ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ﴾: واذكر لوطاً، و(إذْ): بدلٌ من (لوطاً) أي: واذكر وقت قولِ لوطٍ ﴿لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي: إتيانَ الذكورِ، ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾: تعلمون أنها فاحشةٌ لم

---

(١) الهَضْبُ: الجبلُ المنبسط على الأرض.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٦).

(٣) أي: لتدميرنا إياهم، ويكون ذلك تعليلاً للأمر بالنظر في كيفية عاقبة مكرهم. انظر «تفسير الآلوسي» (١٠/٢٠٨)، والنصب هنا على نزع الخافض، أو: أن محل المجرور النصب على أنه مفعول لأجله.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾ ....

تُسبقُوا إليها؛ مِن بَصَرِ القلب، أو: يَرى ذلك بعضُهم من بعض؛ لأنهم كانوا يرتكبونها في ناديهم مُعالِنين بها، لا يتستر بعضهم من بعض مَجانةً وانهماكاً في المعصية، أو: تبصرون آثارَ العُصاة قبلكم، وما نزل بهم، ثم صرَّحَ فقال:

《٥٥》 ﴿أَئِنَّكُمْ﴾: بهمزتين: كوفيٌّ وشاميٌّ[١]، ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾: للشهوة، ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: إن الله تعالى إنما خلق الأنثى للذكر، ولم يخلق الذكرَ للذكر، ولا الأنثى للأنثى، فهي مضادةٌ لله في حكمتِه، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾: تفعلون فعلَ الجاهلين بأنها فاحشةٌ مع علمكم بذلك، أو: أريد بالجهل السفاهةُ والمَجانةُ التي كانوا عليها، وقد اجتمع الخطابُ والغَيبةُ في قوله: (بل أنتم قوم تجهلون) و﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ۝٤٧﴾، فغُلِّبَ الخطابُ على الغَيبةِ؛ لأنه أقوى؛ إذ الأصل أن يكون الكلامُ بين الحاضرين[٢].

《٥٦》 ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ أي: لوطاً ومُتَّبعيه، فخبرُ (كان): (جواب)، واسمُه: (أن قالوا)، ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾: يتنزهون عن القاذورات فينكرون هذا العملَ القَذِرَ، ويَغِيظُنا إنكارُهم، قيل: هو استهزاءٌ، كقوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

《٥٧》 ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾: فخلَّصْناه من العذاب الواقع بالقوم، ﴿وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا﴾: بالتشديد: سوى حمادٍ وأبي بكر[٣]، أي: قدَّرْنا كونَها[٤] ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧﴾: من الباقين في العذاب.

《٥٨》 ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾: حجارةً مكتوباً عليها اسمُ صاحبها، ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾: الذين لم يقبلوا الإنذار.

---

(١) سَهَّلَ الهمزة الثانية مع الإدخال: قالونُ والبصريُّ وأبو جعفر، ومن غير إدخال: ورشٌ وابنُ كثير ورويسٌ، وحققها هشامٌ مع الإدخال وعدمه، والباقون: كذلك من غير إدخال. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٦).

(٢) الخطاب: (أنتم)، والغيبة: (قوم)؛ لأن الاسم الظاهر له حكم الغائب. انظر «إملاء ما من به الرحمن» (١/ ٤٧).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٧)، وهما لغتان: قَدَّرَ وقَدَرَ. انظر «الدر المصون» (٧/ ١٧٠).

(٤) قدَّرَ المضافَ؛ لأن التقديرَ يتعلق بالفعل لا بالذات. انظر «تفسير الآلوسي» (١٠/ ٢١٤).

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ ....

«٥٩» ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أمَرَ رسولَه محمداً ﷺ بتحميده، ثم بالسلام على المصطفَينَ من عباده؛ توطئةً لما يتلُوه من الدلالة على وَحدانيته وقدرتِه على كل شيء، وهو تعليم لكل متكلم في كل أمر ذي بالٍ بأن يتبركَ بهما، ويَسْتَظْهِرَ بمكانهما، أو: هو خطابٌ لِلُوطٍ عليه السلام بأن يحمدَ الله على هلاك كفار قومه، ويُسَلِّمَ على من اصطفاه الله ونجّاه من هَلَكَتِهم، وعصمَه من ذنوبِهم، ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾: بالياء: بصريٌّ وعاصمٌ[1]، ولا خيرَ فيما أشركوه أصلاً حتى يُوازَنَ بينه وبين من هو خالقُ كل شيء، وإنما هو إلزام لهم، وتهكُّمٌ بحالهم، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى، ولا يُؤْثِرُ عاقلٌ شيئاً على شيء إلا لِداعٍ يدعوه إلى إيثارِه من زيادة خيرٍ ومنفعةٍ، فقيل لهم[2]، مع العلم بأنه لا خيرَ فيما آثرُوه، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير، ولكن هوىً وعبثاً؛ لِيُنَبِّهُوا على الخطأ المُفْرِطِ، والجهلِ المُورِّطِ؛ وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد، وكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأها.. قال: «بل اللهُ خيرٌ وأبقى، وأجلُّ وأكرمُ»[3].

«٦٠» ثم عَدَّدَ سبحانه الخيراتِ والمنافعَ التي هي آثار رحمته وفضله فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والفرقُ بين (أم) و(أم) في ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، و﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النمل: ٦٠]: أنَّ تلك متصلةٌ؛ إذ المعنى: أيُّهما خيرٌ، وهذه منقطعة بمعنى: بلْ والهمزةِ، ولما قال: اللهُ خيرٌ أم الآلهةُ؟ قال: بل أَمَّنْ خلق السموات والأرض خيرٌ؟ تقريراً لهم بأن مَن قَدَرَ على خلق العالم خيرٌ من جمادٍ لا يقدر على شيء، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: مطراً، ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ صرفَ الكلامَ عن الغيبة إلى التكلم تأكيداً لمعنى اختصاص الفعل بذاته، وإيذاناً بأن إنبات الحدائق المختلفةِ الأصنافِ والألوانِ والطعومِ والأشكالِ مع حسنها بماء واحد.. لا يقدر عليه إلا هو وحدَه، ﴿بِهِۦ﴾: بالماء ﴿حَدَآئِقَ﴾: بساتين، والحديقة: البستان وعليه حائط؛ من الإحداق، وهو: الإحاطة، ﴿ذَاتَ﴾ ولم يقل: ذوات؛ لأن المعنى: جماعةُ حدائقَ، كما تقول:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٧).
(٢) أي: قيل لهم ذلك القولُ، وهو: (اللهُ خيرٌ...).
(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٤٣١) عن سيدنا علي بن الحسين رضي الله عنه.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ....

النساءُ ذهبت، ﴿بَهْجَةٍ﴾: حُسْنٍ؛ لأن الناظر يبتهجُ به، ثم رَشَّحَ معنى الاختصاص بقوله: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ ومعنى الكينونة: الانبغاءُ؛ أراد: أن تَأَتِّي ذلك محالٌ من غيره، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: أغيرُه يُقرنُ به ويُجعلُ شريكاً له؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ به غيرَه، أو: يَعدِلون عن الحق الذي هو التوحيد، و(بل هم) بعد الخطاب أبلغُ في تخطئة رأيِهم.

《٦١》 ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ﴾ وما بعده: بدلٌ من (أمن خلق)، فكان حكمُها حكمَه، ﴿قَرَارًا﴾: دحاها وسوّاها للاستقرار عليها، ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾: ظرفٌ؛ أي: وسطَها، وهو المفعولُ الثاني، والأولُ: ﴿أَنْهَٰرًا﴾، و(بين البحرين) مثلُه، ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾: للأرض، ﴿رَوَٰسِىَ﴾: جبالاً تمنعُها عن الحركة، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: العذبِ والمالحِ ﴿حَاجِزًا﴾: مانعاً أن يختلطا، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ التوحيد فلا يؤمنون.

《٦٢》 ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ الاضطرارُ: (افتعالٌ) من الضرورة، وهي الحالة المحوجَةُ إلى اللَّجأ؛ يقال: اضطره إلى كذا، والفاعلُ والمفعولُ: مُضْطَرٌّ[1]، والمضطرُّ: الذي أحوجَه مرضٌ أو فقرٌ أو نازلةٌ من نوازل الدهر إلى اللَّجأِ والتضرع إلى الله، أو: المذنبُ إذا استغفر، أو: المظلومُ إذا دعا، أو: من رفع يديه ولم يرَ لنفسه حسنةً غيرَ التوحيد، وهو منه على خطر، ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾: الضرَّ أو الجَوْرَ، ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فيها، وذلك توارثُهم سُكناها، والتصرفُ فيها قرناً بعد قرن، أو: أراد بالخلافة الملكَ والتسلطَ، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ وبالياء: أبو عمرٍو، وبالتخفيف: حمزةُ وعليٌّ وحفصٌ[2]، و(ما): مزيدةٌ؛ أي: تذكرون تذكراً قليلاً.

《٦٣》 ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾: يرشدكم بالنجوم ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: ليلاً، وبعلاماتٍ في

---

(١) أي: اسم الفاعل واسم المفعول: مُضْطَرٌّ، ولكن اسم الفاعل أصله: مُضْطَرِرٌ، واسم المفعول: مُضْطَرَرٌ.

(٢) قرأ هشامٌ والبصريُّ وروحٌ: ﴿يَذَّكَّرُون﴾، وحفصٌ والأخوان وخلفٌ: ﴿تَذَكَّرُون﴾، والباقون: ﴿تَذَّكَّرُون﴾. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٧).

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ....

الأرض نهاراً، ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ﴿الريح﴾: مكيٌّ وحمزةُ وعليٌّ[1]، ﴿بُشْرًا﴾: من البشارة، وقد مرَّ، ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾: قُدّامَ المطرِ، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

《٦٤》 ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾: يُنْشِئُ الخلقَ، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وإنما قيل لهم: (ثم يعيده) وهم منكرون للإعادة؛ لأنه أُزيحت عِلَلُهم بالتمكين من المعرفة والإقرار، فلم يبقَ لهم عذرٌ في الإنكار، ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: المطرَ، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ومن الأرض النباتَ، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾: حجتكم على إشراككم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ في دعواكم أن مع الله إلهاً آخرَ.

《٦٥》 ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (مَن): فاعلُ (يعلم)، و(الغيبَ) وهو: ما لم يقم عليه دليلٌ، ولا أُطْلِعَ عليه مخلوقٌ.. مفعولٌ، و(الله): بدلٌ مِن (من)؛ والمعنى: لا يعلم أحدٌ الغيبَ إلا اللهُ، نعمْ إن الله تعالى يتعالى عن أن يكون ممن في السموات والأرض، ولكنه جاء على لغة بني تميم؛ حيث يُجرون الاستثناءَ المنقطعَ مَجرَى المتصل، ويُجيزون النصب والبدل في المنقطع كما في المتصل، ويقولون: ما في الدار أحد إلا حمارٌ، وقالت عائشة رضي الله عنها: من زعم أنه يعلم ما في غدٍ.. فقد أعظم على الله الفِرْيَةَ، والله تعالى يقول: «قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله»[2]، وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله ﷺ عن وقت الساعة، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: وما يعلمون ﴿أَيَّانَ﴾: متى ﴿يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾: ينشرون.

《٦٦》 ﴿بل أَدْرَكَ﴾: مكيٌّ وبصريٌّ ويزيدُ والمفضلُ؛ أي: انتهى وتكامل؛ مِن: أَدركتِ الفاكهةُ: تكاملت نُضجاً، ﴿بلِ ادَّرَكَ﴾: عن الأعشى، (افتعل)، ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾: غيرُهم[3]؛ أي: استحكم، وأصلُه: تدارك، فأُدغمت التاءُ في الدال، وزِيدَ ألفُ الوصل لِيمكنَ التكلمُ بها،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٦٨)، والضمير في قولها: (أنه يعلم): يعود إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٧)، وقراءة ﴿بلِ ادَّرَكَ﴾: شاذةٌ، نقلها ابن جني في «المحتسب» (٢/ ١٤٢) عن الحسن.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ ....

﴿عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي: في شأن الآخرة ومعناها؛ والمعنى: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنةٌ قد حصلت لهم، ومُكِّنُوا من معرفته، وهم شاكُّون جاهلون، وذلك قولُه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾، والإضراباتُ الثلاثُ تنزيلٌ لأحوالهم، وتكريرٌ لجهلهم، وصفَهم أوّلاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون بأن القيامة كائنةٌ، ثم بأنهم يَخبِطون في شكٍّ ومِريةٍ، فلا يُزيلونه، والإزالةُ مستطاعةٌ، ثُمَّ بما هو أسوءُ حالاً وهو العَمَى، وقد جعل الآخرةَ مبتدأَ عَماهم ومَنشأه؛ فلذا عدّاه بـ(مِن) دون: عن؛ لأن الكفر بالعاقبة والجزاءِ هو الذي مَنَعهم من التدبُّرِ والتفكرِ، ووجهُ ملاءَمَةِ مضمونِ هذه الآيةِ، وهو وصفُ المشركين بإنكارهم البعثَ مع استحكامِ أسبابِ العلمِ، والتمكنِ من المعرفةِ بما قبله[1]، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب، وأن العباد لا علمَ لهم بشيءٍ منه.. أنه لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب، وكان هذا بياناً لعجزهم، ووصفاً لقصور علمِهم.. وصل به أن عندهم عجزاً أبلغَ منه، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بدَّ من كونه، وهو وقت جزاءِ أعمالِهم: لا يكونُ، مع أن عندهم أسبابَ معرفةِ كونِه، واستحكامِ العلم به، وجاز أن يكون وصفُهم باستحكام العلم وتكاملِه تهكماً بهم، كما تقول لأجهلِ الناسِ: ما أعلمك! على سبيل الهُزْؤِ، وذلك حيث شَكُّوا وعَمُوا عن إثباته، الذي الطريقُ إلى علمه مسلوكٌ، فضلاً أن يعرفوا وقت كونه، الذي لا طريقَ إلى معرفتِه، ويجوز أن يكون (أدرك) بمعنى: انتهى وفَنِيَ؛ مِن قولك: أَدْرَكَتِ الثمرةُ؛ لأن تلك غايتُها التي عندها تُعْدَمُ، وقد فسرها الحسنُ بـ: اضمحلَّ علمُهم في الآخرة، و(تدارك): من: تدارك بنو فلان: إذا تَتابعوا في الهلاك.

«٦٧» ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾ من قبورنا أحياءً، وتكريرُ حرف الاستفهام في (أئذا) و(أئنا) في قراءة عاصمٍ وحمزةَ وخلفٍ[2].. إنكارٌ بعد إنكار، وجحودٌ عقيب جحود، ودليلٌ على كفرٍ مؤكدٍ مبالَغٍ فيه، والعاملُ في (إذا): ما دلَّ عليه (لمخرجون)، وهو: نُخرَجُ؛ لأن اسم الفاعل والمفعول بعد همزة الاستفهام، أو إنَّ، أو لامِ الابتداء لا يعملُ فيما قبله، فكيف إذا اجتمعن؟ والضميرُ في (إنّا): لهم ولآبائهم؛ لأن كونهم تراباً قد تناولهم وآباءَهم، لكنه غُلِّبَتِ الحكايةُ على الغائب، و(آباؤنا): عطفٌ على الضمير في (كنّا)؛ لأن المفعول جرى مجرى التوكيد.

---

(١) قوله: (بما قبله): متعلق بملاءمة.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٧).

لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ....

«٦٨» ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي: البعث، ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾: من قبل محمدٍ ﷺ، قَدَّم هنا (هذا) على (نحن وآباؤنا)، وفي (المؤمنون) ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ على ﴿هَٰذَآ﴾ [المؤمنون: ٨٣]؛ لِيَدُلَّ على أن المقصود بالذكر هو البعثُ هنا، وثَمَّ المبعوث، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾: ما هذا إلا أحاديثُهم وأكاذيبُهم.

«٦٩» ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: آخرُ أمرِ الكافرين، وفي ذكرِ الإجرام لطفٌ بالمسلمين بترك الجرائم[(١)]، كقوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وقولِه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾ [نوح: ٢٥].

«٧٠» ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لأجل أنهم لم يتبعوك، ولم يُسْلِموا فيَسْلَموا، ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾: في حرجِ صدرٍ ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾: مِن مكرهم وكيدهم لك؛ فإن الله يعصمُك من الناس؛ يقال: ضاق الشيء ضَيقاً: بالفتح، وهو قراءة غيرِ ابنِ كثيرٍ، وبالكسر، وهو قراءتُه[(٢)].

«٧١» ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: وعدُ العذابِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ أن العذاب نازلٌ بالمكذِّبِ.

«٧٢» ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ استعجلوا العذابَ الموعودَ، فقيل لهم: عسى أن يكون رَدِفَكم بعضُه، وهو عذاب يوم بدر، فزيدت اللامُ للتأكيد، كالباء في ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، أو: ضُمِّنَ معنى فِعْلٍ يتعدَّى باللام، نحو: دَنا لكم، وأَزِفَ لكم؛ ومعناه: تَبِعَكم ولَحِقَكم، وعَسى، ولعل، وسوف في وعد الملوك ووعيدهم يدلُّ على صدق الأمرِ وجِدِّهِ، فعلى ذلك جرى وعدُ اللهِ ووعيدُه.

«٧٣» ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: إفضالٍ ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بترك المعاجلةِ بالعذاب، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: أكثرُهم لا يعرفون حقَّ النعمة فيه، ولا يشكرونه، فيستعجلون العذاب بجهلهم.

---

(١) أي: إرشاد للمؤمنين وتحذير من الإجرام.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٨).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ...﴾

《٧٤》 ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾: تخفي ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾: يُظهرون من القول، فليس تأخيرُ العذاب عنهم لخفاء حالِهم، ولكن له وقتٌ مقدَّرٌ، أو: أنه يعلم ما يُخفون وما يُعلنون من عداوة رسول الله ﷺ ومكايدِهم، وهو معاقبُهم على ذلك بما يستحقونه، وقرئ: ﴿تَكُنُّ﴾[1]؛ يقال: كَنَنْتُ الشيءَ وأكْنَنْتُه: إذا سترتَه وأخفيتَه.

《٧٥》 ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ سمي الشيءُ الذي يَغيبُ ويَخفى غائبةً وخافيةً، والتاءُ فيهما كالتاء في العاقبةِ والعافية، ونظائرُهما: الرَّمِيَّةُ والذَّبيحةُ والنَّطيحةُ في أنها أسماءٌ غيرُ صفات[2]، ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤُهما للمبالغة، كالراوية، كأنه قال: وما من شيء شديدِ الغَيبوبة إلا وقد علمه الله، وأحاط به، وأثبته في اللوح المحفوظ، والمُبينُ: الظاهرُ البيِّنُ لمن ينظر فيه من الملائكة.

《٧٦》 ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: يبينُ لهم ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ فإنهم اختلفوا في المسيح، فتحزَّبُوا فيه أحزاباً، ووقع بينهم التناكرُ في أشياءَ كثيرةٍ، حتى لعن بعضُهم بعضاً، وقد نزل القرآن ببيانِ ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا؛ يريدُ: اليهودَ والنصارى.

《٧٧》 ﴿وَإِنَّهُ﴾: وإن القرآن ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾: لمن أنصف منهم وآمن؛ أي: مِن بني إسرائيلَ، أو منهم ومن غيرهم.

《٧٨》 ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾: بين من آمن بالقرآن ومن كفر به، ﴿بِحُكْمِهِ﴾ أي: بعدلِه؛ لأنه لا يَقضي إلا بالعدل، فسمِّي المحكومُ به حكماً، أو بحكمته، ويدلُّ عليه قراءةُ مَن قرأ: ﴿بِحِكَمِهِ﴾[3]: جمعُ حِكمةٍ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يُرَدُّ قضاؤه، ﴿الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ بمن يقضي له، وبمن يقضي عليه، أو: العزيز في انتقامه من المبطلين، العليم بالفصل بينهم وبين المحقِّين.

《٧٩》 ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أمَرَه بالتوكل على الله، وقلةِ المبالاة بأعداءِ الدينِ، ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ وعللَ التوكل بأنه على الحقِّ الأبلجِ، وهو الدين الواضحُ الذي لا يتعلقُ به شكٌّ، وفيه بيانُ أن صاحب الحق حقيقٌ بالوُثوق بالله وبنصرته.

---

(١) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤٣١)، وهي شاذة.

(٢) أي: أن التاءَ دليلُ الاسمية. انظر «شرح الرضي على شافية ابن الحاجب» (١/ ١٧٥).

(٣) انظر «الكشاف» (٣/ ٣٨٧).

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ . . . .

«٨٠ - ٨١» ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ لما كانوا لا يَعُون ما يسمعون، ولا به ينتفعون.. شُبِّهوا بالموتى وهم أحياءٌ صِحاحُ الحواسِّ، وبالصمِّ الذين يُنعَقُ بهم فلا يسمعون، وبالعُمْيِ حيث يَضلون الطريقَ ولا يقدرُ أحدٌ أن ينزع ذلك عنهم ويجعلَهم هداةً بُصراءَ إلا اللهُ جلَّ وعزَّ، ثم أكَّد حالَ الأصمِّ بقوله: (إذا ولوا مدبرين)؛ لأنه إذا تباعدَ عن الداعي؛ بأن تولى عنه مدبراً.. كان أبعد عن إدراك صوته، ﴿ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ﴾: مكيٌّ، وكذا في (الروم)[1]، ﴿وما أنت تَهْدِيْ العُمْيَ﴾ وكذا في (الروم): حمزةُ[2]، ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ما يُجدي إسماعُكَ إلا على الذين علمَ اللهُ أنهم يؤمنون بآياته؛ أي: يُصدِّقُون بها، ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾: مخلصون؛ من قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] يعني: جعله سالماً لله خالصاً له.

«٨٢» ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ سَمَّى معنى القول ومؤدّاه بالقول، وهو ما وُعِدوا من قيام الساعة والعذاب، ووقُوعُه: حصولُه؛ والمرادُ: مُشارَفَةُ الساعة وظهورُ أشراطِها، وحين لا تنفعُ التوبةُ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ هي: الجَسَّاسَةُ، في الحديث: «طولها ستون ذراعاً، لا يدركها طالبٌ، ولا يفوتُها هاربٌ، ولها أربعُ قوائمَ، وزَغَبٌ وريشٌ وجناحان»[3]، وقيل: لها رأسُ ثَوْرٍ، وعيُن خنزيرٍ، وأذنُ فيلٍ، وقَرنُ إِيَّلٍ[4]، وعُنقُ نَعامةٍ، وصَدْرُ أسدٍ، ولونُ نَمِرٍ، وخاصرةُ هرةٍ، وذنبُ كبشٍ، وخُفُّ بعيرٍ، وما بين المفصلين: اثنا عشر ذراعاً، تخرجُ من الصفا فتكلمُهم بالعربية فتقول: ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يوقنون بخروجي؛ لأن خروجها من الآيات، وتقول: ألا لعنةُ الله على الظالمين، أو: تكلمُهم ببطلان الأديان كلِّها سوى دين الإسلام، أو: بأن هذا مؤمن وأن هذا كافر، وفتحَ ﴿أَنَّ﴾: كوفيٌّ وسهلٌ؛ على حذف الجار؛ أي: تكلمهم بأن، وغيرُهم: كسروا[5]؛ لأن الكلام بمعنى القول، أو: بإضمار القول؛ أي: تقول الدابة ذلك، ويكون المعنى: بآيات ربنا، أو هي حكايةٌ لقول الله تعالى عند ذلك.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٨، ٢٤٩).

(٢) انظر المرجع السابق (ص ٢٣٨، ٢٤٩).

(٣) روى نحوه الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٥/١١٠٨) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه.

(٤) **الأَيِّلُ**: بضم الهمزة وكسرها: الوعلُ، وهو: تَيسُ الجبل.

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٨).

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ....﴾

《٨٣》 ثم ذكر قيامَ الساعةِ فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ (من): للتبعيض؛ أي: واذكر يوم نجمعُ من كل أمة من الأمم زمرةً ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ﴾ (مِن): للتبيين، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المنزلَةِ على أنبيائنا، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾: يُحبَسُ أولُهم على آخرهم حتى يجتمعوا، ثم يُساقُون إلى موضع الحساب، وهذه عبارة عن كثرة العدد، وكذا الفوجُ: عبارةٌ عن الجماعة الكثيرة.

《٨٤》 ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾: حضروا موقف الحساب والسؤال ﴿قَالَ﴾ لهم تعالى تهديداً: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ المنزلةِ على رسلي، ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ الواوُ: للحال، كأنه قال: أكذبتم بآياتي بادئَ الرأيِ من غير فكرٍ ولا نظرٍ يُؤَدِّيْ إلى إحاطة العلم بِكُنْهِها، وأنها حقيقةٌ بالتصديق أو بالتكذيب، ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ حيثُ لم تتفكروا فيها، فإنكم لم تُخلقُوا عبثاً.

《٨٥》 ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: يغشاهم العذابُ الموعودُ بسبب ظلمهم، وهو التكذيب بآيات الله، فيشغلهم عن النطق والاعتذار، كقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥].

《٨٦》 ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: حالٌ، جُعِلَ الإبصارُ للنهار وهو لأهله[1]، والتقابلُ مُراعىً من حيث المعنى؛ لأن معنى (مبصراً) ليُبصِروا فيه طرقَ التقلب في المكاسب، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾: يصدقون فيعتبرون، وفيه دليل على صحة البعث؛ لأن معناه: ألم يعلموا أنا جعلنا الليل والنهار قِواماً لمعاشهم في الدنيا؛ ليعلموا أن ذلك لم يجعل عبثاً، بل محنة وابتلاءً، ولا بدَّ عند ذلك من ثواب وعقاب، فإذا لم يكونا في هذه الدار.. فلا بدَّ من دار أخرى للثواب والعقاب.

《٨٧》 ﴿وَيَوْمَ﴾: واذكرْ يومَ ﴿يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ وهو: قرنٌ، أو: جمع صورة، والنافخ إسرافيلُ عليه السلام، ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ واختير: فَزِعَ على: يفزع؛ للإشعار بتحقق الفزع وثبوتِه، وأنه كائن لا محالةَ؛ والمراد: فزعُهم عند النفخة الأولى حين يُصعَقون،

---

(١) فهو مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى زمانه.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: إلا من ثَبَّتَ اللهُ قلبَه من الملائكة، قالوا: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام، وقيل: الشهداء، وقيل: الحورُ وخزنةُ النارِ وحملةُ العرشِ، وعن جابر رضي الله عنه: منهم موسى عليه السلام؛ لأنه صَعِقَ مرةً، ومثلُه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾: حمزةُ وحفصٌ وخلفٌ، ﴿آتُوه﴾: غيرُهم[1]، وأصلُه: آتِيُوه، ﴿دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾: حالٌ؛ أي: صاغرين؛ ومعنى الإتيان: حضورُهم الموقفَ، أو: رجوعُهم إلى أمره تعالى، وانقيادُهم له.

《٨٨》 ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا﴾: بفتح السين: شاميٌّ وحمزةُ ويزيدُ وعاصمٌ، وبكسرها: غيرُهم[2]، حالٌ من المخاطب، ﴿جَامِدَةً﴾: واقفةً ممسكةً عن الحركة؛ مِن: جَمَدَ في مكانه: إذا لم يَبْرَحْ، ﴿وَهِىَ تَمُرُّ﴾: حالٌ من الضمير المنصوب في (تحسبها)، ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: مَرّاً مثل مرِّ السحاب؛ والمعنى: أنك إذا رأيت الجبالَ وقت النفخة.. ظننتَها ثابتةً في مكان واحد لِعِظَمِها، وهي تسير سيراً سريعاً[3]، كالسحاب إذا ضربتْه الريحُ، وهكذا الأجرام العِظامُ المتكاثرة العدد، إذا تحركت.. لا تكاد تَبِينُ حركتُها، كما قال النابغةُ في صفة جيشٍ[4]: [من: الطويل]

بأرعَنَ مثلِ الطَّودِ تحسب أنهم ... وقوفٌ لِحاجٍ والركابُ تُهملجُ

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾: مصدرٌ عمل فيه ما دلَّ عليه (تمرُّ)؛ لأن مرورها كمرِّ السحاب من صنع الله، فكأنه قيل: صنع الله ذلك صنعاً، وذكر اسم الله؛ لأنه لم يُذكرْ قبلُ، ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أَحكمَ خلقَه، ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾: مكيٌّ وبصريٌّ غيرَ سهلٍ، وأبو بكر غيرَ يحيى، وغيرُهم: بالتاء[5]؛ أي: أنه عالم بما يفعل العباد، فيكافئُهم على حسب ذلك، ثم لَخَّصَ ذلك بقوله:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٨).

(٢) انظر المرجع السابق.

(٣) رجح الطاهر بن عاشور أن المراد سير الجبال الآن في الدنيا، وذلك إشارة إلى دوران الكرة الأرضية. انظر «التحرير والتنوير» (٢٠/ ٥٠).

(٤) البيت للنابغة الجعدي كما في «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٠٦)، والأرعن: الجيش الكثير، الطود: الجبل، حاج: جمع حاجة، تُهملِجُ: تسيرُ السَّيرَ الحَسَن في سرعةٍ.

(٥) قرأ ابن كثير وهشامٌ والبصريان: بالياء، والباقون: بالتاء. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٨).

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ....

《٨٩》 ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ أي: بقول: لا إله إلا الله، عند الجمهور، ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ أي: فله خيرٌ حاصل من جهتها وهو الجنة، وعلى هذا لا يكون (خير) بمعنى: أفضل، ويكون (منها): في موضع رفعٍ صفةٌ لـ(خير) أي: بسببها[1]، ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ﴾: كوفيٌّ، من فزعٍ شديدٍ مفرطِ الشدةِ، وهو خوف النار، أو: من فزعٍ ما وإن قلَّ، وبغير تنوين: غيرُهم[2]، ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: كوفيٌّ ومدنيٌّ، وبكسر الميم: غيرُهم؛ والمرادُ يومُ القيامة، ﴿ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أَمِنَ: يُعدَّى بالجارِّ وبنفسه، كقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأعراف: ٩٩].

《٩٠》 ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: بالشرك ﴿فَكُبَّتۡ﴾: أُلْقِيَتْ ﴿وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ يقال: كببتُ الرجل: ألقيتُه على وجهه؛ أي: أُلْقوا على رؤوسهم في النار، أو: عُبِّرَ عن الجملة بالوجه، كما يُعبَّرُ بالرأس والرقبة عنها؛ أي: أُلقُوا في النار، ويقال لهم تبكيتاً عند الكبِّ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ في الدنيا من الشرك والمعاصي.

《٩١》 ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾: مكة، ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾: جعلها حرماً آمناً، يأمن فيها اللاجئُ إليها، ولا يُختلَى خَلاها[3]، ولا يُعضَدُ شوكُها، ولا يُنفَّرُ صيدُها، ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ مع هذه البلدة، فهو مالكُ الدنيا والآخرة، ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾: المنقادين له.

《٩٢》 ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾: من التلاوة، أو: مِن التُّلُوِّ[4]، كقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ [الأحزاب: ٢] أمرَ رسولَه بأن يقول: أمرتُ أن أخصَّ الله وحدَه بالعبادة، ولا أتخذَ له شريكاً كما فعلت قريشٌ، وأن أكون من الحُنفاءِ الثابتين على ملةِ الإسلام، وأن أتلوَ القرآنَ

---

(١) ويصح كونه اسم تفضيل؛ والمعنى: فله جزاءٌ أفضلُ من حسنة واحدة؛ كقوله تعالى: ﴿فله عشر أمثالها﴾ [الأنعام: ١٦٠]، أو خيرٌ منها شرفاً؛ لأن الحسنة من فعل العبد، والجزاءُ عليها من عطاء الله. انظر «التحرير والتنوير» (٢٠/ ٥٢).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٨) وكذا القراءة الآتية.

(٣) **الخَلَى**: الرَّطْبُ مِنَ النَّبات.

(٤) يقال: تلوتُ الرجلَ أَتْلُوْهُ تُلُوّاً: تَبعتُه.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾

لأعرفَ الحلالَ والحرامَ وما يقتضيه الإسلامُ، وخَصَّ مكةَ من بين سائر البلاد بإضافةِ اسمِه إليها، لأنها أحبُّ بلاده إليه، وأعظمُها عنده، وأشار إليها بقوله: (هذه) إشارةَ تعظيمٍ لها وتقريب، دالّاً على أنها موطن نبيه، ومَهبِطُ وحيه، ووصف ذاتَه بالتحريم الذي هو خاصُّ وصفِها، وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتَهما، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ باتباعه إياي فيما أنا بصدده من توحيد اللهِ، ونفْي الشركاء عنه، والدخولِ في الملةِ الحنيفيةِ، واتباعِ ما أُنزلَ عليَّ من الوحي ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ﴾: فمنفعةُ اهتدائِه راجعةٌ إليه لا إليَّ، ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝٩٢﴾ أي: ومن ضلَّ ولم يتبعْني.. فلا عليَّ، وما أنا إلا رسولٌ منذرٌ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

«٩٣» ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾ ثم أمرَه أن يحمَدَ الله على ما خوَّلَه من نعمة النبوة التي لا تُقاربها نعمةٌ، وأن يُهدِّدَ أعداءَه بما سيريهم الله من آياته في الآخرة، فسيستيقنون بها، وقيل: هو انشقاقُ القمر والدخانُ وما حلَّ بهم من نِقْمات الله في الدنيا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾: بالتاء: مدنيٌّ وشاميٌّ وحفصٌ ويعقوبُ، خطابٌ لأهل مكة، وبالياء: غيرُهم[1]؛ أي: كلُّ عملٍ يعملونه.. فإن الله عالم به، غيرُ غافلٍ عنه، فالغفلةُ والسهوُ لا يَجوزان عليه.



(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٩).

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ ....

سورة القصص

مكيةٌ، وهي: ثمانٍ وثمانون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١ - ٢》 ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ يقال: بان الشيءُ، وأبانَ بمعنىً واحدٍ، ويقال: أَبَنْتُه، فأبانَ: لازمٌ ومتعدٍّ؛ أي: مبينٌ خيرُه وبركتُه، أو: مبين للحلال والحرام، والوعد والوعيد، والإخلاص والتوحيد.

《٣》 ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾: نقرأ عليك؛ أي: يقرؤه جبريل بأمرنا، ومفعول (نتلو): ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: نتلو عليك بعضَ خبرِهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حالٌ؛ أي: مُحقِّين، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾: لمن سبق في علمنا أنه مؤمن؛ لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دونَ غيرِهم.

《٤》 ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾: جملةٌ مستأنفةٌ كالتفسير للمجمَلِ، كأن قائلاً قال: وكيف كان نبؤُهما؟ فقال: (إن فرعون) ﴿عَلَا﴾: طغى وجاوز الحدَّ في الظلم، واستكبر وافتخر بنفسه، ونسي العبوديةَ، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أرضِ مملكتِه؛ يعني: مصرَ، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾: فِرَقاً يُشيِّعُونه على ما يريد[1]، ويُطيعونه، لا يملك أحدٌ منهم أن يَلويَ عنقَه، أو: فِرَقاً مختلفة، يُكرمُ طائفة ويُهينُ أُخرى، فأكرم القبطيَّ وأهان الإسرائيليَّ، ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ هم: بنو إسرائيلَ، ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: يتركُ البناتِ أحياءً للخدمة، وسببُ ذبح الأبناء: أن كاهناً قال له: يولد مولودٌ في بني إسرائيلَ يذهب ملكُك على يده، وفيه دليلٌ على حمقِ فرعون؛ فإنه إن صَدَقَ الكاهنُ.. لم ينفعْه القتل، وإن كذب.. فلا معنى للقتل، و(يستضعف): حالٌ من الضمير في (جعل)، أو: صفةٌ لـ(شِيعاً)، أو: كلام مستأنفٌ، و(يذبِّحُ): بدلٌ من: (يستضعف)، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ أي: إن القتل ظلماً إنما هو فعل المفسدين؛ إذْ لا طائلَ تحته، صدقَ الكاهنُ أو كذبَ.

---

(١) يُشيِّعُونه: يتبعونه.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ ....

«٥» ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾: نتفضل، وهو دليل لنا في مسألة الأصلح، وهذه الجملة معطوفة على ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيراً لنبأِ موسى وفرعون، واقتصاصاً له، أو: حالٌ مِن ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ أي: يستضعفُهم فرعونُ ونحن نريدُ أن نمنَّ عليهم، وإرادةُ الله تعالى كائنة، فجعلت كالمقارِنة لاستضعافِهم، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾أي: قادةً يُقتدَى بهم في الخير، أو: دعادةً إلى الخير، أو: ولاةً وملوكاً، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ أي: يرثون فرعون وقومَه مُلْكَهم وكلَّ ما كان لهم.

«٦» ﴿وَنُمَكِّنَ﴾ مَكَّنَ له: إذا جعل له مكاناً يقعدُ عليه أو يرقد، ومعنى التمكينِ ﴿لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مصرَ والشامِ: أن يجعلها بحيث لا تَنْبُو بِهم، ويُسَلِّطهم، ويُنفذَ أمرَهم، ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾: بضم النون ونصبِ فرعونَ وما بعده، وبالياء ورفعِ فرعونَ وما بعده: عليٌّ وحمزةُ[1]؛ أي: يَرَون منهم ما حَذِرُوه من ذهاب ملكهم وهلاكِهم على يدِ مولودٍ منهم، و(يرى): نصبٌ عطفٌ على المنصوب قبله كقراءة النون، أو: رفعٌ على الاستئناف، ﴿مِنْهُم﴾: من بني إسرائيلَ، ويتعلق بـ(نُري) دون (يحذرون)؛ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول، ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ الحذرُ: التوقِّي من الضرر.

«٧» ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بالإلهام، أو بالرؤيا، أو بإخبار مَلَكٍ، كما كان لمريم، وليس هذا وحيَ رسالةٍ، فلا تكون هي رسولاً، ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (أن) بمعنى: أي، أو: مصدرية، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من القتل بأن يسمعَ الجيرانُ صوتَه فيَنُمُّوا عليه، ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾: البحر، قيل: هو نِيْلُ مصرَ، ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ من الغرقِ والضياع، ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ بفراقه، ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ بوجهٍ لطيفٍ لِتربيتِه، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ وفي هذه الآية: أمرانِ، ونهيانِ، وخبرانِ، وبِشارتانِ، والفرقُ بين الخوف والحزن: أن الخوف غَمٌّ يَلحق بالإنسان لمتوقَّعٍ، والحزنُ: غَمٌّ يلحقُ الإنسان لواقعٍ، وهو فراقُه، والإخطارُ به، فنُهيت عنهما، وبُشرت بردِّه إليها، وجعلِه من المرسلين.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٩).

﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾

وروي: أنه ذُبِحَ في طلب موسى تسعون ألفَ وليدٍ، وروي: أنها حين ضربها الطلقُ وكانت بعضُ القوابل الموكَّلاتِ بِحَبالَى بني إسرائيلَ مُصافيةً لها، فعالجتْها، فلما وقع إلى الأرض.. هالَها نورٌ بين عينيه، ودخل حبُّه قلبَها، فقالت: ما جئتُك إلا لأقتل مولودَك وأخبرَ فرعونَ، ولكن وجدت لابنك حبّاً ما وجدتُ مثله، فاحفظيه، فلما خرجت القابلةُ.. جاءت عيونُ فرعونَ، فلفَّتْه في خِرقةٍ ووضعته في تَنُّورٍ مسجورٍ ولم تعلمْ ما تصنعُ لما طاش من عقلها، فطلبُوا فلم يَلْقَوا شيئاً، فخرجُوا وهي لا تدري مكانَه، فسمعت بكاءَه من التنور، فانطلقت إليه وقد جعل الله النارَ برداً وسلاماً، فلما ألَحَّ فرعونُ في طلب الولدانِ.. أُوحِيَ إليها بإلقائه في اليمِّ، فألقته في اليم بعد أن أرضعتْه ثلاثةَ أشهرٍ.

《٨》 ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾: أخذَه، قال الزجاج: كان فرعون من أهل فارسَ مِن اصْطَخْرَ، ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا﴾ أي: ليصير الأمرُ إلى ذلك، لا أنهم أخذوه لهذا، كقولهم: للموت ما تلده الوالدة، وهي لم تلد لِأَنْ يموتَ ولدُها، ولكن المصير إلى ذلك، كذا قاله الزجاج[١]، وعن هذا قال المفسرون: إن هذه لامُ العاقبةِ والصيرورة، وقال صاحبُ «الكشاف»: هي لامُ كي، التي معناها التعليل، كقولك: جئتك لتكرمني، ولكن معنى التعليل فيها واردٌ على طريق المجاز؛ لأن ذلك لما كان نتيجة التقاطِهم له.. شبه بالداعي الذي يفعلُ الفاعلُ الفعلَ لأجله، وهو الإكرامُ الذي هو نتيجةُ المجيء، ﴿وَحَزَنًاۗ﴾ ﴿ وحُزْناً﴾: عليٌّ وحمزة[٢]، وهما لغتان، كالعَدَمِ والعُدْمِ.

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨﴾: ﴿ خاطِيْنَ﴾: تخفيفُ (خاطئين): أبو جعفر[٣]؛ أي: كانوا مذنبين، فعاقبهم الله بأن ربَّى عدوَّهم ومن هو سببُ هلاكهم على أيديهم، أو: كانوا خاطئين في كل شيء، فليس خطؤُهم في تربية عدوهم بِبِدْعٍ منهم.

《٩》 ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ روي: أنهم حين التقطُوا التابوت.. عالجُوا فتحَه فلم يَقدِروا عليه، فعالجوا كسره فأعياهم، فدنت آسيةُ فرأت في جوف التابوت نوراً،

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ١٣٣).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٣٩).

(٣) قرأ أبو جعفر: بحذف الهمزة مطلقاً، وحمزةُ وقفاً بالحذف والتسهيل. انظر المرجع السابق.

﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ ....

فعالجته ففتحتْه، فإذا بصبي نورُه بين عينيه فأحبُّوه، وكانت لفرعونَ بنتٌ برصاءُ فنظرت إلى وجهه فبرَأَتْ، فقالت الغُواةُ من قومه: هو الذي تحذر منه، فَائذنْ لنا في قتله، فهَمَّ بذلك، فقالت آسيةُ: (قرة عين لي ولك)، فقال فرعون: لك لا لي، وفي الحديث: «لو قال كما قالت.. لهداه الله تعالى كما هداها»[1]، وهذا على سبيل الفرض؛ أي: لو كان غيرَ مطبوعٍ على قلبه كآسيةَ.. لقال مثلَ قولِها، ولأسلمَ كما أسلمت، و(قرة): خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هو قرةٌ، و(لي ولك): صفتان لِـ(قرة)، ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ خاطبتْه خطابَ الملوكِ، أو: خاطبت الغُواةَ، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإن فيه مخايلَ اليُمْنِ، ودلائلَ النفعِ، وذلك لِما عاينت من النور، وبُرْءِ البَرصاءِ، ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾: أو نتَبَنّاه؛ فإنه أهلٌ لأن يكون ولداً للمُلوك، ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾: حالٌ، وذو حالها: آلُ فرعونَ، وتقديرُ الكلام: فالتقطه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدواً وحزناً، وقالت امرأةُ فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأٍ عظيمٍ في التقاطه، ورجاءِ النفع منه وتَبَنِّيْهِ، وقولُه: (إن فرعون) الآيةَ: جملةٌ اعتراضيةٌ واقعةٌ بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدةٌ لمعنى خطئِهم، وما أحسنَ نظمَ هذا الكلامِ عند أصحاب المعاني والبيان.

«١٠» ﴿وَأَصۡبَحَ﴾: وصار ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾: صِفْراً من العقل لِما دَهَمَها مِن فَرْطِ الجزعِ لَمّا سمعت بوقوعِه في يد فرعونَ، ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾: لَتُظهِرُ به، والضميرُ لموسى؛ والمرادُ: بأمره وقصتِه، وأنه ولدُها، قيل: لما رأت الأمواجَ تلعبُ بالتابوت.. كادت تَصيحُ وتقول: يا ابناهْ، وقيل: لما سمعت أن فرعون أخذ التابوت.. لم تشكَّ أنه يقتلُه، فكادت تقول: وا ابناه؛ شفقةً عليه، و(أن): مخففةٌ من الثقيلة؛ أي: إنها كادت ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾: لولا رَبْطُنا على قلبها، والربطُ على القلب: تقويتُه بإلهامِ الصبرِ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾: من المصدقين بوعدِنا، وهو (إنا رادُّوه إليك)، وجوابُ (لولا): محذوفٌ؛ أي: لأبدتْه، أو: فارغاً من الهمِّ حين سمعت أن فرعون تبناه إن كادت لتبدي بأنه ولدُها؛ لأنها لم تملكْ نفسَها فرحاً وسروراً بما سمعت لولا أنا طَمْأَنّا قلبَها وسكنّا قَلَقَها الذي حدث به من شدة الفرح؛ لتكون من المؤمنين: الواثقين بوعد الله، لا بِتَبَنِّي فرعونَ، قال يوسفُ بنُ الحسين: أُمرت أمُّ موسى بشيئين، ونُهيت عن شيئين، وبُشرت ببشارتين، فلم ينفعْها الكلُّ حتى تولّى اللهُ حياطتَها، فربط على قلبها.

---

(١) روى نحوه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٦٣) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ ....

《١١》 ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مريمَ: ﴿قُصِّيهِ﴾: اتَّبعي أثرَه لتعلمِي خبرَه، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي: أبصرتْه ﴿عَن جُنُبٍ﴾: عن بُعْدٍ: حالٌ من الضمير في (به)، أو: من الضمير في (بصرت)، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ أنها أختُه.

《١٢》 ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ تحريمَ منعٍ، لا تحريمَ شرعٍ؛ أي: منعناه أن يرضعَ ثدياً غيرَ ثدي أمِّه، وكان لا يقبلُ ثديَ مرضعٍ حتى أهمَّهم ذلك، والمراضعُ: جمعُ مُرضع، وهي: المرأةُ التي تُرضع، أو: جمعُ مَرْضَعٍ، وهو: موضعُ الرضاعِ، يعني: الثديَ، أو: الرَّضاعُ، ﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قبلِ قَصِّها أثرَه، أو: من قبلِ أن نردَّه على أمه، ﴿فَقَالَتْ﴾ أختُه وقد دخلت داره بينَ المراضع، ورأتْه لا يقبل ثدياً: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾: أُرشدُكم ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ﴾ أي: موسى، ﴿لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ النصحُ: إخلاصُ العمل من شائبة الفساد، روي: أنها لما قالت: (وهم له ناصحون) قال هامان: إنها لَتعرفُه وتعرفُ أهله، فخذوها حتى تخبرَ بقصة هذا الغلام، فقالت: إنما أردت: وهم للمَلِكِ ناصحون، فانطلقت إلى أمِّها بأمرهم، فجاءت بها والصبيُّ على يد فرعونَ يُعلله شفقةً عليه وهو يبكي يطلبُ الرضاع، فحين وجدَ ريحها.. استأنسَ والتقمَ ثديَها، فقال لها فرعون: ومن أنت منه؟ فقد أبى كلَّ ثدي إلا ثديَكِ، فقالت: إني امرأةٌ طيبةُ الريح، طيبةُ اللبن، لا أُوتَى بصبيٍّ إلا قَبِلَني، فدفعه إليها، وأَجرَى عليها[1]، وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله وعده في الردِّ، فعندها ثبت واستقرَّ في علمها أنه سيكون نبيّاً، وذلك قولُه:

《١٣》 ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بالمُقام معه، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وليثبت علمُها مشاهدةً كما علمت خبراً، وقولُه: (ولا تحزن): معطوفٌ على (تقرَّ)، وإنما حلَّ لها ما تأخذُه من الدينار كلَّ يومٍ كما قال السُّديُّ؛ لأنه مالُ حربيٍّ، لا أنها أجرةٌ على إرضاع ولدِها، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾: هو داخلٌ تحت علمِها؛ أي: لتعلم أن وعد الله حقٌّ ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حقٌّ فيرتابون، ويشبه التعريضَ بما فَرَطَ منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت.

(١) أي: رَتَّبَ لها نفقةً.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ....

«١٤» ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: بلغ موسى نهايةَ القوةِ وتمامَ العقلِ، وهو جمعُ شِدَّةٍ، كنعمةٍ وأَنْعُم عند سيبويه[1]، ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾: واعتدل وتمَّ استحكامُه، وهو أربعون سنةً، ويروى: أنه لم يُبعث نبيٌّ إلا على رأس أربعين سنةً، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾: نبوةً، ﴿وَعِلْمًا﴾: فقهاً أو علماً بمصالحِ الدارين، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي: كما فعلنا بموسى وأمِّه نفعلُ بالمؤمنين، قال الزجاج: جعل الله تعالى إيتاءَ العلمِ والحكمةِ مجازاةً على الإحسان؛ لأنهما يؤدِّيان إلى الجنة التي هي جزاءُ المحسنين، والعالم الحكيم من يعمل بعلمه لأنه تعالى قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] فجعلهم جهالاً إذْ لم يعملوا بالعلم[2].

«١٥» ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ أي: مصرَ ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾: حالٌ من الفاعل؛ أي: مختفياً، وهو ما بين العشاءين، أو: وقتُ القائلةِ؛ يعني: انتصافَ النهارِ، وقيل: لما شبَّ وعقلَ.. أخذ يتكلم بالحقِّ، وينكرُ عليهم، فأخافوه، فلا يدخلُ المدينة إلا على تغفُّلٍ، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾: ممن شايَعَهُ على دينه من بني إسرائيلَ، وقيل: هو السامريُّ، وشيعةُ الرجل: أتباعُه وأنصارُه، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾: من مخالفيه من القِبطِ، وهو فاتونُ، وقيل فيهما: هذا وهذا وإن كانا غائبين على جهة الحكاية؛ أي: إذا نظر إليهما الناظر.. قال: هذا من شيعته، وهذا من عدوه، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾: فاستنصره ﴿ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾: ضربه بِجُمْعِ كفِّه، أو بأطراف أصابعه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾: فقتله، ﴿قَالَ هَٰذَا﴾: إشارةٌ إلى القتل الحاصل بغير قصدٍ، ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وإنما جعلَ قتلَ الكافرِ من عمل الشيطان، وسمّاه ظلماً لنفسه، واستغفرَ منه؛ لأنه كان مستأمَناً فيهم، ولا يَحِلُّ قتلُ الكافرِ الحربيِّ المستأمَن[3]، أو: لأنه قتلَه قبل أن يؤذن له في القتل، وعن ابن جريج: ليس لنبيٍّ أن يقتل ما لم يؤمَر، ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾: ظاهرُ العداوةِ.

---

(١) انظر «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٥٨٢).
وقيل: هو مفرد جاء على صيغة الجمع، وقيل: هو جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، وقيل: واحدُه: شَدٌّ، وقيل: شِدٌّ. انظر «مختار الصحاح» (ص ١٦٢).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ١٣٦).

(٣) هذا من أحكام شريعتنا، وقد لا تكون شريعتُهم حينئذ كذلك.

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ . . . .

《١٦》 ﴿قَالَ رَبِّ﴾: يا ربِّ ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بفعلٍ صار قتلاً، ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ زلتي، ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ زلته، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ بإقالة الزلل، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ بإزالة الخجل.

《١٧》 ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾: معيناً ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾: للكافرين، و(بما أنعمت عليَّ) قسمٌ جوابُه محذوفٌ، تقديرُه: أقسمُ بإنعامِك عليَّ بالمغفرة لأتوبنَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين، أو استعطافٌ، كأنه قال: ربِّ اعصِمني بحقِّ ما أنعمت عليَّ من المغفرة[1]، فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين، وأراد بمظاهرة المجرمين صحبةَ فرعون، وانتظامَه في جملته، وتكثيرَه سوادَه، حيث كان يركبُ بركوبه، كالولد مع الوالد.

《١٨》 ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ على نفسه من قتله القِبطيَّ أن يُؤخذَ به، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾: حالٌ؛ أي: يتوقعُ المكروه، وهو الاستقادةُ منه، أو الإخبارُ، أو ما يقال فيه، وقال ابن عطاء: خائفاً على نفسه يترقب نصرةَ ربه، وفيه دليل على أنه لا بأسَ بالخوف من دون الله، بخلافِ ما يقوله بعضُ الناس أنه لا يَسعُ الخوفُ من دون الله، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي﴾ (إذا): للمفاجأة، وما بعدها: مبتدأٌ، ﴿ٱسْتَنصَرَهُۥ﴾ أي: موسى ﴿بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: يستغيثُه؛ والمعنى: أن الإسرائيلي الذي خلَّصه موسى استغاث به ثانياً من قِبطيٍّ آخرَ، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ أي: للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: ضالٌّ عن الرشد، ظاهرُ الغيِّ، فقد قاتلتَ بالأمس رجلاً فقتلتُه بسببك، والرشدُ في التدبير: ألا يفعلَ فعلاً يُفضي إلى البلاء على نفسه وعلى من يريدُ نصرتَه.

《١٩》 ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي﴾: بالقِبطيِّ الذي ﴿هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾: لموسى والإسرائيليِّ؛ لأنه ليس على دينهما، أو: لأن القِبطَ كانوا أعداءَ بني إسرائيلَ ﴿قَالَ﴾ الإسرائيليُّ لموسى عليه السلام[2]، وقد توهم أنه أراد أخذَه لا أخذَ القِبطي؛ إذْ قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا﴾ يعني: القِبطيَّ ﴿بِٱلْأَمْسِۖ إِن تُرِيدُ﴾: ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ أي: قتّالاً بالغضب ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أرضِ مصرَ، ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) قوله: (بحقِّ ما أنعمت علي) يفيد أنه قَسَمٌ أيضاً، ولكنه قَسَمُ استعطاف.

(٢) وقيل: قاله القِبطيُّ. انظر «تفسير الآلوسي» (١٠/ ٢٦٧).

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

في كظم الغيظ، وكان قتلُ القِبطيِّ بالأمس قد شاع، ولكن خفي قاتلُه، فلما أَفْشَى على موسى عليه السلام.. علمَ القِبطيُّ أن قاتله موسى، فأخبر فرعونَ، فهمُّوا بقتلِه.

《٢٠》 ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾: هو مؤمن آل فرعونَ، وكان ابنَ عمِّ فرعونَ، ﴿يَسْعَىٰ﴾: صفةٌ لـ(رجل)، أو: حالٌ من (رجل)؛ لأنه وصف بقوله: (من أقصى المدينة)، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي: يأمرُ بعضُهم بعضاً بقتلك، أو: يتشاورون بسببك، والائتمارُ: التشاورُ؛ يقال: الرجلان يتآمران، ويأتمران؛ لأن كل واحد منهما يأمرُ صاحبَه بشيء، أو يشير عليه بأمر، ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة، ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (لك): بيانٌ وليس بصلةِ (الناصحين)؛ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول، كأنه قال: إني من الناصحين، ثم أراد أن يبين فقال: لك، كما يقال: سقياً لك، ومرحباً لك[1].

《٢١》 ﴿فَخَرَجَ﴾ موسى ﴿مِنْهَا﴾: من المدينة، ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ التعرضَ له في الطريق، أو أن يلحقَه من يقتلُه، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي: قومِ فرعونَ.

《٢٢》 ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾: نحوَها، والتوجُّهُ: الإقبالُ على الشيء، و(مدين): قريةُ شعيبٍ عليه السلام؛ سميت بمدينَ بنِ إبراهيمَ، ولم تكن في سلطان فرعون، وبينها وبين مصرَ مسيرةُ ثمانيةِ أيام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: خرج ولم يكن له علمٌ بالطريق إلا حسنُ الظن بربه، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: وسطَه ومعظمَ نهجِه، فجاء مَلَكٌ فانطلق به إلى مدينَ.

《٢٣》 ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾: وصلَ ﴿مَآءَ مَدْيَنَ﴾: ماءهم الذي يَسقون منه، وكان بئراً ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾: على جانبِ البئرِ ﴿أُمَّةً﴾: جماعةً كثيرة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: من أُناسٍ مختلفين، ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيَهم، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾: في مكان أسفلَ من مكانهم ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾: تَطردان

---

(١) فيتعلق بمحذوف تقديره: أعني، وعند مَن جَوَّزَ تقدمَ معمول الصلة إذا كان الموصول أل خاصة لكونها على صورة الحرف، أو إذا كان المتقدم ظرفاً للتوسع فيه، أو قال: إن أل هنا حرفُ تعريف لإرادة الثبوت.. يجوزُ أن يكون (لك) متعلقاً بـ(الناصحين) أو بمحذوف يفسره ذلك. انظر «تفسير الآلوسي» (١٠/ ٢٦٨).

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ ....

غنمَهما عن الماء؛ لأن على الماء من هو أقوى منهما، فلا تتمكنان من السقْي، أو لئلا تختلطَ أغنامهما بأغنامهم، والذودُ: الطردُ والدفعُ، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾: ما شأنُكما؟ وحقيقتُه: ما مَخطوبُكما؛ أي: ما مطلوبُكما من الذِّيادِ؟ فسمِّيَ المخطوبُ خطباً، ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي﴾ غنمَنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ مواشيَهم، ﴿يَصْدُرَ﴾: شاميٌّ ويزيدُ وأبو عمرو[1]؛ أي: يرجعُ، والرِّعاءُ: جمعُ راعٍ، كقائم وقيام، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ﴾ لا يمكنُه سقيُ الأغنام، ﴿كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ في حاله، أو في السنِّ لا يقدر على رعْيِ الغنم، أَبْلَتا إليه عذرَهما في تولِّيهما السقيَ بأنفسِهما[2].

《٢٤》 ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾: فسقَى غنمَهما؛ لأجلهما رغبةً في المعروف، وإغاثةً للملهوف، روي: أنه نَحَّى القوم عن رأس البئر، وسألَهم دلواً، فأعطَوه دلوَهم وقالوا: استقِ بها، وكانت لا يَنزِعها إلا أربعون، فاستقى بها وصبَّها في الحوض، ودعا بالبركة، وتُركَ المفعولُ في (يسقون)، و(تذودان)، و(لا نسقي)، و(فسقَى)؛ لأن الغرض هو الفعلُ لا المفعولُ؛ ألا تَرى أنه رحمهما؛ لأنهما كانتا على الذِّيادِ، وهم على السقْيِ، ولم يرحمْهما لأن مَذودَهما غنمٌ، ومَسقيَّهم إبلٌ مثلاً، وكذا في (لا نسقي) (فسقى) المقصودُ هو السقْيُ، لا المسقيُّ، ووجهُ مطابقةِ جوابِهما سؤالَه: أنه سألهما عن سبب الذَّودِ، فقالتا: السببُ في ذلك أنا امرأتان مستورتان ضعيفتان، لا نَقدرُ على مزاحمة الرجال، ونَستحِي من الاختلاطِ بهم، فلا بدَّ لنا من تأخير السقْيِ إلى أن يفرُغُوا، وإنما رضي شعيبٌ عليه السلام لابنتيه بسقيِ الماشيةِ؛ لأن هذا الأمر في نفسه ليس بمحظور، والدينُ لا يأباه، وأما المروءة.. فعاداتُ الناس في ذلك متباينةٌ، وأحوالُ العرب فيه خلافُ أحوال العجم، ومذهبُ أهلِ البدْوِ فيه غيرُ مذهب أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالة حالةَ ضرورةٍ، ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: ظلِّ سَمُرَةٍ، وفيه دليلُ جوازِ الاستراحةِ في الدنيا، بخلاف ما يقوله بعضُ المتقشفةِ. ولما طال البلاءُ عليه.. أَنِسَ بالشكوى؛ إذ لا نقصَ في الشكوى إلى المولى، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ﴾: لأيِّ شيءٍ ﴿أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلٍ أو كثيرٍ، غَثٍّ أو سَمينٍ ﴿فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾: محتاجٌ، وعُدِّيَ (فقير) باللام؛ لأنه ضُمِّنَ معنى سائلٍ وطالبٍ، قيل: كان لم يذق طعاماً سبعةَ أيامٍ، قد لَصِقَ بظهره بطنُه، ويحتمل أن يريدَ: إني فقير من الدنيا؛ لأجل ما أنزلت إلي من خيرِ الدارين، والنجاةِ من الظالمين؛ لأنه كان عند فرعون في مِلْكٍ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٠).

(٢) أَبْلَتا عذرَهما: أَظْهَرَتاه.

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ ....

وثَرْوةٍ، قال ذلك رضاً بالبدل السَّنِيِّ، وفرحاً به وشكراً له، وقال ابن عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية، وتكلم بلسان الافتقار، لما ورد على سرِّهِ من الأنوار.

«٢٥» ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ (على استحياء): في موضع الحال؛ أي: مُستحيَةً، وهذا دليلُ كمالِ إيمانِها، وشرفِ عنصرِها؛ لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها، ولم تعلم أيجيبُها أم لا؟ فأتتْه مستحيةً، قد استترت بِكُمِّ دِرْعِها، و(ما) في (ما سقيت): مصدريةٌ؛ أي: جزاءَ سَقْيِكَ، روي: أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبلَ الناسِ، وأغنامُهما حُفَّلٌ.. قال لهما: ما أعجلَكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً، رَحِمَنا فسقى لنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادْعِيه لي، فتبعَها موسى عليه السلام، فألزقت الريحُ ثوبَها بجسدها فوصفتْه، فقال لها: امشي خلفي، وانْعَتِي لي الطريقَ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أي: قِصَّتَه وأحوالَه مع فرعون، و(القصص): مصدرٌ كالعَلَلِ، سُمِّيَ به المقصوصُ، ﴿قَالَ﴾ له: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ إذْ لا سلطانَ لفرعونَ بأرضنا، وفيه دليلُ جواز العملِ بخبر الواحد ولو عبداً أو أنثى، والمشيِ مع الأجنبية مع ذلك الاحتياط والتورع، وأما أخذُ الأجرِ على البرِّ والمعروفِ.. فقيل: إنه لا بأسَ به عند الحاجة، كما كان لموسى عليه السلام، على أنه روي: أنها لما قالت: ليجزيَكَ.. كره ذلك، وإنما أجابَها لئلا يُخَيِّبَ قصدَها؛ لأن للقاصد حرمةً، ولما وضع شعيبٌ الطعام بين يديه.. امتنع، فقال شعيبٌ: ألستَ جائعاً؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون عِوضاً مما سقيتُ لهما، وإنا أهلُ بيتٍ لا نَبيعُ ديننا بالدنيا، ولا نأخذُ على المعروف ثمناً، فقال شعيبٌ عليه السلام: هذه عادتُنا مع كل مَن ينزلُ بنا، فأكلَ.

«٢٦» ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾: اتخذْه أجيراً لِرَعْيِ الغنم، روي: أن أكبرهما كانت تُسمَّى صفراء، والصغرى صفيراء، وصفراءُ هي التي ذهبت به، وطلبت إلى أبيها أن يستأجرَه، وهي التي تزوَّجها، ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ فقال: وما علمُكِ بقوته وأمانته؟ فذكرت نزعَ الدلوِ، وأَمْرَها بالمشيِ خلفَه، وورد الفعلُ بلفظ الماضي؛ للدلالة على أن أمانته وقوتَه أمران متحقِّقانِ، وقولُها: (إن خير من استأجرت القويُّ الأمينُ): كلامٌ جامعٌ؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان: الكِفايةُ والأمانةُ في القائم بأمرك.. فقد فَرَغَ بالُك، وتَمَّ مُرادُك،

قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ....

وقيل: القويُّ في دينه، الأمينُ في جوارحه، وقد استغنت بهذا الكلام الجاري مجرى المثل عن أن تقول: استأجرْه لقوته وأمانته، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أَفْرَسُ الناس ثلاثٌ: بنتُ شعيبٍ، وصاحبُ يوسفَ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: ٢١]، وأبو بكرٍ في عمرَ[١].

《٢٧》 ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾: أزوجَك ﴿إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ قولُه: (هاتين): يدلُّ على أنه كان له غيرُهما، وهذه مواعدةٌ منه، ولم يكن ذلك عقدَ نكاحٍ؛ إذ لو كان عقداً.. لقال: قد أنكحتُك، ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾: تكونُ أجيراً لي؛ مِن: أَجَرْتُه: إذا كنتَ له أجيراً، ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾: ظرفُه، والحِجَّةُ: السنةُ، وجمعُها: حِجَجٌ، والتزوجُ على رَعْيِ الغنم جائزٌ بالإجماع؛ لأنه من باب القيام بأمر الزوجية، فلا مناقضةَ، بخلاف التزوجِ على الخدمة، ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾ أي: عملَ عشرِ حِجَجٍ ﴿فَمِنۡ عِندِكَ﴾: فذلك تفضلٌ منك، ليس بواجب عليك، أو: فإتمامُه من عندك، ولا أُحتِمُه عليك، ولكنك إن فعلتَه.. فهو منك تفضلٌ وتبرعٌ، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ بإلزام أَتَمِّ الأجلين، وحقيقةُ قولهم: شققتُ عليه، وشقَّ عليه الأمرُ: أن الأمر إذا تعاظمَكَ.. فكأنه شَقَّ عليك ظنَّكَ باثنين؛ تقول تارةً: أطيقُه، وطَوراً: لا أطيقُه، ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ في حسن المعاملةِ والوفاء بالعهد، ويجوز أن يراد الصلاحُ على العموم، ويدخل تحته حسنُ المعاملة، والمرادُ باشتراطه مشيئةَ الله فيما وَعَدَ من الصلاح: الاتكالُ على توفيقه فيه ومعونتِه؛ لا أنه إن شاء.. فعل، وإن شاء.. لم يَفعلْ ذلك[٢].

《٢٨》 ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأٌ، وهو إشارةٌ إلى ما عاهده عليه شعيبٌ، والخبرُ: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ يعني: ذلك الذي قلتَه وعاهدتَني فيه وشارطتَني عليه قائمٌ بيننا جميعاً، لا يخرج كلانا عنه، لا أنا عمّا شرطتَ عليّ، ولا أنت عمّا شرطتَ على نفسك، ثم قال: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٤٦)، وأَفْرَسُ الناسِ: أصدقُهم فِراسةً، والفِراسة: المهارةُ في تَعَرُّفِ بواطنِ الأُمور من ظواهرها.

(٢) أي: أن مرادَ سيدنا شعيب عليه السلام بالاستثناء التبرك به وتفويض أمره إلى توفيقه تعالى، لا تعليقُ صلاحه بمشيئته سبحانه بمعنى أنه إن شاء الله تعالى.. استعمل الصلاح، وإن شاء عزَّ وجلَّ.. استعمل خلافه؛ لأنه لا يناسب المقام، وقيل: لأن صلاحه عليه السلام متحقق فلا معنى للتعليق. انظر «تفسير الآلوسي» (١٠/ ٢٧٦).

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ....

قَضَيْتُ﴾ أي: أيَّ أجلٍ قضيتُ من الأجلين؛ يعني: العشرةَ أو الثمانيةَ، و(أيَّ): نصبٌ بـ(قضيتُ)، و(ما): زائدةٌ مؤكدةٌ لإبهامِ (أيّ)، وهي شرطيةٌ، وجوابُها: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ أي: لا يُعتدَى عليَّ في طلب الزيادة عليه، قال المبرد: قد علم أنه لا عدوانَ عليه في أيِّهما، ولكن جمعهما؛ ليجعلَ الأقلَّ كالأتمِّ في الوفاء، وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوانٌ، فكذا طلبُ الزيادة على الأقلِّ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾: هو مِن: وَكَلَ إليه الأمرَ، وعُدِّيَ بـ(على)؛ لأنه استعملَ في موضع الشاهدِ والرقيبِ، روي: أن شعيباً كانت عنده عِصِيُّ الأنبياء عليهم السلام، فقال لموسى بالليل: ادخل ذلك البيتَ فخذْ عصاً من تلك العِصِيِّ، فأخذ عصاً هبط بها آدمُ من الجنة، ولم يزل الأنبياء عليهم السلام يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيبٍ، فمسَّها وكان مكفوفاً فضنَّ بها، فقال: خذْ غيرَها، فما وقع في يده إلا هي، سبعَ مراتٍ، فعلم أن له شأناً، ولما أصبح.. قال له شعيبٌ: إذا بلغت مَفرِقَ الطريق.. فلا تأخذْ على يمينك؛ فإن الكلأ وإن كان بها أكثرَ إلا أن فيها تِنِّيناً أخشاه عليك وعلى الغنم، فأخذت الغنمُ ذاتَ اليمين، ولم يقدر على كفِّها، فمشى على أثرِها، فإذا عُشبٌ ورِيْفٌ لم يُرَ مثلُه[1]، فنام فإذا التِّنِّينُ قد أقبلَ، فحاربتْه العصا حتى قتلتْه وعادت إلى جنب موسى داميةً، فلما أبصرها داميةً، والتنينَ مقتولاً.. ارتاح لذلك، ولما رجع إلى شعيب.. مسَّ الغنمَ فوجدها ملأى البطون، غزيرةَ اللبن، فأخبره موسى، ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأناً، وقال: إني وهبت لك من نِتاجِ غنمي هذا العامَ كلَّ أَدْرَعَ ودَرعاءَ[2]، فأوحي إليه في المنام: أن أضرب بعصاك مُستقَى الغنمِ، ففعل ثم سقَى فوضعتْ كلُّهن أدرعَ ودَرعاءَ، فوفَّى له بشرطه.

《٢٩》 ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ قال عليه السلام: «قضى أوفاهما، وتزوج صُغراهما»[3]، وهذا بخلاف الرواية التي مرت، ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾: بامرأته نحو مصرَ، قال ابن عطاء: لما تمَّ أجلُ المحنة، ودنا أيامُ الزُّلفة، وظهرت أنوارُ النبوة.. سار بأهله لتشترك معه في لطائف صنعِ ربِّه، ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق؛ لأنه قد ضلَّ الطريقَ، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) الوَرِيْفُ: النباتُ الذي يهتزُّ خضرةً وتلألؤاً.

(٢) أي: كل ما اسودَّ رأسُه وابيضَّ سائرُه، وقيل: ما اسودَّ رأسُه وعنقُه.

(٣) روى نحوه البزار في «مسنده» (٩/ ٣٨٢).

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝٣١ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٣٢﴾ ......

《٣٠》 ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ بالنسبة إلى موسى، ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ بتكليم الله تعالى فيها، ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾: العُنّاب أو العَوسج: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ (أن): مفسرةٌ، أو مخففةٌ من الثقيلة، ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ قال جعفرٌ: أبصر ناراً دلَّته على الأنوار؛ لأنه رأى النور على هيئة النار، فلما دنا منها.. شَمِلَتْه أنوارُ القدس، وأحاطت به جلابيبُ الأُنس، فخوطب بألطف خطاب، واستُدْعيَ منه أحسنُ جواب، فصار بذلك مكلَّماً شريفاً، أُعطيَ ما سأل، وأَمِن مما خاف، والجذوةُ باللغات الثلاث، وقرئ بهن، فعاصمٌ: بفتح الجيم، وحمزةُ وخلفٌ: بضمها، وغيرُهم: بكسرِها[1]: العُودُ الغليظُ كانت في رأسه نارٌ أو لم تكن، (مِن) الأولى والثانيةُ لابتداء الغاية؛ أي: أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة، و(من الشجرة): بدلٌ من (شاطئ الوادي) بدلَ الاشتمال؛ لأن الشجرة كانت نابتةً على الشاطئ؛ أي: الجانب.

《٣١》 ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾: ونودي أن ألق عصاك، فألقاها فقلبها الله ثعباناً، ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾: تتحركُ ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾: حيةٌ في سعيِها، وهي ثعبانٌ في جثتها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: يرجعْ، فقيل له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝٣١﴾ أي: أَمِنْتَ من أن ينالك مكروهٌ من الحية.

《٣٢》 ﴿ٱسْلُكْ﴾: أدخلْ ﴿يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾: جيبِ قميصك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾: لها شعاعٌ كشعاع الشمس، ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: بَرَصٍ، ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهَبِ﴾: حجازيٌّ وبصريٌّ، ﴿ٱلرَّهْبِ﴾: حفصٌ، ﴿الرُّهْبِ﴾: غيرهم؛ ومعنى الكل: الخوفُ؛ والمعنى: واضمم يدك إلى صدرك يذهبْ ما بك من فَرَقٍ؛ أي: لأجل الحية، عن ابن عباس رضي الله عنهما: كلُّ خائفٍ إذا وضع يده على صدره.. زال خوفُه، وقيل: معنى ضمِّ الجناح: أن الله تعالى لما قلب العصا حيةً.. فزع موسى واتّقاها بيده، كما يفعل الخائف من الشيء، فقيل له: اتقاؤُك بيدك فيه غَضاضةٌ عند الأعداء، فإذا ألقيتَها فكما تنقلب حية.. فأدخل يدك تحت عضدِكَ مكان اتقائِكَ بها، ثم

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤١) وكذا القراءات الست الآتية.

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ....

أخرجها بيضاءَ؛ ليحصلَ الأمران: اجتنابُ ما هو غضاضةٌ عليك، وإظهارُ معجزة أخرى، والمراد بالجَناح: اليدُ؛ لأن يَدَيِ الإنسانِ بمنزلة جناحَي الطائرِ، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضدِه اليسرى.. فقد ضمَّ جناحَه إليه، أو: أريد بضم جناحِه إليه: تجلدُه وضبطُه نفسَه عند انقلاب العصا حيةً، حتى لا يضطربَ ولا يَرهبَ؛ استعارةً من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف.. نشر جناحيه وأرخاهما، وإلا.. فجناحاه مضمومان إليه مُشمَّران؛ ومعنى (من الرهب): من أجل الرهب؛ أي: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية.. فاضمم إليك جناحك، جعل الرهبَ الذي كان يصيبُه سبباً أو علةً فيما أُمِرَ به من ضمِّ جناحه إليه؛ ومعنى (واضمم إليك جناحك)، و(اسلك يدك في جيبك) على أحد التفسيرين واحدٌ، ولكن خولف بين العبارتين؛ لاختلاف الغرضين؛ إذ الغرض في أحدهما خروجُ اليد بيضاءَ، وفي الثاني إخفاءُ الرَّهَبِ؛ ومعنى ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] في (طه): أدخل يُمناك تحت يُسراك، ﴿فَذَٰنِكَ﴾: مخففاً، مثنى ذاك، ومشدّداً: مكيٌّ وأبو عمرٍو، مثنى ذلك، فإحدى النونين عوضٌ من اللام المحذوفة، والمرادُ: اليدُ والعصا، ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾: حجتان نيِّرتان بينتان؛ وسميت الحجةُ برهاناً؛ لإنارتها؛ من قولهم للمرأة البيضاء: بَرَهْرَهَةٌ، ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي: أرسلناك إلى فرعون وملائِه بهاتين الآيتين؛ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾: كافرين.

«٣٣» ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ به، وبالياء: يعقوبُ.

«٣٤» ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾: حفصٌ، ﴿رِدْءًا﴾: حالٌ؛ أي: عوناً؛ يقال: رَدَأْتُه: أعنتُه، وبلا همز: مدنيٌّ[١]، ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾: عاصمٌ وحمزةُ: صفةٌ؛ أي: ردءاً مُصدقاً لي، وغيرُهما: بالجزم: جوابٌ لـ(أرسلْه) ومعنى تصديقِه موسى: إعانتُه إياه بزيادةِ البيانِ في مظانِّ الجدالِ إن احتاج إليه؛ ليثبت دعواه، لا أن يقول له: صدقت، ألا ترى إلى قوله: (هو أفصح مني لساناً فأرسلْه)، وفضلُ الفصاحة إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان، لا لقوله: صدقت، فَسَحْبانُ وباقلٌ فيه يستويان[٢]، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ ﴿يكذبوني﴾: في الحالتين: يعقوبُ[٣].

---

(١) قرأ أبو جعفر ونافع بنقل حركة الهمزة إلى الدال مع حذف الهمزة، إلا أن أبا جعفر أبدل التنوين ألفاً في الحالين، وأما نافع.. فيبدله ألفاً عند الوقف فقط، ووقف عليه حمزةُ بالنقل أيضاً، والباقون: بإسكان الدال وهمزةٍ مفتوحةٍ منونةٍ.

(٢) **سَحبانُ**: رجل يُضربُ به المثل في البيان والفصاحة، **وباقل**: يُضربُ به المثل في العِيِّ.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤١) وكذا القراءة الثلاث الآتية.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ....

«٣٥» ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾: سنقويك به؛ إذ اليدُ تَشتدُّ بشدةِ العضدِ؛ لأنه قِوامُ اليد، والجملةُ تَقوى بشدةِ اليدِ على مزاولةِ الأمورِ، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾: غلبةً وتسلطاً وهيبةً في قلوب الأعداء، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا﴾ الباء: تتعلقُ بـ(يصلون) أي: لا يصلون إليكما بسبب آياتنا، وتمَّ الكلام، أو: فنجعلُ لكما سلطاناً؛ أي: نسلطكما بآياتنا، أو: بمحذوف؛ أي: اذهبا بآياتنا، أو: هو بيان لـ(الغالبون)، لا صلةٌ، أو: قسمٌ جوابُه: (لا يصلون) مقدماً عليه، ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

«٣٦» ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾: واضحاتٍ ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: سحرٌ تعملُه أنت، ثم تفتريه على الله، أو: سحر موصوفٌ بالافتراء، كسائر أنواع السحر، وليس بمعجزةٍ من عند الله، ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾: حالٌ منصوبة عن (هذا) أي: كائناً في زمانهم؛ يعني: ما حُدِّثْنا بكونه فيهم.

«٣٧» ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: ربي أعلمُ منكم بحالِ من أَهَّلَه اللهُ للفلاح الأعظم؛ حيث جعله نبيّاً، وبعثه بالهدى، ووعده حسنَ العُقبى؛ يعني: نفسَه، ولو كان كما تزعمون ساحراً مفترياً.. لما أهَّله لذلك؛ لأنه غنيٌّ حكيمٌ، لا يرسل الكاذبين، ولا ينبئُ الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون، وعاقبةُ الدار هي: العاقبة المحمودة؛ لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [الرعد: ٢٢ ـ ٢٣]؛ والمراد بالدار: الدنيا، وعاقبتُها: أن يُختمَ للعبد بالرحمة والرضوان، وتَلَقِّي الملائكةِ بالبشرى والغفران، ﴿قال موسى﴾: بغير واوٍ: مكيٌّ، وهو حسن؛ لأن الموضع موضعُ سؤال وبحثٍ عمّا أجابهم به موسى عند تسميتِهم مثلَ تلك الآياتِ العظامِ سحراً مفترىً، ووجهُ الأخرى: أنهم قالوا ذلك، وقال موسى هذا؛ لِيوازنَ الناظرُ بين القول والمقول، ويتبصرَ فسادَ أحدِهما وصحةَ الآخر، ﴿ربيَ أعلمُ﴾: حجازيٌّ وأبو عمرٍو، ﴿ومن يكون﴾: حمزةُ وعليٌّ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ....

《٣٨》 ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قصدَ بنفي علمِه بإلهٍ غيرِه نفيَ وجودِه؛ أي: ما لكم من إله غيري، أو: هو على ظاهره، وأن إلهاً غيرَه غيرُ معلوم عنده، ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اطبُخْ لي الآجُرَّ واتخذْه، وإنما لم يقل مكان الطين هذا؛ لأنه أول من عمل الآجُرَّ، فهو يعلمُه الصنعةَ بهذه العبارة، ولأنه أفصحُ، وأشبهُ بكلام الجبابرة؛ إذْ أَمْرُ هامانَ وهو وزيرُه بالإيقاد على الطين منادىً باسمه بـ(يا) في وسط الكلام.. دليلُ التعظُّم والتجَبُّرِ، ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾: قصراً عالياً؛ ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ﴾ أي: أصعدُ، فالطلوعُ والاطلاعُ: الصعودُ، ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ حَسِبَ أنه تعالى في مكانٍ كما كان هو في مكان، ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ أي: موسى ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ في دعواه أن له إلهاً، وأنه أرسله إلينا رسولاً، وقد تناقض المخذولُ؛ فإنه قال: ما علمت لكم من إله غيري، ثم أظهر حاجتَه إلى هامان، وأثبت لموسى إلهاً، وأخبر أنه غيرُ متيقن بكذبه، وكأنه تحصَّنَ من عصا موسى عليه السلام فَلَبَّسَ، وقال: لعلي أطلع إلى إله موسى، رويَ: أن هامان جمع خمسين ألفَ بَنّاءٍ، وبنى صرحاً لم يبلغْه بناءُ أحدٍ من الخلق، فضرب الصرحَ جبريلُ عليه السلام بجناحه فقطعه ثلاثَ قطعٍ، وقعت قطعةٌ على عسكرِ فرعونَ فقتلت ألفَ ألفِ رجلٍ، وقطعةٌ في البحر، وقطعةٌ في المغرب، ولم يبق أحدٌ من عماله إلا هلك.

《٣٩》 ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾: تعظَّمَ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أرضِ مصرَ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالباطل، فالاستكبارُ بالحق لله تعالى، وهو المتكبر على الحقيقة؛ أي: المتبالغُ في كبرياء الشأن، كما حكى رسولُنا عن ربه: «الكبرياء ردائي، والعظمةُ إزاري، فمن نازعني واحداً منهما.. ألقيتُه في النار»[1]، وكلُّ مستكبر سواه.. فاستكبارُه بغير الحق، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ﴿يَرْجِعُون﴾: نافعٌ وحمزةُ وعليٌّ وخلفٌ ويعقوبُ[2].

《٤٠》 ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾: من الكلام المفخَّم الذي دلَّ به على عظمة شأنه، شبههم استقلالاً لعددِهم وإن كانوا الجمَّ الغفيرَ بِحُصَيّاتٍ أَخَذَهن آخذٌ بكفِّه فطرحَهن في البحر، ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمدُ ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وحذرْ قومَك، فإنك منصورٌ عليهم.

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٩٠) وابن ماجه (٤١٧٤)، ونحوَه مسلمٌ (٢٦٢٠)، كلُّهم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤١) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ....

《٤١》 ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾: قادةً ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: عملِ أهلِ النار، قال ابن عطاء: نزع عن أسرارهم التوفيق، وأنوارَ التحقيق، فهم في ظلمات نفوسِهم، لا يُدلُّون على سبيل الرشاد، وفيه دلالةٌ خلق أفعال العباد، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ من العذاب.

《٤٢》 ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾: ألزمناهم طرداً وإبعاداً عن الرحمة، وقيل: هو ما يلحقُهم من لعن الناس إياهم بعدَهم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾: المطرودين المبعدين، أو المهلكين المشوَّهين بسواد الوجوه، وزُرقةِ العُيون، و(يوم): ظرفٌ للمقبوحين.

《٤٣》 ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: التوراةَ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾: قومَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ عليهم السلام، ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾: حالٌ من الكتاب، والبصيرةُ: نورُ القلب الذي يُبصرُ به الرشدَ والسعادةَ، كما أن البصرَ نورُ العين الذي تُبصر به الأجسادَ، يريدُ: آتيناه التوراةَ أنواراً للقلوب؛ لأنها كانت عُمياً لا تَستبصرُ ولا تعرفُ حقّاً من باطل، ﴿وَهُدًى﴾: وإرشاداً؛ لأنهم كانوا يَخبِطون في ضلال، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن اتبعها؛ لأنهم إذا عملوا بها.. وصلُوا إلى نيل الرحمة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾: يتعظون.

《٤٤》 ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ يا محمدُ ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبلِ ﴿الْغَرْبِيِّ﴾ وهو: المكانُ الواقعُ في شِقِّ الغربِ، وهو الذي وقع فيه ميقاتُ موسى، ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ أي: كلمناه وقرّبناه نجيّاً، ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾: من جملة الشاهدين للوحي إليه، حتى تقفَ من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى في ميقاته.

《٤٥》 ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا﴾ بعدَ موسى ﴿قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي: طالت أعمارُهم، وفَتَرَت النبوةُ، وكادت الأخبار تَخفَى، واندرست العلومُ، ووقع التحريفُ في كثير منها، فأرسلناك مُجدِّداً لتلك الأخبار، مبينا ما وقع فيه من التحريف، وأعطيناك العلم بقِصصِ الأنبياءِ، وقصةِ موسى، كأنه قال: وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه، ولكنا أوحيناه إليك، فذكر سبب الوحْيِ الذي هو إطالةُ الفترة، ودلَّ به على المسبب اختصاراً، فإذا هذا الاستدراكُ شبيهُ الاستدراكَين بعده، ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا﴾: مقيماً

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ ....

﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهم: شعيبٌ والمؤمنون به، ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾: تقرؤُها عليهم تعلماً منهم؛ يريدُ الآياتِ التي فيها قصةُ شعيبٍ وقومِه، و(تتلو): في موضعِ نصبٍ: خبرٌ ثانٍ، أو: حالٌ من الضمير في (ثاوياً)، ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾: ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها، وعلمناكها.

《٤٦》 ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى أن خذِ الكتابَ بقوةٍ، ﴿وَلَٰكِن﴾ أعلمناك وأرسلناك ﴿رَّحْمَةً﴾: للرحمة ﴿مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: في زمان الفترة بينك وبين عيسى، وهو خمسُ مئةٍ وخمسون سنةً، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

《٤٧》 ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾: عقوبةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والظلم، ولما كانت أكثرُ الأعمال تُزاوَلُ بالأيدي.. نُسبَت الأعمالُ إلى الأيدي، وإن كانت من أعمال القلوب تغليباً للأكثر على الأقلِّ، ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ عند العذابِ: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (لولا) الأولى: امتناعيةٌ، وجوابُها: محذوفٌ، والثانيةُ: تحضيضيةٌ، والفاءُ الأولى: للعطف، والثانيةُ: جوابُ (لولا)؛ لكونها في حكم الأمر؛ إذ الأمر باعثٌ على الفعل، والباعثُ والمحضِّضُ من وادٍ واحدٍ، والفاءُ تدخل في جواب الأمر؛ والمعنى: لولا أنهم قائلون إذا عُوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي: هلا أرسلت إلينا رسولاً؛ محتجين علينا بذلك.. لما أرسلنا إليهم؛ يعني: أن إرسال الرسول إليهم إنما هو لِيُلْزَمُوا الحجةَ، ولا يَلْزَمُوها، كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

فإن قلت: كيف استقام هذا المعنى وقد جُعلت العقوبةُ هي السببَ في الإرسال لا القول؛ لدخول (لولا) الامتناعية عليها دونه؟ **قلتُ**: القولُ هو المقصودُ بأن يكون سبباً للإرسال، ولكن العقوبة لما كانت سبباً للقول، وكان وجودُه بوجودِها.. جعلت العقوبةُ كأنها سببُ الإرسال فأدخلت عليها (لولا)، وجِيءَ بالقول معطوفاً عليها بالفاء المُعْطِيَةِ معنى السببية، ويَؤُول معناه إلى قولك: ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبةٌ.. لما أرسلنا.

《٤٨》 ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: القرآنُ أو الرسولُ المصدقُ بالكتاب المعجز ﴿قَالُوا۟﴾: كفارُ مكةَ: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾: هلا أُعطيَ ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من الكتاب المنزلِ جملةً

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣)﴾ ....

واحدةً، ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ يعني: أبناءَ جنسهم ومَن مذهبُهم مذهبُهم، وعِنادُهم عنادُهم، وهم الكفرةُ في زمن موسى عليه السلام، ﴿بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾: من قبل القرآن، ﴿قَالُوا﴾ في موسى وهارون: ﴿ساحِرانِ تَظاهَرا﴾: تعاونا، ﴿سِحْرَانِ﴾: كوفيٌّ؛ أي: ذَوا سحرٍ، أو: جعلوهما سِحرين مبالغةً في وصفهما بالسحر، ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ﴾: بكلِّ واحدٍ منهما ﴿كَافِرُونَ (٤٨)﴾ وقيل: إن أهل مكة كما كفرُوا بمحمد عليه السلام وبالقرآن فقد كفروا بموسى وبالتوراة، وقالوا في موسى ومحمد: ساحران تظاهرا، أو: في التوراة والقرآن: سِحران تظاهرا، وذلك حين بَعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد، فأخبروهم أنه في كتابهم، فرجع الرهطُ إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: ساحران تظاهرا.

«٤٩» ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾: مما أنزل على موسى، ومما أنزل عليَّ ﴿أَتَّبِعْهُ﴾: جواب (فأتوا)، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩)﴾ في أنهما سحران.

«٥٠» ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾: فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى.. فاعلم أنهم قد أُلزِموا، ولم يبق لهم حجةٌ إلا اتباعُ الهوى، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أحدَ أضلُّ ممن اتبع في الدين هواه، و(بغير هدىً): حالٌ؛ أي: مخذولاً، لا يُخلَّى بينه وبين هواه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)﴾.

«٥١» ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)﴾ التوصيلُ: تكثيرُ الوَصْلِ وتكريرُه؛ يعني: أن القرآن أتاهم متتابعاً متواصلاً، وعداً ووعيداً، وقِصصاً وعِبراً ومواعظَ؛ ليتذكروا فيفلحوا.

«٥٢» ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾: من قبل القرآن، وخبرُ (الذين): ﴿هُم بِهِ﴾: بالقرآن ﴿يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾ نزلت في مؤمنِ أهلِ الكتابِ.

«٥٣» ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ القرآنُ ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ﴾: من قبلِ نزولِ القرآنِ ﴿مُسْلِمِينَ (٥٣)﴾: كائنين على دين الإسلام، مؤمنين بمحمد عليه السلام، وقولُه: (إنه): تعليلٌ للإيمان به؛ لأن كونه حقّاً من الله حقيقٌ بأن يُؤمَنَ به، وقولُه: (إنا): بيانٌ لقوله: (آمنا)؛ لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريبَ العهد وبعيدَه، فأَخبَروا بأن إيمانهم به متقادِمٌ.

﴿أُولَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٥٥ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٥٦﴾ ....

《٥٤》 ﴿أُولَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾: بصبرهم على الإيمان بالتوراة، والإيمانِ بالقرآن، أو: بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله، أو: بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب، ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: يدفعون بالطاعة المعصية، أو: بالحلم الأذى، ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾: يُزَكُّون.

《٥٥》 ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ﴾: الباطلَ، أو الشتمَ من المشركين ﴿أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ﴾ للّاغينَ: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾: أمانٌ منا لكم بأن نقابلَ لَغْوَكم بمثله، ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾: لا نريدُ مخالطتَهم وصحبتَهم.

《٥٦》 ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾: لا تقدرُ أن تُدخلَ في الإسلام كلَّ من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرِهم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾: يخلقُ فعل الاهتداء فيمن يشاء، ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٥٦﴾: بمن يختار الهداية ويقبلُها، ويتعظُ بالدلائل والآيات، قال الزجاج: أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالبٍ[1]، وذلك أنه قال عند موته: يا معشرَ بني هاشم صدِّقُوا محمداً تفلحوا، فقال عليه السلام: «يا عمِّ تأمرُهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعُها لنفسك؟» قال: فما تريدُ يا بنَ أخي؟ قال: «أريد منك أن تقول: لا إله إلا الله، أشهدُ لك بها عند الله»، قال: يا بن أخي أنا قد علمتُ أنك صادق، ولكني أكره أن يقال: جَزِعَ عند الموت[2]، وإن كانت الصيغةُ عامةً، والآيةُ حجة على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: الهدى هو البيان، قد هدى الناس أجمعَ، ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم، فدلَّ أن ما وراءَ البيان ما يُسمَّى هدايةً، وهو خلقُ الاهتداء، وإعطاءُ التوفيق والقدرة.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ١٤٩).

(٢) روى البخاري (٣٨٨٤) ومسلم (٢٤) عن ابن المسيب، عن أبيه، أن أبا طالب لما حضرته الوفاة.. دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل، فقال: «أيْ عمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبدُ الله بنُ أبي أمية: يا أبا طالب، ترغبُ عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه، حتى قال آخرَ شيءٍ كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لأستغفرن لك، ما لم أُنْهَ عنه» فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾.

وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ....

«٥٧» ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ قالت قريش: نحن نعلم أنك على الحق، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك أن يتخطفونا من أرضنا، فألقمهم الله الحجرَ بأنه مَكَّنَ لهم في الحرم الذي أمَّنَه بحرمة البيت، وأَمَّنَ قُطّانَه بحرمته، والثمراتُ تجيءُ إليهم من كل أَوْبٍ وهم كفرة، فأنى يستقيم أن يُعَرِّضَهم للتَّخَطُّفِ ويَسلبَهم الأمنَ إذا ضَمُّوا إلى حرمة البيت حرمةَ الإسلام؟ وإسنادُ الأمنِ إلى أهل الحرم حقيقةٌ، وإلى الحرم مجازٌ، ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ وبالتاء: مدنيٌّ ويعقوبُ وسهلٌ[1]؛ أي: تُجلبُ وتُجمعُ ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ معنى الكلية: الكثرةُ، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾: هو مصدرٌ؛ لأن معنى (يُجبى إليه): يُرزقُ، أو: مفعولٌ له، أو: حالٌ من الثمرات إن كان بمعنى مرزوق؛ لتخصصها بالإضافة، كما تُنصبُ عن النكرة المتخصصةِ بالصفة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾: متعلقٌ بـ(من لدنا) أي: قليلٌ منهم يُقرُّون بأن ذلك رزقٌ من عند الله، وأكثرُهم جهلةٌ لا يعلمون ذلك، ولو علموا أنه من عند الله.. لعلمُوا أن الخوف والأمن من عندِه، ولَمَا خافوا التخطفَ إذا آمنوا به.

«٥٨» ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾: هذا تخويفٌ لأهل مكةَ من سوء عاقبةِ قومٍ كانوا في مثل حالهم بإنعام الله عليهم، فلم يَشكروا النعمةَ وقابلُوها بالبطر فأُهلكُوا، و(كم): نصبٌ بـ(أهلكنا)، و(معيشتَها): بحذف الجارِّ وإيصالِ الفعل؛ أي: في معيشتها، والبطرُ: سوءُ احتمالِ الغِنَى، وهو: ألا يحفظَ حقَّ الله فيه، ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾: منازلُهم باقيةُ الآثارِ، يُشاهدونَها في الأسفار، كبلادِ ثمودَ، وقومِ شعيبٍ وغيرِهم، ﴿لَمْ تُسْكَن﴾: حالٌ، والعاملُ فيها: الإشارةُ، ﴿مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من السكنى؛ أي: لم يسكنْها إلا المسافرُ ومارُّ الطريقِ يوماً أو ساعةً، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ لتلك المساكنِ من ساكنيها؛ أي: لا يملك التصرفَ فيها غيرُنا.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٢) وكذا القراءة الآتية.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ....

«٥٩» ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ في كلِّ وقتٍ ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ وبكسرِ الهمزةِ: حمزةُ وعليٌّ[1]؛ أي: في القرية التي هي أمُّها؛ أي: أصلُها ومعظمُها، ﴿رَسُولًا﴾ لإلزام الحجةِ وقطعِ المعذرةِ، أو: وما كان في حكم الله، وسابقِ قضائِه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعثَ في أمِّ القرى؛ يعني: مكةَ؛ لأن الأرض دُحيت من تحتها.. رسولاً؛ يعني: محمداً عليه السلام، ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: القرآنَ، ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: وما أهلكناهم للانتقام إلا وأهلُها مستحقون العذاب بظلمهم، وهو إصرارُهم على كفرهم وعنادِهم ومكابرتِهم بعد الإعذارِ إليهم.

«٦٠» ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ وأيَّ شيءٍ أصبتُموه من أسباب الدنيا.. فما هو إلا تمتعٌ وزينةٌ أياماً قلائلَ، وهي مدةُ الحياةِ الفانيةِ، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: وهو ثوابُه ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسِه من ذلك، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه دائمٌ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أن الباقيَ خيرٌ من الفاني، وخيَّرَ أبو عمرٍو بين الياء والتاء، والباقون: بالتاء لا غيرُ[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله تعالى خلق الدنيا، وجعل أهلها ثلاثةَ أصنافٍ: المؤمنُ والمنافقُ والكافرُ، فالمؤمنُ يتزودُ، والمنافقُ يتزين، والكافرُ يتمتع، ثم قرَّرَ هذه الآيةَ بقوله:

«٦١» ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: الجنةَ فلا شيءَ أحسنُ منها؛ لأنها دائمة، ولذا سميت الجنةُ بالحسنى، ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي: رائيه ومدركُه ومصيبُه، ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾: من الذين أُحضروا النارَ، ونحوُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧]، نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهلٍ لعنه الله، أو: في عليٍّ وحمزةَ، وأبي جهلٍ، أو: في المؤمن والكافر، ومعنى الفاءِ الأولى: أنه لما ذكر التفاوتَ بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله.. عقَّبَه بقوله: (أفمن وعدناه) أي: أَبَعْدَ هذا التفاوتِ الجليِّ يُسوَّى بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة، والفاءُ الثانيةُ: للتسبيب؛ لأن لِقاءَ الموعودِ مُسببٌ عن الوعد، و(ثم): لتراخي حالِ

---

(١) بكسر الهمزة وصلاً، وضمِّها في الابتداء بها.

(٢) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٤٢).

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ....

الإحضارِ عن حالِ التمتعِ، ﴿ ثمَّ هْوَ﴾: عليٌّ[1]، كما قيل: عَضْدٌ في: عَضُدٍ، شُبِّهَ المنفصلُ بالمتصل.

《٦٢》 ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾: ينادي اللهُ الكفارَ نداءَ توبيخٍ، وهو عطفٌ على (يوم القيامة)، أو: منصوبٌ بـ(اذكر)، ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾: بناءً على زعمهم، ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ومفعولا (تزعمون) محذوفان، تقديرُه: كنتم تزعمونهم شركائي، ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت، ولا يجوزُ الاقتصارُ على أحدِهما[2].

《٦٣》 ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: الشياطينُ، أو أئمةُ الكفرِ؛ ومعنى (حقَّ عليهم القول): وجبَ عليهم مقتضاه وثبت، وهو قولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾: مبتدأٌ، ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي: دَعوناهم إلى الشرك، وسوَّلْنا لهم الغَيَّ: صفتُه، والراجعُ إلى الموصول محذوفٌ، والخبرُ: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾، والكافُ في ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾: صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، تقديرُه: أغويناهم فغَوَوا غَيّاً مثلَ ما غَوَيْنا؛ يعنون أنا لم نَغْوَ إلا باختيارنا، فهؤلاء كذلك غَوَوْا باختيارهم؛ لأن إغواءَنا لهم لم يكن إلا وسوسةً وتسويلاً، فلا فرقَ إذاً بين غَيِّنا وغَيِّهم، وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر.. فقد كان في مقابلته دعاءُ اللهِ لهم إلى الإيمان بما وَضَعَ فيهم من أدلة العقل، وما بعث إليهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب، وهو كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] إلى قوله: ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم، ومما اختاروه من الكفرِ، ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بل يعبدون أهواءهم، ويطيعون شهواتِهم، وإخلاءُ الجملتين من العاطف لكونهما مُقَرِّرتين لمعنى الجملة الأولى.

《٦٤》 ﴿وَقِيلَ﴾ للمشركين: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: الأصنامَ لِتخلصكم من العذاب، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾: فلم يُجيبوهم، ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وجوابُ (لو): محذوفٌ؛ أي: لَمَا رأَوُا العذابَ.

---

(١) أسكن الهاءَ: أبو جعفرٍ وقالونُ والكسائيُّ، وضمَّها غيرُهم. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٢).

(٢) اتفق النحاة على أنه لا يجوز حذف أحد مفعولي ظن بلا دليل، واختلف في جواز حذف المفعولي بلا دليل، فعن سيبويهِ والأخفشِ المنعُ مطلقاً، وعن الأكثرين الجواز مطلقاً. انظر «شرح الأشموني لألفية ابن مالك» (١/ ٣٧٣).

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ....

《٦٥》 ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ الذين أُرسِلُوا إليكم، حكَى أولاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاءَ، ثم ما يقوله الشياطينُ، أو أئمةُ الكفر عند توبيخِهم؛ لأنهم إذا وُبِّخُوا بعبادة الآلهة.. اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استَغْوَوْهم، ثم ما يُشبهُ الشماتةَ بهم لاستغاثتم آلهتَهم وعجزِهم عن نصرتِهم، ثم ما يُبكَّتُون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل، وإزاحةِ العِلَلِ.

《٦٦》 ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾: خفيت عليهم الحُجَجُ، أو الأخبارُ، وقيل: خَفِيَ عليهم الجوابُ فلم يَدْرُوا بماذا يجيبون؛ إذْ لم يكن عندهم جواب، ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾: لا يسألُ بعضهم بعضاً عن العذر والحُجَّةِ، رجاءَ أن يكون عنده عذرٌ وحجةٌ؛ لأنهم يَتساوَوْنَ في العجز عن الجواب.

《٦٧》 ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك، ﴿وَءَامَنَ﴾ بربه وبما جاء من عنده، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: فعسى أن يفلح عند الله، وعسى: من الكرام تحقيقٌ، وفيه بشارةٌ للمسلمين على الإسلام، وترغيبٌ الكافرين على الإيمان.

《٦٨》 ونزل جواباً لقول الوليد بنِ المغيرة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني نفسَه، أو: أبا مسعود:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وفيه دلالةُ خلق الأفعال، ويُوقَفُ على ﴿وَيَخْتَارُ﴾ أي: وربُّك يخلقُ ما يشاءُ، وربك يختار ما يشاء، ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ما، وله الخِيَرَةُ عليهم، ولم يُدخل العاطفَ في (ما كان لهم الخيرة)؛ لأنه بيانٌ لقوله: (ويختار) إذ المعنى: أن الخيرةَ لله، وهو أعلمُ بوجوه الحكمة في أفعاله، فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه، ومن وصل على معنى: ويختار الذي لهم فيه الخيرةُ.. فقد أبعدَ، بل (ما): لنفي اختيارِ الخلقِ؛ تقريراً لاختيار الحقِّ، ومن قال: ومعناه: ويختارُ للعباد ما هو خيرٌ لهم وأصلحُ.. فهو مائل إلى الاعتزال، والخيرةُ: من التخيُّرِ، يُستعمل بمعنى المصدر، وهو التخيُّرُ، وبمعنى الْمُتخَيَّرِ، كقولهم: محمدٌ خيرةُ الله من خلقه، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: اللهُ بريءٌ من إشراكهم، وهو منزهٌ عن أن يكون لأحدٍ عليه اختيارٌ.

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ....

《٦٩》 ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾: تُضمرُ ﴿صُدُورُهُمْ﴾ من عداوة رسول الله ﷺ وحسده، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ من مطاعنِهم فيه، وقولِهم: هلا اختيرَ عليه غيرُه في النبوة.

《٧٠》 ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾: وهو المستأثرُ بالإلهيةِ المختصُّ بها، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تقريرٌ لذلك، كقولك: القبلةُ: الكعبةُ، لا قبلةَ إلا هي، ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ﴾: الدنيا ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾، هو قولُهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، والتحميدُ ثمةَ على وجه اللذةِ لا الكلفةِ، ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾: القضاءُ بين عباده، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ بالبعث والنشور، وبفتح التاءِ وكسر الجيم: يعقوب[1].

《٧١》 ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ ﴿أريتم﴾: محذوف الهمزة: عليٌّ[2]، ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ هو مفعولٌ ثانٍ لـ(جعل) أي: دائماً؛ مِن السردِ وهو المتابعةُ، ومنه قولُهم: في الأشهر الحرم: ثلاثةٌ سردٌ، وواحدٌ فردٌ، والميمُ مزيدةٌ، ووزنُه (فَعْمَل)، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ والمعنى: أخبروني مَن يقدرُ على هذا.

《٧٢》 ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ولم يقل بنهارٍ تتصرفون فيه كما قال: (بليل تسكنون فيه)، بل ذكر الضياءَ، وهو ضوء الشمس؛ لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرةٌ، ليس التصرفَ في المعاش وحدَه، والظلامُ ليس بتلك المنزلة، ومن ثم قرن بالضياء (أفلا تسمعون)؛ لأن السمع يُدركُ ما لا يدركُه البصرُ من ذكر منافعِه ووصفِ فوائدِه، وقرن بالليل (أفلا تبصرون)؛ لأن غيرك يبصرُ من منفعة الظلام ما تبصرُه من السكون ونحوه[3].

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٢).

(٢) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤٣٧).

(٣) في «التحرير والتنوير» (٢٠/ ١٧١): وناسب السمعُ دليلَ فرضِ سرمدةِ الليلِ؛ لأن الليل لو كان دائماً.. لم تكن للناس رؤيةٌ؛ فإن رؤية الأشياء مشروطةٌ بانتشار شيء من النور على سطح الجسم المرئي، فالظلمة الخالصةُ لا تُرى فيها المرئيات، ولذلك جيء في جانب فرض دوام الليل بالإنكار على عدم سماعهم، وجيء في جانب فرضِ دوامِ النهارِ بالإنكار على عدم إبصارهم.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ....

《٧٣》 ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضل الله في النهار، فيكون من باب اللفِّ والنشرِ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ الله على نعمه، وقال الزجاج: يجوز أن يكون معناه: لتسكنوا فيهما، ولتبتغوا من فضل من الله فيهما، ويكون المعنى: جعل لكم الزمان ليلاً ونهاراً؛ لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله فيه[1].

《٧٤》 ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ كَرَّرَ التوبيخ باتخاذ الشركاء؛ لِيؤْذِنَ أنْ لا شيءَ أجلبُ لغضب الله من الإشراك به، كما لا شيءَ أدخلُ في مرضاته من توحيده.

《٧٥》 ﴿وَنَزَعْنَا﴾: وأخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني: نبيَّهم؛ لأن الأنبياء للأمم شهداءُ عليهم، يشهدون بما كانوا عليه، ﴿فَقُلْنَا﴾ للأمم: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ فيما كنتم عليه من الشركِ ومخالفةِ الرسلِ، ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ حينئذٍ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ﴾: التوحيدَ ﴿لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم﴾: وغاب عنهم غَيبةَ الشيءِ الضائعِ ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ من ألوهيةِ غيرِ اللهِ، والشفاعةِ لهم.

《٧٦》 ﴿إِنَّ قَٰرُونَ﴾: لا ينصرفُ؛ للعجمة والتعريف، ولو كان (فاعولاً) مِن: قرنت الشيءَ.. لانصرفَ، ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾: كان إسرائيليّاً ابنَ عمِّ لموسى، فهو قارونُ بنُ يَصْهُرَ بنِ قاهَثَ بنِ لاوِيَ بنِ يعقوبَ، وموسى بنُ عمرانَ بنِ قاهَثَ، وكان يسمى المُنَوَّرَ لِحُسْنِ صورته، وكان أقرأَ بني إسرائيلَ للتوراة، ولكنه نافقَ كما نافقَ السامريُّ، ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: مِن البغْيِ، وهو الظلم، قيل: مَلَّكه فرعونُ على بني إسرائيلَ فظلمَهم، أو: مِن البغْيِ: الكبرِ، تكبرَ عليهم بكثرة ماله وولده، أو: زاد عليهم في الثياب شبراً، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ (ما): بمعنى الذي في موضع نصب بـ(آتينا)، و(إنَّ) واسمُها وخبرُها صلةُ الذي، ولهذا كُسرت (إنَّ)، والمفاتِحُ: جمعُ مِفْتَحٍ، بالكسر، وهو: ما يُفتَحُ به، أو: مَفتَحٍ، بالفتح، وهو: الخِزانةُ،

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ١٥٣).

﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَىٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ ....

والأصوبُ: أنها المقاليدُ[1]، ﴿لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ﴾: لتُثقِلُ العُصبةَ، فالباءُ: للتعدية؛ يقال: ناءَ به الحِملُ: إذا أثقله حتى أمالَه، والعُصبةُ: الجماعةُ الكثيرةُ، وكانت تَحملُ مفاتيحَ خزائنِه ستون بغلاً، لكل خزانة مفتاحٌ، ولا يزيد المفتاحُ على أُصبُعٍ، وكانت من جلود، ﴿أُوْلِى الْقُوَّةِ﴾: الشدةِ، ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي: المؤمنون، وقيل: القائلُ موسى عليه السلام، ومحلُّ (إذ): نصبٌ بـ(تنوءُ)، ﴿لَا تَفْرَحْ﴾: لا تَبطَرْ بكثرة المال، كقوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، ولا يفرحُ بالدنيا إلا من رضي بها واطمأنَّ، وأما مَن قلبُه إلى الآخرة ويعلم أنه يتركها عن قريبٍ.. فلا يفرحُ بها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾: البطرين بالمال.

《٧٧》 ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَىٰكَ اللَّهُ﴾ من الغنى والثروة ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ بأن تتصدقَ على الفقراء، وتصلَ الرحمَ، وتصرفَ إلى أبواب الخير، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو: أن تأخذ ما يكفيك ويصلحُك، وقيل: معناه: واطلب بدنياك آخرتَك؛ فإن ذلك حظُّ المؤمن منها، ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أو: أحسن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام، كما أحسن إليك بالإنعام، ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالظلم والبغيِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

《٧٨》 ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي: المالَ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: على استحقاقٍ؛ لما فيَّ من العلم الذي فُضِّلْتُ به الناس، وهو علمُ التوراة، أو علمُ الكيمياء، وكان يأخذ الرصاصَ والنحاسَ فيجعلُهما ذهباً، أو العلمُ بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة، و(عندي): صفةٌ لـ(علم)، قال سهل: ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح، والسعيدُ مَن صرف بصرَه عن أفعاله وأقواله، وفُتِحَ له سبيلُ رؤية مِنَّةِ الله تعالى عليه في جميع الأفعال والأقوال، والشقيُّ مَن زُيِّنَ في عينه أفعالُه وأقوالُه وأحوالُه، ولا فُتِحَ له سبيلُ رؤيةِ مِنَّةِ اللهِ، فافتخر بها وادَّعاها لنفسه، فشؤمُه يُهْلِكه يوماً، كما خُسف بقارونَ لما ادَّعى لنفسه فضلاً، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارونُ ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾: هو إثبات لعلمه بأن الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأغنى؛ لأنه قد قرأه في التوراة، كأنه قيل: أو لم يعلم في جملة ما عنده من العلم هذا حتى

(١) المقاليد: الخزائن، وقيل: المفاتيح.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ....

لا يغترَّ بكثرة ماله وقوته، أو: نفيٌّ لعلمه بذلك؛ لأنه لما قال: أوتيتُه على علم عندي.. قيل: عنده مثلُ ذلك العلم الذي ادعاه، ورأى نفسَه به مستوجبةً لكل نعمة، ولم يعلم هذا العلمَ النافعَ حتى يقيَ به نفسَه مصارعَ الهالكين؟ ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال، أو: أكثرُ جماعةً وعدداً، ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ لعلمه تعالى بهم، بل يدخلون النار بغير حساب، أو: يعترفون بها بغير سؤال، أو يُعرفون بسيماهم فلا يُسألون، أو: لا يسألون لِتُعْلَمَ من جهتهم، بل يُسألون سؤالَ توبيخٍ، أو: لا يسألُ عن ذنوب الماضين المجرمون من هذه الأمة.

《٧٩》 ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾: في الحمرة والصفرة، وقيل: خرج يوم السبت على بغلةٍ شهباءَ، عليها الأُرْجُوانُ[١]، وعليها سرجٌ من ذهب، ومعه أربعةُ آلافٍ على زِيِّهِ، وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباجُ الأحمرُ، وعن يمينه ثلاثُ مئةِ غلامٍ، وعن يساره ثلاث مئةِ جاريةٍ بيضٍ، عليهن الحُلِيُّ والديباجُ، و(في زينته): حالٌ من فاعل (خرج) أي: متزيناً، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ قيل: كانوا مسلمين وإنما تمنَّوا على سبيل الرغبة في اليَسارِ كعادة البشر. وقيل: كانوا كفاراً: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ قالوه غِبطةً، والغابطُ هو: الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه، من غير أن تزول عنه، كهذه الآية، والحاسدُ هو: الذي يتمنى أن تكون نعمه صاحبه له دونه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]، وقيل لرسول الله ﷺ: هل تضرُّ الغبطةُ؟ قال: «لا، إلا كما يضرُّ العِضاهَ الخَبْطُ»[٢]، ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ الحظُّ: الجِدُّ، وهو: البَخْتُ والدَّولةُ.

《٨٠》 ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بالثوابِ والعقابِ وفناءِ الدنيا، وبقاء العقبى لِغابِطي قارونَ: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أصلُ ويلك: الدعاءُ بالهلاك، ثم استعمل في الزجرِ والردعِ والبعثِ على ترك ما لا يُرضى، وفي «التبيان في إعراب القرآن»: هو مفعولُ فعلٍ محذوف؛ أي: ألزمكم الله ويلَكم[٣]، ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: لا يُلَقَّنُ هذه الكلمةَ، وهي:

---

(١) الأُرْجُوانُ: الثيابُ الحُمْرُ.

(٢) روى نحوه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧٠/ ٢٧٥) عن محمدِ بنِ سليمانَ بنِ أبي الدرداء عن أمه عن جدتها.

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١٠٢٦). وذكر ابن مالك في «شرح التسهيل» (٢/ ١٧٩) أنه مفعولٌ مطلقٌ، ولكنْ لا فعلَ له لا لفظاً ولا تقديراً.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ....

(ثواب الله خير) ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ على الطاعاتِ، وعن الشهواتِ، وزينةِ الدنيا، وعلى ما قَسمَ اللهُ من القليل عن الكثير.

《٨١》 ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كان قارونُ يؤذي موسى عليه السلام كلَّ وقتٍ، وهو يداريه للقرابة التي بينهما، حتى نزلت الزكاةُ، فصالحه عن كل ألفِ دينارٍ على دينار، وعن كل ألفِ درهمٍ على درهم، فحَسَبَهُ فاستكثره، فشحَّتْ به نفسه، فجمع بني إسرائيل وقال: إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرُنا، فمرْ بما شئت، قال: نُبرْطِلُ فلانةَ البغيَّ حتى ترميه بنفسها[1]، فترفُضُه بنو إسرائيل، فجعل لها ألفَ دينارٍ، أو طَسْتاً من ذهب، أو حُكْمَها، فلما كان يومُ عيد.. قام موسى فقال: يا بني إسرائيلَ مَن سرقَ.. قطعناه، ومن افترى.. جلدناه، ومن زنى وهو غيرُ محصنٍ.. جلدناه، وإن أُحصن.. رجمناه، فقال قارونُ: وإن كنتَ أنتَ؟ قال: وإن كنتُ أنا، قال: فإن بني إسرائيلَ يَزعُمون أنك فَجَرْتَ بفلانةَ، فأُحضرت، فناشدها بالذي فلقَ البحرَ، وأنزل التوراةَ أن تَصدُقَ، فقالت: جعل لي قارونُ جُعلاً على أن أقذفكَ بنفسي، فخرَّ موسى ساجداً يبكي، وقال: يا رب إن كنتُ رسولَكَ.. فاغضبْ لي، فأوحى الله إليه أن مُرِ الأرضَ بما شئتَ؛ فإنها مطيعةٌ لك، فقال: يا بني إسرائيلَ إن الله بعثني إلى قارونَ، كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه.. فليلزمْ مكانَه، ومن كان معي.. فليعتزلْ، فاعتزلوا جميعاً غيرَ رجلين، ثم قال: يا أرضُ خُذيهم، فأخذتهم إلى الركب، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: خُذِيهم، فأخذتهم إلى الأعناق، وقارونُ وأصحابُه يتضرعون إلى موسى ويناشدونَه بالله والرحم، وموسى لا يلتفتُ إليهم لشدةِ غضبِه، ثم قال: خُذيهم، فانطبقت عليهم، فقال الله تعالى: استغاث بك مراراً فلم ترحمْه، فَوَعِزَّتي لو استرحمَني مرةً.. لرحمتُه، فقال بعضُ بني إسرائيلَ: إنما أهلكَه ليرثَ مالَه، فدعا اللهَ حتى خسفَ بداره وكنوزِه، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾: جماعةٍ ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يمنعونه من عذاب الله، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾: من المنتقمين من موسى، أو: من الممتنعين من عذاب الله؛ يقال: نصرَه من عدوه فانتصر؛ أي: منعه منه فامتنع.

---

(١) نُبرطِلُ: نعطيها رشوة.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ ....

《٨٢》 ﴿وَأَصْبَحَ﴾: وصار ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾: منزلته من الدنيا ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾: ظرفٌ لـ(تمنَّوا)، ولم يُرَدْ به اليومُ الذي قبل يومك، ولكن: الوقتُ القريبُ؛ استعارةً، ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ (وي): منفصلةٌ عن (كأن) عند البصريين، قال سيبويه: وي: كلمةٌ تَنَبُّهٍ على الخطأ وتَنَدُّمٍ، يستعملُها النادمُ بإظهار نَدامتِه؛ يعني: أن القوم قد تنبهوا على خطئِهم في تمنِّيهم وقولهم: يا ليت لنا مثلَ ما أوتي قارونُ، وتَنَدَّمُوا[١]، ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بصرفِ ما كنا نتمناه بالأمس ﴿لَخُسِفَ بِنَا﴾: وبفتحتين: حفصٌ ويعقوبُ وسهلٌ[٢]، وفيه ضميرُ الله تعالى، ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: تندَّمُوا، ثم قالوا: كأنه لا يفلح الكافرون.

《٨٣》 ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ (تلك): تعظيمٌ لها، وتفخيمٌ لشأنها؛ يعني: تلك التي سمعت بذكرها، وبَلَغَكَ وصفُها، وقولُه: ﴿نَجْعَلُهَا﴾: خبرُ (تلك)، و(الدار): نعتُها، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بغياً، ابنُ جبير، أو: ظلماً، الضحاكُ، أو: كبراً، ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: عملاً بالمعاصي، أو: قتلَ النفسِ، أو: دعاءً إلى عبادة غير الله، ولم يُعَلِّقِ الموعدَ بترك العلوِّ والفسادِ، ولكن بترك إرادتِهما، وميلِ القلوبِ إليهما، كما قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [هود: ١١٣]، فعلَّقَ الوعيدَ بالرُّكُون، وعن علي رضي الله عنه: إن الرجلَ ليعجبُه أن يكون شِراكُ نعله أجودَ من شراك نعلِ صاحبِه فيدخلُ تحتها[٣]، وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال: ذهبت الأمانيُّ ههنا. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يُرَدِّدُها حتى قُبِضَ. وقال بعضُهم: حقيقتُه التنفير عن متابعة فرعونَ وقارونَ؛ متشبثاً بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

《٨٤》 ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾: مرَّ في (النمل)، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ معناه: فلا يُجزون، فوُضِعَ (الذين عملوا السيئات) موضعَ الضمير؛ لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مُكَرَّراً فَضلَ تَهجينٍ بحالهم، وزيادةَ تبغيضٍ للسيئة إلى قلوب السامعين، ﴿إِلَّا مَا

---

(١) انظر «الكتاب» لسيبويه (٢/ ١٥٤).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٣).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٣٨).

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ....

كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾: إلا مثلَ ما كانوا يعملون، ومن فضله العظيم ألا يجزي السيئة إلا بمثلها، ويجزي الحسنة بعشر أمثالها، وبسبع مئةٍ.

《٨٥》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أوجب عليك تلاوتَه وتبليغَه والعملَ بما فيه ﴿لَرَآدُّكَ﴾ بعد الموتِ ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيِّ معادٍ، وإلى معادٍ ليس لغيرك من البشر، فلذا نكَّرَه، أو: المرادُ به: مكةُ، والمرادُ: ردُّه إليها يوم الفتح وإنما نكره؛ لأنها كانت في ذلك اليوم معاداً له شأنٌ، ومرجعاً له اعتدادٌ؛ لغلبة رسول الله، وقهره لأهلها، ولظهور عزِّ الإسلام وأهلِه، وذلِّ الشركِ وحزبِه، والسورةُ مكيةٌ، ولكن هذه الآيةَ نزلت بالجُحفة، لا بمكةَ ولا بالمدينة، حين اشتاق إلى مولده ومولدِ آبائِه، ولمّا وعدَ رسولَه الردَّ إلى معاده.. قال: ﴿قُل﴾ للمشركين: ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يعني: نفسَه وما له من الثواب في معاده، ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ يعني: المشركين وما يستحقونه من العذاب في معادِهم، (مَن): في محل نصبٍ بفعلٍ مضمرٍ؛ أي: يعلم.

《٨٦》 ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ﴾: يُوحَى ﴿إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: القرآنُ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: هو محمولٌ على المعنى؛ أي: وما أُلقيَ عليك الكتاب إلا رحمةً من ربك، أو: (إلا) بمعنى: لكن؛ للاستدراك؛ أي: ولكن لرحمةٍ من ربك أُلقي إليك الكتابُ، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾: مُعيناً لهم على دينهم.

《٨٧》 ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: هو على الجمع؛ أي: لا يمنعنك هؤلاءِ عن العمل بآيات الله؛ أي: القرآن، ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ الآياتُ؛ أي: بعد وقت إنزاله، و(إذ): يضافُ إليه أسماءُ الزمان، كقولك: حينئذٍ ويومئذٍ، ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: إلى توحيده وعبادته، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

《٨٨》 ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخطابُ في الظاهر للنبي ﷺ، والمرادُ به: أهلُ دينه، ولأن العصمةَ لا تمنع النهي، والوقفُ على (آخَرَ): لازمٌ؛ لأنه لو وُصِلَ.. لصار ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفةً لـ(إلهاً آخرَ)، وفيه من الفساد ما فيه، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلا إياه، فالوجهُ يُعبَّرُ به عن الذات، وقال مجاهد: يعني: علمَ العلماءِ إذا أُريدَ به وجهُ الله، ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾: القضاءُ في خلقه، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ وبفتح التاء وكسر الجيم: يعقوبُ[1].



(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٣).

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ ....

سورة العنكبوت

مكيةٌ، وهي تسعٌ وستون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١ - ٢﴾ ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ الحِسبانُ: قوةُ أحدِ النقيضين على الآخر، كالظن، بخلاف الشكِّ، فهو الوقوفُ بينهما، والعلمِ، فهو القطع على أحدِهما، ولا يصحُّ تعليقُهما بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجُمَلِ، فلو قلت: حسبت زيداً، وظننت الفرسَ.. لم يكن شيئاً، حتى تقول: حسبت زيداً عالماً، وظننت الفرسَ جواداً؛ لأن قولك: زيدٌ عالمٌ، والفرسُ جوادٌ.. كلامٌ دالٌّ على مضمون، فإذا أردتَ الإخبارَ عن ذلك المضمون ثابتاً عندك على وجه الظنِّ لا اليقينِ.. أدخلتَ على شَطْرَيِ الجملةِ فعلَ الحِسبانِ، حتى يَتِمَّ لك غرضُك، والكلامُ الدالُّ على المضمون الذي يقتضيه الحِسبان هنا: (أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)، وذلك أن تقديرَه: أحسبوا تركَهم غيرَ مفتونين لِقولهم: آمنا، فالتركُ: أولُ مفعولَي (حسب)، ولقولهم آمنا: هو الخبرُ، وأما: غيرَ مفتونين.. فتتمةُ الترك؛ لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير، كقول عنترة[1]: [من: الكامل]

فـتـركـتـه جَـزَرَ الـسـبـاعِ يَـنَـشْـنَـهُ ....

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحِسبان تَقْدِرُ أن تقول: تركُهم غيرَ مفتونين لقولهم: آمنا، على تقدير: حاصلٌ ومستقرٌّ قبل اللام.

وهو استفهام توبيخٍ، والفتنةُ: الامتحانُ بشدائدِ التكليف؛ مِن مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداءِ، وسائرِ الطاعاتِ الشاقَّةِ، وهجرِ الشهواتِ، وبالفقرِ والقحطِ وأنواعِ المصائبِ في الأنفس والأموال، ومصابرةِ الكفار على أذاهم وكيدِهم، وروي: أنها نزلت في ناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ قد جَزِعُوا من أذى المشركين، أو: في عمارِ بنِ ياسرٍ وكان يُعذَّبُ في الله.

---

(١) انظر «ديوانه» (ص٢١٠)، وعجزُ البيت:

يَـقـضِـمْـنَ حـسـنَ بـنـانِـه والـمـعـصـمِ

وجَزَرُ السباع: اللحمُ الذي تأكلُه، يَنُشْنَهُ: يأكلْنَه.

وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ ....

《٣》 ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾: اختبرْنا، وهو موصولٌ بـ(أحسب)، أو: بـ(لا يُفتنون)، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأنواع الفتن، فمنهم مَن يُوضعُ المنشار على رأسه فيُفرَقُ فرقتين، ما يصرفُه ذلك عن دينه، ومنهم من يُمشطُ بأمشاط الحديد، ما يصرفُه ذلك عن دينه[1]، ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ بالامتحانِ ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في الإيمان، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ فيه، ومعنى علِمه تعالى وهو عالم بذلك فيما لم يَزَلْ: أن يعلمَه موجوداً عند وجوده، كما علمه قبل وجوده أنه يوجد؛ والمعنى: وليتميزنَّ الصادقُ منهم من الكاذب، قال ابنُ عطاء: يتبين صدقُ العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، فمن شكر في أيام الرخاء، وصبر في أيام البلاء.. فهو من الصادقين، ومن بَطِرَ في أيام الرخاء، وجَزِعَ في أيام البلاء.. فهو من الكاذبين.

《٤》 ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الشركَ والمعاصيَ ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: يَفوتُونا؛ يعني: أن الجزاء يلحقُهم لا محالةَ، واشتمالُ صلةِ (أنْ) على مسندٍ ومسندٍ إليه سدَّ مسدَّ المفعولين، كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ويجوز أن يضمنَ (حسب) معنى: قَدَّرَ، و(أم): منقطعة؛ ومعنى الإضراب فيها: أن هذا الحِسبان أبطلُ من الحِسبان الأول؛ لأن ذلك يُقَدِّرُ أنه لا يُمتحنُ لإيمانه، وهذا يظنُّ أنه لا يجازَى بمساويه، وقالوا: الأولُ في المؤمنين، وهذا في الكافرين، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ (ما): في موضع رفع على معنى: ساءَ الحكمُ حكمُهم، أو: نصبٌ على معنى: ساء حكماً يحكمون، والمخصوصُ بالذمِّ محذوف؛ أي: بئس حكماً يحكمونه حكمُهم.

《٥》 ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: يَأْمُلُ ثوابَه، أو يخافُ حسابَه، فالرجاءُ يحتملُهما، ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ المضروبَ للثواب والعقاب ﴿لَءَاتٍ﴾ لا محالةَ، فلْيبادر للعملِ الصالحِ الذي يُصَدِّقُ رجاءَه ويحققُ أملَه، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولُه عبادُه، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾ بما يفعلونه، فلا يفوتُه شيءٌ ما، وقال الزجاج: (من) للشرط، ويرتفعُ بالابتداء، وجوابُ الشرط: (فإن أجل الله لآت)[2]، كقولك: إن كان زيد في الدار.. فقد صدق الوعد.

---

(١) روى ذلك البخاريُّ (٣٦١٢).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ١٦١).

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ....

《٦》 ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسَه بالصبر على طاعة الله، أو الشيطانَ بدفع وساوسِه، أو الكفارَ ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لأن منفعة ذلك ترجعُ إليها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ وعن طاعتهم ومجاهدتِهم، وإنما أَمَرَ ونهى رحمةً لعباده.

《٧》 ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: الشركَ والمعاصيَ بالإيمان والتوبة، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ أي: أحسنَ جزاءِ أعمالِهم في الإسلام.

《٨》 ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ﴾ وصَّى: حكمُه حكمُ أمر في معناه وتصرُّفِه؛ يقال: وصيتُ زيداً بأن يفعل خيراً، كما تقول: أمرتُه بأن يفعلَ، ومنه قولُه: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣٢] أي: وصّاهم بكلمة التوحيد، وأمرهم بها، وقولُك: وصيت زيداً بعمرٍو؛ معناه: وصيتُه بتعهدِ عمرٍو ومراعاتِه، ونحوِ ذلك، وكذلك معنى قوله: (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً): ووصيناه بإيتاء والديه حسناً، أو: بإيلاء والديه حسناً؛ أي: فعلاً ذا حُسْنٍ، أو ما هو في ذاته حُسْنٌ؛ لِفرطِ حُسنِه، كقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ويجوز أن يجعل (حسناً) من باب قولك: زيداً؛ بإضمار: اضربْ؛ إذا رأيته متهيأً للضرب، فتنصبُه بإضمار: أَوْلِهما، أو افعلْ بهما؛ لأن التوصية بهما دالةٌ عليه، وما بعده مطابقٌ له، كأنه قال: قلنا: أَوْلِهما معروفاً، ولا تطعْهما في الشرك إذا حملاك عليه، وعلى هذا التفسير: إنْ وقف على (بوالديه) وابتدئَ (حسناً) حَسُنَ الوقفُ، وعلى التفسير الأول: لا بدَّ من إضمار القول؛ معناه: وقلنا: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أيُّها الإنسانُ ﴿لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا علمَ لك بإلهيته؛ والمرادُ بنفي العلم: نفيُ المعلوم، كأنه قال: لتشرك بي شيئاً لا يصحُّ أن يكون إلهاً ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في ذلك، فلا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق، ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: مرجعُ من آمن منكم ومَن أشرك، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾: فأجازيْكم حقَّ جزائِكم، وفي ذكر المرجع والوعيد تحذيرٌ مِن متابعتِهما على الشرك، وحثٌّ على الثبات والاستقامة في الدين، روي: أن سعدَ بنَ أبي وقاصٍ لما أسلم.. نذرت أمُّه ألا تأكلَ ولا تشربَ حتى يرتدَّ، فشكا إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية، والتي في (لقمان)، والتي في (الأحقاف).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٢﴾

《٩》 ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: هو مبتدأٌ، والخبرُ: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾: في جملتهم، والصلاحُ مِن أبلغ صفات المؤمنين، وهو مُتمنَّى الأنبياء عليهم السلام، فقال سليمانُ عليه السلام: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، أو: في مُدْخَلِ الصالحين وهو الجنةُ.

《١٠》 ونزلت في المنافقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: إذا مَسَّهُ أذىً من الكفار ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: جَزِعَ من ذلك كما يجزع من عذاب الله تعالى، ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ أي: وإذا نصرَ اللهُ المؤمنين وغنَّمَهم.. اعترضُوهم وقالوا: إنا كنا معكم؛ أي: متابعين لكم في دينكم، ثابتين عليه بثباتكم، فأعطُونا نصيبَنا من المغنمِ، ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ أي: هو أعلمُ بما في صدورِ العالمين من العالمين بما في صدورهم، ومن ذلك ما في صدور هؤلاء من النفاق، وما في صدور المؤمنين من الإخلاص.

《١١》 ثم وعدَ المؤمنين، وأوعد المنافقين بقوله: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾: أي: حالُهما ظاهرةٌ عند من يملك الجزاء عليهما.

《١٢》 ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ أمروهم باتباع سبيلِهم، وهي طريقتُهم التي كانوا عليها في دينهم، وأمروا أنفسَهم بحملِ خطاياهم، فعُطف الأمرُ على الأمر، وأرادوا: ليجتمعْ هذان الأمران في الحصول: أن تتبعوا سبيلنا، وأن نحمل خطاياكم؛ والمعنى: تعليقُ الحمل بالاتباع؛ أي: إن تتبعوا سبيلنا.. حملنا خطاياكم، وهذا قولُ صناديدِ قريشٍ، كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نُبعثُ نحن ولا أنتم، فإن كان ذلك.. فإنا نتحملُ عنكم الإثم، ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٢﴾ لأنهم قالوا ذلك وقلوبُهم على خلافه، كالكاذبين الذين يَعِدُون الشيء وفي قلوبهم نيةُ الخُلْفِ.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ ....

«١٣» ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: أثقالَ أنفسِهم؛ يعني: أوزارَهم بسبب كفرِهم، ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي: أثقالاً أُخَرَ غيرَ الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملَها، وهي أثقالُ الذين كانوا سبباً في ضلالهم، وهو كما قال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾: يختلقون من الأكاذيب والأباطيلِ.

«١٤» ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كان عمرُه ألفاً وخمسين سنةً، بعث على رأس أربعين، ولبث في قومه تسعَ مئةٍ وخمسين سنةً، وعاش بعد الطوفان ستين، وعن وهب: أنه عاش ألفاً وأربعَ مئةِ سنةٍ، فقال له ملكُ الموت: يا أطولَ الأنبياء عُمُراً كيف وجدتَ الدنيا؟ قال: كَدارٍ لها بابان، دخلتُ وخرجتُ، ولم يقل: تسعَ مئةٍ وخمسين سنةً؛ لأنه لو قيل كذلك.. لجاز أن يُتوهمَ إطلاقُ هذا العددِ على أكثره، وهذا التوهم زائلٌ هنا، فكأنه قيل: تسعَ مئةٍ وخمسين سنةً كاملةً وافيةَ العددِ، إلا أن ذلك أخصرُ وأعذبُ لفظاً، وأملأُ بالفائدة، ولأن القصة سِيقت لذكر ما ابتُلِيَ به نوحٌ عليه السلام من أمته، وما كابده من طول المصابرة؛ تسليةً لنبيِّنا عليه السلام، فكان ذكرُ الألفِ أفخمَ وأوصلَ إلى الغرض، وجيءَ بالمميِّزِ أولاً بالسنة ثم بالعام؛ لأن تكرارَ لفظٍ واحدٍ في كلام واحد حقيقٌ بالاجتناب في البلاغة[1]، ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ هو: ما أطاف وأحاط بكثرة وغَلَبَةٍ؛ مِن سيل أو ظلام ليلٍ أو نحوهما، ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ أنفسَهم بالكفر.

«١٥» ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: نوحاً، ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ وكانوا ثمانيةً وسبعين نفساً، نصفُهم ذكورٌ، ونصفُهم إناثٌ، منهم أولادُ نوحٍ: سامٌ وحامٌ ويافثُ ونساؤُهم. ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: السفينةَ أو الحادثةَ أو القصةَ ﴿آيَةً﴾: عِبرةً وعظةً ﴿لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ يتعظون بها.

«١٦» ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾: نصبٌ بإضمار: اذكر، وأُبدلَ عنه: ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلَ اشتمالٍ؛ لأن الأحيان تشتمل على ما فيها، أو: معطوف على نوحٍ؛ أي: وأرسلنا إبراهيمَ، أو: ظرفٌ

---

(١) وخُصَّ لفظُ العام بالخمسين؛ إيذاناً بأن نبي الله صلى الله عليه وسلم لما استراح منهم.. بقي في زمن حَسَنٍ؛ لأن العربَ تعبرُ عن الخِصْبِ بالعامِ، وعن الجَدْبِ بالسنة. انظر «الدر المصون» (٩/ ١٣).

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ ....

لـ(أرسلنا) يعني: أرسلناه حين بلغ من السنِّ أو العلمِ مبلغاً صَلُحَ فيه لِأَنْ يَعِظَ قومَه ويأمرَهم بالعبادة والتقوى، وقرأ إبراهيمُ النخعيُّ وأبو حنيفة رضي الله عنهما: ﴿إبراهيمُ﴾: بالرفع[1]؛ على معنى: ومن المرسلين إبراهيمُ، ﴿لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الكفر ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾: إن كان لكم علمٌ بما هو خيرٌ لكم مما هو شرٌّ لكم.

《١٧》 ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾: أصـنـامـاً، ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾: وتـكـذبـون، أو: تصنعون، وقرأ أبو حنيفة والسُّلَمِيُّ رضي الله عنهما: ﴿وتَخَلَّقُون﴾[2]؛ من خَلَّقَ؛ بمعنى التكثير في: خَلَقَ، ﴿إِفْكًا﴾ وقرئ: ﴿أَفِكاً﴾[3]، وهو مصدرٌ، نحو: كَذِبٍ ولَعِبٍ، والإِفْكُ: مخففٌ منه، كالكِذْبِ واللِّعْبِ من أصلهما، واختلاقُهم الإفكَ: تسميتُهم الأوثانَ آلهةً وشركاءَ لله، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾: لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ كلَّه؛ فإنه هو الرزاق وحدَه، لا يرزقُ غيرُه، ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ فاستعدُّوا لِلِقائِه بعبادته، والشكرِ له على أنعمِه، وبفتح التاء وكسر الجيم: يعقوبُ[4].

《١٨》 ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ أي وإن تُكذبوني.. فلا تضرونني بتكذيبكم؛ فإن الرسل قبلي قد كذبتْهم أممُهم، وما ضرُّوهم، وإنما ضرُّوا أنفسَهم حيث حلَّ بهم العذابُ بسبب تكذيبهم، وأما الرسول.. فقد تمَّ أمرُه حيث بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشكُّ، وهو اقترانُه بآيات الله ومعجزاتِه، أو: وإن كنتُ مكذَّباً فيما بينكم.. فلي في سائر الأنبياء أُسوةٌ؛ حيث كُذِّبوا، وعلى الرسول أن يبلغَ وما عليه أن يُصدَّقَ ولا يكذبَ، وهذه الآية والآياتُ التي بعدها إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ محتمِلةٌ أن

---

(١) انظر «الكشاف» (٣/ ٤٥١).

(٢) انظر «المحرر الوجيز» (٤/ ٣١١)، وأصلُه: تتخلقون، فحذفت إحدى التاءين، وهو مِن: تَخَلَّقَ؛ أي: تَكَذَّبَ، وصيغةُ التكلف للمبالغة. انظر «تفسير الآلوسي» (١٠/ ٣٤٩).

(٣) انظر «المحتسب» لابن جني (٢/ ١٦٠).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٤) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ....

تكون من جملة قولِ إبراهيمَ عليه السلام لقومه، والمرادُ بالأمم قبلَه قومُ شيثٍ وإدريسَ ونوحٍ وغيرِهم، وأن تكون آياتٍ وقعت معترضةً في شأن رسول الله ﷺ وشأنِ قريشٍ بين أولِ قصةِ إبراهيمَ وآخرِها.

فإن قلت: فالجملُ الاعتراضيةُ لا بدَّ لها من اتصال بما وقعت معترضةً فيه، فلا تقول: مكةُ - وزيدٌ قائمٌ - خيرُ بلادِ الله.

قلت: نعم، وبيانُه: أن إيراد قصة إبراهيم عليه السلام ليس إلا إرادةً للتنفيس عن رسول الله ﷺ، وأن تكون مَسلاةً له؛ بأن أباه إبراهيم عليه السلام كان مبتلىً نحوَ ما ابتُلِيَ به من شركِ قومِه وعبادتِهم الأوثانَ، فاعترضَ بقوله: (وإن تكذبوا) على معنى: إنكم يا معشرَ قريشٍ إنْ تُكذبوا محمداً.. فقد كذبَ إبراهيمَ قومُه، وكلُّ أمة نبيَّها؛ لأن قوله: (فقد كذب أمم من قبلكم) لا بدَّ مِن تناولِه لأمةِ إبراهيمَ، وهو كما ترى اعتراضٌ متصلٌ، ثم سائرُ الآيات بعدَها من توابعها؛ لكونها ناطقةً بالتوحيد ودلائلِه، وهدمِ الشركِ وتوهينِ قواعدِه، وصفةِ قدرة الله تعالى وسلطانِه، ووضوحِ حجتِه وبرهانِه.

《١٩》 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وبالتاء: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ، ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: قَدَّرُوا ذلك وعَلِموه، وقولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾: ليس بمعطوف على (يبدىء)، وليست الرؤية واقعةً عليه، وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت، كما وقع النظرُ في قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] على البدءِ دون الإنشاء، بل هو معطوف على جملة قوله: (أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق)، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الإعادةِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾: سهل.

《٢٠》 ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ، وإن كان من كلام إبراهيمَ.. فتقديرُه: وأوحينا إليه أن قُلْ: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ على كثرتهم واختلافِ أحوالِهم؛ لتعرفوا عجائبَ فطرة الله بالمشاهدة، وبدأ، وأَبْدَأَ: بمعنىً، ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: البعثَ، وبالمدِّ حيث كان: مكيٌّ وأبو عمرٍو[1]، وهذا دليلٌ على أنهما نَشأتان، وأن كلَّ واحدة منهما إنشاءٌ؛ أي: ابتداءٌ واختراعٌ وإخراجٌ من العدم إلى الوجود، غيرَ أن الآخرة إنشاءٌ بعدَ إنشاءٍ مثلِه، والأُولى ليست كذلك، والقياسُ أن يقال: كيف بدأ اللهُ الخلقَ ثم ينشىءُ النشأة الآخرة، وإنما قيل: (كيف بدأ

---

(١) أي: بفتح الشين وألف بعدها.

يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ....

الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) لأن الكلام معهم وقع في الإعادة، فلما قرَّرهم في الإبداء بأنه من الله.. احتجَّ بأن الإعادة إنشاءٌ مثلُ الإبداء، فإذا لم يُعجزه الإبداءُ.. وجب ألا يعجزَه الإعادةُ، فكأنه قال: ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئُ النشأة الآخرة، فللتنبيه على هذا المعنى أبرزَ اسمَه وأوقعه مبتدأً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾﴾: قادرٌ.

《٢١》 ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بالخذلانِ، ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ بالهدايةِ، أو: بالحرصِ والقناعةِ، أو: بسوءِ الخلقِ وحُسنِه، أو: بالإعراضِ عن الله وبالإقبال عليه، أو: بمتابعة البدع وبملازمة السنة، ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾: تُردُّون وتُرجعون.

《٢٢》 ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ ربَّكم؛ أي: لا تفوتونه إن هربتُم من حكمه وقضائه، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الفسيحةِ، ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ التي هي أفسحُ منها وأبسطُ لو كنتم فيها، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يتولى أموركم، ﴿وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾﴾: ولا ناصرٍ يمنعكم من عذابي.

《٢٣》 ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: بدلائله على وحدانيته، وكتبِه ومعجزاتِه، ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾: جنتي، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾.

《٢٤》 ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾: قومِ إبراهيمَ حين دعاهم إلى الإيمان، ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ قال بعضُهم لبعضٍ، أو قاله واحدٌ منهم وكان الباقون راضين، فكانوا جميعاً في حكم القائلين، فاتفقوا على تحريقِه، ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ حين قذفُوه فيها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: فيما فعلوا به وفعلنا ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ رويَ: أنه لم يُنتفعْ في ذلك اليوم بالنار؛ يعني: يوم أُلقي إبراهيمُ في النار، وذلك لذهاب حرِّها.

《٢٥》 ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيمُ لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: حمزةُ وحفصٌ، ﴿ مودةً بينَكم﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ وحمادُ ويحيي وخلفٌ، ﴿ مودةُ بينِكم﴾: مكيٌّ

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ......

وبصريٌّ وعليٌّ، ﴿مودةُ بينكم﴾: الشموني والبرجمي[1]، والنصبُ على وجهين: على التعليل؛ أي: لِتتوادُّوا بينكم وتتواصلوا؛ لاجتماعكم على عبادتها، واتفاقِكم عليها، كما يتفقُ الناس على مذهبٍ، فيكونُ ذلك سببَ تحابِّهم، وأن يكون مفعولاً ثانياً، كقوله: ﴿أَتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، و(ما): كافةٌ؛ أي: اتخذتم الأوثانَ سببَ المودةِ، على تقدير حذف المضاف، أو: اتخذتموها مودةً بينَكم[2]، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وفي الرفع وجهان: أن يكون خبراً لـ(إنَّ)، و(ما): موصولةٌ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي مودةُ بينِكم؛ والمعنى: أن الأوثان مودةُ بينِكم؛ أي: مودودةٌ، أو: سببُ مودةٍ، ومن أضاف المودة.. جعل (بينِكم) اسماً لا ظرفاً، كقوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٦]، ومن نوَّنَ (مودة) ونصب (بينَكم) فعلى الظرف، ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾: تتبرأُ الأصنام من عابديْها، ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ أي: يومَ القيامةِ يقوم بينكم التلاعنُ، فيلعن الأتباعُ القادةَ، ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مأوى العابد والمعبود، والتابعِ والمتبوع، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ثَمَّةَ.

《٢٦》 ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾: لإبراهيمَ عليه السلام ﴿لُوطٌۘ﴾ هو: ابنُ أخي إبراهيمَ، وهو أول مَن آمن له حين رأى النار لم تحرقْه، ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيمُ: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ مِن كُوثَى، وهي من سواد الكوفة إلى حرّانَ، ثم منها إلى فلسطين، وهي من بَرِّيَّةِ الشام، ومن ثم قالوا: لكلِّ نبيٍّ هجرةٌ، ولإبراهيمَ هِجرتان، وكان معه في هجرته لوطٌ وسارةُ، وقد تزوَّجها إبراهيمُ، ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾: إلى حيث أمرني ربي بالهجرة إليه، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي يمنعُني من أعدائي، ﴿ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ الذي لا يأمرُني إلا بما هو خيرٌ.

《٢٧》 ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ﴾ ولداً، ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ وَلَدَ وَلَدٍ، ولم يذكر إسمعيلَ لشهرتِه، ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي: في ذرية إبراهيم؛ فإنه شجرةُ الأنبياء، ﴿وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ والمرادُ به: الجنسُ؛ يعني: التوراةَ والإنجيلَ والزبورَ والفرقانَ، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾ أي: إبراهيمَ ﴿أَجۡرَهُۥ﴾: الثناءَ الحسنَ، والصلاةَ عليه إلى آخر الدهر، ومحبةَ أهلِ المللِ له، أو: هو بقاء ضيافتِه عند قبره، وليس ذلك لغيره، ﴿فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: فيه دليلٌ على أنه تعالى قد يُعطِي الأجر في الدنيا، ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: من أهل الجنة؛ عن الحسن.

---

(١) انظر «تفسير النيسابوري» (٥/ ٣٧٧).

(٢) أي: مودودةً بينكم. انظر «الكشاف» (٣/ ٤٥٤).

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ....

《٢٨》 ﴿وَلُوطًا﴾ أي: واذكر لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: الفِعلةَ البالغةَ في القبح، وهي اللواطةُ، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾: جملةٌ مستأنفةٌ مقرِّرَةٌ لفاحشةِ تلك الفِعلةِ؛ كأنَّ قائلاً قال: لم كانت فاحشة؟ فقيل: لأن أحداً قبلهم لم يُقْدِمْ عليها، قالوا: لم يَنْزُ ذكرٌ على ذكر قبل قوم لوط.

《٢٩》 ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ بالقتل وأخذ المال كما هو عملُ قُطّاعِ الطريق، وقيل: اعتراضُهم السابلةَ بالفاحشةِ، ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾: مجلسِكم، ولا يُقالُ للمجلس: نادٍ إلا ما دام فيه أهلُه، ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: المضارطةَ والمجامعةَ والسِّبابَ، والفُحشَ في المُزاحِ، والخذفَ بالحصى، ومضغَ العِلكِ، والفرقعةَ والسواكَ بين الناس، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فيما تعدُنا من نزول العذاب، ﴿إنكم أئنكم﴾: شاميٌّ وحفصٌ، وهو الموجود في الإمام، وكلُّ واحدة بهمزتين: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ، ﴿آينكم﴾ ﴿آينكم﴾: بهمزةٍ ممدودةٍ، بعدها ياءٌ مكسورةٌ: أبو عمرٍو، ﴿أينكم﴾ ﴿أينكم﴾: بهمزةٍ مقصورةٍ، بعدها ياءٌ مكسورةٌ: مكيٌّ ونافعٌ غيرَ قالونَ وسهلٌ ويعقوبُ غيرَ زيدٍ(١).

《٣٠》 ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإنزال العذابِ ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ كانوا يُفْسِدُون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش.

《٣١》 ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: بالبشارة لإبراهيمَ بالولدِ والنافلةِ؛ يعني: إسحاقَ ويعقوبَ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إضافةُ (مهلكو): لم تُفِدْ تعريفاً؛ لأنها بمعنى

---

(١) قرأ: بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني: نافعٌ وابنُ كثير وابنُ عامر وحفصٌ وأبو جعفرٍ ويعقوبُ، والباقون: بالاستفهام فيهما، فلا خلاف عنهم في الاستفهام في الثاني هنا، وكلٌّ منهم استفهم على قاعدته؛ فقالونُ وأبو عمرٍو وأبو جعفرٍ بالتسهيل والمد، وورشٌ وابنُ كثيرٍ ورويسٌ: بالتسهيل والقصر، والباقون: بالتحقيق والقصر، إلا أن أكثر الطرق عن هشام على المدِّ. انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤٤٠).

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ ....

الاستقبال، والقريةُ سَدومُ التي قيل فيها: (أَجْوَرُ مِن قاضي سَدومَ)[(١)]، و(هذه القرية) تُشْعِرُ بأنها قريبةٌ من موضع إبراهيم عليه السلام[(٢)]، قالوا: إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم عليه السلام، ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: الظلمُ قد استمرَّ منهم في الأيام السالفة، وهم عليه مُصِرُّون، وظلمُهم كفرُهم، وأنواعُ معاصيهم.

《٣٢》 ﴿قَالَ﴾ إبراهيمُ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ أي: أتهلكونهم وفيهم من هو بريء من الظلم وهو لوطٌ؟ ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكةُ: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾ ﴿لَنُنْجِيَنَّهُ﴾: يعقوبُ وكوفيٌّ غيرَ عاصم[(٣)].

﴿وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾: الباقين في العذاب، ثم أخبر عن مسير الملائكة إلى لوطٍ بعد مفارقتهم إبراهيمَ بقوله:

《٣٣》 ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ ساءَهُ مجيئُهم، و(أَنْ): صلةٌ، أَكَّدَتْ وجودَ الفعلين مرتباً أحدُهما على الآخر، كأنهما وُجِدا في جزءٍ واحدٍ من الزمان، كأنه قيل: كما أحسَّ بمجيئهم.. فاجأتْه المساءةُ من غير رَيْثٍ؛ خِيفَةً عليهم من قومه أن يتناولوهم بالفجور، ﴿سيءَ بهم﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ وعليٌّ[(٤)]، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: وضاق بشأنهم وبتدبير أمرِهم ذرعُه؛ أي: طاقتُه، وقد جعلوا ضيقَ الذَّرْعِ والذراعِ عبارةً عن فقد الطاقة، كما قالوا: رَحْبُ الذراع: إذا كان مُطيقاً، والأصلُ فيه: أن الرجل إذا طالت ذراعُه.. نال ما لا يناله القصيرُ الذراع، فضرب ذلك مثلاً في العجز والقدرة، وهو نصبٌ على التمييز، ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ وبالتخفيف: مكيٌّ وكوفيٌّ غيرَ حفصٍ، ﴿وَأَهْلَكَ﴾ الكافُ في محلِّ الجرِّ[(٥)]، ونُصِبَ (أهلَكَ) بفعل محذوف؛ أي: وننجي أهلكَ[(٦)]، ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) انظر «مجمع الأمثال» (١/ ١٩٠).

(٢) لأن الأصل الإشارة بـ (هذه) للشيء القريب، وقد يُخرَجُ عن هذا الأصل لداعٍ بلاغيٍّ؛ فلذا قال الإمام النسفي: (تُشعر) ولم يقل: (تَدل) فلله درُّه ما أدقَّ كلامَه!

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٥) وكذا القراءة الآتية.

(٤) قرأ المدنيان والشاميُّ والكسائيُّ ورويسٌ: بالإشمام، والباقون: بالكسرة الخالصة، ووقف عليه هشام وحمزة بالنقل والإدغام؛ لأصالة الياء.

(٥) أي: الكاف في (منجوك).

(٦) أو بالعطف على محل الكاف.

إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ....

《٣٤》 ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ ﴿مُنَزِّلُون﴾: شاميٌّ[1]، ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾: عذاباً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾: بفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله.

《٣٥》 ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾: من القرية ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ هي: آثارُ منازلهم الخَرِبَةِ، وقيل: الماءُ الأسود على وجه الأرض، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: يتعلقُ بـ(تركنا)، أو ببينة، ﴿يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

《٣٦》 ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾: وأرسلنا إلى مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾: وافعلوا ما تَرجون به الثواب في العاقبة، أو: خافُوه، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾: قاصدين الفسادَ.

《٣٧》 ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: الزلزلةُ الشديدةُ، أو: صيحةُ جبريلَ عليه السلام؛ لأن القلوب رَجفت بها، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾: في بلدِهم وأرضِهم ﴿جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾: باركين على الركب مَيِّتِيْنَ.

《٣٨》 ﴿وَعَادًا﴾: منصوبٌ بإضمار (أهلكنا)؛ لأن قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ يدلُّ عليه؛ لأنه في معنى الإهلاك، ﴿وَثَمُودَا۟﴾: حمزةُ وحفصٌ وسهلٌ ويعقوبُ[2]، ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ ذلك؛ يعني: ما وصفه من إهلاكهم، ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾: من جهة مساكنهم إذا نظرتُم إليها عند مرورِكم بها، وكان أهلُ مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصي، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: السبيلِ الذي أُمِروا بسلوكه، من الإيمان بالله ورسله، ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾: عقلاء متمكنين من النظر وتمييزِ الحقِّ من الباطل، ولكنهم لم يفعلوا.

《٣٩》 ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ أي: وأهلكناهم، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾: فائتين، أدركهم أمرُ الله فلم يفوتُوه.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٥) وكذا القراءة الآتية.

(٢) وغيرهم: بالتنوين.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾

«٤٠» ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ﴾: فيه ردٌّ على من يُجوزُ العقوبةَ بغير ذنب، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾: هي ريحٌ عاصفٌ، فيها حصباءُ، وهي لقوم لوط، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾: هي لمدينَ وثمودَ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: قارونَ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني: قومَ نوح وفرعون، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: ليعاقبَهم بغير ذنب، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ بالكفر والطغيان.

«٤١» ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: آلهةً؛ يعني: مَثلُ مَن أشرك بالله الأوثانَ في الضعف وسوء الاختيار ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أي: كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت، فإن ذلك بيتٌ لا يدفع عنها الحرَّ والبردَ، ولا يقي ما تقي البيوت، فكذلك الأوثانُ لا تنفعُهم في الدنيا والآخرة، جعل حاتمٌ (اتخذت): حالاً[١]، ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيتَ أوهنُ من بيتها، عن علي رضي الله عنه: طهِّروا بيوتكم من نسج العنكبوت؛ فإن تركه يورثُ الفقرَ[٢]، ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أن هذا مَثَلُهم، وأن أمر دينهم بالغٌ هذه الغايةَ من الوهن، وقيل: معنى الآية: مثلُ المشرك الذي يعبدُ الوثنَ بالقياس إلى المؤمن الذي يعبدُ الله مثلُ عنكبوتٍ تتخذُ بيتاً، بالإضافة إلى رجلٍ يبني بيتاً بآجرٍّ وجِصٍّ، أو يَنْحَتُه من صَخْرٍ، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتَها بيتاً بيتاً بيتُ العنكبوت.. كذلك أضعفُ الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادةُ الأوثان لو كانوا يعلمون، وقال الزجاج في جماعة: تقديرُ الآية: مثلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياءَ لو كانوا يعلمون كمثل العنكبوت[٣].

«٤٢» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ﴾ بالياء: بصريٌّ وعاصمٌ، غيرَ الأعشى والبُرْجُمِيِّ[٤]،

---

(١) ويجوز أن تكون صفة للعنكبوت؛ لأن أل فيها للجنس. انظر «تفسير الآلوسي» (١٠/ ٣٦٤).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٨٠).

(٣) فالمرادُ: أنهم لا يعلمون أن اتخاذهم الأولياء كاتخاذ العنكبوت بيتاً، وليس المرادُ أنهم لا يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيفٌ. انظر «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ١٦٩).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٥).

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ....

و(ما) بمعنى الذي، وهو مفعولُ (يعلم)، ومفعول (يدعون): مضمرٌ؛ أي: يدعونه؛ يعني: يعبدونه ﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ (مِن) في (شيء): للتبيين، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالبُ الذي لا شريكَ له، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ في ترك المعاجلة بالعقوبة، وفيه تجهيلٌ لهم؛ حيث عَبَدُوا جماداً لا علمَ له ولا قدرة، وتركوا عبادةَ القادر القاهر على كل شيء، الحكيمِ الذي لا يفعلُ كل شيء إلا بحكمته وتدبيره.

《٤٣》 ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ (الأمثال): نعتٌ، والخبرُ: ﴿نَضْرِبُهَا﴾: نبينُها ﴿لِلنَّاسِ﴾ كان سفهاءُ قريش وجهلتُهم يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك؛ فلذلك قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ به وبأسمائه وصفاته؛ أي: لا يعقل صحتَها وحسنَها، ولا يفهمُ فائدتها إلا هم؛ لأن الأمثال والتشبيهاتِ إنما هي الطرق إلى المعاني المستورة، حتى تُبرزَها وتُصَوِّرَها للأفهام، كما صوَّرَ هذا التشبيهُ الفرقَ بين حال المشرك وحال الموحِّدِ، وعن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية فقال: «العالمُ مَن عقلَ عن الله، فعمل بطاعته، واجتنب سخطَه»[1]، ودلت الآية على فضل العلم على العقل.

《٤٤》 ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: محقّاً؛ يعني: لم يخلقهما باطلاً، بل لحكمة، وهي: أن تكونا مساكنَ عبادِه، وعبرةً للمعتبرين منهم، ودلائلَ على عظم قدرته؛ ألا ترى قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وخصهم بالذكر؛ لانتفاعهم بها.

《٤٥》 ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بقراءة كلامه؛ ولِتقفَ على ما أمر به ونهى عنه، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: دُمْ على إقامة الصلاة، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾: الفِعلةِ القبيحة، كالزنا مثلاً، ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ هو: ما ينكرُه الشرعُ والعقلُ، قيل: مَن كان مراعياً للصلاة.. جرَّه ذلك إلى أن ينتهي عن السيئات يوماً ما؛ فقد رويَ: أنه قيل يوماً لرسول الله ﷺ: إن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل، فقال: «إن صلاته لتردعه»[2]، وروي: أن فتىً من الأنصار كان يصلي معه الصلواتِ ولا يدعُ شيئاً من الفواحش إلا ركبه، فوُصِفَ له فقال:

---

(١) رواه الهيثمي في «بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث» (٢/ ٨١٢).

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٥٦٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ ....

«إن صلاته ستنهاه»، فلم يلبث أن تاب. وقال ابنُ عوفٍ: إن الصلاة تنهى، إذا كنت فيها.. فأنت في معروف وطاعة، وقد حَجَزَتْكَ عن الفحشاء والمنكر[1]، وعن الحسن: مَن لم تنهه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر.. فليست صلاته بصلاة، وهي وبالٌ عليه، ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ أي: والصلاةُ أكبرُ من غيرها من الطاعات، وإنما قال: (ولَذكرُ اللهِ) ليستقل بالتعليل، كأنه قال: والصلاةُ أكبرُ؛ لأنها ذكر الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ولَذكرُ اللهِ إياكم برحمته أكبرُ من ذكركم إياه بطاعته. وقال ابنُ عطاءٍ: ذكرُ الله لكم أكبرُ من ذكركم له؛ لأن ذكره بلا علةٍ، وذكرُكم مشوبٌ بالعلل والأماني؛ ولأن ذكره لا يفنى، وذكركم لا يبقى. وقال سلمانُ: ذكر الله أكبرُ من كل شيء وأفضل؛ فقد قال عليه السلام: «ألا أنبئُكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعِها في درجاتكم، وخيرٍ من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقَوا عدوَّكم فتضربوا أعناقَهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله»[2]، وسئل: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «أن تفارق الدنيا ولسانُك رطبٌ بذكر الله»[3]، أو: ذكرُ الله أكبرُ مِن أن تحويَه أفهامُكم وعقولُكم، أو: ذكرُ الله أكبرُ مِن أن تبقى معه معصيةٌ، أو: ذكرُ الله أكبرُ في النهي عن الفحشاء والمنكر من غيره، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾ من الخير والطاعة فيثيبُكم أحسنَ الثوابِ.

«٤٦» ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾: بالخَصلةِ التي هي أحسن، وهي: مقابلةُ الخشونة باللِّين، والغضبِ بالكظم، كما قال: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فأفرطوا في الاعتداء والعناد، ولم يقبلوا النصح، ولم ينفع فيهم الرفق، فاستعمِلوا معهم الغلظة، وقيل: إلا الذين آذَوا رسولَ الله ﷺ، أو: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا: يدُ اللهِ مغلولةٌ، أو: معناه: ولا تجادلوا الداخلين في الذمة، المؤدِّين للجزية إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا فنبذُوا الذمةَ، ومنعوا الجزيةَ، فمجادلتُهم بالسيف، والآيةُ تدلُّ على جواز المناظرة مع الكفرة في الدين، وعلى جواز تعلم علم الكلام الذي به تتحقق المجادلةُ، وقولُه: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾: من جنس

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٢) عن ابن عون.

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) رواه البغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٦) عن سيدنا عبد الله بن بسر المازني رضي الله عنه.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

المجادلة بالأحسن، وقال عليه السلام: «ما حدثكم أهلُ الكتاب.. فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلاً.. لم تصدقوهم، وإن كان حقّاً.. لم تكذبوهم»[1].

《٤٧》 ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أنزلناه مصدقاً لسائر الكتب السماوية، أو: كما أنزلنا الكتب إلى مَن قبلَك.. أنزلنا إليك الكتاب، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: هم عبد الله بن سلامٍ ومَن آمن معه، ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من أهل مكةَ ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أو: أراد بالذين أوتوا الكتاب: الذين تقدموا عهدَ رسول الله ﷺ من أهل الكتاب، ومن هؤلاء: الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع ظهورها وزوالِ الشبهة عنها ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾: إلا المتوغلون في الكفر، المصمِّمون عليه، ككعب بنِ الأشرفِ وأضرابه.

《٤٨》 ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ﴾: مِن قبل القرآن ﴿مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ خَصَّ اليمين؛ لأن الكتابة غالباً تكون باليمين؛ أي: ما كنتَ قرأتَ كتاباً من الكتب، ولا كنتَ كاتباً، ﴿إِذًا﴾ أي: لو كان شيءٌ من ذلك؛ أي: من التلاوة ومن الخطّ ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ من أهل الكتاب وقالوا: الذي نجدُه في كتبنا أميٌّ لا يكتبُ ولا يقرأُ، وليس به، أو: لارتاب مشركو مكةَ وقالوا: لعله تَعَلَّمَه أو كتبَه بيده، وسمّاهم مبطلين؛ لإنكارهم نبوته، وعن مجاهد والشعبي: ما مات النبيُّ ﷺ حتى كتبَ وقرأ[2].

《٤٩》 ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآنُ ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: في صدور العلماء به وحفاظِه، وهما من خصائصِ القرآنِ: كونُ آياته بيناتِ الإعجاز، وكونُه محفوظاً في الصدور، بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزاتٍ، وما كانت تُقرأُ إلا من المصاحف، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الواضحةِ ﴿إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾: المتوغلون في الظلم.

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤٤) عن سيدنا أبي نملة الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٤٢) ثم قال: هذا حديث منقطع، وفي رواته جماعةٌ من الضعفاء والمجهولين.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا بِٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ....

《٥٠》 ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ﴿آية﴾: بغيرِ ألفٍ: مكيٌّ وكوفيٌّ غيرَ حفصٍ[1]، أرادوا: هلّا أُنزل عليه آياتٌ مثلُ الناقةِ والعصا ومائدةِ عيسى عليهم السلام ونحوِ ذلك، ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزلُ أيتَها شاء، ولست أملكُ شيئاً منها، ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ كُلِّفْتُ الإنذار وإبانته بما أعطيتُ من الآيات، وليس لي أن أقول: أُنزل عليَّ آيةُ كذا دون آيةِ كذا، مع علمي أن المراد من الآيات ثبوتُ الدلالة، والآياتُ كلُّها في حكم آية واحدة في ذلك.

《٥١》 ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أولم يكفِهم آيةٌ مغنيةٌ عن سائر الآيات إن كانوا طالبين للحق غيرَ متعنتين.. هذا القرآنُ الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا يزال معهم آيةٌ ثابتةٌ لا تزولُ كما تزولُ كلُّ آية بعد كونها، وتكونُ في مكان دون مكان، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿لَرَحْمَةً﴾: لنعمةً عظيمةً، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾: وتذكرةً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ دون المتعنتين.

《٥٢》 ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: شاهداً بصدق ما أدَّعيه من الرسالة وإنزالِ القرآن عليَّ، وبتكذيبكم، ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو مطلعٌ على أمري وأمرِكم، وعالمٌ بحقي وباطلِكم، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْبَٰطِلِ﴾ منكم، وهو ما يعبدون من دون الله، ﴿وَكَفَرُوا بِٱللَّهِ﴾ وآياته ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾: المغبونون في صفقتهم؛ حيث اشتروا الكفر بالإيمان، إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف، كقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، وروي: أن كعب بن الأشرف وأصحابَه قالوا: يا محمدُ مَن يشهدُ لك بأنك رسول الله؟ فنزلت.

《٥٣》 ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: وهو يوم القيامة، أو: يومُ بدرٍ، أو: وقتُ فنائِهم بآجالهم؛ والمعنى: ولولا أجلٌ قد سماه الله وبيَّنه في اللوح.. لعذبهم، والحكمةُ تقتضي تأخيرَه إلى ذلك الأجل

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٦) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

المسمى ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عاجلاً، ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ العذابُ في الأجل المسمّى ﴿بَغْتَةً﴾: فجأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ بوقت مجيئِه.

《٥٤》 ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: ستحيطُ بهم.

《٥٥》 ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ولا وقفَ على ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأن (يومَ) ظرفُ إحاطةِ النار بهم، ﴿وَيَقُولُ﴾: بالياء: كوفيٌّ ونافعٌ، ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: جزاءَ أعمالِكم.

《٥٦》 ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ وبسكون الياء: بصريٌّ وكوفيٌّ غيرَ عاصمٍ، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ وبفتح الياء: شاميٌّ؛ يعني: أن المؤمن إذا لم يتسهلْ له العبادة في بلدٍ هو فيه، ولم يتمشَّ له أمرُ دينه.. فليهاجرْ عنه إلى بلد يُقَدِّرُ أنه فيه أسلمُ قلباً، وأصحُّ ديناً، وأكثرُ عبادةً، والبقاعُ تتفاوت في ذلك تفاوتاً كثيراً، وقالوا: لم نجد أعونَ على قهر النفس، وأجمعَ للقلب، وأحثَّ على القناعة، وأطردَ للشيطان، وأبعدَ من الفتن، وأربطَ للأمر الدينيِّ من مكةَ حرسَها الله تعالى، وعن سهل: إذا ظهرت المعاصي والبدعُ في أرضٍ.. فأخرجوا منها إلى أرض المطيعين، وعن رسول الله ﷺ: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض.. استوجب الجنة»[1]، ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ وبالياء: يعقوبُ[2]، وتقديرُه: فإياي فاعبدوني، وجيءَ بالفاء في (فاعبدون) لأنه جواب شرط محذوف؛ لأن المعنى: إن أرضي واسعةٌ، فإن لم تُخلصوا العبادة لي في أرض.. فأخلصوها في غيرها، ثم حَذفَ الشرطَ وعوَّضَ من حذفه تقديمَ المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص، ثم شجَّعَ المهاجرَ بقوله:

《٥٧》 ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: واجدةٌ مرارته وكَرْبَه، كما يجدُ الذائقُ طعم المذوقِ؛ لأنها إذا تيقنت بالموت.. سهلَ عليها مفارقةُ وطنِها، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ بعد الموت للثواب والعقاب، ﴿يُرْجَعُون﴾: يحيى، ﴿تَرْجِعُون﴾: يعقوب.

---

(١) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٧/ ٢٨٨).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٦) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ ....

《٥٨》 ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾: لننزلهم من الجنة علاليَ، ﴿لَنُثْوِيَنَّهُم﴾: كوفيٌّ غيرَ عاصم؛ من الثَّواء، وهو: النزولُ للإقامة، وثوى: غيرُ مُتعَدٍّ، فإذا تعدّى بزيادة الهمزة.. لم يُجاوز مفعولاً واحداً، والوجهُ في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف: إما إجراؤُه مُجرى: لَنُنزلنَّهم، أو لَنُؤْوِيَنَّهم، أو: حذفُ الجارِّ وإيصالُ الفعل، أو: تشبيهُ الظرف المؤقت بالمبهم، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

《٥٩》 ويوقف على (العاملين) على أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هم الذين صبرُوا على مفارقة الأوطان، وعلى أذى المشركين، وعلى المحن والمصائب، وعلى الطاعات، وعن المعاصي، والوصلُ أجودُ؛ ليكون (الذين) نعتاً لـ(العاملين)، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله.

《٦٠》 ولما أمر رسول الله ﷺ مَن أسلم بمكةَ بالهجرة.. خافُوا الفقر والضَّيْعَةَ فنزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ أي: وكم من دابة، ﴿وكائن﴾: بالمدِّ والهمز: مكيٌّ، والدابةُ: كلُّ نفس دبَّتْ على وجه الأرض، عَقلت أم لم تَعقل، ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾: لا تُطيق أن تحمله لضعفها عن حمله، ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: لا يَرزقُ تلك الدوابَّ الضعافَ إلا الله، ولا يرزقُكم أيضاً أيها الأقوياءُ إلا هو، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبِها؛ لأنه لو لم يُقدِرْكم ولم يُقدِّرْ لكم أسبابَ الكسبِ.. لكنتُم أعجزَ من الدوابِّ التي لا تحمل، وعن الحسن: (لا تحملُ رزقها): لا تَدَّخِرُه، إنما تصبح فيرزقُها الله، وقيل: لا يَدَّخِرُ شيءٌ من الحيوان قوتاً إلا ابنُ آدمَ، والفأرةُ والنملةُ، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولِكم: نخشَى الفقرَ والعَيلةَ، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ بما في ضمائركم.

《٦١》 ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين: مَن خالقُ السمواتِ والأرضِ على كبرهما وسَعَتِهما؟ ومَن الذي سخر الشمس والقمر؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾: فكيف يُصرفون عن توحيد الله مع إقرارهم بهذا كلِّه؟!

《٦٢》 ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي: لمن يشاء، فوُضع الضميرُ موضعَ (من يشاء)؛ لأن (مَن يشاء) مبهمٌ غيرُ معين، فكان الضميرُ مبهماً مثلَه، قَدَرَ الرزقَ وقَتَرَه

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ....

بمعنىً: إذا ضيَّقه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ يَعْلَمُ ما يُصلِحُ العبادَ وما يُفْسِدُهم، في الحديث: «إن من عبادي من لا يُصلح إيمانَه إلا الغِنى، ولو أفقرتُه.. لأفسده ذلك، وإن من عبادي مَن لا يُصْلِحُ إيمانَه إلا الفقرُ، ولو أغنيتُه.. لأفسده ذلك»[1].

«٦٣» ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: هم مُقِرُّون بذلك، ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إنزاله الماءَ لإحياء الأرض، أو: على أنه ممن أقرَّ بنحو ما أقرُّوا به ثم نفعَه ذلك في توحيد اللهِ ونفيِ الشركاء عنه، ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾: لا يَتَدَبَّرُون بما فيهم من العقول فيما نُرِيْهم من الآيات، ونُقِيْمُ عليهم من الدلالاتِ، أو: لا يعقلون ما تريدُ بقولك: الحمد لله.

«٦٤» ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: وما هي لسرعة زوالها عن أهلها وموتِهم عنها إلا كما يلعبُ الصبيان ساعةً ثم يتفرقون، وفيه ازدراءٌ بالدنيا وتصغيرٌ لأمرها، وكيف لا يُصغرُها وهي لا تَزِنُ عنده جناح بعوضة، واللهوُ: ما يتلذذُ به الإنسان فيُلهيه ساعةً ثم ينقضي، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياةُ، ليس فيها إلا حياةٌ مستمرة دائمة، لا موتَ فيها، فكأنها في ذاتها حياةٌ، و(الحيوان): مصدرُ: حَيَّ، وقياسُه: حَيَيانٌ، فقلبت الياءُ الثانيةُ واواً، ولم يقل: لهي الحياةُ؛ لما في بناء (فَعَلان) مِن معنى الحركة والاضطراب، والحياةُ حركةٌ، والموت سكونٌ، فمجيئُه على بناء دالٍّ على معنى الحركة مبالغةٌ معنى الحياة، ويُوقفُ على (الحيوان)؛ لأن التقدير: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ حقيقةَ الدارين.. لما اختاروا اللهوَ الفانيَ على الحيوان الباقي، ولو وُصِلَ.. لصار وصفُ الحيوان معلقاً بشرط علمهم ذلك، وليس كذلك.

«٦٥» ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾: هو متصلٌ بمحذوفٍ دلَّ عليه ما وصفَهم به وشرح من أمرهم؛ معناه: هم على ما وُصِفُوا به من الشرك والعناد، فإذا ركبوا في الفلك ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كائنين في صورةِ مَن يُخلصُ الدين لله من المؤمنين؛ حيث لا يذكرون إلا الله، ولا يَدْعُون معه إلهاً آخرَ، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وأمِنُوا ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾: عادُوا إلى حال الشرك.

---

(١) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/٣٠٧) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

《٦٦》 ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من النعمة، قيل: هي لامُ كي، وكذا في ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ فيمن قرأها بالكسر؛ أي: لكي يكفروا، وكي يتمتعوا؛ والمعنى: يعودون إلى شركهم؛ ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين بنعمة النجاة، قاصدين التمتعَ بها والتلذذَ لا غيرُ، على خلاف عادة المؤمنين المخلِصين على الحقيقة؛ فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم، ويجعلون نعمة النجاة ذريعةً إلى ازدياد الطاعة لا إلى التلذذ والتمتع، وعلى هذا لا وقفَ على (يشركون)، ومن جعله لامَ الأمرِ مُتشبثاً بقراءة ابنِ كثيرٍ وحمزةَ وعليٍّ: ﴿وَلْيتمتعُوا﴾[1]: بسكون اللام على وجه التهديد، كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وتحقيقُه في أصول الفقه.. يقفُ عليه، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ سوءَ تدبيرِهم عند تدميرِهم.

《٦٧》 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي: أهلُ مكةَ ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بلدَهم ﴿حَرَمًا﴾: ممنوعاً مصوناً، ﴿ءَامِنًا﴾: يأمن داخلُوه، ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾: يُستلبون قتلاً وسَبْياً.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بالشيطان والأصنام، ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: بمحمد عليه السلامُ، والإسلام.

《٦٨》 ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن جعل له شريكاً، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾: بنبوة محمدٍ عليه السلامُ والكتابِ ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ أي: لم يتلعثمُوا في تكذيبه حين سمعوه، ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾: هذا تقريرٌ لِثَوائِهم في جهنمَ؛ لأن همزة الإنكار إذا أُدخلت على النفي.. صار إيجاباً؛ يعني: ألا يَثْوُون فيها وقد افترَوا مثلَ هذا الكذبِ على الله، وكذَّبوا بالحق مثلَ هذا التكذيب؟ أو: ألم يصحَّ عندهم أن في جهنم مثوىً للكافرين حين اجترؤوا مثلَ هذه الجَراءةِ؟ وذكرُ المثوى في مقابلةِ (لَنُبوِّئنَّهم) يؤيدُ قراءةَ الثاء.

《٦٩》 ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟﴾ أطلقَ المجاهَدةَ ولم يقيدْها بمفعولٍ؛ ليتناول كلَّ ما تجب مجاهدتُه من النفس والشيطان وأعداءِ الدين، ﴿فِينَا﴾: في حقِّنا ومن أجلِنا ولِوَجْهِنا خالصاً ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ﴿سُبْلَنا﴾: أبو عمرٍو؛ أي: لنزيدنَّهم هدايةً إلى سبل الخير وتوفيقاً، وعن

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٦) وكذا القراءة الآتية.

....

الداراني: والذين جاهدوا فيما علمُوا لنهدينهم إلى ما لم يعلمُوا؛ فقد قيل: مَن عمل بما علم.. وُفِّقَ لما لا يعلم، وقيل: إن الذي ترى من جهلنا بما لا نعلمُ إنما هو لتقصيرنا فيما نعلمُ، وعن فضيل: (والذين جاهدوا في طلب العلمِ لنهدينهم سبلَ العملِ به)، وعن سهل: (والذين جاهدوا في إقامة السنةِ لنهدينهم سبلَ الجنةِ)، وعن ابن عطاء: (جاهدوا في رضانا لنهدينهم الوصول إلى محل الرضوان)، وعن ابن عباس: (جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا)، وعن الجنيد: جاهدُوا في التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، أو: جاهدوا في خدمتنا لنفتحنَّ عليهم سبل المناجاة معنا والأُنسِ بنا، أو جاهدوا في طلبِنا تحرياً لرضانا لنهدينهم سبلَ الوصول إلينا، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ بالنصرة والمعونة في الدينا، وبالثواب والمغفرة في العُقبى.



﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ ....

سورة الروم

مكيةٌ، وهي ستون، أو تسعٌ وخمسون آيةً، والاختلافُ في ﴿بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١ - ٢》 ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ أي: غلبتْ فارسُ الرومَ.

《٣ - ٤》 ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أقربِ أرضِ العربِ؛ لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضُهم؛ والمعنى: غُلبوا في أدنى أرض العرب منهم، وهي أطرافُ الشام، أو: أرادَ: أرضَهم؛ على إنابةِ اللام منابَ المضاف إليه؛ أي: في أدنى أرضِهم إلى عدوِّهم، ﴿وَهُم﴾ أي: الرومُ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أي: غَلَبَةِ فارسَ إياهم، وقرىء: بسكون اللام[1]، فالغَلَبُ والغَلْبُ: مصدران، وقد أضيف المصدر إلى المفعول، ﴿سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ فارسَ، ولا وقفَ عليه؛ لتعليق: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ به، وهو ما بين الثلاث إلى العشرة، قيل: احتربت فارسُ والرومُ بين أذرعاتٍ وبُصرى، فغلبت فارسُ الرومَ، والملكُ بفارسَ يومئذ كِسرى، أَبْرَوِيْزُ، فبلغ الخبرُ مكةَ فشقَّ على رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ لأن فارسَ مجوسٌ لا كتابَ لهم، والرومُ أهلُ كتابٍ، وفرح المشركون وشَمِتوا، وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارسُ أمِّيون، وقد ظهر إخوانُنا على إخوانكم، ولنظهرنَّ نحن عليكم، فنزلت، فقال لهم أبو بكرٍ: والله ليظهرن الرومُ على فارسَ بعد بِضعِ سنين، فقال له أُبيُّ بنُ خلف: كذبت، فناحبَه على عشر قَلائصَ مِن كلِّ واحدٍ منهما[2]، وجعل الأجلَ ثلاثَ سنين، فأخبر أبو بكر رسولَ الله ﷺ، فقال عليه السلام: «زِدْ في الخَطَرِ وأَبْعِدْ في الأجل»، فجعلاها مئةَ قَلُوصٍ إلى تسعِ سنين، ومات أُبيٌّ من جرحِ رسولِ الله ﷺ، وظهرت الرومُ على فارس يومَ الحديبية، أو يومَ بدرٍ، فأخذ أبو بكر الخطرَ من ذريةِ أُبيٍّ، فقال عليه السلام: «تصدق به»[3]، وهذه آيةٌ بينة على صحة نبوته، وأن القرآن من عند الله، لأنها إنباءٌ عن علم الغيب، وكان ذلك قبل تحريم القِمارِ، عن قتادة، ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٢٧)، وهي شاذة.

(٢) ناحبَه: راهَنَه.

(٣) روى بعضه الترمذي (٣١٩٣) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه.

بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ ....

أن العقودَ الفاسدةَ كعقد الربا وغيره جائزةٌ في دار الحرب بين المسلمين والكفار، وقد احتجّا على صحة ذلك بهذه القصةِ[1]، ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ أي: مِن قبل كلِّ شيءٍ ومن بعد كل شيء، أو: حين غُلبوا وحين يَغلبون، كأنه قيل: مِن قبل كونِهم غالبين، وهو وقتُ كونِهم مغلوبين، ومن بعد كونِهم مغلوبين، وهو وقتُ كونِهم غالبين؛ يعني: أن كونهم مغلوبين أولاً وغالبين آخراً ليس إلا بأمر الله وقضائه، ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾: ويومَ تغلبُ الرومُ على فارسَ، ويَحُلُّ ما وعد الله من غَلَبَتِهم ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾.

《٥》 ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ وتغليبِه مَن له كتابٌ على من لا كتابَ له، وغَيظِ مَن شَمِتَ بهم من كفار مكة، وقيل: نصرُ الله هو إظهارُ صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم، والباءُ يتصل بـ﴿يَفۡرَحُ﴾، فيوقَفُ على (الله)، لا على المؤمنين، ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: الغالبُ على أعدائه، ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾: العاطفُ على أوليائه.

《٦》 ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾: مصدرٌ مؤكدٌ؛ لأن قوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ وعدٌ من الله للمؤمنين، فقولُه: (وعدَ الله) بمنزلة: وعدَ اللهُ المؤمنين وعداً، ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ بنصر الروم على فارس، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ ذلك.

《٧》 ﴿يَعۡلَمُونَ﴾: بدلٌ من ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وفيه بيانُ أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز عن تحصيل الدنيا، وقولُه: ﴿ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: يفيدُ أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرُها: ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها، وباطنُها: أنها مَجازٌ إلى الآخرة، يُتزَوَّدُ منها إليها بالأعمال الصالحة، وتنكيرُ الظاهرِ يفيدُ أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها، ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ (هم) الثانيةُ: مبتدأٌ، و(غافلون): خبرُه، والجملةُ: خبرُ (هم) الأولى، وفيه بيان أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرُّها.

《٨》 ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾: يحتملُ أن يكون ظرفاً، كأنه قيل: أولم يُثبتوا التفكر في أنفسهم؛ أي: في قلوبهم الفارغةِ من الفكرِ، والتفكرُ لا يكون إلا في القلوب، ولكنه زيادة

(١) انظر «المبسوط» للسرخسي (١٤/ ٥٧).

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

تصويرٍ لحال المتفكرين، كقولك: اعتقدْه في قلبك، وأن يكون صلةً للتفكر، نحو: تفكرَ في الأمر وأجالَ فيه فكره؛ ومعناه على هذا: أولم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقربُ إليهم من غيرها من المخلوقات، وهم أعلمُ بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فيتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكمة الدالةِ على التدبير دون الإهمال، وأنه لا بدَّ لها من الانتهاء إلى وقت تُجازَى فيه على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة مثلَها، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك، أمرُها جارٍ على الحكمة في التدبير، وأنه لا بدَّ لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت، ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: متعلقٌ بالقول المحذوف؛ معناه: أو لم يتفكروا فيقولوا هذا القولَ، وقيل: معناه: فيعلموا؛ لأن في الكلام دليلاً عليه[1]، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ما خلقها باطلاً وعبثاً بغير حكمة بالغة، ولا لتبقى خالدةً، إنما خلقها مقرونةً بالحق، مصحوبةً بالحكمة، وبتقديرِ أجلٍ مسمّىً لا بدَّ لها من أن تنتهيَ إليه، وهو قيام الساعة، ووقت الحساب والثواب والعقاب؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] كيف سمَّى تركَهم غيرَ راجعين إليه عبثاً، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾: بالبعث والجزاء ﴿لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾: لجاحدون، وقال الزجاج: أي: لكافرون بلقاء ربهم[2].

«٩» ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: هو تقرير لسيرهم في البلادِ ونظرِهم إلى آثارِ المدمَّرين من عاد وثمود وغيرِهم من الأمم العاتية، ثم وصفَ حالَهم فقال: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾: وحرَثوها، ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ أي: المدمَّرون ﴿أَكْثَرَ﴾: صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، و(ما): مصدرية في ﴿مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: من عمارةِ أهلِ مكةَ، ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وتقفُ عليها لِحَقِّ الحذف؛ أي: فلم يؤمنوا فأُهلكوا، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: فما كان تدميرُه إياهم ظلماً لهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾: ولكنهم ظلموا أنفسَهم؛ حيث عملوا ما أوجب تدميرَهم.

---

(١) إذ التفكرُ هو الذي يؤدي إلى العلم.
(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ١٧٩).

ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ....

«١٠» ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ﴾: بالنصب: شاميٌّ وكوفيٌّ[1]، ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: هي تأنيث الأسوأِ وهو: الأقبحُ، كما أن الحسنى: تأنيثُ الأحسنِ، ومحلُّها: رفعٌ على أنها اسم (كان) عند مَن نصبَ (عاقبة) على الخبر، ونصبٌ عند من رفعَها؛ والمعنى: أنهم عُوقبوا في الدنيا بالدمار، ثم كانت عاقبتُهم السوأى، إلا أنه وُضع المظهرُ وهو (الذين أساؤوا) موضعَ المضمر؛ أي: العقوبةُ التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة، وهي النار التي أعدت للكافرين، ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾: لِأن كذبوا، أو: بأن، وهو يدلُّ على أن معنى (أساؤوا): كفروا، ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ يعني: ثُمَّ كان عاقبةَ الكافرين النارُ؛ لتكذيبهم بآيات الله، واستهزائِهم بها.

«١١» ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾: يُنشئُهم، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: يحييهم بعد الموت، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ وبالياء: أبو عمرٍو وسهلٌ[2].

«١٢» ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ﴾: يَيْئَسُ ويتحيرُ؛ يقال: ناظرتُه فأبلس: إذا لم يَنْبِسْ ويَئِسَ مِن أن يحتجَّ، ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: المشركون.

«١٣» ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾: من الذين عبدوهم من دون الله، وكُتبَ ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ في المصحف بواوٍ قبل الألف، كما كُتب ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وكذلك كُتبت ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: ١٠] بالألف قبل الياء؛ إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتُها، ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: يكفرون بآلهتهم ويجحدونها، أو: وكانوا في الدينا كافرين بسببهم.

«١٤» ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ الضميرُ في (يتفرقون) للمسلمين والكافرين؛ لدلالة ما بعده عليه؛ حيث قال:

«١٥» ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾ أي: بستانٍ، وهي الجنةُ، والتنكيرُ لإبهام أمرها وتفخيمِه، ﴿يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾: يُسَرُّون؛ يقال: حَبَرَه: إذا سَرَّه سروراً تهلل

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٧).

(٢) قرأ أبو عمرٍو وشعبةُ ورَوحٌ: بالياء، وغيرُهم: بالتاء الخطاب، وكلهم بالبناء للمفعول، إلا يعقوبَ فبالبناء للفاعل. انظر المرجع السابق.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ ....

له وجهه وظهر فيه أثره، ثم اختُلف فيه لاحتماله وجوه المسارِّ، فقيل: يُكرمون، وقيل: يُحلَّون، وقيل: هو السماع في الجنة.

《١٦》 ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: البعث ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾: مقيمون لا يغيبون عنه، ولا يُخففُ عنهم، كقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾ [المائدة: ٣٧].

《١٧》 لما ذكرَ الوعدَ والوعيدَ.. أتبعه ذكرَ ما يوصل إلى الوعد، ويُنجي من الوعيد فقال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ والمرادُ بالتسبيح ظاهرُه الذي هو تنزيهُ الله من السوء، والثناءُ عليه بالخير في هذه الأوقاتِ؛ لما يتجددُ فيها من نعمة الله الظاهرة، أو: الصلاةُ، فقيل لابن عباس: هل تجدُ ذكر الصلواتِ الخمسِ في القرآن؟ فقال: نعم، وتلا هذه الآية[1]، وهو نصبٌ على المصدر؛ والمعنى: نزِّهوه عمّا لا يليق، أو: صلوا لله ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾: صلاةَ المغرب والعشاء، ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾: صلاةَ الفجر.

《١٨》 ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: اعتراضٌ؛ ومعناه: أن على المميزين كلِّهم من أهل السموات والأرض أن يحمَدوه، و(في السموات): حالٌ من (الحمد)، ﴿وَعَشِيّٗا﴾: صلاةَ العصرِ، وهو معطوف على ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾، ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾: صلاةَ الظهر، أظهرَ؛ أي: دخل في وقت الظهرِ، والقولُ الأكثرُ أن الصلواتِ الخمسَ فُرضت بمكة.

《١٩》 ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾: الطائرَ من البيضة، أو: الإنسانَ من النطفة، أو: المؤمن من الكافر، ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ أي: البيضةَ من الطائر، أو: النطفةَ من الإنسان، أو: الكافرَ من المؤمن، و﴿الميت﴾: بالتخفيف فيهما: مكيٌّ وشاميٌّ وأبو عمرٍو وأبو بكرٍ وحمادٌ، وبالتشديد: غيرُهم[2]، ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالنبات ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾: يُبْسِها، ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾، ﴿تَخرُجُون﴾: حمزةُ وعليٌّ وخلفٌ؛ أي: ومثلَ ذلك الإخراجِ تُخرجون من قبوركم، والكافُ في محل النصب بـ(تخرجون) والمعنى: أن الإبداء والإعادة يتساويان في قدرةِ مَن هو قادرٌ على إخراج الميت من الحيِّ وعكسِه، روى ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من قرأ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ٢٤٧).
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٨) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ....

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى الثلاث، وآخرَ سورة ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ [الصافات: ١] دُبُر كلِّ صلاةٍ.. كُتِبَ له من الحسنات عددُ نجوم السماء، وقطرِ الأمطار، وورقِ الأشجار، وترابِ الأرض، فإذا مات.. أُجريَ له بكل حرف عشرُ حسناتٍ في قبره»، وعنه عليه السلام: «من قال حين يصبح: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ أدرك ما فاته في يومِه، ومن قالها حين يمسي.. أدرك ما فاته في ليلته»[1].

《٢٠》 ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: ومن علاماتِ ربوبيته وقدرته ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي: أباكم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ أي: آدمُ وذريتُه ﴿تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾: تتصرفون فيما فيه معاشُكم، و(إذا): للمفاجأة، وتقديرُه: ثم فاجأتم وقتَ كونِكم بشراً منتشرين في الأرض.

《٢١》 ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي: حواءَ خلقت من ضِلَعِ آدمَ عليه السلام، والنساءُ بعدها خُلِقْنَ من أصلاب الرجال، أو: مِن شكلِ أنفسِكم وجنسِها، لا مِن جنسٍ آخرَ، وذلك لما بين الاثنين من جنسٍ واحدٍ من الإِلْفِ والسكونِ، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر؛ يقال: سكن إليه: إذا مال إليه، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي: جعل بينكم التوادَّ والتراحمَ بسببِ الزواج، وعن الحسن: المودةُ: كنايةٌ عن الجماع، والرحمةُ: عن الولد، وقيل: المودةُ للشابة، والرحمةُ للعجوز، وقيل: المودةُ والرحمةُ من الله، والفَرْكُ من الشيطان؛ أي: بُغضُ المرأةِ زوجَها، وبغضُ الزوجِ المرأةَ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ فيعلمون أن قِوام الدنيا بوجود التناسل.

《٢٢》 ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: اللغاتِ، أو: أجناس النطق وأشكالِه، ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾: كالسوادِ والبياضِ وغيرِهما، ولاختلاف ذلك وقع التعارفُ، وإلا فلو تشاكلت واتفقت.. لوقع التجاهلُ والالتباسُ، ولتعطلت المصالح، وفي ذلك آيةٌ بينةٌ؛ حيث وُلِدُوا من أبٍ واحدٍ وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله متفاوتون، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾: جمعُ عالَم، وبكسر اللام: حفصٌ: جمعُ عالِم[2]، ويشهدُ للكسر قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٨).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ....

«٢٣» ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾: هذا من باب اللفِّ، وترتيبُه: ومن آياته منامُكم وابتغاؤُكم من فضله بالليل والنهار، إلا أنه فُصل بين القرينين الأوَّلين بالقرينين الآخِرين[1]، أو: المرادُ: منامكم في الزمانين، وابتغاؤكم فيهما، والجمهورُ على الأول؛ لتكرره في القرآن، وأَسَدُّ المعاني ما دلَّ عليه القرآن، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يسمعون سماعَ تدبر بآذان واعية.

«٢٤» ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ في (يريكم) وجهان:

إضمارُ أنْ، كما في حرف ابن مسعود رضي الله عنه.

وإنزالُ الفعل منزلةَ المصدرِ.

وبهما فُسِّرَ المثلُ: (تسمعُ بالمعيديِّ خيرٌ من أن تراه)[2] أي: أن تسمعَ، أو سماعُك.

﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقةِ، أو من الإخلاف، ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث، أو: خوفاً للمسافر وطمعاً للحاضر، وهما منصوبان على المفعول له؛ على تقدير حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامه؛ أي: إرادةَ خوفٍ وإرادةَ طمعٍ، أو: على الحال؛ أي: خائفين وطامعين، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وبالتخفيف: مكيٌّ وبصريٌّ[3]، ﴿مَآءً﴾: مطراً، ﴿فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾: يتفكرون بعقولهم.

«٢٥» ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ﴾: تثبتَ بلا عَمَدٍ ﴿ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بإقامته وتدبيره وحكمته، ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للبعث ﴿دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ من قبوركم، هذا كقوله: (يريكم) في إيقاع الجملة موقعَ المفرد على المعنى: كأنه قال: ومن آياته قيامُ السموات والأرض واستمساكُها بغير عمد، ثم خروجُ الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدةً: يا أهل القبور اخرُجوا؛ والمرادُ: سرعةُ وجودِ ذلك من غير توقفٍ، وإنما عُطف هذا على قيام السموات

---

(١) القرينان الأوَّلان: منامُكم وابتغاؤُكم من فضله، والقرينان الآخِران: الليل والنهار.

(٢) يضربُ لمن خبرُه خيرٌ مِن مَرآه. انظر «مجمع الأمثال» (١/ ١٢٩).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٨).

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ ....

والأرض بـ(ثم)؛ بياناً لعِظَم ما يكون من ذلك الأمر، واقتدارِه على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نَسَمَةٌ من الأولين والآخِرين إلا قامت تنظرُ، كما قال: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، و(إذا) الأولى: للشرط، والثانية: للمفاجأة، وهي تنوب منابَ الفاءِ في جواب الشرط، و(من الأرض): متعلق بالفعل لا بالمصدر، وقولُك: دعوتُه من مكان كذا.. يجوز أن يكون مكانَك، ويجوز أن يكون مكانَ صاحبك[1].

«٢٦» ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾: مُنقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه، أو: مُقرون بالعبودية.

«٢٧» ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يُنشئُهم، ثم يعيدهم للبعث، ﴿وَهُوَ﴾ أي: البعثُ ﴿أَهْوَنُ﴾: أَيْسَرُ ﴿عَلَيْهِ﴾ عندكم؛ لأن الإعادة عندكم أسهلُ من الإنشاء، فَلِمَ أنكرتُم الإعادة؟ وأُخِّرَتِ الصلةُ في قوله: (وهو أهون عليه)، وقُدِّمت في قوله: ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩] لقصد الاختصاص هناك، وأما هنا.. فلا معنى للاختصاص، وقال أبو عبيدة والزجاجُ وغيرُهما الأهونُ بمعنى: الهين[2]، فيوصف به اللهُ عزَّ وجلَّ، وكان ذلك على الله يسيراً كما قالوا: الله أكبرُ؛ أي: كبيرٌ، والإعادةُ في نفسها عظيمةٌ، ولكنها هُوِّنَتْ بالقياس إلى الإنشاء، أو: هو أهون على الخلق من الإنشاء؛ لأن قيامهم بصيحة واحدة أسهلُ من كونهم نُطَفاً ثم عَلَقاً ثم مُضَغاً إلى تكميل خلقِهم، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الوصفُ الأعلى الذي ليس لغيره، وقد عُرف به، ووُصف في السموات والأرض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل، وهو أنه القادرُ الذي لا يَعجِزُ عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرِهما من المقدورات، ويدل عليه قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القاهرُ لكلِّ مقدور، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ الذي: يجري كلُّ فعل على قضايا حكمته وعلمه، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: المثلُ الأعلى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وعن مجاهد: هو قولُ لا إله إلا الله؛ ومعناه: وله الوصفُ الأرفعُ الذي هو الوصف بالوحدانية، ويعضُدُه قولُه:

---

(١) تقول: دعوتُ زيداً من أعلى الجبل. فقد يكون زيدٌ في أعلى الجبل، وقد تكون أنت.

(٢) انظر «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١٢١)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ١٨٣).

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ....

《٢٨》 ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: فهذا مثلٌ ضربه اللهُ عزَّ وجلَّ لمن جعل له شريكاً من خلقه، و(من): للابتداء، كأنه قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيءٍ منكم، وهي أنفسُكم، ﴿هَل لَّكُم﴾ معاشرَ الأحرارِ ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾: عبيدِكم، و(من): للتبعيض، ﴿مِّن شُرَكَاءَ﴾ (من): مزيدةٌ لتأكيد الاستفهام الجاري مَجرى النفي؛ ومعناه: هل ترضون لأنفسِكم، وعبيدُكم أمثالُكم، بشرٌ كبشرٍ، وعبيدٌ كعبيدٍ.. أن يشاركَكم بعضُهم ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من الأموال وغيرِها، ﴿فَأَنتُمْ﴾ معاشرَ الأحرارِ والعبيدِ ﴿فِيهِ﴾: في ذلك الرزقِ ﴿سَوَاءٌ﴾ من غير تَفْصِلَةٍ بين حرٍّ وعبدٍ، يحكمُ مماليكُكُم في أموالكم كحكمكم، ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾: حالٌ من ضمير الفاعل في (سواء) أي: متساوون خائفاً بعضُكم بعضاً مشاركتَه في المال؛ والمعنى: تخافون معاشرَ السادةِ عبيدَكم فيها، فلا تُمْضُون فيها حُكْماً دون إذنهم؛ خوفاً من لائمةٍ تلحقكم من جهتهم، ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾ أي: خيفةً كخيفتكم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ يعني: كما يخاف بعضُ الأحرارِ بعضاً فيما هو مشتركٌ بينهم، فإذا لم ترضَوا بذلك لأنفسكم.. فكيف ترضَون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيدِ أن تجعلوا بعضَ عبيدِه له شركاء؟ ﴿كَذَٰلِكَ﴾: موضعُ الكاف: نصبٌ؛ أي: مثلَ هذا التفصيلِ ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبينُها؛ لأن التمثيل مما يكشف المعانيَ ويوضحُها، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾: يتدبرون في ضرب الأمثال.

《٢٩》 فلمّا لم ينزجروا.. أضربَ عنهم فقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسَهم بما أشركوا؛ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: اتبعوا أهواءَهم جاهلين، ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: أضلَه اللهُ تعالى، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ من العذاب.

《٣٠》 ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: فقوِّمْ وجهَكَ له، وعُدْ له غيرَ ملتفتٍ عنه يميناً ولا شمالاً، وهو تمثيلٌ لإقباله على الدين، واستقامتِه عليه، واهتمامه بأسبابه؛ فإن من اهتمَّ بالشيء.. عقدَ عليه طَرْفَه، وسدَّدَ إليه نظرَه، وقوَّم له وجهَه، ﴿حَنِيفًا﴾: حالٌ عن المأمور، أو: عن الدين،

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ ....

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ أي: الزموا فطرةَ اللهِ، والفطرةُ: الخلقةُ؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] فالمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام، غيرَ نائين عنه، ولا منكرين له؛ لكونه مُجاوِباً للعقل، مُساوِقاً للنظر الصحيح، حتى لو تُرِكوا.. لما اختاروا عليه ديناً آخرَ، ومن غوى منهم.. فبإغواء شياطينِ الجنِّ والإنس، ومنه قولُه عليه السلام: «كلُّ عبادي خلقتُ حنفاءَ، فاجتالتهم الشياطينُ عن دينهم، وأمرُوهم أن يُشركُوا بي غيري»[1]، وقولُه عليه السلام: «كلُّ مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه هما اللذان يُهوِّدانه وينصرانه»[2]، وقال الزجاج: معناه: أن الله تعالى فطر الخلق على الإيمان به؛ على ما جاء في الحديث: «إن الله جلَّ ذكره أخرج من صُلْبِ آدم كالذرِّ، وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقُهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]»[3]، وكلُّ مولودٍ هو من تلك الذرية التي شهدت بأن الله تعالى خالقُها؛ فمعنى: (فطرة الله): دينُ الله، ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي: خلق، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي أن تُبدَّلَ تلك الفطرةُ أو تُغيَّرَ، وقال الزجاج: معناه: لا تبديل لدين الله، ويدلُّ عليه ما بعده، وهو قوله: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: المستقيمُ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ حقيقة ذلك.

《٣١》 ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: راجعين إليه، وهو حال من الضمير في: الزموا، وقولُه: (واتقوه وأقيموا ولا تكونوا): معطوفٌ على هذا المضمر، أو: من قوله: (فأقم وجهك) لأن الأمرَ له عليه السلام أمرٌ لأمته، فكأنه قال: فأقيموا وجوهكم منيبين إليه، أو: التقدير: كونوا منيبين؛ دليلُه: قولُه: (ولا تكونوا)، و﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدُّوها في أوقاتها، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١﴾: ممن يُشْرِكُ به غيرَه في العبادة.

《٣٢》 ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾: بدلٌ من ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ بإعادة الجارِّ، ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾: جعلوه أدياناً مختلفة؛ لاختلاف أهوائِهم، ﴿فارَقُوا﴾: حمزةُ وعليٌّ[4]، وهي قراءةُ عليٍّ رضي الله عنه؛ أي:

---

(١) جزءٌ من حديث قدسي رواه مسلم (٢٨٦٥) عن سيدنا عياض المُجَاشعي رضي الله عنه، وقوله: «فاجتالتهم» أي: استخفُّوهم، فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالُوا معهم في الباطل.

(٢) رواه البخاري (١٣٥٩) ومسلم (٢٦٥٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) روى نحوه النسائي في «السنن الكبرى» (١١١٢٧) عن سيدنا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٩).

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ....

تركوا دينَ الإسلامِ ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾: فِرقاً، كلُّ واحدةٍ تُشايعُ إمامَها الذي أضلَّها، ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾: فَرِحٌ بمذهبه، مَسرورٌ، يَحسَبُ باطله حقّاً.

《٣٣》 ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾: شدةٌ من هزالٍ أو مرض أو قحط أو غيرِ ذلك، ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾: خلاصاً من الشدة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ في العبادة.

《٣٤》 ﴿لِيَكْفُرُوا﴾: هذه لامُ كَيْ، وقيل: لامُ الأمر للوعيد، ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعم، ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ بكفركم قليلاً: أمرُ وعيدٍ، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وبالَ تمتعِكم.

《٣٥》 ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾: حجةً، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ وتكلمُه مجازٌ، كما تقول: كتابُه ناطقٌ بكذا، وهذا مما نطق به القرآن؛ ومعناه: الشهادةُ، كأنه قال: فهو يشهدُ بشركِهم وبصحتِه، ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (ما): مصدرية؛ أي: بكونهم بالله يشركون، أو: موصولةٌ، ويرجعُ الضمير إليها؛ أي: فهو يتكلم بالأمر الذي بسببه يشركون، أو: معنى الآية: أم أنزلنا عليهم ذا سلطان؛ أي: مَلَكاً معه برهان، فذلك المَلَكُ يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون.

《٣٦》 ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمةً من مطرٍ أو سَعَةٍ أو صَحةٍ ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾: بَطِرُوا بسببها، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: بلاءٌ من جدبٍ أو ضيقٍ أو مرضٍ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: بسبب شؤمِ معاصيْهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ من الرحمة، و(إذا) المفاجأة: جوابُ الشرط، نابت عن الفاء؛ لتآخيهما في التعقيب.

《٣٧》 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾: أنكرَ عليهم بأنهم قد علمُوا بأنه القابضُ الباسطُ، فما لهم يقنطون من رحمته؟ وما لهم لا يرجعون إليه تائبين عن المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها حتى يُعيدَ إليهم رحمته؟

《٣٨》 ولما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم.. أتبعه ذكرَ ما يجب أن يُفعلَ وما يجب أن يُتركَ فقال: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ﴾: أعط قريبك ﴿حَقَّهُ﴾ من البر والصلة، ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ

وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ....

ٱلسَّبِيلِ﴾: نصيبَهما من الصدقة المسماةِ لهما، وفيه دليلُ وجوب النفقة للمحارم كما هو مذهبُنا[1]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيتاءُ حقوقِهم ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذاته؛ أي: يقصِدون بمعروفهم إياه خالصاً، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

«٣٩» ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ يريد: وما أعطيتم أَكَلَةَ الربا من ربا ليربوَ في أموالهم ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾: فلا يَزْكُو عند الله، ولا يُبارِكُ فيه، وقيل: هو من الربا الحلال؛ أي: وما تعطونه من الهدية لتأخذوا أكثرَ منها.. فلا يربوا عند الله؛ لأنكم لم تريدوا بذلك وجه الله، ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾: صدقةٍ ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: تبتغون به وجهه خالصاً، لا تطلبون به مكافأةً ولا رياءً ولا سمعةً ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾: ذوو الإضعاف من الحسنات، ونظيرُ المضعِفِ: المُقْوِي والموسِرُ لذي القُوة واليَسارِ، ﴿أَتَيْتُم من ربا﴾: بلا مَدٍّ: مكيٌّ[2]؛ أي: وما غَشِيْتُمُوه من إعطاء رباً، ﴿لِتُرْبُوا﴾: مدنيٌّ؛ أي: لتزيدوا في أموالهم، وقولُه: (فأولئك هم المضعفون): التفاتٌ حسنٌ؛ لأنه يفيد التعميم، كأنه قيل: مَن فعل هذا.. فسبيلُه سبيل المخاطبين؛ والمعنى: المُضْعِفون به؛ لأنه لا بدَّ له من ضمير يرجع إلى (ما) الموصولةِ[3]، وقال الزجاجُ في قوله: (فأولئك هم المضعفون) أي: فأهلُها هم المضعفون أي: هم الذين يُضاعَفُ لهم الثواب، يُعطَون بالحسنة عشرَ أمثالها.

«٤٠» ثم أشار إلى عجز آلهتهم فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾: مبتدأٌ وخبرٌ، ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: هو المختصُّ بالخلق والرزق والإماتة والإحياء، ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي: أصنامِكم التي زعمتم أنهم شركاء لله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ أي: من الخلقِ والرزقِ والإماتةِ والإحياءِ ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ أي: شيئاً من تلك الأفعال، فلم يُجيبوا عجزاً فقال استبعاداً: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ و(مِن) الأولى والثانيةُ والثالثةُ كلُّ واحدة منهن مستقلةٌ بتأكيدٍ لتعجيزِ شركائِهم وتجهيلِ عَبَدَتِهم.

---

(١) انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٦٢٧).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٩) وكذا القراءة الآتية.

(٣) وكذا إن جعلت (ما) شرطية؛ لأن اسم الشرط متى كان غيرَ ظرف.. وجب عودُ ضميرٍ من الجواب عليه. انظر «الدر المصون» (٩/ ٤٧).

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ....

《٤١》 ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: نحوُ القحطِ وقلةِ الأمطارِ والرَّيعِ في الزراعات، والربحِ في التجارات، ووقوعِ المُوْتانِ في الناس والدوابِّ[(١)]، وكثرةِ الغرقِ، ومَحْقِ البركاتِ من كل شيء ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾: بسبب معاصيهم وشِركِهم، كقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: ليذيقهم وبالَ بعضِ أعمالِهم في الدنيا قبل أن يعاقبَهم بجميعها في الآخرة، وبالنون عن قُنبلٍ[(٢)]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ عمّا هم عليه من المعاصي، ثم أكدَ تسببَ المعاصِي بغضب الله ونكالِه بقوله:

《٤٢》 ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ حيث أمرهم بأن يسيروا فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقَهم سوءَ العاقبةِ بمعاصيهم.

《٤٣》 ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾: البليغِ الاستقامةِ الذي لا يتأتّى فيه عوج ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾: هو مصدرٌ بمعنى الردِّ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: يتعلق بـ(يأتي) والمعنى: من قبل أن يأتي من الله يومٌ لا يردُّه أحدٌ، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ [الأنبياء: ٤٠]، أو: بـ(مردَّ) على معنى: لا يردُّه هو بعدَ أن يجيء به، ولا ردَّ له من جهته، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾: يتصدَّعون؛ أي: يتفرقون.

《٤٤》 ثم أشار إلى غناه عنهم فقال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبالُ كفره، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: يُسَوُّون لأنفسهم ما يُسَوِّيه لنفسه الذي يَمْهَدُ فراشَه ويُوَطِّئُه؛ لئلا يُصيبَه في مَضجعِه ما يُنَغِّصُ عليه مَرقَدَه من نُتوءٍ وغيرِ ذلك؛ والمعنى: أنه يَمْهَدُ لهم الجنة بسبب أعمالهم، فأُضِيْفَ إليهم، وتقديمُ الظرف في الموضعين للدلالة على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجعُ إلى المؤمن لا تتجاوزُه.

《٤٥》 ﴿لِيَجْزِىَ﴾: متعلقٌ بـ﴿يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ تعليلٌ له، وتكريرُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وتركُ الضمير إلى الصريح لتقريرِ أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن، ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: عطائِه، وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ تقريرٌ بعد تقرير، على الطردِ والعكس[(٣)].

---

(١) **الموتان**: الموتُ العامُّ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٩).

(٣) **التقرير على الطرد والعكس**: كلُّ كلامين يقررُ الأول الثاني، وبالعكس، سواءٌ كان صريحاً وإشارةً، أو مفهوماً =

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ....

《٤٦》 ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: ومن آيات قدرته: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾: هي الجَنوبُ والشَّمالُ والصَّبا، وهي رياح الرحمة، وأما الدَّبُور.. فريحُ العذاب، ومنه قولُه عليه السلام: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»[1]، وقد عَدَّدَ الفوائد في إرسالها فقال: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي: أرسلها للبشارة بالغيث، ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾: ولإذاقة الرحمة، وهي نزولُ المطر وحصولُ الخِصبِ الذي يتبعه، والرَّوح الذي مع هبوب الريح، وزكاءُ الأرض، وغيرُ ذلك، (وليذيقكم): معطوفٌ على (مبشرات) على المعنى، كأنه قيل: ليبشركم وليذيقكم ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ في البحر عند هبوبها ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بتدبيره، أو بتكوينه، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا...﴾ الآية [يس: ٨٢]، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يريدُ: تجارةَ البحر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾: ولتشكروا نعمة الله فيها.

《٤٧》 ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: فآمن بهم قومٌ وكفر بهم قومٌ، ويدلُّ على هذا الإضمار قولُه: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أي: كفروا بالإهلاك في الدنيا، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: وكان نصر المؤمنين حقّاً علينا بإنجائهم مع الرسل، وقد يوقف على (حقّاً) ومعناه: وكان الانتقام منهم حقّاً، ثم تبتدئُ: (علينا نصرُ المؤمنين) والأولُ أصحُّ.

《٤٨》 ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ﴿الرِّيْحَ﴾: مكيٌّ[2]، ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾ أي: السحابَ ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في سَمت السماء وشِقِّها، كقوله: ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾: من ناحية الشمالِ أو الجنوبِ أو الدبورِ أو الصَّبا، ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾: قِطعاً: جمعُ كِسفةٍ؛ أي: يجعلُه منبسطاً، يأخذُ وجهَ السماء مرةً، ويجعلُه قطعاً متفرقةً غير منبسطة مرةً، ﴿كِسْفاً﴾:

= ومنطوقاً، فقولُه: (ليجزي الذين آمنوا) دلَّ بصريحه على أنهم أهل الجزاء بالفضل، ودلَّ بمفهومه على أنهم أهلُ الولاية؛ إذ هذا من لوازم كونهم أهل الجزاء، وقولُه: (إنه لا يحب الكافرين) يدلُّ بتعليله لما قبله على أن الكافرين محرومون من الفضل، وبمفهومه على أن الجزاء موفورٌ للمؤمنين فضلاً، وأن العقاب معينٌ للكافرين عدلاً؛ إذ هذا من لوازم عدم محبته للكافرين. انظر «تفسير الآلوسي» (١١/ ٥٠) و«التحرير والتنوير» (٢١/ ١١٧).

(١) رواه أبو يعلى الموصلي في «مسنده» (٤/ ٣٤١) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) وكذا حمزة وعلي وخلفٌ. انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٤٩) وكذا القراءة الآتية.

وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ....

يزيدُ وابنُ ذكوان، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾: المطرَ ﴿يَخْرُجُ﴾ في التارتَيْنِ جميعاً ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾: وسطِه، ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾: بالودق، ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ يريدُ إصابةَ بلادِهم وأراضيْهم، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾: يفرحون.

《٤٩》 ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطرُ ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ كُرِّرَ للتأكيد، كقوله: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ [الحشر: ١٧] ومعنى التوكيد فيها: الدلالةُ على أن عهدَهم بالمطر قد تطاول، فاستحكم يأسُهم، فكان الاستبشارُ على قدر اغتمامهم بذلك، ﴿لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾: آيسين.

《٥٠》 ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ﴾: شاميٌّ وكوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ، وغيرُهم ﴿أَثَرِ﴾، ﴿رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: المطرِ، ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنباتِ وأنواعِ الثمارِ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الله ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: أن ذلك القادرَ الذي يحيي الأرضَ بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم، وهذا استدلالٌ بإحياء المواتِ على إحياء الأموات، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ أي: وهو على كل شيء من المقدورات قادرٌ، وهذا من جملة المقدورات؛ بدليل الإنشاء.

《٥١》 ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ أي: الدبورَ، ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أي: أثرَ رحمةِ اللهِ؛ لأن رحمة الله هي الغيثُ، وأثرُها النبات، ومن قرأ بالجمع.. رَجَّعَ الضميرَ إلى معناه؛ لأن معنى آثار الرحمة: النباتُ، واسمُ النبات يقعُ على القليل والكثير؛ لأنه مصدر سمي به ما ينبت، ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد اخضراره، وقال: (مصفراً)؛ لأن تلك صفرةٌ حادثةٌ، وقيل: فرأوا السحابَ مصفرّاً؛ لأن السحاب الأصفر لا يمطر، واللامُ في (لئن): موطئةٌ للقسم، دخلت على حرف الشرط، وسدَّ مسدَّ جوابي القسم والشرط: ﴿لَّظَلُّوا۟﴾[1]؛ ومعناه: لَيَظَلُّنَّ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: من بعد اصفرارِه، أو: من بعد الاستبشار، ذمَّهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم المطر.. قنطوا من رحمته، وضربوا أذقانهم على صدورهم مُبْلِسِين، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر.. استبشروا، فإذا أرسل ريحاً فضرب زروعَهم بالصَّفار.. ضَجُّوا وكفروا بنعمة الله، فهم في جميع هذه الأحوال

---

(١) أي: أن هذا جوابُ القسمِ، وحُذِفَ جوابُ الشرط لدلالة جواب القسم عليه. انظر «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (٤/ ٤٤).

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ....

على الصفة المذمومة، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضلِه، فقنطوا، وأن يشكروا نعمته ويحمَدوه عليها، ففرحوا، وأن يصبروا على بلائه، فكفروا.

«٥٢» ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: موتى القلوب، أو: هؤلاء في حكم الموتى فلا تطمعْ أن يقبلوا منك، ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ ﴿ولا يَسمعُ الصُّمُّ﴾: مكيٌّ[1]، ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾ **فإن قلت**: الأصمُّ لا يسمع مقبلاً أو مدبراً، فما فائدةُ هذا التخصيص؟ **قلت**: هو إذا كان مقبلاً.. يفهمُ بالرمز والإشارة، فإذا ولَّى.. لا يسمعُ ولا يفهمُ بالإشارة.

«٥٣» ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾ أي: عُمْيِ القلوب، ﴿وما أنت تَهْدِي العُمْيَ﴾: حمزةُ، ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: لا يمكنك أن تهديَ الأعمى إلى طريق قد ضلَّ عنه بإشارةٍ منك له إليه، ﴿إِن تُسْمِعُ﴾: ما تسمعُ ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾: منقادون لأوامر الله تعالى.

«٥٤» ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾: من النُّطَفِ، كقوله: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعني: حالَ الشبابِ وبلوغِ الأشُدِّ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ يعني: حالَ الشيخوخةِ والهرمِ، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من ضعف وقوة، وشباب وشيبة، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم، ﴿ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ على تغييرهم، وهذا الترديد في الأحوال أَبْيَنُ دليل على الصانع العليم القدير، فتح الضادَ في الكلِّ: عاصمٌ وحمزةُ، وضمَّ غيرُهما، وهو اختيار حفص[2]، وهما لغتان، والضمُّ أقوى في القراءة؛ لما روي عن ابن عمر قال: قرأتها على رسول الله ﷺ (من ضَعفٍ)، فأقرأني (من ضُعْفٍ)[3].

«٥٥» ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامةُ سميت بذلك؛ لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدينا، أو: لأنها تقع بَغْتةً، كما تقول: في ساعة؛ لمن تستعجلُه، وجرت عَلَماً لها، كالنجمِ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٤٩) وكذا القراءة الآتية.

(٢) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٤٥).

(٣) رواه أبو داود (٣٩٧٨) والترمذي (٢٩٣٦). وحَذارِ أن يُتَوَهَّمَ من هذه الرواية أن الفتح غيرُ صحيح، فهو قراءةٌ متواترةٌ، ولغةٌ عربيةٌ صحيحةٌ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ....

للثُّريّا، ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: يحلف الكافرون، ولا وقف عليه؛ لأنَّ ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ في القبور، أو: في الدينا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ﴾ جوابُ القسم[1]، استقلُّوا مدةَ لُبثِهم في القبور، أو في الدنيا؛ لهول يوم القيامةِ، وطول مُقامِهم في شدائدِها، أو: يَنسَون، أو: يكذبون، ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: مثلَ ذلك الصرفِ كانوا يُصرفون عن الصدق إلى الكذب في الدنيا، ويقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

《٥٦》 ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ هم: الأنبياء والملائكة والمؤمنون:

﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: في علم الله المثبَتِ في اللوح، أو: في حكم الله وقضائِه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ ردُّوا ما قالوه وحلفوا عليه، وأطلعوهم على الحقيقة، ثم وَصَلُوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أنه حقٌّ؛ لتفريطكم في طلب الحقِّ واتباعِه، والفاءُ لجواب شرطٍ يدلُّ عليه الكلام، تقديرُه: إن كنتم منكرين البعث.. فهذا يومُ البعث الذي أنكرتموه.

《٥٧》 ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ﴾: بالياء: كوفيٌّ[2]، ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: كفروا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾: عذرُهم، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: لا يُقالُ لهم: أَرْضُوا ربَّكم بتوبة؛ من قولك: استعتبني فلانٌ فأعتبته؛ أي: استرضاني فأرضيتُه.

《٥٨》 ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: ولقد وصفنا لهم كلَّ صفة كأنها مثلٌ في غرابتها، وقصصنا عليهم كلَّ قصة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة، وقصتهم، وما يقولون وما يقال لهم، وما لا يَنفعُ من اعتذارهم، ولا يُسْمَعُ من استِعتابهم، ولكنهم لقسوة قلوبهم إذا جئتَهم بآية من آيات القرآن.. قالُوا: جئتنا بزُورٍ وباطل.

《٥٩》 ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: مثل ذلك الطبعِ وهو

---

(١) أي: جملة (ما لبثوا غير ساعة) جواب القسم.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٠).

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾

الختم يطبع الله على قلوب الجهلة الذين علم الله منهم اختيار الضلال، حتى يُسمُّوا المحقِّين مبطلين، وهم أعرقُ خلقِ الله في تلك الصفة.

《٦٠》 ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ على أذاهم أو عداوتهم، ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بنصرتك على أعدائك، وإظهارِ دين الإسلام على كل دين، ﴿حَقّٞۖ﴾ لا بدَّ من إنجازه والوفاء به، ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ أي: لا يحملنَّك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفةِ والعجلةِ في الدعاء عليهم بالعذاب، أو: لا يحملنك على الخفة والقلقِ جزعاً مما يقولون ويفعلون؛ فإنهم ضُلّالٌ شاكُّون لا يُستبدَعُ منهم ذلك، ﴿ولا يستخفنْك﴾: بسكون النون: عن يعقوب.



﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ ....

سورة لقمان

مكية، وهي ثلاثٌ أو أربعٌ وثلاثون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١ - ٢》 ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾: ذي الحكمةِ، أو: وصف بصفة الله عزَّ وجلَّ على الإسناد المجازي[1].

《٣》 ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾: حالان من الآيات، والعاملُ: معنى الإشارة في (تلك)، حمزةُ: بالرفع؛ على أن (تلك): مبتدأ، و(آيات الكتاب): خبرُه، و(هدىً): خبرٌ بعد خبر، أو: خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو، أو هي هدىً ورحمةٌ ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾: للذين يعملون الحسناتِ المذكورةَ في قوله:

《٤》 ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ ونظيرُه: قولُ أوسٍ[2]: [من: المنسرح]

الألـمـعـيُّ الـذي يـظـنُّ بـك الـظْـ ... ـظَـنَّ كـأنْ قـد رأى وقـد سـمـعـا

أو: للذين يعملون جميعَ ما يَحْسُنُ، ثم خصَّ منهم القائمين بهذه الثلاثة لفضلِها.

《٥》 ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾: مبتدأٌ وخبرٌ، ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: صفةٌ لـ(هدىً)، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾: عطفٌ عليه.

《٦》 ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ نزلت في النضر بن الحارث، وكان يشتري أخبار الأكاسرةِ من فارسَ ويقول: إن محمداً يقصُّ طَرفاً من قصة عادٍ وثمودَ، فأنا أحدثكم بأحاديثِ الأكاسرة، فيميلون إلى حديثه ويتركون استماع القرآن، واللهوُ: كلُّ باطل أَلْهَى عن

---

(١) أي: أسندت الحكمة إلى الكتاب مجازاً، وهي حقيقةً لله منزل الكتاب.

(٢) انظر «ديوانه» (ص٥٣)، وقبل هذا البيت قولُه:

إن الـذي جـمـع الـسـمـاحـة والـ ... ـنـجـدة والـبـر والـتـقـى جُـمَـعـا

والشاهد أن ما بعد الألمعي صفةٌ كاشفة.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ . . . .

الخير وعمّا يَعني، ولهوُ الحديث: نحوُ السمرِ بالأساطيرِ التي لا أصلَ لها، والغناءِ، وكان ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما يحلفان أنه الغناء[1]، وقيل: الغناءُ مفسدةٌ للقلب، مَنفدةٌ للمال، مسخطةٌ للربِّ، وعن النبي ﷺ: «ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين؛ أحدُهما على هذا المَنْكِبِ، والآخر على هذا المنكبِ، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكتُ»[2]، والاشتراءُ: من الشراء كما روي عن النضر، أو: من قوله: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٧٧] أي: استبدلوه منه واختاروه عليه؛ أي: يختارون حديثَ الباطلِ على حديث الحقِّ، وإضافةُ اللهو إلى الحديث: للتبيين؛ بمعنى: مِن؛ لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره، فَبُيِّنَ بالحديث؛ والمرادُ بالحديث: الحديثُ المنكر، كما جاء في الحديث: «الحديثُ في المسجد يأكل الحسناتِ كما تأكل البهيمةُ الحشيش»[3]، أو: للتبعيض، كأنه قيل: ومن الناس من يشتري بعضَ الحديث الذي هو اللهوُ منه؛ ﴿لِيُضِلَّ﴾ أي: لِيَصُدَّ الناسَ عن الدخول في الإسلام واستماعِ القرآن، ﴿لِيَضِلَّ﴾: مكيٌّ وأبو عمرو[4]؛ أي: لِيَثْبُتَ على ضلاله الذي كان عليه ويَزيدَ فيه، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دينِ الإسلام والقرآن، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: جهلاً منه بما عليه من الوزر به، ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ أي: السبيلَ، بالنصب: كوفيٌّ غيرَ أبي بكر، عطفاً على (ليضل)، ومن رفع.. عطَفه على (يشتري)، ﴿هُزْءاً﴾: بسكون الزاي والهمزة: حمزةُ، وبضم الزاي بلا همز: حفصٌ، وغيرُهم: بضم الزاي والهمزة، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ أي: يُهِينُهم، و(مَن) لإبهامه يقع على الواحد والجمع؛ أي: النضرُ وأمثالُه.

《٧》 ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾: أعرض عن تدبُّرِها متكبراً رافعاً نفسه عن الإصغاء إلى القرآن، ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: يُشبهُ حالُه في ذلك حالَ مَن لم يسمعها، وهو حالٌ من (مستكبراً)، والأصلُ: كأنه، والضميرُ: ضميرُ الشأن، ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾: ثِقلاً، وهو حالٌ مِن (لم يسمعها)، ﴿أُذْنَيْهِ﴾: نافعٌ، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الصغير» (٤/ ١٧٨) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه. وروى البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٢٣) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما: هو الغناء وأشباهه.

(٢) روى نحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢٠٤) عن سيدنا عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص ١٨٠): لم أقف له على أصل.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٠) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ ....

《٨ - ٩》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ ولا وقفَ عليه؛ لأن ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: حالٌ من الضمير في (لهم)، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾: مصدران مؤكدان، الأول: مؤكد لنفسه، والثاني: مؤكد لغيره؛ إذْ (لهم جنات النعيم): في معنى: وعدَهم اللهُ جناتِ النعيم، فأكَّدَ معنى الوعد بالوعد، و(حقّاً): يدلُّ على معنى الثبات، فأُكِّدَ به معنى الوعد، ومُؤَكِّدُهما: (لهم جنات النعيم)[1]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي لا يغلبُه شيءٌ، فيُهينُ أعداءَه بالعذاب المهين، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ فيما يفعلُ، فيثيب أولياءَه بالنعيم المقيم.

《١٠》 ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: جمعُ عِمادٍ، ﴿تَرَوْنَهَا﴾: الضميرُ للسماوات، وهو استشهاد برؤيتهم لها غيرَ معمودةٍ.. على قوله[2]: (بغير عمد)، كما تقول لصاحبك: أنا بلا سيفٍ ولا رمحٍ، تراني، ولا محلَّ لها من الإعراب؛ لأنها مستأنفة، أو: في محل الجرِّ صفةٌ لـ(عمدٍ) أي: بغير عمدٍ مرئيةٍ؛ يعني: أنه عَمَدَها بِعَمَدٍ لا تُرى، وهو إمساكُها بقدرته، ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾: جبالاً ثوابتَ، ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: لئلا تضطربَ بكم، ﴿وَبَثَّ﴾: ونشرَ ﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾: صنفٍ ﴿كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾: حسنٍ.

《١١》 ﴿هَٰذَا﴾: إشارةٌ إلى ما ذكر من مخلوقاته، ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقُه، ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني: آلهتهم، بَكَّتَهم بأن هذه الأشياءَ العظيمةَ مما خلقه الله، فأروني ما خلقتْه آلهتُكم حتى استوجبوا عندكم العبادةَ، ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾: أضربَ عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورطِ في ضلال ليس بعده ضلالٌ.

---

(١) المصدر المؤكد لنفسه هو: الواقع بعد جملة هي نصٌّ في معناه؛ وسمي بذلك لأنه بمنزلة إعادة الجملة؛ فكأنه نفسُها، فقوله تعالى: (وعدَ الله) مصدر مؤكد لجملة (لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيم)، وهي نصٌّ في الوعد؛ لذا سميَ مؤكداً لنفسه، والمؤكدُ لغيره هو: الواقع بعد جملة تحتمل غيرَه فتصير به نصّاً؛ وسمي بذلك لأنه أثَّرَ في الجملة، فكأنه غيرُها؛ لأن المؤثِّر غيرُ المؤثَّر فيه، فقوله تعالى: (حَقّاً): مصدر مؤكد لجملةِ (لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيم) وسميَ مؤكداً لغيره؛ لأنه ليس كلُّ وعدٍ حقّاً في نفسه. انظر «شرح الأشموني لألفية ابن مالك» (١/ ٤٧٧)، و«تفسير الآلوسي» (١١/ ٨٠).
ولكن وعد الله لا يكون إلا حقّاً، ولذا يصح أن يقال: إنَّ (حقّاً) مؤكدٌ لنفسه.

(٢) أي: هو استشهاد على قوله: (بغير عمد).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ ....

《١٢》 ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ وهو لقمانُ بنُ باعوراءَ، ابنُ أختِ أيوبَ، أو: ابنُ خالته، وقيل: كان من أولاد آزَرَ، وعاش ألفَ سنةٍ، وأدرك داود عليه السلام، وأخذ منه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام، فلما بُعث.. قطع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكتفي إذا كُفيتُ؟ وقيل: كان خياطاً، وقيل: نجاراً، وقيل: راعياً، وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيلَ، وقال عكرمةُ والشعبيُّ: كان نبيّاً، والجمهورُ على أنه كان حكيماً ولم يكن نبيّاً، وقيل: خُيِّرَ بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة، وهي الإصابةُ في القول والعمل، وقيل: تتلمذَ لألفِ نَبيٍّ، وتتلمذ له ألفُ نبيٍّ، و(أنْ) في ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾: مفسرةٌ؛ والمعنى: أي: اشكرْ لله؛ لأن إيتاء الحكمة في معنى القول، وقد نبَّه الله تعالى على أن الحكمة الأصلية والعلمَ الحقيقيَّ هو العمل بهما، وعبادةُ الله، والشكرُ له؛ حيث فَسَّرَ إيتاء الحكمة بالحثِّ على الشكر، وقيل: لا يكون الرجل حكيماً حتى يكون حكيماً في قولِه وفعلِه ومعاشرتِه وصحبتِه، وقال السريُّ السقطيُّ: الشكرُ ألا تعصيَ الله بنعمه، وقال الجنيد: ألا ترى معه شريكاً في نعمه، وقيل: هو الإقرار بالعجز عن الشكر، والحاصل: أن شكر القلب المعرفة، وشكر اللسان الحمد، وشكر الأركان الطاعة، ورؤيةُ العجز في الكل دليلُ القبول، ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن منفعته تعودُ إليه، فهو يريدُ المزيد، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ النعمةَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾: غيرُ محتاج إلى الشكر، ﴿حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾: حقيقٌ بأن يُحمدَ وإن لم يَحْمَدْهُ أحدٌ.

《١٣》 ﴿وَإِذْ﴾ أي: واذكرْ إذْ ﴿قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾: أَنْعَم، أو: أَشْكَم ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيْ﴾: مكيٌّ، ﴿يَٰبُنَىَّ﴾: حفصٌ: بفتحه في كل القرآن[1]، ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ لأنه تسويةٌ بين مَن لا نعمةَ إلا وهي منه، وبين مَن لا نعمةَ له أصلاً.

《١٤》 ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: حملته تَهِنُ وَهناً على وهن؛ أي: تَضعُفُ ضعفاً فوق ضعف؛ أي: يتزايدُ ضعفُها ويتضاعف؛ لأن الحمل كلما ازداد وعظم.. ازدادت ثقلاً وضعفاً، ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي: فطامُه عن الرضاع لتمام عامين، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٠).

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ ....

﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ هو تفسيرٌ لـ(وصينا) أي: وصيناه بِشُكرِنا وبشكرِ والديه، وقولُه: (حملتْه أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين): اعتراضٌ بين المفسِّر والمفسَّر؛ لأنه لما وصَّى بالوالدين.. ذكر ما تُكابدُه الأمُّ وتُعانيه من المشاقِّ في حمله وفصالِه هذه المدةَ الطويلةَ؛ تذكيراً بحقِّها العظيم مفرداً، وعن ابن عيينة: من صلى الصلواتِ الخمسَ.. فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلواتِ الخمسِ.. فقد شكرهما، ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ أي: مصيرُك إليَّ، وحسابُك عليَّ.

﴿١٥﴾ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أرادَ بنفي العلم به: نفيَه؛ أي: لا تشرك بي ما ليس بشيءٍ؛ يريد: الأصنامَ ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في الشرك، ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾: صفةُ مصدر محذوف؛ أي: صِحاباً معروفاً حسناً، بخلق جميل وحلم واحتمالٍ وبرٍّ وصلةٍ، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ أي: سبيلَ المؤمنين في دينك، ولا تتبع سبيلَهما فيه وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما في الدنيا، وقال ابنُ عطاء: صاحبْ مَن ترى عليه أنوارَ خدمتي، ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مرجعُك ومرجعُهما، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾: فأجازيك على إيمانك، وأجازيهما على كفرهما، وقد اعترضَ بهاتين الآيتين على سبيل الاستطراد؛ تأكيداً لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك؛ يعني: إنا وصيناه بوالديه، وأمرناه ألا يطيعَهما في الشرك وإن جَهَدا كلَّ الجَهْدِ؛ لقبحه.

﴿١٦﴾ ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾: بالرفع: مدنيٌّ، والضميرُ للقصة، وأُنث المثقالُ لإضافته إلى الحبة، كما قال[1]: [من الطويل]

.... كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدم

و(كان): تامةٌ، والباقون: بالنصب[2]، والضميرُ لِلْهَنَةِ من الإساءة والإحسان[3]؛ أي: إن

---

(١) البيت للأعشى في «ديوانه» (ص١٢٣) وصدره:

وتَشْرَقُ بالقول الذي قد أذعته

تشرق: تَغَصّ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٠).

(٣) الهنة: الشيء اليسير.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ....﴾

كانت مثلاً في الصغر كحبة خردل ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فكانت مع صغرها في أخفى موضعٍ وأحرزِه، كجوف الصخرة، أو: حيث كانت في العالم العُلويِّ أو السفليِّ، والأكثر على أنها الصخرة التي عليها الأرض[١]، وهي السجينُ تُكتب فيها أعمالُ الفجّار وليست من الأرض، ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يومَ القيامة فيحاسِبُ بها عاملَها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾: يتوصلُ علمُه إلى كل خفيٍّ، ﴿خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾: عالمٌ بكنهه، أو: لطيف باستخراجها، خبير بمستقرِّها.

«١٧» ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ في ذات الله تعالى إذا أَمرتَ بالمعروف، ونَهيتَ عن المنكر، أو: على ما أصابك من المحنِ؛ فإنها تورث المِنَحَ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي وصيتُك به ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ أي: مما عَزَمَه اللهُ من الأمور؛ أي: قطعَه قطعَ إيجابٍ وإلزام؛ أي: أمرَهم به أمراً حتماً، وهو من تسمية المفعول بالمصدر، وأصلُه: من مَعزوماتِ الأمورِ؛ أي: مقطوعاتِها ومفروضاتِها، وهذا دليل على أن هذه الطاعات كانت مأموراً بها في سائر الأمم.

«١٨» ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ولا تُعرضْ عنهم تكبراً، ﴿تُصاعِرْ﴾: أبو عمرٍو ونافعٌ وحمزةُ وعليٌّ[٢]، وهو بمعنى (تُصعِّرْ)، والصَّعَرُ: داءٌ يصيبُ البعير يَلْوي منه عنقَه؛ والمعنى: أقبلْ على الناس بوجهك تواضعاً، ولا تُوَلِّهِمْ شِقَّ وجهك وصفحته كما يفعلُه المتكبرون، ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: تمرح مرحاً، أو: أُوقع المصدرُ موقعَ الحال؛ أي: مَرِحاً، أو: لا تمشِ لأجلِ المرحِ والأشرِ[٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾: متكبرٍ، ﴿فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾: مَن يُعدِّدُ مناقبَه تطاولاً.

«١٩» ﴿وَٱقْصِدْ﴾ القصدُ: التوسطُ بين الغُلُوِّ والتقصير، ﴿فِى مَشْيِكَ﴾ أي: اعْدِلْ فيه حتى يكونَ مشياً بين مَشيين، لا تَدِبَّ دبيبَ المتماوتين، ولا تَثِبْ وُثُوبَ الشُّطّارِ، قال عليه السلام:

(١) هذا مما كان يُتَوَهَّمُ، ولكن تبين بعدُ أنْ ليس هناك صخرةٌ عليها الأرض.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥١).

(٣) فيكون مفعولاً لأجله.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠﴾ ....

«سرعةُ المشي تُذهب بهاءَ المؤمن»[(١)]، وأما قولُ عائشة في عمرَ رضي الله تعالى عنه: كان إذا مشى.. أسرع[(٢)].. فإنما أرادت السرعةَ المرتفعةَ عن دبيب المتماوت، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كانوا يَنهون عن خَبَبِ اليهودِ[(٣)]، ودبيبِ النصارى، ولكن مشياً بين ذلك. وقيل: معناه: وانظر موضعَ قدميك متواضعاً، ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾: وانقُصْ منه؛ أي: اخفِض صوتك، ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾: أوحشَها ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝١٩﴾ لأن أوله زفيرٌ، وآخره شهيقٌ، كصوت أهل النار، وعن الثوري: صِياحُ كلِّ شيءٍ تسبيحٌ إلا الحمار، فإنه يصيح لرؤية الشيطان[(٤)]، ولذلك سماه الله منكراً، وفي تشبيه الرافعين أصواتَهم بالحمير، وتمثيلِ أصواتِهم بالنُّهاقِ.. تنبيهٌ على أن رفع الصوت في غاية الكراهة، يؤيدُه: ما روي: أنه عليه السلام كان يعجبُه أن يكون الرجل خفيضَ الصوتِ، ويكره أن يكون مجهورَ الصوت[(٥)].

وإنما وُحِّدَ صوتُ الحمير ولم يُجمع؛ لأنه لم يُرِد أن يذكرَ صوتَ كلِّ واحد من آحاد هذا الجنس حتى يُجمع، بل المراد: أن كل جنسٍ من الحيوان له صوتٌ، وأنكرُ أصوات هذه الأجناسِ صوتُ هذا الجنس، فوجب توحيدُه.

《٢٠》 ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: الشمسَ والقمرَ والنجومَ والسحابَ وغيرَ ذلك، ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: البحارَ والأنهارَ والمعادنَ والدوابَّ وغيرَ ذلك، ﴿وَأَسْبَغَ﴾: وأتمَّ ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾: مدنيٌّ وأبو عمرٍو وسهلٌ وحفصٌ، ﴿نِعْمَةً﴾: غيرُهم[(٦)]، والنعمةُ: كلُّ نفع قُصِدَ به الإحسانُ، ﴿ظَٰهِرَةً﴾: ما يُعلم بالمشاهدة، ﴿وَبَاطِنَةً﴾: ما لا يُعلمُ إلا بدليل، ثم قيل: الظاهرةُ: البصرُ والسمعُ واللسانُ وسائرُ الجوارحِ الظاهرةِ، والباطنةُ: القلبُ والعقلُ والفهمُ وما

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٣/ ٢٩٠).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٢٠) من قول سيدتنا الشفاء بنت عبد الله رضي الله عنها.

(٣) **الخَبَبُ**: نوع من السير السريع.

(٤) روى البخاري (٣٣٠٣) ومسلم (٢٧٢٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا سمعتم صياح الديكة.. فاسألوا الله من فضله؛ فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار.. فتعوذوا بالله من الشيطان؛ فإنه رأى شيطاناً».

(٥) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ١٧٧)

(٦) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥١).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ....

أشبه ذلك، ويُروَى في دعاء موسى عليه السلام: إلهي دُلَّني على أخفى نعمتك على عبادك، فقال: أَخفَى نعمتي عليهم النَّفَسُ، وقيل: تخفيفُ الشرائع وتضعيفُ الذرائع[1]، والخَلْقُ والخُلُقُ، ونيلُ العطايا وصرفُ البلايا، وقبولُ الخلق ورضا الرب، وقال ابنُ عباس: الظاهرةُ: ما سَوَّى من خَلْقِك، والباطنةُ: ما ستر من عيوبك، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ نزلت في النضرِ بنِ الحارث، وقد مرَّ في (الحج).

«٢١» ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ معناه: أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم؛ أي: في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب؟

«٢٢» ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عُدِّيَ هنا بـ(إلى)، وفي ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] باللام؛ فمعناه مع اللام: أنه جعل وجهه، وهو ذاتُه ونفسُه سالماً لله؛ أي: خالصاً له؛ ومعناه مع (إلى): أنه سَلَّمَ إليه نفسه، كما يُسلَّمُ المتاعُ إلى الرجل إذا دُفع إليه؛ والمراد: التوكلُ عليه، والتفويضُ إليه، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فيما يعمل، ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾: تمسك وتعلق ﴿بِٱلْعُرْوَةِ﴾: هي ما يُعلَّقُ به الشيء، ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾: تأنيثُ الأوثق، مُثِّلَ حالُ المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثقِ عُروةٍ من حبل متين مأمونٍ انقطاعُه، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: هي صائرةٌ إليه، فيجازي عليها.

«٢٣» ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ولم يُسلم وجهَه لله ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾: مِن: حَزِنَ، ﴿يُحْزِنْكَ﴾: نافعٌ[2]، مِن: أَحزنَ؛ أي: لا يُهِمَّنَّكَ كفرُ مَن كفر، ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾: فنعاقبُهم على أعمالهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾: إن الله يعلم ما في صدور عباده، فيفعل بهم على حسبه.

«٢٤» ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ زماناً ﴿قَلِيلًا﴾ بدنياهم، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾: نلجئُهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾:

---

(١) الذرائع: الوسائل للثواب، وهي أنواع الطاعات. انظر «الإكليل» (٦/ ١٥).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥١) وكذا القراءة الآتية.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ....

شديدٍ، شَبَّهَ إلزامَهم التعذيب، وإرهاقَهم إياه باضطرار المضطر إلى الشيء، والغِلَظُ: مستعارٌ من الأجرام الغليظة، والمرادُ: الشدةُ والثقلُ على المعذَّبِ.

《٢٥》 ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: إلزامٌ لهم على إقرارهم بأن الذي خلق السموات والأرض هو الله وحده، وأنه يجب أن يكون له الحمدُ والشكرُ، وألا يُعبدَ معه غيرُه، ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أن ذلك يلزمهم، وإذا نُبِّهُوا عليه.. لم يتنبهوا.

《٢٦》 ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن حمدِ الحامدين، ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾: المستحقُّ للحمد وإن لم يَحمَدوه.

《٢٧》 قال المشركون: إن هذا؛ أي: الوحيَ كلامٌ سينفَدُ، فأعلم الله أن كلامه لا ينفَدُ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ﴿والبَحْرَ﴾: أبو عمرٍو ويعقوبُ؛ عطفاً على اسم (أنَّ) وهو (ما)، والرفعُ على محل (أن) ومعمولها؛ أي: ولو ثبت كون الأشجار أقلاماً، وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحرٍ، أو: على الابتداء، والواو للحال؛ على معنى: ولو أن الأشجار أقلامٌ في حال كون البحر ممدوداً، وقرئ: ﴿يُمِدُّه﴾[1]، وكان مقتضى الكلام أن يُقال: ولو أن الشجر أقلامٌ والبحرَ مدادٌ، لكن أغنى عن ذكر المدادِ قولُه: (يمده)؛ لأنه من قولك: مَدَّ الدَّواةَ وأمدَّها، جعلَ البحر الأعظم بمنزلة الدواة، وجعل الأبحرَ السبعةَ مملوءَةً مِداداً، فهي تصب فيه مِدادَها أبداً، صبّاً لا ينقطع؛ والمعنى: ولو أن أشجار الأرض أقلام، والبحر ممدودٌ بسبعة أبحرٍ، وكُتِبَتْ بتلك الأقلام، وبذلك المدادِ كلماتُ الله.. لما نَفِدَت كلماتُه ونَفِدَت الأقلامُ والمدادُ، كقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]، **فإن قلت**: زعمتَ أن قوله: (والبحر يمده): حالٌ في أحد وجهي الرفع، وليس فيه ضميرٌ راجع إلى ذي الحال.. **قلتُ**: هو كقولك: جئتُ والجيشُ مُصطفٌّ، وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمُها حكمُ الظروف[2]،

(١) انظر «المحتسب» لابن جني (٢/ ١٦٩).

(٢) ذكر الزمخشري أنه يجوز خلوُّ جملة الحال عن العائد إلى صاحب الحال إجراءً لها مُجرى الظرف؛ لانعقاد =

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٩ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٠﴾ ....

وإنما ذكَرَ (شجرة) على التوحيد؛ لأنه أُريد تفصيل الشجر وتَقَصِّيها شجرةً شجرةً حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدةٌ إلا وقد بُريت أقلاماً، وأُوثر الكلماتُ وهي جمعُ قلة.. على الكلم، وهي جمع كثرة؛ لأن معناه: أن كلماتِه لا تفي بِكِتْبَتِها البحارُ، فكيف بِكَلِمِه؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: لا يُعجزه شيءٌ، ﴿حَكِيمٌ ۝٢٧﴾: لا يخرج من علمه وحكمته شيءٌ، فلا تَنفَدُ كلماتُه وحِكَمُه.

«٢٨» ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: إلا كخلق نفسٍ واحدةٍ، وبعثِ نفسٍ واحدةٍ، فحُذف للعلم به؛ أي: سواءٌ في قدرته القليلُ والكثيرُ، فلا يشغلُه شأنٌ عن شأن، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقول المشركين: إنه لا بعثَ، ﴿بَصِيرٌ ۝٢٨﴾ بأعمالهم فيجازيهم.

«٢٩» ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾: يدخلُ ظلمة الليل في ضوء النهار إذا أقبل الليلُ، ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لمنافعِ العبادِ، ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلٌّ واحدٍ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِىٓ﴾ في فُلْكِه ويقطعُه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى يوم القيامة، أو: إلى وقتٍ معلومٍ، الشمسُ إلى آخر السنة، والقمرُ إلى آخر الشهر، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٩﴾ وبالياء عياشٌ[1]، دلَّ أيضاً بتعاقب الليل والنهار وزيادتهما ونقصانهما وجَرْيِ النَّيِّرَيْنِ في فُلْكَيْهما على تقديرٍ وحسابٍ، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق.. على عظمِ قدرتِه، وكمالِ حكمتِه.

«٣٠» ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ بالياء: عراقي غيرَ أبي بكر[2]، ﴿مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٠﴾ أي: ذلك الذي وُصف به من عجائب قدرتِه وحكمتِه التي يَعجزُ عنها الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله.. إنما هو بسبب

= الشبه بين الحال وبينه، وشرح ذلك ابن يعيش بأن المراد بالظرف: إذْ، وقد شبه سيبويه واو الحال بـ: إذْ، وقدَّرها بها، وذلك من حيث كانت إذْ: منتصبةَ الموضع، كما أن الواو منتصبة الموضع، وأن ما بعد إذْ: لا يكون إلا جملة، كما أن الواو كذلك، وكل واحد من الظرف والحال يقدر بحرف الجرِّ، فإذا قلت: جاء زيد وسيفُه على عاتقه.. كأنك قلت: جاء زيد في هذه الحال، والحالُ مفعول فيها كما أن الظرف كذلك، فكما أن الجملة بعد إذْ: لا تفتقر إلى ضمير يعود إلى ما قبلها.. فكذلك ما بعد الواو، وهذا معنى قوله: لانعقاد الشبه بينهما. انظر «شرح المفصل» لابن يعيش (٢/ ٣١).

(١) انظر «تفسير البحر المحيط» (٧/ ١٨٨).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥١).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ ....

أنه هو الحق الثابتُ الإلهيةِ، وأن مَن دونه باطلُ الإلهيةِ، وأن الله هو العلي الشأن الكبيرُ السلطانِ.

《٣١》 ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ﴾ وقرئَ: ﴿الفُلُكَ﴾[1]، وكلُّ (فُعْل) يجوز فيه (فُعُل)، كما يجوز في كلِّ (فُعُل) (فُعْل)، ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾: بإحسانه ورحمته، أو: بالريح؛ لأن الريح من نعم الله ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾: عجائب قدرته في البحر إذا ركبتُموها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه، ﴿شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ لنعمائه، وهما صفتا المؤمن، فالإيمان نصفان: نصفٌ شكرٌ، ونصفٌ صبر، فكأنه قال: إن في ذلك لآياتٍ لكلِّ مؤمنٍ.

《٣٢》 ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: الكفارَ ﴿مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ الموجُ يرتفعُ فيعودُ مثلَ الظلل، والظلةُ: كلُّ ما أظلك؛ مِن جبل أو سحاب أو غيرهما ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: باقٍ على الإيمان والإخلاص الذي كان منه، ولم يَعُدْ إلى الكفر، أو متوسطٌ في الظلم والكفر، انزجر بعضَ الانزجار، ولا يغلو في الكفر، أو: مقتصدٌ في الإخلاص الذي كان عليه في البحر؛ يعني: أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قطُّ، والمقتصدُ قليلٌ نادر، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحقيقتها ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾: غدّارٍ، والخَتْرُ: أقبحُ الغدرِ، ﴿كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ لربِّهِ.

《٣٣》 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾: لا يقضي عنه شيئاً؛ والمعنى: لا يجزي فيه، فحُذِفَ، ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾: واردٌ على طريقٍ من التوكيد لم يردْ عليه ما هو معطوف عليه؛ لأن الجملة الاسمية آكدُ من الجملة الفعلية، وقد انضم إلى ذلك قولُه: (هو)، وقولُه: (مولود)، والسبب في ذلك: أن الخطاب للمؤمنين، وَعِلْيَتُهُم قُبِضَ آباؤُهم على الكفر[2]، فأُريد حسمُ أطماعِهم أن ينفعوا آباءَهم بالشفاعة في الآخرة؛ ومعنى

---

(١) انظر «المحتسب» لابن جني (٢/ ١٧٠).

(٢) عِلْيَتُهم: أشرافُهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾

التأكيد في لفظ المولود: أن الواحد منهم لو شفعَ للأب الأدنى الذي وُلِدَ منه.. لم تُقبل شفاعتُه فضلاً أن يشفع لأجداده؛ إذ الولدُ يقعُ على الولد، وولدِ الولدِ، بخلاف المولود؛ فإنه لِمَنْ وُلِدَ منك، كذا في «الكشاف»[١]، ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعثِ والحسابِ والجزاءِ ﴿حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بزينتها؛ فإن نعمتَها دانيةٌ، ولذَّتَها فانيةٌ، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾: الشيطانُ أو الدنيا أو الأمل.

《٣٤》 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وقتُ قيامِها، ﴿وَيُنَزِّلُ﴾: بالتشديد: شاميٌّ ومدنيٌّ وعاصمٌ[٢]، وهو عطفٌ على ما يقتضيه الظرف من الفعل، تقديرُه: إن الله يَثبتُ عنده علم الساعة، وينزلُ ﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾ في إبَّانِه، من غير تقديم ولا تأخير، ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ أذَكرٌ أم أنثى، تامٌّ أم ناقصٌ، ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ﴾ بَرَّةٌ أو فاجرةٌ ﴿مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ من خير أو شرٍّ، وربما كانت عازمةً على خيرٍ فعملت شرّاً، أو عازمةً على شرٍّ فعملت خيراً، ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ أي: أين تموت، وربما أقامت بأرضٍ، وضربت أوتادَها، وقالت: لا أَبْرَحُها، فترمي بها مرامي القدر حتى تموتَ في مكان لم يَخطُرْ ببالها، روي: أن ملك الموت مرَّ على سليمان فجعل ينظرُ إلى رجل من جلسائه، فقال الرجل: من هذا؟ قال له: ملكُ الموت، قال: كأنه يُريدُني، وسأل سليمان عليه السلام أن يحمله على الريح، ويلقيَه ببلاد الهند، ففعل، ثم قال ملكُ الموت لسليمان: كان دوامُ نظري إليه تعجُّباً منه؛ لأني أُمرتُ أن أقبض روحه بالهند، وهو عندك.

وجُعلَ العلمُ لله، والدِّرايةُ للعبيد؛ لما في الدراية من معنى الخَتْلِ والحيلة[٣]؛ والمعنى: أنها لا تعرفُ وإن أعملت حِيَلَها.. ما يختصُّ بها، ولا شيءَ أخصُّ بالإنسان من كسبه وعاقبته، فإذا لم يكن له طريقٌ إلى معرفتهما.. كان من معرفةُ ما عداهما أبعدَ، وأما المنجمُ الذي يُخبرُ بوقتِ الغيثِ والموتِ.. فإنه يقول بالقياس والنظرِ في الطالع، وما يُدرَكُ بالدليل.. لا يكون غيباً؛ على أنه مجرد الظن، والظنُّ غيرُ العلم، وعن النبي ﷺ: «مفاتح الغيب خمسٌ»، وتلا هذه

---

(١) انظر «الكشاف» (٣/ ٥١١).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥١).

(٣) الختل: الخديعة.

....

الآية[١]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من ادعى علمَ هذه الخمسةِ.. فقد كذب. ورأى المنصورُ في منامه صورةَ مَلَكِ الموت، وسأله عن مدة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبَّرَها المعبرون بخمس سنوات، وبخمسة أشهر، وبخمسة أيام، فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: هو إشارةٌ إلى هذه الآية؛ فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بالغيوب، ﴿خَبِيرٌۢ ۝٣٤﴾ بما كان وبما يكون، وعن الزهري رضي الله تعالى عنه: أكثروا قراءةَ (سورة لقمان)؛ فإن فيها أعاجيبَ.



(١) رواه البخاري (٤٦٢٧)، عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما.

فهرس الموضوعات